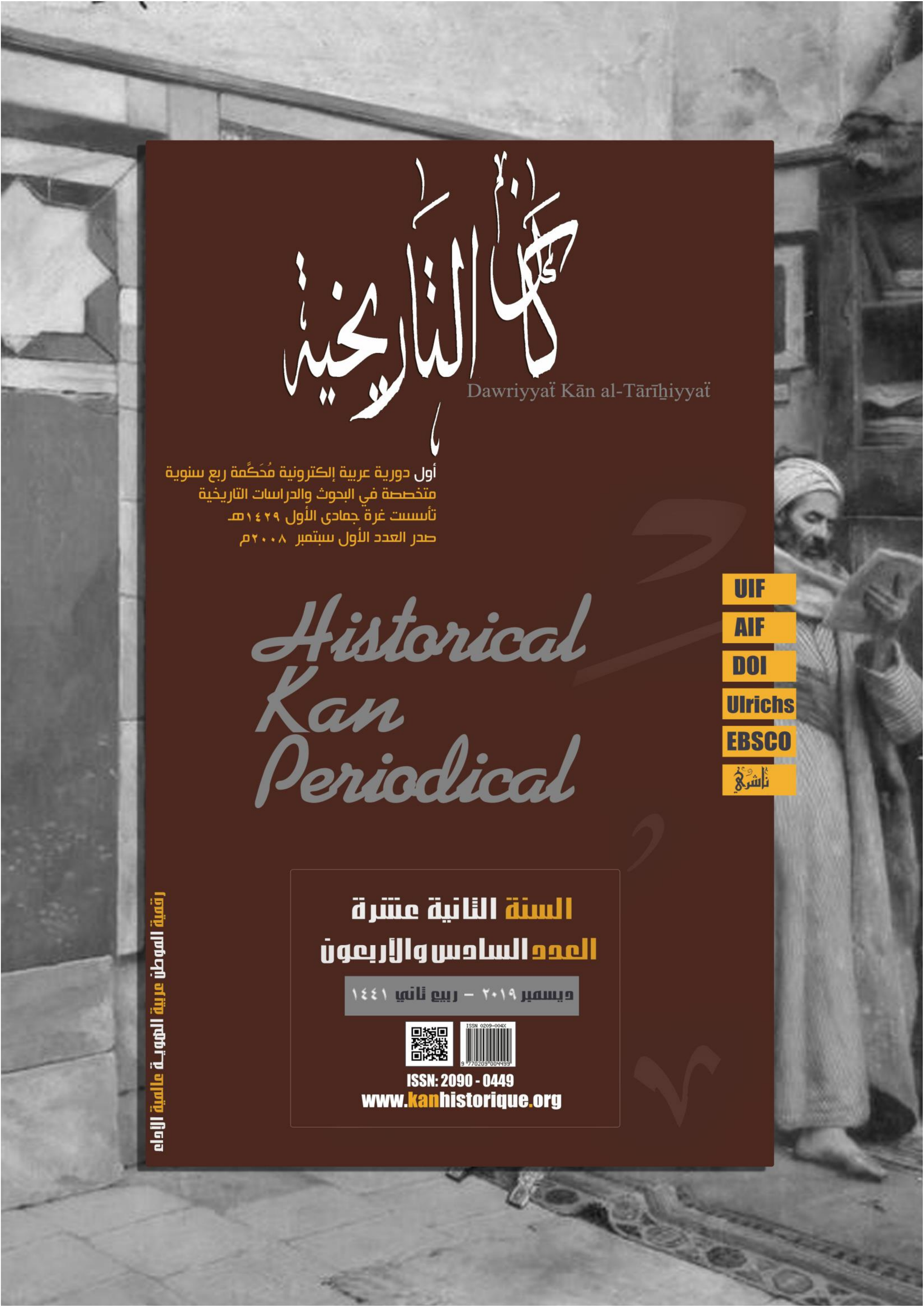

كان التاريخية
Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م
Historical
Kan
Periodical
UIF
AIF
DOI
Ulrichs
EBSCO
ناشري
السنة الثانية عشرة
العدد السادس والأربعون
ديسمبر ٢٠١٩ – ربيع ثاني ١٤٤١
ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org
رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء



دورية كان التاريخية.- س١٢، ع٤٦ (ديسمبر ٢٠١٩/ ربيع ثاني ١٤٤١)

Dawriyyať Kān al-Tārīḫiyyať
Iliktrūniyyať, muḥakkamať , rub' sanawiyyať
Vol. 12, no. 46 [December 2019]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2019/Issue46

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٩.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2019.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات البيبليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org



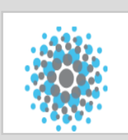
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

كُتّاب الدورية	490
الدول العربية والأجنبية	29
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	144
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	866

المشرف العام

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام

هيئة التحرير





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

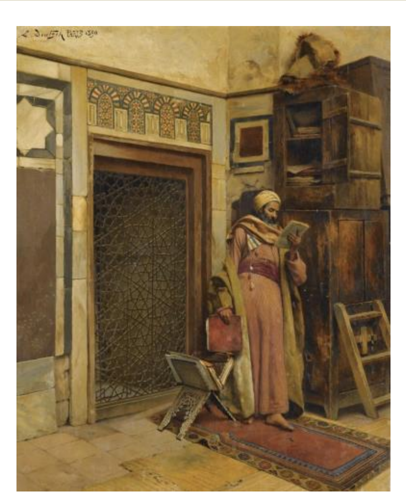
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



THE SCHOLAR
LUDWIG DEUTSCH
(Austrian, 1855-1935)

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com

historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.



الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتازت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَّشَر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألّا يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بـالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.
- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).
- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.
- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.
- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.
- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".
- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.
- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).
- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.
- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)
- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.
- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.
- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

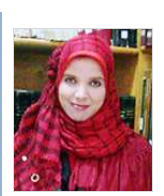
- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَياتُ الْعَدَدِ



ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الزعيم ومكانته الاجتماعية في مصر
خلال عصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات



د. زينب عبد التواب رياض
مدرس آثار مصرية قديمة
كلية الآثار – جامعة أسوان
أسوان – جمهورية مصر العربية

مُلَخّص

عرفت مصر الاستقرار بشكل واضح منذ العصر الحجري الحديث، وصاحب هذا الاستقرار نشأة القرى والمدن، ولا شك أن هذا الاستقرار كان قد تطلب وجود حاكم أو زعيم في كل قرية كي يضمن أمن وسلامة القرية وانتظام الحياة فيها، ولقد أوضحت الأدلة الأثرية أهمية الحاكم أو الزعيم سواء من خلال النقوش الصخرية، أو من خلال عادات الدفن ومدى ثراء المقابر بما حوته من متاع جنائزي أشار إلى أهمية المقبرة ومكانة صاحبها. لم يكن الزعيم في عصور ما قبل التاريخ مجرد حاكم للقرية له الكلمة العليا على أهلها فقط، وإنما كان أيضًا عراف القرية وطبيبها، وكان حلقة الوصل بين أهل القرية وبين الإله أو القوة الغيبية العظمى التي يأملوا أن يتصلوا بها من خلال هذا الزعيم، ولقد تميز الزعيم بهيئته المميزة ولباسه لاسيما غطاء الرأس الريشي الذي ظهر على رأسه في العديد من النقوش الصخرية بالعديد من مواقع الصحراوات المصرية الشرقية والغربية خلال عصور ما قبل التاريخ، وما زال زعيم القرية له الدور نفسه والأهمية في العديد من القبائل البدائية في أفريقيا حتى الآن. وزعيم القرية إلى جانب كل ذلك كان هو كبير الرعاة في رحلة الصيد، بل كان هو الذي يضمن نجاح وازدياد حصيلة الصيد برقصاته الطقسية وتقمصه لهيئات العديد من الأشكال الحيوانية التي كان أهل القرية يرغبوا في اصطيادها، كأن يقلد هيئة وعل أو غزال أو أسد أو يرتدي قناع أو قرون حيوانية بُغية إخافة الحيوانات والإيقاع بها وصيدها. إذن فزعيم القرية كان بمثابة المحرك للقرية والمدعم لها والمسيطر على أهلها في إيقاع منتظم ليس به أي شذوذ. وبالتدريج أصبحت سمات الزعيم جزء من صفات الحاكم في عصر بداية الأسرات، فكان من الصعب حينئذ أن يتم الفصل بين الزعيم كقائد والزعيم كحاكم، فأصبحت الزعامة أحد أهم صفات الملك الحاكم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣١ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

القائد؛ الزعيم؛ الحاكم؛ القرية؛ المجتمع؛ الرعي؛ الصيد؛ الاستقرار

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057039

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زينب عبد التواب رياض. "الزعيم ومكانته الاجتماعية في مصر خلال عصور ما قبل التاريخ وبداية الأسرات".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ١٠ – ٢٥.

مُقَدِّمَة

إن الزعامة من الأمور الهامة التي كان لها مكانتها في عصور ما قبل التاريخ، إذ كان الزعيم بمثابة المنظم للمجتمع والموجه له، ومن ثَمَّ يحاول البحث إلقاء الضوء على دور الزعيم في عصور ما قبل التاريخ في مصر وما آل إليه هذا الدور في عصر ما قبل وبداية الأسرات.

مَنْ هو القائد، ومَنْ هو المقصود بالزعيم، وهل الزعامة المقصودة بالبحث هي زعامة الحكم أم زعامة القيادة العُرفية؟ وهل الزعيم كان هو نفسه الحاكم أو الملك أم أن الزعامة كانت صفة تحولت فيما

بعد إلى الحاكم واتصف بها الملوك الأوائل؟ تساؤلات عدة سيتناولها البحث بالشرح والتفسير في حقبة زمنية لم تعرف الكتابة صراحة إلا في نهايتها (بمشارف الألف الثالث ق.م)، ومن ثَمَّ فالفيصل في الإجابة على هذه التساؤلات إنما يتأتى من خلال دراسة الأدلة الأثرية المتنوعة من نقوش ورسوم صخرية، ومقابر ذات أهمية ودلالة اجتماعية واضحة.

هناك بعض الدراسات التي أشارت إلى طبيعة الحياة في مصر في عصور ما قبل التاريخ من خلال النقوش الصخرية، وكان من بين هذه الدراسات:

Fuchs, G., Rock engravings in the Wadi el-Barramiya, Eastern Desert of Egypt, The African Archaeological Review, 7 (1989), pp. 127-153

Svoboda, J., action, ritual, and myth in the rock art of Egyptian western desert, in: Anthropologie, vol. XLVII/1–2, 2009, pp. 159–167.

وهناك دراسات أخرى أشارت إلى الوضع الاجتماعي في مصر في عصر ما قبل وبداية الأسرات، وكان من بين هذه الدراسات:

Fattovich, R., Remarks about the study of predynastic Egypt, Rivista degli studi orientali, Nuova Serie, Vol. 85, Fasc. 1/4 (2012), pp. 257-278

Hassan, F.A., The Predynastic of Egypt, Journal of World Prehistory, Vol. 2, No 2 (June 1988), pp. 135-185

Hoffman, M.A., the Social Context of Trash Disposal in an Early Dynastic Egyptian Town, American Antiquity, Vol. 39, No. 1 (Jan. 1974), pp. 35-50

Wenke, R. J., The Evolution of Early Egyptian Civilization: Issues and Evidence, Journal of World Prehistory, Vol. 5, No. 3 (September 1991), pp. 279-329

Wilkinson, T. A. H., Early Dynastic Egypt, London and New York, 1999.

ولقد ساعدت هذه الدراسات في محاولة وضع تصور للزعيم ودوره الاجتماعي في مصر خلال عصور ما قبل التاريخ حتى عصر بداية الأسرات، لا سيما وأن الزعامة في عصور ما قبل التاريخ كانت معنوية وذات طابع اجتماعي، فلم يكن القائد أو الزعيم بحاجة إلى مواصفات القيادة المفترضة عند جماعات جمع الطعام غير المنتظم والمتمثلة في القوة والشجاعة والمهارة، ولكنها كانت تحتاج إلى مواصفات أخرى تتمثل في الحكمة والسياسة والذكاء الاجتماعي والقدرة على التعامل بين مختلف الأفراد، ومن ثَمَّ يمكن القول أن القائد أو الزعيم آنذاك كان هو كبير القوم أو شيخ القبيلة أو العشيرة. (أبو غنيمة، ٢٠١٠، ص ١٥٢)

ومن الجدير بالذكر أن البحث لن يشير في طياته إلى ملوك عصر بداية الأسرات تفصيلًا، فلقد تمت الإشارة إليهم في العديد من الدراسات السابقة، وإنما سيوضح البحث الفرق بين زعيم القرية أو القبيلة، والحاكم أو الملك في تلك الفترة الزمنية، وهل كان للزعيم دور واضح في ظل ظهور الملكية؟

وللدراسة أهميتها إذ تُوضح الفارق الدقيق بين الزعيم القائد والزعيم الحاكم، فالأول هو الذي تعنيه الدراسة، وهو أحد صفوة القوم الذي كان له كلمته العليا بين أفراد قبيلته أو قريته، أما الثاني فهو الحاكم أو الملك وهو القائم على حكم مصر بقطريها الشمالي والجنوبي.

١-التنظيم الاجتماعي ومراحل تطوره

إن الحديث عن التنظيم الاجتماعي أو شكل المجتمع في مصر خلال عصور ما قبل التاريخ يعد من الأمور الصعبة والشاقة في ظل غياب الوثائق الكتابية التي تتحدث عن طبيعة الحياة الاجتماعية التي عاشها المصري القديم آنذاك، وربما كانت الأنماط المعيشية التي اعتمدها إنسان ما قبل التاريخ في حياته الاقتصادية كان لها الدور الأساسي والواضح في شكل التشكيلات الاجتماعية. (أبو غنيمة، ٢٠١٠، ص ١٣٨) ولا يمكن الجذم يقينًا بوجود هيكل إداري بالمعنى المتعارف عليه في مصر خلال عصور ما قبل التاريخ، إلا أنه يمكن القول إن الوظائف والأدوار الرئيسة للقيادة في المجتمع البدائي كانت جماعية تقليدية، وليست سياسية أو دنيوية. (مونتاغيو، ١٩٨٢، ص ١٣٨)

فلقد عاش الإنسان في العصر الحجري القديم بمراحله الثلاث (الأسفل والأوسط والأعلى) على شكل جماعات متنقلة، اعتمد على الصيد والالتقاط والجمع كأسلوب اقتصادي لتأمين مستلزمات المعيشة، وبناء على ذلك فإنه كان دائم التنقل بحثًا عن الطعام ولم يعرف الاستقرار الدائم بل سكن الكهوف والملاجئ الصخرية وأماكن العراء، مما يعني صعوبة وضع تصور لطبيعة الحياة الاجتماعية آنذاك، وإن كانت بطبيعة الحال حياة بسيطة تعتمد على اقتصاد اليوم الواحد.

ولقد اتسم هذا النمط المعيشي بالاعتماد الكامل على الطبيعية في توفير طعام الإنسان؛ دون تدخل فعلي من الإنسان في عملية إنتاج الطعام، كما امتازت هذه المرحلة بالملكية العامة فالأرض وما عليها ملك للجميع، لم يكن لفرد بعينه شيئًا فيها، فلم يكن هناك ما يعرف بالملكية الخاصة، وإنما كانت الملكية جماعية لأفراد الجماعة البشرية كلّها التي تُشكل بنية اجتماعية أو نسقًا اجتماعيًا قائمًا بذاته. (أبو غنيمة، ٢٠١٠، ص ١٤٠)

وهكذا أدت طبيعة البيئة والمكان إلى اعتماد المصري القديم في البداية على حرفة الصيد والجمع والالتقاط في العصر الحجري القديم، وقضت تلك الحرفة بضرورة أن يكون هناك تنظيم اجتماعي من نوع ما يمنع إغارة أي قبيلة على الأخرى، وذلك كأي مجتمع بدائي بسيط، وكانت كل قبيلة تتخذ نظامًا اجتماعيًا يهيئ لها أسباب الدفاع عن تلك الحقوق بما في ذلك التماسك والترابط ووجود رئيس يقبض على زمام الأمور. (جراية، ٢٠١٧، ص ٢٢٧)

وبعد تحول الإنسان من حياة التنقل والترحال إلى حياة الاستقرار في مكان واحد سواء في قرية أو قبيلة، كان لابد من وجود سلطة أو قيادة تنظم المجتمع، وتُسير أمور القرية وتحل النزاعات بين أفرادها، لا سيما وأنه كان قد ترتب على ممارسة الإنسان للزراعة توفر فائض في بعض المناطق وحرمان مناطق أخرى، مما أوجد صراعات تطلبت وجود قوة سياسيه معنية بحماية المحصول، وقد أدى ذلك إلى ظهور طبقات متباينة فيما عُرف بالتركيب الاجتماعي. (خليفة، ٢٠١٨، ص ١٣٦)

ولا شك أن تجمع المساكن أدى إلى ظهور القرى ونشأة المجتمع القروي أو القبلي على أقل تقدير خلال العصر الحجري الحديث، مما أدى إلى ظهور العديد من العادات والتقاليد الاجتماعية التي تطلب تطبيقها وجود زعيم وقائد يسيطر على مجريات الأمور لاسيما بعد ازدياد عدد السكان ومعرفة الزراعة (Raffaele, 2003, P.102)، ووقع هذا الدور على شيوخ أو زعماء القبيلة مما أدى إلى خلق النواة الأولى لظهور الكيانات السياسية إبان فترة فجر التاريخ. (جراية، ٢٠١٧، ص ٢٢٩)

وكانت الأدلة الأثرية خير شاهد على ذلك ليس فقط في وادي النيل ودلتاه، وإنما أيضًا في صحراوات مصر الشرقية والغربية، فقد عُثر في منطقة النبتة بالصحراء الغربية خلال العصر الحجري الحديث على مجموعات من صخور الميجاليث ودوائر لحساب فصول السنة وقبور ركامية (خليفة، ٢٠١٨، ص ١٤٠) ، ولابد وأن تكون مثل هذه التكوينات الصخرية المتعمدة قد تطلب تشييدها تنظيما اجتماعيًا لا يكتمل إلا بوجود زعيم أو قائد للمجموعة، ولأن الشيء بالشيء يذكر فلا شك أن صناعة كلٍ من الفخار والأدوات الحجرية كان أيضًا قد تطلب وجود تنظيم اجتماعي من نوع ما أثمر عن تطور معرفة صناعة الفخار بتقنياته المعقدة. (خليفة، ٢٠١٨، ص ١٤٠)

ويمكن تأريخ بداية ظهور التنظيم الاجتماعي في مصر القديمة إلى النصف الأول من الألف الرابع ق.م (Fattovich, 2012, P.259) وذلك بناء على الدراسات الإحصائية والقياسات التأريخية للعديد من البقايا الأثرية التي عثر عليها في مواقع أُرخت بعصور ما قبل التاريخ وبداية عصر الأسرات. (Hassan, and Serrano, 2006, P.687) فمنذ نهاية الألف الرابع ق.م أصبح تركيب المجتمع المصري أكثر وضوحًا وعُرفت فيه سمات القوة والتنظيم السياسي، وظهر عدد من الأفراد ملكوا زمام الأمور آنذاك (Fattovich, 2012, P.266) كانوا هم زعماء أو حكام الأقاليم وكانت لهم مقابر خاصة في جبانات منفصلة. (Tassie, 2008, P.25) ولقد تبين وجود وضع اجتماعي منظم في العديد من مواقع عصور ما قبل وبداية الأسرات في مصر، وكان لكل منطقة أو مجتمع زعيم قائم على تنظيمه داخليًا، وتطلب ذلك وجود قوة اقتصادية وسياسية لكل مجتمع من هذه المجتمعات، وكان على رأس هذه المواقع ذات التركيب الاجتماعي المنظم منطقة "نخن" أو "هيراكونبوليس" (Hoffman, 1974, P.35, 40) وتعد هذه المنطقة من أهم المناطق الأثرية التي حوت بين جنباتها العديد من الأدلة الأثرية الدنيوية والجنائزية والدينية التي تؤكد وجود تنظيم اجتماعي وإدارة حاكمة لولاها ما ظهرت تلك السمات الحضارية على أرض الواقع.(Hoffman, 1974, P.35, 38)

ولقد ظهرت في مصر بوضوح السلطة الملكية تقريبًا منذ ٣٢٠٠ق.م، وكان الظهور الأول للسلطة الملكية قد بزغ في الصعيد، وسرعان ما تأسست عواصم مصر الأولى "هيراكونبوليس/ نخن، نقادة، وأبيدوس" (عبد العظيم، ٢٠١٢، ص ٩٣) وفي عصر قبيل وبداية الأسرات (الأسرة صفر والأسرة الأولى٣١٠٠ق.م، والأسرة الثانية ٢٩٠٠- ٢٦٤٩ق.م) رسخت السلطة الملكية وزادت العلاقات التجارية بين مصر وجيرانها وزادت البعثات الخارجية والغزوات لمواجهة القوى

الأجنبية (Wing, 2015, P.13) ، ولا شك أن ذلك يؤكد على وجود تنظيم اجتماعي وزعيم ينظم مثل تلك العلاقات التجارية والبعثات الخارجية، ولعل العثور على العديد من القطع الأثرية التي تحمل سمات الفن الفلسطيني في العديد من مواقع شمال مصر- لاسيما المعادي وحلوان بمصر، ليعد أكبر دليل على تأكيد وجود مجتمع منظم، وزعيم قائم على تنظيم أعمال الرحلات التجارية المتبادلة بين مصر وجيرانها آنذاك (Harrison, 1933, PP.81-85) . وفي عصر- بداية الأسرات كانت مصر تتكون من أكثر من مركز سياسي وأكثر من إقليم، وكانت جميع تلك المراكز تخضع لحكم قوة منظمة واحدة (Wing, 2015, P.13)، وخضعت جميع الأقاليم لسيطرة ملك واحد.(Tassie, 2008, P.25).

وهكذا تطور المجتمع المصري القديم بدءً من مرحلة ما قبل الاستقلال إلى مرحلة الاستقلال الكامل، وكان هذا التطور قد بدأ تدريجيًا من عصر- ما قبل الأسرات حتى وضح تمام الوضوح في عصر- بداية الأسرات.

٢-الدور الاجتماعي للزعيم أو القائد في عصور ما قبل التاريخ

يصعب وصف طبيعة دور الزعيم وطبيعة العلاقات الاجتماعية في مجتمع عصور ما قبل التاريخ، إذ كلما توغلنا في القدم كلما ازدادت صعوبة إظهار الوصف الدقيق للعلاقات الاجتماعية، ففي العصور الحجرية كان الأمر أقرب إلى الافتراض وذلك لانعدام المادة المكتوبة وقلة البقايا الأثرية المتخلفة، مما يجعل الأمر أقرب إلى التخمين منه إلى اليقين، ولكن الأمر المؤكد أنه لم يكن هناك "مجتمع" بالمعنى المتعارف عليه، إذ أن الأمر لا يعدو أكثر من مجرد تجمعات بشرية دلت عليها كثرة وجود أطلال سكنية أو مواقد أو عادات الدفن الجماعية في بعض الأحيان، والرسوم الصخرية في أحيان أخرى. واعتماداً على الافتراض والتخمين، وتطبيقًا لما هو عليه الحال الآن في العديد من القبائل البدائية يمكن وضع تصور لمكانة ووضع الزعيم خلال عصور ما قبل التاريخ، فالزعيم كان هو كاهن القرية أو العراف، وهو حلقة الوصل بين الأحفاد والأسلاف، وهو القائم على تنظيم العمل، كما كان يمارس سلطته في فض المنازعات وإرساء السلم في منطقته، ومن ثم فهو يقوم بواجبات لها طبيعة سياسية قضائية إن صح التعبير. (مونتاغيو، ١٩٨٢، ص ١٤٤)

ومن ثَـمَّ فقد كان منصب الزعيم في القرى والقبائل البدائية يفوز به من يتصف بالحكمة والشجاعة والإقدام والقوة والدراية بالطقوس الدينية وممارساتها ليكون لديه إمكانية قيادة المحاربين عن الضرورة، وأن يدبر مهام منطقته، وربما كانت الزعامة تورث في عائلات معينة. (جراية، ٢٠١٧، ص ٢٣١)

وينال زعيم العشيرة أو أب العائلة الاحترام باعتباره يمثل رأس العائلة أو القبيلة، ويكون زعيم العشيرة في الكثير من المجتمعات هو بكل بساطة أكبر أعضائها سنًا، واحترام هذه الشخصيات أمر رمزي يدل على احترام التقاليد أي على احترام الذات، وهو ليس نتاج الإجبار ولا هو فعل اجتماعي مفروض فرضا. (مونتاغيو، ١٩٨٢، ص ١٣٨)

وما يزال دور الزعيم قائم وملموس في العديد من القبائل البدائية في قارة أفريقيا، إذ يُنظر إليه كما لو كان حلقة وصل بينهم وبين الإله، فهو عراف القرية وزعيمها، وهو المعالج الروحي، وهو المتحكم في عملية الصيد والسيطرة على الحيوانات بما يؤدي من رقصات طقسية.

٣-الزعيم كما أظهرته النقوش الصخرية

عُثر على العديد من النقوش والرسوم الصخرية في الصحراوات المصرية التي تبين بدراستها وجود تنوع في المواضيع الفنية وثراء بما كانت تحتويه من مفردات بيئية أشارت إلى إمكانية العيش بها خلال عصور ما قبل التاريخ، فمن المعروف أن الصحراوات المصرية الشرقية والغربية كانت منذ عشرة آلاف عام مضت وفيرة الأمطار والمياه والنباتات، وكانت تعيش فيها العديد من الأنواع الحيوانية والطيور، فكانت الجماعات البشرية آنذاك لا تبذل مجهود في حصولها على الطعام بالجمع والالتقاط، إلى أن حل الجفاف فانتقلت تلك الجماعات من الصحراوات إلى وادي النيل ودلتاه، وتطورت المرحلة الحضارية من الجمع والصيد والالتقاط إلى إنتاج الطعام. (السويفي، ٢٠٠١، ص ٥٩)

ولا شك أن أي جماعة بشرية لا بد لها من قائد أو زعيم يدبر أمورها، ولقد عبر الفنان المصري القديم عن الزعيم أو كبير القوم بسمات معينة سواء من خلال إظهاره بهيئة أكبر من المحيطين به، أو من خلال تمييزه بسمات معينة كجعله يرتدي غطاء للرأس من الريش أو أن يمسك عصا في يده (Darnell, 2009, P.86)، وهي أمور استمرت وتطورت منذ عصور ما قبل التاريخ، وظهرت بوضوح خلال عصر- ما قبل وقبيل

الأسرات ورسخت خلال عصر الدولة القديمة. (Svoboda, 2009, P.160) فلقد تميزت الشخصيات ذات المكانة الاجتماعية في الرسوم الصخرية بارتداء أغطية للرأس من الريش، فبدت هيئاتهم بظهور الريش وكأنه يخرج من رؤوسهم، وكذلك ذيول الحيوانات التي كانت تتدلى من مؤخراتهم، وقد تشير هذه الهيئات إما إلى طبقة النخبة، أو إلى مشايخ أو زعماء القبيلة، حيث كانت مكانتهم الاجتماعية مهمة، ومن ثم كان الحرص على إظهارهم بتلك الهيئات تمامًا كما لو كانوا في وقت الصيد، فقد كانت النخبة في الماضي تجمع هيئاتهم بين الريش والذيل أثناء عمليات الصيد الناجحة، وكان ارتدائها فيه دليل على خبرة الصياد الذي بهيئته تلك يعمل على وجود ألفة بينه وبين الحيوانات.(Wing, 2015, P.166)

وكان تزيين الرأس بالريش من السمات الواضحة لاسيما في النقوش الصخرية التي عثر عليها في العديد من مواقع الصحراء الشرقية والغربية، وقد اقترنت تلك الهيئات الآدمية ذوات غطاء الرأس الريشي بمناظر القوارب المختلفة وبرفع الأيدي لأعلى. (عطا الله، ٢٠٠٥، ص ١٦٤) ولقد اختلفت أعداد الريش في أغطية الرأس بتلك المناظر، فبعض الرجال صور بريشة واحدة فقط أو بريشتين، ونادرا ما يزيد العدد عن ذلك. ففي وادي البرامية بالصحراء الشرقية عثر على نقوش صخرية تجمع بين هيئات آدمية وأشكال لقوارب، كان منها منظر لقارب يعلوه طاقم من حوالي ثلاثين رجل تنوعت هيئاتهم بين الهيئات الآدمية، والهيئات الآدمية ذات القرون الحيوانية (آدمية وحيوانية معًا) هذا بخلاف تركيز الفنان على إظهار العديد من الأشكال الحيوانية ويتصدر المنظر اثنين من الرجال يقفا بجوار الحيوان الأكبر حجمًا في المنظر، وعلى رأس كل واحد منهم اثنين من الريش.(Fuchs, 1989, P.139) ربما كإشارة إلى دورهما القيادي وتصدرهما لهذا المشهد.

وفي نقش أخر عُثر على منظر ظهر فيه رجل يعلو مركب، وكان مادًا ذراعيه إلى الخارج واضعًا على رأسه ريشة واحدة ربما كان هو قبطان المركب (شكل:١/أ)، وفي الموقع Mo-1 بوادي منيح جنوب مصر بالصحراء الشرقية أيضًا عثر على مناظر تحوي هيئات عده لرجال تنوعت أوضاعهم منهم رجل كانت تعلو رأسه ريشتين (شكل:١/ب) ومنهم من كان يضع فوق رأسه أكثر من ذلك، وتكرر الأمر نفسه في الموقع رقم AB-2 بوادي العطواني، والموقع رقم DTF-2 من "وادي أبو مركب النس" وموقع رقم DR-1 من منطقة وادي البرامية. (عطا الله، ٢٠٠٥، ص ١٦٤) ويفسر عطا الله معنى وأهمية تزيين الرأس بالريش قائلًا إن هذه المناظر قد ارتبطت بالمراكب وبقادتها أو أولئك الذين يشرفون عليها، كما ارتبطت في جزء آخر منها باستعراض القوة، والذي عبر عنه الإمساك بالمقمعة والعصا وغيرهما، وأشار عطا الله إلى أن الأشكال التي ترفع أيديها إلى أعلى لابد وأنها تشير إلى نوع من الرقص الطقسي. (عطا الله، ٢٠٠٥، ص ١٦٥)

أما الراشدي فقد ربط بين الهيئات ذوات غطاء الرأس الريشي وبين الليبيين مستندًا في ذلك الى ظهورهم على العديد من آثار عصر ما قبل الأسرات، وكانوا يمثلون ملتحيين ويزين شعورهم الريش ويرتدون جراب العورة ولهم ذيول تتدلى من أرديتهم. (الراشدي، ٢٠١٥، ص ٦) إلا أن هذا الرأي ضعيف، إذ ظهرت ملوك عصر بداية الأسرات بالنقبة التي يتدلى منها ذيل، وكانوا من أصول مصرية غير ليبية، هذا إلى جانب أن الريش لازال لدى العديد من القبائل البدائية في جنوب أفريقيا يرتديه رجال الدين والسحرة لديهم، أي أنه سمة ترتبط بالتمييز الديني والاجتماعي وليس بشعب دون سواه.

وكثيرًا ما صورت هيئات تلك الرجال ذوات غطاء الرأس الريشي وقد أمسكت أيديهم بالأقواس أو بالعصي، كأن يمسك الرجل في يده قوس أو عصى إشارة إلى قدرته على الصيد، وإشارة إلى كونه القائد أو الزعيم في عملية الصيد المصورة بتلك المناظر. بل وأحيانًا صور ممسكًا بمقمعة إشارة إلى استعراض القوة والنصر والتغلب على الأعداء، وهو مشهد استمر طوال الحضارة المصرية القديمة كتقليد متبع يدل على النصر والغلبة. (عطا الله، ٢٠٠٥، ص ١٦٥) ويرى Raffaele أن المقمعة كأحد رموز النصر والحكم كان ظهورها قد وضح منذ نهاية عصر الأسرة صفر، واقترن ظهور المقمعة في أغلب الأحيان بمناظر تأديب الأعداء وقطع رؤوسهم.(Raffaele, 2003, P.101)

وعلى الضفة الغربية بأسوان عثر على العديد من النقوش الصخرية التي عبرت في بعض الأحيان عن الوضع الاجتماعي في عصور ما قبل التاريخ، ووضع الزعيم أو القائد وهيأته التي كان عليها، والرموز التي كانت مصاحبة له، والتي اعتبرت بدلالتها البداية الأولى للرموز الملكية التي عرفت في عصر ما قبل وبداية الأسرات.(Storemyr, 2007, P.164) ففي خور أبي سبيرة على الجانب الشرقي للنيل على بعد ١٢ كم

شـمال أسـوان بالصـحراء الشرـقية (Storemyr and Kelany, 2008, P.155) عـثر عـلى العديـد مـن النقـوش الصخرية كان من بينها منظر لقـارب منجلي الشكل ذو نهايـات شـبه بيضـاوية يحتـوي عـلى العديـد مـن المجاديف، يتوسط القارب كابينة، بجانب الكابينـة شعار ربما كان رمز ما أو نوع من أنـواع الزخـارف التـي ظهـرت كثـيرا في العديــد مــن مواقــع الصــحراء الشرــقية والغربيـة، وعـلى ظهـر القـارب يوجـد سـتة أشـخاص أغلبهم ممسك بعصا والبعض يـزين رأسـه ريشـة ربمـا هــم مــن الصــفوة أو يمثلــون زعــماء، هــذا القــارب مسحوب بحبل يجره حوالي ٢٦ شخص. (شكل:٢) ويشير المنظـر بمـا لا يـدعو مجـال للشـك إلى وجـود تركيـب اجتماعي من نوع ما تطلـب معـه الأمـر وجـود زعـيم أو قائد يتولى أمر تنظيم العمل على هذا القـارب محـدداً دور كل رجل على متن هذا القارب ومحدداً حركة السير وحركـة المجـاديف في تلـك الرحلـة المائيـة. (أبـو بكـر، ٢٠١٦، ص ٣٦، شكل ١٨)

وفى غرب أسوان في المنطقة الممتدة مـن غـرب سـهيل إلى وادي الكوبانيــة (Storemyr, 2008,P.61) وبالتحديد على جزيرة صخرية تبعد حوالي ٥كم شـمال أسوان، و٥’٣ كم غرب النيل بالقرب من موقع Winkler 53 عـثر عـلى العديـد مـن النقـوش الصـخرية البسـيطة التـي اشـتملت عـلى العديـد مـن الأشـكال الحيوانيـة والهندسـية وعــلى العديــد مــن الأشــكال الآدميــة البسيطة ومناظر لقوارب عده، ولقد تميز الـزعيم في هـذه المنظـر بإمسـاكه العصـا. (شـكل:٣) (Storemyr, 2009, P.123)

ولقـد عـثر عـلى رسـوم صـخرية متشـابهة مـع مواضيـع رسـوم فخـار الحضـارة النقاديـة سـواء في طبيعـة شـكل الهيئـات الآدميـة أو أشـكال المراكـب المصاحبة لها بأنواعها المختلفـة (الحديـدي، ٢٠٠٠، ص ٨٦، ١٥١) ففـي أحـد منـاظر الرسـوم الصـخرية التـي عـثر عليهـا في المنطقـة الواقعـة بـين جبـل تنجـار ووادي الفراس والتي تؤرخ ببداية الألف الثالث ق.م عثر عـلى منظر لقارب من القوارب ذات المجـاديف، يعلـوه هيـأة آدمية لرجل يرتدى على رأسه غطـاء للـرأس يشـبه تـاج الوجـه القبلي الأبـيض، وبجانبـه مـا يشـبه سـاري علـم يعلوه رمز حيواني، وربما كانت تلك القارب قارب ملكية (Storemyr, 2007, P.169, fig.10)

وعُـثر في منطقـة الحمـد لاب شـمال غـرب أسـوان على العديد مـن المنـاظر التـي تعـد تـأريخ لأول ظهـور للقوارب الملكيـة، ففـي (شـكل: ٤) يتبـين وجـود مركـب ذات مجـاديف يتوسـطها كابينـة يعلوهـا رجـل واقفـاً وممسـكاً بعصا ويعلـو رأسـه مـا يشـبه التـاج الأبـيض، وأمامه ساري يعلوه رمز الويب واووت "فاتح الطـرق". وفي منطقـة الحمـد لاب أيضًـا تـم الكشـف عـن أقـدم منظر لملك يرتدى تاج الوجـه القـبلي (شـكل: ٥) وذلـك ضمن مجموعة من المناظر الملكيـة التـي ترجـع لعصرـ الأسرة «صفر» وبدء معرفة الكتابـة المصرـية القديمـة حوالي (٣٢٠٠ ق.م) (Gatto, 2012, PP.2-3)

وفي وادي أبي واصل بالصحراء الشرقية عثر عـلى منظر يؤرخ تقريبًا بعصرـ نقـادة الثالثـة، يتبـين بـالمنظر وجـود شـكل آدمـي ذو غطـاء للـرأس بـه ثـلاث ريشـات (شكل:٦) وهو مرسوم بشكل أفقـي بالنسـبة للأشـكال الأخرى، ذو أذرع ممتدة من الكوع بشكل واضح، كـما أن الأيـدي كبـيرة أيضًـا، وذو أرجـل ممتـدة حـول حافـة الصخرة. (أبو بكر، ٢٠١٦، ص ١٠٨) ولعـل هـذا المنظـر لتـك الهيأة الآدمية غريبة الملامح يذكرنا بوظيفة الزعيم أو كبـير القـوم بأنـه كـاهن أو عـراف القريـة أو القبيلـة، فإظهار الفنان له بصفات تجمع بين الآدمية والحيوانيـة لاسيما في منطقة العجز التي أظهرهـا الفنـان قريبـة من شكل جسم الأبقار أو الفصيلة البقرية، يؤكد وجهة النظـر هـذه، وتصـويره لتلـك الهيـأة الآدميـة بطريقـة أفقية دون سواها يؤكد أيضًا حرص الفنان على تمييـزه دون سائر مفردات المنظـر. (أبو بكر، ٢٠١٦، ص ٨٢)

ومن ثَمَّ تتأكد من خلال تلك المنـاظر سـمات الـرقص الطقسيـ المـرتبط بعمليـات الصـيد السـحري، ودور الزعيم في ذلك بأدائه لرقصات معينة مرتديًا إما غطاء ريشيـ للـرأس أو قـرون حيوانيـة أو أقنعـه حيوانيـة تجعلـه قريـب مـن الحيـوان فيسـهل السـيطرة عليـه ويتمكن من صيده.-Frobenius, and Fox, 1937, PP.49 (50) هذا ومن الجدير بالذكر أنه لم يقتصر ظهور غطـاء الرأس الريشي على الرجال فقط دون النساء، فقد عثر على طبق فخـاري في المقـبرة رقـم U-239/1 بجبانـة أم الجعاب "بأبيدوس" وهـي تـؤرخ بـأواخر عصرـ نقـادة الأولى (عطـا اللـه، ٢٠٠٥، ص ١٦٥) وقـد ظهـر بـالمنظر هيئات آدميه عده لسيدات (شكل:٧)، ميـز الفنـان منهـا أربعة هيئات بغطاء ريشي للرأس وقد أمسكن أغلبهن بمـا يشـبه المقـامع إلى حـد كبـير، وقـد تنوعـت أعـداد الريش بـين اثنـين إلى ثلاثـة ريشـات والمنظـر في ربمـا كـان يشـير إلى احتفـال بالنصرـ عـلى الأعـداء. (Dreyer, 1998, P.111, Taf.6 d-fAbb.1 & 13)

وإذا كانــت النقــوش الصــخرية عــبرت برســومها ومواضيعها الفنية عن الزعيم في فترة لم يكن فيهـا

الاستقرار والزراعة قد رسخت جوانبها، فإن الزخارف الفخارية والأعمال الفنية عبرت بمواضيعها عن الزعيم في مرحلة الاستقرار، حيث نشأت القرى والمقاطعات التي كان يقوم بالحكم فيها زعيم أو حاكم يعمل على تنظيم مصالحها، ثم تجمعت هذه المقاطعات بعد ذلك في مملكة تحكمها حكومة واحدة وكانت كل مملكة تتكون من عدد من الأقاليم بلغ حوالي ٢٢ إقليم في الجنوب، و٢٠ إقليم في الشمال. (السويفي، ٢٠٠١، ص ٦٠) ومن عصر قبيل الأسرات نرى الزعيم أو الحاكم قد ميزه الفنان في العديد من الأشكال بارتدائه تاج أقرب في الشكل من تاج الوجه القبلي الأبيض، ممسكا في يده اليمنى عصا طويلة "صولجان" وفى اليد اليسرى يمسك بشيء آخر غير واضح المعالم – ربما كان مذبة أو منديل مطوي – وخلفه نرى حامل المروحة، والى جواره نرى كلب، بينما يتقدمه اثنان من حملة الألوية، وهذا المشهد كان هو الأشهر في تمثيل الحاكم في عصر قُبيل وبداية الأسرات. (Hendrickx, and Swelim, 2009, P.171)

٤-الزعيم والطوطمية الحيوانية

تداخلت أسماء الزعماء الأوائل في مصر مع أسماء العديد من الأنواع الحيوانية كالفيل والكلب والأسد والثور والعقرب والصقر، وأكد ذلك على أهمية الحيوان وارتباط أولئك الحكام بالطوطمية الروحية لهذه الحيوانات، والدور السياسي الذي لعبته تلك الصلات الطوطمية (Wing, 2015, P.123) إلا أنه من الجدير بالذكر أن ارتباط الزعماء برموز حيوانية كان أمر شائع وانتشر خلال عصر ما قبل الأسرات (Leprohon, 2013, P.12) فقد يُنظر إلى الزعيم على أنه يملك القدرة بسبب استطاعته على السيطرة والتحكم في الحيوان، أو قدرته على الاتصال الروحي مع الحيوان، ومن ثم كان من المحبب أن يُصور الملك في هيئة حيوانية، وخاصة هيئة الأسد (Wilkinson, 2000, P.27) أو الثور الذي كثر رؤيته في العديد من الأعمال الفنية الملكية المبكرة.(Wing, 2015, P.160)

وانطلاقاً من دور الزعيم كصائد فقد حرص الفنان المصري القديم على إظهار دوره في هذا المضمار، ووضح ذلك في نقوش العديد من الصلايات والتي كان منها صلاية صيد النعام، إذ ظهر الصائد متعقباً لثلاث نعامات، وقد تقنع بقناع يشبه يشبه رأس النعام ليضللها أو يطمئنها، وأمسك عصا بيسراه وسارت النعامات أمامه في خوف وكأنه يرعاها. (صالح، عبد العزيز. ١٩٦٢، ص ١٧٢)

وهذا ما يُفسر ظهور الزعيم أو القائد في نقوش بعض الصلايات وقد صور بهيئة آدمية ذات قناع حيواني، تماماً كهيئة الصياد الذي كان يرتدي قناع بهيئة النعام وكأنه يقوم بترويض باقي النعام بهذه الطريقة الرمزية، وهذا المشهد كان قد تكرر في العديد من الأعمال الفنية، وهي ممارسات طقسية تكسب الصائد أو الزعيم صفات معينة من تلك الحيوانات التي كان يرتدى قناع مماثل لهيئتها وهي مشاهد توحي بسيطرة الحاكم على قومه وهيمنته عليهم بشتى الطرق والحيل الممكنة (Wilkinson, 2000, P.27) ولقد امتد التعبير الرمزي الذي يربط بين الحيوان أو رمزه وبين الزعيم أو القائد، بل وبين بعض الصور الإلهية ففي الواحة الخارجة عُثر على العديد من النقوش الصخرية وذلك أثناء الاكتشافات الأثرية التي تمت بالجزء الشمالي من الواحة، لاسيما بالقطاع الغربي في درب عين أمور حيث الطريق الرابط بين الواحة الخارجة والواحة الداخلة، أُرخت هذه النقوش بفترات امتدت منذ عصور ما قبل التاريخ فصاعدا، ولقد اشتملت هذه النقوش على رموز للعديد من الآلهة المصرية مثل ست وأمون ورموز أخرى لبعض الأسماء الملكية (Ikram, 2009, PP.67-69) ونقوش أخرى تنوعت بين أسماك وثعابين وعناكب وقد نُعتت المناطق الأثرية هناك بمناظر تلك النقوش، مثل صخرة الأسماك؛ وادي الثعبان كتمييز لأهم ما تتضمنه من نقوش.(Ikram, 2009, PP.73-78) ولا شك أن في ذلك إرهاصة أولية للدلالة الرمزية لتلك الهيئات الحيوانية التي ارتبطت برموز إلهية فيما بعد.

ولقد ساد في عصر ما قبل وبداية الأسرات المواضيع المعبرة عن الصيد وتصوير الهيمنة والسيطرة في كثير من الأحيان لحيوان بعينه على مشهد كامل أو حدث بعينة، تماما كما في حالة رسم السمكة كرمز يعبر عن الهيمنة، وجاء ذلك على مقابض العديد من السكاكين، وفي كتابة اسم الملك "نعرمر" والذي كُتب بالسمكة والإزميل كما جاء على صلاية الملك نعرمر، وهي صفة أراد الفنان الصاقها بالملك تأكيداً لسيطرته على من حوله. (Wilkinson, 2000, PP.24-25) وتكرر الأمر نفسه في اسم الملك العقرب الذي جاء على العديد من الأعمال الفنية مثل مقمعة الملك العقرب وفي بعض النقوش الصخرية في جبل الشيخ سليمان بمنطقة الشلال الثاني بالنوبة

السفلى، حيث عثر هناك على نقش لعقرب كبير يرأس مشهد من الفتح العسكري، ويمثل العقرب بوضوح القوة المنتصرة للحاكم المصري، فالعقرب في تلك الفترة كان يعبر عن السلطة الملكية بدلاً من الاسم. (Wilkinson, 2000, P.25)

٥-الزعامة من خلال دلالة الأسماء

عند الإشارة إلى هذه الجزئية فلابد من التوغل لتلك المرحلة الأولى من تاريخ الحضارة المصرية القديمة، حيث بداية معرفة الكتابة وبداية ظهور الأسماء الملكية، والمقصود هنا ليس مجرد الإشارة إلى تلك الأسماء الملكية، وإنما تناول رمزيتها التي توحيها والتي لابد وقد اقترنت في بدايتها بعلية وصفوة القوم ثم انتقلت إلى الملوك كصفات تضفي عليهم مزيدًا من الهيبة طبقًا للاعتقاد السائد آنذاك.

ولقد ظهرت في تلك الفترة بعض رموز الملكية والتي كان أهمها علامة الـ "سرخ" وهيئة الصقر، ومن الجدير بالذكر أن علامة السرخ الملكي كانت قد ظهرت في طرخان في الفترة السابقة لعصر بداية الأسرات (نقادة IIIb-cl) وكذلك في حلوان إذ عثر في المقبرة رقم 160.H3 على طبعة ختم ظهر بها علامة السرخ والى جانبها ظهرت هيأه آدمية لرجل يرفع احدى ذراعيه لأعلى، بينما بدت الذراع الأخرى كأنها جزء من علامة السرخ.(Raffaele, 2003, P.110) ولقد كان للصقر دور هام في تلك الرمزية الدالة على الحكم والزعامة، إذ ارتبط الصقر بالأسماء والشخصيات الملكية على وجه الخصوص.(Leprohon, 2013, P.12) ولقد اقترن الصقر في عصر بداية الأسرات ببعض المخصصات الدالة على الأسماء الملكية والتي كان أهمها علامة "السرخ" إذ ظهرت مقترنة بالصقر حورس على العديد من الأواني الفخارية والأعمال الفنية المتنوعة آنذاك، وظهر أيضًا ضمن مواضيع النقوش الصخرية في الصحراء الغربية بجبل تجوتي وفي وادي الرياينة جنوب مصر.(Darnell, 1996, PP.66-67) ويمثل عهد الملك "عحا" بداية جديدة للأسماء الملكية، حيث ظهر الصقر حورس على قمة السرخ كإشارة للمعنى الكلي للاسم الملكي، ومعنى اسم "حور عحا" هو حورس المقاتل أو الصقر المقاتل، وعبر الفنان المصري هنا عن الملك وهيمنته بالصقر كرمز للغلبة والسيطرة، وربط بين هيئة الصقر وشكل السرخ تأكيدًا لغلبة وسيطرة الملك كإله سماوي على الأرض. (Wilkinson, 2000, P.26) فالاسم لا يعدو أكثر من كونه تعبير عن حالة عقائدية تربط بين الحاكم والإله، فالاسم هو المرجع الرئيسي لمصداقية الحاكم كإله على الأرض (Wilkinson, 2000, P.25)

ولقد عُثر بالقرب من الشلال الثاني عند جبل الشيخ سليمان على كتلة ضخمة من الحجر الرملي أبعادها (٢,٧٥م × ٠,٠٨م) عليها نقوش تؤرخ بعصر الملك جر من عصر الأسرة الأولى، وكان هذا النقش عند اكتشافه يعد أقدم منظر يعبر عن انتصار ملك مصري على الجماعات النوبية، إذ اقترن اسمه بعلامة السرخ الملكية (شكل: ٨) وذلك بناء على ما تم تفسيره آنذاك ولقد نقلت تلك الكتلة الحجرية إلى متحف الخرطوم عام ١٩٦٣. (Somagliineo and Tallet, 2015, PP.123-124) ولكن بدراسة تلك الكتلة الحجرية بنقوشها المميزة، ثبت أنها تعد من أهم الوثائق الأثرية التي تعبر عن العلاقة بين مصر والنوبة في تلك الفترة الزمنية المبكرة من تاريخ الحضارة المصرية القديمة، وأن العلامة التي سبق تفسيرها برمز "السرخ" ما هي إلا علامة تعبر عن اسم الملك جر 𓊁 ويعلوها شكل الصقر حورس كتعبير عن كونه اسم ملكي. (Somagliineo and Tallet, 2015, PP.123-124)

وإذا كان الفنان قد عبر عن الزعيم في عصور ما قبل التاريخ وقبيل عصر الأسرات بنوع من التصريح، كأن يُظهره بحجم أكبر من المحيطين به أو يرسم الريش أعلى رأسه، فإنه قد عبر عن الزعيم في عصر بداية الأسرات بنوع من الرمزية والإيحاء، وذلك لأن الزعيم في أول الأمر كان هو كبير القبيلة أو أحد علية القوم المنوط به الحكم بين أفراد قبيلته، أما في عصر بداية الأسرات فقد تحولت الزعامة لتصبح أحد خواص الملك الحاكم، فكان التعبير بالرمز يكفي كإشارة للملك وذلك كما نرى على سبيل المثال في العديد من البطاقات العاجية والأختام التي أظهرت اسم الملك نعرمر بشكل سمكة ممسكة بمقمعة قتال. (شكل: ٩) (Somagliineo and Tallet, 2015, P.128)

وبمرور الوقت عبر الفنان عن الملك الحاكم تعبير صريحًا مقترنًا بالأدلة الرمزية والاسم الملكي، وذلك كما جاء في النقوش الصخرية بوادي الحمر جنوب سيناء على بعد حوالي٢٥كم من وادي المغارة، حيث عثر على ثلاثة مناظر عبرت نقوشها عن الملك "دن" خامس ملوك الأسرة الأولى وقد ظهر بهيئته الملكية وقامته الفارعة ممسكًا أحد الأعداء من ناصيته وأمامه نجد رمز "وب واووت" فاتح الطريق، وأمام وجهه الاسم الحوري له تكرر ذلك في منظرين من المناظر

الثلاثة، أما المنظر الثالث فكان غير كامل وظهر فيه الملك ممسكًا بناصية أحد الأعداء وأمامه اسمه الحوري ولم يظهر رمز وب واووت هذه المرة، ويختلف هذا النقش في أسلوبه عن النقشين الأول والثاني، واختلفت فيه بعض التفاصيل التي كان منها شكل السرخ وشكل حامل الصندل الملكي مما دع بالبعض إلى إرجاعه للملك سمرخت قائلين بأنه ربما كانت العلامة التي تعلو شكل السرخ هي رمز الاسم الحوري للملك سمرخت. (Ibrahim, M. R., and Tallet, 2009, P.180)

٦-الزعيم كما أظهرته عادات الدفن والمتاع الجنائزي

وضحت أهمية الوضع الاجتماعي للزعيم أو كبير القبيلة خلال عصور ما قبل التاريخ من خلال عادات الدفن المتبعة ومدى الاهتمام بصاحب المقبرة، وكذلك من خلال الوضعيات غير معتادة الظهور آنذاك.

١/٦- العصر الحجري الحديث:

أظهرت عادات الدفن في منطقة حلوان "العمري" وجود اهتمام بدفن علية القوم أو زعماء القرية، ففي المقبرة رقم ٣٥أ بجبانة حلوان "العمري" عثر على هيكل عظمي آدمي في وضع القرفصاء، كان راقدًا على جانبه الأيسر، رأسه نحو الجنوب ووجهه يتجه نحو الغرب، وأمام الرأس عثر على إناء بينما كان المتوفى نفسه يحتضن عصا خشبية بطول ٣٥سم، تحيط بها مادة بنية الشكل، بقايا من تلك المادة كانت على اليد اليمنى للمتوفى، وخلف الرأس قطعتان من الحجر ربما كانتا مسندًا للرأس، وأحيطت المقبرة وغطيت بالحصير. (الشتلة، ١٩٩٨، ص ٢٥) تُعَدّ هذه المقبرة من الأهمية بمكان بحيث أنها تشير من ناحية إلى كون منطقة حلوان العمري كانت من أهم المراكز الحضارية في العصر الحجري الحديث، ومن ناحية أخرى تشير إلى أهمية العصا التي كانت رمزًا للسلطة أو الزعامة، فربما كان المتوفى سيدًا للقبيلة أو قائدها، وربما كانت هذه العصا رمزًا للسلطة حيث حرص صاحبها على الاحتفاظ بها في الحياة الأخرى بعد الموت، حيث يتمكن من خلالها بالسيطرة على قومه في الحياة الأخرى. (الشتلة، ١٩٩٨، ص ٢٥)

ولقد عثر في أحد مقابر العمري أيضًا على عصى منقوش عليها زخارف متنوعة، وكانت العصا تشبه العصى الملكية (الصولجان) التي كانت معروفة في العصور التاريخية القديمة، وربما يوحي هذا الأمر بأن بعض القرى في العصر الحجري الحديث قد حكمهم بالفعل رؤساء أو زعماء. (جراية، ٢٠١٧، ص ٢٣١) وبنفس جبانة حلوان العمري عثر في المقبرة رقم ٦٦ب على هيكل عظمي آدمي كان راقدًا على جانبه الأيسر في وضع القرفصاء، كانت الرأس تتجه نحو الجنوب والوجه يتجه نحو الغرب، والملفت للنظر أنه قد وضع على صدر المتوفى باقة من الزهور، وكُفِن المتوفى بالحصير وكان بجوار وجهة اناء فخاري، وتدل هذه المقبرة على أهمية صاحبها، إذ كان الاعتناء بالتكفين ووضع الزهور من العلامات الدالة على ذلك، وهي عادة كتب لها الاستمرار وتأكدت في عصر الدولة الحديثة في مقبرة الملك توت عنخ أمون، حيث وضع معه في مقبرته أيضًا باقة من الزهور. (الشتلة، ١٩٩٨، ص ٢٥)

٢/٦-العصر الحجري النحاسي:

(٤٠٠٠-٣٧٠٠ ق.م تقريبًا)

نشأت العديد من المراكز الحضارية وكان لكل منطقة حاكم ينظم شؤنها ويحمي حدودها، ووضح ذلك بشدة في البداري (Savage, 2001,P.106) التي كانت تعد أهم المراكز الحضارية آنذاك (Bard, 1987, P.86) إذ تميزت البداري بوجود العديد من السمات الحضارية بها، وكان على رأس هذه السمات الحضارية "المقابر"، فقد تميزت البداري بكثرة مقابرها وتنوعها وفرط الاعتناء بعادات الدفن فيها، ولا شك أن في ذلك إشارة إلى وجود تنظيم اجتماعي وكذلك حاكم أو زعيم قائم على خدمة هذا المجتمع وتلبية حاجاته، فكثرة المقابر تشير إلى كثرة السكان، وتواجدها في جبانة منفصلة بعيدًا عن مكان السكن يؤكد أيضًا ضرورة وجود تنظيم مكاني يحتاج بلا شك إلى وجود زعيم أو قائد يُشرف على ذلك.(Raffaele, 2003, PP.101-102)

وقد زاد الاهتمام والتمييز في عادات الدفن بشدة حوالي ٣٦٠٠ ق.م تقريبًا (Hassan, 1988, P.135) ففي جبانة العمرة تُبْت معرفة الزعامة والنظام الاجتماعي من خلال التمييز الذي وضح في بعض المقابر والتي كان أهمها مقبرة لرجل ربما كان كبير القوم أو الزعيم هناك، وقد وضح ذلك من خلال الاهتمام بدفن صاحب المقبرة والعثور على عصا جيدة الصنع كان المتوفى ممسكًا بها في يده. (Hassan, 1988, PP.159-160)

٣/٦-عصر ما قبل وقبيل الأسرات:

تميزت مقابر الأفراد من الصفوة دون غيرهم بتزويدها في كثير من الأحيان بالعديد من أنواع المتاع الجنائزي، والذي كان من بينه نماذج مصغرة لمساكن من الطين زودت بها مقابر معينة دون سواها، وذلك

على غرار ما جاء في جبانة المحاسنة إذ عُثر في أحد مقابر هذه الجبانة على نموذج لمسكن مصنوع من الطمي أو الصلصال يُرجح أنه بيت لزعيم الوجه البحري يؤرخ بنهاية عصر ما قبل الأسرات (محمود، ٢٠٠٦، ص ١١٨) (شكل:١٠) المنزل مستطيل الشكل ذو زوايا مربعة والجدران تميل نحو الداخل، وكان لهذا المسكن باب محاط بإطار خشبي وله عتب علوي بارز وكذا نافذة صغيرة للتهوية وقد فتحت نافذتان صغيرتان بإطار خشبي في الجدار المقابل لجدار الباب أما السقف فربما كان مغطى بالحصير كما كان متبعاً آنذاك وقد وضع العلماء تخيُل للأبعاد المحتملة للمسكن الأصلي من خلال هذا النموذج وافترضوا أن تكون أبعاده هي ٥,٧ م طولا و٥,٥ عرضا (رينيس، ٢٠٠١، ص ٢٦١) أي أن الفنان كان قد حرص على إظهار المسكن مماثلاً تماماً للمسكن الفعلي لصاحب المقبرة، وفي هذا دليل على مكانة وأهمية صاحب المقبرة وحرص أهله على توفير سبل ووسائل الراحة له في عالمه الآخر.

ولقد ظهرت في عصر ما قبل وقبيل الأسرات العديد من المراكز الحضارية التي دلت عليها كثرة وتنوع مظاهرها الحضارية وفرط الاهتمام بعادات الدفن فيها، وكانت منطقة "نخن" أو "هيراكونبوليس" أهم تلك المراكز الحضارية، وتقع "نخن" على الضفة الغربية للنيل بين مدينتي إسنا وإدفو بصعيد مصر، ولأن "نخن" كانت مركز حضاري هام آنذاك فلابد وأنه كان لها زعيم أو حاكم يتولى تدبير شؤونها، ولقد وضح دور الزعيم أو القائد في "نخن" سواء من خلال عادات الدفن (Bard, 1987, P.83) أو من خلال الاهتمام بشكل وتصميم وزخارف مقبرته وذلك كما يتبين في المقبرة رقم ١٠٠ والتي تعرف بالمقبرة الملونة أو المقبرة رقم ١٠٠ أو "مقبرة الزعيم" والتي كانت من أهم مقابر جبانة "نخن" وهي تؤرخ بعصر ما قبل الأسرات (الشتلة، ١٩٩٨، ص ٦٥-٦٦) والمقبرة عبارة عن بناء مشيد من الطوب اللبن، غطيت الجدران بالملاط الأبيض ورُسم عليها العديد من المناظر والمشاهد الحية، اشتق الفنان رسوم المقبرة من زخارف الأواني الفخارية الملونة من عصره، حيث اشتملت تلك المشاهد على مناظر لرجال مرتدية ملابس غريبة بعضهم يتحارب وأحدهم يفصل بين حيوانين، ومناظر لقوارب وسفن عالية المقدمات ذات كبائن، ومناظر تشير إلى أفخاخ للإيقاع بالحيوانات ومشاهد تعبر عن الصيد. (الشتلة، ١٩٩٨، ص ٦٦-٦٧) (شكل: ١١) أي أم مشاهد ذلك الجدار اشتملت على مواضيع ذات مغزى سياسي واجتماعي وأسطوري عُرفت في عصر بداية الأسرات وظهرت في العديد من الأعمال الفنية الملكية.

ومما يؤكد اعتبار أن تلك المقبرة لأحد الزعماء أو علية القوم وليست لأحد الملوك، أن أغلب مقابر زعماء الأسرة صفر كانت في الجبانة B بأبيدوس (Wing, 2015, P.13)، بينما كانت "نخن" مجمع متشابك يجمع بين الحصن والمعبد والجبانة، وعثر فيه على العديد من الأدلة الأثرية الملكية ولكن المقابر الملكية كان لها تجمع في مكان أخر.

٦/٤-عصر بداية الأسرات:

كان التحول والانتقال في مفهوم السلطة الملكية والزعامة، إذ زاد ووضح الاهتمام بمقابر النخبة الحاكمة من حكام الأقاليم، وبعض أفراد العائلة الملكية ممن كان لهم مكانة لدى الملك، وكانت المصطبة رقم S3357 بسقارة خير شاهد على ذلك (Raffaele, 2003, P.106) ترجع المصطبة إلى عصر الملك عحا، وهي تخص أحد كبار المسؤولين وربما كان أحد أفراد عائلة الملك، ووضح ذلك في تصميم بناء المصطبة حيث الواجهة التي اتخذت شكل واجهة القصر الملكي، وربما كان صاحب المقبرة هو الأخ الأصغر لحور عحا أو ابنه وكان حاكماً لمقاطعة ممفيس، وشيدت مقبرته بسقارة التي شهدت أول مراحل تأسيس جبانة لكبار الموظفين وحكام الأقاليم تحديدًا في شمال سقارة منذ نهاية عصر ما قبل الأسرات. (Wilkinson, 2000, P.30)

ولسنا بصدد الحديث عن وصف مقبرته أو مقابر كبار موظفي وحكام الأقاليم آنذاك، وإنما فقط توضيح الفارق الذي تعنيه الدراسة بين مقابر الزعيم أو حاكم الإقليم وبين المقبرة الملكية، فالدراسة إنما تقصد في طياتها هنا توضيح هذا المبدأ ففي عصر ما قبل وبداية الأسرات استمر دور الزعيم جنبًا إلى جنب مع دور الملك، فالزعيم حاكم في إقليمه، والملك حاكم مسيطر على مصر بكل أقاليمها.

ولقد انعكست أهمية ومكانة الزعيم أو حكام الأقاليم في عصر بداية الأسرات من خلال ثراء مقابرهم، فرغم توحد مصر في كيان سياسي واحد وسلطة ملكية واحدة، إلا أن رؤساء وزعماء الأقاليم كانت لهم سلطتهم ومكانتهم المستمدة من سلطة ومكانة الملك نفسه. (Wing, 2015, P.13)

دفن الحكام الأوائل لاسيما من ملوك عصر الأسرة صفرين والأسرة صفر (عصر قبيل الأسرات) وعصر بداية الأسرات (Hassan and Serrano, 2006, PP.688-689)

في جبانة "أم الجعاب" أبيدوس (Wenke, 1991, P.303)، ولقد دل المتاع الجنائزي الذي عثر عليه بمقابرهم على مدى القوة والمكانة الاجتماعية التي تمتعوا بها، وتبين ذلك من ثراء تلك المقابر بمحتواياتها التي اشتملت على صلايات جنائزية أو طقسية، مقامع حجرية، بطاقات عاجية، أختام وأشياء أخرى ذات صبغة دينية ربما كانت ذات صلة بمعابد العصر المبكر (Wing, 2015, P.13)

ولقد كانت الهراوات من الأدوات التي وصفت بأنها من أدوات النفوذ والسلطة بين أفراد صفوة المجتمع، وقد عثر في أحد مقابر العضايمة على ثلاثة هراوات، مما يشير إلى الوضعية الاجتماعية لصاحب تلك المقبرة، ويشير كذلك إلى وضع العضايمة وأهميتها كأساس للعاصمة الملكية "هيراكونبوليس" في عصر ما قبل الأسرات، ولابد أن هؤلاء الصفوة الذين عاشوا في العضايمة كان لهم دور كبير في نشأة الحضارة المصرية القديمة. (عبد العظيم، ٢٠١٢، ص ٩٢)

وإذا كانت المقامع أو الهراوات تعد أحد رموز ودلائل الزعامة في عصر ما قبل وبداية الأسرات، فإن المراكب في دلالتها لا تقل أهمية عن ذلك، ولا أدل على ذلك من حفر المراكب العشرة التي عثر عليها بجبانة أم الجعاب، والتي أكدت على أهمية القوارب وضرورة أن يصحبها الحاكم معه في العالم الآخر، ورغم السرعة في تنفيذ تلك الحفر وعدم احتوائها على أخشاب إلا أنها تعد من أهم وأول أنواع حفر القوارب الملكية المكتشفة. (Mark, 2012, P.125)

نتائج الدراسة

عرفت مصر منذ عصور ما قبل التاريخ التنظيم الاجتماعي بطريقة أو بأخرى، وأكدت الأدلة الأثرية والنقوش الصخرية ذلك. ولا شك أن التنظيم الاجتماعي كان يتطلب في تبعاته وجود زعيم أو قائد يعمل على تيسير سبل الحياة وتنظيمها، فأثمر ذلك عن بقاء ورسوخ حضارة لولا وجود أساس متين لها ما بدأت وما استمرت إلى الآن، إنها الحضارة المصرية القديمة التي كتب الله لها البقاء لتحدثنا عن ماضي أمة كانت هي أم الحضارة الإنسانية جمعاء، ومنها تعرفنا على تطور الحضارة الإنسانية منذ عصور ما قبل التاريخ.

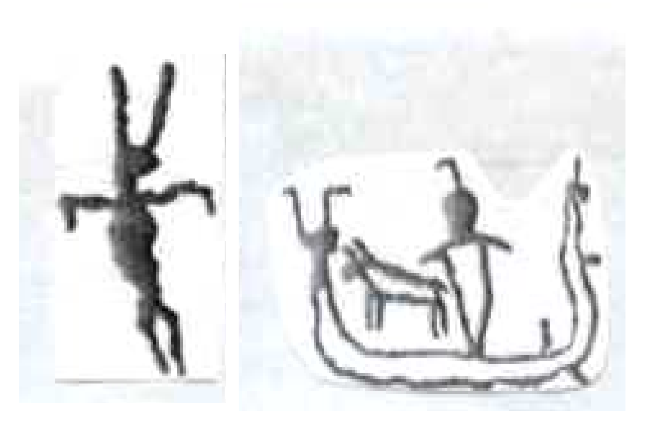
وضحت سمات الزعيم ودوره في مجتمع عصور ما قبل التاريخ من خلال العديد من الأعمال الفنية والنقوش الصخرية التي أظهرته في الغالب الأعم ممسكا بعصى أو ممسكا بمقمعة أو مرتديًا غطاء للرأس يعلوه ريشة أو أكثر، أو تصويره بحجم أكبر من حجم المحيطين به، وفي ذلك إشارة إلى تمييزه وتوضيح أهميته بين أفراد قبيلته أو عشيرته آنذاك.

أظهرت عادات الدفن أيضًا في كثير من الأحيان أهمية الزعيم أو حاكم القرية، وذلك من خلال زيادة الاهتمام بمقابرهم دون سواها، أو إحاطة صاحب المقبرة ببعض المتاع الشخصي الذي اشتمل في بعض الحالات على وجود عصا الحكم أو عصاه الشخصية التي كان يمسك به أثناء حياته، وفي ذلك إشارة إلى رغبته في السيطرة على زمام الأمور سواء في حياته أو بعد مماته.

ولقد كانت هيراكونبوليس بجبانتها خير شاهد على وجود زعيم لها، ولقد تبين ذلك من المقبرة رقم ١٠٠ والتي حوت العديد من المناظر الفنية التي ارتبطت في أغلبها بمواضيع الصيد بأنواعه، والزعيم الذي يفصل بين أسدين كإشارة إلى دوره في الفصل بين المنازعات أو بين الأفراد المتنازعة، فهذا هو الزعيم ودوره الذي أوضحته الأعمال الفنية بشدة في عصور ما قبل وبداية الأسرات.

كان هناك رموز للزعامة عرفت منذ عصور ما قبل التاريخ، انتقلت بالتطور الحضاري والزمني وأصبحت في عصر بداية الأسرات أحد أهم رموز الملكية، وكانت العصى والهراوات والمراكب من بين أهم هذه الرموز. ومن ثَمَّ يمكن القول إن القيادة والزعامة عُرفت أولًا وكان يتصف بها كبير القوم أو كبير القبيلة، ثم أصبحت فيما بعد أحد أهم صفات حاكم الإقليم في إقليمه، ثم زاد التطور الحضاري فأصبحت الزعامة أحد أهم صفات الملك الحاكم على مصر بقطريها.

الملاحق: (الصور والأشكال)



(أ)- رجل مادًا ذراعيه إلى الخارج واضعًا على رأسه ريشة واحدة

(ب)- رجل تعلو رأسه ريشتين

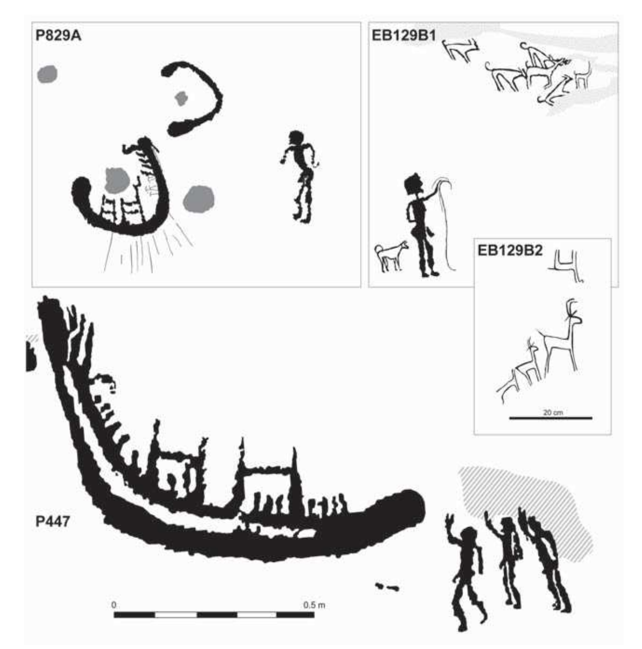
(شكل:١) - اثنين من الصفوة تميزوا بارتداء أغطية رأس من الريش- من النقوش الصخرية بالصحراء الشرقية

عطا الله، مصطفى (٢٠٠٥). هيئات الرجال والنساء غير المألوفة على آثار عصور ما قبل التاريخ والعصر المبكر في مصر، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب - الاتحاد العام للآثاريين العرب واتحاد الجامعات العربية، العدد السادس، شكل ٢، ص ١٨٤.



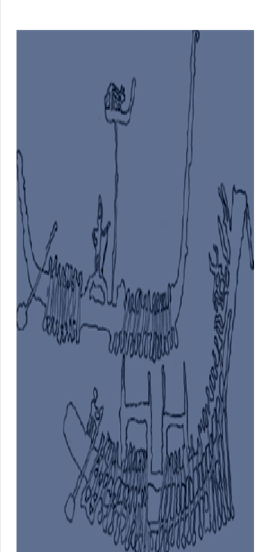
(شكل:٢) - قارب منجلي الشكل يعلوه مجموعة من الأشخاص من علية القوم – خور أبي سبيرة الصحراء الشرقية – نقادة الثانية

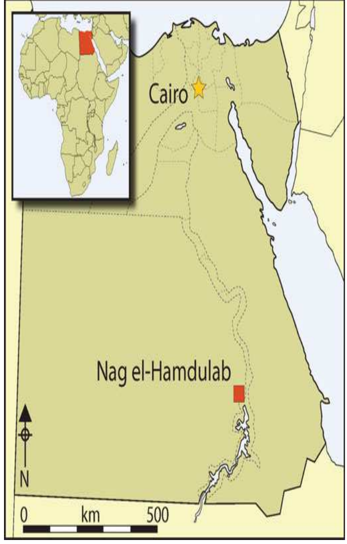
أبو بكر، محمد عبد الحي محمد (٢٠١٦). المناظر الصخرية فيما قبل الأسرات في خور أبي سبيرة مقارنة بمواقع أخرى في الصحراء الشرقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس، ص ٣٦، شكل ١٨.



(شكل:٣) - نقش صخري من الموقع رقم Winkler 53 بالكوبانية يظهر الزعيم ممسكا بالعصا

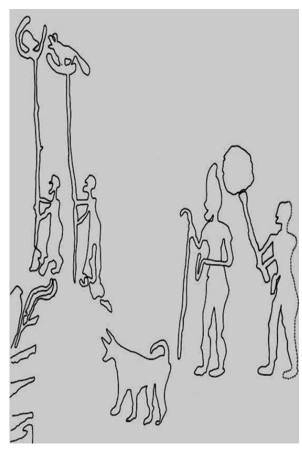
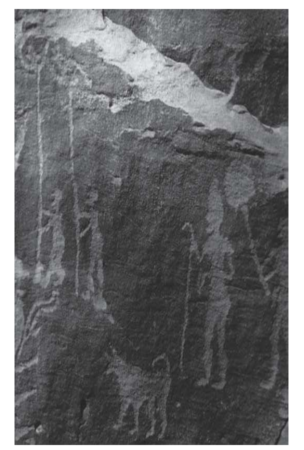
Storemyr, P., A Prehistoric Geometric Rock Art Landscape by the First Nile Cataract, in: ARCHÉO-NIL 121, n°19 – janvier, 2009, p.126, fig.8.





(شكل:٤) - على اليمين خريطة تبين موقع الحمد لاب شمال غرب أسوان، وعلى اليسار منظر من نفس الموقع لقارب يعلوه رجل تظهر سماته أنه من صفوة القوم.

Hendrickx, S., Darnell, J.C., & Gatto, M.C., The earliest representations of royal power in Egypt: the rock drawings of Nag el-Hamdulab (Aswan), in: Antiquity 86, 2012, p.1068.

(شكل:٥) - منظر يوضح الحاكم "الزعيم" – عصر قبيل الأسرات – نجع الحمد لاب -غرب أسوان

نقلا عن:

Hendrickx, S., Swelim, N., Raffaele, F., Eyckerman, M., & Friedman, R. F., A lost Late Predynastic-Early Dynastic royal scene from Gharb Aswan, ARCHÉO-NIL 169, n°19 - janvier 2009, Fig. 1, 2.



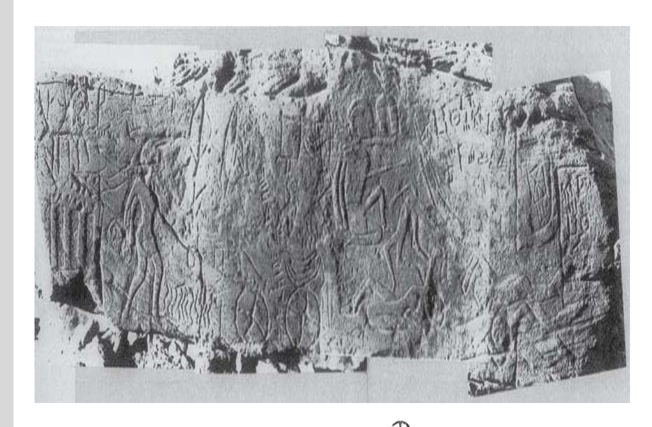
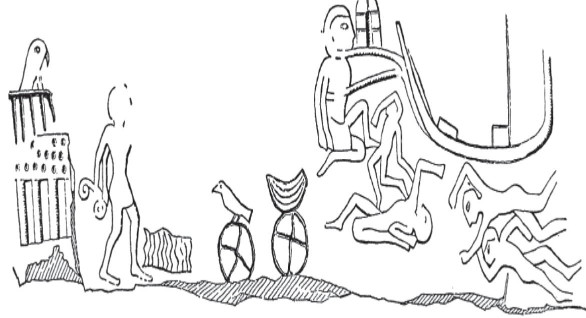
(شكل:٦) - منظر آدمي من وادي أبي واصل من نقادة III

أبو بكر، محمد عبد الحي محمد (٢٠١٦). المناظر الصخرية فيما قبل الأسرات في خور أبي سبيرة مقارنة بمواقع أخرى في الصحراء الشرقية، رسالة ماجستير غير منشورة، كليـة الآداب، جامعة عين شمس، ص ١٠٩، شكل ٨٦.



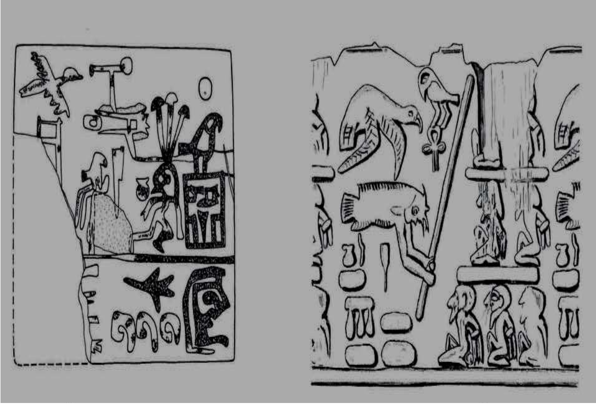
(شكل:٧) - زخرفة بطبق فخاري عثر عليه بأبيدوس يؤرخ بنهاية عصر نقادة الأولى

عطا الله، مصطفى. (٢٠٠٥)، شكل ١٠، ص ١٨٥.

(شكل:٨) - نقوش جبل الشيخ سليمان – عصر الملك "جر" الأسرة الأولى

Somagliineo, C., and Tallet, P., Gebel Sheikh Suleiman: A First dynasty relief after all, ARCHÉO-NIL, n°25, février, 2015, P. 124, fig.3-4.



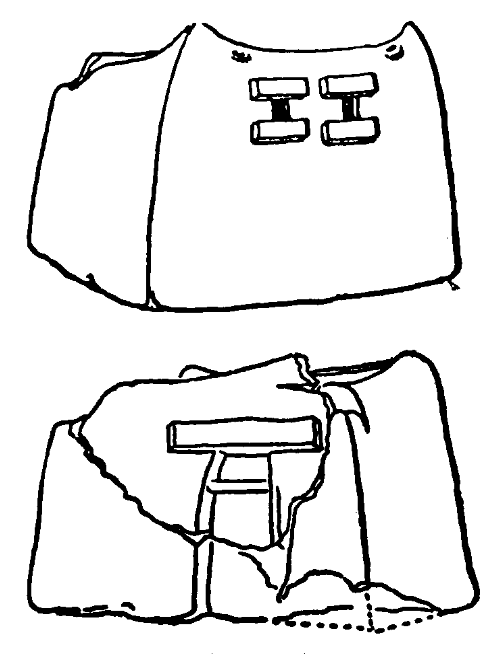
(شكل:٩) - المنظر على اليمين (طبعة ختم تحمل اسم الملك نعرمر) وعلى اليسار (بطاقة عاجية تحمل اسم الملك نعرمر)

Somagliineo, C., and Tallet, P., Gebel Sheikh Suleiman: A First dynasty relief after all, ARCHÉO-NIL, n°25, février, 2015, P. 129, fig.9, a, b.



(شكل:١١) - المقبرة رقم ١٠٠ والتي تعرف بالمقبرة الملونة أو "مقبرة الزعيم" بـ "نخن"

Adams, B., The Painted Tomb at Hierakonpolis, Nekhen News, 11, 1999, end cover page.



(شكل: ١٠)

نموذج من الفخار لبيت – اواخر عصر ما قبل الأسرات

شكري، محمد أنور (١٩٧٠). العمارة في مصر القديمة، القاهرة، شكل ١٩.

قائمة المراجع العربية والمترجمة

- أبو بكر، محمد عبد الحي محمد. (٢٠١٦). **المناظر الصخرية فيما قبل الأسرات في خور أبي سبيرة مقارنة بمواقع أخرى في الصحراء الشرقية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة عين شمس.
- أبو غنيمة، خالد محمود. (٢٠١٠) **أنماط المعيشة ودورها في تكوين التشكيلات الاجتماعية في عصور ما قبل التاريخ**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، مج ٤، ع ١، الأردن.
- جراية، محمد رشدي (٢٠١٧). **ملامح الحياة الاجتماعية خلال عصور ما قبل التاريخ**، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية، جامعة الشهيد حمة لخضر، الوادي، العدد ٢١، مارس.
- خليفة، إيمان السيد علي نور الدين. (٢٠١٨) **المجتمعات ذات التركيب الاجتماعي غير القائم على الزراعة وفخارها خلال عصور ما قبل التاريخ في مصر وأمريكا الشمالية: دراسة مقارنة**، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب، العدد ١٩، القاهرة.
- الراشدي، فرج محمود (٢٠١٥). **التواجد الليبي في مصر**، المجلة الليبية العالمية، العدد الرابع، ديسمبر ٢٠١٥.

- رينيس، بياتريكس ميدان. (٢٠٠١) **عصور ما قبل التاريخ في مصر، من المصريين الأوائل الى الفراعنة الأوائل**، مترجم، القاهرة.
- السويفي، مختار (٢٠٠١). **قدماء المصريين في عصور ما قبل التاريخ**، مجلة إدارة الأعمال، العدد ٩٤.
- الشتلة، إبراهيم يوسف (١٩٩٨). **جذور الحضارة المصرية**، القاهرة.
- شكري، محمد أنور (١٩٧٠). **العمارة في مصر القديمة**، القاهرة.
- صالح، عبد العزيز (١٩٦٢). **حضارة مصر القديمة وآثارها**، الجزء الأول، القاهرة.
- عبد العظيم، عبد المنعم. (٢٠١٢) **العضايمة تفتح ملف حضارة ما قبل التاريخ**، المجلة - الإصدار الثاني، العدد الرابع، يونيو.
- لمياء علي شوقي الحديدي، **دراسة مقارنة بين النقوش الصخرية في مصر والنوبة السفلى ورسوم الفخار في المرحلة النقادية**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٠، ص ٨٦، ١٥١.
- محمود، عزة صديق جاد الرب. (٢٠٠٦) **دراسة تحليلية للمسكن المصري في العمارة المصرية القديمة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الفنون الجميلة جامعة حلوان.
- مصطفى عطا الله، مصطفى. (٢٠٠٥). **هيئات الرجال والنساء غير المألوفة على آثار عصور ما قبل التاريخ والعصر المبكر في مصر**، مجلة الاتحاد العام للآثاريين العرب - الاتحاد العام للآثاريين العرب واتحاد الجامعات العربية، العدد السادس، القاهرة.
- مونتاغيو، أشلي (١٩٨٢). **البدائية**، مترجم، الكويت.

قائمة المراجع الأجنبية

- Adams, B., (1999). The Painted Tomb at Hierakonpolis, Nekhen News, Vol. 11, p.23.
- Bard, K. A., (1987). The Geography of Excavated Predynastic Sites and the Rise of Complex Society, Journal of the American Research Center in Egypt, Vol. 24, pp. 81-93.
- Darnell, C.J., and Darnell, D., (1996). The Theban desert road survey (the Luxor- farshot desert road survey, the Oriental Institute, oi.uchicago.edu,1995-1996, pp.66-67.
- Darnell, J.C., (2009). Iconographic Attraction, Iconographic Syntax, and Tableaux of Royal Ritual Power in the Pre- and Proto-Dynastic Rock Inscriptions of the Theban Western Desert, ARCHÉO-NIL, n°19 - janvier, pp.83-107.
- Dreyer, G., Hartung, U., (2003). Umm el- Qaab, Nachuntersuchungen in fruehzeit-lichen Koenigsfriedhof 9. und 10. Vorbericht, in: MDAIAK 54, 1998.
- F. Raffaele, Dynasty 0, AH 17, 2003.
- Fattovich, R., (2012). Remarks about the study of predynastic Egypt, Rivista degli studi orientali, Nuova Serie, Vol. 85, Fasc. 1/4, pp. 257-278.
- Frobenius, L., and Fox, D.C., (1937). Prehistoric rock pictures in Europe and Africa: from material in the archives of the Research institute for the morphology of civilization, Frankfort-on- Main, New York.
- Fuchs, G., (1989). Rock engravings in the Wadi el-Barramiya, Eastern Desert of Egypt, The African Archaeological Review, 7, pp. 127-153.
- Gatto, M, (2010). The Aswan-Kom Ombo Archaeological Project Yale University - University of Bologna, Preliminary report on the AKAP 2010 field season, pp.2-3.
- Gatto, M. Hendrickx, S. Roma, S. & Zampitte, D., (2009). Rock art from west bank Aswan and Wadi Abu Subeira, Archeo nil, 19.
- Harrison, T. P., (1993). Economics with an Entrepreneurial Spirit: Early Bronze Trade with Late Predynastic Egypt, The Biblical Archaeologist, Vol. 56, No. 2, Jun. pp. 81-93.
- Hassan, F. A., Serrano, A.J., & Tassie, J.G., (2006). The sequence and chronology of the Protodynastic and Dynasty I rulers, in: Archaeology of Early Northeastern Africa Studies in African Archaeology 9 Poznan Archaeological Museum, PP.688-689.
- Hassan, F.A., (1988). The Predynastic of Egypt, Journal of World Prehistory, Vol. 2, No 2, June, pp. 135-185.

- Hendrickx, S., Swelim, N., Raffaele, F., Eyckerman, M., & Friedman, R. F., A (2009). Lost Late Predynastic-Early Dynastic royal scene from Gharb Aswan, ARCHÉO-NIL 169, n°19 - janvier 2009.
- Hoffman, M.A., (1974). The Social Context of Trash Disposal in an Early Dynastic Egyptian Town, American Antiquity, Vol. 39, No. 1, Jan, pp. 35-50.
- Ibrahim, M. R., and Tallet, P., (2009). King Den in South-Sinai: The Earliest Monumental Rock Inscriptions of the Pharaonic Period, ARCHÉO-NIL, n°19, janvier.
- Ikram, S., (2009). Drawing the World: Petroglyphs from Kharga Oasis, Archeo-nil, no.19, Janvier, PP.67-82.
- Leprohon, R. J., (2013). The Great Name, Ancient Egyptian Royal Tutelary, in: Doxey, D. M., (edit.) Society of Biblical Literature, Writings from the Ancient World, Number 29.
- Mark, S., (2012). The Abydos BG 10 Boat and Implications for Standardisation, Innovation, and Timber Conservation in Early Dynastic Boat Building, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 98, pp. 107-126.
- Savage, S. H., (2001). Some Recent Trends in the Archaeology of Predynastic Egypt, Journal of Archaeological Research, Vol. 9, No. 2, June, pp. 101-155.
- Somagliineo, C., and Tallet, P., (2015). Gebel Sheikh Suleiman: A First dynasty relief after all, ARCHÉO-NIL, n°25, février, PP.123-124.
- Storemyr, P., (2007). Overview of Rock Art, Stone Alignments, Desert Routes and a Possible Hermitage at the West Bank of Aswan, in: Bloxam, E., and others (edit.), Quarry Scales report characterization of Complex Quarry Landscapes: An Example from the West Bank Quarries, Aswan, London.
- Storemyr, P., (2009). A Prehistoric Geometric Rock Art Landscape by the First Nile Cataract, in: *ARCHÉO-NIL* 121, n°19 – janvier.
- Storemyr, P., and Kelany, A., and NEGM, M. A., and TOHAMI, A., (2008). More ‘Lascaux along the Nile’? Possible Late Paleolithic rock art in Wadi Abu Subeira, Upper Egypt, SAHARA 19.
- Svoboda, J., (2009). Action, Ritual, and Myth in the Rock Art of Egyptian Western Desert, in: Anthropologie, vol. XLVII/1–2, 2009, pp. 159–167.
- Tassie, G.J., (2008). The Social and Ritual Contextualization of Ancient Egyptian Hair and Hairstyles from the Protodynastic to the End of the Old Kingdom, Volume 1 (Text), London.
- Wenke, R. J., (1991). The Evolution of Early Egyptian Civilization: Issues and Evidence, Journal of World Prehistory, Vol. 5, No. 3, September, pp. 279-329.
- Wilkinson, T.A.H., (2000). What a King Is This: Narmer and the Concept of the Ruler, The Journal of Egyptian Archaeology, Vol. 86, pp. 23-32.
- Wing, George (2015) Predynastic Egyptian representations of animals: The journey from nature to art and beyond, Durham theses, Durham University. Available at Durham E-Theses Online: http://etheses.dur.ac.uk/11335.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الإمبراطورية الرومانية في عهد الأباطـرة الأفارقـة
سيبتيموس سيفيروس أنموذجًا



عباس مسرور
أستاذ مساعد (أ) التاريخ القديم
جامعة باجي مختار عنابة
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

عرفت الإمبراطورية الرومانية العديد من الأزمات والاضطرابات الخطيرة في تاريخها الطويل، كان القرن الأول والثاني ميلادي من بين هذه المراحل الصعبة، ولكن في أخر القرن الثاني ظهرت شخصية ذو أصلية إفريقية، وهو سيبتيموس سيفيروس الذي تمكن من دحر خصومه، واستيلائه على الحكم بالقوة، ولضمان بقائه فيه، انتهج سياسية الإصلاحات في شتى المجالات، التي كانت بمثابة انقلاب على أسس وتقاليد الحكم في روما، هذه السياسة لها إيجابياتها وسلبياتها. نحاول في هذه الدراسة نفض الغبار عن هذه المرحلة الزمنية الهامة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، دون نسيان الإشارة لظروف السائدة قبل وصوله للحكم، والعوامل المساعدة لذلك، وإبراز شخصيته والسياسات المنتهجة وأثارها على روما وعلى إفريقيا، وذلك بالتحليل والاستنباط والمقارنة، للوصول لنتائج تتمتع بالمصداقية التاريخية والموضوعية العلمية. ومن هذه النتائج يعتبر سيبتيموس سيفيروس من الشخصيات المتميزة من خلال دراسة سيرته وأعماله وجهوده وسياسته، خاصة أسلوب الإشراف على الدولة ومبادئ حكمه وكذلك حياته في الأسرة وتأثيره فيها، يتبين أنه كان مُصرًا للوصول إلى غايته بكل الطرق، لقد ابدى مقدرة كبيرة في الحكم والسياسة التي ساس بها جيش الإمبراطورية، حيث وصف عهده بمرحلة هامة في تاريخ الإمبراطورية والنظام الروماني، لقد استطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر في الحكم ظلت حوالي ٢٤ سنة، بالإضافة إلى ذلك يعود الفضل أولًا إلى الإمبراطور سيبتيموس في تأجيل الكارثة ولو ظرفيًا والتي عصفت بالإمبراطورية بعد زوال أسرة السيفريين، كل ذلك يبدوا واضحًا في مدى تغلغل النفوذ العسكري وسيطرته على مجمل قطاعات السلطة الإمبراطورية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٢ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الأباطرة: الأفارقة: الرومان: السياسة: سيبتيموس سيفيروس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057040

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عباس مسرور. "الإمبراطورية الرومانية في عهد الأباطـرة الأفارقـة: سيبتيموس سيفيروس أنموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٢٦ – ٣٦.

مُقَدِّمَة

يعتبر الإمبراطور سيبتيموس من الشخصيات البارزة لما عرف من أهمية الدور الذي قام به في التاريخ، هو احد أبرز الأباطرة الرومان، التي ظهرت في عهديه قوة شخصية الأقاليم الإمبراطورية، رغم أنه كان يسود الطابع الروماني، لقد استطاع سيبتيموس بسياسته توحيد الإمبراطورية الرومانية ولم شملها، بعد أن مزقتها الفتن والأطماع الداخلية، وظهرت عدة تمردات وانقلابات في ربوعها، وسط كل هذه الصراعات وصل إلى تحقيق هدفه وهو توحيد الإمبراطورية الرومانية ومنعها من الشتات، بعد تحقيق الوحدة

واستعادة الدولة لقوتها، قادها للنصر في عدة ميادين، كما عمل في فترة خلافته على إرساء سياسة جديدة، وتمت في عصره الكثير من الإنجازات التي مازالت معالمها قائمة إلى يومنا هذا.

ونظرًا للأهمية التاريخية لهذه الفترة، حظيت باهتمام الدارسين والباحثين اعتمادا على ما توفر من وثائق وشهادات تاريخية، بغية الاطلاع على الدور الذي لعبه سيبتيموس في تأمين حدود الإمبراطورية وإخضاع العديد من الشعوب المجاورة للإمبراطورية الرومانية والبراعة التي أظهرها في إدارة شؤون الدولة مستعين في ذلك بالجيش وبنخبة من أمهر رجال العصر.

وللاطلاع على المنجزات العسكرية والسياسية أثناء هذه الفترة، تم اختيارنا لهذا الموضوع لنفض الغبار عن هذه الفترة الزمنية، وعن هذا الإمبراطور دو الأصول الإفريقية، وعليه فإن مقالنا هذا يهدف إلى استعرض هذه الأسباب والظروف والملابسات ونحلل الأبعاد والنتائج التي حققها مشيرين إلى إيجابيات سياسته التي أدت إلى إرساء دعائم دولة قوية دون غض النظر عن سلبياتها، ومن هنا نطرح الإشكال التالي: من هو سيبتيموس سيفيروس؟ وما هي السياسة التي اتبعها في قيادة الإمبراطورية الرومانية؟ وماذا حققه للعالم الروماني بشكل عام وإفريقيا بشكل خاص؟

أولًا: الحياة السياسية في الإمبراطورية الرومانية قبل حكم الأباطرة الأفارقة

كانت هناك عدة اضطرابات في الإمبراطورية، خلال القرن الواحد والثاني للميلاد، بعد موت نيرون (Néron) في سنة ٦٨ م، وبعد دومتيان (Domitien) في سنة ٩٦م ، ظهرت بوادر أزمة طويلة وخاصةً بعد موت كومودو (Commode) سنة ١٩٢م[١]، كانت نهاية النظام الذي أسسه الإمبراطور أغسطس يعود ذلك إلى سلوك كومودو المشين واستهتاره المطلق، وجريه وراء شهواته وخاصة بحلبة المصارعة وصيد الحيوانات، مستعرضًا لقوته التي جعلته يفخر بأنه هرقل الجديد[٢]، وقد اعتمد كومودو في بقائه في الحكم على قوة الحرس الإمبراطوري الذي اشترى رضاها بالمال وأطلق لجنوده العنان، وهذا ما زاد كراهية المواطنين لهم، ومن الملاحظ أنه ظهرت عدة محاولات لاغتياله، لكنها باءت بالفشل، وهذا ما دفع بالإمبراطور كومودو من زيادة تشديد الحراسة ورفع رواتب الجند، خاصة الحرس الإمبراطوري وترك لهم الحرية في نشر الفساد، هذا التصرف من طرف الجنود ولهو الإمبراطور أدى إلى إفلاس الخزينة ومن هنا بدأ يتصيد الأغنياء والميسورين، بتلفيق التهم ضدهم طمعًا في مصادرة أموالهم وساد حكم الرعب والإرهاب وأصبحت تهمة الاشتراك في مؤامرة للإطاحة بحكم الإمبراطور سيفًا على أعناق الوجهاء والأغنياء، وضاع الإحساس بالأمن الذي ساد في عصر الأباطرة السابقون.

تدهور الاقتصاد في الإمبراطورية أدى إلى نشأة العصابات وقطاع الطرق في بعض الأقاليم مثل إسبانيا وبلاد الغال، حتى وصل الحد إلى إعلان الاستقلال فيهما، حيث انظم إليهم الهاربون من جنود وفلاحين ومعدمين والساخطون على الإدارة المالية بالإمبراطورية، وبالرغم من مجهودات القادة الموالين لكومودو في قمع حركات التمرد، إلا أن هذا الأخير لم يحرك ساكنًا في حل المشاكل مما أدى إلى رفع الأجور بشدة وانحدار الإمبراطورية نحو التدهور وأخيرًا نجحت مؤامرة واحدة أدت إلى اغتيال لإمبراطور كومودو[٣]، الذي خنقه أحد المصارعين حتى الموت داخل حلبة المصارعة، و كان الهدف من وراء ذلك هو منع الإمبراطور من تجديد قنصليته للعام الموالي والتي كانت ستصبح سارية المفعول في اليوم التالي، وضع المتآمرين على العرش هلفيوس برتيناكس (Helvius Pertinax) سنة ١٩٢م، كان شيخًا حاول وضع برنامج لتدارك الوضع الذي آلت إليه الإمبراطورية مما أدى إلى التذمر بين قوات الحرس الإمبراطوري إزاء سياسة الإمبراطور الجديد بسبب إصلاحاته الاقتصادية، لأنه حرمها من البذخ الذي كانوا فيه ينعمون أيام كومودو، فما كان عليهم إلا التخلص منه بعد مظاهرة عسكرية، حيث تم قتله بالقصر سنة ١٩٣م، بعد فقدانه لمؤيديه من كبار الموظفين في الجهاز الإداري.

بعد مصرع برتيناكس عصفت بالإمبراطورية الفوضى، لأن جيوش الإمبراطورية العسكرية المتاخمة خارج الحدود بدأت تتدخل في اختيار الإمبراطور، فكل جيش يريد ترشيح قائده إمبراطورًا ،كذلك سخط هذه الجيوش على قوات الحرس الإمبراطوري إزاء استئثارهم بالعرش وعرضه للمزايدة والبيع، لأن قوات الحرس الإمبراطوري استغلت قيام المنافسة بين عضوين في السيناتو على العرش وحدث ما يشبه بالمزاد العلني العام، إلى أن فاز العضو الثري واسمه ماركوس ديديوس جوليانوس، بعد عرضه لمبلغ قدره ٢٥ ألف سيتركيس للحرس الإمبراطوري وبالطبع رضخ

السيناتو لرغبة الحرس الإمبراطوري ووافق على الترشيح وعاش جوليانوس منغلقًا على نفسه، محتقرًا من طرف العامة ورفقائه في السيناتو[٤]، حتى ثارت القوات العسكرية في الأقاليم الرومانية وقامت الحرب الأهلية التي أدت إلى الاستيلاء على كرسي الإمبراطورية من طرف بوبليوس سيبتيموس سيفروس(Publius Septimius Severus) في سنة ١٩٧م المؤسس لأسرة إمبراطورية جديدة أسرة السيفريين[٥]

ثانيًا: الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور سيبتيموس (١٩٣-٢١١م)

١/٢-شخصيته:

ولد لوشيوس سيبتيموس سيفيروس (Lucius Septimius Severus) في سنة ١٤٥م، من أب يدعى جيتا (Géta) و أم تدعى فلافيا بيا(Fulavia Pia)[٦]، هو أول إمبراطور جندي، في مدينة لبتيس مجنا (Leptis Magna) (المستعمرة الفينيقية الرومانية في الشمال الإفريقي) وهي مدينة لبدة في ليبيا الحالية، يتكلم اللاتينية بنبرة هيلينية، معظم التمردات العسكرية التي توقفت مؤقتًا في عهد سيبتيموس تجددت على أشدها في عهد خلفائه[٧]، تلقى تعليمًا رومانيًا وثقافة لاتينية، درس الفلسفة في أثينا والقانون في روما، تمرس في سلك الوظائف تحت رعاية ماركوس أوريليوس، زوجته الأولى مارسيا(Murcia) كما تولى التريبونية، ثم عين برايتورًا في إسبانيا وحاكمًا على جنوب بلاد الغال وعلى بانونيا ودخل مجلس السيناتو إلى جانب مركزه العسكري كقائد جيش مقاطعة جرمانيا[٨]، كان طموحًا من ورائه زوجته الثانية جوليا دومنا (Julia Damna) السورية الأصل، التي كانت تنحدر من أسرة ثرية بحمص لها مركز كهنوتي كبير، أنجبت له ولدين هما باسيانوس (Bassianus) الملقب كاراكلا (Caracalla) وجيتا[٩]، قلد الإمبراطور ولديه كلا منهما بمرتبة قيصر مع الاسم المعظم أنطونينوس، كما أبحر في نهر النيل إلى الجنوب و أمر بترميم الثقوب الموجودة في تمثالي ممنون اللذان كان يصدران صوتًا خاصة عند الفجر[١٠]، كما قسم ولاية مصر وسوريا إلى ولايتين مثل ما فعل بولاية بريطانيا وزارًا أسيا و ولاية الدانوب، لقد إعترف حول امتلاك العرش قائلاً: "لقد كان هو كل شيء، ولكن ما من شيء كانت له قيمة تذكر"[١١]، كلفته الحملة في بريطانيا حياته بسبب المرض حيث توفي في يورك (Eburacum) يوم (٢١١/٠٢/٠٤م) وتوقف الجيش الروماني عن توسعاته في إسكتلاندا على إثر الحادثة وظل السور حدًا فاصلاً بينها وبين أملاك الإمبراطورية الرومانية[١٢]

٢/٢-ظروف توليه حكم الإمبراطورية الرومانية:

أسفر التفكك المتزايد لمجتمع العبودية عن فوضى تدريجية في الجهاز الحكومي للإمبراطورية الرومانية، في نفس الوقت نمى الوضع العسكري وبشكل استثنائي، بحيث أعطيت القيادات في الدولة للعسكريين الأمر الذي أثار سلسلة من الانقلابات العسكرية والحروب الأهلية من طرف القوات الإمبراطورية المنحلة، خاصة بعد اغتيال كومودو، حيث أتى إلى الحكم إمبراطوران خلال ستة أشهر، (ب.هليفيكس بارتيناكس) و (م. ديريس جوليانوس)، هذا الأخير الذي وصل إلى الحكم بشراء الحرس، عاش منغلقًا على نفسه داخل مقصورته اثر هذه الأفعال شرعت القوات المحتشدة في الأقاليم هي الأخرى بتنصيب قادتها أباطرة.

ثارت القوات العسكرية في الشرق الأوسط وفي سهول الدانوب وفي بريطانيا، رشحت كلها أباطرة من عندها طمعًا في مكافأة مجزية بعد الوصول إلى العرش، ويبدو أن القادة كانت تحلم بالانقلاب حتى قبل تعيين جوليانوس، هتفت قوات الشرق بقائدها جايوس بسكينيوس نيجر (Gaius Pescenius Niger)، والي سوريا إمبراطورًا و ردت قوات الدانوب بالمثل هاتفةً بقائدها وحاكم منطقتها بانونيا (Pannonia) إمبراطورًا، المدعو سيبتيموس سيفيروس،وفي نفس الوقت نادت القوات المتاخمة في بريطانيا بقائدها كلاوديوس البينوس (Claudius Albinus) إمبراطورًا[١٣]، لكن جيش الدانوب بقيادة سيبتيموس دحر خصومه واستولى على روما وأسس بعد أن وصل إلى العرش الأسرة التي حملت اسمه من(١٩٧-٢٣٥م)[١٤].

إن أهم الأحداث السياسية التي تصدرت القرن الثالث وأكثرها تأثيرًا على مجريات الأمور في الإمبراطورية الرومانية، هي ارتقاء العائلة السيفرية عرش الإمبراطورية، لقد وصل سيبتيموس إلى العرش بقوة السلاح معتمدًا على جيشه الذي وهبه السلطان مقابل عطاؤه السخي، وظل الجيش إلى جانبه، ومع الضغط على مجلس الشيوخ للإذعان والاعتراف له بعرش الإمبراطورية، فأصبح سيبتيموس إمبراطورًا شرعيًا بعد أن قضى على خصومه، وكان أقواهم وآخرهم كلاوديوس البينوس الذي قتل في ليون سنة ١٩٧م. ثم تفرغ بعدها إلى خصومه في العاصمة روما

وفي الولايات الأخرى وتهدئة سكان المقاطعات الرومانية في الشرق والغرب.

كان لضخامة الجيوش أثر في ترجيح كفة ميزان الصراع على العرش، حيث نجد البينوس يقود ثلاث فرق، أما نيجر كان يقود تسعة فرق وسيبتيموس فكان يقود اِثْنَتَا عَشْرَةَ فرقة، فضلًا عن تواجده بالقرب من إيطاليًا، كان التأييد العام يميل نحو نيجر، خاصةً من جانب السيناتو والشعب الروماني ولكن سيبتيموس كان أسرع منه في التصرف فدخل روما من الشمال وأضاف اسمه إلى الراحل برتيناكس ليلغي وجود جوليانوس القانوني من ناحية، ومن ناحية أخرى لكي يظهر نفسه منتقمًا لمصرع برتيناكس ووريثًا له كإمبراطور. كما أعلن نفسه أنه ابنًا متبنًا لماركوس أوريليوس وأرغم السيناتو على تأليه أخيه بالتبني كومودو كما زعم، كذلك غير اسم ابنه باسيانوس الذي أشتهر فيما بعد بكراكلا وسماه ماركوس أوريليوس انطونينوس، وهذا لعدة أسباب ربما بدافع ربط أسرته بهذه الأسرة أو لهدف وراثة ضياع انطونينوس التي ضمها إليه، أو بسبب إعجابه به[١٥]. لما أحست قوات الحرس الإمبراطوري بنوايا سيبتيموس هجرت جوليانوس وانفضت من حوله، هذا الأخير الذي أظهر عدائه لسيبتيموس قبل دخوله روما حيث أعلن باسم السناتو أن سيبتيموس عدو الشعب[١٦]، على إثر هذا الوضع رضخ السيناتو لسيبتيموس وأنعموا عليه بالألقاب التشريفية وأدانوا جوليانوس بالحكم عليه بالإعدام[١٧].

كان على سيبتيموس التخلص من أعدائه ومنافسيه خاصة نيجر والي سوريا ومن أجل ذلك هادن البينوس قائد بريطانيا واستدعاه لتولى مهمة أخرى[١٨]، ثم استدعى سيبتيموس قواته إلى الخدمة لمحاربة نيجر الذي كان قد ضمن لنفسه مبايعة الولايات الشرقية، وكان نيجر يحظى بموقع استراتيجي هام لأنه يمكن أن يقطع القمح المصري عن روما فترضخ خوفًا من المجاعة، ولهذا السبب قام سيبتيموس ببعث فرق عسكرية إلى إفريقيا لقطع الطريق على نيجر خوفًا من استيلائه على مصر وليبيا، كذلك بعث بفرق أخرى إلى بلاد اليونان و تراقيا[١٩]، تحرك نيجر واستولى على مدينة بيزنطة ليتحكم في مدخل البوسفور والدردنيل، وما إن وصل سيبتيموس حتى حاصر بيزنطة وأحرز عدة انتصارات جعلت من نيجر يرجع و يحتمي بجبال طرسوس بسوريا في سنة ١٩٤م، ثم لاحقه سيبتيموس وهزمه في إيسوس في نفس المكان الذي هزم فيه الإسكندر الكبير ملك الفرس دارا (داريوس)، واتجه نيجر نحو الفرات[٢٠] محاولًا الهروب إلى مملكة البارثيين، لكن جنود سيبتيموس لحقت به وقتلته[٢١].

انتقم سيبتيموس من المدن والقوات التي أيدت خصمه، مثل أنطاكيا (Antioche) التي أمدت نيجر بالمال والرجال، وقام كذلك بإعدام رجال السيناتو الذين حاربوا إلى جانب نيجر بصفة قادة (Tribun)[٢٢]، ثم قام بغزو لبلاد، شمال ما بين النهرين وحاول محاربة البارثيين، لولا استدعائه العاجل لمواجهة خطر الانقلاب الذي قام به البينوس سنة ١٩٥م في هذه الأثناء استسلمت بيزنطة بسبب الحصار الذي أدى إلى المجاعة، حيث هدمت أسوارها وقتل أعضاء حكومتها وصودرت أموال مواطنيها.

جلس البينوس على عرش الإمبراطورية الرومانية بعد غياب سيبتيموس، ومما ساعده للخروج عن طاعة سيبتيموس هو السيناتو وزوجته خاصة، الذين لقبوه بلقب أغسطس وقبل البينوس تحدي سيبتيموس حيث جمع قواته عند لوجدونوم (Lugdunum) (ليون حاليًا بفرنسا)، قام سيبتيموس بتعيين ابنه باسيانوس الذي عرف باسم كاراكلا قيصرًا وولي عهده، ثم سار غربًا لملاقاة خصمه البينوس.

في فيفري سنة ١٩٧م، انتصر سيبتيموس على جيش خصمه البينوس الذي وضع حد لحياته بيده قام بعدها سيبتيموس بتأديب سكان مدينة ليون، وذلك بتركه للجنود الحرية في القتل والنهب وإشعال النار في المدينة[٢٣]، وكما أسلفنا أنه من هذا التاريخ آل عرش الإمبراطورية إلى عائلة إفريقية ليبية خلال الثلث الأول من القرن الثالث ميلادي، هي عائلة سيبتيموس من لبدة التي استطاعت الاحتفاظ بالتاج من(١٩٧-٢٣٥م)، وإحداث تغيرات جوهرية في تاريخ الإمبراطورية[٢٤].

ثالثًا: سياسته

يمثل عهد سيبتيموس نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، حيث كان عليه لبلوغ السلطة أن يتغلب على كل خصومه، وهكذا اضطربت أحوال الإمبراطورية واهتزت أركانها بنشوب الحرب الأهلية، كما أختل الميزان الاقتصادي وخاصةً بازدياد رقعة أراضيه الخاصة التي استولى عليها نتيجة مصادرته ممتلكات خصومه، كما لا ننكر صفاته التي تجلت في قيادته وبطشه و وحشيته بخصومه المتمثلين في طبقة النبلاء والمثقفين الذين كانوا حاشية الإمبراطور

السـابق، فقـد اسـتوجب عليـه التغييـر حيـث التجـأ إلى اختيـار ولاتـه وحاميتـه مـن طبقـة أخـرى تختلـف عـن سـالفتها في النشـأة والنظـرة إلى الحيـاة، لقـد أدرك سيبتيموس الأهمية الحيوية التي ترتبط بتكوين جـيش كبير يدين له بالولاء، لهذا قـام بالعديـد مـن الإصلاحات في شتى المجالات.

٣/١-السياسة العسكرية:

لقد استولى سيبتيموس على العرش بقوة السلاح والجيش، الذي وهبـه الحكـم والسلطان وقـام بإكراه مجلــس الســيناتو عــلى قبولــه وإعطائــه الصــبغة الشرعية[٢٥]، لقد اعتمد على الجيش في فلسفة حكمه هو الـذي جعلـه يفعـل ذلـك، إذ أن سـكان المقاطعات وحـدهم هـم الـذين كـانوا يقبلـون عـلى العمـل في الجيش بعد تنظيمه الجديد.

ولـكي يـرضي السـيناتو تـرك لهـم الأمـر ليحـاكموا أعضائه الفاسـدين إزاء ذلـك أذعـن السـيناتو لمطالبـه، وألقـى بقاتـل كومـودو الملقب بنارسيس (Narcisse) إلى الأسـود[٢٦]، وحـاكم كـل أتبـاع وأنصـار جوليـانوس وقتلـة برتينـاكس مـن قـوات الحـرس الإمبراطـوري واستبدلها بقوة جديدة من جنوده من جـيش الـدانوب، وبـذلك ضـمن لنفسـه تأييـد حـرس جديـد انتقـاهم بنفسه[٢٧]،و أخيرًا وجد سـيبتيموس نفسـه إمبراطـورا لا ينافسه أحد في الحكم، على إثـر انقطـاع العلاقـة بينـه وبـين البينـوس ونهايـة نيجـر نشـبت الحـرب بينـه وبـين مجلس السيناتو لأنه خرج على نظام التبني بعدما قام بإشراك ابنه كاراكلا معه في الحكم[٢٨]، أدرك أنه يتوجب عليه اقتلاع جذور المتـآمرين في رومـا، حيـث اسـتخدم عنفًـا لم يسـبق لـه مثيـل، وراح يسـتأصـل كـل مؤيـدي البينـوس في كـل البلـدان بـلا رحمـة أو شـفقة، و في روما أعدم تسعة وعشرون عضوًا مـن أعضـاء السـيناتو بتهمـة التـآمر والخيانـة العظمـى[٢٩]، وسـاد الرعـب والخـوف، وأذعـن السـيناتو لكـل مطالـب الإمبراطـور و وافقــوا عــلى تعيــين ابنــه كــاراكلا كخليفــة منتظــر (Imperotor Designatus)، وهكـذا أصـبح الجـيش الروماني لأول مرة ممثلاً لكل شعوب الإمبراطورية عن طريـق فـتح التطـوع أمـام الجميـع، وفي سـنة ١٩٩م عندما زار مصر أمرًا بإدخـال تعـديلات إدارية، منهـا مـنح الإسكندرية مجلسًا تشريعيًا وكذلك باقي مدن مصر[٣٠]، هذه الخطوة كـان يقصـد بهـا توحيـد الـنظم في سـائر أرجاء الإمبراطورية الرومانية.

في هذه الأثناء استغل ملك البارثيين فولوجاسيس الرابـع (Volojacis IV) الصراع حـول العـرش برومـا حيـث استولى على أرمينيا وشمال بلاد ما بين النهرين، وجـد الإمبراطور سيبتيموس نفسه في قتال مفروض عليـه وحـروب مسـتمرة منـذ سـنة ١٩٧م ، قـاد حملـة كـبرى بنفسه ضد الفرس في الشرق، وصل بجيشه شتاءً (١٩٧-١٩٨م) تراجـع البـارثيين ورفعـوا الحصـار الـذي فرضـوه عــلى قلعــة نيســبيس (Nisbis) الرومانيــة[٣١]، قضىـ الإمبراطور الفترة مـا بـين سـنة (١٩٩-٢٠٢م) في تجـوال دائم، حيث أقام هناك سنوات حتى ٢٠٢م، أخمد خلالها نيران التمرد بمقاطعات الشرق وأجـرى هنـاك إصـلاحات إدارية وعسكرية[٣٢].

عندما هاجم سيبتيموس مملكة البارثيين وانتهـى بـاحتلال عاصـمتهم (طيسـفون) عـلى شـاطئ دجلـة وأنشاء ولاية ما بين النهرين قام بملاحقة البارثيين[٣٣]، من بعد هذه الهزيمة زالت مملكـتهم وتـوارتهم منـذ تلـك الفـترة[٣٤]، قضىـ الإمبراطـور سـيبتيموس مـدة عامين بإفريقيا ووضع عـدة اسـتحكامات عـلى الحـدود ورفـع عـدة مـدن إلى المسـاواة في الحقـوق مـع الرومـان، ثـم فصـل إقلـيم نوميـديا عـن إفريقيـا، ومـن الملاحظ أن الإمبراطور كـان يتخـذ طـابع تفتيـت الولايـات الكبرى حتى يعطيه ذلك فرصة في السيطرة المطلقة وكذلك ليحول دون أحلام التمـرد والانفصـال الـذي كـان يراود بعض حكام الولايـات الكبـيرة، في سـنة ٢٠٨م زار بريطانيـا ورد القـوات الزاحفـة إلى حـدود إسـكتلندا ثـم جعل حائط هادريانوس الشهير حدًا فاصلاً بين بريطانيـا الرومانية والقبائل الشمالية، من هنـا أنعـم عـلى ابنـه جيتـا بلقـب أغسـطس سـنة ٢٠٩م و رفعـه مـن درجـة قيصر.

لم يضــمن الإمبراطــور ولاء الجــيش لــه ولهــذا لم يقوم برفـع راتـب الجنـدي فحسـب بـل سـمح لـه بعقـد قران روماني شرعـي أثنـاء مـدة خدمتـه، وبـأن يعـيش خارج الثكنات ومن ثَمَّ يصـبح أبنائـه مـواطنين رومـانيين يتمتعـون بكافـة حقـوق المواطنـة الرومانيـة، كـما لا يلغـي أن يتبـع هـؤلاء الأبنـاء حرفـة آبـائهم. كـل هـذا العمــل نتيجــة لصــد الخطــر الــذي كــان يــداهم الإمبراطوريــة[٣٥]، ضرب بيــد لا تــرحم الأرســتقراطية الرومانيـة التـي وقفـت إلى جانـب خصـومه، حيـث أبيـد عـدد كبـير مـن أسر الأعيـان، كـما مكنتـه المصـادرات الوحشـية مـن إشـباع أتباعـه، قـام بمضـاعفة رواتـبهم وصار من حق الجندي البسيط أن يدخل صف الضباط كما سرح الإمبراطـور الفصـائل الإمبراطوريـة المشـكلة في إيطاليـا، وألـف حرسـًا جديـدًا، أختـاره مـن صـفوة جنـود الأقاليم، بحيث أصبحت روما تغص بالعساكر، وجود أكثر

من فرقة في إيطاليا يمكنه الاعتماد عليها وخاصة في محاربة بعضهم البعض عند الضرورة، حيث حشد الألبانيين ليقفوا بالمرصاد للحرس الإمبراطوري، وعساكر التموين في وجه الفرسان الممتازين، كل هذا كان تأهبًا في حالة السعي لإسقاط الإمبراطور عن العرش[٣٦]، كما أذن للقوات المعسكرة على الحدود بامتلاك قطعة أرض، ليعيش الجندي مع أسرته وفي موطنه، ولا يأتي إلى الثكنة إلا من أجل التدريب كما شرع بوضع الجيش في خدمة سياسة خارجية حازمة[٣٧].

تمكن سيبتيموس من السيطرة على الوضع في الإمبراطورية، و أعاد الأمن و الطمأنينة للنفوس كما دحض أعداء روما المتاخمين على الحدود، خاصة الكاليدونيين، الذين اجتاحوا معظم الجزيرة البريطانية مما اضطر الإمبراطور إلى محاربتهم وقيادة الجيش بنفسه، إلى جانب ولديه كاراكلا وجيتا، في هذه الحملة سنة ٢٠٨م دحر الأعداء وقام بإعادة بناء سور هادريان الذي حطموه[٣٨].

قام بإصلاح المجال العسكري فعدل الجيش، وغيرَ قياداته لضمان الولاء، وأسند الوظائف الإدارية لجنود مخلصين، فافتح المجال أمام الضباط للوصول إلى أعلى المناصب في إدارة الإمبراطورية، وأعترف بشرعية الزواج الذي يعقده الجنود مع نساء غريبات[٣٩]، كما سبق وذكرنا، أثناء أداء تأديتهم الخدمة العسكرية والاعتراف بشرعية الأبناء الذين يولدون من هذا الزواج (Ex Castris)، بل وسمح للجنود المتزوجين بحق الإقامة مع عائلاتهم بالقرب من المناطق التي تعسكر فيها القوات التابعين لها.[٤٠]

وبعد الاستقرار سارع بتوزيع المنح (Congiaria) على الجنود وعلى الشعب كذلك، وزاد رواتب الجند بمقدار الثلث تقريبًا، يرى البعض أن هذه الامتيازات منحت إجباريًا لا اختيارًا وتحت دافع الحاجة إلى تأييد الجيش للحكم ولم يعدّ الإمبراطور قادرًا على منح فرقة معينة امتيازًا خاصًا دون الأخرى كما كان يحدث سابقًا. كانت وجهة نظره عدم احتكار الحكم من طرف الرومان والإيطاليين والسماح لسكان المقاطعات بالتمتع بهذه الحقوق التي حرموا منها منذ أمد طويل، ولتحقيق ذلك اتبع طريقتين الأولى تقليل من امتيازات إيطاليا، ومعاملة الولايات الأخرى بدون تمييز. ظهرت سياسته الداخلية اهتمامًا لم يسبق له مثيل لمصالح الرعايا الذين يعيشون بعيدًا في الأقاليم خاصة مشاكل الإدارة والحكم، ولم يكن له اتجاه قومي معين وهذا ما نلاحظه عند توزيع مهام الإدارة والعمل، خاصة لقدماء المحاربين وقام كذلك بإعفائهم من أداء الخدمات البلدية (Munera)[٤١]، رغم هذا أتهم بأنه لا يحمل شعورًا وطنيًا للإمبراطورية بقدر ما يحمل لولايته الأصلية في إفريقيا.

ومن التجديدات التي قام بها تعيين قائدين لقوات الحرس الإمبراطوري بدلًا من قائد واحد، حيث وصل لهذه النتيجة بعد تجربته مع قائد قواته البرايتورية جايوس فلوفيوس بلاوتيانوس (Caius Fulvius Plautianus)، إستغل هذا الأخير زمالته للإمبراطور في تدعيم مركزه، حصل على مقعد في السيناتو وتولى القنصلية ونظم زواج ابنته بلوتيلا من كاراكلا رغم معارضة أمه جوليا دونما[٤٢]. وفي عهد بلاوتيانوس ازدادت مسؤوليات قائد الحرس الإمبراطوري[٤٣]، أصبح يشرف حتى على حصص القمح (Annona)،و ينظر في القضايا المدنية الواقعة على مسافة ١٠٠ ميل على مركز العاصمة و نزع هذا الحق من القضاة السيناتوريين الذين أصبحوا ينظرون في قضايا الأقاليم فقط، كما أصبح يقوم بالاستماع في قضايا الاستئناف والفصل فيها باسم الإمبراطور، أزعج تضخم مركز بلاوتيانوس كل من جوليا دومنا وابنها كاراكلا فدبرا له مؤامرة للقضاء عليه سنة ٢٠٥م وهي اتهامه بالخيانة العظمى ثم دبرا بعدها اغتياله، ومن هذه اللحظة تفادى الإمبراطور ما حدث بتعيين قائدين حتى يراقب كل منهما الآخر[٤٤].

كان يسير مبدئيًا على سياسة حكام الإمبراطورية من سبقوه منذ وقت طويل، فلم يكن هناك أي انقلاب ثوري في سياسته هذه، ولكن جعل سياسة قيادة الإمبراطورية بأسلوب عسكري، وبصيغة ديمقراطية، كانت هذه السياسة نتيجة لأزمة اغتصاب السلطة وإنشاء ملكية وراثية جديدة، حتى أنه رفع صورته وصورتي ابنيه على تيجان الكهنة (Flamines) في البلديات بدلًا من صور آلهة الكابتول[٤٥].

٢/٣-سياسته الاقتصادية:

الجانب السلبي في سياسته يتسم بتشديد رقابة الدولة على الجمهور ومصالحه وذلك عن طريق أجهزة ذات طابع عسكري، بحت، من العوامل التي ساعدت على ظهور شخصية سيبتيموس هو التدهور الاقتصادي المفاجئ في الإمبراطورية الرومانية، مما دعاه إلى اتخاذ سلطات فوق القانون لمواجهة هذا الانهيار، وبالفعل نجح في تحسين وضع الاقتصاد قليلًا بزيادة الضرائب، ولكن التدهور غطى على الإصلاح هذا

ما اضطره إلى تخفيض قيمة العملة الرومانية وذلك بالتقليل من وزن الفضة والذهب التي ألحقت بالتجارة الداخلية الخراب، كما هدد مستأجرا الأراضي التابعة للإمبراطور بترك الأرض إذا ما استمر إلزامهم إجباريًا للقيام بأعمال إلزامية في المدن التي تقع حقولهم في زمامها مما يعطلهم عن فلاحة الأرض التي يدفعون عنها الضرائب والرسوم، حتى أن بعضهم هجر الأرض وانضم إلى العصابات في الجبال، وقد قام بعض الفلاحين برفع شكاوي إلى سيبتيموس حول ظلم الأغنياء الذين اغتنموا غياب الفلاح في أداء الواجب نحو الإمبراطورية، حيث استولى الأغنياء على الأراضي[٤٦]، ومما زاد في صعوبة مهمة الإمبراطور انه ورث خزانة فارغة بسبب نفقات الحرب قبل وبعد توليه الحكم، ولكن تغلب على العجز عن طريق مصادرة أملاك أعدائه، مما تطلب إنشاء خزينة خاصة (Ratio Privata)[٤٧].

كان كذلك لسياسته وجهًا آخر إيجابي المتمثل في إطلاق الحرية لرجال الشرع، فظهر القانون في عهده متصف بالنبل والشمول والإنسانية وبرزت فكرة العدالة البشرية، فمن حق الجميع أن ينعموا بالمساواة، هذا مما أدى إلى ظهور تشريعات في عهده اتسمت بالعطف على ضعاف الناس من فقراء وفلاحين تحميهم من ظلم الطبقة الحاكمة و تعسف الإدارة الإمبراطورية، لقد ساس الإمبراطورية على نحو حقق له التوازن في الولاء من طرف أهل المدن والأرياف على السواء لقد أظهر تفهمه لسكان المدن وأغدق عليهم مثل ما هو الحال بالنسبة للريفيين، ونالت المدن التي وقفت إلى جانبه ضد خصومه حظًا كبيرًا من العناية ،مثل مدن إفريقيا، سوريا والدانوب التي عمها الرخاء وساد فيها الازدهار وارتقى الكثير منها أعلى درجات السلم الإداري، وخصّها الإمبراطور بالهبات والمباني ذات المنفعة العامة والمنشآت التذكارية، خاصة في إفريقيا، أقام بها الصروح والتماثيل و أقواس النصر تعبيرًا عن تعلقه بها، وهناك مدن لاقت ضنك العيش وشدة في التسيير ومضايقة من طرف الحكام، خاصة المدن التي اشتهرت بموقفها العدائي للإمبراطور الإفريقي مثل بيزنطة، ليون و أنطاكيا[٤٨]، اعتمد سبتيموس على خيرة الأعلام في التشريع والقانون الروماني كان أحدهما بابينيانوس (Papininus) سوري الأصل، كما ضم إلى مجلسه الاستشاري اثنين آخرين من شيوخ الفقهاء القانونيين وهما باولوس واولبيانوس سوري الأصل[٤٩]، كان هؤلاء متشبعين بالثقافة الهيلينية الشرقية بالإضافة إلى تعليمهم الروماني، كما قام بتعيين مدرسين لتعليم أهل القرى ،وضع عدة لوائح إنسانية، منها تحريم الإجهاض وحماية حقوق الزوجات ورعاية الأسر الفقيرة، وفي عهده وزع الدواء مجانًا على المرضى بإشراف الطبيب جالينوس[٥٠].

بعد عودته إلى روما استقل إلى إفريقيا سنة ٢٠٣م لتهدئة الأوضاع وانتزاع الولاء من الطبقة الأرستقراطية في مدن الولايات الإفريقية، خاصة أن الطبقة الأرستقراطية كانت تحظى بمكانة مرموقة في تلك الولايات نظرًا لدورها الاقتصادي ومنزلتها المعنوية في المجتمع، فضلًا عن الثقل الذي كانت تمارسه لدى فرق الجيش الولائي، وفي عهده تدفق الجنود المسرحون (Reterani) على الوظائف في الولايات، وشغل الضباط الصغار الكثير من الوظائف التي كان يشغلها رجال طبقة الفرسان التي أحالها محل طبقة السيناتو.

قام بمنح الجمعيات والرابطات (الصناع والتجار) (Collegia) مقابل المساعدة في إطفاء الحرائق عند نشوبها في المدن، أما أصحاب السفن فكانت لهم رعاية خاصة لأن سفنهم تقوم بخدمات هامة (Munus Publicum) نظرًا لجمعها ونقلها المؤن خاصة أثناء الحملات، قام بمنحهم امتيازات منها إعفائهم من أعباء البلديات، كذلك منح مستأجري الضيعات الإمبراطورية نفس الامتيازات باستثناء التكليف من طرف الدولة بأداء أعمال خيرية أخرى[٥١].

٣/٣-الجوانب الإيجابية والسلبية لسياسته:

يعتبر تولي سبتميوس منعطفًا خطيرًا في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، منذ بداية تولي العناصر الدخيلة القيادة والسلطة، ولكن على الرغم من ذلك حاول التحلي بمزايا الأباطرة الأولين وهذا ما نلاحظه عندما غير اسم ولده باسيانوس الذي اشتهر باسم كاراكلا، كان شديد الإعجاب بسلفه ماركوس أوريليوس، حيث كانت عقلية سيبتيموس مزيجًا من البيروقراطية والعسكرية و واقعية التفكير السياسي حسب مشاكل العصر وأخطاره[٥٢].

(٣/٣) ١-الجوانب السلبية:

- لقد أصاب سبتيموس الروح العسكرية في الصميم بسلوكه هذا الذي اتخذه سبيلًا مع جنوده للحفاظ على العرش وهذا ما نلاحظه في مقولته الشهيرة التي أوصى بها ولديه، وهو على فراش الموت حيث قال: "أوصيكما بالاتحاد وإجزال الغنى إلى

الجنود وازدراء البقيـة" أو كـما يقـول آخـرون "أجـزل العطاء للجيش ولا تبالي بالآخرين". لقـد أثـارت هـذه المقولة حفيظة المؤرخين ومنهم من نفاها عنـه، ولكنهـا تطـابق سياسته العامـة وتعبر بصـدق عـن المكانة المرموقـة التـي حظـي بهـا الجـيش لديـه، تلك المكانة التي ضمنت لأسرتـه وراثـة العـرش مـن بعده[٥٣].

- قـام بوضـع أسـاس مقـدس لـلأسرة الحاكمـة، حيـث أصـبح الإمبراطـور رسـميًا يعـرف باسـم المـولى (Dominus) ورومـا مقـر قصـره تعـرف بالمدينـة المقدسـة (Urbs Sacra)، غـيرّ أسـاس الحكـم مـن أساسـه ليتخـذ طـابع الأوتوقراطيـة العسـكرية أو الحكم العسكري الانفرادي والمطلق[٥٤].
- فرض لأول مرة على إيطاليا تواجد قوات الجيش على أراضيها وبالقرب من روما مثلها مثل باقي المقاطعات الرومانية الأخرى.
- اعتـبر أن الجـيش هـو جـوهر السـلطة والحكـم ومصدرها، حيث أعطى الجنود وضعًا مميـزًا، ولهـذا اتهمـه المـؤرخين الأوروبيـين بـأول مـن زرع الديكتاتوريـة العسكرية، ومن المزايا التـي تحصل عليها الجنود في عهده، زيادة كبيرة في الرواتب بلغت مقدار الثلث بحجة تعويضهم عن زيادة الأسعار التي ارتفعت في عصر كومودو.
- لقد جمع بين يديه ثروة طائلة من العقار خاصة بعد إنشائه للمصلحة الخاصة والتـي مـن خلالهـا مـلء خزانـة الإمبراطوريـة، حيـث سخـا بهـذا المـال الـذي جمعـه مـن المصـادرة و الإتـاوات لرشـوة الجنـود و رعاع الرومان وهذا لتنمية مصالحه وإرضاء مطامعه الشخصية فقط[٥٥].
- نتج عن ذلك ظهور المساكن الحقيرة بجوار الثكنات العسكرية، تقـيم فيهـا زوجـات الجنـود وأبنـائهم، وأتـاح لهـم العـيش في شـكل مجموعـات بهـدف إنمـاء عـددهم، ذلـك أدى إلى انهيـار الـروح العسـكرية بصـفة تدريجيـة، لـدى الجنـدي الروماني[٥٦].
- إن مصـادرة الأراضي عصـفت بالحيـاة الاقتصـادية، فرأس المال الخاص والابتكار الفردي استبعدًا، وحـل محله نظام إداري بيروقراطي جديد لا حياة فيه، إن رأس الفساد في الإمبراطوريـة هـم العـدد الغفير مـن عـمال الإمبراطوريـة وأكـثرهم الجنـد ومـنهم عسـاكر التمـوين (Frumentarii) الـذين يقومـون بواجـب الشرـطة، وجنـود الثكنـات (Stationarii) والشرطة الحربية (Colletiones) هؤلاء كانوا يبتزون الناس، وخاصة في الحروب حيث لم تراعـى مصالح الشـعب، فنجـد التجنيـد الإجباري و اغتصـاب وسائل النقل وخدمة الجيوش القهريـة مـن طـرف الشـعب (تموين، إيواء، جمع التبرعات...) هؤلاء الجنود الذين كـانوا ينقضـوا عـلى القـرى والمـدن كـالجراد الـذي يجري على الأخضر و اليابس، أدى ذلـك كلـه ببعـث الالتماسات إلى الإمبراطور من أجل إنصافهم ولكـن لم تأخذ شكاويهم بعين الاعتبار مـن طرفـه، وعـلى إثر هذا ظهر الساخطون عـلى مـوظفي الحكومـة ومن هنا ظهرت حالة الفرار من الحقول و الانضمام إلى العصابات المسلحة، ولهذا لا يمكن أن نقـول أن عصر سيبتيموس كان عصر رخاء و رفاهية[٥٧].
- يلاحظ أن قيمة العملات الفضية أخذت في الهبـوط المسـتمر منـذ عهـد الإمبراطـور أوريليـوس (١٦١-١٨٠م) الذي أنقص العملـة إلى ٧٥ % مـن الوحـدات الفضـية، و بلـغ مقـدار الـنقص في قيمتـه ٥٠%مـن الوحـدات الفضـية تحـت حكـم سـيبتيموس (١٩٣-٢١١م)، ثم واصل العملة انخفاضها حتـى صارت في عهد جالينوس (٢٦٠-٢٦٨م) عملـة نحاسـية مغطـاة بطبقة رقيقة مـن الفضـة بلغـت ٠٥ % مـن الوحـدات الفضية[٥٨]، في هذا النصف قـرن الرومـاني خفضـت قيمـة النقـد الإمبراطـوري إلى درجـة الصـفر، وتعرضت البلاد إلى هجـمات مـن وراء الحـدود كلهـا مخربـة منهـا انتصـار القـوط عـلى أسـيوس وقتلـه (٢٥٠-٢٦٠م) والفرس على فاليريان وأسره، حتى أن المرتبات تمت في بعض الوقت عينيًا والتجارة تمـت بالمقايضة[٥٩].

غفر معاصروا سـبتيموس لـه ضروب القسـوة التـي استهل بهـا عهـده، حـين نعمـوا بالسـلم والمجـد بعـد ذلك ولكن الأعقاب الـذي خـبروا الآثـار الفتاكـة لمبادئـه ولمـن حـذا حـذوه، اعتـبروه حقًـا المنشـئ أو المخطـط الأساسي لاضمحلال الإمبراطورية الرومانية[٦٠].

(٣/٣) ٢-الجوانب الإيجابية:

- مـنح لـبعض سـكان الولايـات الحـق الإيطـالي، هـذا الحـق يعطـي نفـس الامتيـازات الاجتماعيـة والتشريـعية للمـواطنين، وكـان اهتمامـه خاصـة بولاية إفريقيا وصقلية.
- ألغـى احتكـار تجنيـد القـوات الإمبراطوريـة مـن بـين الرومان والإيطاليين وفتح الباب لجنـود المقاطعـات الأخـرى حتـى يكسرـ سـيطرة الرومـان والإيطـاليين

على هذه القوات التي كثيرًا ما كانت تصنع الأباطرة، حتى أنه حرم على الرومان الدخول في هذه القوات ولم يلغى هذا القانون إلا في بداية القرن الرابع الميلادي.

- كسر احتكار الرومان لعضوية السيناتو وفتحها أمام جميع سكان الإمبراطورية حتى أن الإيطاليين لم يعد يشغلون سوى ثلث المجلس.
- لقد حطم سيبتيموس الطبقة السياسية العازلة بين الرومان والمواطنين في الولايات الأخرى وهدم كل أعمال هادريانوس الذي حاول أن يجعل فاصلاً بين ولايات الغرب والشرق.
- كما فتح الوظائف المدنية أمام العسكريين وسهل لهم الترقيات ومنحهم الامتيازات بعد التسريح من الجيش، كما سمح لهم بفلاحة الأرض الواقعة حول المناطق التي كانوا يعسكرون فيها، وإنشاء القرى الدفاعية المسلحة خاصة على الحدود، كما زاد من كفاءة الجنود القتالية بتشجيع التخصص في أنواع الأسلحة، ودفع الفرسان لتولي قيادة هذه التخصصات، وانتزع المراكز القيادية من السيناتو نظرًا لتدهور الروح العسكرية عند هؤلاء، وهذا يعتبر تحطيم للتقليد الطبقي الروماني الذي كان متبعًا بدقة منذ أيام أغسطس، كذلك أنشأ قوة عسكرية متحركة يقودها بنفسه، وقد ازداد عدد الفرق في فترة حكمه من ٣٠ إلى ٣٣ فرقة عسكرية.

خاتِمَةٌ

من خلال الدراسة يمكن لنا من خلال شخصيته وأحوال الإمبراطورية قبل استيلائه على العرش، والتغييرات السياسية والعسكرية والاقتصادية وحتى الاجتماعية التي أحدثها في مختلف دواليب الحكم في الإمبراطورية الرومانية أثناء حكمه، أن نخرج بالنتائج التالية:

- يعتبر عهد سيبتيموس سيفيروس نقطة تحول حقيقية نحو فقدان العنصر الروماني والإيطالي السيطرة على زمام الإمبراطورية الرومانية، خاصة الجيش الذي لم يعد في القرن الثالث للميلاد رومانيًا، وحتى منصب الإمبراطور.
- هو من الشخصيات المتميزة من خلال دراسة سيرته وأعماله وجهوده وسياسته، خاصة أسلوب الإشراف على الدولة ومبادئ حكمه وكذلك حياته في الأسرة وتأثيره فيها، يتبين أنه كان مُصرًا للوصول إلى غايته بكل الطرق، لقد ابدي مقدرة كبيرة في الحكم والسياسة التي ساس بها جيش الإمبراطورية، حيث وصف عهده بمرحلة هامة في تاريخ الإمبراطورية والنظام الروماني، لقد استطاع هذا الإمبراطور أن يؤسس أسرة قصيرة العمر في الحكم ظلت حوالي ٢٤ سنة، بالإضافة إلى ذلك يعود الفضل أولاً إلى الإمبراطور سيبتيموس في تأجيل الكارثة ولو ظرفيًا والتي عصفت بالإمبراطورية بعد زوال أسرة السيفريين، كل ذلك يبدوا واضحًا في مدى تغلغل النفوذ العسكري وسيطرته على مجمل قطاعات السلطة الإمبراطورية.
- لقد استطاع سيبتيموس أن يصل إلى غايته، في الانتصار على خصومه ونجاحه في تحقيق الوحدة، وتمكن من حل معظم المشاكل التي لاقته بفضل اعتماده على الجيش، فحين ترك الدولة لابنه كاراكلا كانت هادئة خالية من التعقيدات خزينتها مليئة تكفي روما لسنوات، وذلك ما جعل فتره خليفته تتسم بالاستقرار.
- حفظ الإمبراطورية وتثبيت دعائمها مع تمكينها من البقاء والاستمرار ولو مؤقتًا، وهذا ما نلاحظه في مصادرة الأراضي التي عصفت بالحياة الاقتصادية، فرأس المال الخاص والابتكار الفردي استبعدًا، وحل محله نظام إداري بيروقراطي جديد.
- تحقيق وحدة الإمبراطورية ولو بشكل ظرفي، ساعدًا ذلك في ضمان بقائها ونموها وازدياد

قوتها، وكان ذلك على حساب ابتزاز الناس من طرف مـوظفي الإدارة، وخاصـة في الحـروب حيـث لم تراعـى مصـالح الشـعب، فنجـد التجنيـد الإجبـاري واغتصاب وسائل النقل وخدمة الجيوش القهرية من طرف الشعب.

- العمل على تقوية الإمبراطوريـة عسكريًا وجعلها تسترد مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء من خلال التوسعات خارج حدودها وذلك بإضافة أقاليم جديدة إليها، وخاصة في بريطانيـا، إفريقيا وآسـيا، وفي نفـس الوقـت أصـيبت الـروح العسـكرية في الصـميم بالسـلوك الـذي اتخـذ سـبيلاً مـع الجنـود للحفـاظ علـى العـرش، حيـث أعطـي الجنـود وضـعًا مميـزًا متمثـل في توزيـع المـال الـذي جمعـه مـن المصـادرة والإتـاوات لكسـب الجنـود وهـذا للحفـاظ على مصالحه الخاصة.
- وضـع أسـاس السـيادة الاقتصـادية للإمبراطوريـة بإصدار عدة تعديلات في العملة والضريـبة للحفـاظ علـى اقتصـاد الدولـة، لكـن ذلـك أدى إلى انخفـاض مسـتمر في قيمـة العمـلات الفضـية في فـترة حكمه.
- منح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية الذين لم يطالهم هذا من قبل، هذا القـرار لم يكـن لــه أهميــة حقيقيــة تــذكر، لأن عــبء الخــدمات والضرائب بقـي علـى حالـه، واتسـعت الهـوة بـين سكان المدن والريف، في الواقع هذا القرار أنهـى حكـم الدولـة التـي تقـوم علـى مجلـس الشـيوخ، وأصبح حامـل هـذا اللقـب يعنـي انـه قـاطن بإحـدى المقاطعـات الإمبراطوريــة، وبهــذا أصـيب تسـلط الأرسـتقراطية الرومانيـة في الصـميم وأحـبط مـن شانها.
- حـافظ علـى أحـد المقومـات الكـبرى للإمبراطوريـة بتحويل جميع مدن المقاطعات مساوية لروما في معظم المجـالات وقـد استمرت الإمبراطوريـة بعـد ذلك محتفظة بهذه المميزات والمقومات والأسس لمدة زمنية طويلة.

الهَوامِشُ:

(1) Bonifacio, A., Maréchal, P., Histoire Orient .Grèce, Rome, École secondaire, Paris, 1962, p .225 .
(2) Dion Cassius, Histoire romaine, trad. E. Gros, V. Boissée, t.2, Librairie de Firmain Didot, 1870, Paris, p. 126.
(3) Ibid., p. 127.
(4) Ibid., p. 161-163.
(٥) الناصري، س.أ.ع.، **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، ط.٢، دار النهضة العربية، ١٩٩١، القاهرة، ص.٣٠٦-٣٠٨.
(6) Suétone, Les écrivains de l'Histoire Auguste: Eutrope, Sextus Rufus, trad. M. Nisard, Garnier Frères, Libraires, 1851, Paris, p. 388.
(٧) دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، **الحضارات القديمة**، ج.١، تر. نسيم وكيم اليازجي، ط.١، منشورات دار علاء الدين،2000، دمشق، ص. ٦٨٣.
(8) Suétone, op.cit., p. 389.
(٩) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص. ٣١٤.
(١٠) أبو اليسر، ف.، **تاريخ مصر في عصري البطالمة والرومان**، ط.١، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ٢٠٠٢، القاهرة، ص. ١٩١.
(١١) جيبون، إ.، **اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها**، ج.١، تر. محمد علي أبو درة وأحمد نجيب هاشم، ط.٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، القاهرة، ص. ١٢٧.
(١٢) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص. ٣١٥.
(13) Dion Cassius, op.cit., p. 175.
(١٤) دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، المرجع السابق، ص. ٦٨٣.
(15) Suétone, op.cit., p. 314-315.
(16) Ibid., p. ٣٩١.
(١٧) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣١٠.
(18) Hérodien, Histoire Romain, trad. Lion Halévy, Librairie De Firmain Didot, 1860, Paris, p.89.
(19) Suétone, op.cit., p. ٣٩١.
(20) Dion Cassius, op.cit., p. ٢٠٩.
(21) Hérodien, op.cit., p . 103.
(22) Suétone, op.cit., p. ٣٩٢.
(٢٣) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص. ٣١٢.
(٢٤) شنيتي، م.ب.، **التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني**، المؤسسة الوطنية للكتاب، ١٩٨٤، الجزائر، ص.١٦.
(٢٥) رستوفتزف، إ.م.، **تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي**، ج.١، تر. ومراجعة زكي علي ومحمد سليم سالم، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧، القاهرة، ص. ٤٧٤.
(26) Suétone, op.cit., p. ٣٩٣.
(٢٧) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص. ٣١٠.
(٢٨) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٧٥.
(29) Dion Cassius, op.cit., p. 8.

(30) Ibid., p. 13.
(31) Ibid., p .251.
(٣٢) الحويري، م.م، **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**، دار المعارف، ط.٣، ١٩٩٥، القاهرة، ص.١٥-١٦.
(33) Hérodien, op.cit.,p.118.
(٣٤) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣٢٣.
(٣٥) تشارلز ورث أ.ب، **الإمبراطورية الرومانية**، تر. رمزي عبده جرجس ومراجعة محمد صقر خفاجة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٣، القاهرة، ص. ١٨٢.
(٣٦) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٧٦.
(٣٧) دياكوف، ف.، كوفاليف، س.، المرجع السابق، ص. ٦٨٦.
(٣٨) شنيتي، م.ب.، المرجع السابق، ص.٢١.
(٣٩) نفسه، ص. ١٧.
(٤٠) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٠٣.
(٤١) نفسه، ص.٤٧٧.
(42) Hérodien, op.cit., p. 120.
(٤٣) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣٢٠.
(٤٤) نفسه، ص.٣١٩.
(٤٥) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٧٩.
(٤٦) نفسه، ص. ٤٨١.
(٤٧) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣٢٢.
(٤٨) شنيتي، م.ب.، المرجع السابق، ص. ١٨.
(٤٩) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٠٥.
(٥٠) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣٢٠.
(٥١) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٨٤.
(٥٢) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣١٥.
(٥٣) شنيتي، م.ب.، المرجع السابق، ص.١٧.
(٥٤) الناصري، س.أ.ع.، المرجع السابق، ص.٣١٥.
(٥٥) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٨٨.
(٥٦) شنيتي، م.ب.، المرجع السابق، ص.١٦-١٧.
(٥٧) رستوفتزف، إ.م.، المرجع السابق، ص. ٤٨٩-٤٩٢.
(٥٨) الحويري، م.م.، المرجع السابق، ص. ١٥-١٦.
(٥٩) أرنولد توينبي: **تاريخ البشرية**، تر. نقولا زيادة، الأهلية للنشر والتوزيع،١٩٨٨، بيروت، ص. ٣٥٤-٣٥٦.
(٦٠) جيبون، أ.، المرجع السابق، ص.١٢٥.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

الفقيه عيسى الهكّاريّ (ت. ٥٨٥هـ/١١٨٩م)
ودوره في خدمة البيت الأيوبي

أ.م.د. غسان محمود وشاح
رئيس قسم التاريخ والآثار
كلية الآداب – الجامعة الإسلامية
غزة – فلسطين



مُلَخّص

يتناول البحث شخصية مهمة، لعبت دورًا بارزًا في ترسيخ أقدام السلطان الناصر صلاح الدين منذ وصوله إلى مصر برفقة عمه أسد الدين شيركوه، فتناقش الدراسة بداية العلاقة التي ربطت الفقيه عيسى الهكاري بالبيت الأيوبي، وتطور هذه العلاقة بعد وفاة أسد الدين شيركوه -عم السلطان صلاح الدين-، ووصول صلاح الدين لمنصب الوزارة في مصر، وموقف الفقيه عيسى الهكاري المؤيد والداعم لقرار الخليفة الفاطمي العاضد، هذا القرار الذي ميز الفقيه عيسى الهكاري عن كل الأمراء النورية كما يتناول البحث الدور الذي لعبه الفقيه عيسى الهكاري في إقناع الأمراء النورية المعارضين لقرار العاضد، بتولية صلاح الدين منصب الوزارة، ومشاركة الفقيه عيسى الهكاري للسلطان صلاح الدين في معركة الرملة، ووقوعه في الأسر الصليبي لمدة عامين، وما يدلل على أهمية ومكانة عيسى الهكاري عند السلطان صلاح الدين اشتراط السلطان صلاح الدين إطلاق سراح الأمراء الصليبيين في معركة مرج عيون، بإطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري. وتتناول الدراسة الدور السياسي والدبلوماسي الذي لعبه الفقيه بعد إطلاق سراحه من الأسر الصليبي، فقد أنجز مهمات دبلوماسية خاصة بتكليف مباشر من السلطان صلاح الدين، حيث تولى إقناع تقي الدين عمر ابن أخ السلطان صلاح الدين بالخروج من مصر، نزولًا عند قرار السلطان، كما قام بمهمة تحسين العلاقة بين السلطان صلاح الدين، ونور الدين محمود زنكي، وظل وفيًا للسلطان حتى وافته المنية مرابطًا حول مدينة عكا تحت قيادة السلطان الناصر صلاح الدين.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٨	سبتمبر	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	٠٥	يناير	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
عيسى الهكاري؛ السلطان صلاح الدين؛ العاضد؛ الدولة الأيوبية؛ معركة الرملة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057041

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
غسان محمود وشاح. "الفقيه عيسى الهكَّاريّ (ت. ٥٨٥هـ/١١٨٩م) ودوره في خدمة البيت الأيوبي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٣٧ – ٤٧.

مُقَدِّمَة

حظي الفقيه عيسى الهكاري، باهتمام المؤرخين المسلمين لارتباطه بالبيت الأيوبي، والعلاقة التي ربطته بأسد الدين شيركوه في الشام، وصحبته بعد ذلك لأسد الدين في رحلته إلى مصر، استجابة لاستغاثة الخليفة الفاطمي العاضد بنور الدين محمود زنكي؛ لمواجهة الغزو الصليبي لمصر، وتواطُؤِ وزيره شَاوَرَ مع صليبيي الشام. وتوثقت عرى العلاقة التي جمعت الفقيه عيسى الهكاري بالبيت الأيوبي، بعد وفاة أسد الدين شيركوه، واختيار صلاح الدين لمنصب الوزارة في مصر، حيث أيد الفقيه قرار الخليفة الفاطمي العاضد، بخلاف كل الأمراء النورية الذين جاءوا إلى مصر بصحبة أسد الدين شيركوه، ووقفوا موقفًا معارضًا لقرار العاضد بتعيين صلاح الدين في منصب الوزارة، فقد طلب جميعهم منصب الوزارة لنفسه، اعتقادًا منهم أن

صلاح الدين أصغرهم سنًا، وأقلهم خبرة عسكرية، ودراية سياسية.

ولم يكتفِ الفقيه بتأييد قرار العاضد، بل عمل على كسب تأييد كبار الأمراء النورية المعارضين لقرار العاضد، حينما بدأ في إقناع كل واحد منهم على حدة، للوقوف خلف قرار العاضد، كي لا يكونوا سببًا في إفشال صلاح الدين في مهمته الجديدة، واستطاع أن ينجح في هذه الهمة ويبدو أن هذه المهمة هي، التي وثقت عرى العلاقة بين الرجلين، وزادت من ثقة السلطان بالفقيه، وكانت مدخلاً للمهمات الخاصة التي كُلّفَ بها الفقيه من قبل السلطان صلاح الدين، وقام بتحقيقها بعد ذلك بنجاح. وتشير المصادر أن الفقيه عيسى الهكاري قاتل بجانب صلاح الدين في عدد من المعارك فقد شارك في معركة الرملة، ضد مملكة بيت المقدس الصليبية، وقاتل الفقيه أشد القتال، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بالجيش الأيوبي، والخسائر البشرية الكبيرة التي تسببت بها الهزيمة، ولعلَّ قتال الفقيه للجيش الصليبي بعد الهزيمة التي لحقت بالجيش الأيوبي، ووقوعه في الأَسْر الصليبي، تعكس الإيمان القوي للفقيه بالجهاد ضد الوجود الصليبي في المنطقة العربية، كما تعكس إخلاصه للسلطان صلاح الدين، كحامل لواء الجهاد في المنطقة العربية.

وقابل السلطان صلاح الدين هذا الإخلاص للفقيه عيسى الهكاري في معركة الرملة، أن اشترط لإطلاق سراح قادة الجيش الصليبي الأسرى في معركة مرج عيون إطلاق سراح الفقيه، وهو ما تحقق بالفعل، بعدما أمضى الفقيه ما يقرب من عامين في الأسر الصليبي، وازدادت ثقة السلطان السياسية بالفقيه مع مرور الأيام، ولعل تكليف السلطان له دون قادة الجيش الآخرين للسفر من الشام إلى مصر؛ لانجاز عدد من المهمات السياسية والدبلوماسية لها دلالات واضحة على ثقة صلاح الدين بالهكاري وبقدراته السياسية والدبلوماسية الفائقة. وجاءت وفاة الفقيه عيسى الهكاري، وهو مرابط حول مدينة عكا بصحبة السلطان صلاح الدين، ونقل جثمانه ليدفن في مدينة القدس.

مشكلة البحث

لمع اسم الفقيه عيسى الهكاري كواحد من الأمراء أمثال (بهاء الدين قراقوش والقاضي الفاضل)، الذين لعبوا دورًا مهمًا في خدمة البيت الأيوبي، وخصوصًا تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، وعليه من الضروري طرح مشكلة البحث، من خلال السؤال التالي: ما الذي ميَّزَ الفقيه عيسى الهكاري على غيره من الأمراء الكبار، الذين استند إليهم البيت الأيوبي، وخصوصًا السلطان صلاح الدين فترة حكمه لمصر وبلاد الشام؟ ويتفرع من هذا السؤال الرئيس، مجموعة من الأسئلة الفرعية الآتية، وهي: متى بدأت العلاقة بين الفقيه عيسى الهكاري والبيت الأيوبي؟ ما الأدوار المهمة التي قام بها الفقيه عيسى ـ الهكاري في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر، بعد وفاة عمه أسد الدين شيركوه؟ ما المعارك العسكرية التي شارك فيها الفقيه عيسى ـ الهكاري جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين؟ ما المهمات الخاصة التي كلف السلطان صلاح الدين الفقيه عيسى ـ الهكاري القيام بها؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث، والموسوم بـ" الفقيه عيسى ـ الهكاري ودوره في خدمة البيت الأيوبي، في الأسباب التالية:

- تسليط الضوء على شخصية الفقيه عيسى ـ الهكاري، كأحد الشخصيات الثلاث التي ارتكز عليها السلطان صلاح الدين في تثبيت أركان حكمه في مصر وبلاد الشام، والقضاء على معارضيه.
- الوقوف على المَهمّات الصعبة التي أسندها السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري، دون غيره من الأمراء الكبار حوله.
- معرفة مدى نجاح الفقيه عيسى ـ الهكاري في إنجار المهمات الخاصة، التي أسندها إليه السلطان صلاح الدين.

أهداف البحث:

- معرفة الأصول التاريخية التي يعود إليها الفقيه عيسى الهكاري.
- معرفة توقيت العلاقة التي ربطت الفقيه عيسى ـ الهكاري بالأسرة الأيوبية.
- الوقوف على الأدوار المختلفة التي قام بها الفقيه عيسى الهكاري في خدمة الأسرة الأيوبية، وعلى وجه الخصوص في تثبيت السلطان صلاح الدين الأيوبي في وزارة العاضد.
- التعرف على الصفات القيادية التي تميز بها الفقيه عيسى الهكاري، وكانت سببًا في اعتماد السلطان صلاح الدين عليه للقيام ببعض المهمات الخاصة.

- معرفة المعارك العسكرية التي شارك فيها الفقيه عيسى الهكاري جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين، وخلدت اسمه في كتب التاريخ.

منهج البحث

اعتمد الباحث على المنهج التاريخي في إعداد الورقة البحثية، وهو المنهج الذي يقوم على الاطلاع على المصادر التاريخية الأولى التي وثقت أدق التفاصيل عن حياة الفقيه عيسى الهكاري. ينسب الباحث الأقوال لأصحابها من المؤرخين دون زيادة أو نقصان، وذلك لدقة المعلومات التي قدمها المؤرخون عن حياة الفقيه عيسى الهكاري. يضع الباحث ما نقله بين علامتي تنصيص، وذلك للتفريق بين ما نُقِل نصًا، وما نُقِلَ بتصرف، وما نُقِلَ بالمعنى يُذْكَر في الحاشية.

أولًا: شخصية الفقيه عيسى الهكاري ودوره في خدمة البيت الأيوبي

من الأهمية بمكان التعرف على شخصية الفقيه عيسى الهكاري، والأصول التي يعود إليها الفقيه المذكور، وذلك للاستفادة منها لاحقًا في التعرف أكثر على شخصية الرجل القيادية، وقيمة الأدوار " التاريخية" التي لعبها في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين في مصر وبلاد الشام، رغم المعارضة القوية التي تعرض لها السلطان من الداخل، وخصوصًا من الأمراء النورية الذين رأوا أنهم أحق بمنصب الوزارة، أو من الخارج، وخصوصًا من صليبي الشام، الذين كانوا يرقبون ما يجري في مصر أولًا بأول، وذلك لأن أي تغيير في مصر من شأنه أن ينعكس على وجودهم في بلاد الشام.

١/١-شخصية الفقيه عيسى الهكاري:

وقف ابن خلكان في ترجمته للفقيه عيسى الهكاري، على نسبه الذي يعود، وذلك لعظم المكانة والمنزلة التي كان عليها الفقيه الهكاري، وخصوصًا أنه جمع بين العلم الشرعي، والعمل السياسي، والعسكري، فقد بدأ ترجمته للفقيه بقوله: "هو الفقيه أبو محمد، عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف بن القاسم، ابن عيسى بن محمد بن القاسم بن محمد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هكذا أملى علي نسبه ولد ولد أخيه، ويقال له (الهَكَّاري) الملقب ضياء الدين، كان أحد الأمراء بالدولة الصلاحية(نسبة إلى السلطان صلاح الدين)، كبير القدر، وافر الحُرْمَة، مُعَوَّلًا عليه في الآراء والمشورات، وكان في مبدأ أمره يشتغل في الفقه بالمدرسة الزّجاجيّة بمدينة حلب[١]، فاتصل بالأمير أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين، وصار إمامَهُ يصلي به الفرائض الخمس، ولما توجه أسد الدين إلى الديار المصرية، وتولى الوزارة كان في صُحْبَتِه[٢]، وكان يَلْبَسُ زي الأجناد، ويعتم بعمائم الفقهاء، فيجمع بين اللباسين[٣]، وكان فقيهًا جنديًا شجاعًا كريمًا ذا عصبية ومروءة، وهو من أصحاب الشيخ الإمام أبي القاسم بن البرزي، تفقه عليه بجزيرة ابن عمر[٤]، وكان صلاح الدين يميل إليه ويستشيره وكأن الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس والتفريج عن المكروبين مع الورع والعِفَّة والدين- رحمه الله-[٥].

ولعل أكثر ما يؤخذ على تعريف ابن خلكان للفقيه عيسى الهكاري، هو اعتماده في تعريف الفقيه، على حفيد أخيه للفقيه عيسى، وليس على الفقيه عيسى نفسُه، والأمر الآخر أنه لم يأتِ أحد من المؤرخين المسلمين على ذكر نسب الفقيه عيسى الهكاري، وَوَصَلَهُ إلى البيت الهاشمي، كما جاء على ذلك ابن خلكان، والأرجح أن الفقيه يعود في أصوله إلى الأكراد الهكارية، الذين وصلوا إلى بلاد الشام لتلقي العلوم الشرعية، واستقر بهم الأمر فيها. والهَكاريّ، بفتح الهاء والكاف المشددة، وبعد الألف راء، هذه النسبة إلى الهكارية، وهي ولاية تشتمل على حصون وقرى من أعمال الموصل[٦] من جزيرة ابن عمر[٧]، منها أبو الحسن علي بن أحمد بن يوسف بن جعفر بن عرفة الهكاري الملقب بشيخ الإسلام، وهو من ولد عتبة بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية، كان كثير الخير والعبادة، سمع بمكة أبا الحسن محمد بن علي بن صخر الأزدي، وبمصر أبا عبد الله محمد بن الفضل بن نظيف، وببغداد أبا القاسم بن بشران، وسمع من غيرهم سمع منه أبو زكريا يحيى بن عطاف الموصلي وغيره، وكانت ولادته سنة (٤٠٩هـ/١٠١٨م)، ومات بالهكارية أول (محرم ٤٨٦هـ/ فبراير ١٠٩٣م)[٨].

ويُستدل من كثرة الأمراء والعلماء الذين تعودُ أصولهم إلى ولاية هَكاريّ الكردية، أنها ولاية متميزة عن باقي الولايات الكردية الأخرى، وأن أهلها يميلون إلى طلب العلم الشرعي، بالإضافة إلى حب الفروسية، حيث توزع الكثير من العلماء والأمراء الهكاريين في بلاد الشام، بعد وصول الزنكيين إلى سدة الحكم، طلبًا للعلم، والجهاد في سبيل الله.

٢/١-الفقيه عيسى الهكاري مبعوث أسد الدين شيركوه إلى الوزير شاور:

وصل أسد الدين شيركوه بالعساكر النورية إلى مصر في يوم الثلاثاء(٢٧ ربيع الأول ٥٦٤هـ/٣٠ ديسمبر ١١٦٨م)، ولما بلغ الصليبيين قرب وصوله عادوا عن القاهرة إلى بلادهم، وكان رجوعهم في يوم السبت (٣ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٥ يناير ١١٦٩م)، ومعهم من الأسرى المسلمين اثنا عشر ألف أسير، ودخل أسد الدين إلى القاهرة في(٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/٩ يناير ١١٦٩م)، وخرج في استقباله الخليفة الفاطمي العاضد لدين الله[٩]، وحضر يوم الجمعة (٩ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ١١ يناير ١١٦٩م) إلى الإيوان، وجلس إلى جانب العاضد، وخَلَعَ عليه خِلْعَة الوزارة الجُبَّةَ والعَمَامَة، وفرح الناس بقدومه وعاد أهل مصر إليها[١٠].

ولقد أمر العاضد أسد الدين بالنزول على شاطئ النيل بالمقس[١١]، ورتب له شاور ولمن معه الإقامات الوافرة، وصار يتردد إليه في كل يوم، فطلب أسد الدين من شاور مالاً ينفقه في عسكره فَمَطَلَه[١٢]، فسيَّرَ إليه شيركوه الفقيه عيسى الهكاري يطالبه بالنفقة، فلم يكترث شاور بطلب الفقيه، وشرع في المماطلة فيما كان قرره لنور الدين محمود زنكي، وعزم على أن يصنع دعوة، ويحضر أسد الدين وجماعة من الأمراء الذين معه، ويقبض عليهم، فنهاه عن ذلك ولده الكامل، وحلف أنه إن صمم على هذا الأمر عرف به شيركوه، فقال له أبوه والله لئن لم تفعل هذا قُتِلْنَا عن آخرنا، فقال الكامل لأبيه صدقت! ولأن نقتل ونحن مسلمون خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج، فترك ما عزم عليه[١٣].

ويستدل مما سبق الصراع المرير بين الوزراء الفاطميين في مصر، وعلى وجه الخصوص الصراع بين الوزيرين شاور والضرغام، وهروب شاور إلى بلاد الشام، واستغاثته بنور الدين محمود، والذي سَيَّرَ إلى مصر أسد الدين شيركوه، لإعادة شاور إلى منصب الوزارة، ولكن الأخير وبعدما استقر به الأمر في الوزارة، حاول التخلص من أسد الدين شيركوه، وهو الفعل الذي كلفه حياته، حيث عَمَدَ أسد الدين شيركوه، وبعد موافقة الخليفة العاضد، على قتل شاور في (١٧ ربيع الآخر ٥٦٤هـ/ ١٧ يناير ١١٦٩م).

٣/١-الفقيه عيسى الهكاري ودوره في تثبيت السلطان صلاح الدين في الوزارة العاضدية:

توفي أسد الدين شيركوه فجأة في (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤هـ/٢٧ مارس ١١٦٩م)، فكانت وزارته قصيرة جدًا، حيث مكث في الوزارة العاضدية شهرين وخمسة أيام، وقد اتفق كبار الأمراء الأسدية(نسبة إلى أسد الدين شيركوه) في الجيش النوري المقيم في مصر، وهما: الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، والطواشي[١٤] بهاء الدين قراقوش[١٥]، على ترتيب السلطان صلاح الدين في الوزارة العاضدية، خلفًا لعمه أسد الدين شيركوه، ودَقَّقا الحيلة في ذلك، حتى بلغا المقصود، وهو ما جاء على ذكره ابن العديم بقوله: "وكان جماعة من الأمراء الذين كانوا مع أسد الدين قد تطاولوا إلى الوزارة، منهم: عين الدولة بن الياروقي، وسيف الدين المشطوب، وشهاب الدين محمود الحارمي خال السلطان صلاح الدين، وقطب الدين ينال بن حسان، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وأحضره، عنده، وولّاه الوزارة بعد عمه، وخلع عليه، ولقبه بالملك الناصر، فاستتبت أحواله، وبذل المال، وأخذ في الجد والتشمير في أموره كلها، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه، فميَّل الأمراء الذين كانوا قد طمعوا بالوزارة إلى الانقياد إليه، فأجابوا سوى عين الدولة بن الياروقي، فإنه امتنع، وعاد إلى نور الدين في الشام[١٦].

ولقد جاء ابن الأثير على ذكر ذلك بالتفصيل، بقوله:" وأما كيفية ولايته، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة العاضدية بعده، منهم عين الدولة الياروقي، وقطب الدين ينال، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمد الحامي، وهو خال صلاح الدين، وكل واحد من هؤلاء يخطبها، وقد جمع أصحابه ليغالب عليها، فأرسل العاضد إلى صلاح الدين، وخلع عليه وولاه الوزارة بعد عمه، وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا له ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سنًا من يوسف، والرأي أن يُولىَّ، فإنه لا يخرج من تحت حكمنا، ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا، فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه، فلما خلع عليه لقب الملك الناصر، ولم يعطه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهلكاري معه، فسعى مع المشطوب حتى أماله إليه، وقال له إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة، والحارمي، وغيرهما، ثم قصد الحارمي، وقال هذا صلاح الدين هو ابن اختك، وعزه وملكه لك، وقد استقام له الأمر، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك، فمال إليه أيضًا، ثم فعل مثل هذا بالباقين، وكلهم

أطاع غير عين الدولة الياروقي، فإنه قال أنا لا أخدم يوسف، وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء"[١٧].

فلما تولى صلاح الدين رأى له ذلك، واعتمد عليه، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان كثير الإدلال عليه، يخاطبه بما لا يقدر عليه غيره من الكلام، وكان واسطة خير للناس، نفع بجاهه خلقًا كثيرًا"[١٨]. ويستدل مما سبق، الحنكة السياسية للفقيه عيسى الهكاري، وقدرته على كسب قلوب الأمراء النورية، وضمان وقوفهم خلف السلطان صلاح الدين، على الرغم من أن كل واحد منهم كان يطمع أن يكون هو في منصب الوزارة العاضدية. ويختلف المؤرخون حول تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية، فالبعض يجعله منذ تولي صلاح الدين الأيوبي الوزارة من الخليفة العاضد لدين الله سنة (٥٦٤هـ/١١٦٩م)[١٩]، والبعض الآخر يجعله مع إعادة الخطبة في مصر للخليفة العباسي التي تلاها وفاة العاضد لدين الله وانتهاء الخلافة الفاطمية (٥٦٧هـ/١١٧١م)، صحيح أن سلطة صلاح الدين بدأت منذ توليه الوزارة، ليدعمها بخطوة القضاء على الدولة الفاطمية، لكنه من الناحية الشرعية كان لا يزال تابعًا لسلطة نور الدين محمود الذي ما لبث أن توفي سنة (٥٦٩هـ/١١٧٤م)، ولذلك فإن سنة الوفاة هذه هي برأينا تاريخ ابتداء الدولة الأيوبية التي اعترف بها الخليفة العباسي المستضيء بالله سنة (٥٧٠هـ/١١٧٥م)[٢٠].

١/٤-الفقيه عيسى الهكاري مبعوث السلطان صلاح الدين إلى الملك نور الدين محمود:

هاجم صلاح الدين صليبيي الشام سنة (٥٦٧هـ/١١٧٢م)، وحاصر حصن الشوبك[٢١]، فبلغ ذلك الملك نور الدين محمود زنكي، فاعتزم على قصد صليبيي الشام من ناحية أخرى، فارتاب صلاح الدين في أمره، فأسرع العودة إلى مصر، وأخذ نور الدين في الاستعداد لعزل السلطان صلاح الدين عن حكم مصر، وبلغ ذلك السلطان وأصحابه، فتشاوروا في مهاجمة نور الدين محمود، ولكن الفقيه عيسى الهكاري ووالد صلاح الدين نجم الدين أيوب قاموا بنهيهم عن ذلك، وأشاروا على صلاح الدين بمكاتبة نور الدين محمود والتَّلطُّفِ له، مخافة أن يبلغه غير ذلك، فيقوى عزمه على عزله، ففعل ذلك صلاح الدين، فسالمه نور الدين، وعادت المخالطة بينهما كما كانت، واتفقا على اجتماعهما لحصار الكَرَك[٢٢]، فسار صلاح الدين لذلك سنة (٥٦٨هـ/ ١١٧٣م)، وخرج الملك نور الدين من دمشق بعد أن تَجَهَّزَ، فلما انتهى إلى الرقيم[٢٣]، وبلغ صلاح الدين خبره، ارتابه ثانيًا، وجاءه الخبر بمرض أبيه بمصر- فَكَرَّ راجعًا[٢٤]، وأرسل إلى نور الدين محمود الفقيه عيسى الهكاري، بما وقع من حديث المرض بأبيه، وأنه رجع من أجله، فأظهر نور الدين القَبُول وعاد إلى دمشق[٢٥].

ثانيًا: الفقيه عيسى الهكاري ودوره الجهادي

شارك الفقيه عيسى الهكاري السلطان صلاح الدين معاركه ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، وكانت أولى هذه المعارك، معركة الرملة، والتي قاتل فيها الفقيه الصليبيين أشد القتال، إلى أن وقع أسيرًا، وأمضى في الأسر الصليبي ما يقرب من عامين، حتى معركة مرج عيون، حينما اشترط السلطان صلاح الدين، مقابل إطلاق سراح الأسرى الصليبيين، إطلاق سراح الفقيه الهكاري، ولعل ما يسجل للفقيه بالإضافة إلى سجله الجهادي، هو ثقة السلطان السياسية به.

٢/١-الفقيه عيسى الهكاري ومشاركته صلاح الدين معركة الرملة:

سار السلطان صلاح الدين في (جمادى الأولى٥٧٣هـ/ نوفمبر ١١٧٧م) من مصر إلى بلاد الشام؛ لقصد الصليبيين المحتلين لفلسطين، حتى وصل مدينة عسقلان[٢٦] في (٢٤ جمادى الأولى٥٧٣هـ/١٩ نوفمبر١١٧٧م)، وتقدمت القوات الأيوبية إلى أن وصلت مدينة الرملة[٢٧]، وفجأة هاجمت القوات الصليبية لمملكة بيت المقدس (Hierosolymitanum Regnum) بقيادة الملك بلدوين الرابع (Aldwin IV) (٥٧٠-٥٧٩هـ/ ١١٧٤-١١٨٣م) الجيش الأيوبي، وركزت هجومها على جهة السلطان صلاح الدين، الذي لم يكن معه إلا عددًا بسيطًا من الجنود، بعدما تفرق باقي الجيش لجمع الغنائم، وقد قاوم السلطان صلاح الدين الصليبيين المهاجمين، مع عدد محدود من الجنود الأيوبيين، وكان أشد الناس قتالاً ذلك اليوم الفقيه عيسى الهكاري[٢٨]، وتمت الهزيمة على المسلمين، وحمل بعض الصليبيين على السلطان صلاح الدين، حتى كادوا يصلوا إليه، وتكاثر الفرنج عليه، فمضى منهزمًا يسير قليلًا ويقف؛ ليلحقه العسكر، فسلك صحراء سيناء، إلى أن مضى في نفر يسير إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقة شديدة، وهلك كثير من دواب العسكر جوعًا وعطشًا، وأما العسكر الذين دخلوا بلاد الفرنج في الغارة، فإن أكثرهم ذهب ما بين قتيل وأسير[٢٩].

وكان من جملة مَنْ أُسِرَ الفقيه عيسى الهكاري، وأُسِرَ أيضًا أخوه الظهير، وكانا قد سارا منهزمين فَضَلَّا الطريق، فأُسرا ومعهما جماعة من أصحابهما، ووصل صلاح الدين إلى القاهرة، في (١٥ جمادى الآخرة ٥٧٣هـ=10 ديسمبر١١٧٧م)[٣٠]، ويذكر ابن الأثير أنه رأى كتابًا كتبه السلطان صلاح الدين بخط يده، إلى أخيه شمس الدولة توران شاه وهو بدمشق يذكر الوقعة، وفي أوله[٣١]:

ذكرتك والخطِّيُّ[٣٢] يخطر بيننا
وقد نهلت[٣٣] منا المثقَّفَةُ[٣٤] السمرُ

ويقول فيه:" لقد أشرفنا على الهلاك غير مرة، وما نجانا الله سبحانه منه، إلا لأمر يريده سبحانه، وما ثبتت إلا وفي نفسها أمر"[٣٥].

ويستدل من مشاركة الفقيه عيسى الهكاري في معركة الرملة، والقتال جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين، ووقوعه في الأسر، أهمية مشاركة علماء الأمة في الجهاد في سبيل الله، وألا يقتصر دورهم على حث الناس على الجهاد من فوق المنابر. في حين كانت هزيمة السلطان صلاح الدين الأيوبي في معركة الرملة، تعود إلى جملة من الأسباب، أهمها عنصر المفاجأة الذي اعتمدت عليه القوات الصليبية، وفي تركيز هجومها المباغت على قيادة الجيش الأيوبي، في الوقت الذي انشغل فيه أفراد الجيش بجمع الغنائم.

٢/٢-معركة مرج عيون وفك قيد الفقيه عيسى الهكاري:

كانت معركة مرج عيون[٣٦]، والتي دارت رحاها يوم الأحد (٨ محرم ٥٧٥هـ/١٦ يونيو ١١٧٩م)، واحدة من المعارك الحاسمة التي خاضها السلطان صلاح الدين في طريق كسر شوكة الصليبيين في بلاد الشام، وقد بدأت وقائع المعركة حينما كان السلطان صلاح الدين في طريقه إلى تل القاضي ببانياس[٣٧]، لملاقاة الجيش الصليبي؛ وكان الأخير قد أتم حشد أكثر من عشرة آلاف مقاتل صليبي، فلما التقوا الجيش الأيوبي، انهزموا عند اللقاء، وأُسر منهم ما يزيد على مائتين وسبعين أسيرًا، فنقلهم السلطان صلاح الدين جميعًا إلى مدينة دمشق، فأخذوا يفتكوا أنفسهم الواحد تلو الآخر، فافتك صاحب الرملة الأمير الصليبي باليان دي إيلين(Balian d'Ibelin)، والذي تذكره المصادر التاريخية الإسلامية بـ"ابن بارزان" نفسه بمائة ألف دينار وخمسين ألف دينار صورية[٣٨]، وإطلاق سراح ألف أسير من الأسرى المسلمين، والتزم بفكاك الفقيه عيسى الهكاري، وأما ابن القومصية[٣٩] صاحبة طبرية[٤٠] فافتكته أمه بخمس وخمسين ألف دينار صورية، وأما مقدم " الداوية" (Pauperes commilitones Christi Templique Salomonici)[٤١] فإنه هلك، فطلبت جثته بإطلاق ألف أسير من مقدمي المسلمين[٤٢]، وكانت لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب (ت: جمادى الأولى ٥٧٨هـ= سبتمبر ١١٨٢م)، صاحب بعلبك، ابن أخي السلطان صلاح الدين في هذه المعركة اليد البيضاء، والبلاء المذكور[٤٣].

ويستدل من اشتراط السلطان صلاح الدين على الصليبيين، مقابل إطلاق سراح قادتهم، إطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري، المنزلة الرفيعة التي كان يحظى بها الفقيه عند السلطان صلاح الدين، وداخل الجيش الأيوبي، الذي كان فيه الفقيه أحد قادته العظام.

٣/٢-الفقيه عيسى الهكاري ومشاركته السلطان صلاح الدين حصار مدينة الموصل:

ذهب السلطان صلاح الدين الأيوبي، وفي إطار سعيه الطويل إلى توحيد الجبهة الإسلامية؛ لمواجهة الاحتلال الصليبي الجاثم فوق صدر المنطقة العربية، إلى حصار مدينة الموصل[٤٤] في (ربيع الأول ٥٨١هـ/ يونيو ١١٨٦م)، حيث ذهب صاحبها إلى الكيد للسلطان صلاح الدين، وهو ما جاء في الرسالة التي بعث بها السلطان للخليفة العباسي، وحملها القاضي ضياء الدين الشهرزوري[٤٥]، ولكن حين وصل السلطان إلى مدينة بلد[٤٦]، سَيَّرَ إليه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي(ت:٥٨٩هـ/١١٩٣م) صاحب الموصل والدته، وابنة عمة الملك العادل نور الدين الشهيد، وغيرهما من النساء في جماعة من أعيان الدولة يسألونه المصالحة، وبذلوا موافقته وإمداده بالعساكر متى طلبها، ليعود عن قصد الموصل، فتلقاهن بالإكرام، وأحسن إليهن، واستشار أصحابه في ذلك، فكلٌّ أشار عليه بموافقتهن، فقال له الفقيه عيسى الهكاري، والأمير سيف الدين علي بن أحمد المشطوب الهكاري: مثل الموصل لا تترك لامرأة ! وإن عز الدين ما أرسلهن إلا وقد عجز عن الحرب، فوافق ذلك هواه، فردهن خائبات، واعتذر بأعذار غير مقبولة، وقصد الموصل وحاصرها، وكان بينهم مناوشات، فلم يتمكن منها، فندم حيث لم يحبس النساء، ففي أثناء ذلك توفي شاه أرمن صاحب خلاط[٤٧]، فأشار عليه أصحابه بمفارقة الموصل وقصد الخلاط ففارقها[٤٨].

ويستدل من حصار السلطان لمدينة الموصل أهمية توحيد الجبهة الإسلامية بكل السبل والوسائل، حتى لو اضطر الأمر إلى استخدام القوة العسكرية في سبيل تحقيق ذلك، ولعل رفض الفقيه عيسى الهكاري ترك الموصل لعز الدين زنكي، كان بسبب عداء الأخير للسلطان صلاح الدين، وتحريضه المستمر للصليبيين على قتال السلطان صلاح الدين، وخذلانه للجيش الأيوبي في معاركه ضد الغزو الصليبي لبلاد الشام.

٤/٢-الفقيه عيسى الهكاري ودوره في تماسك البيت الأيوبي:

سقط السلطان صلاح الدين مريضًا في (٧ رمضان ٥٨١هـ=٣ ديسمبر ١١٨٥م) أثناء حصاره لمدينة الموصل، وانسحب إلى حَرَّان[٤٩]، وقد أشيع بمصر أن السلطان صلاح الدين قد مات، فحاول ابن أخيه تقي الدين عمر، أن يستفرد بحكم مصر. فلما عوفي صلاح الدين من مرضه، بلغه صنع ابن أخيه، فأرسل الفقيه عيسى الهكاري إلى مصر، وأمره بإخراج تقي الدين منها، والمقام بمصر، فسار مسرعًا، فلما وصل إلى القاهرة أمر تقي الدين بالخروج منها، فطلب إمهاله حتى يتجهز، فرفض الفقيه طلبه، وقال له تقيم خارج المدينة وتتجهز، فخرج، وكان يَهُمُّ في الرحيل إلى الغرب، فقال له اذهب حيث شئت، فلما سمع صلاح الدين الخبر، أرسل إليه يطلبه، فسار إلى الشام، فأحسن إليه، ولم يظهر له شيئًا مما كان، لأنه كان حليمًا كريمًا صبورًا[٥٠].

٥/٢-الفقيه عيسى الهكاري وفتح مدينة عكا:

لما فَرَغَ صلاح الدين من معركة حطين في (25 ربيع الثاني ٥٨٣هـ/ ٤ يوليو ١١٨٧م)، سار إلى مدينة عكا فحاصرها، واعتصم صليبيو المدينة داخل قلاعها، وطلبوا من السلطان الأمان فأمَّنَهم، وخيَّرهم فاختاروا الرحيل عن المدينة، فأخذوا يحملون ما أقلَّتْهُ رحالهم، ودخلها صلاح الدين غرة (جمادى الأولى ٥٨٣هـ/ أغسطس ١١٨٧م)، وصَلّوًا في جامعها القديم صلاة الجمعة، فكانت أول جمعة أقيمت بساحل الشام بعد استيلاء الصليبيين عليه، وأقطع صلاح الدين عكا لابنه الأفضل، ووهب للفقيه عيسى الهكاري كثيرًا مما عجز الصليبيون عن حمله، وقسم الباقي على أصحابه، ثم أقام السلطان أيامًا حتى أصلح أحوالها، ورحل عنها[٥١].

وفي معركة عكا يقول اللواء العراقي محمود شيث خطاب:" وبدأت بعد معركة حطين الحاسمة، معارك استثمار الفوز، وسارت أعلام صلاح الدين من فتح إلى فتح، وأصبحت ثمرات جهوده وجهاده في خلال سبعة عشرة سنة من حكمه تبدو واضحة للعيان، ولعل معركة (حطين) الحاسمة هي الثمرة الأولى لذلك الجهد والجهاد من تلك الثمرات"[٥٢]. ويستدل من تخصيص السلطان صلاح الدين ما عجز الصليبيون عن حمله للفقيه، دور الفقيه في تحرير المدينة من الصليبيين، ومكافأة له على دوره الجهادي، والذي بدأه في معركة الرملة جنبًا إلى جنب مع السلطان صلاح الدين قبل عشر سنوات.

٦/٢-وفاة الفقيه عيسى الهكاري:

توفي الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري يوم الثلاثاء (٩ ذو القعدة ٥٨٥هـ/ ٢٠ ديسمبر١١٨٩م)، بالخروبة[٥٣]، وهو برفقة السلطان صلاح الدين، ثم نُقِلَ جثمانه إلى مدينة القدس، ودفن بظاهرها- رحمه الله تعالى-[٥٤]. ويستدل من توقيت ومكان وفاة الفقيه، وهو مرابط في سبيل الله في فلسطين؛ في أثناء مواجهته الاحتلال الصليبي لمدينة عكا، برفقة السلطان صلاح الدين، بالإضافة إلى دفنه في مدينة القدس، صلاح الفقيه، وإخلاصه لله عز وجل.

خاتِمَةٌ

بعد هذه الجولة البحثية، والتي تضمنت دراسة متخصصة ودقيقة، وذلك في حياة الفقيه عيسى الهكاري، خلص الباحث إلى مجموعة من النتائج والتوصيات المهمة، وهي، كالتالي:

- الفقيه عيسى الهكاري، يعود في أصوله التاريخية إلى الأمة الكردية العظيمة، وتحديدًا إلى الأكراد الهكارية، الذين استقروا في المنطقة القريبة من شمال العراق، ولا صحة لنسب الفقيه إلى سلالة الحسن بن علي رضي الله عنهما.
- أول علاقة ربطت الفقيه عيسى الهكاري بالبيت الأيوبي، كانت في عهد أسد الدين شيركوه، حينما اختاره الأخير ليكون إمامًا له في الصلوات الخمس، وقد توثقت هذه العلاقة بشكل ملحوظ في عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي.
- دعم الفقيه عيسى الهكاري لقرار الخليفة الفاطمي العاضد، باختيار السلطان صلاح الدين في منصب الوزارة العاضدية، من دون كل الأمراء

النوريين الكبار، تعكس فطنة الرجل، وخبرته ومعرفته بمعادن الرجال.

- قام الفقيه عيسى الهكاري بمفاوضة وإقناع كبار الأمراء النوريين الراغبين في منصب الوزارة العاضدية، والمعارضين لقرار العاضد باختيار السلطان صلاح الدين للمنصب، وكسبهم بعد جولة من المفاوضات القصيرة، ليكونوا جميعًا خلف السلطان صلاح الدين، تعكس مهارة الفقيه من جانب، واحترامه وتقديره من كبار أمراء الجيش النوري من جانب آخر.
- شارك الفقيه عيسى الهكاري السلطان صلاح الدين في معركة الرملة، وقتاله فيها الجيش الصليبي أشد القتال، على الرغم من الهزيمة التي لحقت بالسلطان صلاح الدين في نهاية المعركة، ووقوعه في الأسر، تظهر أهمية مشاركة العلماء جنبًا إلى جنب السلاطين الجهاد في سبيل الله.
- اشتراط السلطان صلاح الدين إطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري من الأسر الصليبي، مقابل إطلاق سراح بعض قادة الجيش الصليبي- الأسرى في معركة مرج عيون- تعكس قيمة الفقيه داخل الجيش الأيوبي.
- اختيار السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري دون غيره من الأمراء الكبار في الجيش الأيوبي؛ لإخراج تقي الدين من حكم مصر، بعد رغبة الأخير التفرد بحكم مصر، ونزول تقي الدين عند رأي الفقيه، بالخروج من القاهرة على وجه السرعة، دليل آخر على مهارة الرجل العالية، وتنفيذه الأمين لأوامر السلطان.
- اصطحاب السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري في حروبه الطويلة، ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام، تظهر أهمية الفقيه داخل الجيش الأيوبي، والاحترام والتقدير الذي حظي به العلماء داخل صفوف الجيش الأيوبي، وعلى وجه الخصوص في عهد السلطان صلاح الدين.
- من علامات الصلاح للفقيه عيسى الهكاري، وحسن خاتمته، أنه مات مرابطًا، حول مدينة عكا، صحبة السلطان صلاح الدين، ودفن في مدينة القدس، وهي من أطهر البقاع على وجه الأرض.

التوصيات

- ضرورة أن يحسن الحكام المسلمون اختيار الشخصيات المقربة منهم، كما أحسن السلطان صلاح الدين اختيار الفقيه عيسى الهكاري، وغيره من كبار الأمراء، ليكونوا عونًا له في إقامة الدولة الأيوبية، والدفاع عنها في وجه الأخطار الخارجية.
- أهمية اصطحاب السلاطين لكبار العلماء في حروبهم، وذلك للاستفادة منهم في شحذ همم القادة والجنود على القتال في سبيل الله، بالإضافة إلى أهمية رأي العلماء وقت الحرب، وخصوصًا في التعامل مع الأسرى، والغنائم، وغيرها من المسائل التي تحتاج إلى رأيهم الفقهي.
- بذل الغالي والنفيس في إطلاق سراح الأسرى القادة من سجون الاحتلال، ولعل بذل السلطان صلاح الدين ستين ألف دينار، لإطلاق سراح الفقيه عيسى الهكاري من الأسر الصليبي، هو أبلغ رسالة في بذل الغالي والنفيس من أجل تحرير الأسرى المسلمين.
- رفع مكانة العلماء في صفوف الجيوش، ولعل اختيار السلطان صلاح الدين للفقيه عيسى الهكاري في المهمات الخاصة أكثر من مرة، جاء احترامًا من السلطان للعلماء المجاهدين داخل الجيش الأيوبي.
- إعداد المزيد من الأبحاث العلمية "المُحَكَّمة"، التي تتناول دور الأمراء الكبار في تثبيت أركان حكم السلطان صلاح الدين الأيوبي، وذلك للاستفادة من الخبرات السياسية والأمنية والعسكرية لهؤلاء الأمراء، في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية المنتظرة.

الهَوامِشُ:

(١) حلب، مدينة سورية عظيمة، واسعة كثيرة الخيرات، وهي تقع في شمال البلاد. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، دار صادر، بيروت، لبنان، (١٤١٥هـ/١٩٩٥م). ط٢ ص١٠١).

(٢) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، (ج٣، ص٤٩٧) ٨ج، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د. ط، د. ت..

(٣) العليمي، **الأنس الجليل**، ج٢، ص١٤٤.

(٤) جزيرة ابن عمر، بلدة فوق الموصل، بينهما ثلاثة أيام، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات، وأحسب أن أول من عَمَرَها الحسن بن عمر بن خطاب التغلبي(الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص١٣٨).

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٠٠. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت.

(٦) الموصل، مدينة عراقية المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كبرًا وعظمًا، وكثرة خلق، وسعة رقعة، فهي محط رحال الركبان، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٢٣).

(٧) السمعاني، **الأنساب**، ج٥، ص٦٤٥؛ **الأنساب**، ٥ج، تحقيق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٨هـ/١٩٨٨م). ابن الجوزي، المنتظم، ج ١٧، ص٧.

(٨) ابن الأثير، اللباب في تهذيب **الأنساب**،١١ج، تحقيق: عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م). ج٣، ص٣٩٠.

(٩) العاضد، الخليفة الحادي عشر من خلفاء بني عبيد بمصر، والرابع عشر بالثلاثة الذين ولوا بالمغرب المهدي والقائم والمنصور، ولد عام (٥٤٥هـ/١١٥٠م)، وقيل عام (٥٤٠هـ/١١٤٥م)، وبويع في رجب بعد موت ابن عمه الفائز بنصر الله سنة (٥٥٥هـ/١١٦٠م)، وهو ابن ١١ سنة وشهور، وتوفي العاضد يوم عاشوراء (١١ محرم ٥٦٧هـ/٢٤ سبتمبر ١١٧١م)، وعمره ٢٣ سنة، فكانت أيامه في الخلافة ١١ سنة، واختلفوا في سبب وفاته على أقوال: أحدها أنه تفكر في أموره فرآها في إدبار، فأصابه جرح عظيم فمات منه، والثاني أنه لما خطب لبني العباس بلغه فاغتم ومات، وقيل إن أهله أخفوا عنه ذلك، وقالوا إن سلم فهو يعلم، وإن مات فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من عمره، والثالث أنه لما أيقن بزوال دولته كان في يده خاتم له فص مسموم فمصه فمات منه، وجلس صلاح الدين في عزائه، ومشى في جنازته، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله، واستولى السلطان صلاح الدين على ما في القصر من الأموال والذخائر والتحف والجواهر والعبيد والخدم والخيل والمتاع وغيره.(للمزيد ينظر ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٥، ص٣٣٤-٣٣٥).

(١٠) النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٥. ٣٣ج، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م).

(١١) المقس، ناحية بين يدي القاهرة على النيل، وكان قبل الإسلام يسمى أم دنين، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط، وحاصرها عمرو بن العاص، وقاتله أهلها قتالاً شديدًا حتى افتتحها.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٧٥).

(١٢) مطله، ماطله بحقه.(ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص٢٦١).

(١٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٤٧؛ النويري، **نهاية الأرب**، ج٢٨، ص٢٢٥؛ المقريزي، اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٠٠.

(١٤) الطواشي، المماليك الخصيان المعينون لخدمة بيوت السلطان وحريمه.(محمد دهمان، معجم الألفاظ، ١٥ج، دار صادر، بيروت، لبنان، ط٣، (١٤١٤هـ/١٩٩٣م). ص١٠٩).

(١٥) بهاء الدين قراقوش، أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي، الملقب بهاء الدين، كان خادم صلاح الدين، وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين فأعتقه، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوض أمورها إليه، وهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وهي آثار دالة على علو الهمة، ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها وقع أسيرا في أيديهم، ويقال إنه افتك نفسه بعشرة آلاف دينار، في يوم الثلاثاء (١١ شوال ٥٨٨هـ/٢١ أكتوبر ١١٩٢م)، وكان له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام والمسلمين، والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة في ولايته، حتى إن الوزير الأسعد بن مماتي، له جزء لطيف سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان معتمدًا في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، وكانت وفاته في مستهل (رجب ٥٩٧هـ/ أبريل ١٢٠١م)، ودفن بالقاهرة.(ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص٩١-٩٢).

(١٦) للمزيد ينظر ابن العديم، زبدة الحلب، ج١، ص٣٥١.

(١٧) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٧؛ أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين، ج٢، ص٧١؛ علي الصلابي، الدولة الزنكية، ٥٣٨-٥٣٩.

(١٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٤٩٧.

(١٩) عصام شبارو، **السلاطين في المشرق العربي**، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، (١٤١٥هـ/١٩٩٤م).ص١٣٩.

(٢٠) عصام شبارو، المرجع السابق، ص١٤٠.

(٢١) الشوبك، قلعة حصينة في أطراف الشام، بين عمان وأيلة (العقبة)، والقلزم (البحر الأحمر)، قرب مدينة الكرك الأردنية. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٣٧٠).

(٢٢) الكرك، كلمة عجمية، اسم لقلعة حصينة جدًا في طرف الشام من نواحي البلقاء في جبالها، بين مدينة العقبة والبحر الأحمر وبيت المقدس، وهي على سن جبل عال، تحيط بها أودية إلا من جهة الربض.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص٤٥٣).

(٢٣) الرقيم، موضع بالقرب من محافظة البلقاء في الأردن.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٦٠).

(٢٤) توفي نجم الدين أيوب في أواخر شهر ذي الحجة من العام (٥٦٨هـ/١١٧٣م)، بعدما وقع من على ظهر الفرس.(ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٣٤) ٨ج، دار القلم، بيروت، لبنان، ط٥، (١٤٠٤هـ=١٩٨٤م).

(٢٥) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٣٤.

(٢٦) عسقلان، مدينة بالشام، من أعمال فلسطين، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين، ويقال لها عروس الشام، وكذلك يقال لدمشق أيضًا.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٤، ص١٢٢).

(٢٧) الرملة، واحدة الرمل، مدينة عظيمة بفلسطين، والفضل في إقامتها يرجع إلى الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك، الذي ابتدأ بتعميرها عام (٩٦هـ/٧١٥م).(الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٦٩؛ عبد الفتاح دخان، مختصر موسوعة بلادنا فلسطين، ج١، ٣١٣) ٢ج، غزة، فلسطين، (١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م).

(٢٨) للمزيد ينظر الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٠، ص٢٢؛ علي الصلابي، صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية، ص٤٥٢-٤٥٥؛ فايد عاشور، **الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين**، ص٧١. "، دار الاعتصام، القاهرة، مصر، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٢٩) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٥؛ ابن الوردي، **تاريخ ابن الوردي**، ج٢، ص٨٦؛ الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، ج٤، ص٢١٧٥٢ج، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

(٣٠) السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج٧، ص٣٦٥؛ بسام العسلي، **الأيام الحاسمة في الحروب الصليبية**، ص٩٠. ١- دار النفائس، بيروت، لبنان، د. ط، د. تـ

دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط٢، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٣١) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٦.

(٣٢) الخطي، يعني بالخطي رمح نفسه، أي يتردد بالطعن، كأنه يصور حاله وما يكابده في مجاهدة ومقاومة أعدائه.(الأصفهاني، **شرح ديوان الحماسة**، ج١، ص١٣). شرح ديوان الحماسة، د. د، د. ط، د. تـ

(٣٣) نهلت، أول الشرب.(ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص٦٨٠).

(٣٤) المثقَّفَةُ، الرماح المقومة.(أبو حيان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٢، ص٦٧). ٩ج، تحقيق: علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، (١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

(٣٥) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٨، ص٨٦.

(٣٦) مرج عيون، إحدى القرى اللبنانية الساحلية، من قرى قضاء مرجعيون، في محافظة النبطية.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص١٠١).

(٣٧) بانياس، من أعمال مدينة دمشق السورية.(الحموي، **معجم البلدان**، ج١، ص٥٠).

(٣٨) الدينار الصوري، تطلق الدنانير الصورية أو المشخصة على الدنانير الصليبية، وسميت كذلك لنقش صور أصحابها من ملوك الصليبيين على وجهها.(القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٣، ص٤٥٦). ١٤ج، تحقيق: عبد القادر زكار، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، (١٤٠١هـ/١٩٨١م).

(٣٩) القومص، تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes)، أي الأمير، ومعناها الأصلي في اللاتينية (الرفيق)، لأنه كان في بادئ الأمر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته، ثم سمي بالأمير.(نقلاً عن محمود شيت خطاب، **بين العقيدة والقيادة**، ص٢٩٤).

(٤٠) طبرية، من مدن فلسطين التاريخية المعروفة، سمّيت بذلك، لأن طبارى ملك الروم بناها.(البكري، **معجم ما استعجم**، ج٣، ص٨٨٧). ٤ج، تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ط٣، (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

(٤١) الداوية، هي جماعة صليبية، تكونت نواتها في البداية من تسعة فرسان، كان مهمتهم إرشاد الحجاج المسيحيين، وتوفر لها تأييد الملك بلدوين الثاني (Baldwin II) (٥١٢-٥٢٥هـ/١١١٨-١١٣٠م)، ثم البابا هونوريوس الثاني (Honorius II)، الذي عقد مؤتمرًا خاصًا لذلك في تروى بفرنسا سنة (٥٢٢هـ=١١٢٨م)، وأقر خلاله مبادئ الجماعة، والتي تتكون من اثنين وتسعين مبدًا، وجمعت الداوية بين صفتين رئيستين الفروسية والرهبنة، وكان لهم رداءً مميزًا لهم وهو الرداء الأبيض، كما كان لديهم علمهم الخاص، ويتكون من اللونين الأسود والأبيض، وقد تمكن مؤسس الداوية هيو دي بانيز(Hugh de Payans) من جمع الهبات والعطايا من الغرب، وإقامة مراكز خاصة هناك للتدريب وجمع الأموال، وتحولت هذه الجماعة مع مرور الوقت إلى جيش صليبي دائم، كان له دورٌ كبير ليس في حماية طرق الحجاج بل حماية الكيان الصليبي كله.(إبراهيم سلامة، **دراسات في تاريخ الحروب الصليبية**، ص٤٦-٧٣).

(٤٢) العماد الأصفهاني، **البرق الشامي**، ج٣، ص١٦٢؛ ابن شاهنشاه، مضمار الحقائق، ج١، ص١٦. ١ج، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة، مصر، د. ط، د. ت.

(٤٣) ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ج١، ص١٦؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٤٠، ص٣٢؛ ماجد الكيلاني، هكذا ظهر جيل صلاح الدين، ص٢٧٩..

(٤٤) الموصل، المدينة المشهورة العظيمة، إحدى قواعد بلاد الإسلام، ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق، ومفتاح خراسان، ومنها يقصد إلى أذربيجان، قالوا: وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وقيل: وصلت بين نهري دجلة والفرات.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص٢٢٣).

(٤٥) نص رسالة السلطان صلاح الدين للخليفة العباسي:" أن أهلها يخطبون لسلطان العجم، وينقشون السكة باسمه، وأنهم يراسلون الفرنج، ويغرونهم على قصد بلاد المسلمين، وأنه لم يأت لأجل الازدياد في الملك، ولا لقلع البيت القديم وقطع أصله، وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة ونصرة الإسلام، وردّهم عما اعتادوه من الظلم واستحلال المحارم، وقطعهم عن مواصلة العجم،

وإلزامهم بما يجب عليهم من حفظ الجار وصلة الرحم؛ فهذا صاحب الجزيرة، وهو ابن أخي صاحب الموصل عز الدين، ولي عهد أبيه لم يرع فيه ذمة أخيه، وأبعده عما يستحقه بالإرث، وقطع رحمه وأخافه، ولو تمكن منه لأهلكه، ولولا خوفه منه لما أفضى إلى هذا المقام، ما اختار البعيد على القريب، صاحب إربل جارهم، وأبوه زين الدين هو بيتهم، وسيّد أمرهم، وهو يشكو جوارهم في حقه وظلمهم له".(ابن واصل، **مفرج الكروب**، ج٢، ص١٦٦).

(٤٦) بلد، مدينة بالقرب من مدينة الموصل.(الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ج٢، ص٦٦٠ (٢ج، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

(٤٧) خِلاط، البلدة العامرة المشهورة، ذات الخيرات الواسعة، والثمار اليانعة، وهي من فتوح الصحابي الجليل عياض بن غنم الفهري القرشي، سار من الجزيرة إليها، فصالحه بطريقها على الجزية، ومال يؤديه، ورجع عياض إلى الجزيرة، وهي قصبة أرمينية الوسطى. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٧٩-٣٨٠).

(٤٨) ابن شاهنشاه، **مضمار الحقائق**، ج١، ص٢١٧؛ فايد عاشور، الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين؛ عبد الرحمن عزام، صلاح الدين، ص١٨٨-١٨٩؛ سامي أبو زهري، **صلاح الدين الأيوبي**، ص١٨٩.

(٤٩) حرّان، مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرها يوم واحد، وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم.(الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٢٣٥).

(٥٠) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج١٠، ص١٤٠.

(٥١) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، ج٥، ص٣٥٨؛ المقريزي، السلوك، ج١، ص٢٠٩؛ الحنبلي، **الأنس الجليل**، ج١، ص٣٢٣.

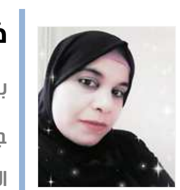
(٥٢) **بين العقيدة والقيادة**، ص٢٩٥-٢٩٦.

(٥٣) الخرُّوبَةُ: حصن بسواحل بحر الشام، مشرف على مدينة عكا في شمال فلسطين. (الحموي، **معجم البلدان**، ج٢، ص٣٦٢).

(٥٤) أبو شامة، **الروضتين في أخبار الدولتين**، ج٤، ص١٠٩؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٣، ص١٧.

المسألة اليونانية وانعكاساتها على العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط ١٨٢١-١٨٣٠

فاطمة بن عيسى
باحثة دكتوراه تاريخ حديث
جامعة وهران
الجمهورية الجزائرية



مُلَخّص

بدأ نمو العاطفة القومية عند مطلع القرن التاسع عشر وتمثل بحركتين، حركة متجهة نحو المركز والتي دفعت بالشعوب التابعة لدول مختلفة إلى الاتحاد في دولة قومية واحدة والتي نرها في بعض الدول والإمارات الأوروبية، وقد سبَّب الاعتقاد المعروف بمذهب تقرير المصير القومي العديد من الثورات كالثورة الإسبانية والإيطالية والبلجيكية، فأصبحت القومية قوة مهمة في العلاقات الدولية، ودفع هذا بالدول الأوروبية إلى تشكيل قوة عسكرية تعمل على قمع هذه الثورات أيّنما حلت، أما الحركة الثانية فهي حركة مبعدة عن المركز والتي دعت الشعوب الخاضعة للسيطرة خارجية إلى التحرر من هذه السيطرة، وهي قضية الأقليات القومية والتي نرها في الولايات التابعة للدولة العثمانية، ويجدر بنا الإشارة إلى قضية منها جيد ضرورية وهي اختلافها عن الحركات الأوربية، فإذا كانت الكتابات الغربية في المسألة الشرقية قد عملت على دمج ما يسمى الأزمة اليونانية مع الأزمات الأوربية في البلقان وبشرق أوروبا عن الدولة العثمانية وتم خلالها اختبار التوازنات الأوروبية حول المسألة الشرقية، فالقومية في الإمبراطورية العثمانية أصلاً مستوردة فلسفيًا من غرب أوروبا لكن تطورها داخل الإمبراطورية العثمانية كان مختلفا حيث كانت بذورها وبواعثها أكثر ارتباطًا بالفكرة العثمانية عن أمة معرفة دينيًا من القومية العرقية في أوروبا الغربية، فبدأت قصة خسائر العثمانية لمصلحة القومية الجديدة في القرن التاسع عشر بالثورة اليونانية ١٨٢١م، وقد كانت أولى الحركات الّتي حدّدت هويتها بقتل وطرد المسلمين من أرضيهم، فقدمت الثورة اليونانية نموذجًا اتبعته الثورات قومية لاحقا ضد العثمانيين، فظهرت حركة محمد علي باشا في مصر وحاول هو أيضا الانفصال عن الدولة العثمانية وانفراده بحكم مصر والتوسع على حسابها وتكوين إمبراطورية عربية يرثها هو وأبنائها بعده، وبذلك بدأت تظهر ملامح الضعف والانهيار داخل الدولة العثمانية التي لم تعد قادرة على الحفاظ على الولايات التابعة لها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٣٠ يوليو ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ أكتوبر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الإمبراطورية العثمانية؛ الثورة الفرنسية؛ الثورة الصربية؛ مؤتمر بطرسبرج؛ معركة نافرين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057042

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاطمة بن عيسى. "المسألة اليونانية وانعكاساتها على العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط ١٨٢١-١٨٣٠".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٤٨ – ٦٢.

مُقَدِّمَة

نهايـة القـرن الثـامن عشرـ أدرك رجـال الدولـة في الإمبراطورية العثمانية أن تغيرات كبرى قد طرأت على العـالم عامـة ومنطقـة البحـر الأبيـض المتوسـط خاصـة أتاحـت للـدول الأوروبيـة أن تتفـوق عـلى الإمبراطوريـة العثمانيـة في النمـو الاقتصـادي والسـياسي، وبـدأ النظـام الاقتصـادي الرأسـمالي في الظهـور، خاصـة بلدان البلقان وعلى الخصـوص بـلاد اليونـان لأنهـا كانـت أكـثر ارتباطًـا بالأسـواق الأوروبيـة نتيجـة العامـل الجغـرافي، كـما اشـتدت حركـات التحـرر لـدى الشـعوب الخاضـعة للدولـة العثمانيـة، والتـي ارتـبط تطورهـا بالنظـام الاجتماعـي المتخلـف عـن الإمبراطوريـة

العثمانية، حيث لم تعد راغبة في الاكتفاء بوضعها كرعايا من الدرجة الثانية مثل اليونان[١]، فقد سيطر الأتراك العثمانيون على اليونان في القرن الرابع عشر الميلادي، والتي كانت تابعة للإمبراطورية البيزنطية، ومنحوا اليونانيين النصارى حرية العبادة، والحكم الذاتي المحلي، غير أنهم قاموا بثورة ضد الحكم التركي، والتي كانت تمثل كل مظاهر الحركة القومية، فهي احتجاج تلقائي لشعب بقي أجنبيًا عن الإمبراطورية العثمانية؛ فماهي العوامل التي دفعتهم إلى القيام بذلك ؟وما مدى تأثيرها على الوضع الدولي آنذاك؟

أولاً: عوامل قيام الثورة في اليونان ١٨٢١م

١/١-العامل الديني والاجتماعي والاقتصادي:

كانت الدولة العثمانية كلما فتحت قطرًا من الأقطار لا تتعرض لحرية الأديان فيه، كما هو شأن الدول الإسلامية، وذلك راجع إلى عدة ظروف لم تساعد الدولة على نشر الإسلام بالدعوة وتأليف قلوب المسيحين على أهله، لهذا كان بقاء الشعوب المسيحية خاصة الأوروبية منها على دينهم في المملكة العثمانية من أعظم أسباب الضعف الذي دّبَ قلب الدولة العثمانية، ولو أنها عملت على نشر لغتها الرسمية والدين الإسلامي حينها في الولايات الأوروبية من خلال تسهيل طرق الهجرة أو بطرق أخرى لما انفصلت عنها معظم الولايات البلقانية[٢]، حيث كان أهلها سبب مشاكل الدولة العثمانية، ولا يخفى أن الشعوب تربطها ثلاث مقومات وهي الدين، واللغة، والجنس، فإذا تمسكت الأمة بمقومتها الثلاث أصبحت قوية يصعب تحطيمها، لكن الدولة العثمانية لم تخرج عن حدود الشرع الإسلامي القاضي بقبول الجزية من المسيحين وأصحاب الملل الأخرى[٣]، وتركهم على دينهم مع حماية أموالهم، وأعراضهم، وأن يكون لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، لهذا لم يبق لأولئك الأقوام مع الدولة العَليّة جامع ديني ولا جنسية تربطهم بحُكمها رابطًا قويًا، وكانت نتيجة ذلك انسلاخ عدة ولايات عنها شيئًا فشيئًا مثل رومانيا والجبل الأسود والبوسنة والهرسك واليونان[٤].

فقد ظل اليونانيون محافظون على لغتهم، وعملوا على فتح المدارس لتربية أولادهم على مبدأ التخلص من الحكم التركي عن طريق غرس البغضاء والكره الشديد للأتراك في قلوبهم، فنشأوا على ذلك، وبدأوا يستعدون للثورة ضد الأتراك.

٢/١-أوضاع اليونانيين قبل اندلاع ثورة ١٨٢١م:

كان اليونانيون يحتلون في الدولة العثمانية موقعًا متميزًا منذ زمن، وكانت غالبيتهم تستوطن منطقة المورة[٥] وجزر بحر ايجه وتساليا، إلا أنهم كانوا بوجه عام منتشرين في كافة أنحاء الإمبراطورية، وكان القسم الذي يعمل منهم بالتجارة والنقل البحري والصرافة وما يشبه ذلك قد أثريَ ثراءً عظيمًا، واتصل بالغرب في علاقات دائمة، وكانت العائلات الأصيلة القاطنة في حي فنار الذي يظم البطريقخانة في إستنبول قد نجحت في تولي بعض المناصب المهمة في الدولة، وهؤلاء كانوا مطلعين على دقائق السياسة الخارجية، وكافة أسرار الدولة فقد كانت وظيفة الترجمة في الديوان الهمايوني من الوظائف التي احتكروها سنوات طويلة ١٦٦٩م- ١٨٢١م كما كان يجري تعين الأمراء على الإمارات ذات الحكم الذاتي مثل الأفلاق والبغدان منهم، وقد دفع هذا الفناريين إلى إقامة القربات عن طريق المصاهرة مع النبلاء المحليين، ونقل ثرواتهم الضخمة بعيدًا عن العاصمة وعن الأعين إلى تلك الإمارات، ويصبحون بذلك أصحاب أملاك عريضة هناك ويحولون الاستفادة بوجه خاص من سيادة الكنيسة الأرثوذكسية في تلك الأماكن، وقام اليونانيين على العموم بتجريد الشعب واستنفاذ ثرواته[٦].

أما حالتهم التجارية فقد بلغت شوطًا بعيدًا، إذ كانت مراكبهم وسيلة الاتصال بين الدولة العثمانية والدول الأخرى، ولا شك أن معاهدة كينارجي التي فتحت موانئ البحر الأسود للتجارة الروسية ساعدت اليونانيين على بناء المراكب الضخمة وتسليحها في ظل الراية الروسية لا سيما أنهم اتخذوا ثغر أوديسا قاعدة لهم ومركزًا لتجارتهم، ولم تكن حالة اليونانيين الأدبية أقل تقدمًا من حالتهم المادية والسياسية فقد رأى أحدهم وهو المصلح الكبير كوريس Corais (١٧٧٤م – ١٨٣٣م) أنه لا يكمل الشعور القومي إلا بلغة يمتاز الشعب بها، ولما كانت لغة اليونانيين خليطًا من اللغات المجاورة، فقد أخذ يطرد الغريب عنها ويعوضه باليوناني العريق، هذا إلى أنه أحيا الآداب الإغريقية القديمة، فأيقظ في مواطنه ذكر تاريخهم القديم، غير أن اليونانيين لم يكونوا في الحقيقة نسلاً مباشرًا للقدامة من الإغريق، فالمصريون اليوم أقرب بلا ريب إلى المصرين الأقدمين من اليونانيين بالإغريق الغابرين[٧].

وكان الفلاحون منهم يتمتعون بنعمة يحسدهم عليها الكثير من أقرانهم في روسيا والنمسا بل في إنجلترا نفسها، فقد كانوا يتمتعون بخيرات أراضيهم ويحتفظون بملكيتها، وإذا كان قد وقع عليهم بعض الحيف في جباية الضرائب فقد كان المسلمون يشاركونهم في ذلك، أضف إلى هذا أن المسلمين كانوا يجندون وحدهم دون المسيحين، فكان الفلاحون في قراهم يتمتعون بشبه استقلال داخلي فيُعينون الموظفين والقسيسين من بينهم، وكذلك كانت الجزائر الإغريقية تتمتع بمثل هذا الاستقلال، فلم يكن يربطها بالسلطة العليا إلا دفع جزية صغيرة وتقديم عدد معين من البحارة للأسطول[٨].

سَلم العثمانيون أمر حراسة الطرق لبوليس أهلي من اليونانيين لمكافحة العصابات التي كانت منتشرة على طول الطرق التي تعترض التجار، وبهذا خلقت النواة التي نشأت منها جيوش الثورة، كما أن الترخيص للمراكب اليونانية بالتسليح لمقاتلة القراصنة في البحار أوجد أداة الكفاح الفاصلة في الحرب العثمانية اليونانية فيما بعد، ويتضح من هذا أن اليونانيين لم يكونوا مستبعدين بل كان لهم في الدولة مركز ممتاز من حيث الثروة والسلطة، وأما الأسباب التي دعتهم إلى الخروج عن العثمانيين فلم تكن لعسر أو لشدة نزلت بهم، وإنما أيقظ اليسر والرخاء اللذان نعموا بهما أحلام واسعة، ولم أعلنت الثورة الفرنسية مبادئ اتحاد القومي، وحرية الأهالي تحرك قلب الشعب اليوناني من جديد كما حركته عوامل النهضة الأدبية[٩]، لكنهم أيقنوا بأنهم لا يقدرون على طلب الاستقلال، إلا إذا كان أبناءهم متعلمون، فعمد أغنياءهم إلى إرسال أولادهم إلى مدارس الدول الأوروبية ليتحلوا بالعلوم والمعارف، وليكونوا رؤساء الأمة ودعاة حريتها في المستقبل، ثم ألفوا عدّة جمعيات لنشر العلم بها بين أفراد الأمة وبث الروح الوطنية، وشكلوا جمعيات سرية، وجعلوا مراكزها في روسيا والنمسا[١٠]، وكل هذه الأمور ساعدت على زرع دعوة (الهلينية) وتطور مراكز القومية اليونانية، وظهور فكرة إحياء البيزنطية من جديد، وهو الأمر الذي مهد السبيل في النهاية إلى ظهور أولى حركات الثورة والعصيان التي انفجرت عام ١٨٢١م في تلك الإمارات[١١].

١/٣-العامل التاريخي:

أخذ الإعجاب بالحضارة الهيلينية ينتشر شيئًا فشيئًا في كل أنحاء أوروبا مع ظهور حركة النهضة، والحركة الإنسانية التي تركز فيها الاهتمام على كل ما هو قديم، فكان مثقفو الأرستقراطية والبرجوازية في أوروبا الذين تعلموا على امتداد كافة المراحل التعليمية اللغة الإغريقية، والأدب، والفلسفة، والميثولوجيا[١٢] لدى الإغريق القديم، وتحولوا كنتيجة لإعجابهم بالهيلينية إلى مدافعين عن الدعوى اليونانية، ولا شك أن السبب الرئيسي وراء الترحيب العام الذي لقيته الثورة اليونانية في كل أوروبا، وإثارتها لمشاعر فياضة في النفوس هو ادعاء الرعايا اليونانيين الذين يتقاسمون البقعة الجغرافية لتلك الحضارة القديمة بأنهم أصحاب ذلك التراث الثقافي، ونجد أن الأشخاص الذين جاءوا إلى المورة من الأوروبيين المعجبين بالهيلينية، وحاربوا كمتطوعين إلى جانب اليونانيين ضد الأتراك ضد الأتراك كانوا يحملون ذلك الشعور بالإعجاب تجاه الحضارة اليونانية القديمة التي استقرت في نفس كل واحد منهم منذ الصغر، وامتزجت بثقافته التي نشأ عليها[١٣].

١/٤-أفكار الثورة الفرنسية ١٧٨٩:

هزت الثورة الفرنسية القومية اليونانية، وهي لا تزال تجهل نفسها، وفي الحقيقة إن تدريب هذه الأمة على الشعور بنفسها أتى من الخارج، وأول جهد بذل لفهم الدولة الإغريقية وتحقيق هذه الأمة كان من الخارج أيضًا، ولذا تمتاز الحركة اليونانية بالجمع بين الدفع الخارجي، والضغط الداخلي، فكانت الثورة الفرنسية فرصة لأول حركة قومية في اليونان حيث انتشرت أفكارها بشكل يصعب تحديده، وإمساكه، لأن انتشارها كان بمثابة عدوى، فكانت أفكار الثورة الفرنسية تصل إلى اليونانيين بواسطة ثلاث عوامل وهي كالآتي:

العامل الأول: عن طريق الإمبراطورية النمساوية لأن مدنها الكبرى كانت تحتوي على الكثير من اليونانيين، حتى أن الجالية اليونانية في فيينا كانت بأعداد كبيرة وغنية، وتضم الكثير من التجار، ويضاف إلى ذلك أن الحكومة النمساوية اعترفت في نوفمبر ١٧٨٧م بوجود الجالية اليونانية كوجود مشروع، ولم يقلق وجودها الإمبراطور بعد أن ألفى فيها وسيلة للتأثير والتدخل في شؤون الإمبراطورية العثمانية، وفي الشهر أكتوبر ١٧٩٦م اعترف رسميًا بوجود الكنيسة اليونانية في فيينا، وسمح في عام ١٨٠٤م بافتتاح مدرسة إغريقية رسمية، وكان اليونانيون في فيينا يمدونها بالمال من أجل تعليم اللغة والأدب اليوناني لأطفالهم، فغدت فيينا مركزًا للقاء عدد عظيم من المثقفين ورجال الفكر اليونانيين، كما وجد

فيها مراكز يونانية للنشر، وكانت على اتصال بمفكري إمارتي الأفلاق والبغدان، وكان وضعهم القانوني كالنمساويين يتيح لهم سهولة إقامة علاقات وروابط عكس الإمبراطورية العثمانية، ولذا كانوا بفضل الجوزات النمساوية التي يحملونها يستطيعون التجول في سائر أنحاء الإمبراطورية النمساوية و حتى العثمانية بأمان واطمئنان[١٤].

وقد أصبحت فينا أثناء الثورة الفرنسية نقطة توسع للأفكار الفرنسية ففيها أسست أول جريدة يونانية، وأسس أيضًا الأخوان يوليوس ماركيديس وهما يونانيان من مدينة ماكيدونيا جريدة إيفيميريس، وقد ظهر أول عدد منها في ٣١ ديسمبر ١٧٩٠م، وصدر برسم يمثل بعث اليونان الذي يظهر في أول مقال له يتوجه إلى صديقه القارئ بالعبارة التالية:" ها هي الجريد المنتظرة الموعودة منذ زمن طويل كتبت بلغة شعبية، تنمو كالنبات الصغيرة شيئًا فشيئًا، وأخيرًا نحمل ثمارها المفيدة"، وكانت الإيفيميريس تصدر مرتين في الأسبوع بأربع أو ثماني صحائف من الحجم الكبير، ثم بالصحائف المتوسطة من ١٦ إلى ٢٠ صحيفة، وفي عام ١٧٩٣م سميت بـ" مجموعة أهم الحوادث المعاصرة وأصدقها في العالم أجمع، تلقفت بدون ملل على منوال النحلة" وتقول أنها " لا تقبل بأن تكون أمتنا المجيدة وحدها الأمة التي أضاءت العالم بعقلها وعلومها مجردة من الصحافة"[١٥].

ومن الطبيعي أن تصطدم الجريدة ببعض الصعوبات كالرقابة النمساوية، والسلطات التركية، ولذا اضطرت الإيفيميريس أن تهذب أعداءها التي تمر بالإمبراطورية العثمانية ولا تتعرض لأي خبر يخص الإمبراطورية العثمانية ، ومن جهة أخرى كان محرروها باعتبارهم مراقبين من قبل الرقابة النمساوية مضطرين للامتناع عن كل تصريح يتناول الحرية، ولذلك كانوا يقومون بدعايتهم بشكل دراسات تاريخية تذكر دائما بالحوادث الهامة في التاريخ الإغريقي ويمجد الجدود ويُعلِمون قراءهم بالحوادث الثورة الفرنسية مكتفين بتسجيلها، فهم يعرضون الحوادث العظمى للثورة كالإعدام في عهد الإرهاب ومغامرات الجنود الفرنسيين، ويلقنون قراءهم درسا في الجمهورية، وذلك بنشر وتحليل مناقشات المجالس الفرنسية في حقوق الإنسان، وتحليل القرارات أو الدساتير الفرنسية، وهكذا وجدت رابط أو صلة بين اليوناني في النمسا واليوناني في الخارج، فقد كانت هذه الجريدة وسيلة تربية ونضال بشكل حذر على قدر الإمكان ودعاية ناجعة، وقد نبهت تقارير السلطات الضابطة إلى هذه الدعاية وأظهرت الروح الثورية وأفكار الفرنسية التي كانت تنتشر بواسطة هذه الجريدة[١٦].

العامل الثاني: وقد كانت أيضًا الأفكار الفرنسية تصل إلى اليونانيين مباشرة عن طريق أصحاب السفن والملاحين اليونانيين الذين كانوا يمونون الموانئ الفرنسية، أو الموانئ المحتلة من قبل فرنسا، عندما تحصروها الأساطيل الإنجليزية والنمساوية وبعدها الروسية، حتى أن بعض هؤلاء الملاحيين اشتركوا فيما بعد في الحركة الثورية اليونانية مثل مياؤليس، فقد كان هؤلاء الملاحون يترددون على الموانئ الفرنسية ويتلقون أفكار الحرية، وعندما يعودون إلى بلادهم يحدثون بما رأوا وشاهدوا وسمعوا، فكانوا بذلك دعاة للثورة، وكما قال أحد اليونانيين:" إنهم يبيعون الحنطة والحلو ويأخذون بالمقابل مفاهيم الحرية ومبادئها"[١٧]، ونجحت دعايتهم في اليونان لا سيما أنها كانت مطابقة للنهضة الفكرية، والجهد العام لإحداث المدارس آنذاك، وكان بعض هؤلاء الملاحين والتجار عملاء سياسيا ومخبرين، ودعاة إلى جانب فرنسا عام ١٧٩٢م[١٨].

العامل الثالث: انتقلت أفكار الثورة الفرنسية كذلك بواسطة المحافل الماسونية[١٩]، فقد تأسست المحافل الماسونية اليونانية في أوديسا[٢٠] و بوخارست[٢١] وباريس وبعض مدن ألمانيا، وانتسب أكثر اليونانيين المقيمين إلى هذه المحافل، وكانت موجودة أيضًا في الأراضي العثمانية في إقليم تساليا، حيث سمحت لليونانيين بلم القوميين والدعاية لاسيما أن سر الماسونية صالح لهذه الدعية، والملاحظ أن مَنْ يشارك في جمعية ١٨٢١م كانوا ماسونيين، وما يدل على قوة الدعاية قلق بطريركية القسطنطينية، فقد كانت البطريركية موالية للنفوذ الروسي، ولأن حكومة هذه الأخيرة أرثوذكسية، ولها علاقة مع الفناريين الأغنياء، فانتابها القلق من نمو الأفكار الفرنسية التي تنشرها المحافل الماسونية، والأفكار الديمقراطية التي تشكل خطر على هؤلاء الملاكيين الأغنياء والتجار والأرستقراطيين الفناريين[٢٢].

وعلى هذا النحو تأثرت بعض المناطق اليونانية بالأفكار الثورة الفرنسية، وتأسست فيها مراكز تعمل على نشرها، ويظهر هذا التأثير من خلال الغليان الشديد التي شاهدته اليونان في عامي ١٧٩٦م و١٧٩٧م، وكان شعبها لا ينتظر سوى الإشارة ليقوم بالثورة، ويطالب بالاستقلال.

٥/١-الثورة الصربية:

ثار الصربيون ضد الدولة العثمانية لجملة من الأسباب وهي كما يلي:

١. فكرة القومية التي نشرتها الثورة الفرنسية في كافة أنحاء أوروبا، وانتقال شرارتها إلى الأقوام المسيحية التابعة للدولة العثمانية.

٢. معاملة الانكشارية بوجه خاص للمسيحين البلقان.

٣. سحب الأراضي من القرويين الصربيين[٢٣].

٤. كان أعيان بعض رعايا الدولة من النصارى الذين قاموا بدور قيادي في حركة العصيان فيما بعد يشتكون دائمًا من السلطات، والإدارة المركزية التي وفرت لهم كل الامتيازات الاقتصادية والإدارية، وتتمثل هذه الشكاوي في انتزاع الأراضي من بين أيديهم، ورفع الضرائب التي كانت تحصل منهم إلى معدلات عظيمة أو رفع ضغوط الجند عنهم[٢٤].

٥. ولما بلغ رؤساء ثورة الصرب خبر معاهدة بوخارست القاضية بإرجاعهم إلى سلطة الدولة العلية المطلقة، اشّتد غيظهم، ولم يقبلوا الرجوع إلى حالتهم الأصلية، وثاروا من أجل الدفاع عن استقلالهم، فسَيرت إليهم الدولة جيوشا، وبها أخضعتهم إلى سلطانها قهرًا[٢٥]، وعملت على تأديبهم[٢٦]، وعاد الموظفون العثمانيون إلى مراكزهم كما كانوا قبل الثورة، أما زعماء الثورة فقد هاجروا إلى النمسا، والمجر منظرين أول فرصة لإهاجة الأمة ثانية طلبًا للاستقلال، لكن هؤلاء الزعماء الثورين بقي منهم شخص في بلاده يدعى مليوش اوبرينوفتش حيث أظهر ولاءه للدولة حتى عينته شيخا للبلدة في إحدى القرى، وظل ينشر أفكار الثورة في أوساط الأهالي، ويبث فيهم روح الحرية حتى إذا أنس منهم الاستعداد للقيام كرجل واحد، فانتهز برينوفتش فرصة عيد الزحف في سنة ١٨١٥م الذي يحتفل به المسيحيون في يوم الأحد السابق لعيد الفصح[٢٧]، حيث كان جميع أهالي قريته المجاورة مجتمعين، ونشر بينهم لواء العصيان، ودعاهم إلى الثورة فلبوه بسرعة، وانضم إليه جميع الأهالي، وعاد المهاجرون إلى أوطانهم، وامتد العصيان إلى جميع أنحاء بلاد الصرب[٢٨].

فاتخذت الانتفاضة الصربية بشكلٍ عام حرب العصابات[٢٩]، فانشغلت بها الدولة، ولم تلبث أن اشتدت بفضل المساعدات العسكرية التي أمدّتها بها روسيا أثناء حربها مع الدولة العثمانية (١٨٠٦- ١٨١٢)، غير أن معارضة النمسا لإقامة دولة صربية على حدودها، ودخول روسيا في حرب مع فرنسا قد منح الفرصة للدولة العثمانية أن تمتنع عن تطبيق المادة المتعلقة بالصرب في معاهدة بوخارست، وكبح جماح الانتفاضة الصربية في أكتوبر ١٨١٣م، ولم تلبث هذه الأخيرة أن اشتعلت من جديد عقب انتخاب مليوش اوبرينوفتش أميرا للأمراء (باش كنز) في جويلية ١٨١٥م، ولما تعرضت فرنسا لهزيمة فادحة في حملتها على الروس، ولم يعد نابليون يمثل خطرًا على أوروبا، وأتاح ذلك لروسيا فرصة الاهتمام بشكل جاد في هذه المسألة، أما الدولة العثمانية التي تجنبت التدخل في أمر كهذا، بل وخافت من أن تصبح تلك المسألة موضوعًا في المفاوضات، وابتعدت كذلك عن المشاركة في مؤتمر فيينا لهذا السبب[٣٠].

رأت الدولة العلية من المناسب الاعتراف بميلوش اوبرينوفتش أميرًا، وقبلت أن تمنح الصرب حق الإمارة ذات حكم ذاتي سنة ١٨١٦م، فوافق اوبرينوفتش ذلك بشرط أن لا تتدخل الدولة في شؤونهم الداخلية، ولا في تحصيل الضرائب، بل عينت لإدارة البلاد وتوزيع الضرائب وتحصيلها مجلس مؤلف من اثنى عشر عضوا، ينتخبهم الأهالي من أعيان الأمة، وهم ينتخبون رئيسًا لهم من بينهم يكون كحاكم عمومي، وتكتفي الدولة بالمراقبة واحتلال الحصون والقلاع، فقبل الباب العالي هذا الشرط، وعين مرعشلي باشا واليًا للصرب، وأعطيت إليه تعليمات شديدة تقضي عليه بمعاملة الصربيين بالرفق واللين كي يحافظوا على ولاء الدولة، ولا يسعوا في قطع ما بقي لهم من روابط وكان ذلك في سنة ١٨١٧م، ثم عين مليوش برونوفتش رئيسًا لمجلس الصرب، وهو بمثابة مجلس النواب الآن، وأطلقوا عليه اسم سوبرانيا، وصارت الصرب مستقلة تقريبًا، واستبد برونوفتش كملك مطلق التّصرف، ولم يكن له منافس في السلطة سوى قره جورج[٣١]أكبر زعماء الثورة، فأصّر على قتله، وتربص له حتى إذ حضر جورج متخفيًا إلى صربيا قاصدًا بلاد اليونان بناءً على طلب زعمائها، فأرسل إليه اوبرينوفتش من قتله، ثم أرسل رأسه إلى الأستانة علامة على حسن ولائه، واخلاصه للدولة العلية صاحبة السيادة الاسمية على بلاده.

٦/١-القساوسة اليونانيين وإعدام جريجوريوس:

بعد حصول روسيا بموجب معاهدة كينارجي على حق حمايتها للمواطنين الأرثوذكسية من رعايا الدولة العثمانية أصبح اليونانيين يحلمون بإقامة دولة مستقلة، فشكلت جمعية هاريتارياالسرية[٣٢] في

أوديسا عام ١٨١٤م لتحقيق هذا الهدف، أما بطريركية "فنر" التي أحياها السلطان محمد الفاتح وأعطها الحرية وكل حقوقها، فقد كان بطريقها وأشراف فينر من الروم يساعدون هذه الجمعية[٣٣]، ومن أهم أعمال هذه الأخيرة ما يلي[٣٤]:

- إنشاء جمعيات سرية في كل أنحاء الدولة العثمانية، والقيام بتسجيل أغنياء الروم، وأكثرهم نفوذًا في هذه الجمعية من أجل ضمان المساعدات المادية والمعنوية.
- تأسيس شركات تجارية لتأمين مصدر مالي للجمعية السرية.
- استفادة من الشباب اليوناني الذين يدرسون في أوروبا.
- العمل على تأمين مساعدة من الدول الكبرى.

وامتدت شبكات الجمعية السرية إلى بلاد مورة وخارجها، وعملت المكائد على التخلص من العوائق الداخلية، وأعلنت تمردها عام ١٨٢١م، فأصبح الكثير من القساوسة ورجال الدين أعضاء أصلين في هذه الجمعية التي أسست من أجل مناهضة العثمانيين، فقام هؤلاء باستخدام نفوذهم على الشعب وتحريضهم على الثورة[٣٥]، وكان جريجوريوس بطريق باتراس الذي أشعل فتيل الثورة اليونانية مرتبطاً بهذه البطريركية[٣٦].

فوجئت الدولة العثمانية عندما قام الثوار اليونانيون بالسيطرة على جميع أنحاء مورا في نوفمبر ١٨١٢م لأنها كانت قد أعطت لبطريق فنر باعتباره رئيس البطريركية العالمية جميع الامتيازات كما قامت بحماية الأرثوذكس من جور وظلم الكاثوليك وتعسفهم بل حتى محاولة إفنائهم، وقد ثبت وجود علاقات سرية وقوية بين البطرق جريجوريوس الذي جيء به بطريقًا للمرة الثالثة وبين هذه الجمعية السرية، وكذلك بينه وبين المسؤولين الروس، ودليل ذلك رسالته التي بعثها إلى ألكسندر قيصر روسيا والتي جاء فيها: "ليس من الممكن تحطيم الأتراك من الناحية المادية، لأن الأتراك قوم صبورون، ولديهم قابلية مقاومة كبيرة ومغرورون ولهم عزة وكرامة نفس، وهذه الصفات تنبع من تعلقهم بدينهم ورضائهم بالقدر ومن القوة تقاليدهم ومن شعور الطاعة لرؤسائهم، لذا يجب أولاً تحطيم وإزالة شعور الطاعة هذا، وقطع روابطهم المعنوية وإضعاف متانتهم الدينية، وفي اليوم الذي تهتز وتضعف معنوياتهم هذه عندئذ يمكن عزلهم عن قدراتهم الأصلية التي تقودهم نحو الانتصارات، كما يمكن آنذاك هزيمتهم بالقوى المادية، وإن الانتصارات على الدولة العثمانية في ساحات الحرب لا تكفي للقضاء على الدولة العثمانية، ما يجب فعله هو إنجاز هذا التخريب وإتمامه دون أن يحس به الأتراك"[٣٧]، وقد علق الجنرال إغناتييف السفير الروسي لدى الدولة العثمانية في عهد السلطان عبد العزيز على هذه الرسالة في قوله:" لقد شاهدت صدق تحليل هذه الرسالة، وصدق تشخيصها عندما كنت أمارس وظيفتي"[٣٨].

وحينما ثبتت خيانة جريجوريوس استدعي إلى الباب العالي من قبل الصدر الأعظم حيث تم استجوابه أولاً، واتهم بالخيانة العظمى في ٢٣ أفريل ١٨٢١م[٣٩]، وعلقت لافتة الخيانة على رقبته، وشنق أمام الباب الوسط للبطريركية، وبعد أن بقي معلّقًا على المشنقة ثلاثة أيام قام اليهود برمي جثته في البحر، لكن بعض المؤرخين يرون بأنه مع كون هذا البطريق يستحق أكثر من هذا العقاب، إلا أن شنقه في ذلك الوقت الحرج قد عاد بالسلب على الدولة العثمانية وأفاد روسيا، لأن جميع الأرثوذكس انحازوا ضد الدولة العثمانية بسب حمايتهم الدينية، وهناك من يرى بأنه لو تمت الحيلولة دون إعدامه لما انتشرت الثورة اليونانية ذلك الانتشار الكبيرة، وقد وعد الروم بأنه مالم يتم شنق رجل دولة تركي فلن يفتح هذا الباب، ولا يزالون مستمرين على ابقاء هذا الباب مغلقًا، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه البطريركية وكرًا لوضع الخطط ضد الشعب التركي المسلم[٤٠].

ثانيًا: أحداث الثورة اليونانية

مرت الثورة اليونانية بثلاث مراحل أساسية وهي كالآتي:

المرحلة الأولى: انطلقت الشرارة الأولى للثورة في بلاد البغدان، وقد شجع قيصر روسيا على القيام بها من خلال مساندته، وكان غرض الثوار من ذلك تحرير اليونان من السيطرة العثمانية، لكم موقف روسيا سرعان ما تغير إذ أن توقيع الإسكندر لبرتوكول تروباو في نوفمبر ١٨٢٠م مع مترنيخ حامل لواء المحافظة على الأسر المالكة القديمة ضد أي انتفاضة، كان يعني بها مناهضة كاملة لكل حركات التحرر في الدول المستعمرة، كمناهضة للحركة اليونانية بزعامة ابسلانتي، ومن ثم كان على القيصر ألاّ يتعامل مع الثوار، وإن أراد ذلك فيكن سرًا بعيدًا عن أعين مترنيخ

المدافع عن الحكومات الشرعية، وكان موقف روسيا المتغير من بين العوامل التي أعاقت الثوار، ثم ظهر سبب أخر ساعد على فشل الحركة الناشئة حيث قامت الثور في الولايات الدانوبية وبعيدًا عن أرض المورة (اليونان)، وكان ملاك أراضيها من الفلاحين الولاشين وهم طبقة محكومة من قبل اليونانيين، فكان هؤلاء الفلاحون يكرهون اليونانيين أكثر من العثمانيين[٤١].

والسبب الثالث كان جنسيًا إذ أن سكان الأفلاق والبغدان ذو أصول الرومانية، وبالتالي هم يختلفون جنسيًا عن اليونانيين سكان المورة، وكان هناك سبب آخر أدى إلى فشل المحاولة الأولى حيث كان على ابسلانتي التحرك بسرعة صوب بوخارست واحتلالها قبل أن يتقدم الزحف التركي لمقاومته ومطاردته، لكنه تلكأ وتباطأ، وأضاع الوقت في إحدى الولايات أثناء احتفالات ملكية فيها أضاعت من حوله الأنصار، ثم أنه شجع المجازر الدينية بين المسلمين والمسيحيين التي ضاع ضحيتها الألوف من المسلمين، مما أدى إلى انصراف الجماهير من حوله أيضًا، وبدلاً من أن يصدر القيصر الروسي أمرًا بترك السلاح على الفور في تلك الفترة التي كان فيها مركزه ضعيفًا، رفض ابسلانتي الإذعان إلى مطلب القيصر الروسي لأنه كان يعتقد أن روسيا تؤيد السلام في أوروبا، ولا قبل لها بالحرب مع الدولة العثمانية، وفي الوقت نفسه انقضت القوات هذه الأخيرة على الثوار اليونانيين المنقسمين في معركة وراجا شان في ١٩ يونيه ١٨٢١م، وانهزم الثوار في الأفلاق وفر ابلانستي إلى حدود ترنسلفانيا إلى النمسا[٤٢].

وبعد هزيمة الأفلاق استطاع الأتراك إخماد الثورة في البغدان بسهولة، خاصة وأن روسيا لم ترسل أية مساعدات للثوار، وتم عزل حاكم البغدان المناصر لابسلانتي، وزحف الثوار إلى باس، وهناك زحفوا إلى ستاليني وعسكروا هناك وحاولوا الدفاع عن أنفسهم، ولكنهم منوا بالهزيمة الكاملة، وبذلك أخمدت الثورة في الشمال اليوناني، وقتلت فكرة إحياء الإمبراطورية إلى الأبد، أما ابسلانتي فقد اعتقله مترنيخ، وألقاه في السجن لمدة سبع سنوات حتى لقي حتفه في عام ١٨٢٧م في فيينا[٤٣]، لكن مانتران فيذكر كلام غير ذلك:"...وجرى قتله في ٢٤ جانفي ١٨٢٢م، الأمر الذي يضع حدًا لمحاولة الانفصال..."[٤٤].

المرحلة الثانية: استطاعت الجمعية السرية سابقة الذكر خلال مدة قصيرة أن تفتح العديد من الفروع في الأراضي العثمانية، ونجحت في استقطاب البطريق اليوناني، وأمراء الأفلاق، والبغدان، والعائلات اليونانية الثرية من سكان الفنار ليصبحوا أعضاءً فيها، وبلغت الاستعدادات التي قام بها اليونانيون نقطة الانفجار عندما وقع فراغ في السلطة نتيجة لإعدامعلي باشا مع أبنائه، وهو الذي كان يمسك بزمام الأمور في يانيه بوجه خاص، ولم يسمح لليونانيين بالالتفات يمينًا أو يسارًا، وقد أشعل قيصر روسيا أولى شرارات الثورة في الأفلاق ياور في فيفري ١٨٢١م، وكان في الحسبان أن الدولة العثمانية طبقًا لمعاهدة بوخارست لا تستطع أن تتدخل عسكريًا دون إذن روسيا في إخماد تلك الثورة المقررة إشعالها في الأفلاق والبغدان كما كان من المتوقع أن يشارك البلغار والصرب هم الأخرون في الثورة إلى جانب الرومان، وفي تلك الأثناء اشتعلت جبهة أخرى لثورة ثانية في المورة تزعمها ألكسندر يدعي ديمتريون في مارس ١٨٢١م[٤٥]، ولم تستطع الثورة في المملكتين ـ الأفلاق والبغدان ــ أن تنتشر بين طبقات الشعب لأن الشعب اليوناني لم يكن يرغب في إيراق دمائه في سبيل الدعوة الإغريقية كما لم يكن هناك ما يدعو أبدًا لتفضيل الحكم اليوناني على السيادة العثمانية هذا في الوقت الذي لم تتحقق فيه ثورة البلغار والصرب وانهزم ألكسندر هو وقواته بعد مدة قصيرة كما لم يصل العون المنتظر من القيصر بايفار ومن الأمير مترنيخ فقد كان هذا الأخير يؤكد على ضرورة تأييد ودعم الحكام الشرعيين في مثل تلك الثورات، فأمر بالقبض على ألكسندر وسجنه، أما الثورة التي اشتعلت في المورة فقد كانت تعتمد على قاعدة شعبية عريضة ولهذا انتشرت خلال فترة وجيزة ولم تلبث في نهاية أفريل ١٨٢١م أن عمت في وسط اليونان وجنوبها، وفي تلك الظروف تعرض الأهالي المسلمين الذين يعيشون منذ عدّة قرون فوق تلك الأرض لمجازر وحشية واسعة واستهدفتهم عمليات القتل الجماعي ونهب أموالهم وأراضيهم، وأثارت ثورة اليونان غضبًا شديدًا في إستنبول، حيث فقد على إثرها أمراء الفنار اليونانيون كل ما كانوا يحظون به من تقدير وسلطة، إذ كانوا حتى ذلك الوقت يتمتعون باحترام كبير وعاشوا حياة الرخاء والرفاهية وشغلوا مناصب هامة في الدولة[٤٦].

مؤتمر بطرسبرج ١٨٢٣م:

انعقد المؤتمر كنتيجة للثورة اليونانية ضد الحكم العثماني من أجل الاستقلال، وقد نظر مترنيخ إلى هذه الثورة على أنّها تهديد للحكم الملكي، بغض النظر عن على أن الملك القائم على هذا الحكم هو سلطان

مسلم، وكان مترنيخ يرى أن يقوم بعمل من شأنه تأييد موقف السلطان العثماني كي يحول دون تدخل روسيا الأرثوذكسية ضد الدولة العثمانية المسلمة لصالح اليونان الأرثوذكسية، وعلى أيّة حال فإن انشغال الاوتوقراطيات الأوروبية الكبرى بالمسألتين الإيطالية والإسبانية قد حال دون مناقشة المسألة اليونانية خلال مؤتمر ليباخ وفيرونا[٤٧] وبحلول عام ١٨٢٣م دعا قيصر روسيا القوى الكبرى إلى مؤتمر في سان بطرسبرج[٤٨] لمناقشة المسألة اليونانية وحسمْ النزاع على أساس تقسيم اليونان إلى ثلاث ولايات تمنح كل منها الحكم الذاتي تحت سيادة السلطان، ولكن النمسا رأت هذا التقسيم مجالاً لبسط نفوذ روسيا على الإمارات الجديدة، أما بريطانيا فقد خشيت أن يؤدي المؤتمر إلى تطبيق المبادئ التي وضعت في مؤتمر تروباو، ولما كانت تركيا واليونان قد أعلنتا أنهما لا تتقيدان بقرارات الدول[٤٩]، وتضاربت وجهات النظر فانفض المؤتمر من غير اتفاق بين الأعضاء في هذا الصدد.

وعلى إثر هذا تحطمت فكرة التظافرالأوروبي، فقد راح القيصر انطلاقًا من مصالح روسيا الذاتية يتفاهم مع كل من إنجلترا وفرنسا على أساس استقلال اليونان، في حين وقفت كل من النمسا وبروسيا موقفًا مناوئًا للموقف الروسي، وهكذا اتفق ثلاثة من الحلفاء القدامى على التدخل لحساب شعب متمرد على صاحب حق شرعي، وهم إذ ناصروه فإنما أيدوا مبدأ حق تقرير المصير، خارجين بذلك عن مبدأ الحلف الأول، فقضي على مصير الحلف إلى الأبد[٥٠].

ونستنتج أن دول الحالف لم تستطيع المثابرة على سياسة التحالف بعد أن تخلصت من الخطر المشترك، فراحت كل دولة منها تسترد حريتها بالعمل في الميدان الدولي وفق ما تقتاضيه مصالحها حتى وإن تعارضت هذه المصالح مع مصالح غيرها من الدول الحليفة، فقام التضافر الأوروبي على أساس تدعيم مبدأ الحقوق الشرعية، ومقاومة مبدأ حق الشعوب في تقرير مصيرها، ثم ما لبث المتحالفون أن تفرقوا عندما زال الخطر المشترك، الكل يسعى وراء مصالحه مؤيدًا الحق الشرعي أو حق تقرير المصير حسبما تقتاضيه مصلحته، وعلى هذا الأساس نستنتج أن العلاقات الدولية في الماضي أو الحاضر أو حتى في المستقبل لا يحكمها سوى قانون واحد وهو قانون المصلحة.

ولما رأى السلطان محمود الثاني ما ألم بالمسلمين وبجيوشه في هذه الحروب المستمرة، والمناوشات الغير منقطعة، وثبات اليونانيين أمام الجيوش العثمانية، واعتصامهم بالجبال، وعدم قدرة الجنود على اللحاق بهم في الجبال الوعرة، فأحال مهمة محاربتهم إلى محمد علي باشا والي مصر، نظرًا لما أبداه هو وولده إبراهيم باشا في محاربة الوهابيين من جهة[٥١]، ومن جهة أخرى كان يمتلك جيشًا وأسطولاً حديثين على الطراز الأوروبي[٥٢]، وقد استجاب محمد علي لهذا الطلب، وذلك بشرط الاعتراف به واليًا على مدينة الكريت[٥٣]والمورة[٥٤]، فأصدر علي باشا أوامره باستعداد سبعة ألف جندي كلهم مصريون من المشاة وعدد من الفرسان والمدفعية، وعين بكر أولاده ابراهيم باشا، وأرفقه بسليمان بيك، فانطلقت هذه الإرسالية من ثغر الاسكندرية في ١٦ جويلية ١٨٢٤م، فسارت السفن باسم الله مجرها إلى جزيرة رودس للاجتماع بالأسطول العثماني، ثم ترك ابراهيم باشا فيها سليمان بيك الفرنساوية مع حامية كافية لقمع الثائرين فيها، ولم يلبث ابراهيم باشا أن أمد مدينة كورن التي يحاصرونها اليونانيين بالرجال والذخائر في ٢٣ مارس ١٨٢٥م، ثم فتح مدينة نافرين[٥٥] الشهيرة بعد حصار شديد، ودخلها منتصرًا في ١٦ ماي ١٨٢٥م، وبعد مدّة قصيرة فتح مدينة كلاماتا[٥٦]، وفي ٢٣ ماي احتل مدينة تريبولتسا[٥٧]، ثم استدعاه رشيد باشا الذي كان محاصرًا في مدينة ميسولونجي[٥٨] لمساعدته على فتحها، وكانت قد أعيته في ذلك الحيل لوقوعها على البحر ووصول المدد إليها تباعًا من جهة البرّ، فقام إبراهيم باشا ملبيًا دعوته[٥٩]، فاستولى عليها، وجعلها أساسًا لحركاته الحربية[٦٠] في ١٣ أفريل ١٨٢٦م[٦١]، وفي ٠٥ جوان فتح العثمانيون مدينة أثينا وقلعتها الشهيرة أكروبول رغم الدفاع اليوناني المستميت بقيادة القائد البحري الإنجليزي كوشران[٦٢]، وتم تعين إبراهيم باشا واليًا على مدينة الكريت، لكن الثورة اليونانية لم تنته عند هذه النقطة، وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعثها علي خوجة زادة وكيل الجزائر في خانية بجزيرة كريت إلى حسين باشا في ٣٠ جانفي ١٨٢٧م[٦٣].

المرحلة الثالثة: بينما يستعد إبراهيم باشا لفتح ما تبقى من بلاد اليونان في أيدي الثائرين، إذ تدخلت الدول الأوروبية بحجة حماية اليونانيين المسيحين في الظاهر، ولفتح المسألة الشرقية وتقسيم أراضي الدولة العثمانية بينهم، ومن مظاهر هذا التدخل لوّم

روسيا أكثر من مرة مساعدتها الثائرين وحماية من يلتجئ منهم إلى بلادها، لكنها لم تصغي لهذا اللوم بل استمرت في مساعدة اليونانيين وهي احتلال الأستانة وجعلها مركزًا للديانة الأرثوذكسية، مثل مدينة روما التي تعتبر كمركز للكاثوليكية، كما اهتم نقولا الأول[٦٤] بمسألة اليونان بعد وفاة الإسكندر لأول متبع في ذلك خطة سلفه السياسية، وباتحاده مع إنجلترا التي كان قصدها منع الحرب بين الدولتين اضطر الباب العالي إلى تصديق على معاهدة آق كرمان Akkerman[٦٥]في ٠٧ أكتوبر ١٨٢٧م، جاءت هذه المعاهدة لتوضيح معاهدة بوخارست سنة ١٨١٢م، وبموجب هذه المعاهدة تم توسيع الاستقلال الداخلي لإمارات رومانيا وصربيا، كما تقرر عدم وجود أي مسلم محلي في قلاع صربيا ماعدا جنود الجيش التركي، ينتخب الباب العالي بكوات الأفلاق والبغدان من بين أشراف الرومان، ويعين الباب العالي هؤلاء الأمراء لمدة ٠٧ سنوات، وليس له الحق تغيرهم مالم تكن هناك أسباب جدية[٦٦]أن يكون لروسيا حق الملاحة في البحر الأسود، بدون أن يكون للدولة العثمانية حق في تفتيش سفنها[٦٧]، وقد توعد السلطان العثماني من خلال هذه المعاهدة باختصار شديد على ما يلي[٦٨]:

- بمنع قراصنة المغرب من تعطيل التجارة الملاحة بأي حجة كانت، فإذا حصل منهم تعدي بدون علم الباب العالي فإنه يقوم بإعادة جميع المأخوذات التي استولى عليها أولئك القراصنة، وبدون تأخير، وأن يعوض الرعايا الروسين ما لحقهم من خسائر، وأن يحرر بهذا الصدد فرمانًا صارمًا إلى بلاد المغرب بحيث لا يتكرر ذلك مرة ثانية، وفي حالة لم ينفذ مفعول هذا الفرمان فيدفع مقدار التعويض من الخزينة الملوكية في مدة شهرين[٦٩] وهو نفس الشرط الذي نصت عليه معاهدة باش حيث أصدر السلطان سليم الثالث إلى مصطفى باشا في ٠٢ أكتوبر ١٨٠٧م[٧٠].
- وألا يتسبب في إحداث العراقيل في طريق ملاحة السفن التجارية الحاملة للعلم الروسي في كُل بحار ومياه المملكة العثمانية وبدون استثناء، مع احترام ركاب هذه السفن.

وبعد توقيع الدولة العثمانية على هذه المعاهدة بشروط مجحفة، والتي لا يمكن قبولها إلا بعد هزيمة عسكرية فادحة، فعلى الرغم من ذلك فلم يكن ممكنًا إرضاء روسيا إلا بحصولها على مكاسب كثيرة، غير أن العمليات التي قامت بها القوات المصرية، والتي كادت أن تستولي على أخر معقل للثوار اليونانيين، وتقضي نهائيًا على الثورة فشلت هي الأخر بسبب تدخل الدول الأوروبية، وكانت السبب في إجهاضها من خلال اتفاقها على رأي واحد[٧١].

ثالثًا: معركة نافرين ١٨٢٧ وانعكاساتها

قوبل إخماد الثورة اليونانية بالاستياء في أوروبا، حيث وقعت الدول الكبرى: روسيا وفرنسا وإنجلترا على اتفاقية لندن في ٠٦ جويلية ١٨٢٧م، وقرروا الضغط على الباب العالي لصالح اليونان لأنهم كانوا يريدون تأسيس إمارة يونانية مستقلة ذاتيًا مرتبطة بالدولة العلّية، تدفع الضريبة مثل صربيا وأفلاق والبغدان، فاشتركت إنكلترا في الاتفاقية دون رغبة منها، فقد كانت الطبقة المثقفة في إنجلترا تريد مشاهدة دولة يونانية مستقلة، إضافة إلى أن إنجلترا كانت تخشى استفادت روسيا من ضعف الدولة العثمانية، وفي نفس الوقت لم تشأ أن تترك منافستيها فرنسا وروسيا كحاميتين لليونان تنفردان بتسيير القضية اليونانية[٧٢]، فعرضت إنجلترا رسميًا في ٠٥ فيفري ١٨٢٧م على الدولة العلية توسط جميع الدول بينها وبين متبوعيها، فلم تقبل ذلك، بل أجابت السفير الإنجليزي بتاريخ ١٠ جوان ١٨٢٧م بعد تفكير عميق، وتروي في عاقبة هذا التدخل أنّها لم تسمح ولن تسمح به مطلقًا، فاغتاظت الدول الأوروبية من هذا الجواب، واتفقت كل من فرنسا وإنجلترا وروسيا بمقتضى معاهدة لندن سابقة الذكرى على إلزام الباب العالي بالقوة بمنح اليونان استقلالها الإداري بشرط أن يدفع اليونانيين جزية معينة يتفق على مقدارها فيما بعد كما يتفق على حدود الفريقين، وأمهل الوفاق الأوروبي الباب العالي شهرًا لإيقاف الحركات العدوانية، وإلا تضطر الدول الأوروبية لاتخاذ طرق أخرى لتحقيق ذلك، لكن السلطان العثماني رفض، وأصّر على رأيه، وبعد انقضاء الشهر المحدد أصدرت الدول الثلاث أوامرها إلى قواد أساطيلها التوجه لسواحل اليونانية، وطلبت بعد ذلك من إبراهيم باشا الكف فورًا عن القتال، فأجابهم أنه لا يتلقى أوامرًا إلا من سلطانه أو أبيه، ومع ذلك فإنه قبل إيقاف الحرب مدة عشرين يومًا ريثما تأتيه تعليمات جديدة، فاجتمعت سفن دول الثلاث في ميناء نافرين لمنع السفن العثمانية والمصرية من الخروج[٧٣].

٣/١-أحداث المعركة:

تنفيذًا لاتفاق لندن الموقع في ٠٦ جويلية ١٨٢٧م، والذي أسفر عن تشكيل ما يعرف بالحلف الثلاثي بين الدول الثلاث التي أصبحت أطرافًا معنية بالقضية اليونانية بعد أن تعهدت بالعمل على إرغام السلطان العثماني على وقف الحرب، وتحقيق الاستقلال الذاتي لبلاد اليونان كما نص على ذلك بروتوكول ٠٧ أكتوبر١٨٢٧م، وقد أعطيت القيادة في هذه العملية المشتركة للقائد الأميرال الإنجليزي كوردانغتون Cordrington[٧٤]، وكانت المجموعة الفرنسية بقيادة الأميرال ريني، الروسية تحت إمرة هيدن، وتم اختيار القائد الإنجليزي سابق الذكر قائدًا عامًا لأقدميته في الوظيفة[٧٥].

ففي ميناء نافرين الحصين وأمام دفاعات قاعدته العسكرية تجمعت السفن الإسلامية، واتخذت أماكنها على شكل خط دفاعي اصطفت فيه على هيئة حدوة حصان أيام ٨و ٩و ١٠ أكتوبر ١٨٢٧م، واكتملت تنظيماتها النهائية يومي ١٤و١٥ من نفس الشهر حسب ما ورد في مذكرات الضابط الفرنسي بومبارد Bombard ، وقد بلغ عدد هذه السفن ٦٢ سفينة مسلحة بـ ٢١٠٢ مدفع، وتحمل ما بين ١٧٥٠٠ و ٢١٩٦٠ جنديًا وبحاراً بالإضافة إلى بطاريات المدافع المنتصبة فوق حصون ميناء نافرين، والتي كانت موجهة للسفن الأوروبية، ومما يلاحظ أن هذ العدد الكبير من السفن الإسلامية، كان أغلبه من مصر بينما شاركت الجزائر بعدة سفن قدرت المصادر المتوفرة عددها بستة سفن كما سبقت الإشارة في بيان المساهمة الجزائرية في معركة نافرين، وفي المقابل كانت القطع الحربية للحلف الأوروبي تأخذ مواقعها غير بعيدة من السفن العثمانية تحت قيادة الأميرال الإنجليزي كوردان عتون، كل هذا الحشد من السفن الإسلامية والأوروبية اجتمعت عشية ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م بمياه نافرين، لمنع وصول المؤن إلى مورة[٧٦]حيث ظهرت السفن البحرية عند مدخل الميناء وتجاوزت مرمى بطاريات المدافع في الساعة الواحدة بعد الظهر من نفس اليوم، وتقدمت في صفيين متراصين أحدهما مكون من السفن الإنجليزية الفرنسية، والآخر من السفن الروسية، وفي الوقت الذي فيه السفن الإنجليزية والفرنسية ميناء نافرين ، كانت السفن الروسية تقترب من مدخل الميناء، وعندها أطلقت النيران من إحدى السفن الإسلامية فأصيب الملازم الأول الإنجليزي فتزروي Fitz-Roy بعيار ناري قاتلثم تلتها طلقة أخرى من سفينة مصرية أصابت إحدى الفرقاطات الفرنسية حسبما أوردته شهادة الجنرال الروسي بوجيانوفيتش بعدها بدأ تبادل إطلاق النار من الجانبين، واحتدمت المعركة ثلاث ساعات أو أربع، دمرت أثناءها أغلب السفن الإسلامية، ولم ينجو منها سوى فرقاطة واحدة وحوالي خمسة عشرة سفينة صغيرة تضرر بعضها بفعل طلقات المدفعية بينما قدر عدد القتلى بحوالي ألف من الأوروبيين، وبأكثر من ستة آلاف من المسلمين، وقد مكثت السفن الأوروبية حوالي أسبوع بعد انتهاء المعركة، دمرت فيها أغلب السفن الإسلامية، بما فيها السفن المصرية والجزائرية ولم تنج من السفن هذه الأخيرة سوى سفينة مفتاح الجهاد والتي لحقت بها عدة أشرار فتوجهت إلى الإسكندرية وهذا ما تؤكده الرسالة التي بعثها القائد السفينة مصطفى رايس إلى حسين باشا[٧٧]، وأما السفن التونسية فلم تنجوا منها أي سفينة، كما تؤكد رسالة بعثها محمد قبطان قائد سفينة التونسية في الحرب اليونانية إلى حسين باشا وإلى تونس في نوفمبر ١٨٢٧م، والتي احتوت على تفاصيل معركة نافرين، كما تضمنت معاناة الجنود التونسيين بعد تحطم سفنهم في المعركة، وطلب فيها إرسال سفن أخرى لإعادتهم إلى تونس[٧٨]فلم ينجُ من السفن الإسلامية سوى فرقاطة واحدة وحوالي خمسة عشر سفينة صغيرة تضرر بعضها بفعل طلقات المدفعية، بينما قدر عدد القتلى بحوالي ألف من الأوروبيين، وبأكثر من ستة آلاف من المسلمين[٧٩].

ولما رأى إبراهيم باشا تألب الدول الأوروبية ضد الدولة العلّية، وأن فرنسا أمرت بإرسال جيش عظيم لمحاربته قام في ٠٣ أوت ١٨٢٨م بناءً على أوامر والده مع الدول المتحدة على إخلاء مورة، والرجوع إلى مصر مع ما تبقى من السفن المصرية[٨٠]، وقد مكثت السفن الأوروبية بميناء نافرين حوالي أسبوع بعد انتهاء المعركة لتنسحب يوم ٢٦ أكتوبر ١٨٢٧م، بعدها عقد إبراهيم باشا هدنة مع الأميرال الإنجليزي مكنته من سحب قواته من نافرين في ربيع عام ١٨٢٨م، وتسليم تحصينات الميناء إلى الجنرال الفرنسي ميزون، الذي أوكل له حكم قاعدة نافرين مؤقتًا، فلم يتوان في تقديم الدعم والمساعدة للثوار اليونان، مما مكنهم من تحرير كامل المورة في ظرف شهرين قبل أن يتم الفرنسيون انسحابهم من المنطقة في شهر أوت من سنة ١٨٢٩م[٨١].

وتعود أسباب انهزام القوات الإسلامية إلى نقص عتاد وتجهيزات السفن الإسلامية، وافتقار المهارة والتدريب للجنود المشاركين في المعركة مقارنة

بتجهيزات السفن الأوروبية ونوعية التدريب الذي كانوا يتوفرون عليه، كما يعود سبب الهزيمة إلى المكان الغير الملائم الذي جرت فيه المعركة، فوجود السفن الإسلامية متراصة بميناء نافرين وعدم تمكنها من المناورة أو الحركة سهل على القطع الأوروبية أكبر عدد منها في وقت قصير، ومما زاد في خسائر المسلمين وجود تعليمات صارمة لقادة السفن الأوروبية بالدخول مباشرة في المعركة دون تردد، في حالة إطلاق النار عليهم، بينما السفن الإسلامية لم تعطي لها أيّة تعليمات في هذا الشأن من طرف قادتها (طاهر باشا وقبطان باي ومختار باي) رغم تحمس بعض جنودها ومبادرتهم بتوجيه طلقات انفرادية للسفن الأوروبية، تلك الطلقات التي كانت بمثابة الحجة لقادة السفن الأوروبية لتنفيذ خطتهم في القضاء على القوة الإسلامية البحرية المتواجدة أمامهم كما أن وجود ضباط فرنسيين متعاونين على متن السفن المصرية زاد الحال سوء لترددهم في الدخول في اشتباك مع سفن بلادهم المواجهة لهم لا سيما بعد أن وجه قائد السفن الفرنسية الأميرال دوريني De Rigny إلى هؤلاء المتعاونين من الفرنسيين في سفن محمد علي رسالة جاء فيها: "إلى سيادة لوتوليه Letellier، وبومبار Bombarad والضباط الفرنسيين العاملين بإستنبول التركي... إن الوضعية التي هي عليها الآن القوات البحرية العثمانية المحاصرة في ميناء نافرين، وعدم احترام إبراهيم باشا لتعهده بالكف مؤقتًا عن الأعمال الحربية كل هذا يظهر لكم بأنكم في وضعية تجعلكم في مجابهة علمكم الوطني، وأنتم تعرفون مدى المجازفة في مثل هذه الحالة، ولهذا ندعوكم أن تتركوا الخدمة عند الأتراك في حالة إذ أقدم الأسطول العثماني على أعمال حربية معادية ..."[٨٢].

٢/٣-موقف الدولة العثمانية من معركة نافرين:

لما وصل خبر هذه الحادثة التي حصلت بدون إعلان حرب كما هي العادة بين الدولة المتمدنة إلى الباب العالي أرسل بلاغًا إلى سفراء هذه الدول الثلاثة[٨٣] يتضمن احتجاجه على الهجوم الذي قامت به أساطيل دولهم رغم عدم وجود حرب أو توتر، واعتبر هذا العمل مخالفًا للقوانين الدولية[٨٤]، ويطلب فيه أن تمتنع الدول كليةً عن التدخل في شؤون المماليك المحروسة، وأن تدفع له تعويضًا عن الخسائر التي نجمت عن تدمير المراكب العثمانية، فلم يرد هؤلاء السفراء على هذا البلاغ، بل قطعوا علاقاتهم مع الباب العالي، ونزلوا إلى مراكبهم مسرعين في ٠٨ ديسمبر ١٨٢٧م، وفي ١٨ من نفس الشهر نشر السلطان في جميع الولايات منشورًا عامًا يبين مقاصد الدول عمومًا، وروسيا خصوصًا نحو الدولة العثمانية، مثبتًا للأهالي على أن الباعث على هذا العدوان الدين لا السياسة، وختمه يحض المسلمين على القتال دفاعًا عن الدين والملة والوطن، فاغتاظت روسيا على ذلك، وأعلنت الحرب على الدولة في ٢٦ أفريل ١٨٢٨م، ولما عقدت الدول الثلاث مؤتمرًا في مدينة لندن لتقرير مصير اليونانيون، ودعت إليه الدولة العثمانية، فأبت هذه الأخيرة عن إرسال مندوب من طرفها حتى لا يُعد ذلك إقرارًا منها على ما يُتفق عليه في هذا المؤتمر، وتقديم يد العون لليونانيين من أجل حصولهم على الاستقلال، وتحطيم القوات الإسلامية في نافرين[٨٥].

٣/٣-انعكاسات معركة نافرين على العلاقات الدولية في البحر الأبيض المتوسط:

أسفرت معركة نافرين على نتائج بالغة الأهمية بتطور الأحداث في منطقة البحر الأبيض المتوسط وهي كالآتي:

لقد أفرزت وأوجدت وضعًا دوليًا سمح للدولة القيصرية بإطلاق يدها في الدولة العثمانية لجني ثمار مشروعها التوسعي على حساب ممتلكات العثمانية[٨٦]، إذ بادر نقولا الأول إلى نقض معاهدة أكرمان بحجة مهاجمة السفن العثمانية للقطع الروسية في معركة نافرين[٨٧]، واستغلت روسيا قيام السلطان العثماني بقطع علاقاته مع فرنسا وبريطانيا، وإعلانه الجهاد كاحتجاج على معركة نافرين، بإعلان الحرب على الدولة العثمانية في أفريل ١٨٢٨م[٨٨]، فاجتازت قواتها نهر بروث الذي يفصل روسيا عن الدولة العثمانية، واحتلت على الأفلاق والبغدان، كما احتلت قلاع قارص في آسيا، وقد أثبتت رسالة الحاج حسين باشا داي الجزائر في أزمير إلى حسين باشا تدهور العلاقات بين الدولة العثمانية ودول أوروبا بتاريخ ٠٣ أفريل ١٨٢٧م، كما حملت في طياتها أخبار نشوب حرب بين الدولة العثمانية وروسيا[٨٩] التي حاولت أن تسيطر على الأمر وتكون صاحبة حصة الأسد، ولكي تمنع بريطانيا روسيا من السيطرة على القضية اليونانية دعت إلى عقد اجتماع في لندن في مارس ١٨٢٩م حضرته فرنسا وبريطانيا، وأسفر عن توقيع معاهدة لندن الثانية، والتي نصت بأن تصبح اليونان دولة تتمتع بالحكم الذاتي تحت السيادة العثمانية، ولم رفض السلطان هذه المعاهدة تقدمت القوات

الروسية إلى أدرنة العثمانية، فوقفت على أبواب القسطنطينية، فوافق محمود الثاني على الدخول في مفاوضات مع روسيا أسفرت عن توقيع اتفاقية أدرنة[٩٠] في ١٤ سبتمبر ١٨٢٩م، والتي نصت على ما يلي[٩١]:

- تمنح اليونان الاستقلال بموجب اتفاقية لندن الأولى سنة ١٨٢٧م، وتحدد حدود الدولة الجديدة بموجب اتفاق لاحق مع الدول الثلاث الموافقة على الاتفاقية، كما تعترف الدولة العثمانية باتفاقية لندن الثانية الموقعة في ٢٢ مارس سنة ١٨٢٩م.
- يصبح لروسيا والدول التي لا تكون الدولة العثمانية في حالة حرب معها حق الملاحة في البحر الأسود، وحتى البر المتوسط عبر البسفور والدردنيل دون تفتيش الدولة العثمانية لسفنها.
- تصبح إمارة الأفلاق والبغدان تحت السيادة، ويعين أمرائها مدى الحياة، ولا يعزلون إلا بموافقة روسيا، والدولة العثمانية، كما تتمتعان بالحكم الذاتي.
- تمنح صربيا الاستقلال الذاتي المنصوص عليه في اتفاقية أكرمان.
- تدفع الدولة العثمانية تعويضات لروسيا، وتنسحب القوات الروسية من الأفلاق والبغدان تدرجيًا بالتوازن مع دفع التعويض.
- يتمتع رعايا روسيا بحق التجارة في سائر أنحاء الدولة العثمانية دون قيد أو شرط، ويخضع التجار الروس لسلطة قناصل دولتهم فقط.

وفي ٠٣ فيفري ١٨٣٠م تم توقيع اتفاق ثلاثي جديد في لندن نص على استقلال اليونان عن الدولة العثمانية استقلال تامًا مع تخطيط الحدود اليونانية، واعترف السلطان العثماني بهذا الاستقلال في ٣٠ ماي ١٨٣٠م، وتم إعلان اليونان كدولة مستقلة بزعامة الأمير أوتو[٩٢] ملك بفاريا[٩٣].

ساعدت معركة نافرين على استفحال المد القومي بدول البلقان، وامتداده إلى القوميات الأخرى مثل الصرب التي تأثرت بالماضي التاريخي ومساندة روسيا لها، بالإضافة إلى دور الكنيسة الأرثوذكسية في التوجيه والنصح بالانفصال النهائي عن الإمبراطورية العثمانية، كما أوضحت معركة نافرين الدور العملي والسياسي لمحمد علي باشا في تسير شؤون الدولة العثمانية، ومدى قدرته على التأثير في مسار ومعطيات الأحداث الدولية بمنطقة الشرق[٩٤]، كما أدت إلى انحلال وتفكك الحلف المقدس بين الدول الأوروبية الذي أقره مؤتمر فيينا ١٨١٥م[٩٥]، وأصبح أساس السياسة الأوروبية في العلاقات الدولية، وعلى هذا الأساس لم يصبح للشرعية الدولية مكانة تذكر على الآمال والأماني القومية، وفي نفس الوقت طموحات ومطالب الشعوب قبل مصالح الدول، وهو ما أمكن على إحداث التغير بالنسبة للأوضاع السياسية بين الدول الأوروبية، ونتيجة التطورات التي حدثت في مواقف الدول الأوروبية تجاه الدولة العثمانية أدت إلى إحداث تضارب في المصالح، فمعارضة فرنسا وبريطانيا للسياسة الروسية إزاء الدولة العثمانية التي ركزت على التوسع العسكري هدفة الوصول إلى المضائق والبحار الدافئة، سوف تكون خطر على المبادلات التجارية، وتهدد المواصلات الدولية التي تربط الدول الأوروبية بالهند والبلدان الشرق الأقصى، وبالتالي يصبح شرق أوروبا وشبه جزيرة البلقان منطقة حماية ووصاية روسية في إطار جامعة الشعوب السلافية، فنتج عن ذلك اختلال في التوازن الدولي[٩٦].

- كان لمعركة تأثير سلبي على الولايات العثمانية العربية وخاصةً الجزائر؛ لأن هذه الأخيرة كانت معرضة للخطر الأوروبي باعتبارها تشكل قوة إسلامية في غرب البحر المتوسط، وأنها كانت تهدد مصالح هذه الدول، فكانت في أشد حاجة إلى قواتها البحرية لتتصدى للاعتداءات، وتقف في وجه التحرشات الأوروبية عامة وبالأخص الفرنسية منها، في الوقت الذي كان فيه حوالي ربع قواتها البحرية بالمياه اليونانية بجانب الأسطول العثماني والمصري، كما أن تحطم أغلب السفن العثمانية في المعركة حال دون تقديم الباب العالي أي مساعدة في تصديها للحصار البحري ومواجهتها للغزو الفرنسي، سنة ١٨٣٠م، والذي كان بداية مخطط استعماري كانت معركة نافرين إحدى مراحله الأولى[٩٧].

خَاتِمَةٌ

كانت القومية في الإمبراطورية العثمانية مستوردة فلسفيا من غرب أوروبا لكن تطورها داخل الإمبراطورية العثمانية كان مختلفا حيث كانت بذورها وبواعثها أكثر ارتباطا بالفكرة العثمانية عن أمة معرفة دينيا من القومية العرقية في أوروبا الغربية، فبدأت قصة خسائر العثمانية لمصلحة القومية الجديدة في القرن التاسع عشر بالثورة اليونانية ١٨٢١م، وقد كانت أولى الحركات التّي حدّدت هويتها بقتل وطرد المسلمين من أرضيهم، فقدمت الثورة اليونانية نموذجًا اتبعته الثورات قومية لاحقا ضد العثمانيين،

وضحت الحرب التي كانت بين الدولة والعثمانية ويونان الدور الذي لعبته كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا على الساحة الدولية من أجل إضعاف الدولة العثمانية والعمل على تفكيكها من خلال تقديم الدعم الكامل للثورات التي قامت ضدها، في حين أنها عملت على قمع وإخماد كل الثورات التي قامت في أوروبا ضد السلطة الحاكمة مثل الصورة الإسبانية والإيطالية والبلجيكية.

الهَوامِشُ:

(١) نيلن الكسندروفنا دولينا، **الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية في الثلاثينيات وأربعينيات القرن التاسع عشر**، تر: (أنور محمد إبراهيم)، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٩، ص ١٥٣.

(٢) **البلقان**: كلمة تركية معناها الجبل تضم ألبانيا وبلغاريا واليونان والقسم الأوروبي من أراضي تركيا (تراقيا)، والبوسنة والهرسك ومقدونيا وأجزاء من كرواتيا وسلوفينيا ويوغوسلافيا.

(٣) للاطلاع أكثر حول معاملة الدولة العثمانية للأقليات انظر: كمال السعيد حبيب، **الأقليات والسياسة في الخبرة الإسلامية من بداية الدولة النبوية وحتى نهاية الدولة العثمانية (٦٢٢م- ١٩٠٨م)**، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ٣٩٤-٤١٣.

(٤) حقي العظم، **تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان**، ط١، مطبعة الترقي، مصر، ١٩٠٢، ص٥-٦.

(٥) هي شبه جزيرة، تقع في اليونان.

(٦) أكمل الدين إحسان أوُغلي، **الدولة العثمانية تاريخ وحضارة**، تر: (صالح شعباوي)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ١٩٩٩، ص ٩١- ٩٢.

(٧) محمد قاسم وحسين حسني، **تاريخ القرن التاسع عشر**، د.ط، دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٤، ص١٣٧.

(٨) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٣٧.

(١٠) محمد فريد بك المحامي، **تاريخ الدولة العَليّة العثمانية**، تحقيق إحسان حقيّ، ط١، دار النفائس، بيروت، ١٩٨١، ص ٤١١.

(١١) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٢.

(١٢) **الميثولوجيا**: ويقصد بها علم الأساطير القديمة.

(١٣) المرجع السابق، ص ٩٢.

(١٤) نور الدين حاطوم، **تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوروبية)**، ط٢، دار الفكر، مصر، ١٩٧٩، ج١، ص ١٤١- ١٤٣.

(١٥) المرجع نفسه، ص ١٤٤.

(١٦) المرجع نفسه، ص ١٤٤- ١٤٥.

(١٧) **الحنطة**: هي حبوب نشوية شبيهة بالقمح، يزرعها الفلاحون في المناطق الجافة والجبلية حيث لا ينمو القمح عادة.

(١٨) المرجع نفسه، ص١٤٥- ١٤٦.

(١٩) **الماسونية: هي** منظمة سرية محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وجمع أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، يوثقهم عهد بحفظ الأسرار ويجتمعون بما يسمى **بالمحافل** للتخطيط والتكليف بالمهام، لم يعرف التاريخ منظمة سرية أقوى نفوذًا من الماسونية، فلها محافل في كل أنحاء العالم تقريبًا، حيث تستقطب هذه المحافل الشخصيات المؤثرة في كل بلد لضمان سيطرتها عليه، وهي تسيطر على بعض الجمعيات والمنظمات الدولية ومنظمات الشباب، وبعض وسائل الإعلام ودور النشر والصحافة في العالم، وبيدها الكثير من موارد الاقتصاد ووسائل الإنتاج في العالم. للمزيد عنها

انظر: عبد الرحمان الدويري، **اليهودية والماسونية**، ط١، دار السنة، القاهرة، ١٩٩٤.

(٢٠) **أوديسا**: ميناء بحري في أوكرانيا، يقع في الجنوب الغربي لساحل أوكرانيا، بالقرب من الحدود الرومانية، على البحر الأسود، على بعد ٥١كم جنوب غرب نهر دنيبر.

(٢١) **بوخارست**: هي عاصمة رومانيا وأكبر مدنها، تعتبر المركز الرئيسي للدولة في التجارة والثقافة، تقع جنوب شرق رومانيا على نهر ديمبوفيتا.

(٢٢) نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢٣) يلماز أوزتونا، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر: عدنان محمود سليمان ومحمود الأنصاري، ط١، منشورات فيصل للتمويل، استنبول – تركيا، ج٢، ص 655.

(٢٤) سَيِّد محمد السَّيِّد، **دراسات في التاريخ العثماني**، ط١، دارة الصحوة للنشر، القاهرة ـ مصر، ١٩٩٦، ص٢٥٠.

(٢٥) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(٢٦) إبراهيم بك حليم، **تاريخ الدولة العلية (التحفة الحلميّة)**، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٢٠٧.

(٢٧) **عيد الفصح**: من أهم أعياد النصارى السنوية، وهو احتفاء بعودة المسيح أو قيامته بعد صلبه، كما يعتقدون.

(٢٨) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٠٣.

(٢٩) **حرب العصابات**: تعبير يطلق على نمط من القتال، تقوم به مجموعة صغيرة من المحاربين، وترتكز استراتيجية هذه الجماعة على الهجوم المباغت.

(٣٠) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص٩١.

(٣١) هو ثائر صربي ولد بمدينة بلغراد سنة ١٧٧٠م، واسمه جورج بتروفتش، ولقب بـ قره جورج أي الأسود، وهو أول من جمع كلمة الصربيين على مقاومة الدولة العثمانية وطالب بالاستقلال، وطرده الأتراك سنة ١٨١٣م فهاجر إلى روسيا حيث أكرمته حكومتها وعينته قائدًا في جيوشها، وينسب إليه أنه قتل أباه وأخاه بمجرد أنهآنس منهم الميل إلى الدولة العثمانية. انظر: محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٣٨٤.

(٣٢) كلمة يونانية معناها جمعية أخوية.

(٣٣) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، **الدولة العثمانية المجهولة ٣٠٣ سؤال وجواب توضح حقائق غائبة عن الدولة العثمانية**، إسطنبول، ٢٠٠٨، ص٣٩٣.

(٣٤) علي محمد محمد الصلابي، **الدولة العثمانية عوامل نهوض وأسباب السقوط**، ط١، دار التوزيع والنشر الإسلامي، مصر، ٢٠٠١، ص٥٩٠- ٥٩١.

(٣٥) المرجع نفسه، ص 326.

(٣٦) أحمد آق كوندز وسعيد أوزتورك، المرجع السابق، ص٣٩٤.

(٣٧) المرجع السابق، ص ٣٩٤.- انظر نص الرسالة أيضًا: علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص٥٩٤- ٥٩٥.

(٣٨) المرجع نفسه، ص ٣٩٤.

(٣٩) أكمل الدين احسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٤٠) أحمد آق كوندز و سعيد أوزتورك، المرجع السابق، ص٣٩٤- ٣٩٥.

(٤١) أمال السّبكي، **أوروبا في القرن التاسع عشر**، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٩، ص ص١٩٦- ١٩٧.

(٤٢) أمال السّبكي المرجع السابق، ص ص١٩٧- ١٩٨.

(٤٣) المرجع نفسه، ص١٩٨.

(٤٤) روبير مانتران، **تاريخ الدولة العثمانية**، تر: بشير السباعي، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٣٧.

(٤٥) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٣.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٩٣- ٩٤.

(٤٧) ممدوح نصّار وأحمد وهبان، **التاريخ الدبلوماسي والعلاقات السياسية بين القوى الكبرى ١٨١٥- ١٩٩١**، ص٦١- ٦٢.

(٤٨) **سانت بطرسبرج**: هي ثاني كبريات مدن روسيا، وكانت تسمى لينينغراد.

(٤٩) محمد قاسم وحسين حسني، المرجع السابق، ص ١٣٩.

(٥٠) ممدوح نصّار وأحمد وهبان، المرجع السابق، ص ٦٢.

(٥١) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤١٤.- انظر أيضًا: المكتبة الوطنية الجزائرية، مج ٣٢٠٤، الملف الأول، الوثيقة ٠٨.

(٥٢) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص٩٤.

(٥٣) **كريت**: هي جزيرة يونانية في البحر الأبيض المتوسط، تبلغ مساحتها 8336كم²، وهي أكبر جزر اليونان، وعاصمتها خانيا.

(٥٤) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٤٢.

(٥٥) مدينة بحرية يونانية تقع في شبة جزيرة مورا، قليلة السكان، اشتهرت بتدمير الدول الأوروبية المتحالفة للأساطيل المصرية والعثمانية والجزائرية سنة ١٨٢٧م.

(٥٦) تقع في نهاية الخليج الغربي شمال شبه جزيرة مورا.

(٥٧) تقع وسط جزيرة مورا.

(٥٨) تقع في رأس الخليج شمال جزيرة مورا.

(٥٩) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٤١٥.

(٦٠) حقي العظم، **تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان**، ط١، مطبعة الترقي، مصر، ١٩٠٢ ص ١٤.

(٦١) يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ج١، ص ٦٧٥.

(٦٢) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٤١٦.

(٦٣) المكتبة الوطنية الجزائرية، مج ٣٢٠٤، الملف الأول، الوثيقة ٢٤.

(٦٤) **نقولا الأول** (1796-1855): كان قيصرًا لروسيا من عام ١٨٢٥م حتى وفاته.

(٦٥) المصدر نفسه، ص ٤١٧.

(٦٦) يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ج٢، ص ٠٩.

(٦٧) محمود شاكر، **التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)**، ط٤، المكتب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٦٥.

(٦٨) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٢٠-٤٢١.

(٦٩) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٧٠) المكتبة الوطنية الجزائرية، مج ٣٢٠٤، الملف الأول، الوثيقة ٠٤.

(٧١) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٤.

(٧٢) يلماز أوزتونا، المصدر السابق، ج٢، ص ١٠.

(73) M. De Pradt, Question De L'orient Sous Ses Rapports Généraux Particuliers, A La Libraire De Roret, Paris, 1836, P 179.

(٧٤) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية دراسات وأبحاث في تـاريخ الجزائــر في العهــد العــثماني**، ط١، دار الغــرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٠، ص٣٥٩- ٣٦٠.
(٧٥) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص٣٢٧.
(٧٦) المكتبة الوطنية الجزائرية، مـج ٣٢٠٤، الملـف الأول، الوثيقـة ٣٩.
(٧٧) المكتبة الوطنية الجزائرية، مج ٣٢٠٤، الملـف الأول، الوثيقـة ٣٠.
(٧٨) المكتبة الوطنية الجزائرية، مج ٣٢٠٤، الملـف الأول، الوثيقـة ٢٩.
(٧٩) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص٣٦٤.
(٨٠) محمد فريد بك، المصدر السابق، ص ٤٢٨
(٨١) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص٣٦٤.
(٨٢) المرجع نفسه، ص ٣٦٥.
(٨٣) محمد فريد بك، المرجع نفسه، ص ٤٢٨.
(٨٤) أكمل الدين إحسان أوُغلي، المرجع السابق، ص ٩٥.
(٨٥) محمد فريد بك، المرجع السابق، ص٤٢٨- ٤٢٩.
(٨٦) عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص ١٧٨.
(٨٧) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٣٦٥.
(٨٨) **المكتبة الوطنية الجزائرية**، مج ٣٢٠٤، الملف الأول، الوثيقـة ٣٧، المصدر السابق.
(٨٩) **المكتبة الوطنية الجزائرية**، مج ٣٢٠٤، الملف الأول، الوثيقـة ٣٧.
(٩٠) **أدرنة**: مدينة تركية قديمة، تعـرف رسـميًا بأدريانوبـل، وتقـع في الــركن الشــمالي الغــربي مــن تركيــا، قــرب الحــدود البلغارية.
(٩١) السيد محمد سليم، المرجع السابق، ص ٧٧.
(٩٢) **أوتو الأول** (١٨١٥-١٨٦٧): أمـير بافـاري أصبح أول ملـك عـلى اليونان بعد أن استقلت عن الدولة العثمانية عام ١٨٣٠م.
(٩٣) المرجع السابق، ص78.
(٩٤) عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص ١٧٨-١٧٩.
(٩٥) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٣٦٧.
(٩٦) عبد القادر مولاي، المرجع السابق، ص ١٧٩.
(٩٧) ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص ٣٦٨-٣٦٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

الزراعة الكولونيالية وتأثيرها على الفلاحة الأهلية في الجزائر المستعمرة ١٨٧٠ – ١٩٠٠م

حورية طعبة
باحثة دكتوراه تاريخ معاصر
جامعة أحمد دراية
أدرار – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

سخرت الإدارة الاستعمارية منذ احتلالها للجزائر سنة ١٨٣٠م كل الوسائل القانونية والعسكرية لتنفيذ السياسات الاستيطانية المتعاقبة، وتحويل الجزائر المستعمرة إلى مستوطنة فرنسية تجمع المهاجرين من كافة الأجناس، والوافدين إليها من كافة أنحاء أوروبا، والمضاربين، وأصحاب المشاريع الرأسمالية، الذين لم يتوانوا في الضغط على الإدارة الاستعمارية الفرنسية من أجل تمرير ترسانة من التشريعات التي تسهل الاستيلاء على أجود الأراضي ومصادرتها وفق مخطط لدراسة مسبقة لأوضاع الجزائريين وتركيبتهم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، لذا شجعت الجمهورية الثالثة الاستثمار في المجال الفلاحي، وشجعت الشركات الفرنسية والأوروبية باستثمار أموالها في المشاريع المختلفة، كما ركز المستوطنون على الجانب الزراعي لما له من أهمية لدعم الاحتلال ورأس المال الفرنسي، لذلك عمدت الإدارة الاستعمارية لتشجيعهم وإقامة البناءات القاعدية وبناء المستوطنات وتقديم القروض والتسهيلات لمنحهم المزيد من أراضي الجزائريين، واستغلال اقتصاد المستعمرة بما يخدم مصالح فرنسا ومصالح المستوطنين، مما أدى إلى تدمير القطاع الفلاحي الأهلي وزاد في تدني المستوى المعيشي للسكان.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٦ سبتمبر ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الأراضي الفلاحية؛ الزراعة الكولونيالية؛ الأراضي الجزائرية؛ الفلاحة الأهلية؛ اقتصاد الجزائر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057043

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حورية طعبة. "الزراعة الكولونيالية وتأثيرها على الفلاحة الأهلية في الجزائر المستعمرة ١٨٧٠ – ١٩٠٠م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٦٣ – ٧١.

مُقَدِّمَة

أدركت فرنسا أهمية تواجد المستوطنين المدنيين الفرنسيين والأوروبيين في الجزائر المستعمرة، فادعت وجود فائض من الأراضي الزراعية يمكن توزيعه على المهاجرين الأوروبيين[١]، والنتيجة التي كانت تسعى إليها الإدارة الاستعمارية هي التوسيع في الممتلكات عن طريق الزيادة في هبات الأرض التي تنسب إلى المستوطنين الأوروبيين، فحسب رأيهم يعتبر السكان الأصليين هم المهزومون، لذلك لا بد من فسح المجال للمهاجرين بمنحهم المساحات الأرضية لزرعها[٢]، فلقي المستوطنون تشجيعات من الإدارة الاستعمارية، التي كانت تسعى إلى جعل البلاد في خدمة الاقتصاد الفرنسي[٣]، وجعلها مستعمرة تنقل منها المنتوجات التي لا يمكن إنتاجها في الوطن الأم، بالإضافة إلى جلب المعادن الضرورية لدوران الصناعة في فرنسا، وكذلك جعلها مستوطنة لأعداد كبيرة من الفرنسيين والأوروبيين، الذين استولوا على أجود

أراضي الجزائريين، فاحتلال الجزائر سوف يجلب لها الخير الكثير، باعتبارها سوقًا رائجًا لبضائعها، وموردًا هامًا للمواد الخام وخاصة الحبوب[٤].

أولاً: استحواذ الإدارة الاستعمارية على الأراضي الفلاحية

قال صاحب كتاب (L'Algérie française, tourisme et colonisation): "أنه من جميع المستعمرات الإفريقية، الجزائر هي التي تنتج معظم الحبوب من قمح والشوفان والشعير فمتوسط الإنتاج يقدر بــ ٢٠ مليون قنطارًا، وتقدر المساحة المزروعة بحوالي ٢,٠٠٠,٠٠٠ هكتارًا، فالقمح الصلب الجزائري هو واحد من أفضل السيمولير في العالم"[٥].

وقد قدم السيد Meiss للإدارة الاستعمارية عريضة مقترحات في مؤلفه: (La fortune de la France en Algérie) حيث قال: "يمكن لوزراء الحرب والزراعة لاتفاق المتبادل في وضع حجر الأساس لثروة فرنسا في الجزائر، عن طريق مطالبة السلطات العامة بالأموال للمعدات والأدوات اللازمة لإنشاء ممتلكات، ثم سيكون من الضروري إنشاء إدارة زراعية من أجل الحصول على مدراء وموظفي... من خلال وضع جزء من جيشها في خدمة ممتلكاتنا الوطنية في العمل الزراعي"[٦].

وكذلك يمكن جلب الأيادي العاملة الرخيصة لصناعاتها، بالإضافة إلى توطين الفائض من سكان فرنسا وأوروبا والذين سيتوجهون إلى تنمية الزراعة، لأن الأراضي فضلا عن أنها قريبة من فرنسا فإنها خصبة وصالحة للحرث وللزراعة، لهذا فمن المحتمل في يوم ما بأن تصبح الجزائر مخزن أوروبا ومطمورها مثل ما كانت عليه في العهد الروماني، وبذلك نجح الاستعمار الفرنسي في تملك الأراضي الجزائرية في مدة أقل من ثلاثين سنة من ١٨٧١ إلى ١٨٨٩ م وذلك بحوالي مليون هكتارًا[٧]، ويكمل Meiss في اقتراحاته قائلا: "سننشئ ممتلكات وطنية وسيكون الدخل منها أعلى بكثير مما كان عليه من قبل، وذلك بعد بضع سنوات من العمل والاستغلال الأمثل لأراضينا في الجزائر، وستحصل فرنسا على عدة ملايين من عائدات ممتلكاتنا"[٨].

وكان أول قرار سنته الإدارة الفرنسية للتمكن من الاستحواذ على أراضي الجزائريين [٩] هو قرار سبتمبر ١٨٣٠ م الذي ينتزع الأرض من أصحابها، وقرار الفاتح من أكتوبر ١٨٤٤م الذي تولى مصادرة الأوقاف والعقار، ولعل أخطر هذه القوانين جميعا هو ذلك القانون الذي أصدره الحاكم العام راندون[١٠] في ١٦ جوان ١٨٥١م والذي يخول لفرنسا حق السيطرة وملكية أراضي العرش[١١] بغية إدخال التشريع الفرنسي على عقارات الجزائريين والأوروبيين، فكان يهدف هذا القانون إلى تأسيس وتوسيع الملكية العمومية وملكية الدولة واعترافها بالملكيات الخاصة للأهالي بشروط منها: توفر العقود والسندات وصيانة الملكية الخاصة، فرفض حق القبائل في ملكية الأراضي المشاعة (الجماعية) واعترف بحق الانتفاع بها فقط[١٢].

وبعد استخدام الفرنسيين لوسائل مختلفة لنزع ملكية الأراضي الزراعية من الجزائريين، مستندين في ذلك أول الأمر إلى ضرورة إثبات عقود الملكية السابقة، ثم مدعين بعد ذلك أن الحرب قد أتلفت السجلات الرسمية لملكية الأراضي الزراعية، وعن طريق إصدار تشريعات تنص على ضرورة إثبات الملكية الفردية[١٣]، وقد تورطت الإدارة الاستعمارية فيما يسمى بلعبة التشريع وتطويع القوانين لاستخدامها كأسلحة للنهب[١٤]، وحتى تظل هذه الأراضي ملكا لأولئك الذين هاجروا من أوروبا باتجاه الجزائر قامت الحكومة الفرنسية أيضًا ببناء القرى الاستيطانية في الأراضي الخصبة بمناطق قسنطينة، المدية، متيجة، عنابة، وهران، وعين تيموشنت، وغيرها من مناطق المستعمرة ومنحت لهم الأراضي بالمجان[١٥].

وقد أصدر القرار "المشيخي سناتوس كونسلت" في ٢٢ أبريل ١٨٦٣م، حيث اعتبر هذا القانون من أهم الوثائق الخاصة بالريف الجزائري، لأنه ارتبط بعدة عمليات مست الفلاح الجزائري وملكيته العقارية وألزمته بإجراءات عديدة، وهذا التشريع يخضع لطموحات أصحاب رؤوس الأموال بدفع العقار الجزائري نحو السوق العقارية، لتتم عمليات التبادل ثم ينفذ إليها الأوروبيون لإدخال نظام الملكية الفردية عليها[١٦]. أما قانون ٢٦ جويلية ١٨٧٣م المشهور باسم "قانون فارني"[١٧]، فقد حقق المستوطنون من خلاله في عهد الجمهورية الثالثة مطلبا من مطالبهم، وهو فتح المجال لهم للدخول إلى أراضي العرش، حيث أقام هذا القانون الملكية الفردية داخل الأراضي الجماعية التي بحوزة القبائل[١٨].

وأراد المشرع الفرنسي بأن يكون القانون الفرنسي سيد الموقف في كل عمليات الانتقال أو نزع الملكية،

كما فتح قرار ٢٦ جويلية ١٨٧٣م أراضي العرش أمام المستوطنين وشجع الجزائريين بحق امتلاك الأرض، وبأن كل عضو خاضع للشيوع له الحق في بيع نصيبه، كما تم إبعاد القاضي المسلم عن كل عمليات العقار والمنقولات والنزاع حولها، ليتكلف بها قاضي الصلح الفرنسي، أما أهداف هذا القرار فتتمثل في فرنسة العقار الجزائري وإخضاعه إلى التشريعات الاستعمارية وإجبار الجزائريين بمختلف الطرق والأساليب بإقناعهم بأن هذا القانون يخدم مصالحهم ويقدم لهم سندات قانونية، وكان المشرع الفرنسي ممثلا في السيد "وارني" يحاول الحصول على أراضي العرش التي لازالت تمثل صلابة القبيلة الجزائرية ووحدتها، وعرضها في السوق العقارية الفرنسية من أجل جلب رؤوس الأموال والشركات الكبرى وتشجيع هجرة الأوروبيين، وتوسيع التراب العسكري بهدف إنشاء البلديات والمراكز الاستيطانية، والتخلص من آثار قانون "سناتوس كونسلت" لـ ١٨٦٣[١٩].

فاعتمدت إدارة الاحتلال الفرنسي في الجزائر المستعمرة على الملكية الفردية كوسيلة لتحقيق عدة أهداف، من بينها ضرب نظام القبيلة المتعارف عليه لدى الجزائريين، وكذا الحصول على مساحات إضافية من الأراضي تحول إلى ملكية الدولة، وتسمح لاحقًا بتوظيف مراسيم وقوانين عديدة، والتي تعرف تبلورا سنة بعد سنة، حيث لعبت التشريعات العقارية الاستعمارية دورًا حاسمًا في تطور المجتمع الجزائري، لأنها عممت الملكية الفردية وشجعت المبادلات النقدية وضربت بالتالي التوازن الاجتماعي الجزائري[٢٠]، وحرمت الفلاحين من مصدر رزقهم الوحيد ولتسهيل إيواء الأوروبيون، وتدمير الهيكل القبلي للمجتمع الجزائري[٢١].

ثانيًا: الزراعة الكولونيالية في الجزائر المستعمرة

وجد الأوروبيون التسهيلات لإقامة وبناء حياة جديدة في الجزائر العاصمة، حيث توفرت لهم الأرض والأمن والمعدات[٢٢]، حيث يتم تسليمهم الثيران والمحاريث والبذور والأدوات من جميع الأنواع كالمجاريف وعربات اليد والمواقد والمعاول[٢٣]، في ذلك يقول أحد الفرنسيين: "أن هؤلاء هم مؤسسو المستعمرة، فهم الرجال الذين سترحب بهم الإدارة الفرنسية بحماس... كما عمل أسلافهم حيث كرسوا أنفسهم لنجاح الاستعمار، فيجب بناء مساكن قوية الجدران ليكون المسكن كالقلعة قادر على وقف اللصوص، ويجب زرع الآلاف من الأشجار وشراء الماشية والأدوات الزراعية والأثاث... لقد نفذت الإدارة الفرنسية بمعية من الجيش أعمال عظيمة، فلقد فتحت طرقا لمرور المدفعيات والسيارات العسكرية ولكي يقود المستوطن النقل الريفي"[٢٤].

وعلى سبيل المثال نجد أن الأوروبيين اعتمدوا على المعدات الزراعية والماشية سنة ١٨٦٣ م كالآتي:

المعدات الزراعية	العدد
المحاريث	١٥,٨٧٤
الأمشاط	٧,٣٠٢
البكرات	٣,٦٩٤
العربات	١٠,٦٣٧
الحصادة	٤٣
دراسة الحنطة	١٢٩
المجموع	٣٧,٦٧٩

الماشية	العدد
الثيران	٥٠,٨٠٧
البقر	١٩,٢٥١
الخيول	١١,٩٦٠
البغال والحمير	٧,٩٤٥
الخراف	٩٩,٧٢٣
الماعز	٢٣,٩٧٦
الخنازير	٢٩,٩٩١
المجموع	٢٤٣,٦٥٣[٢٥]

لما زار عضو البرلمان البريطاني السيد (Caird) كيرد الجزائر المستعمرة لخص الوضع الزراعي في البلاد والحالة الراهنة للاستعمار قائلاً: "إن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة هي ٣٤ مليون فدانًا، والذي يمثل سطحًا أكبر من كمية الأراضي الصالحة للزراعة في إنجلترا، ومن بين هذه الـــ ٣٤ مليونًا هناك خمسة للمحاصيل وعشرة للمراعي و١٢ منها مغطاة بكعوب سميكة ونخيل صغيرة، وفي ١٨٦١م لم يكن هناك أقل من ٢٠ مليون فدانا من الشعير في إنجلترا بالكاد تقدر بمليون فدان، والخضار وفيرة جدًا ويكون بداية الحصاد في نهاية أبريل، كما يتم تصدير زيت الزيتون بكميات كبيرة"[٢٦].

ويذكر السيد Caird "أنه تم تصدير الذرة في عام ١٨٤٠م بقيمة ٥,٥٠٠,٠٠٠ فرنكا، كما أن محاصيل كروم العنب تقدر بحوالي ١٣,٥٠٠ فدانا، أما الأبقار والقطعان من الأغنام فهناك مليون بقرة في الجزائر وعشرة ملايين من الأغنام، ويعتبر الفرنسيون والحكومة الفرنسية أن القطعان هي المنتج الأكثر ربحا في البلاد، وينظر إلى هذه البلاد كما أستراليا من فرنسا..."، وقد أتيحت للسيد Caird الفرصة لزيارة مزرعة قطيع، وفيه يعيش ثلاثة رعاة، يوجهون ١,٤٠٠ رأسًا من الأغنام كلها في حالة جيدة ولا تحتاج إلى الطعام المصنع(٢٧).

وفي سنة ١٨٧٤ كان السكان الزراعيون الأوروبيون والسكان الأصليين في العمالات الثلاث، يقدرون بحوالي ٢,٢٦٦,١٣٩ نسمة موزعين على النحو التالي: الأوروبيين ١١٧,٧٧٥ نسمة، والأهالي ٢,١٤٨,٣٦٤ نسمة، ويمتلك الأوروبيون ٨٢٥,٠٠٠ هكتارًا، منها حوالي ٣٣٥,٠٠٠ هكتارًا تزرع سنويا، وتمثل الممتلكات الزراعية الأوروبية ما مجموعه ١٢٥,٣٢٣,٠٠٠ فرنكا، وكذا المعدات الزراعية المستخدمة، ومن ماشية بقيمة ٨,٦٠٠,٠٠٠ فرنكا، وللسكان مساحات زراعية تقدر بـــ ١٠,١٣٥,٤٢٢ هكتارًا، لكن ليومنا هذا يقول المؤلف محاصيلهم السنوية لا تزيد عن ٢,٥٠٠,٠٠٠ هكتارًا، أما معداتهم الزراعية فلا تتجاوز ٢,١٧٠,٠٠٠ فرنكا ومن خلال هذه الأرقام يمكن أن نقدر التقدم الذي يحرزه الأوروبيون(٢٨).

السنة	المساحة
١٨٥٠	١١٥
١٨٨٠	١٢٤٥
١٩٠٠	١٩١٢
١٩٠٩	٢٣١٩,٥
١٩٢٠	٢٥٨١
١٩٣٠	٢٣٤٦,٧
١٩٤٠	٣٠٤٥
١٩٥٠	٢٧٢٦,٧
١٩٥٤	٣٠٢٨

يبين الجدول تطور مساحات الأراضي الزراعية للكولون ١٨٥٠- ١٩٥٤م (الوحدة ألف هكتار) ويظهر جليًا أن المساحات الزراعية للمعمرين ظلت في زيادة مستمرة وسريعة لا سيما خلال الفترة ١٨٥٠ إلى ١٨٨٠م، وذلك بفعل إجراءات المصادرة والحجز والتي بلغت ذورتها في أعقاب ثورة المقراني، وحسب الأرقام الواردة في الجدول فإن معدل مساحات الأراضي التي كانت تنقل إلى الكولون تقدر بـــ ٢٩٠,٠٠٠ هكتار سنويًا فيما بين ١٨٥٠-١٨٨٠(٢٩).

فقد امتلك الأوروبيون أخصب الأراضي وأجودها في معظم الأراضي الممتدة على السهول والهضاب، كما عمل المستوطنون على تطوير الفلاحة في الجزائر المستعمرة، فما لبث أن أصبحت زراعة حديثة متطورة تستخدم الآلات والأسمدة والمبيدات(٣٠)، فقامت الملكيات الأوروبية الكبيرة، وقد مدت لها مساعدات مادية هائلة من أجل تشجيع التوسع والاستصلاح، فنمت المستثمرات الفلاحية التي أشرفت على الإنتاج الضخم بوسائل تقنية متطورة، كما أدخل المستوطنون عدة تقنيات وتجهيزات حديثة من أجل تحسين الإنتاج والمردود الزراعي، ومن بين هذه التقنيات، تقنية قلب الأرض بعد حصاد الحبوب، أو تقنية تخمير العنب وتلقيم الأشجار المثمرة مثل الكروم والحوامض(٣١).

ثالثًــا: أهــم المنتوجــات الفلاحيــة الكولونيالية

بعدما استولى المستوطنون على أجود الأراضي الجزائرية طوروا قطاعًا زراعيًا نقديًا حديثًا، وأهملوا المحاصيل المعاشية وفي مقدمتها الحبوب، واتجهوا إلى التوسع في زراعة وإنتاج المحاصيل التجارية، التي تخدم الاقتصاد الفرنسي، والمصالح المادية للمستوطنين وأهمها الأعناب لإنتاج الخمور والحوامض والتبغ، وكذلك استغلال الحلفاء والفيلين(٣٢).

ويقول L'Abbé G. Dervin: "في بداية الاحتلال الفرنسي لم يكن مناخ الجزائر معروفا لدينا، كان لنا اقتناع بأن المحاصيل الاستوائية يمكن أن تكون لنا الشركات بنجاح، وكنا ندرك أن الجزائر يمكن أن تزود البلاد الأم بالقهوة والكاكاو والفلفل والقطن وجميع السلع الغنية بها، وأن التشابه الموجود بمناخ الجزائر وجنوب فرنسا، أدى إلى تشابه في طبيعة المنتجات، وقد اضطر المستوطن للتنافس مع منتجات السكان الأصليين ومنتجات البلد الأم"(٣٣).

كما وجه F.M.Bartbe Lemy حديثة إلى المستوطنين قائلاً: "قبل التفكير في وضع يدكم على المحراث وبناء المساكن لابد من دراسة وتجربة مختلف نظم المحاصيل المناسبة للأرض وللمناخ في المستعمرة وتقديم الرعاية والتبصر في مزارع الريف، ولا تترك مصالحنا التجارية والصناعية من المنتجات الزراعية، وقد تأسست "الجمعية الاستعمارية" من قبل

القائد العام سنة ٢٢ ديسمبر ١٨٣١ لهذا الغرض، وهو توحيد الجهود ووجهات النظر ولتقديم الخدمات في القطاع الزراعي والصناعي والتجاري، والعمل على تحسين الممتلكات الفرنسية في شما إفريقيا، كما أنها تنشر المنشورات للمستوطنين الجدد القليلي الخبرة لإثراء اقتصاد المستعمرة"[٣٤].

أما مؤلف كتاب L'Algérie française فقد قال: "بمجرد أن كان هناك حديث عن استعمار الجزائر أغلقنا سوقنا عن الإنتاج الأجنبي، وتم تقديم اقتراحات لتكريس المنتوجات في الجزائر التي تنقصها فرنسا وغير كافية الاستهلاك القومي، مثل: الحبوب والصوف والزيوت والاعتماد على إنتاج القطن والسكر والقهوة والتبغ وزراعة أشجار التوت لديدان الحرير وأشجار الزيتون...، ومستقبل الاستعمار الزراعي في الجزائر مرتبط بشكل لا يمكن إنكاره، بتنمية المحاصيل الرئيسية من القطن وقصب السكر"[٣٥]. لذا سنتطرق إلى نماذج من هذه المنتوجات الزراعية.

٣/١-الحبوب:

يعتبر الشعير من الحبوب الأكثر إنتاجًا على نطاق واسع، فالمتوسط السنوي يحسب على مدى عشر سنوات، ويمثل عند السكان الأصليين مساحة مزروعة تقدر بـــ ١,٢٧٧,١٣٦ هكتارًا، وإنتاجًا يقدر بـــ ٧,١٩٠,٢٤٥ قنطارًا أو ٥,٦٠ قنطارًا في الهكتار الواحد، أما عند الأوروبيين وفي المتوسط ١٢٠,٤٥٤ هكتارًا بإنتاج يقدر بــــ ٩٩٠,٩٧٥ قنطارًا أو في ٨ قنطارًا في ٢٢ هكتارًا، وهنا نجد الفرق بين إنتاج السكان الأصليين وإنتاج الأوروبيين، ويستخدم الشعير للتغذية البشرية والماشية خاصة الحصان، علاوة على ذلك فهو مادة هامة للتصدير، لأن مصانع الجعة شمال فرنسا تتزود منه[٣٦].

أما القمح فيزرع نوعان منه في الجزائر المستعمرة قمح صلب وقمح لين، عند السكان الأصليين هناك متوسط ٩٥٧,٨٨٠ هكتارًا بإنتاج يقدر ٤,٥٦٧,٩١٩ قنطارًا من القمح الصلب أو ٠٤ قنطار في ٧٦ للهكتار الواحد، أما عند الأوروبيين هناك ١٣٥,١٧٩ هكتارًا بإنتاج يقدر ٨٨١,٧١٨ قنطارًا أو ٠٦ قناطير بـ ٥٢ هكتار، وكل عام يزرع السكان الأصليين متوسط ٦٣,٢٠٩ هكتارًا، بإنتاج ٢٦٧,٨٦٨ قنطارًا و٤٠ قنطارًا بـــ ٢٣ هكتارًا، والأوروبيون يزرعون ١٢٧,٧٩٥ هكتارًا بإنتاج ٩,٢٧,٤٥٥ قنطارًا أو ٠٧ قناطير بـــ ٢٥ هكتارًا، هذه الغلة لكل هكتار هي أقل من تلك التي يتم الحصول عليها في فرنسا، حيث يقدر متوسط إنتاج الجزائر بــــ ٦,٢٠٠,٠٠٠ قنطارًا من القمح، ويستهلك ما قيمته السنوية المقدرة بـــ ٥,٠٠٠,٠٠٠ قنطارًا، ويتم التصدير منه بمقدار ١,٢٠٠,٠٠٠ قنطارًا[٣٧].

وزراعة الحبوب من القمح والشعير والشوفان[٣٨]، والذرة والبشنة (bechna) في ١٨٧٤م، قد احتلت مساحة ٢,٧٣٣,٣٠٤ هكتارًا بعائد مقداره ١٦,٠٠٠,٠٠٠ حصة الأوروبيين منه في المناطق المزروعة من هذه الأرقام هو ٣٠٠,٤٠٠ هكتارًا[٣٩]. وكان مردود الهكتار المزروع بالشوفان يتراوح من ٨,٥ قنطارًا إلى ١٠ قناطير، فوقع الطلب على هذا الإنتاج في الجزائر، وبصفة أخص في فرنسا، وكان المستوطنون الأوروبيون يطورون هذه الزراعة المربحة ونفس الأمر بالنسبة للذرة البيضاء التي ارتفعت أسعارها بانتظام منذ سنة ١٩٠٠م، وفي هذا الاختصاص كان المستوطنون هم السباقون، وشرعوا في توسيع مساحاتهم المزروعة وخاصة في السهول العليا الداخلية مثل منطقة سطيف والهضاب العليا القسنطينية وسهل السرسو[٤٠].

٣/٢-التبغ:

ومن المنتجات التي كانت السوق الفرنسية في حاجة إليها هي التبغ والقطن والخمور، فقد لقي التبغ تشجيعًا كبيرًا من الإدارة الاستعمارية في محاولة منها لتفادي استيراد فرنسا منه بكميات كبيرة من الخارج وتعتبر سنة ١٨٥٤م سنة بداية امتداد مساحات التبغ إلى مناطق متعددة مثل: بجاية، عنابة، تلمسان، معسكر، متيجة...، وأصبح التبغ يمول مصانع فرنسا وفاق ذلك القطن بكثير[٤١]، ويزرع التبغ من قبل المستوطنين وبعض السكان الأصليين، وهي صناعة مزدهرة وأعطت نتائج جيدة لكثير من المزارعين الأوروبيين[٤٢]، وهو من بين المنتجات التجارية التي تمنح المنتجين أربحًا كبيرة وزراعته على نطاق واسع[٤٣].

٣/٣-القطن:

أما زراعة القطن في الجزائر المستعمرة لم تتوسع كثيرا لأن الظروف الطبيعية لم تكن ملائمة، وبدأ المزارعون الأوروبيون يتخلون عن زراعتها ويتجهون إلى زراعة الكروم[٤٤].

٣/٤-الكروم:

توسعت بشكل كبير إذ يتم تحويل جزء من محاصيلها إلى خمور والتي تتمتع بسمعة جيدة في المستعمرة[٤٥]، وبلغت مزارع الكروم ١٨,٢٦٤ هكتارًا، بينما في سنة ١٨٥٦م كان ٨,١٨٧ هكتارًا منها ٦,٠٠٠

هكتارًا ملكًا للعرب، وبزيادة سنة واحدة من ١٨٧٣ م إلى ١٨٧٤م بمساحة مزروعة تقدر بـ ١,٠١٩ هكتارًا و١١,٣٦٠ هكتارًا من مزارع العنب ملكًا ومستغلة من الأوروبيين في سنة ١٨٧٤م، وقدمت منتوجًا قدره ٢٢٩,٠٠٠ هكتولتر لكل هكتار، كما تحسن إنتاج الخمور في الجزائر المستعمرة بسبب إدخال أصناف العنب المناسبة لطبيعة التربة والمناخ والتحسينات التي أدخلت في عمليات صناعة النبيذ[٤٦]. لقد كان القمح المحصول الأساسي للزراعة الجزائرية إلى أن ظهرت الإصابات الأولى لمرض الفيلوكسيرا[٤٧]، على أشجار العنب بفرنسا عام ١٨٨٥ م، ما أدى إلى تراجع مساحتها من ٢,٥ مليون هكتارًا عام ١٨٧٠ إلى ١,٨٠ مليون هكتار عام ١٨٩٠، فبدأ التوسع الكبير في زراعة الأعناب في الجزائر المستعمرة للتعويض عن ذلك[٤٨].

السنة	المساحة	الزيادة%
١٨٨٠	٢٣,٧٢٤	////////
١٨٩٠	١١٠٠٤٨	+٣٦٤%
١٩٠٠	١٥٤٤٣٠	+40%
١٩١٠	١٥٢١٢٩	-1.5%
١٩٢١	١٦٨٧٤٢	+11%
١٩٣٠	٢٣٤٩١٦	+39%
١٩٣٤	٣٧٤٢٩٢	+59%
١٩٥٤	٣٩٣١٨٤	+5%

الجدول يدل بوضوح عن تطور زراعة الكروم في الجزائر منذ سنة ١٨٨٠ م، أي بعد خمس سنوات من اندلاع مرض الفيلوكسيرا[٤٩]، فأصبح الكروم النبات الاستعماري بامتياز حيث جذب المزيد من المزارعين والمزيد من رأس المال في الجزائر، فزراعة الكروم أصبحت محور الزراعة الأوروبية في الجزائر[٥٠].

يقول السيد "ايرل هاركوت" (Le conte d'Harcourt): "إن الكروم في الجزائر ملائمة لتربة البلاد ومناخها، فالتربة خفيفة ورملية في متيجة ويزرع أيضا في سفوح التلال وحول وهران، ومعظم الأشجار المثمرة في أوروبا أثبتت تأقلمها في الجزائر، أما مساحة الأشجار في جميع الأنواع والفواكه والغابات المملوكة في الجزائر المستعمرة من قبل الأفراد فهو ١٥,٣٢٢,١٧٢ هكتارًا، من هذا العدد يملك الأوروبيون ٨,٤٣٠,٤٩٠ هكتارًا، أما زراعة النباتات الزيتية[٥١]فتتم فقط من قبل الأوروبيون، ففي سنة ١٨٧٤ أنفقوا ٨٠٥ هكتارًا على بذور اللفت، والخروع والفول السوداني، وله أهمية في المنتوجات الأوروبية"[٥٢].

ويقول Dr. L.Trabut: "تقريبًا جميع محاصيل الفاكهة تطلبت منا تحسينات، كما أن أصناف من أوروبا أدخلت على الزراعة في الجزائر وإنشاء سلالات جديدة تتكيف بشكل جيد مع مناخ البلد"[٥٣]. إن تسيير المزرعة نمط من أنماط الاستغلال الذي أرسى أسسه الاستيطان الأوروبي، هذا الاختصاص جلبه بعض المستوطنين وطبقوه في مناطق السهول الخصبة عندما تبين لهم أن أجر الخماس مفرط في الربح، وأنه يمكن الحصول على من ينجز نفس الأشغال بأسعار أقل، وظل أسلوب المزارعة بين الجزائريين حدثا نادرا، غير أن ذلك لم يمنع بعض المالكين الأهالي من تقليد المستوطنين، مما جعلهم يتخلون عن نظام الخماسة التقليدي في الأراضي ذات المردود الكبير وفي بعض المزروعات المتخصصة (التبغ أساسا)[٥٤].

رابعًا: انعكاسات الزراعة الكولونيالية على الفلاحة الأهلية واقتصاد الجزائر المستعمرة (١٨٧٠-١٩١٤م)

كانت الهجرة الأوروبية عامة والفرنسية خاصة سببا في التحول الاقتصادي الذي عرفته الجزائر، إذ كان لها التأثير المباشر على فلاحة الأرض[٥٥]، كما أن الإدارة الاستعمارية قامت بتحويل الزراعة الجزائرية من زراعة وطنية إلى زراعة تخدم الاقتصاد الفرنسي بالدرجة الأولى، وانتقلت من زراعة داخلية خاصة بالاكتفاء الذاتي، إلى زراعة سوقية موجهة لما تحتاجه السوق الفرنسية، لذلك عمدت السلطة الفرنسية إلى تنمية زراعات لا تستهلك بالداخل وإنما أغلبها موجه للتصدير إلى فرنسا[٥٦].

لقد عملت السلطات الاستعمارية على تسخير الإمكانات المادية والبشرية للجزائر في خدمة الأغراض الاستعمارية الفرنسية دون مراعاة مصالح المجتمع الجزائري وخصوصياته الاجتماعية والثقافية والدينية، وخير مثال على ذلك تحويل الأرض الجزائرية من أرض منتجة للحبوب إلى أرض منتجة للخمور، التي صارت تدر أرباحًا طائلة على الاقتصاد الفرنسي[٥٧]، حيث عرفت أهم المحاصيل الزراعية من القمح تدهورا كبيرا، كما أن مردود الهكتار هو الآخر شهد تدهورا، فبعد أن كان ٥,٣ قنطارًا في الهكتار سنة ١٨٨٥ م انتقل إلى ٤,٧ قنطارًا في سنة ١٨٩٤ م، وبذلك انخفض الإنتاج في نفس

الفترة من ٢٠ إلى ١٦ مليون قنطار[٥٨]، وقد ترتب عن هذه السياسة انكماش في مساحات الحبوب التي يعتمد عليها الجزائريون من ٢,٥٧١,٨٩٢ هكتارًا عام ١٨٧٦ م إلى ١,٩٦٧,٩٩٥ هكتارًا عام ١٩١٦م، فانتشر سوء التغذية بين الجزائريين[٥٩].

كما أدت المصادرات السريعة والمتعددة للملكيات الزراعية للجزائريين خلال الفترة ١٨٣٠م إلى ١٩٠٠م إلى غرس هيكل زراعي غريب في جسم الاقتصاد الوطني هو هيكل المعمرين، وقد تطور كميًا ونوعيًا بشكل قوي وصار له وزن اقتصادي واضح في الإنتاج بصفة عامة وفي الإنتاج السلعي بصفة خاصة، وهو هيكل زراعي رأسمالي، وترتب عن ذلك إفقار الفلاحين الجزائريين وطردهم في اتجاه الأراضي الهامشية الفقيرة[٦٠]. ولأن المعمرين وحدهم الذين يتمتعون بالقروض ويحتكرون التجهيزات، وذلك بفضل سيطرتهم على الميزانية والتي لم يكن ينال منها البورجوازيون الجزائريون إلا الفتات، أما الفلاحون الجزائريون فكان دورهم يقتصر على دفع الضرائب[٦١]، كما أن ممارسات الإدارة الاستعمارية في حرمان الجزائريين من المراعي أدى إلى نقص أغذية الحيوانات وارتفاع أسعار كراء الأراضي الرعوية، وكانت النتيجة المباشرة لكل هذا هو تراجع الثروة الحيوانية في الجزائر[٦٢].

حيث كان الانخفاض مذهولاً في الماشية فقد كان ٨٢٠٠٠٠٠ رأسًا بين (١٨٨٠م و١٨٧١م) إلى ٤٣٥٠٠٠٠ رأسًا فيما بين (١٩٤٦م و١٩٠٣م)، وهذا الضعف في الإنتاج الفلاحي رافقه التدهور المعيشي للجزائريين بصفة عامة ولسكان الأرياف بالخصوص[٦٣]. وإن دخول الجزائر في نطاق الاقتصاد النقدي قد ترتب عنه نتائج وخيمة على حياة الفلاحين الجزائريين، منها زوال عادة تخزين الحبوب في المطامير التي لعبت دورًا هامًا في إنقاذ الجزائريين من الهلاك أثناء المواسم الفلاحية الصعبة، ويعود سبب زوالها إلى تصدير القمح الجزائري إلى فرنسا على نطاق واسع[٦٤].

خَاتِمَةٌ

اعتبرت سنة ١٨٧٠م منعرجًا هامًا في سياسة فرنسا الاستعمارية في الجزائر المستعمرة، إذ توسع نطاق الاستيطان وسلب الممتلكات من الجزائريين عن طريق سن تشريعات عقارية وفي مقدمتها قانون وارني الذي حول الملكية غير المقسمة إلى ملكية فردية، وفكك الوحدة الاجتماعية التقليدية، وانتهجت الإدارة الاستعمارية سياسة زراعية متمثلة في التركيز على زراعة المنتوجات التجارية والحيوية، والتي تخدم السوق الفرنسية، مما أدى إلى تدهور الفلاحة الأهلية المعتمدة على الأدوات البسيطة والتقليدية ونفي الفلاح الجزائري إلى الأراضي القاحلة والجبلية بعدما استولى المعمرون على أخصب الأراضي الزراعية، مما أدى إلى انتشار المجاعات والفقر في أوساط الجزائريين وخاصةً الفلاحين منهم.

الهَوامِش:

(١) صالح عباد، **الجزائر بين فرنسا والمستوطنين (١٨٣٠-١٩٣٠)**، ديوان المطبوعات الجامعية، قسنطينة، الجزائر، ١٩٩٩، ص١٢.

(2) L'Algérie française, indigènes et immigrants, chez challamelainne, libraire éditeur, 30 rue des boulangers, Victor, Paris, 1862, p17.

(٣) صالح عباد، المرجع السابق، ص١٩.

(٤) إبراهيم مياسي، **توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (١٨٨١-١٩١٢)**، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، (د س)، ص٧٩ – ٨١.

(5) L'Algérie française, tourisme, colonisation, photogravures de l'imprimerie algérienne, 30 rue Sadi-Carnot, Alger, 1907, p11.

(6) Ch.F. Meiss, la fortune de la France en Algérie, v(e) Cadoret, imprimeur- éditeur, 12 – rue du temple – 12. Bordeaux, 1879, p15.

(٧) إبراهيم مياسي، المرجع السابق، ص٨١.

(8) Ch.F, Meiss, op.cit, p16.

(٩) وفي ١٦ نوفمبر ١٨٣٠ قال "الكونت دي ساد" في خطاب ألقاه حيث أكد قائلاً: "الأرض غير متوفرة، يجب إبادة السكان الأصليين قبل طردهم"، وفي نفس السنة ومن رسائل جندي كتب مونتنياك Montagnac: "يجب هدم جميع السكان الذين لا يقبلون شروطنا، كل شيء يجب أخذه ونهبه بغض النظر عن العمر أو الجنس"، واعترف Montagnac: "عندما تطاردني الأفكار السوداء فأحيانا أقطع الرؤوس"، فقد انتزعت السياسة الاستعمارية للإمبراطورية الثانية من ١٨٦٣ حتى ١٨٧٠ م ٢٥١٩٠٠٠ هكتارًا من الجزائريين بما في ذلك ١٠٠٣٠٠٠ هكتارًا مصنفة في مجال الدولة. يُنظر:

-Fatiha bencheikh- el fegounabbassi, **l'impact des lous foncières coloniales sur la situation socioéconomique des paysans Algériens de 1873 à 1911**, diplôme de doctorat d'etat, Constantine, 2006-2007, p p76- 81.

(١٠) "راندون جاك لويس" Rondon Jacques Louis-César Alexander: ولد في ٢٥ مارس ١٧٩٥م، عسكري وسياسي فرنسي، تقلد عدة مناصب منها وزير، سيناتور، حاكم عام (١٨٥٢-١٨٥٨)، تميزت إدارته بالحملات العسكرية الشرسة ضد المقاومة الجزائرية، مات في جنيف يوم ١٦ جانفي ١٨٧١م يُنظر:

Narcisse faucon, le livre d'or de l'Algérie, challamel et cie éditeurs, ɀaris, 1889, p p400- 406.

(١١) مصطفى عبيد، **الفكر الاستعماري السانسيموني في مصر والجزائر (١٨٣٣-١٨٧٠)**، دار المعرفة الدولية، الجزائر، ٢٠١٣، ص٨٣.

(١٢) محمد بليل، **تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر وانعكاساتها على الجزائريين ١٨٨١-١٩١٤**، دار سنجاق الدين للكتاب، الجزائر، (د.س)، ص١٢٣.

(١٣) جلال يحي، **تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، مصر، ١٩٩٩، ص٢٥١.

(١٤) إبراهيم مياسي، "**الاستيطان الفرنسي في الجزائر**"، **المصادر**، ع ٠٥، الجزائر، ٢٠٠١، ص١١٤.

(١٥) سعد طاعة، "**البنية الاجتماعية والاقتصادية للريف الجزائري (١٩٠٤-١٩٣٠)**"، **المصادر**، ع ١٧، الجزائر، ٢٠٠٨، ص٧٤.

(١٦) محمد بليل، المرجع السابق، ص ص١٢٦، ١٢٧.

(١٧) واضع مشروع القانون، وهو "أوغوسط إبارواني" Auguste Hubert Warnier الذي ولد في "روكروا" (Rocroi) في ٠٨ جانفي ١٨١٠، درس الطب واشتغل طبيبا في ١٨٦٦م، أصبح ناطقًا غير رسمي باسم المستوطنين، وبعد سقوط الإمبراطورية الثانية عين واليا على الجزائر في ٠٥ سبتمبر ١٨٧٠ انتخب في جويلية ١٨٧١ م نائبًا عن عمالة الجزائر في الجمعية الوطنية الفرنسية، وفي نفس السنة عين عضوًا في لجنة الحجز والمصادرة ورئيسًا للجنة تعويض المستوطنين المتضررين من انتفاضة ١٨٧١م، وساهم بفاعلية في وضع الملكية العقارية في الجزائر، وكان عضوًا مؤثرًا في لجنة إعداد قانون الملكية العقارية في الجزائر المستعمرة الصادر سنة ١٨٧٣م والمعروف بقانون "وارني"، مات في قسنطينة سنة ١٨٨١ يُنظر:

Narcisse Faucon, op.cit, p p571- 577.

(١٨) صالح عباد، المرجع السابق، ص١١٣.

(١٩) محمد بليل، المرجع السابق، ص١٣٢، ١٣٣.

(٢٠) عثمان زقب، **السياسة الفرنسية في الجزائر ١٨٣٠-١٩١٤؛ دراسة في الأساليب السياسة الإدارية**، أطروحة دكتوراه، إشراف: صالح لميش، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠١٤-٢٠١٥، ص٢٠٤.

(21) Fatiha ben cheikh, op.cit, p100.

(٢٢) عثمان زقب، المرجع السابق، ص٤١٢.

(23) Lorrains en Algérie, imprimerie générale des chemins de fer A.chaix et (cie), rue revgére, 20, près du boulevard, montmantre, Paris, 1873, pp80, 81.

(24) F.m, bartbe lemy, étude sur l'Algérie ehey le doyen, libraire, palais- royal, galerie d'Orléans 31, Paris, 1840, pp100- 104.

(25) Statistique et documents relatifs au sénatus-consulte sur la propriété arabe, imprimerie impériale, Paris, 1863, p486.

(26) Octave Teissier, Algérie, libraire del, hache et (ce) boulevard, saint-germain 77, Paris, 1865, pp, 32, 33.

(27) Op. cit, pp, 32, 33.

(28) V. Loizillon, l'Algérie pratique, imprimerie deyme, rue de Constantine 15, Alger, 1876, p98.

(٢٩) عدة بن داهة، **الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض، إبان الاحتلال الفرنسي للجزائر ١٨٣٠-١٩٦٢**، وزارة المجاهدين، الجزائر، ج ٠١، ٢٠٠٨، ص ص١٤٩، ١٥٠.

(٣٠) محمد بويهي، **القطاع الفلاحي المسير ذاتيا ومشاكله المالية**، مذكرة ماجيستير، إشراف: محمد بن سعيد، جامعة الجزائر، ١٩٨٧، ص٣٥.

(٣١) احميدة اعميراوي وآخرون، **آثار السياسة الاستعمارية والاستيطانية في المجتمع الجزائري (١٨٣٠ - ١٩٥٤)**، ط.خ، وزارة المجاهدين، المركز الوطني للدراسات في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ص٥٨- ٦٢.

(٣٢) بشير بلاح، تاريخ الجزائر المعاصر من ١٨٣٠ إلى ١٩٨٩، دار المعرفة، الجزائر، ج ٠١، ٢٠٠٦، ص٢٥٣.

(33) L'Abbé G. Dervin, l'Algérie éperma, imp du courrier du nord-est-Mcm, Paris, 1902, pp26, 27.

(34) F.M.Bartbelemy, op.cit, pp101, 102.

(35) L'Algérie française, op.cit, p24.

(36) L'Abbé G.Dervin, op.cit, p31.

(37) Ibid., p32.

(٣٨) **الشوفان** يحتل مكانًا محدودًا في زراعة الحبوب بالجزائر المستعمرة، ويستخدمه الأوروبيون لتغذية الخيول كأفضل غذاء من الشعير، ويتم إنتاج هذه المادة للتصدير، ولم يزرعه السكان الأصليون قبل الاحتلال فلم يستهلكونه واتبعوا المستوطنون الأوروبيون في زراعته ولكن مع القليل من الحماس، ومساحته المزروعة زادت من ٢,٣٩٧ هكتارًا في ١٨٩٠ إلى ١٠,٢٦١ هكتارًا في ١٨٩٩. يُنظر:

L'Abbé G.Dervin, op.cit, p36.

(39) V.Loizillon, op.cit, p99.

(٤٠) شارل روبير أجيرون، **الجزائريون المسلمون وفرنسا (١٨٧١-١٩١٩)**، دار رائد للكتاب، الجزائر، ج٢، ٢٠٠٧، ص٣١١.

(٤١) صالح عباد، المرجع السابق، ص ٢٠.

(42) J.E.Lahache, les industrie chimiques en Algérie, giralt imprimeur- photograveur, rue des colons 17, Alger, 1900, p26.

(43) Achille Fillixs, géographie et politique de l'Algérie, hachette libraire rue pierre- Sarrazin, Paris, 1861, p24.

(٤٤) صالح عباد، المرجع السابق، ص٢٠.

(45) Achille Fillixs, op.cit, p34.

(46) V.Loizillon, op.cit, p104.

(٤٧) لقد استحوذ الاستيطان الحر ما بين ١٨٨٠ و١٩٠٨م على ما يفوق ٤٥٠٨٢٣ هكتارًا، هذه المساحة استغلها المستوطنون في زراعة الكروم، حيث لم تكن تتعدى تلك المساحة ١٥٠٠٠ هكتارًا سنة ١٨٧٨، انتقلت إلى ١٨٦٤٣٢ هكتارًا سنة ١٩٠٧، ومن جهة أخرى نلاحظ أنها أكبر تلك المساحات المزروعة، وتعود أسباب هذا الارتفاع الكبير في مساحات الكروم التي تراجع إنتاج الخمور في المتروبول بسبب انتشار مرض الفيلوكسيرا، خاصة في منطقة جنوب فرنسا، والسبب الثاني هو ضخامة الأرباح المحققة من إنتاج الخمور وتصديرها خاصة مع وجود التسهيلات والإعفاءات الضريبية على الصادرات نحو فرنسا بموجب قانون ١١ جانفي ١٨٥١. يُنظر:

عبود علي، **الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض ١٨٣٠-١٨٩٩، القطاع الوهراني نموذجا**، مذكرة الماجيستير، إشراف محمد موفق، جامعة وهران، الجزائر، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص١١٦.

(٤٨) بشير بلاح، المرجع السابق، ص ص٢٥٣، ٢٥٤.

(٤٩) حسن بهلول، **الغزو الرأسمالي الزراعي للجزائر ومبادئ إعادة تنظيم الاقتصاد الوطني بعد الاستقلال**، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، ١٩٨٤، ص٤٣.

(50) L'Abbé .G.Dervin, op.cit, p29.

(٥١) وللعلم فإن الفضلات الناتجة عن بذور المواد الزيتية والعطرية وغيرها تستخدم كأعلاف لتسمين الحيوانات. يُنظر: عدة بن داهة، المرجع السابق، ص٢١٣.

(52) V.Loizillon, op.cit, p106.

(53) MM le Dr L.Trabut et R. Marés, l'Algérie agricole en 1906, imprimerie algérienne, Alger, 1906, p167.

(٥٤) شارل روبير أجيرون، المرجع السابق، ص٣٧١.

(٥٥) احميدة عميراوي، المرجع السابق، ص ٤٠.

(٥٦) محمد بويهي، المرجع السابق، ص٣٥.

(٥٧) صالح حيمر، **السياسة العقارية الفرنسية في الجزائر (١٨٣٠-١٩٣٠)**، أطروحة دكتوراه، إشراف: علي آجقو، جامعة باتنة، الجزائر، ٢٠١٣-٢٠١٤، ص٢٦٩.

(٥٨) إسماعيل شعباني، المرجع السابق، ص٥٩.

(٥٩) بشير بلاح، المرجع السابق، ص٢٥٥.

(٦٠) حسن بهلول، المرجع السابق، ص٢٩.

(٦١) محمد حربي، المرجع السابق، ص٨٩.

(٦٢) صالح حيمر، المرجع السابق، ص٢٦٨.

(٦٣) إسماعيل شعباني، المرجع السابق، ص٥٩.

(٦٤) صالح حيمر، المرجع السابق، ص٢٦٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

المسلمون والدولة القومية في الصين (١٩١٢-١٩٤٩)

دراسة تاريخية

أ.د. زكريا صادق الرفاعي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
رئيس قسم الدراسات الاجتماعية - كلية التربية
جامعة المنصورة - جمهورية مصر العربية



مُلَخّص

سعت هذه الدراسة لرصد دور المسلمين في الصين خلال النصف الأول من القرن العشرين في أعقاب انهيار النظام السياسي القديم وبزوغ الجمهورية الجديدة، وبطبيعة الحال كانت قضية الرئيسة التي فرضت نفسها هي قضية الهوية والاندماج والتي كانت بدورها وربما لازالت هاجسًا مستمرًا للمسلمين في الصين على مدار تاريخهم الطويل، وساهمت الأزمات والنكبات التي مروا بها في إعادة طرحها على نحو متواصل رغم تباين الظروف التاريخية، وقد كشفت الدراسة أن نظرية التحدي والاستجابة هي العنوان العام لتجربة المسلمين في الصين وفسرت إلى حد كبير السلوك الذى اتسم به المسلمين خلال فترة الدراسة، خاصة الوعي المتزايد الذى اكتسبوه بحكم التحديات المتتالية التي مروا بها. وكان لافتًا للانتباه إدراك المسلمين بوضوح أن بدايات العهد الجمهوري هي بارقة أمل جديدة ولحظة تاريخية مواتية لحراك سياسي واجتماعي محقق لآمالهم، وسرعان ما نجحوا في بناء جسور التواصل مع النظام السياسي الجديد، وبمرونة وواقعية شديدة أعادوا النظر في رؤيتهم لأنفسهم ورؤيتهم للآخرين دون خوف أو وجل، وكان للاعتراف السياسي بالمسلمين كأحد مكونات الأمة الصينية أثرًا كبيرًا في زيادة لحمتهم الداخلية وانفتاحهم في الوقت ذاته على العالم الإسلامي. ومن الإنصاف القول بأن الدعوة إلى الشراكة والاندماج الاجتماعي لدى مسلمي الصين، قد قوبلت بتحفظ من وشكوك لها ما يبررها من قبل البعض بحكم الإرث التاريخي الطويل من المصادمات، لكن نجحت الأغلبية في فرض توافقها، وعزز الدور الوطني الكبير لمسلمي الصين في الدفاع عن البلاد أمام اليابان والذي حظي بتقدير الجميع من إعلاء للفكرة الوطنية والقومية، فنظر المسلمون لأنفسهم دون غضاضة على أنهم صينيين ومسلمين معًا، ومِنْ ثَمَّ حافظوا خلال فترة الدراسة على هويتهم الدينية والتقاليد الصينية في آن واحد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٤ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢١ يوليو ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الدولة القومية؛ المجتمع الصيني؛ العالم الإسلامي؛ الدولة العثمانية؛ اليابان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057044

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

زكريا صادق الرفاعي. "المسلمون والدولة القومية في الصين (١٩١٢-١٩٤٩): دراسة تاريخية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ٧٢ – ٨٥.

مُقَدِّمَة

مر المسلمون في الصين بأطوار عديدة ومتغيره، ولعل محنتهم في ظل حكم أسرة " الكانغ" "Qing " (١٦٤٤-١٩١٢) كانت هي الأكبر عبر تاريخهم الطويل، وكان قيام الثورة في عام ١٩١١ ثم إعلان الجمهورية في عام ١٩١٢ حدثًا جديدًا، لم يقتصر فحسب على إنهاء حكم "المانشو Manchu"، بل حمل معه متغيرات جديدة على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وقد شهدت فترة الدراسة نشاطاً ملحوظاً لدى مسلمي الصين، فانخرطوا في العديد من الجمعيات والمنظمات كانت من أبرزها جمعية التقدم الإسلامية التي ظهرت عام ١٩١٢، كما انتشرت الكثير من الصحف

الإسلامية مثل صحيفة "اليقظة الإسلامية"، فضلاً عن حركة الترجمة النشطة من العربية إلى الصينية خاصة ترجمة القرآن الكريم في عام ١٩٣٣، وكان لافتًا للانتباه انفتاح مسلمي الصين على العالم الخارجي، حيث جابت خلال فترة الدراسة العديد من الوفود الصينية أرجاء العالم الإسلامي لأغراض دينية وسياسية.

وتسعى هذه الدراسة من جانبها لرصد هذا الدور المتنامي للمسلمين خلال حقبة الدولة القومية عبر عدة محاور تعلق أولها برصد السياق التاريخي لمسلمي الصين بإيجاز، ثم التعرف على البواعث التي دفعت بالمسلمين للحراك والمشاركة في بناء الدولة الجديدة، واهتم المحور الثاني باستقصاء دورهم السياسي والاجتماعي في النظام السياسي الجديد، وعرض المحور الثالث للدور الثقافي، واختص الأخير بالوقوف على طبيعة العلاقات مع العالم الإسلامي.

وقد أفادت الدراسة من الدراسات العربية على ندرتها، إضافة إلى الدراسات الغربية التي تزايدت على نطاق كبير منذ ثمانينيات القرن الماضي، وفي مقدمتها بطبيعة الحال أعمال (Leslie,1986) وأيضًا (Lipman,1987-1997,) المتوالية وكانت تلك الأعمال بمثابة القاعدة لما تلاها من دراسات خاصةً (Zvi -2005 Ben Dor Beniet) وانطلاقه نظريًا من فكرة "الاغتراب التاريخي "كمدخل ملائم لدراسة وفهم تاريخ مسلمي الصين، منوها بدور البعد الجغرافي والتاريخي وأثره على الأقلية المسلمة في الصين، وصدى ذلك في تصورهم لذاتهم وللآخرين، وهي جوهر الفكرة التي لخصها من قبل بإيجاز وبصورة عابرة الأمير شكيب أرسلان بقوله بأن "مسلمي الصين ليسوا في هذه الدنيا فالمعلومات عنهم قليلة والروايات بشأنهم متضاربة "[١] كناية عن عزلتهم الجغرافية وانقطاع أخبارهم، ومن الدراسات المهمة أيضا دراسة(Green,Sandra,Aili(1999، وأعمال Raphael Israeli (1980)، Kristian Peterseng (2006)، وغيرهم التي أضاءت الكثير عن الحراك الاجتماعي لمسلمي الصين في فترة الدراسة.

أولاً: السياق التاريخي

تكاد تتفق المصادر التاريخية على وصول الإسلام للصين منذ وقت مبكر خلال القرن الأول الهجري[٢]، وكان للتجارة دورًا كبيرًا في هذا الصدد[٣]، إذ تبوأ التجار المسلمون مكانة اقتصادية كبيرة بفضل معرفتهم بطريق الحرير في الشمال الغربي برًا، وثغور المدن الساحلية في الجنوب الغربي للصين بحرًا، وكان ينظر إليهم آنذاك على أنهم غرباء، فعادة ما كان التجار المسلمون يبحرون من المحيط الهندي إلى مينائى كانتون Canton وجانسو Quanzhou، والذي عرف بالعربية بأرض الزيتون[٤]. وقد مر المسلمون عبر تاريخهم في الصين بمراحل عديدة، ففي عهد أسرتي "تانغ" Tang (٦١٨-٩٠٦ م) و"سونغ" Song (٩٦٠-١٢٧٩م) تزايدت أعدادهم بشكل كبير وانتشروا في كثير من المدن وكانت لهم عاداتهم وطقوسهم وقطنوا أحياء خاصة بهم[٥]، كما ظلت أحوالهم بصفة عامة مستقرة في عهد ملكية "يوان" Yuan(1206-1368م) بفضل اتباعها سياسة التسامح الديني تجاه الأقليات الأجنبية[٦].

وقد بلغ المسلمون أوج ازدهارهم في عهد أسرة "منغ" Ming (١٣٦٨-١٦٤٣م) ووصل بعضهم إلى أسمى المناصب بالدولة مثل قائد الأسطول المشهور "جينغ خو"، والضابط "شمس الدين عمر" الذي كان واليا على ولاية "يونان" وقد عرف باسم " السيد الأجل"[٧]، وسمحت السلطات الصينية لهم بحرية إنشاء المساجد و ممارسة الشعائر الدينية[٨]. وظل المسلمون[٩] على النحو السابق حتى جاء "المانشو" Manchu وأسسوا أسرة "الكانغ " Qing (١٦٤٤-١٩١٢م) وفى ظلها تبدلت أحوال المسلمين وعانوا كثيرًا، وقاموا بالعديد من الثورات طوال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وقد اتسمت المواجهات بالطابع الديني حتى قيام الثورة في عام ١٩١١ ثم إعلان الجمهورية في عام ١٩١٢.[١٠]

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الحديث عن مسلمي الصين لا يخلو من بعض الإشكالات النظرية، فعلى الصعيد الرسمي وبحسب السجلات الرسمية فان المسلمين كان يشار إليهم في عهد حكم الكانغ "بالهوى أو الهو هو" hui hiu وهو تطوير لمصطلح الهوهو huihe الذي كان سائدًا في ظل حكم التانغ (٦١٨-٩٠٧ م)، وكان يشار به عادة إلى الأيغور كجماعة عرقية من أسيا الوسطى واعتنقوا الإسلام، ولفظة "الهو" لا تحمل دلالة دينية فقط فالصينيون الذين اعتنقوا الإسلام في عهد الكانغ، نظروا لأنفسهم على أنهم أحفاد المسلمين الذين أقاموا في الصين منذ القرن السابع الميلادي، ومِنْ ثَمَّ فهم منتمون إلى أصول واحدة دفعت بهم الظروف إلى غرب الصين.[١١]

وقد تفاوتت تقديرات الباحثين حول عدد مسلمي الصين في أوائل القرن العشرين، فبالغت بعض التقديرات في هذا الصدد، و قدرت عددهم بنحو الخمسين مليونا، وزاد العدد إلى الثمانين مليونًا في

تقديرات أخرى، على حين رجح البعض أن العدد الإجمالي ربما لا يتجاوز العشرة ملايين نسمة.[١٢] وبحسب ما أورده "ليبمان" نقلاً عن الإحصاء الرسمي لعام ١٩٧٨ والذي نشر في عام ١٩٨٠ فإن إجمالي عدد مسلمي الصين على تنوع أصولهم العرقية هو ١٣٬١٥٢٬٢٠٠[١٣]، وفي دراسة ميدانية لبعض المدن الصينية أجريت في عام ٢٠٠٧ قدر البعض بأن إجمالي عدد المسلمين في الصين يصل إلى العشرين مليونًا وهنا تبدو الزيادة طبيعية مقارنة بالإحصاء الرسمي الأخير.[١٤]

وتعترف الصين اليوم بعشر قوميات إسلامية من إجمالي ست وخمسين قومية صينية، ولكن أكثر من خمسين بالمائة من المسلمين الصينيين هم من يطلق عليهم الهوى أو الخوى Hui، يليهم من حيث العدد الإويغور Uighur ذوى الأصول التركية ويمثلون نحو أربعين بالمائة، ثم قوميات أخرى أقل عددا مثل المانشو، المغول، والتبت[١٥]، ومنذ القرن الثاني عشر وحتى الحقبة الشيوعية استخدمت لفظة "الهوى" للإشارة إلى جميع المسلمين في الصين على اختلاف لغاتهم وأصولهم العرقية.[١٦]

ثانيًا: الإرهاصات الأولى للنهضة – القديم (Gidimu)

واجه المسلمون في الصين باعتبارهم أقلية العديد من العقبات، كانت في مقدمتها كيفية معرفة وممارسة شعائر الإسلام على نحو صحيح، لاسيما في ضوء عزلتهم النسبية وبعدهم عن ديار الإسلام، وندرة القائمين على تلقينهم صحيح الدين، وقد اضطروا إزاء ذلك إلى الاعتماد على التعليم المنزلي لأبنائهم، وربما بحكم البيئة المحيطة دمجوا بين معارفهم الإسلامية المتوارثة والتراث الصيني التقليدي، وجرت محاولات توفيقية بين مبادئ الإسلام والتقاليد الكنفوشية[١٧] خاصةً على المستوى الأخلاقي، وظهرت منذ منتصف القرن السابع عشر مجموعة فريدة من الكتابات لعدد من الدارسين المسلمين ذوى هوية كونفوشية، والتي عرفت باسم "كتاب أو تعاليم الهان" وكان من أبرزهم وانغ دايو Wang Daiyu (١٥٩٠-١٦٥٨م)، وهو أول مَنْ سعى لاستخدام المساجد كوسيلة للتعليم[١٨]، وأيضًا ما تشو Ma Zhu (١٦٣٩-١٧٠٩م) مؤلف كتاب "إرشاد الإسلام" في عشرة أجزاء[١٩] وكانت من أقدم أعمال تلك المجموعة كتاب "أصول الدين أو قواعد الدين الصحيح" الذي كتبه وانغ دايو وطبع في عام ١٦٤٣، وكانت على حد قول البعض أول تعبير للمسلمين الصينيين عن أنفسهم كمسلمين وصينيين معًا.[٢٠]

وقد تنوعت تلك الكتابات، واختص بعضها بعلوم الفقه والفلسفة والجغرافيا والتاريخ، إضافة إلى علوم اللغة العربية والفارسية[٢١]، وقد أطلق على هذا الاتجاه أو تلك النزعة التي سادت في مجموعة كتاب الهان Gedimu (أي - القديم)، وقد بدا أن تلك المحاولة التوفيقية لم تهدف إلى جذب القراء من الهان للتعرف على مبادئ الإسلام فحسب، وإنما هدفت في الوقت ذاته إلى إضفاء الشرعية على هوية المسلمين الصينيين المهددة بالضياع آنذاك[٢٢]، ولم تكن كتابات تلك الفترة تعبيرًا عن رؤية فردية من قبل القائمين عليها، بل كانت صادرة عن وعى لنخبة ثقافية كبيرة لها ثقلها ودورها الفعال على الصعيد الاجتماعي.[٢٣]

وقد استرعت مجموعة كتاب الهان نظر الأرشمندت " بلاديدوس Palladadius " (١٨١٨-١٨٧٨) رئيس البعثة التبشيرية الروسية في بكين الذي قضى وقتا طويلا في دراسة التراث الصيني، واعتبر أن تلك الكتابات قد ساهمت في حماية الإسلام في مواجهة نشاط البعثات التبشيرية آنذاك[٢٤]. كما شهدت تلك الفترة حضورًا ملحوظًا للطرق للصوفية التي أطلق عليها Menhuan -الأولياء أو القديسون) وقد أتت من آسيا الوسطى نحو شمال غرب الصين، وصارت مع مرور الوقت بمثابة مؤسسات قائمة بذاتها، وحظي زعماءها بالاحترام في المساجد وفى محل إقامتهم وكانوا على قدر من الثراء والسلطة، وربما لتنامي دورها وانتشارها كانت الصوفية موضع شك في كثير من الأحيان من جانب سلطات الكانغ التي أذكت الصراعات بين أتباع الطريقة الخفية والطريقة الجهرية، كما لم تكن الممارسات الصوفية محل رضا التيار السلفي البازغ لاحقًا.[٢٥]

وفي أواخر القرن التاسع عشر ظهر تيار جديد، أطلق عليه البعض المدرسة النصوصية ومؤسسها هو "ما ونفوا Ma Wanfu" من مقاطعة جانسو Gansu وقد ذهب لأداء مناسك الحج وتأثر بتعاليم الدعوة السلفية وبعد عودته في عام ١٨٩٢، كان متحمسا لفكرة عودة الإسلام إلى نقائه وجذوره الأولى ونبذ البدع، كما عرف أنصار هذا التيار بالإخوان وأهل السنة، وكانت آراؤهم ضد فكرة الاندماج في المجتمع الصيني، وضد ممارسات الصوفية، ومع الوقت تزايد

أنصار ذلك التيار عقب وفاة مؤسسه، لكنهم صاروا أكثر مرونة بعد قيام الجمهورية، فباتوا مؤيدين للاتجاه القومي النشط آنذاك، وأكثر قبولاً وانفتاحًا على فكرة الاندماج مع المجتمع الصيني.[٢٦]

وإلى جانب ما عرف بالإحياء القديم والمدرسة النصوصية، برز أيضًا اتجاه ثالث عرف بالتيار الحديث وقد بدأ مع نهاية عصر إمبراطورية الكانغ وبداية العهد الجمهوري، وتأثر بالحركة العلمانية والاتجاه القومي في تركيا والهند وبالتعليم الأوربي وعلماء الدين في العالم العربي وبالتعاليم الصينية القديمة، ودعوا إلى نشر مبادئ الإسلام بصورة تتناسب مع البيئة الصينية، وكان أنصار هذا الاتجاه في المدن الكبرى مؤيدين للاتجاه القومي ومدافعين عن ارتداء الزى الغربي والتعليم المدني.[٢٧] وفي عبارة موحية أجمل "ماوسنجتانغ" Ma Songting أهمية التيار الحديث بقوله "أن المسلمين الصينيين قد كانوا كثيرًا على مدار مائتي عام في ظل حكم الكانغ، وأثر ذلك على سلوكهم وممارستهم، وآن لهم أن يتنفسوا ويغيروا من الضعف الذي حل بهم، وكان هذا الاتجاه الحديث معنيا بالجوانب الروحية والاجتماعية معًا، وكانت قناعتة أن ما يجب تطبيقه هو روح القرآن الكريم وليس نصوصه الحرفية[٢٨].

في ضوء ما سبق يمكن القول بأن إرهاصات ما يمكن تسميته بالنهضة الإسلامية التي واكبت بداية الدولة القومية كانت لها جذورها، وربما كان صحيحا أنها قد عجزت عن تحقيق أهدافها كاملة، إلا أنها قد حافظت على هوية الأقلية المسلمة في الصين عبر سنوات طويلة في ظل ظروف بالغة السوء أحاطت بهم ممثلة في الاضطهاد الداخلي من قبل السلطة فضلا عن مخاطر التبشير الخارجي.

ثالثًا: بواعث النهضة

كان المناخ السياسي الجديد بعد إعلان الجمهورية مواتيا، وقد أعلن "صن يات سين" Sun Yat-se في عام ١٩١٣ أن "الهان والمانشو والتبت والمغول والمسلمين هم جميعًا أبناء جمهورية الصين التي لا تفرق بين الأجناس والأديان، ولكل مواطن حرية الاعتقاد ببوذا أو بعيسى أو بمحمد، إذ ليس للدولة دين رسمي، والديانة حرية واختيار، والحرية هي مجموع الحقوق المدنية لكل إنسان في شخصه وماله وشرفه وعقيدته وهو ما يحميه القانون".[٢٩]

وكان مثيرًا للانتباه آنذاك اجتماع صن يات سين Sun Yat-sen بالزعماء المسلمين عام ١٩١٢ وإشادته بشجاعتهم وتضحياتهم حيث أشار حرفيًا إلى أنه "بدون مشاركة المسلمين فإن الحركة القومية لن تحقق نجاحها"، وأضاف أيضًا أنه "بدون اتحاد المسلمين معنا فلن تكتمل المواجهة مع الإمبريالية"، وهكذا فإنه لأول مرة جعل صن يات سين من مشاركة المسلمين أمرا حتميا، وهو سعى بذلك ليس فقط لضمان تأييد المسلمين للنظام السياسي الجديد فحسب، بل أراد كذلك الاستعانة بهم عسكريًا في مواجهات محتملة في شمال غرب البلاد، وعلى الصعيد الخارجي ظلت رؤيته وإلى وفاته في عام ١٩٢٥ مبنية على وجوب انفتاح الصين وتعاونها مع كل الأمم الضعيفة في العالم على نفس القدر من المساواة، معولا في هذا الصدد على أن يكون مسلمي الصين همزة الصلة مع العالم الإسلامي.[٣٠]

وبطبيعة الحال أفضت المتغيرات السياسية الجديدة إلى زيادة الوعي الذاتي لدى الأقلية المسلمة في الصين، وإدراكها لحدود الواقع السياسي والاجتماعي المحيط بها، وقد أفاضت المصادر التاريخية من قبل في وصف معاناة المسلمين على مدار مائتي عام من الاضطهاد والتمييز في ظل حكومة المانشو فقتل الآلاف[٣١]، حتى أن بعض الأقاليم قد خلت تمامًا من المسلمين، وذهبت البقية الباقية إلى المنفى القسرى في أسيا الوسطى وغيرها، كما سادت المسلمين حالة من الضعف والانقسام وتراجع الدور الاجتماعي والرعوي للطرق الصوفية إلى حد كبير[٣٢]. كما أيقن مسلمو الصين أنهم ليسوا وحدهم اللذين يجابهون الأخطار والتحديات، وقد علموا بصورة أو بأخرى بأن سائر المسلمين في العالم الخارجي ليسوا بحال أفضل منهم، وأن المسلمين في الهند والعالم العربي يعانون الأمرين من السياسات والممارسات الاستعمارية في بلدانهم.[٣٣]

ولم يأت الوعي المكتسب لدى مسلمي الصين من فراغ، وإنما دفعوا ثمنا غاليا في سبيله، فقد كانت لهم قوتهم العسكرية، وكانت تحدوهم الرغبة في الحصول على قدر من الاستقلال الذاتي، وثاروا على ما حل بهم من اضطهاد، وخلال الفترة من عام ١٧٥٨ إلى عام ١٨٧٣ سجلت المصادر التاريخية نشوب خمس ثورات متتالية قاموا بها[٣٤]، إلا أن تلك المحاولات باءت بالفشل وأسفرت عن إبادة المسلمين في كثير من المقاطعات مثل جانسو ويونان[٣٥]، ومِنْ ثَمَّ لم يكن هناك مفرا من النزوع إلى الهدوء والاستكانة إزاء ما

واجهـوه مـن بطـش طـال المـدن والريـف ودور العبادة.[٣٦]

وكانـت مـن أهـم روافـد الـوعي الإسـلامي تجربـة الدراسة في اليابان التي استقطبت الكثير من الشباب الصيني للدراسة بهـا، وقـد ذهـب إليهـا ست وثلاثـون طالبا من مسلمي الصين لدراسة العلوم العسكرية والاقتصاد والعلوم السياسية والقانون والهندسة والطب والعلوم السياسية[٣٧]، واكتسب هؤلاء من خلال رحلـتهم وعيًـا بـالأحوال العامـة علـى الصـعيدين السياسي والاجتماعي، كما انتظم الطلاب المسلمون أنفسهم في عـدد من المنظمات والجمعيات منها جمعية التعليم العام في شرق أسيا ومنهـا جمعيـة الطلاب المسلمين في اليابان وأصدروا صحيفة كان لها عنوانـا لا تخفـى دلالتـه وهـو "يقظـة المسـلمين" Muslims Awake، ورغم أن تلك النشاطات لم يقدر لها الاستمرار طويلاً، فإن الخبرة المكتسبة والوعي بالذات كـان حـاضرًا وصار جـزءًا من أفق شخصيتهم[٣٨]، وقـد أضحى أولئك الطلاب فيما بعد جزءًا من تحالف صن يات سين Sun-Yat-Sen وشانج كاي شيك Chiang Kai Shek وبرهن ذلك التحالف على قدرة المسلمين على الانخراط ضمن النسيج السياسي والاجتماعي للصين الجديدة[٣٩]، لا سيما إدراكهم أن الظروف السياسة قد حملت لهـم فرصـة ذهبيـة للانـدماج والشراكة ضمن مكونات الدولة الجديدة[٤٠].

ومن الأهمية بمكان الإشارة في هـذا المقام إلى أن موقف مسلمي الصين لم يكن موحدًا إزاء قضية الانـدماج في المجتمـع الصـيني، فقـد سـادت النزعـة الانفصالية لـدى الـبعض خاصـة في إقلـيم سـيكيانغ Xinjiangالواقع تحت حكم المانشو من أسرة كانغ منذ عام ١٧٥٩، وقد أطلق على الإقليم سيكيانغ في عام ١٨٨٤ بمعنــى "الســيادة الجديــدة أو المســتعمرة الجديدة" حيث انـتماء الأغلبيـة المسلمة مـن السكان إلى الجـذور التركيـة (مـن سـكان الإقلـيم، الأويغـور- الكازاك – القرقيـز- المغـول- الـروس)، ومِـنْ ثَـمَّ فتحت تأثير فكرة الجامعة الإسلامية وأيضا القومية التركية سعوا إلى تأسيس دولة خاصة بهم ونجحوا في إقامة دولة تركستان الشرقية في نوفمبر عـام ١٩٣٣ كـما أن بعـض الـزعماء المسلمين مثـل الإمـام مـا ونفـو- Ma Wanfu كـان مـن المؤيـدين للانفصال وعـدم انـدماج المسلمين في المجتمع الصيني.

علـى أن الـدعوة للاتحـاد وانـدماج المسـلمين في المجتمع الصيني لاقت قبولاً كبيرًا، لـيس فقـط لـدى جماعـات الصـفوة فقـط بـل بـين مختلـف الطبقـات الاجتماعيـة الحضريـة والريفيـة، ولم يكـن ذلـك بفضـل الانتشار الواسع لتلك الدعوة عبر المنشورات الصحفية والخطـب في المسـاجد والجمعيـات، وإنمـا بفضـل العلاقـات السياسـية الوثيقـة لقيادتهـا مـع الـدوائر الحكومية العليا، ومِنْ ثَمَّ إمكانيـة القـدرة علـى التـأثير والتوجيه للسياسات الحكومية وكان ذلك أمرًا ملموسًا مـن الجميـع، ومِـنْ ثَـمَّ أصـبحت الـدعوة إلى أن يكـون المسلمون مـواطنين صـينيين لهـم حقـوق المواطنـة مثـل غـيرهم داخـل الأمـة الصـينية هـي الأكـثر رواجًـا وقبولاً بين مسلمي الصين.[٤١]

رابعًا: المشاركة السياسية والاجتماعية

كان قيام الثورة وإعلان النظـام الجمهـوري إيـذانا بمرحلـة جديـدة لمسـلمي الصـين، فكـان شـعار حمايـة الصين أو حماية الوطن "Baoguo" من أقوى الشعارات والعنــاصر الأيدلوجيــة للثــورة الصــينية في القــرن العشرين وتعاظمت الروح الوطنية بين مختلف الشرائح والفئات الاجتماعية، وصارت الروح القومية رابطة لتوحد الصينيين عـلى تنـوع مشاربهم، وبنهايـة عصرـ الكـانغ طفـت عـلى السـاحة مصـطلحات سياسـية واجتماعيـة جديدة كان لها زخمها مثـل الهويـة والدولـة القوميـة والوطنية والمواطنة وقد أوضـح صـن يـات-سـين (Sun yat-sen) ورفاقه أن الصـين ستشـمل كـل الجماعات أو "المانــذو" (Minzu) وهــو المصــطلح الــذي بــرز منــذ منتصف عـام ١٨٩٠ ولا يعنـى الأقليـة بـل الأغلبيـة وهـو مشـتق مـن الكلمـة اليابانيـة (Minzoku) والتـي تعنـى الشعب أو القوميـة، ولا يمكـن في هـذا الصدد إغفـال الباعث السـياسي وربمـا الأهـم لـدى صـن –يـات سـين ورفاقه وهو استعادة جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الكانغ لتكون ضمن حدود الدولة الجديدة.[٤٢]

من جهة أخرى أضحت الفكرة القومية جاذبـة لكثـير مـن القـادة المسـلمين فكتـب دنـغ تشـاويان Ding Zhuyuan وهــو صــحفي مسـلم أنــه " لــيس مهــما التساؤل عن ديانة الفرد بقدر ما يجب بـذل الجهـد في سـبيل الحفـاظ عـلى الـوطن"، كـما ثمـن المسـلمون الصينيون حرية العقيدة باعتبارها متضمنة أيضا لفكرة التسـامح إزاء الاخـتلاف مـع الآخـرين، و صـار المسلمون جزءا من تحالف ثورة الشمس، كما كانوا ضمن الشهداء الـذين ضـحوا قبـل اكـتمال نجـاح الثـورة بسـتة أشـهر واحتفلـوا مـع جميـع أقـرانهم بنجـاح الثـورة[٤٣]، ومـن جهتها أكدت الحكومات الصينية المتعاقبة (جمهوريـة الصـين – جمهوريـة الصـين الشـعبية) عـلى أن جميـع

الرعايا اللذين كانوا تحت حكم إمبراطورية الكانغ قد صاروا أعضاء متحدين في الصين الجديدة.[٤٤]

كما أشار دنغ إلى أن إعلان الجمهورية كان له زخم و أعطى المسلمين شعورا بالأهمية والمساواة وخاصة أنه تم الحديث عن معاناة المسلمين السابقة وأنهم مدعون للمشاركة في العهد الجديد[٤٥]، كما يجب التشديد في هذا الصدد على أن الرابطة الوطنية كانت لها الأولوية على غيرها لدى مسلمي الصين فلم تحظ فكرة الجامعة الإسلامية رغم بريقها وزخمها بتأييد لها خاصة في المدن الصينية الكبرى (باستثناء إقليم سيكيانج ذو الأغلبية التركية على نحو ما سبق)، وعندما زار وفد هندي مسلم الصين كانت هناك خلافات في الرؤى والأولويات بين الطرفين.[٤٦]

وتاريخيًا أوضحت المصادر أن "يعقوب بك" حاكم إقليم كاشغر الذي تقطنه الأغلبية المسلمة من الأويغور ذوي الجذور التركية، كانت له صلات بالدولة العثمانية حيث أرسل مندوبه "يعقوب خان "إلى إستانبول في أبريل عام ١٨٧٥ طلبًا للمساعدة في الثورة على الحكومة الصينية، وفي أغسطس من العام نفسه أصدر السلطان عبد العزيز (١٨٣٠-١٨٧٦) فرمانًا بمنح يعقوب بك لقب أمير، وأرسل إليه الراية السلطانية وثلاثة من الضباط الأتراك لتدريب جيشه، كما أرسل له أيضًا بعض الأسلحة، ورغم أنه كان مقررًا أن يظل الضباط الأتراك لمدة عامين إلا أنهم لم يستمروا طويلاً وعادوا بعد أن رفض السلطان إرسال من يحل محلهم.[٤٧]

وعند تولى السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٨) أرسل يعقوب بك مندوبا للتهنئة، ثم عاد وأرسل سفيره في عام ١٨٧٩ إلى إستانبول، الذي أعلن أن إقليم كاشغر قد رفع العلم العثماني وقبل بسيادة الدولة العثمانية وسلطتها وصار يخطب للسلطان العثماني في المساجد كما تم تداول العملة العثمانية، مضيفا أنه وفقا لذلك فإنه من العار قبول الدولة العثمانية ببقاء القوات الصينية، داعيًا إلى مواجهتها وطردها من الإقليم، ولكن الدعاوى السابقة لم تلق آذانا صاغية في بلاط السلطان وذهبت أدراج الرياح.[٤٨] ويبدو أن الصلات مع الدولة العثمانية خاصةً في عهد السلطان عبد الحميد الثاني قد ظلت قاصرة على الإطار الديني والثقافي فحسب من جانب بعض العلماء مثل عبد الرحمن ونج هارون Abd-ul-Rahman Wang Haoran (١٨٤٨-١٩١٨) الذي درس بالأزهر كما درس باستانبول، وذكر البعض أن السلطان جعله المفتي الأكبر لمسلمي الصين عند عودته إلى بكين وكان بصحبته اثنان من الأتراك أرسلهما السلطان هما :على رضا وحسن حافظ للوعظ والإرشاد.[٤٩]

ولعل ما سبق يفسر موقف مسلمي الصين الرافض لفكرة الجامعة الإسلامية مقارنة بغيرهم من الأقليات خاصة مسلمي الهند الذين رحبوا بالفكرة وتحمسوا لها، ولعل موقف مسلمي الصين قد نبع من رؤيتهم السياسية التي اتسمت بالواقعية، كما لم يخف عليهم من جهة أخرى واقع الضعف والانقسام السائد في العالم الإسلامي وعجز الدولة العثمانية عن مد يد المساعدة لهم رغم إعلانهم التبعية لها، ومِنْ ثَـمَّ لم يتحمسوا لفكرة الجامعة الإسلامية، ونظروا إليها على أنها مجرد تعبير سياسي لا يغير شيئًا من الواقع العملي المحيط بهم. ومن اللافت للانتباه رفع الزعماء البارزين لمسلمي الصين لشعار الوطنية باعتبارها جزءا من الإيمان، ولعل المهم في هذا السياق أنهم أسسوا بذلك للفكرة الوطنية على أرضية دينية كانت لها ثقلها بين جموع الرأي العام[٥٠]، وعلى الصعيد العملي لعب المسلمون دورا ملموسا خلال الغزو الياباني للصين عام ١٩٣٧ فاتحدوا للدفاع عن البلاد، وتجمع نحو ألف رجل منهم في الجنوب للدفاع عن البلاد، كما كونوا منظمتين اتجهت إحداهما إلى إقليم شونج كانغ والأخرى إلى جانسو لمقاومة الاحتلال[٥١] باعتبار أن الدفاع عن الوطن واجب على الجميع، ومما اشتهر في هذا الصدد أن مسلمي "الهوى" شكلوا ما سمى "بالجحافل الحديدية" بقيادة ضابط مسلم هو "مابن تشاى" الذى أظهر بسالة فائقة حتى استشهد وكان صموده هو ورفاقه سبب في فشل اليابان في السيطرة على إقليم سيكيانغ.[٥٢] ولعل من أهم الإسهامات السياسية لمسلمي الصين آنذاك تشكيل ما عرف باسم "الوفد الإسلامي لإنقاذ الصين" لمواجهة الدعاية اليابانية المضادة والنشطة في العالمين العربي والإسلامي، خاصةً وأن السلطات الموالية لليابان قد أرسلت بدورها وفدًا إسلاميًا إلى مكة لإثبات أن المسلمين في الصين ينعمون بالأمن والاستقرار في ظل السيادة اليابانية.[٥٣]

خامسًا: الدور الثقافي

لم يقتصر دور مسلمي الصين على الجوانب السياسية فحسب، بل كان لهم أيضا دور ثقافي ملحوظ فرضته ظروف المجتمع وحتمية السير في ركاب الدولة الحديثة[٥٤]، وكانت البدايات الأولى قد

تمثلت في السعي إلى تغيير الصورة النمطية السيئة الملتصقة بالمسلمين وشاع تداولها على الصعيدين الرسمي والشعبي، فكثيرًا ما وصفوا بأنهم مخادعون ومثيرون للعنف وكانت لرواج تلك المقولات آثارًا سلبية، مثل تشديد العقوبات على المسلمين ومعاقبتهم بقسوة حال إدانتهم بارتكاب جرائم مقارنة بغيرهم من الفئات الاجتماعية، و في عام ١٩٢٠ ظهرت مقالة صحفية لغير مسلم في إقليم نانج وصفت أجداد المسلمين بأنهم خنازير واعترض المسلمون على ذلك واضطرت السلطات إلى إيقاف الجريدة ومعاقبة الصحفي، ومِنْ ثَمَّ فإن سوء الفهم والنظرة السلبية تجاه المسلمين كانت هي الشغل الشاغل لكثير من الجمعيات والمنظمات الإسلامية التي ظهرت خلال تلك الفترة[٥٥].

ورأى البعض أن أفضل صيغة لتغيير تلك الصورة الذهنية، هو الانخراط في الدفاع عن الصين الضعيفة آنذاك في مواجهة الأطماع الاستعمارية من جانب اليابان خلال عقد الثلاثينيات، ونال ذلك استحسان الكثير من الكتاب والمثقفين الصينيين الذين دعوا باقي القوميات من غير الهان ليحذو حذو المسلمين في الاتحاد والوطنية[٥٦]، كما حرصت العديد من الجمعيات الإسلامية إلى جانب دورها الدعوي على حث أعضاءها باستمرار على عدم الدخول في جدل مع غيرهم، والتشديد على أن يظل المسلم باستمرار موضع احترام الآخرين.

وكان ظهور الجمعيات والمنظمات الطوعية على تنوعها من قبل مسلمي الصين سمة بارزة على مدار فترة الدراسة، ولعل دلالتها الواضحة للعيان هو الإدراك بأن مستجدات العصر تتطلب النهج الجماعي المنظم، وكانت جمعية التقدم التي تأسست في عام ١٩١٢، قد أوضحت أن هدفها الرئيس هو أن يكون مسلمو الصين على تنوع أصولهم العرقية صوتًا واحدًا، وكانت هذه أول جمعية مركزية في تاريخ مسلمي الصين وطلب من سكان إقليم سيكيانج ذوي الأصول التركية القبول بقيادة زعماء الجمعية في بكين وامتدت فروعها في كل المدن الصينية.[٥٧]

وربما كانت القضية الرئيسة التي كانت قاسمًا مشتركًا لمختلف تنظيمات فترة الدراسة هي الدعوة إلى إصلاح التعليم، والواقع أن الدعوة لإصلاح التعليم كانت رغبة عامة، وأحد خطوات التحديث الذي تبنته الصفوة الصينية منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وكان الدافع لذلك هو الرغبة في اللحاق بعلوم وتكنولوجيا الغرب، إضافة إلى فشل التعليم التقليدي المعتمد على التقاليد الكونفوشية التي انحصر دورها في مد الدولة بالبيروقراطية، وساعد على ذلك إلغاء النظام التعليمي القديم في عام ١٩٠٥، وكان ذلك هو المناخ العام الذي احتضن الإصلاح التعليمي لمسلمي الصين، ولعل أبرز ما فيه هو مشاركة المسلمين لنظرائهم من غير المسلمين نفس الرؤية، و قناعتهم أن إصلاح التعليم جزء من المشروع الرئيس لتحديث الصين[٥٨]، كما بات واضحا أن النظام السياسي الجديد بدوره قد عول على الإصلاح التعليمي كمدخل لتحقيق الأهداف القومية ومنها التقارب والاندماج مع المسلمين.[٥٩]

من جهة أخرى تركت تجربة الدراسة باليابان أثرا كبيرا على الدارسين المسلمين بها خاصة التعرف عن قرب على التجربة اليابانية ودور التعليم فيها، وعندما أصدروا مجلة "يقظة المسلمين" كانت خمسة من المقالات التسعة بها حول التعليم وأهميته، ومِنْ ثَمَّ يمكن القول بأن الدعوة لإصلاح التعليم قد تأثرت بعاملين هما الاتجاه القومي وبناء الدولة الحديثة في الصين من جهة، ثم الاتصال بالنزعات التجديدية في اليابان و العالم الإسلامي إضافة إلى انفتاح الصين تجاريًا على العالم الخارجي من جهة أخرى، وحمل كل ذلك في طياته فرصا للشباب للدراسة في أوربا والولايات المتحدة فضلا عن توثيق الصلة بالعالم الإسلامي.[٦٠]

وقد أسس عبد الرحمن ونج جمعية التقدم الإسلامية السابق الإشارة إليها في عام ١٩١٢[٦١]، وكان هدفها الرئيس تطوير المناهج الدراسية لاسيما اللغة العربية، ولم يكن الهدف قاصرا على مناهج الدراسات الإسلامية وحدها، وإنما تبنت الجمعية الدعوة للحاق بالحداثة ودمج المسلمين في المجتمع الصيني، كما كان من أهم أنشطتها نجاحها في عقد مؤتمر، عام دعت إليه الأئمة والقادة المسلمين من كافة أرجاء الصين لإعداد برنامج عمل مشترك في المستقبل، كما شغل اثنين من زعماء الجمعية رئاسة تحرير الصحيفة العربية بالصين وكانت من أكثر الصحف دعما للدولة القومية.[٦٢]

وفي عام ١٩٢٣ وصل عدد فروع جمعية التقدم إلى ثلاثة آلاف فرع وكانت ملصقاتها حاضرة دوما بالمساجد، وكانت الشعارات على المطبوعات تحمل علم الهوى وهو نفس علم الدولة العثمانية الهلال تتوسطه نجمة، ثم رفعت شعار الجمهورية دليل على

التحالف مع النظام وأصدرت مجلة شبه شهرية في بكين باسم " النور المحمدي"، إضافة إلى عقد العديد من الندوات والمحاضرات[٦٣] وكانت تلك الجمعيات تحصل على موافقة حكومية مسبقة حتى تستطيع العمل ومنها الإعلان عن الأعضاء وأهداف الجمعية[٦٤]. ومن الجمعيات الناشئة أيضًا جمعية "النقاء والحقيقة " The Pure and True Society التي أسسها زنغ دمنغ Zhang Deming في عام ١٩١٧، وتكرر الأمر في المدن الصينية المختلفة مثل نانج في عام ١٩١٢ وشنغهاي في عام ١٩٢٥ وحملت أسماء مختلفة، مثل "جمعية التعليم الإسلامية" "وجمعية الأدب الإسلامي"، وقد نجحت في إنشاء كلية للمعلمين وكلية للتعليم الأساسي، كما افتتحت مكتبة عامة لها، وسعت للحصول على منح دراسية لبعض الدارسين، وأصدرت مجلة شهرية باسم جمعية الأدب الإسلامي[٦٥].

وفي عام ١٩٢٩ تأسس في شنغهاي الجمعية الإسلامية العامة بواسطة هي شافو He Shafu ومايتانج Ma yitang بهدف جمع وتوحيد المسلمين من مختلف أرجاء البلاد، وتدريب الأئمة والتوسع في إنشاء المدارس وتطوير التعليم المهني ودعوة الشخصيات البارزة لإلقاء محاضرات عامة وإنشاء مستشفى لعلاج غير القادرين. وكان للطلاب مساهمتهم في هذا المجال فأسسوا جمعية الصداقة الإسلامية عام ١٩٢٨ في جامعة بكين، وقد ضمت نحو تسعة وثمانين رجلاً وسبع نساء من مختلف الأقاليم، وكان لها فروع بمختلف الكليات والمدارس الثانوية، وفي إقليم نانج أسست جمعية الشباب المسلم عام ١٩٣١، وقد سعت إلى توحيد الطلاب المسلمين والانخراط في الخدمة العامة والتواصل مع المسلمين في الخارج[٦٦].

وكان من الفعاليات المهمة آنذاك المؤتمر العام الذي دعت إليه الجمعية الإسلامية العامة عام ١٩٢٩ للقادة البارزين من مختلف الأقاليم الصينية وكان له صدى واسع على المستوى القومي، وهكذا فإن المنظمات والجمعيات الطوعية التي شهدتها فترة الدراسة جمعت بين الجوانب الدينية والاجتماعية، وقامت بدور كبير في إصلاح التعليم بعد أن تجاهل الكثير من أبناء الأقلية المسلمة التعليم الحكومي واتجهوا إلى العمل الحرفي[٦٧]، فكانت المبادرة إلى إنشاء مدارس على النهج الحديث بالتعاون مع الدولة في تمويلها، مثل مدرسة شينجغادا في بكين والمدرسة الإسلامية في شنغهاي ومينغادا في كون منغ[٦٨].

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن العهد الجمهوري قد شهد نشاطا متزايدا في حركة الترجمة والنشر، وقد حرص الكثيرون من مسلمي الصين على اصطحاب العديد من الكتابات العربية والفارسية في طريق عودتهم بعد أداء مناسك الحج، حيث جرى نسخها والاعتماد عليها كوسيلة للدراسة، ومع ازدياد الصلة بالعالم العربي لاسيما الدراسة بالأزهر ووصول الطباعة الحديثة إلى الصين[٦٩]، ترجمت الكثير من الأعمال العربية إلى الصينية مثل كتاب "حقيقة الديانة الإسلامية " للشيخ حسين الجسر (١٨٤٥-١٩٠٩)، و"رسالة التوحيد" للشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) وقام بترجمتهما محمد مكين (١٩٠٦-١٩٧٨) أحد الدارسين بالأزهر كما ترجم أيضًا بعض الأعمال الصينية إلى العربية مثل " كتاب الحوار لكونفوشيوس وكتاب " الأمثال والحكم الصينية"، ووجدت الكثير من المختصرات والكتيبات الصغيرة رواجا مثل قصص الأنبياء وسيرة الرسول وتاريخ الكعبة[٧٠].

وكان التوجه العام لأغلب الدوريات هو الحديث عن جوانب من التاريخ الإسلامي ونتفًا عن الأحوال المعاصرة للعالم الإسلامي، وعادة ما حملت أغلفة المجلات العناوين باللغة العربية والصينية، ومن أبرزها صوت المسلم اليومية وصوت محمد والشاب المسلم الشهرية ونور الإسلام والثقافة الإسلامية[٧١]، وكثيرًا ما ترجمت بعض المقالات الخاصة بمجلة المنار والفتح في بعض المجلات مثل نظارة الهلال[٧٢]، وكانت مجلة "الصين الإسلامية" من أكثر المطبوعات تعبيرًا عن المسلمين، وعرفت بوقوفها خلف الاتجاه القومي واستمرت من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٤٨ وكانت تمول من التبرعات الخاصة[٧٣].

سادسًا: العلاقات مع العالم الإسلامي

لم تكن صلة مسلمي الصين منقطعة بالعالم الإسلامي فقوافل التجارة كانت تأتي إلى الصين من الهند وأفغانستان والعالم العربي، كما أن الدولة العثمانية أرسلت البعثات التعليمية لإنشاء مدارس لتعليم العربية والتركية، ورغم الحظر الذي فرض على السفر لأداء مناسك الحج في فترات سابقة، إلا أنه زال في أواخر عهد أسرة الكانغ وأصبح متاحًا أمام مسلمي الصين، وصار الحج المناسبة الأهم للتواصل مع العالم الإسلامي والتعرف على مختلف الاتجاهات السياسية والاجتماعية السائدة[٧٤].

وكان عبد الرحمن ونج هارون أحد أهم الدراسيين في القرن العشرين وعقب أدائه لمناسك الحج طاف بالعالم العربي وزار تركيا، وعاد متأثرا بحركات الحداثة في العالم العربي ومتحمسًا لها، وكانت آرائه موجية لجيل تال من الدارسين منهم ماسونتغ Ma Songting الذي أسس مدرسة شيغندا Chengda Normal school عام ١٩٢٥، ومنهم ونج جنغتشاي Wang Jingzhai الذي ترك تركيا واتجه للدراسة بالأزهر لمدة عامين، وكان له الفضل في ترجمة القرآن الكريم في أواخر العشرينيات وأيضا صن شينغ Sun Sheng-Wu وماجين Ma Jain و فوتانغ T'ung-Hsein Fu وشان شاي Chin Chi-t'ang، وهم من رموز الدعوة إلى التحديث، وكانت خلاصة رؤيتهم أنه لن يتم إنقاذ المسلمين إلا إذا كانوا قادرين على مجابهة تحديات العصر[٧٥].

وعلى نفس المنوال كان الحاج جلال الدين دشينج Hajji Jelaluddin He Decheng، وهو أحد الدارسين المعروفين تعلم في مصر والهند وكان يعرف العربية والفارسية والأوردو والإنجليزية، وعقب عودته أسس جمعية الأدب، وشجعت الجمعية على دراسات القرآن الكريم وعلم الحديث، كما سعت لتشجيع ترجمة القرآن الكريم وتبادل الزيارات مع الدول الإسلامية وكان للمسلمين الهنود نشاطًا ملحوظًا فيها[٧٦]. وكان انفتاح النظام الجديد على العالم الخارجي محط اهتمام، ففي عام ١٩١٢ ظهرت مقالة بمجلة National Review الصادرة بشنغهاي أشارت فيه إلى أن القوى الأوربية تلاحظ نمو العلاقات الودية بين تركيا وشرق أسيا، وهى ليست قاصرة على الكتلة الإسلامية فقط، بل شملت أيضًا أتباع البوذية والكنفوشية لأن الصين بحاجة بعد العزلة إلى بناء تحالف قوى في مواجهة الأطماع الغربية[٧٧].

وفي عام ١٩٣٢ كان وفد من الطلاب المسلمين في طريقهم إلى مصر للدراسة في الأزهر وكان في وداعهم ونج شنغان Zhengyan Wang وزير الخارجية ومعه هونج شيغى Huang Shijie وزير التعليم، وحثوا الطلاب على أن يكونوا سفراء وممثلين لجمهورية الصين في إقامة علاقات دبلوماسية مع مصر والعالم العربي وإبراز الأطماع اليابانية تجاه الصين، وبدورها غطت الصحافة المصرية نبأ وصول الوفد الدراسي إلى ميناء بورسعيد ولقائهم بالملك فؤاد الأول، كما أن السلطات الصينية استقطبت لاحقًا هؤلاء الدارسين للعمل بالقسم العربي بوزارة الخارجية الصينية[٧٨].

وكان التوجه العام لأغلب الدوريات هو الحديث عن جوانب من التاريخ الإسلامي ونتفًا عن الأحوال المعاصرة للعالم الإسلامي، وعادةً ما حملت أغلفة المجلات العناوين باللغة العربية والصينية، ومن أبرزها صوت المسلم اليومية وصوت محمد والشاب المسلم الشهرية ونور الإسلام والثقافة الإسلامية[٧٩]، وكثيرًا ما ترجمت بعض المقالات الخاصة بمجلة المنار والفتح في بعض المجلات مثل نظارة الهلال[٨٠]، وكانت مجلة "الصين الإسلامية" من أكثر المطبوعات تعبيرًا عن المسلمين، وعرفت بوقوفها خلف الاتجاه القومي واستمرت من عام ١٩٢٨ إلى عام ١٩٤٨ وكانت تمول من التبرعات الخاصة[٨١]. ومن الدوريات اللافتة للانتباه أيضًا "نور الإسلام " الصادرة عام ١٩٢٤ وكانت بلغات ثلاثة الصينية واليابانية والإنجليزية وقد أصدرها ساكوما تيجرو Sakuma Teijiro وهو ياباني اعتنق الإسلام، وكانت رسالتها هي الدعوة لتوحيد المسلمين في الصين والوقوف في وجه الأطماع الروسية[٨٢].

وقد نشر محمد مكين أحد أعضاء البعثة الدراسية بالأزهر كتابا في عام ١٩٣٤ صدر عن مطبعة الفتح بعنوان "نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين وأحوال المسلمين فيها" وهو عبارة عن عدة محاضرات ألقاها مكين في جمعية التعارف الإسلامية بالقاهرة، و من بين جهوده المهمة إنجاز قاموس عربي – صيني، وترجمته للقرآن الكريم التي نالت انتشارًا وذيوعًا، وكان له الفضل في إنشاء قسم اللغة العربية في جامعة بكين[٨٣]، كما وقد أوصى مكين لاحقًا بضرورة استمرار العلاقات الثقافية مع العالم العربي، لا سيما الدراسة في القاهرة[٨٤]. وعلى نفس الخطى أصدر محمد تواضع (١٩٠٢-١٩٥٨) رئيس البعثة الصينية بالأزهر كتابه بالعربية "الصين والإسلام" في عام ١٩٤٥[٨٥]، كما سجل يومياته عن مصر عقب عودته عام ١٩٤٧ بعنوان "تسع سنوات في مصر" وصدرت في عام ١٩٥١، وكان ما يميز الوفد الصيني أنهم درسوا إلى جانب مناهج الأزهر دراسات أخرى، مثل اللغة الإنجليزية والفرنسية والرياضيات والتاريخ ومِنْ ثَمَّ فان دعوتهم لتحديث التعليم دارت في فلك الاتجاه القومي السائد آنذاك[٨٦].

وفي رأى البعض أن الدراسة بالأزهر قد عكست بحق الرغبة الدفينة في التواصل مع العالم الإسلامي في المقام الأول، فقد لجأ مسلمو الصين بحكم وطأة

شعورهم بالاغتراب التاريخي والبعد الجغرافي إلى إعادة إنتاج أسطورة نسبهم إلى الجذور العربية وأنهم من نسل الصحابة، والآن سنحت الفرصة لهم لتواصل حقيقي في القرن العشرين بدار الإسلام[٨٧].

وتجدر الإشارة إلى أن البعد الديني قد تم توظيفه سياسيا في الصراع الصيني الياباني، فمن جهتها سعت اليابان إلى استقطاب مسلمي الصين إلى جانبها منذ وقت مبكر، فمنذ أواخر القرن التاسع عشر نشطت بعض التيارات القومية اليابانية ومنها جمعية اليقظة الأسيوية Asian Reawakening Society وجمعية التنين الأسود The Black Dragon Society وقد نجحتا في جذب بعض المؤيدين لها من مسلمي الصين بعد رفع شعار الجامعة الأسيوية Pan- Asian بهدف اتحاد آسيا تحت زعامة اليابان وكان ذلك الاتجاه قويا منذ قيام الثورة الروسية في عام ١٩١٧، كما بذلت السلطات اليابانية جهودا حثيثة منذ عام ١٩٣٠ لدعم استراتيجيتها السياسية والعسكرية تجاه الصين وباقي آسيا، ومنها حث المسلمين في اليابان على التواصل والتعاون مع مسلمي الصين، كما دعمت اليابان قيام دولة إسلامية في شمال غرب الصين (على غرار نموذج دولة المانشو Manchu State) تقودها حكومة موالية لليابان، وسكانها من مسلمي الهوى والأويجور وتمتد حدودها من حوض خليج التاريم Tarim إلى سهول نانغسيا Ningxia الخصبة لتكون بذلك منطقة عازلة Buffer Zone بين الاتحاد السوفيتي والصين، كما أنها ستكون أداة في يدها لتقسيم الصين في المستقبل[٨٨].

وكانت ردة فعل السلطات الصينية حيال ذلك هو التركيز من خلال الدعاية والمنشورات في المدارس والجامعات على أن مسلمي الصين ليسوا قومية مستقلة بذاتها، وأنهم منتمون بالأساس إلى قومية الهان لكنهم مسلمون، كما شكلت لجنة لمتابعة الشئون الدينية ومراقبة الأقليات عن قرب خاصة في إقليمي سيكيانج ومنشوريا[٨٩]. كما لجأ أنصار الاتجاه القومي في الصين بدورهم إلى الزج بالورقة الإسلامية خلال الصراع مع اليابان، وبرزت الدعوات إلى الدفاع عن الوطن وحرص بعض الأئمة مثل ونج جنغ على الاستعانة بالمأثورات الدينية المتواترة في المقالات الصحفية وخطب الجمعة، كما لا يمكن في هذا الصدد إغفال دور باى شونغ Bai Chongxi الجنرال المسلم البارز في حكومة كانج كاى شيك[٩٠].

وعلى الصعيد السياسي اقترح رجل الأعمال المسلم ما تانغ Ma Tianying إرسال وفد إلى الشرق الأوسط لجذب تأييد العالم الإسلامي وتمت الموافقة فورا على الاقتراح[٩١] فكانت جولة الوفد الصيني بين الأقطار الإسلامية، وقبيل مغادرتهم الصين أعلن الوفد في بيان له أن "المسلمين أحد المكونات الرئيسة في الأمة الصينية"، وفى بيان أخر أشار إلى أن "مسلمي الصين لن يخترقوا من قبل الأعداء (اليابان) كما حدث من جانب قوميات أخرى".

وكان الوفد الإسلامي قد غادر الصين في ١٠ يناير عام ١٩٣٨ ووصل إلى مصر في ٧ فبراير عام ١٩٣٨ وسعى الأعضاء الخمسة من الوفد إلى حشد التأييد والدعم من الدول الإسلامية تجاه الأطماع اليابانية، وكانت الرؤية السياسية التي ارتكز عليها الوفد قد اعتمدت على جانبين، أولهما هو الحصول على تأييد الدول التي مازالت تعانى من الاستعمار مثل مصر والهند، باعتبار أن الصين قد صارت مماثلة لهم بعد الغزو الياباني لها، ومِنْ ثَمَّ فهم جميعا شركاء بوصفهم ضحايا الاستعمار، ويجب عليهم التعاون للتخلص من هيمنته، أما الجانب الثاني فهو السعي للحصول على الدعم الديني والسياسي من خلال مقابلة كبار الساسة والأئمة، حيث صورت المقاومة الصينية على أنها تمثل الإسلام في مواجهة الكفر، وأجرى الوفد لقاءات مكثفة مع علماء الأزهر وأسسوا جمعية الثقافة المصرية الصينية.

ومن الأهمية بمكان الإشارة إلى أن الوفد الصيني قد انتقل من القاهرة إلى مكة خلال موسم الحج، والتقى بمبادرة منه ببعض زعماء الأويغور الذين تركوا إقليم سيكيانج بعد فشل ثورتهم، واتجه بعضهم إلى روسيا واتجه آخرون إلى العالم العربي، وأقام بعضهم برعاية السعودية في مكة واعتبرت البعثة نفسها وسيطا بين الحكومة الصينية ومسلمي الأويغور، وكان بعض أعضاء الوفد مثل ونج زنغشان Wang Zengshan قد حاول إقناع زعماء الأويغور في مكة بحسن نوايا السلطات الصينية تجاه إقليم سيكيانج والوعد بمنحهم حكما ذاتيا وتحسين أحوالهم المعيشية.

على أن الأويغور ومسلمي إقليم سيكيانج من الأتراك لم يشاطروا الأغلبية الصينية ثقافتها، ولم تربطهم روابط سياسية واقتصادية مع السلطات الصينية، والواقع أن الكثيرين منهم وجدوا في الوعود اليابانية لهم بالحكم الذاتي والمساعدات الاقتصادية

عرضا أفضل جاذبية، وقد قدم أحدهم للبعثة الصينية صحيفة باللغة الأويغورية طبعت في طوكيو، وحملت في صدر صفحتها صورة لأعلام اليابان وإيطاليا وألمانيا وشعار بداخله الشمس والقمر، وأضاف أن الشمس تمثل اليابان والقمر العالم الإسلامي، وأن تحالفا لمواجهة الشيوعية بقيادة اليابان هو الأمل الحقيقي لمسلمي الصين، ومِنْ ثَمَّ فان الحوار السابق قد أوضح أن المسلمين الصينيين وان كانوا يشاطرون الأويغور في العقيدة الدينية، إلا أنهم اعتبروا أن بناء الصين الحديثة لا يتم إلا باتحاد جميع سكانها على تنوع أصولهم.

وفى طريق عودته إلى الصين مر الوفد الإسلامي بسريلانكا وبرونای وسنغافورة، بعد رحلة استمرت عاما وكتبوا تقريرًا عن مهمتهم ولكن عند طبعه بادرت السلطات اليابانية بتدمير المطبعة وحرق التقرير، وظل الأمر إلى عام ١٩٤٣ عندما نشرت طبعة أخرى من التقرير، ومِنْ ثَمَّ فقد وضح على المستوى السياسي موقف مسلمي الصين ونظرتهم لأنفسهم كمسلمين جمعوا بين هويتهم الدينية والسياسية في آن واحد.(٩٢)

خاتمةٌ

كان المناخ السياسي بعد ثورة عام ١٩١١ ثم قيام الدولة القومية مواتيًا لمسلمي الصين، واستصحب معه تساؤلات حول المواطنة والشراكة والاندماج بعد سنوات طويلة من المعاناة والقهر، وجاء وعي مسلمي الصين متناسبا مع حجم التحديات التي مروا بها، فامسكوا بتلابيب تلك اللحظة التاريخية الفارقة لاستعادة صحوتهم مجددًا. والواقع أن فترة الدراسة كانت بالنسبة لمسلمي الصين بارقة أمل وفرصة لالتقاط الأنفاس والنهوض من الكبوة فتزايدت مدارسهم ومعاهدهم(٩٣)، وطوروا مناهج الدراسة بصورة عصرية، وزادت صلتهم بالعالم الإسلامي، واستطاعوا التعبير عن أنفسهم دون خوف أو وجل، وكان الاعتراف السياسي بهم كأحد مكونات الأمة مكسبًا كبيرًا لهم دون ريب.

صحيح أن البعض قد أبدى تخوفه وشكوكه في الماضي تجاه فكرة الاندماج الاجتماعي، إلا أن الأغلبية بدت متحمسة، وعلى قناعة بأن يكون الإسلام جزء من الصين، وفي المقابل كان هناك اعتراف بالإسهام التاريخي والحضاري للمسلمين، خاصةً دورهم الوطني المشهود في الدفاع عن البلاد(٩٤). وقد تباينت الآراء حول هوية مسلمي الصين في التحليل الأخير فرأى البعض أنهم استطاعوا التوافق مع التاريخ والتقاليد الصينية، وهم في الوقت ذاته احتفظوا لأنفسهم بمسافة فليسوا مندمجين في المجتمع الصيني إلى حد الذوبان، كما أنهم ليسوا بعيدون عنه بحكم ممارستهم اليومية، وذهب البعض إلى أن مسلمي الصين ظلوا رافضين تمامًا للتقاليد الكنفوشية، واصفًا إياهم بالعنف والعدوانية، واعتبر آخرين وربما كان ذلك هو الأقرب إلى الواقع أن مسلمي الصين قد نجحوا كأقلية في الحفاظ على هويتهم الدينية والتكيف مع التقاليد الصينية، ولم يتسببوا في مشكلات داخلية وأن تاريخهم هو نموذج للتنوع فهم ببساطة صينون ومسلمون معًا دون تعارض(٩٥)، وقصارى القول أن فترة الدراسة شهدت دورًا متناميًا لمسلمي الصين سياسيًا واجتماعيًا وكسرت حلقة العزلة والاغتراب الجغرافي والتاريخي لهم وصارت لهم جذور قوية في الداخل وتواصل ناجح مع العالم الإسلامي في الخارج.

الهَوامِشُ:

(١) لوثروب ستودارد، **حاضر العالم الإسلامي**، ترجمة عجاج نويهض، تحقيق، شكيب أرسلان، المجلد الأول، ج٢- الطبعة الرابعة، (بيروت، ١٩٧٣، دار الفكر للطباعة والنشر)، ص ٢١٩.

(٢) سيدة إسماعيل كاشف، "**علاقة الصين بديار الإسلام**"، مجلة كلية الآثار، جامعة القاهرة، العدد الأول، (القاهرة، ١٩٧٥) ص١٢٧-١٢٨، كرم حلمي فرحات، "**دخول الإسلام الصين وعلاقتها بمصر في العصر الإسلامي**"، د .ت، ص ١٣٨-١٣٩ ، لوثروب ستودارد، ص ٢٢٣-٢٢٤.

(٣) كان الصينيون يطلقون على العرب كلمة "تاشى" وقد تكون محرفة عن العربية تاجر لأن معظم العرب اللذين دخلوا الصين في البداية كانوا تجارا، وربما كانت مأخوذة من كلمة "تازى" الفارسية التي أطلقها الفرس على العرب، بدر الدين و.ل.حي، **تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر**، بيروت، دار الإنشاء، ١٣٩٤ هـ ،ص ١٦، كاشف، ص،١٤١، فهمى هويدى، **الإسلام في الصين**، سلسلة عالم المعرفة ٤٣، (الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،١٩٨١)، ص٢٩، ٤٢، وراجع وصف الإدريسي لمدينة خانقو التجارية في، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج١، الطبعة الأولى (بيروت، عالم الكتب، ١٩٨٩)، ص ٩٧.

(٤) راجع: زكى محمد حسن، **الصين وفنون الإسلام**، القاهرة، ١٩٤١، ص ١٥.

(5) Jonathan N Lipman,"Hui,Hui:An ethno history of The Chinese-Speaking Muslims", Journal of South Asian and Middle eastern studies,Vol,X1.No.1&2.1987.pp.115-116.

وراجع أيضًا:

Kaveh Louis Hemmat,A Chinese System For An Ottoman State; The Frontier, The Millennium, and Ming Bureaucracy In Khatayi's Book Of China, Chicago, Illinois, 2014, pp,19-20.

(٦) يونس عبد الله ماتشنغ بين الصيني، "**الإسلام في الصين، رؤية موضوعية واقعية**"، الإسلام في أسيا، العدد الخاص الأول،٢٠١١، ص ١٣، فرحات، ص١٤٢.

(٧) حول سيرة السيد الأجل وأحفاده، راجع: هويدى، ص ٥٢-٥٥، وكذلك:

Alexander Blair Stewart, Ways To Be Hui: An Ethno-Historic Account Contentious Identity Construction Among The Hui Islamic Minority Nationality of China, University of California, 2009, p,29.

(٨) صبحي جميل، "**المسلمون في الصين**"، مجلة كلية الآداب، جامعة الشارقة، العدد (١٠)، د.ت ص ٢٠٤-٢٠٥، وقد شيد أول مسجد في مدينة كانتون في جنوب الصين في القرن الأول الهجري، راجع: هويدي، ص ٤٨-٤٩، توماس و.أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، **بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية**، ترجمة، حسن إبراهيم حسن وآخرون، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة ١٩٧١)، ص ٣٣٥.

(٩) الجدير بالذكر أن المسلمين في الصين قد انحدروا من قوميات شتى هي، الهوى، الويغور، القازاق، القرغيز، التتار، الأوزبك، الطاجيك، دونغشيانغ، سالار، باو آن، راجع: يونس عبد الله الصيني، ص١١-١٢.

(١٠) هويدى، ص ٧١-٧٢، لوثروب ستودارد، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(11) Shaodan Zhang, Chinese Muslims In The Qing Empire: Public Culture, Identities, And Law, (1644-1911), University of Illinois, 2015, Pp.,9-11.

(12) Yufeng Mao, A Muslim Vision for The Chinese Nation: Chinese Pilgrimage Missions to Mecca During World War II, The Journal of Asian Studies, Vol.70.N.2.(May).2011.p.380.

وراجع، لوثروب ستودارد، مرجع سابق، ص٢٢٠-٢٢١.

(13) Jonathan N Lipman, Op,Cit.p,114.

(14) Ahmad,Atif Ahmad,Chinese Muslims in Taipei, Nanjing and Shanghai,Chinese World: Multiple Temporalities and Transformations,Vol,18, Spring, 2007.p.175

(15) Ibid,p,176 .

الجدير بالذكر أن الإويغور هم بوابة الصين إلى أسيا الوسطى، وكانت الصين سوقا تجارية واسعة لهم لا سيما تجارة القمح والخيول، وحتى بعد غزو الكانغ لهم عام ١٧٥٩ فإنهم عملوا كوكلاء تجاريين وجامعي ضرائب لهم وحققوا من وراء ذلك ثروة طائلة، راجع:

Kwangmin Kim, Saintly Brokers; Uyghur Muslims,Trade,and The Making of Qing Central Aisa, 1696-1814, University of California, 2008, pp,293-294.

كما أشارت المصادر الصينية إلى أن دولة الإيغور قد حلت محل دولة الأتراك الغز في منغوليا منذ عام ٧٤٥م، راجع: و.بارتولد، **تاريخ الترك في أسيا الوسطى**، ترجمة: أحمد السعيد سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٦، ص٦٢-٦٣.

(16) Lipman.Op,Cit.p.112, Also, Ayesha Qurrat Ul Ain, Everyday Life of A Chinese Muslim: Between Religious Retention and Material Acculturation, Journal for The Study of Religion and Ideologies, Vol, 14, (Spring,2015), p,210.

عند إعلان الجمهورية عام ١٩١٢ اعتبر القوميون أن جمهورية الصين مكونة من خمس قوميات، ثم زادت إلى واحد وأربعين قومية عام ١٩٠٣ وأيضًا إلى ثلاث وخمسين عام ١٩٦٤ ثم استقرت إلى ست وخمسين قومية عام ١٩٨٢ وراجع:

Alexander Blair Stewart,pp.7-8.

(١٧) الكنفوشية نسبة إلى كنفوشيوس Confucius (٥٥١-٤٧٩ ق.م) واسمه الأصلي "كونغ تشيو" Kong Qui وقد انحدر من أسرة ارستقراطية ودرس في شبابه المراسم والطقوس على أيدي المؤرخين الملكيين، وتقلد العديد من المناصب منها وزيرا للعدل في مملكة "لو"، وفي أواخر حياته عكف على دراسة الكلاسيكيات التاريخية، ويُعَدّ كتاب

"الحوار" أو أقوال كونفوشيوس سجلاً لأعماله وتعليقاته التي جمعها تلاميذه عقب وفاته، وظل يُنظر إليه على أنه المعلم والمفكر صاحب المعرفة الغزيرة وتركت أفكاره أثرا بالغا على المجتمع الصيني ، راجع: خه جاو وو وآخرين، **تاريخ تطور الفكر الصيني**، ترجمة/ عبد العزيز حمدي عبد العزيز، الطبعة الأولى (القاهرة ،المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٤)، ص٤٩-٥٠.

(١٨) هويدى، ص، ٦٤-٦٥، يونس عبد الله، ص ١٥، وقد أشار البعض إلى وجود مساجد خاصة بالنساء، وراجع

Alexander Blair Stewart, pp, 16-17.

(١٩) (19) كان يطلق على الاتجاه السائد في مجموعة كتاب الهان قديم Gedimu (القديم) وهم من أهل السنة وعلى مذهب أبو حنيفة، راجع:

Petersen Kristian, The Heart of The Islamic-Chinese Dialogue Wang Daiyu and The Creation of The Chinese Muslim Discourse, Colorado University,MA.2006,p.29.

(20) Ibid,pp, 14-15.

ظل اعتقاد مسلمي الصين خاصة الهوى بأنهم انحدروا من أصول عربية، وأنهم أحفاد المسلمين اللذين وفدوا على الصين وتزوجوا من الصينيات منذ زمن بعيد وظلت تلك القناعة راسخة ضمن هويتهم، راجع:

Ayesha Qurrat Ul Ain,p,215.

(21) Ziv Ben Dor Benite,"Nine years in Egypt" :Al-Azhar University and The Arabization of Chinese Islam,Hagar,Summer.2008.8,1,p.24.

وراجع أيضًا، صبحي جميل، ص ٢٢١-٢٢٢.

(22) Green, Sandra Aili ,Building Solidarity: The Process for Metropolitan Chinese Muslims, 1912-1949. Arizona University.1999.p.39.

(23) Petersen Kristian, Op, Cit ,p.30.

(24) Ziv Ben Door Benite, Op, Cit, p,33.

وراجع أيضًا، توماس و.أرنولد، ص ٣٤٧.

(٢٥) كانت الطرق الصوفية الرئيسة في الصين هي الخفية، والجهرية، والقادرية، والكبراوية، راجع:

Alexander Blair Stewart, p.18, Green, Sandra Aili, p.41.

الجدير بالذكر أن الصوفية قد لعبت دورًا مهمًا في نشر الإسلام في جميع ربوع أسيا الوسطى، وقد أشار ابن بطوطة إلى نشاط الزوايا الصوفية في الصين خلال رحلته في النصف الأول من القرن الثامن الهجري، راجع: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، ج٢، ص، ٢٠، لوثروب ستودارد، ص٢٣٦.

(26) Green, Sandra Aili, pp.41-42, Alexander Blair Stewart,pp,20-21.

(27) Ibid, pp, 43-44.

(28) Ibid,p.44.

(٢٩) هويدى، ص، ٨٨، وكان أول علم لجمهورية الصين قد تضمن خمسة نجوم رمزا للقوميات الخمسة، ورمز اللون الأحمر إلى قومية الهان، والأصفر للمانشو، والأسود للتبت، والأزرق للمغول، وأخيرًا الأبيض للهوى أي المسلمين، وفى عام ١٩٣٩ أعلن كاى شيك أن الهان والهوى قومية واحدة إلا أن الهوى اعتنقوا الإسلام، راجع:

Alexander Blair Stewart.Op,Cit,p,53.

وفى تقدير البعض فإن صن يات في رؤيته القومية قد تأثر بالإمبراطور كالونغ (١٧٣٦-١٧٩٥) الذي سبقه بنحو مائتين عام واعتبر أنه يحكم خمس قوميات هم، المانشو والتبت والمغول والأويغور والصينيين، وكان مدركا بحاسته الجيوبولتيكية بالنزعات الاستقلالية الكامنة لدى التبت والمغول والمسلمين في أن يكون لهم دولاً مستقلة، راجع:

Rawski,Evelyn S,Presidential Address: Reenvisioning The Qing: The Significance of The Qing Period in The Chinese History, The Journal of Asian Studies ,(Nov 1996),pp,837-838.

(30) Alexander Blair Stewart, Op, Cit, p,٥٣.

(٣١) هويدى، مرجع سابق، ص، ٧١، صبحي جميل، مرجع سابق، ص ٢٢٤-٢٢٥.

(32) Henning, Stefan, Nowhere Beyond Good and Evil: Muslim Activism in China as Ethical Critique, 1929 to 2002 ,Michigan University.2005,p.37.

(33) Green ,Sandra Aili ,Op,Cit ,p.58.

(٣٤) صبحي جميل، ص، ٢٢٤-٢٢٥، وعن المزيد من تلك الثورات، راجع: هويدى، ص، ٧٨-٧٩.

(35) Henning, Stefan, Op,Cit ,p.254.

وقد ألقت وجهة النظر الرسمية للهان وبعض المؤرخين الغربيين المسئولية على المسلمين لقيام تلك الثورات واتهمتهم بالتمرد والعنف، راجع: لوثروب ستودارد، ص، ٢٤٨، وأيضًا:

Green, Sandra Aili, Op,Cit,p.38.

(٣٦) هويدى، ص، ٧٣-٧٤، وأيضًا:

Alexander Blair Stewart,Op,Cit,p.35.

(37)Henning,Stefan,Op,Cit ,p.245.

(38) Green ,Sandra Aili, Op ,Cit .p.67.See Also, Alexander Blair Stewart, p,59.

(٣٩) كرواس، ريتشارد كيرت، **الثورة الثقافية الصينية**، ترجمة، شيماء طه الريدى، مراجعة، محمد إبراهيم الجندي، الطبعة الأولى (القاهرة، مؤسسة هنداوى، ٢٠١٤) ص، ١٢-١٣.

(40) Yufeng Mao,Op,Cit,p.375.

(41) Yufeng Mao,Op,cit,p,379. Rawski,Evelyn,Op,Cit,p,841.

(42) Henning, Stefan, Op,Cit ,p,839.

(43) Green ,Sandra Aili, Op,Cit, pp.48-49.

(44) Yufene Mao,Op,Cit,pp,374-375.

(45) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,pp,53-54.

(46) Ibid,pp,57-58.

وفى حديث له أمام جمعية التعارف الإسلامية بالقاهرة في عام ١٩٣٤ أشار محمد مكين إلى أن أغلبية مسلمي الصين

يتجاهلون النظرة الرسمية لهم، وأن هويتهم الدينية تجب هويتهم القومية، لكنه أضاف أنه لا يرى ثمة تعارض أو تناقض بين الجانبين، واستشهد بأقوال صن يات بأهمية التحالف مع المسلمين في بناء الصين الحديثة، راجع:
Alexander Blair Stewart,Op,Cit,pp,53-54.
(47) Yitzbak Sbicbor, Ethno-Diplomacy: The Uyghur Hitch in Sino-Turkish Relations, Policy Study ,53,pp,5-6.
(48) Ibid,pp,6-7.
(49) Ibid,p.63.
وراجع، صبحي جميل، ص، ٢٢٦-٢٢٧، هويدى، ص، ٨٢، لوثروب ستودارد، ص٢٣٧.
(50) Henning,Stefan,Op,Cit ,p.71.
(51) Ibid,p,251.
(52) Yufene Mao,Op,Cit,p.376.
(53) Ibid,p,375.
أشار البعض إلى أن اليابان قد اعتمدت على شبكة لها من بعض رجال الأعمال منذ عام ١٩٢٣ لنقل تقارير دورية عن أحوال المسلمين، كما أنها مولت لصدور بعض المجلات لتوزيعها بين المسلمين مجانًا، راجع:
Alexander Blair Stewart,Op,Cit,p,63.
(54) Yufene Mao,Op,Cit ,p,383.
(٥٥) هويدى، ص، ٨٩.
(56) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,p,112.
(57) Yufeng Mao,Op,Cit,p,377.
وأيضًا، لوثروب ستودارد، مرجع سابق، ص٢٥٥.
(58) Ibid,p,376.
(59) Ziv Ben Dor Benite,Op,Cit,pp,5-6.
(60) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,p,84.
(61) Ziv Ben Dor Benite,Op,Cit,p,6 .
(٦٢) صبحي جميل، مرجع سابق ص، ٢٢٩.
(63) Yufeng Mao, Op,cit,pp, 376-377.
(٦٤) صبحي جميل، ص، ٢٣٠.
(65) Green ,Sandra Aili,Op,cit,p,73.
(٦٦) صبحي جميل، مرجع سابق، ص، ٢٣٠-٢٣١.
(67) Green ,Sandra Aili,Op.Cit,pp,74-76.
(68) Ibid,pp,50-51.
(٦٩) يونس عبد الله، مرجع سابق، ص ٢٤-٢٥.
(70) Ziv Ben Dor Benite,Op,Cit,pp,1-2.
(71) Yufeng Mao,Op,Cit,p,98.
(72) Ibid,pp,99-100.
(73) Ziv Ben Dor Benite,p,4.
(٧٤) خلال الفترة من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٤ بلغ عدد الحجاج الصينيين ٨٣٤ أبحروا من شنغهاي إلى مكة، راجع:
Alexander Blair Stewart,Op,Cit,p,60, Green ,Sandra Aili. pp.58-59.
(٧٥) يونس عبد الله، مرجع سابق، ص، ٢٣.
(76) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,pp,74-75.
(77) Ibid,pp,59-60.
(78) Henning, Stefan ,Op,Cit ,p.252.
(79) Yufeng Mao,Op,Cit,p,98.
(80) Ibid,pp,99-100.
(81) Ziv Ben Dor Benite,p,4.
(82) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,p,129.
(83) Ibid,p,109.
(84) Ibid,p,9.
(85) Alexander Blair Stewart,Op,Cit,p,60.
(86) Ziv Ben Dor Benite,Op,Cit,p,4.
(87) Ibid,pp,3-4. Alexander Blair Stewart,pp,61-62.
(88) Guangtian Ha ,Religion of The Father; Islam ,Gender, and Politics of Ethnicity in Late Socialism. Columbia University.2014.pp.93-94.
(89) Ibid ,p,94.
(90) Yufeng MaoOp,Cit, p.383.
(91) Ibid.pp,380-381.
(92) Yufene Mao,Op,Cit,pp,385-388.
(93) Ziv Ben Dor Benite,Op,Cit,pp,12-14.
(94) Green ,Sandra Aili,Op,Cit,p,113.
(95) Ayesha Qurrat Ul Ain,Op,Cit,pp,211-212.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مبَارك التوزُونيِني ومقاومته للاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت (١٩١٨ – ١٩١٩)



عبد المُنعم احمتي
باحث في التاريخ المعاصر وأستاذ متدرب
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

نهدف من خلال هذ المقال القيام بمحاولة بيوغرافيّة لشخصيّة مبارك التوزونيني، قائد المقاومة ضدّ الاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت بالجنوب الشرقيّ للمغرب. ورهانُنا المعرفيّ هنا هو رصد وتتبّع أهمّ المراحل والمحطات في مسار هذه الشخصيّة، قبل وخلال تزعمها لحركة المقاومة. وحتّى نكون موضوعيين أكثر فالمعطيات التاريخيّة المتوفّرة حول الشخصيّة ذاتها قليلة جدًا، وهو ما يحول دون تكوين صورة نسبيًا واضحة حولهُ، وزيادة على مشكل القلّة والشح في مستوى المعلومات، نُشير إلى أنّ هُناك إشكاليات تُثيرها شخصيّة مبارك التوزونيني، وهي ذاتها الإشكاليات التي تطرحها مُختلف حركات المقاومة المغربيّة في علاقتها مع ثلاثي: المجتمع القبلي المحلي، المخزن، المستعمر، وهي إشكاليّة لا نبتغي في هذه المساهمة البسيطة النبش فيها، بقدر ما نبتغي تقديم لمحة بيوغرافيّة لشخصيّة مبارك التوزونيني، في أفق القيام بدراسة تدقيقيّة لها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٩	مايو	٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر:	٢١	أغسطس	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

مبارك التوزونيني؛ حركة المقاومة؛ تافيلالت؛ الاستعمار الفرنسي؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057045

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد المُنعم احمتي. **"مبارك التوزونيِني ومقاومته للاستعمار الفرنسي في منطقة تافيلالت (١٩١٨ – ١٩١٩)".**- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٨٦ – ٩٣.

مُقدِّمَة

إن الحَدِيث عن شخْصِية مبَارْك بن الحُسَيْن التوزونيني حديِثٌ يلفه الغمُوض، إذ بالرّغم من الدور الرياديّ الذي لعبه في مناطق الجنوب وتافيلالت ما بين سنتي ١٩١٦-١٩١٩م، وامتداد مُقاومته عبر مساحات شاسعة شملت واحات تافيلالت غريس وفركلة وتودغة والناحية الوسطي بالأطلس الكبير، ومع ذلك فالتقارير والكتابات الفرنسية لم تتعرض له إلاّ في إطار الاشتباكات التي حدثت بيْنَه والجيش الفرنسي، بل وحاولت في عديد من اللحظات رسم صورة سوداء لشخصيته[١]، هذا ويُعتبر المهدي الناصري والمختار السوسي الاستثناء الوحيد في الإسطوغرافيا الوطنية التي لم تغْفل عن مبارك بن الحسين التوزونيني، فالأوّل أرّخ لسيرته في كتابه "نعت الغطريس"، والثاني ترجم لهُ في الجزء السادس عشر من كتابه المعسول[٢]. وفي هذا الإطار يأتي هذ المقال كمُحاولة بيوغرافية تهدفُ إلى القِيام بعملية تتبع تاريخية لسِيرة مبارك بن الحُسين التوزونيني، وذلك بالتركيز على بعض المحطات البارزة في حياتِه الدينية والسياسية وعلاقاته الاجتماعية مع أهالي تافيلالت،

سعيًا لفهم شخصيته وقراءة طبيعة الفترة التي عاش فيها.

أولًا: الحياة الدينية والسياسيّة لمبارك التوزُونيِني

١/١-نَسَبه

عرّف المخْتار السوسي في كتابه المعسول مبارك التوزونيني بأنه: "مبارك بن الحسين بن محمد بن أحمد بداح، وهذا الجد الملقب (بداح) هو الذي أسلم، وقد كان يهوديًا، على يد القايد بلعيد المرابطي الشهير. وهذا الفقيه قرأ على الأستاذ المشهور بكو علي الايلاني وسكن قرية توزونين حيث الأسرة كلها إلى أن توفي ١٣٤٠هـ"[٣]، وأضاف قائلًا "وأما مبارك فهو الثائر المشهور بوقعه في (تافيلالت)، وبه خرجت القوات الفرنسية منها بعد احتلالها لها أكثر من سنة، ويجهل كثير من الناس أصله، وكيف وقع له حتّى ثار في (تافيلالت)تلك الثورة العظيمة"[٤]. من خلال هذا التّعريف نستخلصُ أن مبَارك التوزونيني هو حفيد محمد بن أحمد بداح، من قرية تُوزُونين من أقا[٥]، ومنها استمد لقبهُ التوزونيني. وقد انحدر من وسط فقير حيث ازداد في القرية المذكورة في حوالي ١٣٠١هـ (١٨٧٣-١٨٧٤م).

هذا وتجدُر الإشارة إلى أنّ الكتابات الاستعمارية أعطت رواية أُخرى مُغايرة لما قدّمه صاحبُ المعسول، إذ ربطت أصل التوزونيني بقبائل سملال، كتب جورج سبيلمان: "وفي سنة ١٩١٨ ادعى طالب سوسي يدعي مبارك والد الحسين والمعروف أيضا باسم مبارك ولد شطو، أصله من ايدا وسملال في الأطلس الصغير الغربي شرق تزنيت، ادعى لدى ايت ايعزي أنّه الشريف الإدريسي امحمد افروتين، المدفون منذ زمن في أعالي وادي الرك"[٦]. الأمر الذي عارضه عبد الله ستيتيتو، حيث اعتبر هذه "الترجمة مقْصُودة ومُغرضة" نظرًا لما عرفت به تلك القبائل -التي نُسب إليها التوزونيني -من تخليّ عن واجب الجهاد في سوس والضواحي[٧]، وبالتالي فقد وظّف سبيلمان ذلك للحطّ من قيمة التوزونيني أمام أتباعه.

٢/١-الحياة الدينية للتوزُونيِني

لقد قَادت الظّروف الاجتماعية والانحدار من وسط مُعوز التوزُونيِني للبحث عن عمل يُعيل به أسرته، فاشتغل في مجال الزراعة بمنطقة تافراوت سنة ١٩٠٥م، وفي نفس السنة حدث تغيرّ جوهري في حياته، يقُول المختار السوس "سافرت طائفة من فقراء الشيخ لألغي ألي (أملن) نحو سنة ١٣٢٢هـ، فباتوا في قرية (أومسنات) فصادفوا هناك مبارك هذا شابًا...كان يشتغل هناك في سبيل تحصيل القوت"[٨]، فحادثَتهُ بذلك زُمرة الفقراء عن طبيعة عيشهم في الزاوية التي تعْمِد إلى الزّهد والتقشفِ والانسلاخ من ملذات الدنيا وشهواتها الزائلة فاستغرب من طريقة عيشهم التي لا تُثقل كاهلهم.

إنّ مُجالسة مبارك بن الحسين لفقراء الطريقة الألغية، وهو يُكابد الأمرّين بين سنداد الفقر ومِطرقة عمل الأرض الذي يتطلّب الكدّ والجُهد، جعله يُعيد التّفكير مليًا في حياته كمُزارع وحياة التصوف والزهد والتقشف، فقرّر مُرافقة الفقراء في اتجاه زاوية إليغ بسُوس إيمانًا منه بأن حمل السبح أخف وطئت من "حمل القفاف والمساحي"[٩]. تتلْمذ التوزونيني على يد بعض شيوخ الزاوية الدرقاوية كـمُولود اليعقوبي وسعيد التناني، وأظهر طموحًا قويًا في اقتفاء أثر شيخه مولود اليعقوبي، إذ "كان هذا ممّن يُصاحبه وينحاش إليه، ويستفيد منه فوائد أذكار وءايات... ملازمًا لإرادة شيخه يتوجّه أنّي صرفه"[١٠]. في هذا الظّرف أظهر التوزونيني طُمُوحًا قويًا في سبِيل تلقي العِلم والمعْرِفة وأبان عن مُستوى عالي في حفْظ بعض السور القرآنية وبعض الأذكار والأوراد فاق من خلالها فُقراء الزاوية ذكاءً وفِطنْة[١١]، ولم يقف عند هذا الحدّ بل دأب إلى تقليد شيُوخه قلبًا وقالبًا من حيث الشعر الممدود الطويل، والكلام القليل واللّحية الكثيفة والثياب الرثة المرقّعة والسبْحتان اللتان لا تُغادران عُنقه ساكنًا كان أم متحركًا[١٢]. بيد أنّه في إطار تكوينه في مدرسة المُتفقرِين بطريقة أو بأخرى لم يكن قصده التقرب إلى الله عن طريق الذكر السليم والعبادة، بل كان باسم التصوف والتفقُر يبحث عن أشياء أخرى[١٣]، الأمر الذي كان يُغضب شيخه مولود اليعقوبي الذي كان يُعاتبه "فيقول له كلمة مأثورة عند الفقراء إلى لآن وهي (الجني العريان) وذلك أقبح ثلب وما كان يقُولها لأحد سواه"[١٤]. على إثر هذا انتقل إلى حمى سعيد التناني فطلب منهُ تعليمه بعض الأذكار والسور القرآنية ذات الأسرار القوية، "فعلّمه عددًا من سبحنا الله ونعم الوكيل (وأية الكرسي) فاقبل إقبالا كليًا عليها، لا يفترُ عن ذكرها، ولا تسقط السبحة من يده"[١٥]، وحين ذاك لم يتورّع التوزونيني في الكشف عن مقصِده لزملائه الفقراء كلما أمكنه

ذلك، فكان كلما باسطهم يقول "لابد أن أكون سلطانا"، فكانوا يتضاحكون و يَتعجّبون من مقْصِده "لأنّ شيخه دائما يُعلن لهم في كلّ مجلس جلسة، وفي كلّ فرصة تسنح، أن كلّ من طلب منا غير رضي الله ومعرفته فقد ظلمنا وظلم نفسه"[١٦].

٣/١-الحياة السياسية لمبارك بن الحسين التوزُونِيني

(٣/١) ١-سياقُ انتقَاله إلى السياسيّ

لم يَكُن قصْد مبارك التوزونيني من حياة التصوف التي قضاها في أحضان زاوية إليغ لمدّة تُساوي العِقد، التقرب إلى الله بل كان مُبتغاه دُنيوي محْض أساسُه تحقيق حُلم سياسي إذ كان يرنُو إلى عالم الرياسة والسياسة[١٧]. وفي ضلّ هذا المخاض الذي كان يمرّ به التوزونيني توفي الزعيم الروحي لزاوية اليغ الشيخ مولود اليعقوبي سنة ١٩١٠، الأمر الذي كان له أثر على شخصيته فكان شارد الذهن مُشتت التفكير لمدة تُقارب السنتين. وفي سنة ١٩١٢ بعد توقيع عقد الحماية الفرنسية على المغرب واندلاع مُقاومة أحمد الهيبة بالجنوب المغربي، فتوافد على الهيبة العديد من تلاميذ زاوية اليغ ومنهُم التوزونيني بهدف الجهاد والمُقاومة[١٨]، وبعد إقبال وإدبار وكر وفر انتُدِب أحمد الهيبة سُلطانا[١٩]، الأمر الذي أوضح للتوزونيني أن طريق الزعامة ليس مُستحيلاً حيث أن الهيبة شخص لا يتميز بخصائص تميزه عن غيره. بيد أنّه بعدما أُجهضت مُقاومة أحمد الهيبة فرّ التوزونيني رفقة أصدقائه إلى الزاوية واستَمر حوالي أربع سنوات وهو يعيش العزلة والانزواء يتجول بين الأصقاع مرتدياً ملاءة، ومُطلقًا لحيته وشعر رأسه وواضعًا فوق رأسه عمامة كبيرة[٢٠]، كما شرع في ارتكاب سلسلة من الخروقات في حق الزاوية وظل يُفشي أسرارها بين عامة الناس أينما حلّ وارتحل، وعلى غير عادة شيوخ زاوية إليغ وصُلحائها الذين كانوا يلتزمون الحياد أخذ التوزونيني يتدخّل في الشؤون القبليّة. كلّ هذه الأمور عرضتهُ للطرد من الزاوية سنة ١٣٣٢ هـ"[٢١]، لتغيب أخباره بعدما شدّ الرحال إلى قبائل الجبهة الشرقية من سُوس ولعله بذلك قد امتثل لنصيحة شيخه مولود اليعقوبي الذي سمعه ذات مرّة يُعبر عن هوسه السياسي فقال له: "لا يمُكن أن يستقيم لكَ ما تريد في بلاد سوس، ورُبما لا يتِمّ لك ما تريد إلّا في قبائل القبلة الجاهلة"[٢٢]، والمقصود بقبائل القبلة قبائل آيت عطا[٢٣].

غادر التوزونيني بدون تردّد أرض سُوس للبحث عن مكان صالحٍ لتحقيق حُلمه، فقصد زاوية سيدي عمار القديمة الدرقاوية في منطقة دادس، وهناك عمل على أجرأت مشروعه السياسيّ باستقطاب الناس إليه وجمعهم في إطار الفكر الدرقاوي، ونتيجة مجموعة من المشاكل شدّ الرحال شرقًا وهو يجُر ذيول الهزيمة والخيبة تارة، ويدفعه طموحه تارة أخري، فساقته الظروف إلى منطقة تُودْغة سنة ١٩١٤م[٢٤]. انتقل بعدها إلى قبيلة آيت آيعزي من آيت عطا، وهُناك قضي مدّة من الزمن منعزلًا بجوار ضريح أمحمد نِيفْرُوتِين بوادي الرك[٢٥](جهة الغرب من تافيلالت)[٢٦]، وفي هذه المرحلة أظهر التوزونيني النسك والانقطاع والصلاح والورع، وازداد زهدا وتقشفا وعزلة عن الناس، بل أخذ يُكرم كل من يأوي إلى الضريح، وأحاط نفسه بنوع من لأبهة الدينية "مع كثرة صمْت وحُسْنِ سَمْت"[٢٧]، ثمّ أخذ يُجالس بعض العطاويين ويعِظهم ويرشدهم، كما لقب نفسه بـ"افروتن" ولجأ إلى التمائم والشعوذة[٢٨]، وادعاء الكرامات والخَوارق الأمر الذي جعَلهُ مَحجًا للعديد منَ الناس.

إن استقرار التوزونيني بجوار ضريح الشريف الإدريسي "أمحمد نِيفْرُوتِين"، الذي يتمتع بقدسية زائدة لدي آيت عطا، وانهِمَاكِه في وعظ وإرشاد الناس وإظهار الورع والصلاح، بالإضافة إلى تلقيب نفسه بـ "محمد نيفروتين" الذي يعني بالأمازيغية الشخص الذي يُخلص الناس من الأزمات، كلّ هذا لهُ تفسير وحد هو أنّ مبارك هذا حاول إضْفاء الطابع التبْجِيلي والقُدْسي على حركته، وإظهار أنه "مهدي الوقت"[٢٩] الذي طالما انتظره الناس. هذا وقد دأب مرافقوه على نَعتِه بالمهدي المُنتظر الذي جاء لإنقاذ البلاد من الاستعمار والكفر وتجْدِيد الإسلام"[٣٠]. وفي السياق ذاته يُضيف عبد الله حمودي أنّه من غير المُستبْعد أن يكون مبارك التوزونيني قد اطلع على تجارب عددٍ مِمن تبنوا هذا الفِكر، كما أنّ مَهدوية التوزونيني تتجَاوز الانقِسامات والصراعات القبلية وتجْعَل اللعبة الانقسامية بالية. وخير دليل على ذلك أنّ العطاويون موجودون بتواجد خصمهم اللدود المتمثل في آيت مرغاد.

موجز القول في هذا المقام أنّ تبني مبارك التوزونيني للمهدوية واعتماده على هذا الأسلوب من الدعاية، لا يمكن تفسيره إلّا "بكونه يندرج في إطار خلق الشروط الكفيلة بإعطاء 'التوزونيني' نوعًا من

الغطاء الأخلاقي والديني اللذين يجدان مضمونهما من خلال مفهوم 'البركة' الشعبي التي يتوجب أن تتوفر في شخصية الزعيم والتي تؤهله لقيادة الجماهير للجهاد"[٣١].

بعد أن استتب لهُ أمر سكان منطقة الرك واجتمع العطاويون حوله بدأ أفق الزعامة يتجلى له، خُصوصًا بعدما بلغه خبر احتلال تافيلالت، يقوّل أحد ضُباط الشؤون الأهلية الفرنسية "فأصبح ينادي القبائل للجهاد لطردنا من تافيلالت واسترجاع بوذنيب"[٣٢]، موازاة مع ذلك كرس التوزونيني كل جهوده لتنظيم حركة الجهاد، فاقتنى فرسا وربطه أمام قبة الضريح وأسرّ لكلّ من يأتي إليه أن الفرس مربوط لنيّة جِهاد الكفار، وأنّ من علامات الإذن بالجهاد أن يُصْبح الفرس مُسرجًا ملجمًا ذات يوم[٣٣]، كما حاول خلق الظروف الملائمة لقيادة الجهاد المتمثلة في إعادة توزيع الهدايا التي تتوافد عليه، على المحتاجين[٣٤].

(٣/١) ٢-الاستعمار الفرنسي لتافيلالت ومُقاومة مبارك بن الحسين

بعد الدعوات العديدة التي وجهها السلطان مولاي يوسف للمقاومين لوقف مُهاجمة الفرنسيين، أرسل هذا الأخير رسالة إلى عامِله بتافيلالت[٣٥] مولاي المهدي يحثّه فيها على التعاون مع النصارى، ولم يكتفي السلطان بذلك بل قام بتوجيه بعثة للخليفة لتوضيح ماذا ينبغي أن يفعل[٣٦]. وفي هذا الإطار اتفق مولاي المهدي والعقيد دوري بعد سلسلة من اللقاءات، على وضع بعثة فرنسية بتافيلالت تقوم بمساعدة الخليفة السلطاني وهي مكونة من: مندوب فرنسي سام هو القبطان نويل Noël ومترجم من الدرجة الرفيعة هو القبطان أوستري Oustry ثمّ الطبيب مادلين (Madeleine). أشاد ليُوطي بهذا الاقتراح غير المكلف لا بشريًا وماديًا، كم أنّ وجود هذه البعثة قد يكون تمهيدًا للوجود الفرنسي في تافيلالت بشكل نهائي. قال ليوطي "تافيلالت أصبحت حقيقة بين أيدينا، بحيْث نستطيع من الآن فصَاعدًا التأكيد على التحكم في تهدئة المنطقة المُمتدة شرق ملوية حتى زيز ومن تافيلالت حتّى الحدود الجنوبيّة"[٣٧]، وتطبيقًا للاتفاق توجّهت البعثة الفرنسية إلى تافيلالت واستقرت بقصر تغمرت[٣٨] في 4 دجنبر ١٩١٧[٣٩]، وعينّ أوستري حاكمًا على تافيلالت.

لقد أظهر الحاكم الفرنسي أوستري استبدادًا كبيرًا وزرع الهيبة بين أهالي المنطقة[٤٠] الأمر الذي جعل الفُرصة سانحة أمام التوزونيني للظهور بلباس الزعامة وقيادة الجهاد، فرتب عملية اغتيال هذا الأخير عن طريق تكليف أحد خُدامه بالعملية، قال المهدي الناصري: " فوعده مناه، وضمنه له الغبي نعيم الجنان عند الله، إن بادر لأمره ممتثلًا وعلى مُراده مُقبلًا"[٤١]، فتوجه بعدها إلى مقر إقامة الحاكم الفرنسي فوجه له طعنات أردتهُ قتيلًا[٤٢]، في ٣ يونيو ١٩١٨[٤٣]، وعلى إثر ذلك قالت إحدى الشاعرات الأمازيغيات:

نزل املوي البُطولَة عن كُل ذِي جُبَةٍ
لقد اقتَحم الأبواب إلى أن قَتَلهُ في فراشه[٤٤]

شكل مقتل ضابط بحجم أوستري صدمة قوية لفرنسا ولمخططاتها الإمبريالية، فجهزت العدّة والعتاد واستنفرت جهُودها للقيام بعمليات عسكرية في منطقة تافيلالت ضدّ المقاومين لإعادة السيطرة على المنطقة، ومن جهته قام التوزونيني باستنفار الناس للجهاد في الأسواق والأماكن الشعبية، فانضم إليه العديد من القبائل كـآيت عطا وآيت مَرْغاد وآيت حدِيدو، وهي قبائل أمازيغية بالمغرب الجنوبيّ شرقيّ، كما انضم له العديد من الزعماء الدينيين المُنتسبين للزاوية الدرقاوية وجعل بلقاسم النكادي قائدًا لجيشه[٤٥].

كانت أولى مواجهة بين الفرنسيين والمقاومين في ٩ غشت ١٩١٨[٤٦]، وعرفت تلك المواجهة بمعركة البَطْحَاء نسبة للمكان الذي دارت فيه المعركة التي انتصر فيها المقاومون، إذ تمكنوا في ظرف ثلاث أيام من القضاء على فرقة عسكرية كاملة من الجنود الفرنسيين، بالإضافة إلى عشرة ضباط نافذين منهم[٤٧]، هذا ولم يقف التوزونيني عند هذا الانتصار بل خاض معارك ومواجهات أخرى ضد الجيش الفرنسي لعل أهمها: معركة الخَضَارة في العاشر من غشت عام ١٩١٨، ومعركة تِيغْمَرْت في السابع شتنبر من نفس السنة، ثمّ موقعة الدار البيْضَاء في الثامن من أكتوبر ١٩١٨، وكذا معركة تِيزيمي في السادس عشر أكتوبر ١٩١٨، وأخيرًا معركة حنابُوا في الثاني والعشرون من عام ١٩١٨. وبعد هذه الانتصارات انتدب التوزونيني سلطانًا للجهاد بمنطقة تافيلالت وتمت مبايعته. قال فيه الشاعر عبد الكريم السرغيني:

فتيهي دلالا يا سِجلماسة وقد
سعِدت بمن أحياك بعْد موتة[٤٨]

وبعدما استقر أمر المنطقة لمبارك التوزونيني، حاول إيجاد صيّغ لتنظيم أُمور منطقة تافيلالت فقام بإنشاء مَخْزن مُصغر، يتكون من مجلس حربيّ للجهاد مُشكل من القبائل التي أعلنت مساندتها له، كما عيّن قاضي يصدر الفتوى التي كَان محورها الجهاد، هذا وقد أحاط نفسه بحرس خاص من حراطين املوان الذين كلفوا بتنفيذ أوامره وقراراته، وجعل بلقاسم النكَادي مُستشاره الأول ورئيس جناحه العسكري.

ثانيًا: العَلاقات الاجْتماعِية للتوزونيني والنسِيج المحَلي

١/٢-حياة مبارك التوزونيني الخاصّة

انفرد المختار السوسي بالحديث عن حياة التوزونيني الخاصة مُعتمدا في ذلك على رواية الأهالي المقربين منه، حيْث أفاد أنّه بعد مُبايعته على السلْطَنة بتافيلالت أكثر من الزيجَات وأسْند مُهمة البحث والتنقيب عن النساء الحسْناوات داخل قُصُور تافيلالت وخارِجها إلى شخْصٍ يُسمى مولاي علي بن المصْطفى بن الحنفي المنتهي إلى قصر الجرامنة من الرتب، هذا وتتلخص مهمة هذا "الخطاب" أساسًا في استقصاء أخبار الحسناوات والعمَل على رَبْط الاتصال بعائلاتهم بُغية إحْضَارِهن إلى التوزونيني للدخول بهن ويُصْبحن ضمن محارمه. لقد وصلت زوجات التوزونيني إلى ثلاث عشرة زوجة بكر[٤٩]، عَمِد على إخفائهن عن أنظار العامة من أهالي المنطقة، بل وحتّى المقربين له لم يكن العديد منهُم يعلم بهذا العدد من الزيجات، بالإضافة إلى كل هذا يُضيف عبد الله حمودي أن عدد زوجات التوزونيني وصل إلى أربع عشرة زوجة وكل امرأة طلقها لا يحل لرجل آخر تزوجها "فزيجات السلاطين كما يقُول التوزونيني لا يمكن أن يعرفن رجالاً آخرين"[٥٠].

٢/٢-علاقتهُ مع شرفاء وأعيان تافيلالت

"المُلك شجرة لا تسقى إلّا بالدم"، "أوقية من الخوف خيرٌ من قِنطار محبّة" "الرهبُوت خير من الرحَمُوت"[٥١]، هذه العبارات وغيرها ظل مبارك بن الحسين يُردّدها واعتمدها لتأطير علاقته مع كلّ مُعارضيه، خصوصًا الفِئات التي تتربّع على رأس الهرم الاجتماعي لمنطقة تافيلالت، من الشرفاء والصلحاء وشيوخ الزوايا والفقهاء، وذلك راجعٌ لمكانة هؤلاء الكبيرة عند عامة الناس، لهذا قرر كَسْر شوكة هؤلاء لكي لا يسقط في نفس سيناريو أحمد الهيبة الذي اعتمد الرأفة والحِلم والصفح على من يُعارِضه، فكان ذلك سبب زوال مُلكه. إنّ أهم ما يسْتوقف الباحث الدارس لسيرة مبارك بن الحُسين هي علاقته مع شرفاء تافيلالت، التي قامت على السلب والقتل تارة، والتنكيل والأسر تارة أخرى، فبعدما بويع سُلطاناً للجهاد بالمنطقة اتضحت معالم تلك العلاقة في التدابير التي دشّن بها سياسته في تدبير أمور الواحة، إذ عمل على تنفيذ سلسلة من عمليات التصفيّة والحملات التطهيرية ضد الشرفاء، وذوي النفوذ الديني والسياسي بالمنطقة، جاعلًا بذلك أعزة البلادِ أذلتها[٥٢].

وبالرجوع إلى أهم مصدر أرخ للفترة كتاب "نعت الغطريس..." نجد أن مبارك التوزونيني بالغ في سياسته التعسفية ضد الشرفاء، يقول المهدي الناصري "ثمّ مدّ يده في أهل المخزن الموالي والأشراف، وكل من فيه رائحتهم، أو لبس جلدتهم من أهل الإنصاف، فاستصفى أموالهم، وخرب قصورهم، وحاز أموالهم، ثمّ تسلط على أهل اليسار، فلم يبق لهم على درهم ولا دينار، وكان ما وجد عند آل الرشيد، من الحبوب والتمر والأثاث وسلاح الحديد، شيئا كثيرا يربو على آلاف ويزيد"[٥٣] هذا وقد أطلق أيدي البرابرة في الناس، فصاروا يقتحمون الدور ويسفِكُون الدماء وينهبون الأموال ويتقاسمُونَها معه، بالإضافة إلى انتهاكهم أعراض الناس وإذلالهم، ولم يقف التوزونيني عند هذا الحد بل عمِل على حفر حُفرة تُرمى بها جُثث من نفذ فيهم حكم الإعدام[٥٤]. الشيء الذي جعل الشرفاء يفرون من تافيلالت إلى درعة والمناطق المجاورة كلما سنحت لهُم الفرصة إلى درجة أنه أصبح أي قصر من قصور درعة إلا وتوجد فيه أسرة يرجع أصلها إلى بعض جِهات تافيلالت[٥٥].

لقد كان التوزونيني يكره العُنْصُر الشرفاوِي الذي يرى فيه ندًا عنيدا يُنافسه على السلطة، بحكم انتمائه لآل البيت. لذلك لم يتردد في قتل الشريف مولاي عبد الله بن مولاي الرشيد أخ الخليفة السلطاني مولاي المهدي، الذي وبعدما استأمنه على نفسه وعرضه ومالِه غَدر به وأرسل من قتله وهو في طريق المسجد، كما نفذ عملية سطو على عدة قصور مخزنية وشرفاوية، تمهيداً للتخلص و اجتثاث المجتمع الشرفاوي من الواحة، ومن أمثلة هذه القصور نذكر: قصر أولاد عبد الحليم، مقر إقامة مولاي المهدي، وقصر الفيضة، ثم قصر أبار وقصر مولاي سليمان،

وقصر مولاي المستعين، وقصبة مولاي أحمد الذهبي، مرورا بقصر أبو عام، وغيرها من القصور[٥٦].
أمام هذه الحملة التي شنها التوزونيني اضطر العديد من شرفاء تافيلالت إلى مُغادرة قصورهم تحت الضغط والطرد في اتجاه فاس ومراكش، في حين أن من لم يُغادر تعرض للتنكيل وطالته يد العُنف والقتل مثل القائد عدى المرغادي والقائد باسيدي من عرب الصباح، هذا وقد عمِل على التشهير بالشرفاء أمام الملأ بإلباسهم لباس اليهود والطواف بهم في ساحة قَصْر الريصاني لجعلهم عِبْرَة لكل من سولت له نفسه التعامل مع النصارى أو المخزن، وهو الشيء الذي عوقب به الشريف مولاي هاشم. كما عمد التوزونيني إلى تضيِيق الخِناق وفرض حِصار من نوع آخ على الشرفاء، فأمر شرائح المجتمع الفيلالي بعدم التعامل معهُم، لا من حيث توفِير المبِيت أو تزويدهم بالمال أو المئُونة عند رحيلهم من المنطقة ومن خالف الأوامر لحقهُ العقاب[٥٧].

هذا وقد لخص شاهد عيان سياسة الحديد والنار التي نهجها مبارك بن الحسين التوزونيني ومساعدهُ بلقاسم النكَادي، بقوله: "أنزلوا أهل العلا من علْيائهم وانتزَعُوا من أصْحَاب الكِبر كِبريائهُم فقربُوا إليهم كل مَن يشْرب من نخْبِهم ويتزي بزينتهم من الرعَاةِ المشْقُوقي الأقدام من فصِيلة البهائم والأنْعام"[٥٨]
لقد أدرك مبارك بن الحسين أن النسب الشريف هو الركيزة الأساسية لإنشاء أي كيان سياسي بالمغرب، لذلك ادعى الشرف وعمل على القضاء على كل شيء يكْشِف أصلهُ مثل ما فعل بمقربيه وأصحابه وأبناء عُمومته الذين وفدوا عليه في بلاطه، فتبرأ منهم وأمر بقتلهم كما أنه أنكر أبوة والده، والجدير بالذكر كذلك أن مبارك بن الحسين غريب عن المنطقة وليس على علم بأحوالها، ولم يكن ليُقدم على ما أقدم عليه اتجاه الشرفاء إلا بإيعاز من أطراف عارفة بِبَواطِن تافيلالت، وفي هذا الصدد تُشير المصادر إلى أحد مُهندِسي سياسة التنكيل بالشرفاء العلويين وهو الفقيه امحمد بن الحاج علال البوعامي الفلالي المدعو بابن جماعيه، ناهيك عن كُبراء قُصُور السفالات المقربين منه[٥٩].

علاوة على الشرفاء لم يسلم الفقهاء وشيوخ الزوايا من عسف سلطان تافيلالت، يقول المهدي الناصري: "ثم تسلط على الطلبة وأئمة المساجد وأهل الزوايا، فوزع عليهم قدرا من المال، في الآلف إلى المائة ومادون ذلك، و ازدحموا على بابه بالعطايا، حتّى لم يبق أحد إلّا وقد عزم، ولا مسكين إلا وقد ظلم"[٦٠]، هذا ومكلما سمع عالماً أو صالحًا إلّا وجه إليه لصُوصه لقتْله[٦١]. وبعد دخوله لتافيلالت قتل "الفقيه العلامة الجهبذ القاضي العدل الفهامة، سلالة الأكابر الأخيار، معدن الحكمة والأسرار سيدي عبد الواحد بين القاضي الصالح سيدي الهاشمي الأنصاري"[٦٢]، وبعد ذلك بأيام قلائِل جاء دور" الصالح ذي القدر المنيف، مقدم زاوية المولى علي الشريف، ثم غيره من كل صالح مسكين ضعيف"[٦٣]، كما سجن الفقيه باسيدي بن المامون من قصبة سيدي ملوك وأخيه محمد بن المامون، وكان قد حكم عليهما بالإعدام، لكن الحكم لم يُنفذ لاغتيالِه قبل ذلك من طرف مُساعده النكَادي.

٢/٣-علاقتهُ بالعامّة

كانت ذوي منيع[٦٤] هي الأُخرى من سياسة التوزونيني حيْث تُفيد الرواية المحلية بين أهالي المنطقة، أنّ التوزونيني لما تولى زمام الأمور وأصبح حاكِماً لتافيلالت وما جاورها لقب نفسه "بأمير المسلمين" وكانت بعض القبائل تابعة له من عرب وبربر وذوي منيع، وهذِه الأخيرة لم تكُن على الطاعة المطلوبة، فقام بمُهاجمتِها على حين غرة، فأحرق خيامها وقتل رجّالها وسبى صِبْيانها ونسائها، وبقيت امرأة من الناجين فلما رأت هذا العمل الفظيع وهذه المُصِيبة النكْراء التي أصابت قومها عبرّت عن ذلك بأبيات من الزجل فقالت:

هَادي اعَشايْش َمهْدومُةْ
غَيْرَ تبتو فِيـكْ الـــــُلـومةَ
خْلاوني فْهَادْ الغَابَة كَالغْرَابَةْ
لا أُمِي وَلا بَـــابـَا
أُتمَنيتْ مْن الحَي البَاري
إعْطيني كَـابُوسْ اعْشَـاري
وَنْبين عَـــتْبَـاري
فْمحَمد بُو أَفـدَاري[٦٥]

علاوة على ما سلف، كانت علاقة التوزونيني بفئة الحَراطِين[٦٦] طيبة، فـقد استغل الوضع المتدني لهذه الفئة وما تتلقاه من تهميش واضطهاد في تافيلالت، -لا يزوجون من غير جلدتهم ولا يستشارون ويعيشون خداما لأسيادهم الشرفاء-، فركز على هذه النقطة بالذات وعمل على الرفع من قِيمَتهم من خلال جعْل حرصِه الخاص من حَراطِين إملوان، وتكليف الحو المختار

بعملية اغتيال الحاكم الفرنسي أوسترِي، الذي عند وفاته أمر بدفنه بخلوة مولاي علي الشريف تعظيماً لقدره وقدر الحَراطِين الأمر الذي جَعلهم ينْحَاشُونَ إليه ويُناصِرونه.

وفي ذات المساق تعرض المجتمع الفيلالي لعُنف آخر غير مباشر من مبارك التوزونيني، وتجلى ذلك في الضرائب غير الشرعية التي أثقل كاهلهم بها، حيث ألزم كل دارٍ سواء أكان في مقدورها أولا أن تُقدم قدرًا من التمْرِ والخُبز لجُنودِه على كثْرة عدَدِهم(١٧)، بالإضافة إلى أنه عَمِل على أسر كلّ شخص عرف أنه يمتلك ثروة بإنزاله في المتطْمُورة (سِجنٌ تحت الأرض) ويفرض على أهلهِ أداء ديَة مُقابل إطلاقه والعفو عنهُ.

خَاتمَةٌ

قُصارى القَول، ومن خلال تتبّع سِيرة مبارك التوزونيني يظهر بشكل جلي مَدى قوة وإصرار هذا الأخير على تحقيق حُلمه السياسي، فبعدما استطاع توجِيه سلسة من الضربات للترسانة العسكرية الفرنسية، استتبّ لهُ أمر تافيلالت وطَرد الفرنْسِيين منها، فبُويع على إثر ذلك سُلطاناً للجهاد بالمنطقة، ليقُوم بعدها بعمليات قتل وتنكِيل وتشْهِيرٍ وتهْجيرٍ ونفي في حق العديد من شرائح المجتمع الفيلالي، وقد ارتبطت بعض تلك العمليات بمُحاربة المتواطئين مع الاستعمار، لكن في الغالب كانت تُنظم لأهداف السبي والسلب والنهب، وهذا ما تؤكّده الذاكرة المحلية حتّى اليوم، الأمر الذي جعل الأهالي يتذمرُون. فبعدما خرجوا من استعمار فرنسي كان أرحم نوعًا ما دخلوا في سيطرة حديدية كانت أشد من بطش الاستعمار نفسه.

ويمُكن تفسير سياسته العنيفة هذه، في تدبير أمور الواحة إلى البنية العلائقية القديمة التي كانت تربط مُجتمع تافيلالت، المكُون أساسًا من سكان القصور المُستقرين والقائم اقتصادهم على الفلاحة ومزاولة بعض الحرف، وقبائل الرحل الأمازيغية التي يقوم اقتصادها على الرعي والنهب والإغارة على مناطق الاستقرار السكاني في تافيلالت. وهذه البنية من العلاقات استمرت لعهد مبارك بن الحسين التوزونيني، الذي لم يستطع وضع حد لها بل حاول استثمارها لدعمِ وجوده السياسي في الواحة.

الهَوامِش:

(١) عبد القادر بوراس، "مقاومة أهالي تافيلالت والإسطوغرافية الاستعمارية (١٩١٤-١٩٣٤)"، **مجلة دار النيابة**، ص ٣٩.

(٢) عبد الله حمودي، "المهدوية كإيديولوجيا سياسية بالمغرب"، **المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي**، العدد الثالث، السنة الأولي يونيو ١٩٨، ص ٢٦٣.

(٣) المختار السوسي، **المعسول**، مطبعة فضالة، الدار البيضاء ١٩٦١م، ٢٠ جزء، ج16، ص ٢٦٣

(٤) نفسه.

(٥) عبد القادر بوراس، مادة "**التوزونيني**"، **معلمة المغرب**، العدد ٨، ص ٢٦٣٣.

(٦) جورج سبيلمان، **آيت عطا الصّحراء وتهدئة افلا-ن_درا**، ترجمة محمد بوكبوط، مطبعة المعارف الجديد، الرباط، ص ٨٢.

(٧) عبد الله ستيتيتو، **دور تافيلالت في تنظيم العلاقات بين المجتمع القبلي والمخزن والمستعمر**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠١٣، ص٢٩٥.

(٨) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٣.

(٩) نفسه.

(١٠) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.

(١١) عبد الله حمودي، م س، ص ٥٧.

(١٢) عبد الله ستيتيتو، م س، ص٢٩٦.

(١٣) عبد الكريم الفيلالي، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، مطبعة شركة ناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ج٧، ص ٤١٤.

(١٤) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.

(١٥) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٤.

(١٦) نفسه.

(١٧) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٢٩٧.

(١٨) المختار السوسي، **اليغ قديما وحديثا**، تعليق محمد بن عبد الله الروداني، المطبعة الملكية ١٣٦٦-١٩٦٦، ص ٣٠٦.

(١٩) نفسه، ص ٣٠٦.

(٢٠) عبد الله حمودي، م س، ص ٥٧.

(٢١) نفسه ٢٦٥.

(٢٢) نفسه ص٢٦٥.

(٢٣) عبد الكريم الفيلالي، م س، ص ٤١٥.

(٢٤) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٢٩٩.

(٢٥) عبد الكريم الفلالي، م س، ص ٤١٦.

(٢٦) المهدي الناصري، **نعت الغطريس الفسيس هيان بن بيان المنتمي إلى سوس**، حقّقه وقدم له خالد ناصر الدين وتقدم به لنيل شهادة الدكتوراه في تخصص أدب مغربي، بكلية الآداب جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس، موسم ٢٠٠٠_٢٠٠١، ص ٨٧.

(٢٧) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٦.

(٢٨) عبد القادر بوراس، **ملامح عن مقاومة زيد أوسكونتي من سنة ١٩٠٧م إلى ١٩٣٣م**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢ط، ص ١٥.

(٢٩) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٣٠٠.

(٣٠) عبد القادر بوراس، **ملامح عن مقاومة زيد أوسكونتي**... م س، ص ١٦.

(٣١) نفسه.

(٣٢) عبد القادر بوراس، "مقاومة أهالي تافيلالت والاسطوغرافيا الاستعمارية (١٩١٤_١٩٣٤)"، **مجلة دار النيابة**، ص٤٠.

(٣٣) المختار السوسي، م س، ص ٢٦٥

(٣٤) عبد القادر بوراس،"التوزونيني"، **معلمة المغرب**، الجزء الثامن، ص ٢٦٣٥_٢٦٣٣.

(٣٥) تافيلالت منطقة توجد في الجنوب الشرقي للمغرب، وهي بالمحاذاة من موقع مدينة سجلماسة التاريخيّة. والمقصود هُنا تافيلالت بالمعنى الضيق أي مدينة الريصاني حاليًا.

(٣٦) عبد الله، استيتيتو، **دور تافيلالت** ... م س، ص ٢٨٣.

(٣٧) علوي علي، **مقاومة الغزو الفرنسي بمنطقة تافيلالت (أواخر القرن ١٩-١٩٣٢ م)**، بحث لنيل الماستر تحت إشراف محمد بوكبوط، كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، موسم ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٤٤.

(٣٨) قصر تيغمرت من القصور المخزنية مساحته صغيرة نسبيًا، يوجد عالي مقربة ١٥ متر من الضريح القديم لمولاي علي الشريف، وهو الآن عبارة عن كومة تراب بعدما دمره الفرنسيون سنة ١٩١٨.

(39) Louis Voinot, **Sur les traces glorieuses des pacificateurs du Maroc**, Rabat, 1939, p . 250.

(٤٠) محمد العلوي الهاشمي، "**مقاومة الاستعمار في تافيلالت**"، **مجلة الإحياء**، المجلد الخامس، الجزء الثاني محرم جمادي الثانية ١٤٠٦/ نونبر-أبريل، ص ٣٠.

(٤١) المهدي الناصري، م س، ص ١٠٨.

(٤٢) للاطلاع على تفاصل العمليّة ينُظر المختار السوسي، الجزء السادس عشر من المعسول الصفحة ٢٦٧.

(43) Louis Voinot, op.cit, p.250.

(٤٤) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٣٢٥.

(٤٥) عيسى العربي، **مقاومة سكان أزيلال للاحتلال الفرنسي في مرحلة غزو المغرب ١٩١٢ – ١٩٣٣**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط١، ٢٠٠٨، ج ٢، ص ٦٩٣.

(٤٦) للاطلاع على تفاصيل المعركة، يُنظر: محمد بوكبوط، "معركة البطحاء كاوز ١٩٨: المعركة المنسية"، **مجلة الذاكرة الوطنية**، ندوة الأدب والمقاومة، العدد ٢٠، ٢٠١٢.

(47) Louis Voinot, op. cit, p. 252.

(٤٨) المختار السوسي، المعسول، م س، ص ٣١٤.

(٤٩) المختار السوسي، **المعسول**، م س، ص ٣٠٩.

(٥٠) عبد الله حمودي، م س، ص ٦٠.

(٥١) أحمد البوزيدي، "الروابط الفكرية والعلائق الثقافية بين درعة وتافيلالت إلى عهد مولاي يوسف (١٩١٢- ١٩٢٧)"، **جامعة مولاي علي الشريف**، دورة التاسعة عشر، الثقافة والفكر في عهد السلطان مولاي يوسف،ج ١، ١٢- ١٣، ينير ٢٠٠٨.

(٥٢) محمد بوكيوط، "الواقع الاجتماعي لحركة المقاومة (١٩١٨-١٩٣٢)"، **جامعة مولاي علي الشرف**، الدورة الثالثة عشر، السلطة والمجتمع في عهد السلطان مولاي يوسف، ١١-١٢ نونبر ٢٠٠٥، مركز الدراسات والبحوث العلوية، الريصاني، ص ١٠٩.

(٥٣) المهدي الناصري، م س، ص ١٦٩.

(٥٤) نفسه، ص: ١٦٩.

(٥٥) أحمد البوزيدي، م، س، ص ٢٢٨.

(٥٦) عبد الله ستيتيتو، م س، ص ٣٢٨.

(٥٧) نفسه.

(٥٨) محمد بوكيوط، "المخزن والزعامات المحلية بتافيلالت قبل الاحتلال الفرنسي، الثوابت والرهانات"، مقال ضمن كتاب: **السلطة المركزية والزعامات المحلية بالجنوب المغربي**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة تصورات ومنجزات، رقم ١٦٤، ص ١٥١.

(٥٩) محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصحراوية للاستعمار (١٨٨٠-١٩٣٨) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط ١، ٢٠٠٥، ص ١١٠.

(٦٠) المهدي الناصري، م س، ص ١٦٩.

(٦١) المختار السوسي، م س، ص ٢٨٣.

(٦٢) المهدي الناصري، م س، ص٣١.

(٦٣) نفسه، ص ٣٢.

(٦٤) إحدى القبائل البربرية.

(٦٥) رواية شفوية مكّنني منها الأستاذ عبد الواحد العمري أستاذ العلوم الفيزيائية بإعدادية بأرنزران بمدينة الريصاني المغرب. تصور القصيدة التي نسجت بالدارجة المغربية، واقع الخراب الذي خلفه هجوم جيوش المقاومة على عائلة الضحية، إذ خُرب منزلها وقُتل أبوها وأمها (خلاوني فيهاد الغابة كي الغرابة لا أمي ولا بابا)، وفي آخر القصيدة أعلنت عن رغبتها في الانتقام وأخذ الثأر من سلطان تافيلالت التوزونيني ومعاونيه.

(٦٦) هذه الفئة تأتي في أسفل الهرم الاجتماعي لسكان تافلالت، حيث أنها ترتبط بالأرض وحرثها أو العبودية والخدمة بمنازل الشرفاء والأعيان.

(٦٧) عبد الكريم الفيلالي، م س، ص ٤٣٥.

الصحراء الجزائرية
خلال العهد العثماني



أ.د. حنيفي هلايلي
أستاذ التعليم العالي ومدير مختبر البحوث
والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب
جامعة جيلالي ليابس – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

يحاول هذا المقال التركيز على مسالة الصحراء الجزائرية في العهد العثماني، وتبيان عزوف السلطة العثمانية في التوسع بصحراء الجزائر وعدم إعطائها الأولوية يفسر الأخطار الخارجية المستمرة، والمتمثلة في التواجد الإسباني، والحملات الأوروبية البحرية المتكررة على سواحل الجزائر. وعلى الرغم من هذا القسور لم يتوانى العثمانيون من عقد تحالفات استراتيجية مع سكان الواحات لضمان ولائهم للسلطة المركزية والاعتماد على نفوذ الزوايا في الصحراء الجزائرية مما يضمن لهم التبعية والاعتراف بالسلطة العثمانية. كانت الجزائر عرضة للأخطار الأجنبية، وهذا بسبب فعالية موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في معظم المسالك الملاحية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا انطلاقًا من محور مالطة إلى مضيق جبل طارق. ظلت المناطق الجبلية والصحراوية بعيدة عن السيطرة التركية، لهذا جند لها الأتراك العثمانيون كل إمكانياتهم المادية والعسكرية إخماد تمرد قبائلها وإرجاعها إلى السلطة. إلا أن طبيعة المنطقة حالت دون تحقيق هذا الهدف، ومرد ذلك أن حكام الإيالة لم يكلفوا أنفسهم في مبادرة إقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وإبقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب أو الجبلية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٣ سبتمبر ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الصحراء؛ الجزائر؛ العهد العثماني؛ الثورات؛ المستكشفون؛ فرنسا

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057046

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حنيفي هلايلي. "الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة -العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص٩٤ – ١٠٥.

مُقَدِّمَةٌ

إن مراقبة أيالة الجزائر للصحراء قبيل الاحتلال الفرنسي سنة ١٨٣٠ تعد من المؤشرات المهمشة في سياستها التوسعية المتوسطية مقارنة في مجابهتها لإسبانيا والأخطار الأجنبية بوجه عام، إذ كانت النظرة العسكرية متجهة أساسا نحو الشمال والغرب. ويعزى هذا التراجع وعدم الاهتمام بالصحراء إلى قلة الإمكانيات المادية وضعف القدرات العسكرية، وشساعة المناطق الجنوبية والتلية. والراجح أن عزوف السلطة العثمانية في التوسع بصحراء الجزائر وعدم إعطائها الأولوية يفسر الأخطار الخارجية المستمرة، والمتمثلة في التواجد الإسباني الذي يحتل وهران (١٥٠٩) والمرسى الكبير منذ ١٥٠٥، والتحرشات العسكرية المغربية المتكررة على الجزائر خاصةً بسبب قضايا الحدود.[1] ومع هذا لم يتوانى العثمانيون من عقد تحالفات استراتيجية مع سكان الواحات لضمان ولائهم للسلطة المركزية والاعتماد على نفوذ الزوايا

في الصحراء الجزائرية مما يضمن لهم التبعية والاعتراف بالسلطة العثمانية. لقد كانت الجزائر عرضة للأخطار الأجنبية، وهذا بسبب فعالية موقعها الجغرافي الاستراتيجي الذي يتحكم في معظم المسالك الملاحية للحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وهذا انطلاقا من محور مالطة إلى مضيق جبل طارق.

ظلت المناطق الجبلية والصحراوية بعيدة عن السيطرة التركية، لهذا جند لها الأتراك العثمانيون كل إمكانياتهم المادية والعسكرية إخماد تمرد قبائلها وإرجاعها إلى السلطة. إلا أن طبيعة المنطقة حالت دون تحقيق هذا الهدف، ومرد ذلك أن حكام الإيالة لم يكلفوا أنفسهم في مبادرة إقرار التنظيمات وسن القوانين وتنصيب الحكام وإبقاء الحاميات بكل مناطق الجنوب أو الجبلية، باستثناء بسكرة التي ظلت كما هو معلوم ترابط بها حامية تركية مؤلفة من 64 رجلاً[2]. وقد ترتب عن هذه السياسة أن أصبح كل من الإطار الزماني والمكاني للوجود العثماني في هذه المناطق غير قار ولا محدد كما كانت النوبات بمثابة بوبات محدودة لمراقبة أعماق الصحراء الجزائرية.

يعلق "شالر" عن هذه القبائل التي كانت تعيش على تخوم الصحراء بأنهم: "كانوا يحملون في قلوبهم شعورًا قويًا إلى الاستقلال، لا يمكن قهره بحال من الأحوال، وتاريخ الجزائر لا يشير إلى أن الحكومة المركزية قد تمكنت من إخضاع قبيلة واحدة إخضاعًا تامًا بقوة السلاح..."[3]

وقد لفت هذا الموقع انتباه الأوروبيين منذ بداية العصر الحديث، لهذا كان لزامًا على حكومة الجزائر حماية السواحل من الغزو الأجنبي المنظم في شكل حملات عسكرية قادها الأباطرة والملوك والأمراء والرهبان والقراصنة[4]. وفي هذا السياق واجهت الجزائر هذه الحملات الصليبية الشرسة ببناء قوة عسكرية رادعة كأداة لفرض هيمنتها، تمثلت في الأسطول البحري الهام الذي مكنها من القيام بدور مشرف في مسرح الأحداث العالمية.

الصحراء الجزائرية خلال العهد العثماني[*]

تشهد كتب المستكشفين الفرنسيين من رجال الدين والتجار والعسكريين الذين قاموا برحلات متعددة إلى الصحراء الجزائرية منذ بداية الاحتلال-وذلك من خلال محاولاتهم التبريرية تقديم الحجج الباطلة-على أن الصحراء لم تكن خاضعة للنفوذ الجزائري خلال الفترة العثمانية، وتستند ادعاءاتهم فيما بعد بأن جغرافية الصحراء الجزائرية هي من صنع الاستعمار الفرنسي. من هنا جاءت هذه الدراسة لتفند هذه الادعاءات الاستعمارية ومن يروج لها. كان التنظيم الإداري العثماني يرتكز في البلاد المفتوحة على قبولها وجود ممثل السلطان أو نائبه (الباشا) وحامية تركية محدودة العدد مهمتها جمع الضرائب وحماية الأقاليم واستتباب الأمن[5]. ولتأمين طرق المواصلات بين البايليك ودار السلطان أنشأ العثمانيون بالجزائر تحصينات في كل المدن الساحلية والداخلية وعلى الطرق السلطانية ومداخل المدن الصحراوية.

تُعَدّ مدينة المدية عاصمة بايليك التيطري في العهد العثماني، وهي منطقة تقع جنوب غرب مدينة الجزائر، وكان يحيط بها سور من الحجارة الصلبة ولها خمسة أبواب، اثنان منها محروسان بطبخاتان تضم كل واحدة أربعة مدافع[6] كانت التحصينات الدفاعية للمدينة مزودة بمدافع ميدانية، يستخدمها جيش البايليك أثناء حملاته ضد القبائل المتمردة، وكانت حاميته تتكون من خمسين جنديًا (صبايحيا) وخمسة مكاحليا، كحرس خاص للباي، بالإضافة إلى خمس صفرات من (120) جندي إنكشاري موزعة في أراضي البايليك ومقسمة على أربع قيادات[4].

1. قيادة التل الصحراوية
2. قيادة التل القبلية.
3. قيادة سور الغزلان.
4. قيادة الجنوب وأولاد مختار.

ومن أهم المراكز العسكرية الاستراتيجية في أراضي البايليك فهي:

1. برج سور الغزلان الذي بني على أنقاض مدينة رومانية (AUZIA) سنة 1594م، وكانت حاميته تضم ثلاثين جنديا وستين احتياطيا وعدد من المدافع[7].
2. برج السواري الذي أقيم على الحدود الجنوبية لحماية أراضي البايليك من هجمات القبائل الرحل.[8]

لم تكن سلطة العثمانيين تشمل كل البلاد الجزائرية، فهناك قبائل قوية أو اتحاد قبائل على رأسها أسر متنفذة بقيت تحتفظ بقدر كبير من الاستقلال الذاتي. كما كانت هناك اتحادات قبلية على أساس ديني. وبصورة عامة لم تكن السلطة العثمانية الفعلية في

الجزائر حسب الكتابات الفرنسية تشمل سوى ٦/١ الجزائر، واصطنع الأتراك بعض القبائل عرفت باسم قبائل المخزن، أعفوها من الضرائب وأطلقوا يدها في اضطهاد قبائل الرعية. كما أقاموا على طرق المواصلات محميات عسكرية، وأحاطوا الجبال بحزام من المراكز العسكرية. ومن حسن حظ الأتراك أن مناطق الجنوب لا تستطيع العيش في اقتصاد مغلق[9]. إن التواجد العثماني بالصحراء الجزائرية تؤكده النوبات والمحلات العسكرية المرابطة في منطقة بسكرة[10] وجنوب تبسة وبايليك قسنطينة وجنوب بايليك التيطري بسور الغزلان والمدية، وجنوب بايليك الغرب. وقد ارتبط نظام القبائل المخزنية في السياسية العثمانية بالمناطق التلية، فنجد ما بين معسكر ووهران كل من الزمالة والدواير وبين برواقية وبوغار بالدواير والعبيد وفي جنوب قسنطينة الزمول. إن قبائل المخزن من حيث نشأتها وتطورها وصلاحياتها كانت تعبيرا صادقا وتطبيقا لسياسة الحكام الأتراك مع غالبية الجزائريين، وهذه السياسة هي التي أفرزت قبائل المخزن في شكل مجموعات سكانية تعميرية لها صبغة فلاحية وعسكرية وإدارية.[11] ولكن مع القبائل الساكنة بالصحراء، وهذا من خلال شبكة التوسع في المجال الصحراوي وهوما يفسر العديد من الحملات العسكرية.[12]

لهذا كان لا بد لقبائل الجنوب من ارتياد الأسواق التي كان العثمانيون يخضعونها لإشراف دقيق ويستغلون الأوضاع للضغط على هذه القبائل أو إجبارها على دفع الضرائب. ومنذ مطلع القرن الثامن عشر بدأت موارد الغنائم البحرية (القرصنة) تتضاءل بسبب انحطاط البحرية الجزائرية. مما دفع بإيالة الجزائر إلى زيارة الاعتماد على الموارد الضرائبية، فأخذت قبضة البايات تشتد في الداخل والجنوب وهذا في منتصف القرن الثامن عشر، وسعوا إلى إخضاع المزيد من القبائل، وسرعان ما تحول المرابطون إلى متزعمين للثورات التي بدأت بصورة خطيرة منذ بداية القرن التاسع عشر في شمال قسنطينة وغربي بايليك دار السلطان، وفي جميع أنحاء بايليك الغرب[13].

ومن أهم تحصينات الجنوب، تحصينات مدينة بسكرة وهي عاصمة الزاب، وإحدى القواعد العسكرية العثمانية على حدود الإقليم الجديد. كانت المدينة محصنة ببرجين مسلحين بثمانية عشر مدفعا حسب معلومات القائد إبراهيم[14] في حين يشير شاو أن المدينة لا يوجد بها سوى برج واحد مسلح بستة مدافع وبعض المكاحل الموضوعة على العجلات بالإضافة إلى بعض القطع المدفعية الخاصة بالميدان، كانت تستعمل للقضاء على تمردات القبائل أثناء حملات تأدية الضرائب[15].

ظلت ورقلة ومنطقتها تشكل المحور الأساسي لأحداث الجنوب الجزائري، ومركز الثقل للتطورات التي عرفتها الجهات الشرقية من الصحراء الجزائرية. فطيلة الفترة العثمانية كانت تشكل محورًا ومركزا رئيسيا لتجارة السودان ومحطة قارة لطريق الحج، ومنطلقاً سهلاً للتوغل في أعماق الصحراء. على أن الشيء الجدير بالذكر أن الوثائق تثبت قلة الحملات العسكرية نحو الجنوب وهذا قبيل القرن الثامن عشر باستثناء تعرض منطقتي ورقلة وتوقرت للحملة التي شنها صالح رايس (١٥٥٢-١٥٥٦) بيلارباي الجزائر في شهر أكتوبر 1552 م على رأس جيش مجهز بمدفعين لفك الحصار ومكون من 3000 من المشاة و1000 من الفرسان. وقد تمكن من أخذ 200 ألف ريال من أهالي المنطقة[16] وقد رافقه في هذه الحملة عبد العزيز أمير بني عباس. كان الهدف من هذه الحملة هو استعادة السيطرة على الطريق التجاري الذي تتحكم فيه ورقلة بين بلاد السودان الغربي وجنوب الصحراء.

والبلدان الواقة شمالها، يضاف إلى ذلك اخضاع الزعمات المحلية بالمنطقة لنفوذه. أما لويس مارمول كربخال (Marmol Carvajal)[17] فأشار أن صالح رايس عاد من توقرت وورقلة بخمسة عشر جملاً محملاً بالذهب. أما الحملة الثانية فقام بها يوسف باشا (1647-1650م) عام 1649م، حيث طالب الأهالي بدفع الضريبة للمساهمة في خزينة الجزائر. حيث أكدت على انضمام المنطقة إلى الحكم المركزي بالجزائر، وهذا ما جاء ذكرها في دفتر التشريفات مسجلة بتاريخ 1790م في مساهمة المنطقة بخمس وأربعين فردا، وتوقرت بـ 16عبدًا، وتماسين بـ عبدًا ٢٠.[18]

كان للنفوذ العثماني بمنطقة ورقلة جانبان أحدهما سلبي يقوم على استعمال القوة وشن الحملات وفرض الضرائب والتحكم في المراعي، والآخر إيجابي يعتمد على المبادلات التجارية ومراقبة الهجرة المؤقتة للبدو الرحل. وذلك بفعل الأسواق ومراعي الهضاب والتل وطرق الصحراء ومراكزها. ويعطي لنا النفوذ العثماني بمنطقة ورقلة فكرة صحيحة عن مدى ارتباط الجزائر بإفريقيا السوداء، ويثبت تكامل

إقليمي الصحراء والتل. هذا التكامل الذي يعطي للإيالة الجزائرية منذ القرن السادس عشر وحدة طبيعية[19]. ومن خلال دفتر التشريفات فإنه في سنة 1829م كانت نوبة بسكرة تتكون من السفرات وعدد متواضع من الجنود والجدول التالي يوضح لنا ذلك[20]:

نوبة بسكرة	4 سفرات	15-16-16-15	62 جنديًا

يعود سبب هذا الإخفاق والتراجع في المغامرة الصحراوية من طرف قوات أيالة الجزائر إلى الحملات العنيفة والمتكررة في الحوض الغربي للمتوسط التي كانت تجابهها عاصمة الجزائر باستمرار والهجومات المتكررة من جهة المغرب، مما كان له أثره في إهدار الطاقات المادية والعسكرية.[21] والظاهر أن التوسع العسكري للأتراك العثمانيين بالصحراء الجزائرية لم يعرف الاهتمام إلا مع القرن الثامن عشر بسبب ضعف الأسطول الجزائري وضآلة الموارد وتراجع الغنائم، بدأ التفكير في موارد قارة وهي الضرائب. وهو ما يفسر العديد من الحملات العسكرية من أجل توسيع شبكة المواصلات في المجال الصحراوي، وهذا بفضل تسخير الطاقات المادية والبشرية.[22]

في السياق نفسه نسجل على جهة بايليك الغرب أكبر حملة عسكرية قادها باي معسكر محمد بن عثمان، الباي محمد الكبير(١٧٧٩-١٧٩٧م)، على الشلالة وأفلو والأغواط وعين ماضي سنة ١٧٨٥ لفرض الضرائب. وقد قام الباي بعديد الحملات في الجنوب الغربي لتأديب أتباع الطريقة الدرقاوية وشملت الحملات إطارًا زمنيًا طويلاً امتد ما بين ١٨٠٥ إلى غاية ١٨٢٦. وقد كانت الدرقاوية أقوى الطرق في الجزائر، وكان مركز الدرقاوية الرئيس في الونشريس وجنوب التيطري، ولها أتباع في غربي الجزائر، وعلاقات وطيدة بسلاطين المغرب وكان شيخ الطريقة يقيم في فاس وقد أبدى الدرقاويون مقاومة عنيفة للأتراك حتى صار تعبير "عاصي" يوازي تعبير درقاوي. وقد تزامن انتشار هذه الطريقة مع تفاقم الوضع السياسي والاقتصادي لحكومة الدايات. ففي بداية القرن التاسع عشر أشعلت الدرقاوية ثورة خطيرة في منطقتي قسنطينة ووهران، فغطت مساحتها المنطقة الغربية من الشلف حتى الحدود المغربية بالإضافة إلى أغلب الجهات الشرقية من الإيالة. كما تعد الثورة الدرقاوية من أخطر الثورات التي عجلت بسقوط الجزائر العثمانية وضعف قدراتها الحربية في مواجهة الاحتلال الفرنسي سنة 1830م وتنتسب الطريقة إلى الشيخ مولاي العربي الدرقاوي (١٧٣٧-١٨٢٣م).[23]

قام أتباع الدرقاوية بثورة في بايليك وهران، بسبب تشدد باي وهران معهم وقتله عدد منهم. وقد تزعم الثورة مقدم الدرقاوية محمد بن عبد القادر بن الشريف الفليتي[24]. لقد لقي ابن الشريف التأييد الواسع من القبائل الجزائرية التي كانت تناصره وتقدم له الهدايا والعطايا[25]، كما كانت تشكوا إليه ما يصيبها من إرهاق بسبب ما يفرضه البايات من مغارم وضرائب. ويبدوا أن فكرة إعلان الثورة على الأتراك بدأ بأول لقاء ابن الشريف مع شيخه مولاي العربي الدرقاوي. وقد استغرقت عمليات الاستعداد للثورة، مدة خمس سنوات (1800-1805م) ولعل فتيل إشعال الثورة بين ابن الشريف والأتراك هو استغلاله، الهزيمة العسكرية التي منيت بها قبائل المخزن أمام قبائل الأنجاد[26].

استغل ابن الشريف هذه الهزيمة، ليغطي الاذن لأتباعه بنهب ممتلكات هذه القبائل فلما سمع باي وهران مصطفى العجمي (١٨٠١-١٨٠٥) بالخبر، عسكر بجيشه على ضفاف وادي ميناء[27]. والتقى الطرفان بقرية فرطاسة[28] سنة 1805م حيث جرت معركة، انهزم فيها الجيش الإنكشاري: "فأمسى الباي ومخزنه في ......وأصبح الدرقاوي وأتباعه في رغد..."[29].

تمكن ابن الشريف من الدخول إلى مدينة معسكر، فجعلها قاعدة لجيشه، وراح يوجه النداءات إلى كل القبائل لتعلن الحرب والجهاد ضد الأتراك وحلفائهم من قبائل المخزن: "أنا نزعت عنكم ما كنتم به من أداء الجزية التي هي حرام على المسلم وقطعنا دابر الترك وأتباعهم فالواجب مبايعتنا والجهاد معنا"[30]. ووجد نداء الشريف استجابة كبرى حيث انضمت إليه فلول قبائل الغرب والوسط الجزائري بل تعدتها إلى القبائل المخزنية مثل قبيلة الحشم والغرابة والزمالة والدواير[31]. تمكن الثوار من السيطرة على القبائل من حدود مليانة إلى وجدة، مما أدى بالحاميات التركية إلى الانسحاب، والتمركز في المدن الساحلية كما سارع ابن الشريف إلى ضرب الحصار على وهران، وحاول باشا الجزائر نجدة المدينة المحاصرة، لكن القبائل الثائرة اعترضت طريق الجيش العثماني للوصول إلى وهران[32].

وأمام هذه الوضعية الصعبة، طلب الباي تدخل السلطان المغربي سليمان(١٧٩٧-١٨٢٢م) لدى شيخ الطريقة مولاي العربي الدرقاوي المقيم في فاس ليقوم بتهدئة أتباعه[33]، ولكن شيخ الدرقاوية بعد أن زار تلمسان وسمع شكاوى أتباعه أيد موقفهم، ويبدو أنه دعاهم إلى مبايعة سلطان المغرب واعتمادا على الرسائل المتبادلة بين شيخ الطريقة والسلطان سليمان، سنة ١٨٠٥م، نستنتج أن السلطان لم يرفض البيعة وكانت بثقته القيام بتدخل عسكري في المنطقة الغربية من الإيالة ولكن الظروف الطبيعية حالت دون تحقيق هذا الهدف التوسعي.

كان فشل ابن الشريف في اقتحام مدينة وهران التي حاصرها مدة ثمانية أشهر السبب في عدول سلطان المغرب عن الدخول في حرب مع الأتراك، فآثر التخلي عن مشروعه. وقد قام داي الجزائر بتعيين الباي محمد المقلش الذي رافقته قوة من الإنكشارية قدرت بـ ١١٠٠جندي، واتخذ سبيل البحر لدخول المدينة المحاصرة[34]. وعمد الباي "محمد المقلش" إلى الوسائل الديبلوماسية واستعمال الدهاء السياسي لاتقاء شر الدولة العلوية، واستعمال أنواع القمع والإرهاب ضد الثوار[35]. ومع حكم الباي المقلش (١٨٠٥-١٨٠٧م) تراجعت مواقع القوة لصالح الأتراك، حيث انتصر جيش الباي على الثوار في موقعه أولاد زائر[36] ومعركة السدرة التي رجحت كفة النصر لصالح الجيش العثماني[37].

استطاع الباي المقلش ما بين (١٨٠٥-١٨٠٨م) من إخضاع قبائل مهاجر والبرجية وبني عامر المتحالفة مع ابن الشريف[38]. واستطاعت هذه الطريقة أن تؤثر على رموز النظام العثماني وكان من بينهم الباي محمد بن عثمان الملقب ببوكابوس، أو المسلوخ (١٨٠٨-١٨١٣م)، الذي تولى حكم بايليك الغرب بعد محمد المقلش، فقد انتمى سريا إلى الطريقة الدرقاوية، وأعلن تحالفه مع السلطان المغربي، مولاي سليمان وحسب الوثائق الإسبانية، فإن الباي بوكابوس قد طلب من إسبانيا وإنجلترا عام ١٨١٣م[39]. تزويده بالبارود، بغرض مراقبة السواحل لمنع الأسطول الجزائري القادم من العاصمة إذا حاول دخول ميناء وهران، وقد وعد الباي كلا من إسبانيا وإنجلترا بامتيازات وإغراءات اقتصادية في حالة تقديم يد العون لإنجاح تمرده على السلطة[40].

لم تتمكن إسبانيا من الالتزام بوعودها للباي بسبب الاتفاقيات المبرمة مع الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر، في حين أن المغرب كانت إمكاناته العسكرية محدودة، ولم يرد الدخول في مواجهة عسكرية ضد الأتراك وبعد فشل ثورة بوكابوس، أعطيت الأوامر للباي الجديد يسلم رأس بوكابوس حيا وحشو جلدة رأسه قطنا وإرساله إلى مدينة الجزائر لتعليق جثته على أبواب المدينة وقتل أولاده وهم صبيان[41].

هل من المصادفة أن تكون ثورة الدرقاوية مشروع سياسي قام به سلاطين المغرب؟ – الأعداء التقليديون للجزائر العثمانية-وهذا بواسطة أعوانهم وأتباعهم للتوغل في أراضي الجزائر، بعد أن فشلوا في المواجهة العسكرية؟ لكي نفهم حقيقة هذه الثورة وانعكاساتها على أيّالة الجزائر، يجب ألا نقنع بما هو متوفّر من حقائق. بل لابد أن ندرك بكيفية ما، وعبر تفسيرات أخرى واعتماداً على الشواهد والوثائق أن ثورات القرن التاسع عشر كانت تعبيرا هادفا عن السخط الشعبي على الأوضاع السياسية والاقتصادية التي كانت سائدة في الجزائر أواخر العهد التركي، بالرغم من أن شعارات الثورة كانت دينية ومتسترة وراء مطالب قبلية. وقد شكلت الدرقاوية الطريقة الأكثر انتشاراً وتوسعا ونفوذا، حيث كانت وراء ثورات عديدة، وإذا كانت الطريقة القادرية[42] تأخذ الاتجاه الارستقراطي فإن الدرقاوية تأخذ الاتجاه الشعبي حيث أن المنضمين إليها كانوا غالبًا ينتمون إلى قبائل الرعية.

كانت هذه الطريقة تسعى للوقوف في وجه السلطة العثمانية، وكانت تدفع للتمرد على السلطة الحاكمة، وكان مجال انتشارها الجغرافي يمتد في بايليك الغرب والمنطقة الوسطى من الجزائر. وقد استغلت الطريقة الدرقاوية تمرد بعض القبائل على الحكم من أجل التحالف معها. ونلاحظ أنه في نهاية القرن الثامن عشر كانت قبيلة بني عامر تستقبل عدداً من العائلات الدينية، حيث وجدت هذه الأخيرة أرضية خصبة لدعوتها، كما وجدنا قبيلة بني عامر في انتسابها للطريقة الدرقاوية وسيلة للوقوف في وجه السلطة. وبالرغم عن كونها طريقة دينية إلا أنها بدأت تأخذ منحى العمل التحريضي من أجل التمرد على السلطة والعصيان لإضعاف الحكم[43].

لقد تنامت قوة التجانيين في مناطق الجنوب وكان مركزها الرئيس في "عين ماضي"، وقد ثاروا بعد انتهاء ثورة الدرقاوية بزعامة محمد الكبير الابن الأكبر للشيخ

أحمد التيجاني[81]. وكان للطريقة أتباع كثيرون في الصحراء والهضاب، وكانت مراكزهم وزواياهم تشكل خيطًا من مدينة فاس إلى تلمسان حتى الأراضي التونسية مرورًا بالواحات والقصور[44]. وبسبب الدور الاقتصادي المتميز الذي لعبه التيجانيون، وفي تحكمهم في مداخيل التجارة مع إفريقيا السوداء، تقرب إليهم المغاربة والتوانسة والمشيخات الصحراوية وحاولت التقرب منهم وكسب ثقة شيوخهم[45].

تعرض الشيخ أحمد التيجاني (١٧٣٧-١٨١٥م) إلى ضغوطات باي وهران محمد بن عثمان، فنعزل عن المدن، ولما بلغه تهديد الباي له، أسرع بالفرار إلى فاس، مستأذنا السلطان المغربي مولاي سليمان الذي أكرم ضيافته وحاول استعماله كأداة ضغط ضد الأتراك وقام الباي محمد الكبير بحملة عسكرية بالجنوب الصحراوي وأغار على قرية عين ماضي والأغواط معاقل الطريقة التيجانية سنة ١٧٨٧م وأرغم شيوخها على الخضوع إلى سلطة البايليك[46]. كما فشل باي التيطري مصطفى بومرزاق (١٨٠٩-١٨٣٠م) في الاستيلاء على مقر التيجانية في عين ماضي سنة ١٨٢٢م[47].

وفي سنة ١٨٢٥م حاصرت قوات الباي مصطفى بومرزاق قرية عين ماضي لمدة شهر وانتهى الحصار بإبرام الصلح بين الطرفين تم بموجبه تقديم ٢٠٠٠ ريال بوجو، وغرامة سنوية مقدارها ٥٠٠ ريال بوجو[48].حاول محمد التيجاني استمالت القبائل في المناطق الغربية مثل "بني عامر"، "بني شقران"، "البرجية"، "الغرابة"، "الزمالة" و"الدواير"، لكنها امتنعت عن المبايعة، والذي شجع التيجانية هو قبائل "بني هاشم" التي شجعته في إعلان الثورة على الأتراك، وزحف جيشه المقدر بـ ٦٠٠ مقاتل نحو معسكر سنة ١٨٢٧م، ودارت معركة بين التيجاني والجيش العثماني بأرض "أولاد دوحر بمعسكر" [49].

فشل التيجانيون في الاستيلاء على معسكر، ويصف لنا الزهار النهاية المأساوية التي تعرض لها أنصار التيجانية على يد الأتراك: "...فقطعوا رؤوسهم –أي الأتراك-وفرقوها على المدن لكي يعتبر الناس وبعثوا برأس الحاج محمد... ومعه بعض الرؤوس الأخرى للجزائر وآتوا بسفينة وبعض الحاجات التي كانت عليه... وجعلوا رأس ولد التيجاني في عمود وصلبوه قبالة (أمام) الباب الجديد وعلقوا الرؤوس الأخرى حولهن ولكثرة ما كان الأتراك يخافونه بعثوا للسلطان محمود الثاني يبشرونه بقتله..."[50] ولعل الفشل الذي منيت به الطريقة التيجانية في أول معركة لها مع القوات العثمانية، يرجع إلى عدم التجاوب الشعبي مع الطريقة بمثل ما حظيت بع الطريقة الدرقاوية، بالإضافة إلى السياسة الانتقامية التركية المبنية أساسًا على الإرهاب والتسلط ضد القبائل المتعاونة مع الثور، وبهذا الفشل توجه نشاط التيجانية نحو الصحراء والسودان.

كان الشيخ التيجاني يقوم بزيارات مستمرة بين مدينته "عين ماضي" و"تلمسان" وفاس، فتخوفت السلطات العثمانية من أن تكون هناك مؤامرة سياسية تحاك ضدهم بالتنسيق مع السلطان العلوي سليمان، فقام الباي محمد الكبير بغارة على قرية "عين ماضي والأغواط، وكل الجنوب الصحراوي" حيث يتمركز نفوذ الطريقة التيجانية، وقد تمكن الباي من إرغام سكان المنطقة بالاعتراف بالسيادة التركية ودفع الغرامة المالية المستوجبة وكان ذلك سنة ١٧٨٧م[51].

في بايليك التيطري كان الصراع محتدمًا ما بين منطقتي وادي سوف والأغواط، فحاول باياتها تأديب القبائل المناهضة مثل أولاد نايل وقد قتل خلال الحملات العسكرية بايين هما عثمان(١٧٧٠) والباي صوفرا (١٧٧٣)، وقرفت هذه المناطق نوعا من التهدئة بمجيء الباي مصطفى الوزناجي (١٧٧١-١٧٩٤) والباي مصطفى بومرزاق.[52] أما في بايليك الشرق مع سياسة الددهاء التي استعملها الباي محمد القلي (١٧٥٦-١٧٧٩) إلى غاية قدوم الباي أحمد باي (١٨٢٦-١٨٣٧) اللذين انتهجا سياسة التفرقة بين القبائل خاصة بين عائلتي بوعكاز وبن قانة لقيادة مشيخة العرب.[53]

وفي بايليك الشرق احتدم الصراع بين الأسرة والعائلات الكبرى في مولات السلطة المركزية بالجزائر وهذا في عهد الباي محمد القليوإلى غاية الباي الحاج أحمد (١٨٢٦-١٨٣٧) من خلال عائلتي بوعكاز وبن قانة. وفيهذه الفترة تكاثرت عديد الحملات العسكرية على منطقة الزيبان، أهمها حملة صالح باي (١٧٧١-١٧٩٢) الذي سيطر على توقرت، وحملة الباي أحمد المملوك، حكم هذا الباي مرتين الأولى سنة ١٨١٨ والثانية ما بين ١٨٢٠-١٨٢٢، الذي نهب منطقة وادي سوف سنة ١٨٢١. والباي أحمد القلي (١٧٥٦-١٧٧١).[54]

في إطار سياسة الحفاظ على المراقبة المستمرة لمناطق الجنوب، اعتمدت سلطات البايليك على نظام

مقالات

قوة القبائل المخزنية، وهو ما نستشفه من محاربة القائد الأعلى للقوات الجزائرية زمنئذ الآغا يحيى[53]، الذي حارب أولاد نايل في جنوب بايايك التيطري وأولاد سلطان بالحضنة.[54] ومن خلال هذه المعطيات التاريخية يتضح أن الأتراك العثمانيين قد تباينت نظرتهم تجاه الصحراء الجزائرية من منطقة لأخرى، ولكنها في المقابل تنامت في الأسواق التجارية الصحراوية. كما يمكننا حصر أهم الأسواق المراقبة من طرف سلطات البايليك والتي كانت تتاجر فيها قبائل الجنوب، منها أسواق الجعافرة شرق سعيدة، وأولاد لكرود وأولاد شريف جنوب شرق تيارت، وأولاد عياد في ثنية الحد، وجندل ومشرية ما بين منطقتي الشلف والمدية ومليانة، الدواير وأولاد مختار ما بين بوغار وسور الغزلان، وبوسعادة في الهضاب العليا ببايليك قسنطينة وأولاد عبد النور، والحراكتة في تلاغمة، وأهمها سوق واد العثمانية في غرب قسنطينة.[55]

تمكنت أسواق المناطق التلية من الاستحواذ على نطاق واسع من النشاط التجاري مع الواحات الجنوبية مثل بسكرة وتقرت والأغواط وغرداية، والمناطق القريبة منها في المبادلات التالية: التمور، والجلود مقابل الصوف ومختلف أنواع الحبوب، ولم يتمكن الأتراك العثمانيون من بسط نفوذهم على المراكز التجارية الصحراوية البعيدة عنهم مثل عين صالح وغدامس. آما باقي المناطق فقد تم السيطرة عليها بشكل واسع اعتبارًا من أسواق مدينة الجزائر مرورا بسوق بسكرة وبوسعادة والبويرة، وميزاب إلى تونس عبر الأغواط وبوسعادة، وقسنطينة إلى الكاف التونسية. وشملت المبادلات التجارية البضائع المغاربية والأوروبية، مع اتساع دائرة المتاجرة بالعبيد السود.[56]

استطاع بعض ساكنة الصحراء الجزائرية من الاستقرار في المناطق الشمالية، مثل بنو ميزاب الذي كان لهم دور مميز في التجارة الصحراوية خلال العهد العثماني، وقد تمكن بعض العناصر منهم من الاستقرار بمدينة الجزائر قاعدة الحكم العثماني، وأشرفوا على الحمامات والقصابات والمطاحن. كما تميزت معظم الحرف في مدينة الجزائر بالاحتكار من طرف الجماعات البرانية. وقد عملت إدارة البايليك على تأسيس شبكة للتنظيمات الحرفية، وذلك قصد التحكم الجيّد في الجماعات الحرفية. وأقرت السلطات تعيين أمين عام لمراقبة عمليات البيع والشراء والتسويق وقمع حالات الغش السائدة في الأسواق. وقد ذكر مخطوط قانون الأسواق من بين هذه المجموعات التي كانت تؤطر الحرف بمدينة الجزائر: المزابيون، والبساكرة، ومن خلال استقراء مضامين مخطوط قانون الأسواق فإن البساكرة الحمالة احتلوا المرتبة الخامسة في مجال التنظيم الحرفي في مدينة الجزائر. والجدول التالي يوضح لنا توزيع البساكرة الحمالة في مدينة الجزائر ما بين القرنيين ١٧و١٨م:[57]

جدول توزيع البساكرة جغرافيا
في أحياء مدينة الجزائر خلال العهد العثماني

توزيع البساكرة جغرافيا في مدينة الجزائر	التوزيع الجغرافي للعمل
أهل بوشقرون	رحبة الزرع
أهل اللواء	فندق الزيت
أهل طولقة	زنقة جامع سفير
أهل سيدي عقبة	باب جديد
أولاد جلال	زنقة جامع كتشاوة
أهل سيدي خالد	زنقة جامع علي بتشين
أهل البرج	باب البحر

ولا تعكس تسمية البساكرة حقيقة وواقع تشكيلة الجماعة، فهي تضم عناصر عديدة ومختلفة، وفدت من مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوقرت وطولقة.[58]

يعتبر البرانيون -حسب التعبير الغربي-من بين سكان مدينة الجزائر النشطين خلال العهد العثماني. وعلى الرغم من هيمنتهم على العديد من المهن غير المرغوب فيها من طرف البلديين "الحضريين" وتقديمهم للعديد من الخدمات الضرورية لأهل المدينة، فقد ظلوا يعتبرون أجانب بسبب انغلاقهم ضمن المجموعات التي ينتمون إليها وعدم اندماجهم بشكل عملي في حياة المجتمع من خلال الزواج وامتلاك العقارات وغير ذلك. فأغلبهم هاجروا بدون أهلهم وظلوا مرتبطين بمراكزهم ومناطقهم الأصلية. ينتمي هؤلاء إلى منطقة صحراوية، "تقع بالجنوب الجزائري بين الأغواط وواحة توات"، معروفة بظروفها المناخية الصعبة. وكانت الهجرة للعمل بالنسبة للذكور هي الوسيلة الوحيدة للكسب العائلي، وقد عاش هؤلاء في انغلاق على أنفسهم، لكنهم كانوا أكثر

الطوائف البرانية تعاونًا وتضامنًا فيما بينهم، إذ تتآزر الجماعة لأداء ديون من يتوفون، وتقدّم العون لمن يفلسون في تجارتهم، وتدفع الغرامة عمن يرتكبون محظورًا ما. كان النازحون من منطقة الميزاب بمدنها السبعة: غرداية وبني يسقن ومليكة وبريان والعاتق والقرارة وبونورة. وقد تميزت بفقرها وقلة إمكانيات العيش بها مما جعلها من المناطق الطاردة فكانت الهجرة اضطرارية وضرورية. وتذهب بعض الدراسات إلى أن الهجرة انتظمت منذ القرن الرابع عشر. وكان نزوح بني ميزاب أساسًا نحو التل والشمال.[59] وإذا كانت الأخبار شحيحة للغاية عن توافد بني ميزاب على مدينة الجزائر قبل الفترة التي نخصها بالدراسة، فمن المؤكد أن تواجدهم بمدينة الجزائر يعود إلى فترة سابقة لعام ١٥٤١.[60]

ماهي الأسباب التي أدت إلى ضعف التواجد العسكري العثماني بالصحراء الجزائرية؟ يعود هذا حسب المصادر المتاحة لنا إلى ثلاث مؤشرات:[61]

١- ضعف القدرات والإمكانيات المادية والعسكرية للأتراك العثمانيين، بجيش محدود عدديًا ومحدودية الموارد المالية.

٢- كانت هذه الحملات مكلفة ماديًا ومعنويًا وتستمر شهورًا مما يكلف الخزينة أعباء ثقيلة.

٣- عدم وجود قواعد ومحلات عسكرية في معظم الواحات الصحراوية لاستتباب الأمن، باستثناء بعض النوبات بتعدد ضعيف نسبيا من جنود الإنكشارية، فكان لزامًا على السلط آنذاك الاعتماد[63] على القوة المخزنية لضمان ولاء هذه المناطق النائية.[64] يضاف إلى ردع بعض قبائل الجنوب بواسطة الحملات العسكرية الفصلية المتكررة لجلب الغنائم وفرض الضرائب على قبائلها.

٤- كانت عمليات جلب الضرائب من المناطق الصحراوية عملاً مهمًا لأيالة الجزائر وتتم تحت الضغط والإكراه، حيث كان البايات يعمدون إلى شن الحملات التأديبية لإرغام سكان الجنوب لدفع الضرائب المتوجبة عليهم مثل الغرامة أو المعونة. وتعتمد هذه الحملات العسكرية على قبائل المخزن.[65]

حفاظًا على سياسة التوازنات لم يشأ الأتراك العثمانيون خلق قوى مناوئة لهم في جنوب الجزائر يكون موازله لهم في المناطق التلية، وقد تم الاعتماد على حشد كبير من موظفي البايليك يعاضهم شيوخ القبائل المخزنية. كما وجدت هذه الاستراتيجية من لدن سلطات البايليك إلى انجاح سياسة أحمد القلي من اغتصاب مشيخة العرب من عائلة بوعكاز سنة ١٧٧٠ وتسليمها لعائلة بن قانة التي تساند البايليك على الرغم من أن هذه الأخيرة لم تكن قبائلها من الصحاري، وهو الأمر الذي أتاح لبن قانة التحكم في المناطق الصحراوية ومراقبة نشاطاتها باسم الباي، ووضع حد لتنامي قوة البدو في الصحراء الجزائرية.[66]

هل تمكنت السلطات العثمانية بالجزائر من انشاء علاقات سياسية دائمة ومستمرة مع قبائل الصحاري طوال فترة تواجدهم بالجزائر؟ الواقع يثبت عكس ذلك، لأنها لم تشمل سوى علاقاتها مع بعض القبائل المتاخمة لحدود الأطلس الصحراوي في الجهتين الغربية والشرقية وصولاً إلى مناطق تقورت وورقلة جنوبًا. فمن الناحية الشرقية تباعدت سياسة تونس عن الجزائر منذ انفصال إيالة تونس عن الجزائر، بتكوين باشويتين مستقلتين، وعلى الرغم من المحاولات العثمانية المتكررة في التوسط بين الطرفين وفض النزاع بينهما، وبضرورة توحيد القوى لمواجهة الأخطار الخارجية المحدقة بالدولتين، فقد لبى حكام البلدين في كثير من الأحيان هذه النداءات التي كان يبعث بها الباب العالي.[67]

أما من الناحية الغربية فقد فشل العثمانيون في بسط نفوذهم على أراضي المغرب الأقصى، وتدخلوا في كثير من الأحيان في مد المساعدة للمنافسين والثائرين عل سلاطين المغرب، وانتهاج سياسة التفرقة واستغلال الظروف التي أعطت ثمارها وخاصةً أواخر الأسرة السعدية وأوائل دولة الأشراف العلويين[68]. ومما أثر في تدهور العلاقات الجزائرية المغربية، هي محاولة المغرب القيام بتحالف مع إسبانيا، كان الغرض منه تجهيز أسطول مغربي بأموال إسبانية لضرب مدينة الجزائر[69].

خَاتِمَةٌ

كان للعوامل الخارجية أثر كبير في تدهور النظام الحربي للأيالة الجزائرية، وتتمثل أولاً في تعرض حدود الأيالة الشرقية والغربية للخطر، بعد أن بدأ تدخل المغاربة والتونسيين يأخذ شكل مساعدة مادية ومعنوية للزعماء المحليين الناقمين، باعتبارهم حلفاء تقليديين لبايات تونس وملوك المغرب، كالطريقة الدرقاوية ذات الميول المغربية وعشائر الحنانشة المتأثرة بالدعوة الشاذلية بالجنوب الغربي التونسي[70]. ونظرًا لأهمية هذا الدور وأبعاده في انعدام الأمن على المستوى الخارجي للإيالة الجزائرية، فإن دراسة تطور العلاقات بين الإيالة وجارتيها، يتيح لنا الفرصة للتعرف على ماهية الخطر الحدودي ودوره في عدم تفكير السلطات العثمانية طوال فترة تواجدهم بالاهتمام بالصحراء وبناء قواعد عسكرية بها[71].

في النهاية اتّسمت السياسة العثمانية بالتناقض. كانت من جهة في حاجة إلى استرضاء الأعيان والقبائل المخزنية للحفاظ على الأمن وضمان الجباية ومن جهة أخرى تضطّر، بسبب شحّ الموارد إلى استعمال القوة، مما كان يؤدّي أحياناً إلى ثورة الرعايا خاصة في المناطق السهبية وحدود الصحراء. لقد تميز الوضع إذن بتوازن هش، طال رغم هشاشته، لكنه في نهاية الأمر أضعف النفوذ التركي وبدأ الناس يتكلّمون جهرا بقرب انقراض دولة الترك. وفي هذا المقام، يخبرنا ابن أبي الضياف: ...أن تنافر القلوب بين الرعي والرعية[72] كان العامل الرئيس في سقوط مدينة الجزائر، فلا عجب حينئذ أن ثورات القرن التاسع عشر قد عجلت بسقوط الجزائر سنة ١٨٣٠م.

الهَوامِش:

(1) حول هذا الموضوع يراجع: المكي، جلول، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من ١٣١ إلى ١٢٦٣ هـ/ ١٢٣٤ -١٨٤٧م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، ١٤١٣هـ -١٩٩٣م. حنيفي هلايلي، **النظام الحربي للجزائر منذ مطلع القرن السابع عشر حتى سنة ١٨٣٠**، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة سيدي بلعباس ٢٠٠٤، ص ٢٥١-٢٧٢.

(2) Tachrifat, Recueil de notices historiques sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Pub. Par A. Devoulx, Alger, imp. du gouvernement, 1852.pp.70-71.

(3) مذكرات وليام شالر، **قنصل أمريكا في الجزائر**، (ترجمة: إسماعيل العربي)، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٢، ص ١١٦.

(4) حول الحملات: عبد الجليل، التميمي، **"الخليفة الدينية للصراع الإسباني-العثماني، على الإيالات المغاربية في القرن السادس عشر"**، المجلة التاريخية المغربي، العدد ٦، تونس، جويلية ١٩٧٦م، ص ١١٦-١٢٠. وأيضًا كتاب برودال:

Fernand, Braudel, la Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2ème édition, Armand colin, Paris 1966, T2, pp.384-427.

(*) تشير الأطالس الجغرافية أن الصحراء الكبرى (الصحراء الجزائر جزء كبير منها)، هي أكبر فيافي العالم، وأكبر نطاق جاف إذ تقع معظم أجزائه بين دائرتي عرض ٢٠° و٣٠°. وتنقسم الصحراء الجزائرية بناء على معالم السطح وبنيته الخارجية إلى ثلاث مناطق متباينة هي: -الصحراء المنخفضة الشرقية. - الهضاب الصخرية الشمالية الوسطى والغربية. - مرتفعات الجنوب الشرقي الجبلية (الهقار والطاسيلي). يُنظر:

Gautie,E.F, Le Sahara, Payot, Paris 1928,p.9.

Ferau ,R. Le Sahara, géologie, ressources minérales, Payot, Paris, 1964, pp.91-141.

(5) فارس، محمد خير، **تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي**، دمشق: مطابع ألف باء، الأديب، ١٩٦٩م ص ١٢٩.

(6) Rozet et Carette, Algérie, 2éd, Bouslama, Tunisie, 1980, P.17.

(4) Louis, Rinn: «Le royaume d'Alger sous le dernier Dey» in **R.A** n°41, 1897, pp.135-137.

(7) Robin, «Note sur l'organisation militaire et administrative des Turcs dans la grande Kabylie», in **R.A** n°17, 1873 , p.134.

(8) Boutin, (Colonel), Reconnaissance des villes, forts et batteries d'Alger. Pub. par G.Esquer, Paris, Champion, 1927, p.41.

(9) محمد، خير فارس، المرجع السابق، ص ١٥٢.

(10) Tachrifat, pp.34

(11) حول القبائل المخزنية يُنظر: ناصر الدين، سعيدوني، **ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني**، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي،٢٠٠٠، ص ٢٥٧-٢٧٢.

(12) أطلق تعبير المخزن على هذه التجمعات البشرية التي بفعل الانتساب والاستقرار والنشأة على أراضي البايليك اكتسبت كياناً مستقلاً متمايزًا، وأصبحت لها تسميات جديدة كقبائل: الصحاري والغرازلة وهاشم والعبيد والعثمانة والدواير والزمالة والزواتنة وزمول والمكاحلية. للمزيد حول الموضوع يراجع:

-Emerit ,Marcel, «Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du 19e siècle», in, A.E.S.C, n°1, 1966, pp.44-58.

(13) سعيدوني، **ورقات جزائرية**، ص ١٥٣-١٥٥.

(14) Emerit,M, «un astronome Français à Alger en 1729», in **R.A**,n°84, 1940, p.250.

(15) Shaw (Dr), Voyage dans la régence d'Alger ou description géographique, physique, philologique, etc., et de cet état, Trad. de l'Anglais avec des nombreuses augmentations par J.Mac Carthy, Paris, Malin, 1830, p.129.

(16) Haedo, Histoire des Rois d'Alger, (Traduit et annotée :H-D,de Grammont),Alger, Adolphe Jourdan,1881, pp.271-272.

ويُنظر أيضًا:

Féraud, Charles, «Les Ben-Djellab, sultans de Tougourt, notes historiques sur la province de Constantine», In, *R.A,* n°23, 1879, pp. 269-270

(17) عسكري ومؤرخ إسباني (١٥٢٠-١٦٠٠). وقد ترك كتاب مهما عن شمال إفريقيا عامة والجزائر خاصة موسوم بـ وصف عام لإفريقيا طبع لأول مرة سنة ١٦٠٠ بغرناطة. مارمل كاربخال، **إفريقيا**، (ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر)، الرباط: مكتبة المعارف، ١٩٨٤، ج٢، ص٢٥١.

(18) Devoulx, (A), Tachrifat, recueil de notes sur l'administration de l'ancienne régence d'Alger, Alger, Imp. Du gouvernement, 1852. p.33.

(19) ناصر الدين، سعيدوني، **دراسات (العهد العثماني)**، المرجع السابق، ص ٢٤٢-٢٤٥.

(20) Tachrifat, pp.35-36.

(21) حول موضوع الصراع الجزائري المغربي حول مسائل الحدود والنفوذ قبيل فترة الاحتلال الفرنسي، يُنظر: عمار بن خروف، **العلاقات السياسية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي**، ط٢، تيزي وزو: دار الأمر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠١٦،ص336.

(22) Boyer (Pierre), «Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger, 16e-19 siècle», in R.O.M.M, n°1, 1966, p.37.

(23) اختلف المؤرخون في تحديد كلمة الدرقاوية، ففريق يقول بأن أصل الكلمة يعود إلى (درقة) وهي بلدة قريبة من فاس، بينما يذهب فريق آخر إلى أن اشتقاق الكلمة يعني (خرقة) كناية للرجال الذين اعتادوا لبس البرانس المرقعة، أما الفريق الثالث فيعتبر فعل درقي إلى نبأ، باعتبار أن الدرقاويين كانوا يستعملون أسلوب التقية في وجه النظام التركي بالجزائر. للمزيد من التفاصيل راجع:

Deneveu,X, les Khouans, ordre religieux chez les musulmans de l'Algérie, 3ème éd, Jourdan, Alger 1913, p.128.

(24) أصله يعود إلى قبيلة بربرية هي كسانة القاطنة على ضفاف وادي العبد بضواحي غريس (معسكر) زاول دراسته بالقيطنة ثم بزاوية يوبريح في المغرب حيث اتصل بالشيخ الدرقاوي مولاي عبد الله محمد. وعند عودته إلى الجزائر، عين مقدما للطريقة في الإقليم الغربي للأيالة. انظر: أبو العباس أحمد، الناصري، **الاستقصا، لأخبار دول المغرب الأقصى** (تحقيق وتعليق: جعفر ومحمد الناصري)، الدار البيضاء: دار الكتب، ١٩٠٤-١٩٠٦، ج٨، ص١٠٩.

(25) الزياتي، محمد بن يوسف، **دليل الحيران، وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** (تحقيق وتقديم: الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.)، ص ٢٠٨.

(26) العربي، الغالي، **الثورات الشعبية في الجزائر أثناء العهد التركي (١٧٩٢-١٨٣٠م)**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة دمشق، ١٩٨٥م. ص ١٧٣.

(27) ينبع هذا الوادي من إقليم النجود، ويصب في نهر الشلف.

(28) قرية فرطاسة، تقع جنوب مدينة غليزان وسماها الفرنسيون بـوادي الأبطال.

(29) مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ٧٣.

(30) العربي، الغالي، المرجع السابق، ص ١٧٥.

(31) Delpech, Adrian, «Résumé historique sur le soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran, in, R.A n°78, 1937, p.44 .

(32) Ibidem.

(33) أبو القاسم، الزياتي، **الترجمان: المغرب في دول المشرق والمغرب**، (نشر وتحقيق: هوداس)، باريس ١٨٨٦م، ص ١٠١.

(34) Rotalin, Charles, Histoire d'Alger et la piraterie des Turcs dans la méditerranée, Paris, 1841, T2, p.591.

(35) عبد الرحمن، الجيلالي، المرجع السابق، ج٣، ص ٢٩١.

(36) مسلم بن عبد القادر، المصدر السابق، ص ٩١.

(37) الزياتي، المصدر السابق، ص ٢٢٣.
(38) Esterazy, Walsin, la domination, op.cit., pp.210-212.
(39) مولاي، بلحميسي: "**الثورة على الأتراك في الجزائر شواهد مستقاة من وثائق إسبانية لم تنشر**"، المجلة الثقافية، العدد ٤٦، الجزائر، نوفمبر-ديسمبر، ١٩٧٨، ص ٤٦.
(40) نفسه، ص ٤٥.
(41) نفسه.
(42) تنسب القادرية إلى الشيخ محي الدين عبد القادر الجيلاني المولود في مدينة جيلان (فارس) سنة ١٠٧٩م والمتوفى في بغداد سنة ١١٦٦م، وقد دخلت هذه الطريقة بلاد المغرب العربي في القرن الخامس عشر الميلادي. وقد قامت هذه الطريقة على العلم والفقه والدعوة الدينية، واشتهرت بوطنيتها.
(43) Boyer, Pierre, «Historique des Beni Amer d'Oranie des origines au sénatus consulte», in, R.O.M.M, n°24, 1977, pp. 53-54.
(81) يعتبر كتاب "الكناش" ن المسمى: ظواهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض الشيخ التيجاني، المصدر الأساسي لمبادئ الطريقة التيجانية، وتوجد النسخة الأصلية من المخطوط في مركز أرشيف ما وراء البحار بـ أكس أون بروفانس بفرنسا. راجع:
Arnaud,L, «histoire de l'ouali sidi Ahmed eTidjini, extrait de Konach», in, R.A,n°5, 1861, pp.468-474.
(44) العربي، الغالي، المرجع السابق، ص ١٨٧.
(45) Emerit, l'Algérie..., op.cit., P.85.
(46) انظر: تفاصيل رحلة محمد الكبير وحملته في الجنوب في كتاب بن هطال، المصدر السابق، ص ٥١-٧٦.
(47) Rinn, Louis, Marabouts et Khouan, étude sur l'Islam en Algérie, Alger, A.Jourdan, 1884, p.199.
(48) Ibid, p.202.
(49) تعرضت معسكر إلى مهاجمة الشيخ محمد التيجاني، الذي تمكن من محاصرة معسكر والاستيلاء على ضاحيتها بابا علي بمعاضدة عشائر الحشم عام ١٨٢٧م.
(50) الزهار، المصدر السابق، ص ١٦٠.
(51) ابن هطال، التلمساني، أحمد ابن، **رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الجزائري الصحراوي**، (تحقيق: محمد بن عبد الكريم)، القاهرة: عالم الكتب، ١٩٦٩م، ص ٧٥-٧٦.
(52) Federmann (Henri) et Aucapitaine (le baron Henri), «Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri», in, R.A, n°9, 1865, p. 285-300.
(53) Robin, note...132-140.
(54) للمزيد يُراجع: محمد الصالح العنتري، **فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة**، مراجعة وتقديم وتعليق: يحيى بوعزيز، طبعة خاصة، الجزائر، عالم المعرفة، ٢٠٠٩، ص٣٧،

يُراجع أيضًا: تايخ بايات قسنطينة لمؤلف مجهول، تحقيق: محتار حساني، الجزائر، مطبعة دحلب، ١٩٩٩، ص٧٣.
Ferraud, pp.34-84 ص٨٥-٨٨.
(53) الرجل الوحيد من حاشية الداي الذي عمل جاهدا للتصدي للحصار منذ بدايته هو قائد الجيش يحي آغا الذي سارع إلى: "تحصين المدينة، وذهب إلى سيدي فرج وبنى هناك حصنًا من اثني عشر مدفعًا، وجعل العسة من العسكر الجديد في كل حصن وعين لهم المؤونة. والخطأ الاستراتيجي الذي وقع فيه الداي حسين هو عزل وقتل الآغا يحي بعد اتهامه بالتآمر ضده وكان يتولى القيادة العامة للجيش منذ اثني عشرة سنة مما أكسبه خبرة واسعة وتجربة في كل ما يتعلق بفنون الحرب والتنظيم العسكري، كما كان يحظى بالطاعة والاحترام لدى الجنود، ويتمتع بشعبية واسعة. يراجع: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، (تحقيق: أحمد توفيق المدني)، ط٢، الجزائر: الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ١٩٨٠م. ص ١٣٦.
(54) Aucapitaine, Federman, op.cit, p.299.
(55) Carette, capitaine, Recherches sur la géographie et le commerce de l'Algérie méridional, Paris, Imprimerie royal, 1844, TI, pp.192-193.
(56) Ibid. p.131.
(57) Shuval, Tal, La ville d'Alger vers la fin du XVIIe siècle, éd, CNRS, Paris, 1997, pp.239-242.
مخطوط قانون أسواق مدينة الجزائر، المكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ١٣٧٨. وهو يحتوي على ٥٨ ورقة. يُنظر: متولي السوق عبد الله بن محمد الشويهد، **قانون أسواق مدينة الجزائر(١١٠٧-١١١٧هـ/١٦٩٥-١٧٠٥م)**، تحقيق وتقديم وتعليق: ناصر الدين سعيدوني، طبعة خاصة، الجزائر: البصائر الجديدة للنشر والتوزيع،٢٠١٢. ص٢٢٠.
(58) ناصر الدين سعيدوني، **ورقات جزائرية**، ط١، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠، ص ٥٣٠-٥٣١.
(59) Holsinger.D.ch, Migration, Commerce and community the Mizabis in Nineteenth centry, Evanston, 1979, p.164.
(60) أرشيف ما وراء البحار بأس أون بروفانس علبة ٥٥٧/٨٠، ملف يخص الجماعات البرانية تقرير موجه إلى المجلس الإداري.
Touati (H), «les corporations de métiers à Alger à l'époque ottomane», in, R.H.M. n° 47-48, Tunis, Décembre, 1987, p.278.
(61) حول التجنيد العسكري والقدرات العسكرية للجزائر خلال العهد العثماني، يُراجع: حنيفي، هلايلي، **بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني**، ط١، الجزائر: دار الهدى،٢٠٠٧، ص ٢٧-٣٦.

(63) Walsin, Esterhazy, Cap, De la domination Turque dans l’ancienne régence d’Alger, Paris, Ch. Gosselin, T.XXII, 1840, p.263.

(64) سعيدوني، ورقات....، المرجع السابق، ص٢٥٧-٢٦٢.

(65) Urbain, Ismaël,” Notice sur l’ancienne province du Titteri”, In, Tableau de le situation des établissements Français dans l’Algérie, 1843, pp.397-444.

(66) Féraud, op.cit., p.227.

(67) صلاح، العقاد، **المغرب في بداية العصور الحديثة**، مصر: دار المعارف، ١٩١٢-١٩١٣م، ص٥٦.

(68) Cour, August, l’établissement des dynasties des chérifs du Maroc et leurs rivalités avec les Turcs de la régences d’Alger, 1509-1830, éd Leroux, Paris 1904, pp.244-245.

(69) حول سياسة الأتراك اتجاه المغرب والعلاقات السياسية بين المغرب وإيالة الجزائر في العهد العثماني، راجع الدراسات القيمة: جلول، المكي، **مسألة الحدود بين الجزائر والمغرب من ٦٣١ إلى ١٢٦٣ هـ/١٢٣٤-١٨٤٧م**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(70) Cour, August, op.cit, pp.230-236.

(71) عبد الجليل، التميمي، **"التشكل الإداري والجغراسياسي للأيالات العثمانية بالجزائر وتونس وطرابلس الغرب (١٥٥٧-١٥٨٨م)"**. في كتاب تحية تقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو (جمع وتقديم: د. عبد الجليل التميمي)، زغوان: منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، ج٢، أكتوبر-نوفمبر، ١٩٩٧م، ص٤٥٤.

(72) ابن أبي الضياف، أحمد، **اتحاف أهل الزمان في أخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، ط٢، الجزائر: الدار التونسية للنشر والشركة الوطنية للنشر والتوزيع ١٩٧١م، ج٢، ص ١٦٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

الواقع الديموغرافي لمدينة ندرومة العتيقة في الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال



د. محمد بن زغادي محمد
أستاذ محاضر (أ) قسم التاريخ وعلم الآثار
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تُعَدّ مدينة ندرومة العتيقة أحد أبرز الحواضر التي كانت رائدة في مجال التمدن بالمغرب الإسلامي إبّان الفترة الوسطى، وذلك لما توفّر لها من مقومات طبيعية تمثّلت في الموقع المحصّن الآمن، حيث أسّسها السلطان المرابطي يوسف بن تاشفين بين قمم الجبال المطلة على البحر الأبيض المتوسط الذي لم تبعد عنه إلاّ حوالي ٦٠ كلم وفق خط مستقيم، وغير ذلك من المؤهلات، وناهيك عن ذلك كان للعامل الاجتماعي أيضًا دورٌ في تأهيل المدينة إلى مصف الحواضر المرموقة، فعلى غرار مدن هذا العالم لم تكن مدينة ندرومة العتيقة مجرَّد كيان سياسي خاضع لسلطة الحاكم فقط، إنما كانت وحدة معمارية تدُّب فيها الحياة عبر تفاعل ساكنيها مع عمائرهم، وحرصنا على تقديم لمحة حول مسار تطور ساكنيها لما كان لهم من دور في ترقية مجالها الحضري أو تخريبه، عبر إضفاء جملة من التعديلات الحديثة على وحداتها المعمارية العتيقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٢ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١١ أكتوبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

مدينة ندرومة؛ يوسف بن تاشفين؛ الواقع الديموغرافي؛ الواقع الاجتماعي؛ الهجرة، الإحصاء

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057047

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد بن زغادي محمد. "الواقع الديموغرافي لمدينة ندرومة العتيقة في الفترة الاستعمارية وبعد الاستقلال".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٠٦ – ١١٢.

مُقَدِّمَةُ

تميزت مدينة ندرومة بقيم حضارية متشبعة بالثقافة الإسلامية التي تحلَّت بها من كونها جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي، ولاشك أن ما تبقى بها من عمائر مختلفة الطابع بالإضافة إلى التصميم العمراني الدائري الشكل الملتف حول الجامع المرابطي، لَمثالٌ ناطق عن مدى ارتباطها الوثيق ماديًا ومعنويًا بالدين الحنيف، وكذا بالبيئة التي وجدت فيها، ولماَّ كان الإنسان المحرك الأساسي للحضارة منذ القدم، كان لأفراد المجتمع دور مباشر في تحديد مورفولوجية البيئة التي يعيشون فيها بُغية الحصول على وضع أفضل، يمكن لهم من خلاله فرض شخصيتهم والقيام بجميع نشاطاتهم في ظروف مريحة، ومن ثَمَّ توفير جميع متطلباتهم، هذه العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان قديمة ومتبادلة، فكما تمكن الإنسان أن يؤثر على المكان، تمكن هذا الأخير أيضًا أن يؤثر عليه عبر ما يفرضه من مواد وطريقة بناء، ونظام غذاء.

لقد عاشت مدينة ندرومة العتيقة تحولات عميقة في تركيبتها الاجتماعية، نجم عنها ظهور ضغوط حضرية على تراثها المادي بفعل المتطلبات الجديدة للسكان، بدأت أولى التغيرات تطفو على السطح بعد

تعرضها للاحتلال الفرنسي، لأنه قام بجلب المعمرين من أوروبا للعيش فيها، منتهجةً بذلك نفس النهج الذي قامت به باقي المدن الجزائرية.

أولاً: الواقـع السـكاني لمدينــة ندرومــة العتيقة في الفترة الاستعمارية

استناداً إلى وثائق من الأرشيف الفرنسي أشار الباحث الفرنسي جيلبار جراند غيوم Gilbert Grandguillaume إلى أن مساحة مدينة ندرومة سنة 1867م قدرت بـ 2154 هكتار مقسَّمةً على النحو الآتي:[١]

مساحة الملكية الخاصة	مساحة ملكية الأوقاف	مساحة الأراضي الزراعية	مساحة الملكية العامة	المجموع
١٥,٣٤ها	١,٥٠ها	٤,٦٢ها	١,٨ها	٢٣,١٦ها

الجدول رقم (١)

يبين مساحة مدينة ندرومة العتيقة سنة 1867 ونوعية الملكية الموجودة بها

يتضح من الجدول أعلاه أن مساحة المدينة العتيقة كانت أقل من مساحة مدينة تلمسان، وهو أمر طبيعي بالنظر إلى كونها من المدن الثانوية ولم تكن عاصمة، وهو السبب المباشر الذي يجعل المدن عامة نقاط جلب للسكان ومن تم تزداد مساحتها. نفتح قوسًا للإشارة فقط إلى أن العدد الذي ذكره جلبار جراندغيوم لم يمكن هو الحاصل الناتج عن جمع المساحات التي ذكرها، فقد وجدنا مجموعها هو ٢٣,١٦ هكتار كما هو وارد في الجدول، ونشير أيضًا إلى أن أنه قد تقلّص حاليًا، حيث أصبح لا تتعدى ٠٩ هكتارات وفقًا لما جاء في المرسوم التنفيذي رقم ٠٩/٤٠٢.[٢]

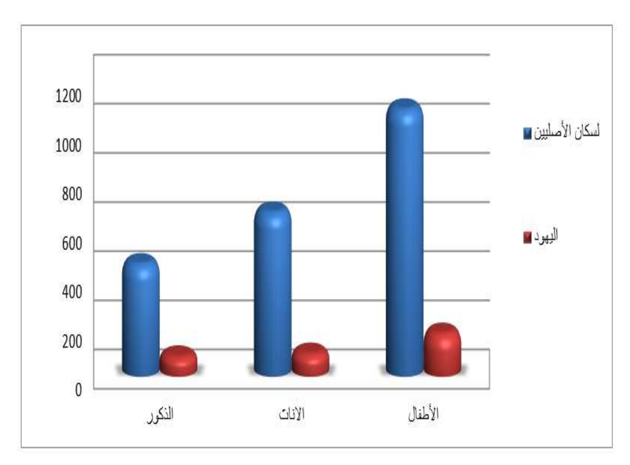
لقد كانت أكبر مساحة بالمدينة خاصة بالملكية الخاصة المتمثلة أساسًا في المساكن وورشاتهم الحرفية ودكاكينهم ثم يأتي بعدها مساحة الأراضي الزراعية، وبالنسبة لملكية الأوقاف فقد بلغت مساحتها ١,٥٠ هكتار، وهي الأخرى مساحة معتبرة، إذا ما قورنت بالدور الذي تؤديه، وأغلب الظن أن أكبر جزء منه كان عبارة عن أراضي فلاحية أو بساتين تخصص ريعها لصالح المساجد وغيرها على النحو الذي كان معمولاً به في المدن الإسلامية، وما تبقَّى كان عبارة عن ملكية عامة كالمقابر وغيرها، بالموازاة مع المساحة المخصصة للملكية الخاصة المقدَّرة بـ ١٥,٣٤ هكتار بلغ عدد السكان فيها في أوَّل إحصاء قام به المستعمر الفرنسي سنة 1867م ما يعادل 2545 نسمة، وقد كانوا منقسمين إلى فئتين الأولى فئة السكان الأصليين والثانية لليهود موزعين حسب الجدول الآتي:[٣]

السكان الأصليين	الذكور	الإناث	الأطفال	المجموع الجزئي	المجموع الكلي
	455	665	1085	2205	2545ن
اليهود	78	90	172	340	

الجدول رقم (٢)

يبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئتي السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م

ونوضح أعداد كِلا الفئتين في الأعمدة البيانية التالية:



الأعمدة البيانية رقم (١) تبين عدد الذكور والإناث والأطفال في فئة السكان الأصليين واليهود بمدينة ندرومة العتيقة سنة 1867م

يتضح من الجدول والأعمدة البيانية الخاصة بتعداد سكان مدينة ندرومة سنة 1867م أنها تكونت من فئتين الأولى فئة السكان الأصليين (المسلمين) والثانية فئة اليهود، ويتبين جليًا أن فئة السكان الأصليين هي الأكثر عددًا، إذ شكَّلوا ما يعادل 86.64 % من المجموع الكلي مكونين حسب ما ذكر جيلبار غراند غيوم 236 عائلة، شكَّل وجود الأطفال والنساء الجزء الأكبر إذ بلغت نسبة الأطفال في هذه الفئة 47.98 % تليها نسبة الإناث بـ 29.47 %، أما نسبة الذكور فكانت هي الأقل عددًا في هذه الفئة، حيث بلغت 20.63 %، ربما يعزى ذلك إلى مقتل العديد منهم في المعارك التي دارت راحاها بين أهالي المدينة بقيادة الأمير عبد القادر حينما انضموا تحت رايته لطرد المستعمر الغاشم. بالنسبة لفئة اليهود فقد شكَّلوا نسبة 13.35 %من إجمالي السكان، أما عدد عائلاتهم فقد بلغ 70عائلة نفس الشيء بالنسبة لعدد الذكور فقد جاء أقل ممن عدد الإناث ولأطفال، إذ شكلوا نسبة 23.94 % فقط من العدد الإجمالي في حين شكل عدد الأطفال أكبر نسبة، إذ قدرت بـ 50.58 % ثم تليها نسبة الإناث بـ26.47 %.

بقيت مدينة ندرومة محتفظة بتركيبتها السكانية المتكونة من فئتين فقط، لكن من حيث الكم يمكن القول أنها تعرضت للنقصان والزيادة تماشيًا مع الظروف التي أحاطت بها، لقد زاول سكان المدينة نشاطات حرفية وأخرى فلاحية وقد بين إحصاء سنة ١٨٦٧ أنه وجد آنذاك (148) عامل في النسيج و(17) ورشة لصناعة الفخار، وهناك بعض الصناعات التي كان اليهود يمارسونها بالمدينة كصناعة الحلي التي كان يمتهنها (06) صنَّاع، وصناعة الأسلحة التي امتهنها صانعان، وصناعة البلغة التي اشتغل فيها (09) صنَّاع، بالإضافة إلى هذه النشاطات امتلك سكان المدينة سوقًا أسبوعيًا يقام كل يوم خميس، وهو ما يزال يقام لحد الساعة بنفس اليوم جانب السور المشيد من طرف المستعمر شمال المدينة، وجه الاختلاف فقط في السلع فقد كان تباع فيه البهائم فقط، أما بقية السلع كالحبوب والصوف واللحم كانت تباع في ساحة التربيعة داخل النسيج المعماري للمدينة بمحاذاة الجامع الكبير، لقد أكسب هذا النشاط التجاري المدينة مكانة مرموقة بين البوادي المحيطة بها وجعلها قبلة الجهة الشرقية من إقليم ترارة والغزوات ومغنية وجبالة وحتى مدينة وجدة المغربية،(٤) تدل هذه المعطيات على وجود تعايش بين الفئتين وأن مدينة ندرومة كانت هي الأخرى من الحواضر المرموقة تجاريًا عبر ما تجسد بها من صنائع ومعاملات تجارية.

لم تبق التركيبة السكانية عمّا كانت عليه فدخول المستعمر الفرنسي إليها جلب معه المعمرين إلى المدينة، فقد شهدت سنة 1852 استقرار معمر واحد منح له المحتل الفرنسي (14) هكتار من الأراضي كامتياز على مجيئه للعيش المدينة، وهي مساحة جد معتبرة الغرض منها تحفيز بقية المعمرين، وعمد المستعمر على إنشاء مدرسة فرنسية سنة 1865م تحت إدارة السيد بودات M.Baudet لتدريس أبناء المعمرين،(٥) وهو ما يدل أن أعدادهم بدأت تزداد لذلك بدأ بوضع حجر الأساس للمدرسة التي تعد من بين أهم المشاريع التنموية الحضرية ذات الطابع الاجتماعي، الأمر الذي يبين علاقة الواقع الاجتماعي بالتنمية الحضرية.

أمام غياب المعطيات الإحصائية لهذه الفترة الزمنية لم نستطع ضبط عدد سكان المدينة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر الميلادي، إلا أنه يمكن القول إنه تماشيًا مع أولى التوسعات العمرانية التي حدثت بعد سنة 1884م بدأ عدد سكان المدينة يزداد لأن العمارة تدل على احتياج ضروري للسكان.

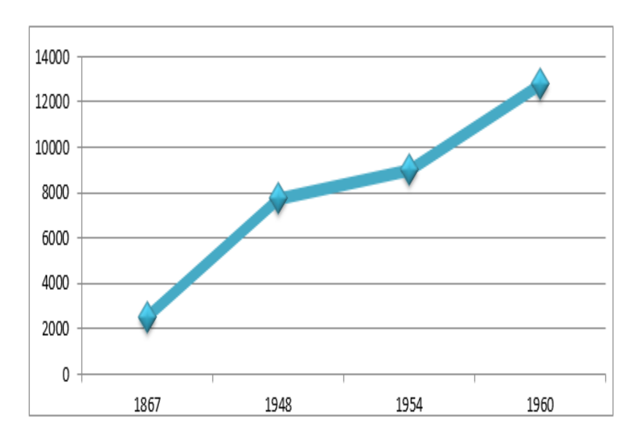
ومع بداية القرن العشرين بالتحديد بين سنتي (1901-1911م) نزح من البوادي المجاورة للمدينة ما لا يقل عن (300) فرد من الأهالي نتيجة لسوء الأوضاع المعيشية والاضطهاد المتبع ضدهم من قبل المستعمر الفرنسي لوقوفهم إلى جانب الأمير عبد القادر في معاركه التي شنها ضده، إضافة أن المدينة تعزَّزت بإنشاء المدرسة وبدأت تتوسع خارج الأسوار جهة الشرق، توافد الأهالي نحو المدينة كان يخدم مصالح المستعمر في إعمارها، وكذا في الحصول على اليد العاملة لإنجاز المشاريع التنموية الموجهة للمعمرين، إضافة إلى أنه وجد فيهم موردًا بشريًا مهما في الحرب العالمية الأولى بعدما فرض عليهم قانون التجنيد الإجباري، الأمر الذي أدَّى إلى رحيلهم مع سكان مدينة تلمسان إلى المشرق والمغرب الأقصى تعبيرًا عن رفضهم لذلك القانون، وهو ما أحدث تراجعًا طفيفًا في عدد السكان، لكن أحد المؤرخين أشار إلى أن الفترة الزمنية الممتدة من سنة 1872م إلى غاية سنة 1921م شهدت ارتفاعًا محسوسًا

في عدد سكان المدن الجزائرية المتمركزة بالقرب من الساحل،(٦) ويبدو أن مدينة ندرومة هي واحدة من بين المدن التي ازداد عددها في هذه الفترة لكونها هي الأخرى مدينة ساحلية تطل مباشرة على البحر الأبيض المتوسط.

مع مطلع أربعينيات القرن العشرين وفدت إلى المدينة موجة ثانية من المهاجرين النازحين من الأرياف المجاورة كبني مسهل وبني منير وجبالة، وقد بلغ عددهم 859 نسمة ليصل بذلك التعداد الإجمالي إلى حوالي 7745 نسمة،(٧) وذلك راجع لاتساع الهوة المدينة والأرياف المجاورة لها في مجال السكن والمرافق الضرورية، فمثلًا تم بناء مرفق ضروري آخر يتمثل في مركز البريد الذي احتاج سكان الأرياف المجاورة لخدماته حتى يستلموا الحوالات المالية التي كان يبعث بها أهاليهم من فرنسا، بعد أن هاجروا إليها في وقت سابق طلبا للعمل ووضع أفضل.

لقد عرف عدد المعمرين تراجعًا بعد سنة 1948 أمام ارتفاع عدد المهاجرين بمدينة ندرومة وهو نفس الأمر الذي عرفته جلُّ المدن الجزائرية، فقد انخفض بها عدد المعمرين بنسبة 60 % وبالمقابل زاد ارتفاع عدد السكان الأصليين بنسبة 35 %، وذلك بالتحديد بين سنتي 1926و1948.(٨)

في الإحصاء الذي قامت به فرنسا سنة 1954م (أي في السنة الأولى لاندلاع حرب التحرير الجزائرية) صُنفت مدينة ندرومة من بين المدن المكتظة بالسكان، وذلك مقارنة بمساحتها الصغيرة، فقد بلغ عدد سكانها 9009 نسمة من ضمنهم 560 معمر فقط متمركزين في مساحة الإجمالية المقدرة بـ ٢٣,١٦ هكتار(٩) تجدر الإشارة إلى أن مساحتها ازدادت عمّا كانت عليه بما يعادل ٠٦ هكتارات، وعليه بلغت نسبة الكثافة السكانية بها ٣,٧٥ن/م²، وهي كثافة عالية نوعًا ما أمام المساحة الإجمالية السالفة الذكر، ما يؤكد أن النمو السكاني لم يتماشى في خط واحد مع التنظيم المجالي، حيث لم تتسع مساحتها عمّا كانت عليه إذا ما قارنها بسنة 1867م إلاّ بضع هكتارات معدودة في حين تضاعف عدد سكانها عن تلك السنة بحوالي ثلاثة مرات. ومع مجيء سنة ١٩٦٠م ازداد ارتفاع عدد سكان المدينة إلى 12801 نسمة(١٠) وسنقوم بتوضيح ما أتينا على ذكره بمنحنى بياني وفقا لما تحصّلنا عليه من معلومات عن ذلك.



المنحنى البياني رقم (١) يوضح المسار التطوري لسكان مدينة ندرومة في الفترة الاستعمارية (١٨٦٧-١٩٦٠)

يتضح من المنحنى البياني أعلاه أن عدد سكان مدينة ندرومة تضاعف بشكل تدريجي منذ أن خضعت للمستعمر الفرنسي، بفعل الهجرة الريفية لأصحاب القرى المجاورة وسياسة الاستيطان التي طبقها المستعمر في جميع المدن، الأمر الذي نجم عنه بروز كثافة سكانية عالية بلغت أعلى نسبة لها 5.94ن/م² قبيل الاستقلال وبالتحديد سنة 1960، وهي السنة التي سجلت ارتفاعاً كبيرًا نتيجة رحيل المعمرين من المدينة، وتزايد هجرة أصحاب القرى المجاورة إليها للسكن في مساكنهم التي بقيت فارغة، وعليه يمكن القول أن المسار التطوري لعدد سكان المدينة سرى وفق منحنى تصاعدي في الفترة الاستعمارية، في حين لم يتغير حجم الوعاء العقاري كثيرًا، لأن المستعمر لم يقم بإنجاز عدد كبير من المباني بل اكتفى بما هو ضروري فقط.

ثانيًا: الواقع السكاني لمدينة ندرومة العتيقة بعد الاستقلال

على غرار المدن الجزائرية استقلت مدينة ندرومة من قبضة الاحتلال الفرنسي الذي استعمرها منذ سنة 1842م، بعدما عرفت تحولاً في مورفولوجيتها الحضرية والاجتماعية في فترة احتلالها، دخلت بعد الاستقلال في سبات من جانب إنشاء وحدات صناعية وتجهيزات إدارية وغيرها من المراكز التي تخدم مصالح المواطنين سواء المقيمين بها أو سكان القرى المجاورة، وعلى الرغم من ذلك فضَّل ساكنيها المكوث بها وعدم الرحيل منها،(١١) ولم يكن ذلك مقتصرًا على مدينة دون أخرى.

بالموازاة مع الوضع الذي مرَّت به ندرومة آنذاك شهدت توافدًا أكبر من ذي قبل لسكان الأرياف بفعل الرحيل المكثَّف للمعمرين الذين تاركوا وراءهم مساكنهم وبقية ممتلكاتهم، وقد برز عن هذه الهجرة المكثَّفة الأحياء القصديرية بالمدينة، لأن النسيج المعماري العتيق لم يعد كافيًا لاستيعاب العدد الهائل لسكان الأرياف الوافدين، الأمر الذي دفع بهم إلى بناء مساكن بالجهة الجنوبية على منحدرات جبل فلاوسن، وقد عُرف ذلك التجمع باسم حي سيدي عبد الرحمن، نفس الشيء وقع بالجهة الغربية حيث تكوَّن تجمع آخر سمي بحي الرملة، (لأن مكانه يتكون من كريات صغيرة تشبه الرمال)، والملاحظ أن هذه التجمعات تمركزت بالقرب من المدينة العتيقة ولم تبتعد عنها ما يؤكد أنها كانت في تلك الفترة القلب النابض للنواحي المجاورة، وأنها كانت تتضمن جميع المتطلبات التي يحتاجونها سواء الدينية أو الدنياوية، وإضافة إلى عامل الهجرة الذي أدَّى إلى حدوث هذه التوسعات العشوائية، زاد عامل السبَّات التنموي الذي عرفته المدينة من تزايد حدَّة الوضع، حيث لم تستفد في فترة الستينيات من أي مشروع سكني، نظرًا للوضع الاقتصادي الذي كانت تمر به الجزائر آنذاك، هذه الظروف أدَّت لهجرة سكان المدينة وسكان النواحي المجاورة إلى المدن الكبرى مثل مدينة وهران والجزائر العاصمة وحتى فرنسا لضمان مستوى لائق في العيش.[١٢]

أثَّرت الهجرة التي قام بها المعمرون وأيضًا السكان الأصليين نتيجة السبَّات التنموي على العدد الإجمالي للسكان، فقد انخفض عما كان عليه بحوالي 646 نسمة ليصل عـددهم في الإحصاء الأول الذي قامت به الجزائر سنة ١٩٦٦ إلى حوالي ١٢١٥٥ نسمة،[١٣] أي أن أعدادهم تراجعت بنسبة ٠,٠٤%. عرفت مرحلة السبعينيات نتيجة استفادة المدينة من بعض المشاريع التنموية ارتفاع محسوس في عدد السكان بعدما توافد إليها عدد كبير من المهاجرين، وقد ظهر ذلك جليًا في إحصاء سنة 1977، إذ بلغ تعدادها 13489نسمة،[١٤] أي بزيادة قدرها (10.97 %). مع مجيء فترة الثمانينات عرفت المدينة تجسيد مشاريع لها علاقة مباشرة بالمواطن الندرومي ومتطلباته في مجال التعليم والصحة والسكن، وفي سنة ١٩٨٧ شهدت المدينة ارتفاعًا في عدد سكانها، حيث قدر العدد الإجمالي بـ ١٧١٦٤ نسمة.

أمام الوضع السياسي الذي عاشته البلاد في بداية التسعينات هاجرت إلى المدينة موجة أخرى من السكان بحثًا عن الأمن والاستقرار، وهذا ما أدَّى إلى توسعها نحـو الجهة الشمالية التي تكونت بها على غرار حي بن باديس ثلاثة أحياء أخرى، وهي حي عبد المؤمن بن علي، حي داقيوس، حي عين الزبدة،[١٥] وتجدر الإشارة إلى أن هذه المرحلة شكَّلت بداية الانفصال عن المدينة العتيقة في الجانب المادي والمعنوي، لأن التغير الحاصل مسَّ كذلك الجانب التجاري، فقد انتقلت جلُّ النشاطات التي كان يمارسها السكان بالمدينة العتيقة نحو الأحياء الجديدة، وقد غادرها ما يقارب (175) عائلة من مجموع (622) عائلة، أي ما يعادل نسبة 28.13%، وزاد في تحريك رغبتهم في المغادرة ذلك التقسيم العقاري الذي قامت به البلدية في بداية التسعينات، إذ تمَّ توزيع 23 قطعة أرضية على المواطنين الندروميين لبناء مساكن فردية،[١٦] وقد بلغ العدد الإجمالي لسكان المدينة 20324 نسمة في إحصاء سنة 1998م،[١٧] بعد هذه السنة زادت مغادرة سكان المدينة العتيقة إلى الأحياء الجديدة، وتجدر الإشارة أنها أصبحت تسمى بالمدينة "القديمة" في المنطوق المحلي، مقارنة مع الأحياء المنجزة بالجهة الشمالية التي أصبحت تسمى بالمدينة الجديدة، وتميزت هذه الفترة بانقطاع الهجرة الخارجية وبقاء الهجرة الداخلية فقط التي انحصرت فيما ذكرناه سابقًا، وقد شهدت هذه الفترة أيضًا هجرة السكان من المدينة العتيقة إلى الحد الذي أصبحت فيه لا تأوي إلا حوالي (٢٠%) من مجموع السكان الإجمالي لمدينة ندرومة،[١٨] بالموازاة مع ما ذلك زاد ارتفع عدد سكان المدينة الجديدة بشكل ملفت للانتباه عمَّا كان عليه سابقًا، حيث بلغ العدد الإجمالي أي لساكنيها إضافة لساكني المدينة العتيقة حوالي 32498 نسمة في إحصاء سنة 2008.[١٩] عقب هذا الإحصاء في السنوات القليلة الأخيرة اتسعت الفجوة بين المدينة العتيقة والمدينة الجديدة في جميع الجوانب سواء المعمارية أو الاجتماعية أو الاقتصادية، فمن جانب المساحة زاد حجم المدينة الجديدة عمَّا كان عليه بمساحة قدرها حوالي 2كلم^{2}من المباني التي جاءت في معظمها عبارة عن مساكن فردية ذات طابق أو طابقين ولتوضيح الصورة جيدًا نقدم المعطيات في الجدول والمنحنى البياني الآتيين:

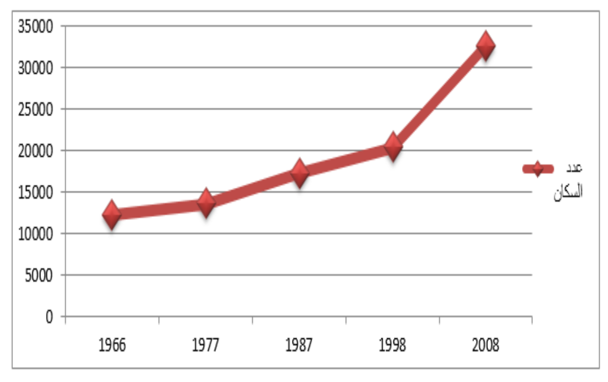


السنة	1966	1977	1987	1998	2008
عدد السكان	12155ن	13489ن	17164ن	20324ن	32498ن

الجدول رقم (٣)

يوضح العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال (١٩٦٦-٢٠٠٨)

ونوضح ما جاء في الجدول بالمنحنى البياني الآتي:



المنحنى البياني رقم (٤) يبين مسار تطور العدد الإجمالي لسكان مدينة ندرومة بعد الاستقلال (١٩٦٦-٢٠٠٨)

تبعًا لما هو مبين في الجدول والمنحنى البياني أعلاه، يتضح جليًا أن المسار التطوري لسكان مدينة ندرومة كان يسير وفق منحنى تصاعدي من إحصاء لآخر، إلاَّ أنه إذا ما قارنا إحصاء الأول لسكان المدينة مع ما تقدمه في سنة 1960م يتضح أن أعدادهم تراجعت بنسبة 5.04 %،وذلك راجع لتقهقر الوضع الاقتصادي للبلاد عامة وهجرة بعضهم نحو المدن الكبرى، كما لا ننس فئة الأشخاص الذين كانوا مُوالين لفرنسا والذين فرُّوا من البلاد ولحقوا بها ساعة خروجها، ولاشك أن مدينة ندرومة هي الأخرى هاجرت منها هذه الفئة، ما يلاحظ أن الزيادة الحاصلة في أعدادهم في إحصاء سنة 1977م لم تكن بالكبيرة، إذ بلغت (11.04 %)، في حين كانت أعلى بالضعف في إحصاء سنة 1987، إذ بلغت (27.24 %) وهو ما يعدَّ ترجمة مباشرة لتحسن الوضع الاجتماعي بالمدينة، نظرًا لاستفادتها من بعض المشاريع التنموية بعدما تم ترقيتها إلى رتبة دائرة، وهو ما فرض لزامًا على أصحاب القرار تجهيزها بما يتناسب مع ذلك، الملفت للانتباه أن النسيج التاريخي عاش حينها كثافة سكانية عالية لعدم وجـود مكان آخر للسكن، وكذا لتوفره على معظم ما يحتاجونه آنذاك، كما أن المستعمر الفرنسي لم يترك إلاَّ عددًا قليلًا من المساكن وتجهيزات أخرى أتينا على ذكرها خارج أسوار، وهو ما جعل المديـنة العتيقة مكانًا مفضلًا للعيش، وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار مساحتها التي لم تتغير عما كانت عليه في الفترة الاستعمارية، أي (٢٣٣٤) هكتار لوجدنا أن كثافتها بلغت 7.94ن/م^2، ما يدل دلالة واضحة أنها عاشت نمو ديموغرافيا بالغ الحدة في ثمانينيات القرن المنصرم.

ممَّا لاشك فيه أن لهذا الواقع الاجتماعي تأثير مباشر وسلبي على مورفولوجية المدينة العتيقة وعلى الوحدات المعمارية لنسيجها العمراني، التي تأتي في مقدمتها المساكن باعتبارها المكان الذي يحتضن وجود أولئك السكان، خاصةً في ظل وجود كثافة سكانية عالية كالتي وصلت إليها المدينة العتيقة، إلاَّ أن التوسعات العمرانية التي عرفتها في فترة التسعينات اتجاه الشمال على طول سهلها خفَّف من حدَّة الكثافة السكانية، حيث انتقلت العديد من الأسر إلى هناك بعد استفادتها من السكن أو من القطع الأرضية الصالحة للبناء التي قامت بتوزيعها دائرة ندرومة آنذاك، هذا التحسن زاد من عدد سكانها بنسبة (18.41 %) عن الإحصاء السابق، وهو ما أدَّى إلى وفود العديد الأسر إلى المدينة العتيقة لتشغل المساكن التي غادرها أصحابها عقب تدهور الوضع الأمني للبلاد عامة ومرورها بعشرية سوداء.

فيما يخص إحصاء سنة 2008 فقد سُجِّل فيه أكبر نسبة في نمو السكان بندرومة بين عمليات الإحصاء السابقة، إذ بلغت نسبة الزيادة (59.89 %)، وهو ما زاد في اتساع المدينة نحو الشمال والشمال الغربي وبروز ثلاثة أحياء جديدة، الذي تأسَّس فيما قبل وهي حي عبد المؤمن وحي بن علي وحي داقيوس وحي عين الزبدة إضافة إلى حي بن باديس. وبعد خمس سنوات من الإحصاء السالف الذكر زاد عدد سكان المدينة، ففي آخر تقدير إحصائي للبلدية زاد عددهم في سنة 2013م، ليصل إلى حوالي (٣٣٢٩٠) نسمة،[٢٠] أي بزيادة قدرها (2.45 %).

خَاتِمَةٌ

أصبحت مدينة ندرومة حاليًا متسعة ومنقسمة إلى جزئيين، جزء يسمى بالمدينة القديمة، والآخر يسمى بالمدينة الجديدة، وهي تشهد توسعًا عمرانيًا متزيدًا، وإنجاز تجهيزات جديدة أهمها المركز الاستشفائي والمقر الجديد للحكمة والضمان الاجتماعي، أما المدينة العتيقة فقد عرفت تراجعًا في قيمتها الفنية والتاريخية لأنها أصبحت هي الأخرى تمشي على خطى التمدن العمراني الجديد الذي تجسدت معالمه على مرئً منها في الأحياء الجديدة، والحقيقة التي سجلناها في بحثنا الموسوم بمسار نمو السكان في المدينة العتيقة ندرومة أن الإنسان بصفة عامة هو محور التحضر، وهو الهدف الأول من نجاح العملية، فهي تقوم به ومن أجله، وهو ما ذهب إليه المفكر الجزائري مالك بن نبي في تعريفه للحضارة مقدِّمًا ذلك على شكل معادلة رياضية كالآتي: الحضارة تساوي: إنسان+ تراب+ زمن، ومن خلال المعطيات الواردة في المقال وجدنا أنه كلَّما ازداد اتساع المدينة مجاليًا ازداد عدد السكان، والعكس صحيح، أي هناك علاقة متبادلة.

الهَوامِشُ:

(1) Gilbert Grandguillaume,Une Médina de l'Ouest Algérien:Nedroma,In (R) de de l'occident musulman et de la méditerranée n°10,France ,1971, p:64, www. presse. fr/ doc / remmm.,p:63.

(٢) الجريدة الرسمية، مرسوم تنفيذي رقم 403/09 المؤرخ في 12 ذي الحجة 1430هـ، الموافق لـ29 نوفمبر2009،متضمن إنشاء القطاع المحفوظ للمدينة العتيقة ندرومة وتعيين حدوده، العدد71،الجزائر،2009،ص:٥-٦.

(3) Gilbert Grandguillaume ,Op.cit,p:63

(4) Gilbert Grandguillaume ,Op.cit,p:62.

(5) Ibid,p :62.

(6) Kamal Katab,Européenes,Indigénes et Juifs en Algérie(1830-1962) Representation et réalité des populations, L'institut National d'études démographiques, Paris, 2001, p:25.

(7) Sidi Mohammed Trache,Exurbanisation et mobilités résidentielles à Nédroma (1990-2000), In(R) Insanyat n°28, CRASC, Oran, p:25.

(8) Kamal Katab,Op.cit,p:271

(9) Ibid,p:271.

(10) Djilali Sari,Les villes Précoloniales de L'Algérie Occidentale Nédroma Mazoun,Klâa,2emmeédition,société nationale d'édition et de diffusion,1978,Alger, p:155.

(11) Sidi Mohammed Trache,Op.cit,p:33

(12) Sidi Mohammed Trache,Op.cit,p:36

(١٣) الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة ١٩٦٦.

(١٤) الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة ١٩٧٧.

(١٥) بلدية ندرومة، المصلحة التقنية.

(١٦) بلدية ندرومة، المصلحة التقنية.

(١٧) الديوان الوطني للإحصاء، إحصاء سنة 1998.

(18) Sidi Mohammed Trache,Op.cit,p:42-49

(19) Ibid,p:42.

(٢٠) بلدية ندرومة، المصلحة التقنية.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

الجزائريون وصيام رمضان على ضوء الكتابات المحلية والأجنبية
خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين



سعدون بخاخ
باحث دكتوراه تاريخ الجزائر الحديث
جامعة أبي بكر بلقايد
تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

عرفت الكتابة التاريخية في أواخر العقد الثالث من القرن العشرين مع مدرسة الحوليات الفرنسية وثلة من أقطابها وأجيال من المؤرخين الذين ساروا على نهج المؤسسين الأوائل توجهًا جديدًا يتجه نحو ما يسمى بالتاريخ الاجتماعي، فبعد هيمنة التاريخ السياسي والعسكري، جاء التاريخ الاجتماعي الذي يبحث عن العادات والتقاليد والأعراف، والكوارث الطبيعية، وغيرها من المواضيع التي تمخضت عقب إلغاء القطيعة بين التاريخ ومختلف العلوم الإنسانية والاجتماعية، نسعى من خلال هذا المقال إلى الوقوف على موضوع من مواضيع التاريخ الاجتماعي في الجزائر خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمتمثل في صيام الجزائريين لشهر رمضان على ضوء الكتابات المحلية والأجنبية وهذا لرصد ما يرتبط بعادات وعبادات الجزائريين في هذا الشهر، وكذا لإبراز طبيعة هذه الكتابات من جهة ولإبراز قيمتها المصدرية ضمن حقل التاريخ الاجتماعي من جهة أخرى. تعود النصوص التي اعتمدنا عليها لرحالة وأسرى وقناصل عاشوا في الجزائر ومروا بها أواخر العهد العثماني وكذلك خلال العقود الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، التي كتب فيها تاريخ الجزائر بأقلام العسكريين، ومن بينهم العسكري أوجين دوماس الذي رجعنا إلى كتابه عادات وتقاليد الجزائر، لم نقتصر في بحثنا هذا عن المصادر الأجنبية فقط، وإنما حاولنا البحث عن جوانب هذا الموضوع في ثنايا المصادر المحلية التي تعود لنفس الفترة، لكي نقارب بين هذه الكتابات ونبرز طبيعة التشابه والاختلاف في الطرح والمضمون، كما أنّ المقاربة من شأنها أن تقدم لنا صورة متكاملة عن صيام الجزائريين لشهر رمضان.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٤ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ أكتوبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المجتمع الجزائري؛ الكتابات المحلية؛ الكتابات الأجنبية؛ التاريخ الاجتماعي؛ صوم رمضان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057048

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سعدون بخاخ. "الجزائريون وصيام رمضان على ضوء الكتابات المحلية والأجنبية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١١٣ – ١١٨.

مُقَدِّمَةُ

يُعَدّ التأريخ للعادات والتقاليد من بين أهم المباحث وحقول المعرفة التي يطرقها التاريخ الاجتماعي فالباحث في هذا المضمار يقف التنوع الثقافي للمجتمعات، كما يقف على ذهنية الشعوب التي تنعكس على الممارسات اليومية. أخذت عادات وتقاليد المجتمع الجزائري حيزًا كبيرًا ضمن الكتابات الأجنبية، سواء الكتابات الموضوعية التي سجل فيها أصحابها انطباعاتهم وملاحظاتهم بعفوية، وهذا بحكم رؤيتهم لعادات غريبة عنهم وغير مألوفة لديهم، أو الكتابات المدفوعة بالاستشراق، أو ما يُعرف بالإثنوغرافيا الكولونيالية لتسهيل اختراق هذا المجتمع ومعرفة بنيته الاجتماعية، فالمطلع على

فهارس هذه الكتابات يجد الكثير من الفصول والمباحث التي تتحدث عن الزواج ومراسيمه، حياة المرأة، الفروسية، اللباس والزينة... وغيرها من العادات.

من بين أهم المواضيع التي لفتت انتباهنا ضمن بعض الكتابات الأجنبية نجد صيام الجزائريين لشهر رمضان، وما يرتبط به عبادات وعادات، وهو الموضوع الذي نسعى لتقديمه في هذه الورقة البحثية، حيث تتبعنا نصوص تاريخية تمتد زمنيًا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. تعود النصوص التي اعتمدنا عليها لرحالة وأسرى وقناصل عاشوا في الجزائر ومروا بها أواخر العهد العثماني وكذلك خلال العقود الأولى للاحتلال الفرنسي للجزائر، التي كتب فيها تاريخ الجزائر بأقلام العسكريين، ومن بينهم العسكري أوجين دوماس الذي رجعنا إلى كتابه عادات وتقاليد الجزائر، لم نقتصر في بحثنا هذا عن المصادر الأجنبية فقط، وإنما حاولنا البحث عن جوانب هذا الموضوع في ثنايا المصادر المحلية التي تعود لنفس الفترة، لكي نقارب بين هذه الكتابات ونبرز طبيعة التشابه والاختلاف في الطرح والمضمون، كما أنّ المقاربة من شأنها أن تقدم لنا صورة متكاملة عن صيام الجزائريين لشهر رمضان.

فيا ترى كيف قدمت لنا هذه الكتابات صيام الجزائريين لشهر رمضان؟ وما هي عادات وعبادات الجزائريين في هذا الشهر؟ وخلال هذه الفترة؟

أولاً: رمضان على ضوء الكتابات المحلية

على الرغم من قلة الكتابات المحلية التي تؤرخ للمجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مقارنة بالكم الهائل للكتابات الأجنبية المختلفة المشارب والمتعددة التوجهات، إلّا أننا استطعنا الوقوف على نماذج من الكتابات المحلية التي تتضمن في ثناياها نصوص تاريخية تشير إلى صيام الجزائريين لشهر رمضان.

لقد صدرت مؤخرًا عن دار الزيتون للنشر والتوزيع نوازل الشيخ محمد بن عبد الكريم الفقون القسنطيني المتوفي سنة ١٧٠٢م من تحقيق وتقديم الأستاذين هواري تواتي وعائشة بلعابيد، حيث ورد ضمن هذه النوازل الكثير من المسائل الفقهية ومن بينها ما يتعلق بصيام شهر رمضان، حيث ضمن الشيخ محمد الفقون أربعة مسائل فقهية في هذا السياق، الأولى كانت تحت باب مسائل في الصيام ذكر فيها حكم من أفطر خطأ وما يتوجب عليه من القضاء دون الكفارة، في حين ارتبطت المسألة الثانية بمن أفطر رمضان عمدًا[١]، أما المسألة الثالثة فقد كانت حول بلع البلغم أثناء الصيام[٢]، والمسألة الرابعة كانت حول بلوغ رائحة الدخان للحلق أثناء الصيام[٣]. للإشارة فان المسألتين الأولى والثانية نقل الشيخ محمد الفقون فتواهما عن علماء سابقين، في حين أن المسألتين الثالثة والرابعة كانتا قد طرحتا على والده الشيخ عبد الكريم الفقون[٤] وأجاب بدوره عنهما.

من بين المصادر المحلية المهمة التي تشير إلى شهر رمضان نجد رحلة ابن حمادوش[٥] الموسومة بـــ "لسان المقال في النبأ عن الحسب والنسب والحال"، حيث حدثنا عن قراءة ابواب من صحيح البخاري كل يوم إلى غاية ختمه في ليلة السابع والعشرين، حينها تقرأ الصلاة على النبي (ﷺ) وفق هذه الصيغة: اللّهم صل أفضل صلاتك على أشرف مخلوقاتك، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، عدد معلوماتك ومداد كلماتك كلما ذكرك وذكره الذاكرون، وغفل عن ذكرك وذكره الغافلون[٦].

بالإضافة إلى ختم صحيح البخاري في ليلة السابع والعشرين، جرت العادة في نفس الليلة أن تشعل الشموع ويتم التجول في أرجاء المدينة مع الإنشاد والصلاة على النبي (ﷺ)، كما كانت تلك الليلة تعرف بقيام الليل[٧]. إن ما ذكره ابن حمادوش يتطابق مع كلام الشريف الزهار باعتبار أن كلاهما عاش في مدينة الجزائر، غير أن الشريف الزهار ذكر أن قراءة صحيح البخاري كانت تبتدأ من شهر رجب، ليكون الختام في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان، بالإضافة إلى صلاة التراويح التي يختم فيها القرءان الكريم[٨].

لم يقتصر ختم صحيح البخاري على مدينة الجزائر فقط، فهذا ابن سحنون[٩] يتحدث عن باي الغرب محمد الكبير (١٧٧٩- ١٧٩٦) وعن حضوره لجلسات سرد صحيح البخاري وعنايته بالعلماء إذ يقول "... وهكذا كانت سيرته في شهر رمضان عند ختم صحيح البخاري..."، غير أنه على خلاف مدينة الجزائر أين كان يتم ختم صحيح البخاري في ليلة السابع والعشرين من رمضان، فإنه كان في بعض نواحي بايلك الغرب يختم في سابع يوم من العيد انطلاقاً مما أشار إليه ابن سحنون في قوله"...فإذا كان سابع العيد ختم فيه صحيح البخاري وتهيأ له السلطان أحسن تهيئ..."[١٠]، هذا وكان حين ختم صحيح البخاري يطعم الطعام، وتنشد الأناشيد والمدائح النبوية[١١].

لختم صحيح البخاري طابع مغاربي يبرز مدى الترابط والتواصل بين هذه الأقطار، فحتى العربي المشرفي[١٢] الذي عاش في المغرب خلال القرن التاسع عشر في بلاط العلويين ذكر هو الآخر ختم صحيح البخاري، وهذا في معرض إشادته بالسلطان المغربي محمد بن عبد الرحمان (١٨٥٩-١٨٧٣) في مخطوطه الآيات والحوادث"... وختمت التذييل بمناقب سيدنا وذكر أشياخه في سلم العلميات وتحليه في الأشهر الثلاثة رجب وشعبان ورمضان بحلية الحديث واعتكافه على قراءة صحيح البخاري فيها..."[١٣]. إن ما لفت انتباهنا ونحن نطلع على بعض المصادر المحلية حول هذا الموضوع، هو عدم حديث حمدان خوجة[١٤] في كتابه المرآة عن شهر رمضان، رغم أنه تحدث على كير من طبائع وعادات الجزائريين شرقًا وغربًا شمالاً وجنوبًا فلو تحدث هذا الأخير لكان ربما قد ذكر أمورًا أخرى غير التي ذكرنا آنفا.

ثانيًا: صيام رمضان على ضوء الكتابات الأجنبية

كثيرة هي الكتابات الأجنبية التي اهتم أصحابها على اختلاف أطيافهم-من أسرى ورحالة وقناصل وعسكريين-بالكتابة عن عادات وتقاليد الجزائريين، سواء ما كان منها عرفيًا أو دينيًا، أو ما كان رسميًا أو شعبيًا. يأتي هذا الاهتمام من الأوروبيين لدوافع عديدة كحب المعرفة والفضول، وتسجيل كل ما هو غير مألوف ومعهود في المجتمعات الغربية، أو بدافع الاكتشاف والاستشراق خدمة لمصالح معينة.

لعل من بين أهم ممارسات الجزائريين التي لفتت انتباه الأوروبيين هي صيام شهر رمضان، فلا يكاد يخلو مؤلف أو رحلة تتحدث عن عادات وتقاليد الجزائريين، إلا ونجد فيها إشارات عن صيام شهر رمضان وجميع ما يرتبط به من عادات وعبادات، غير أن حجم الحديث يختلف من كاتب إلى آخر، وهذا بحسب الظروف المحيطة به، فهناك من كان في سعة من أمره، الأمر الذي يؤدي بصاحبه إلى الاستفاضة في الحديث عن هذا الشهر، على غرار الرحالة الألمان مثل هابنسترايت الذي زار الجزائر عام ١٧٣٢م، وفندلين شلوصر الذي كان في بلاط أحمد باي ما بين ١٨٣٢-١٨٣٧م، وكذلك الرحالة هاينريش فون مالتسان الذي زار مدينة قسنطينة عام ١٨٦٢م وكتب عن صيام شهر رمضان بشيء من التفصيل حيث يقول "...عندما زرت قسنطينة لآخر مرة في ربيع سنة ١٨٦٢ أتيح لي أن أعيش رمضان، شهر المسلمين المعظم... فوجدت الفرصة سانحة للتعرف على تقاليد الأهالي عن طريق مخالطتهم، وذلك ما لا يتاح عادة للأوروبي، لأن صلته بالمسلمين كثيرًا ما تكون محدودة..."[١٥].

تجدر الإشارة إلى أنه هناك من أتيحت له فرصة الحديث عن صيام شهر رمضان بحكم إقامته في وسط حضري، إلا أنه تجاوزه واكتفى بذكر أنه شهر يمنع فيه الأكل والشرب، وهذا ما ينطبق على حالة الأمريكي كاثكارت الذي راح يذكر حادثة انفلات أمني داخل أحد سجون مدينة الجزائر تزامنت مع بداية هذا الشهر[١٦] كما انه هناك من أدرك رمضان ولم يسهب في الحديث عنه مثلما هو شأن الأسير الدانماركي ميتزون الذي اكتفى هو الآخر بذكر امتناع الجزائريين عن الأكل والشرب من طلوع الشمس إلى غروبها[١٧]، وهذا طبعا بحكم ظروف أسره، فالمتتبع ليومياته كأسير يجدها لا تخرج عن عمله في الميناء وعودته للسجن، وبالتالي فقد كان بعيدًا عن عادات شهر رمضان.

ثالثًا: من هلال رمضان إلى هلال العيد

إن نماذج الكتابات الأجنبية التي وقفنا عليها بخصوص شهر رمضان تعطينا صورة واضحة عن كل ما يتعلق به من عادات وعبادات، منذ إعلان الصيام إلى غاية آخر يوم من شهر رمضان. كان يتم الإعلان عن بدأ الصيام خلال العهد العثماني بطلقة مدفع وهذا لإعلام الناس، وحتى إعلان الإفطار هو الآخر كان يعلن عنه بطلقة مدفع[١٨]، حسب مالتسان فإن الإعلان عن موعد الإمساك والإفطار بطلقة مدفع استمر خلال العهد الفرنسي، وهذا من خلال قوله"...وفي شهر رمضان تتكرم الحكومة الفرنسية بوضع طلقة مدفع تحت تصرف المسلمين يتم بواسطتها الإعلان عن انتهاء الصوم، ففي مساء كل يومن ينطلق فيما بين السادسة والسابعة صوت المدفع..."[١٩].

لقد سهلت الإقامة في الجزائر للأوروبيين معرفة الأحكام الشرعية المتعلقة بالصيام، من شروط الصوم وموانعه، وحتى ما يتعلق بالكفارات والعقوبات التي يتعرض لها من أفطر رمضان عمدا، ففي هذا الصدد يقول هابنسرايت"... لاحظت أن المسلمين يمتنعون عن الأكل والشرب أثناء اليوم طيلة الشهر..."[٢٠]، ويضيف أحد الأسرى الأمريكان"...وأثناء ذلك لا يقتربون من المرأة ولا يشربون ويبتعدون عن الشمة والتدخين من طلوع النهار إلى غروب الشمس..."[٢١]، هذا ويتحدث

الضابط العسكري دوماس عن الحالات التي يجوز فيها الإفطار مع القضاء، أو إخراج صاع من القمح عن كل يوم، وهذه الحالات تتعلق بالشيوخ كبار السن الذين يشربون أيام الحرارة، أو مَنْ كان مريضًا، أو النساء اللواتي هن بالحمل أو وضعن حملهن، وجميعهم يحصلون على رخصة من شخصية دينية[٢٢].

على الرغم من هذه الرخص للمضطرين فإن الجزائريين كثيرا ما كانوا يرفضون تناول الدواء، إلا في حالة اشتداد وطأة المرض، وقد يؤدي هذا إلى التهلكة[٢٣]، إن هذا الحرص من الجزائريين على صيام شهر رمضان جعل مالتسان يشيد بتمسك الجزائريين بشعائر دينهم، إذ يقول"...فصوم رمضان واجب ديني لا يتهاون فيه المسلمون جميعًا... إن أكثر الشباب دعارة وفسقًا في الجزائر ليستقيمون في شهر رمضان وتتسم أعمالهم بالصلاح فهم أيضا يصومون نهارهم ولا يأتون المفاسد والآثام التي تعودوا إتيانها في الشهور الأخرى، والمسلم بصورة مطلقة يأخذ رمضان مأخذ الجد..."[٢٤]. تجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من حرص الجزائريين على صوم شهرهم المعظم، فقد تقع انتهاكات لحرمة هذا الشهر، لذا نجد دوماس يذكر العقوبات المختلفة التي تطال المفطر عمدا، فقد يتعرض للسجن، أو الضرب أو التغريم، غير أنه لم يذكر لنا أنه قد تصادف مع هكذا حالات[٢٥].

هذا جانب من الأمور التعبدية المتعلقة بصيام رمضان حسب هذه المصادر، وكما سبقت الإشارة إلى أن تواجد الأوروبيين وسط المجتمع الجزائري جعلهم يلاحظون أدق التفاصيل ويدونونها، حيث يذكر الرحالة الألماني هابنسترايت حسب مشاهداته في مدينة الجزائر أن مشقة الصوم كانت تقع على جماعة البرانية الذين يقومون بأعمال منهكة جدّا، بينما الذين هم في منزلة أرفع وهم الحضر، فإنهم يجتنبون هذا الإجهاد[٢٦]، لم تقتصر هذه الملاحظة على مشاهدات هابنسترايت فقط، فحتى مالتسان وقف على الأمر نفسه في قسنطينة حيث يقول"... وكثيرًا ماكنت أرى في مثل هذا الوقت العمال، عربا وقبائل، مجتمعين في الميدان الرئيسي بقسنطينة، وفي يد كل واحد منهم قطعة خبز أو برتقالة أو أي شيء يصلح للأكل...وعندما يسمعون بعد ذلك صوت الطلقة ينسون كل شيء، ويغرقون في إشباع جوعهم الذي كان قد أثير إلى أقصى حد..."[٢٧].

ودائمًا مع إفطار الجزائريين عند الآذان وطلقة المدفع، يخبرنا دوماس أن الجزائريين يفطرون على حبات من التمر وكأس من الماء، ثم يتوجهون إلى الله بالدعاء طالبين مغفرة الذنوب ما تقدم منها وما تأخر[٢٨]. في قسنطينة يصور لنا مالتسان مختلف الأكلات والحلويات، بين ما هو محلي، وبين ما هو تركي، كما يتحدث عن طرق تحضيرها وإعدادها، ولكي يقرب أوصاف وأذواق هذه الأكلات والحلويات للقارئ، نجده يشبهها بالحلويات الأوروبية، حيث شبه الزلابية بالشطائر السويسرية، وكذلك شبه البقلاوة بالكعك الألماني بالإضافة إلى حديثه عن الكسكسي والبوراق والمشلوش، لقد اعتبر مالتسان أن شهر رمضان هو موسم الحلويات[٢٩]. من بين الأمور المرتبطة برمضان، والتي ركزت عليها كتابات الأوروبيين هي ليالي رمضان، وما كان يتم فيها من احتفالات وسهرات وزيارات للأقارب، حيث كانت تعرف شوارع مدينة الجزائر خروج الجزائريين للتجول أو لمشاهدة اللعاب البهلوانية، وسماع القوالين والمداحين، كما كانت المقاهي تضاء بالشموع والمصابيح[٣٠].

بالإضافة إلى ما سبق كانت تقام حفلات ومسرحيات القراقوز، التي كان يحضرها الجزائريون والأوروبيون على سواء، لما كانت تتميز هذه المسرحيات من طرافة وفكاهة، غير أنه حسب الألماني موريس فاغنر الذي زار الجزائر في العقد الرابع من القرن التاسع عشر أن الفرنسين ألغوا هذه الحفلات عندما وجدوا أن الجزائريين أصبحوا يستهزؤون من الفرنسين في مشاهد تجسد روح المقاومة الجزائرية[٣١]. لم تقتصر حفلات القراقوز على مدينة الجزائر فقط، فقد تحدث عنها مالتسان في قسنطينة، كما أنه سجل عنها انطباعًا سيئًا بعد حضوره إحدى الحفلات، وقرر عدم حضورها في المستقبل[٣٢].

على الرغم من إحاطة هؤلاء الأوروبيين بالكثير من الجوانب المتعلقة بشهر رمضان في الجزائر، إلا أن بعضهم قد أخطأ في ذكر بعض الأمور، فالأسير الأمريكي الذي أشرنا إليه ذكر بأن رمضان هو ثالث ركن في الإسلام[٣٣] وكذلك دوماس هو الآخر اعتبر أن رمضان هو ثالث ركن في الإسلام[٣٤]، كما أخطأ أيضًا الرحالين الفرنسيين ويلد وليسور اللذين زارا الجزائر في السنوات الأولى للاحتلال حينما ذكرا أن رمضان فيه أربعين يومًا[٣٥]. هذا ونجد مالتسان هو الآخر يخطأ عندما يعتبر أن انتهاء صيام المسلمين عند غروب

الشمس أمر غير منطقي، على خلاف اليهود الذين يؤخرون الإفطار إلى غسق الليل حين تظهر النجوم، واعتبر رأيه صحيحًا لدرجة ذكره عن نفسه أنه كثيرًا ما كان يناقش المسلمين في هذه القضية، ولم يتمكن بإقناعهم[٣٦].

رابعًا: احتفالات عيد الفطر

إن الميزة التي تشترك فيها هذه النماذج من الكتابات الأوروبية هي ذكر احتفالات عيد الفطر على المستويين الرسمي والشعبي عقب انتهاء شهر الصيام. يذكر هابنسترايت أنه بمجرد رؤية هلال العيد ينقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بدوره مباشرة إطلاق المدافع تعبيرًا عن فرحتهم باستقبال العيد، وخلال اليوم الأول وبعد صلاة العيد يتوجه الناس إلى القصر الداي لتهنئته[٣٧]، حيث يتوجه إليه قناصل الدول الأوروبية لتقبيل يده، بالإضافة إلى أعيان وأشراف المدينة، أمناء الحرف، مقدم الطائفة اليهودية[٣٨].

لقد اعتبر ويليام شالر أن تقبيل يد الداي دليل على الخنوع، حيث إن بعض القناصل ينتحلون المعاذير لاجتناب حضور هذه المراسيم، كما استطاعت كل من فرنسا وبريطانيا وإسبانيا والولايات المتحدة الأمريكية أن تعف قناصلها من هذا التقليد، فعوض تقبيل اليد يكتفي قناصل هذه الدول بالمصافحة والانحناء أمام الداي والقنصل ويليام شالر من بينهم[٣٩]، للإشارة فإن الزيارات كانت تتم أيضًا للبايات كما هو الحال مع أحمد باي قسنطينة الذي يفتح باب قصره لسكان المدينة وحضورهم لمأدبة العشاء ليلة العيد[٤٠]. أشار هابنسترايت إلى أمر مهم مرتبط بهذه الاحتفالات، وهو خوف الداي من تعرضه للاغتيال داخل قصره من خصومه الذين يستغلون هذه الفرصة[٤١].

في اليوم الأول من عيد الفطر اعتاد الأتراك على القيام بالمصارعة في إحدى الساحات الرملية وعلى أنغام موسيقى الإنكشارية، حيث يرتدي المصارعون سراويل قصيرة، كما يدهنون أجسامهم بالزيوت، والذي يتمكن من طرح خصمه أرضًا يحصل على جائزة[٤٢]، وفي قسنطينة كانت تقام ألعاب الفروسية التي يشرفها الباي بحضوره شخصيًا، وعقب انتهاء هذه الألعاب يقوم الباي بتوزيع الأموال والهدايا على الفرسان، وعلى العامة من الناس[٤٣]. لقد أشار الرحالين الفرنسيين ويلد وليسور إلى الاحتفالات التي كان يقوم بها الزنوج في مدينة الجزائر بمناسبة عيد الفطر، والتي لفتت انتباههم نظرا لطابعها الخاص خصوصية جماعة الزنوج في حد ذاتها، كجماعة وافدة على المدينة، حيث كانت هذه الجماعة تنتظم في فرق كل فرقة تضم ما بين العشرة والخمسين فرد، منهم من يرقص، ومنهم من يقرع الطبول، ومنهم مَنْ يصفق[٤٤].

خَاتمَةٌ

من خلال ما سبق ذكره يتضح لنا حضور صيام شهر رمضان أحد أهم العبادات التي يقوم بها المسلمون عامة والجزائريون خاصةً ضمن الكتابات التاريخية المحلية منها والأجنبية، وإذا كانت الكتابات المحلية على قلتها تركز على شعائر المسلمين وعباداتهم، فإن الكتابات الأجنبية ركز فيها أصحابها على العادات والعبادات، مع تغليب الحديث عن العادات في كثير من الأحيان، غير أنه بقراءة تركيبية لما جاء في الكتابات المحلية والأجنبية على سواء تتضح لنا جوانب هامة من ذهنية وممارسات الجزائريين المتعلقة بشهر رمضان، كما أننا نقف على استمرارية وانقطاع بعض العادات. للإشارة فإننا قمنا برصد نماذج تُعَدّ قليلة مقارنة بالكم الهائل من الكتابات الأوروبية والتي تمتد زمنيًا إلى غاية القرن العشرين، وبالتالي فإنه يمكن للباحث أن يتعمق في هذا البحث ليقف على جوانب أخرى متعلقة بالموضوع.

الهَوامِشُ:

(١) محمد بن عبد الكريم الفقون: **نوازل قسنطينة**، تقديم وتحقيق: هواري تواتي وعائشة بلعابيد، ط١، دار الزيتون للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٨، ص ٢٥- ٢٦.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٦.

(٣) المرجع نفسه، ص ٣٩.

(٤) هو الشيخ عبد الكريم الفقون الملقب بشيخ الإسلام، ينتمي إلى أسرة الفقون القسنطينية عاش ما بين ١٥٨٠-١٦٦٢، عرف بعلمه وشخصيته القوية. للمزيد حول شخصيته انظر:- أبو القاسم سعد الله: **شيخ الإسلام عبد الكريم الفقون داعية السلفية**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

(٥) هو عبد الرزاق بن محمد بن حمادوش ولد في مدينة الجزائر وهو من علماء الجزائر خلال القرن ١٨م، يعتبر من العلماء القلائل الذي اهتموا بالعلوم العقلية ولا سيما مجال الطب. للمزيد حول شخصيته انظر:- أبو القاسم سعد الله: **الطبيب الرحالة ابن حمادوش "حياته وآثاره"**، د‌ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٨٢.

(٦) عبد الرزاق ابن حمادوش: **"لسان المقال في النبأ عن النسب والحسب والحال"**، تحقيق: أبو القاسم سعد الله، د‌ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص ١٢١- ١٢٥.

(٧) نفسه، ١٢٦.

(٨) أحمد الشريف الزهار: **مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار**، تحقيق: أحمد توفيق المدني، د‌ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ١٨٢.

(٩) هو أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، نسبة إلى بني راشد، من علماء القرن الثامن عشر ومن المقربين إلى الباي محمد الكبير، فقد كان كاتبا في بلاطه، اشتهر بتأليفه الذي خلد فيه ذكرى فتح وهران والموسوم بـ" **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**" للمزيد حول شخصيته انظر:- ناصر الدين سعيدوني: **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص ٤٤٠- ٤٤٨.

(١٠) حمدادو بن عمر: **المساهمة العلمية لمتصوفة بايلك الغرب خلال القرنين ١٧-١٨م**، أطروحة دكتوراه، جامعة وهران، ٢٠١٢-٢٠١٣، ص ١٣٨.

(١١) نفسه، ١٣٩.

(١٢) هو العربي بن علي بن عبد القادر المشرفي عاش خلال القرن ١٩م، سليل الأسرة المشرفية المتوطنة في غريس خلال العهد العثماني، والمهاجرة إلى المغرب الأقصى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، عرف بعلمه وكثرة تآليفه التي تزيد عن الثلاثين، للمزيد حول شخصيته راجع:- عبد المنعم القاسمي: **أعلام التصوف في الجزائر منذ البدايات إلى غاية الحرب العالمية الأولى**، ط١، دار الخليل القاسمي للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠٠٦.

(١٣) العربي المشرفي: **الآيات والحوادث**، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم ٣٠١٣، ص ١٣.

(١٤) هو حمدان بن عثمان خوجة ينتمي إلى أسرة حضرية في مدينة الجزائر، وبالتالي فهو من أشهر أعيان مدينة الجزائر نهاية العهد العثماني وبداية الاحتلال، مارس التجارة، وعرف برحلاته التي ساهمت في توسيع ثقافته، كما كان من المعارضين لسياسة الجنرالات الفرنسيين في بدايات الاحتلال، من أشهر مؤلفاته كتاب إتحاف المنصفين، وكذلك كتاب المرآة، توفي حوالي ١٨٤٥م. للمزيد حول شخصيته انظر:- ناصر الدين سعيدوني: **من التراث التاريخي والجغرافي للغرب الإسلامي**، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، ص- ص ٤٨٨- ٥٠٠.

(١٥) هاينريش فون مالتسان: **ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا**، ترجمة: أبو العيد دودو، ج٣، د‌ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 55.

(١٦) كاثكارت: **مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب**، ترجمة: إسماعيل العربي، د‌ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٢، ص ٢٥٢.

(١٧) جيريت ميتزون: **يوميات أسر في الجزائر ١٨١٤- ١٨١٦**، تعريب: محمد زروال، د‌ط، دار هومة، الجزائر، ٢٠١٠، ص ٤١.

(١٨) فندلين شلوصر: **قسنطينة أيام أحمد باي ١٨٣٢-١٨٣٧**، ترجمة: أبو العيد دودو، د‌ط، وزارة الثقافة، ٢٠٠٧، ص ٨٩.

(١٩) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص ٥٧.

(٢٠) هابنسترايت: **رحلة العالم هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس ١١٤٥هـ/١٧٣٢م**، ترجمة ناصر الدين سعيدوني، د‌ط، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص ٤٥.

(٢١) جيمس ويلسون ستيفن: **الأسرى الأمريكان في الجزائر ١٧٨٥-١٧٩٥**، ترجمة: علي تابليت، د‌ط، ثالة للنشر، ٢٠٠٧، الجزائر، ص ٢٤٥.

(22) Eugéne Daumas: Mours et coutumes de L'Algérie, edition anep, 2006, p 82.

(٢٣) فندلين شلوصر: **المصدر السابق**، ص ٨٩.

(٢٤) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص ٦٣.

(25) Eugéne Daumas: op, cit, p 82.

(٢٦) هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص ٤٥.

(٢٧) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص ٥٧.

(28) Eugéne Daumas: op, cit, p 82.

(٢٩) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص٥٩- ٦٠.

(30) Pierre Boyer: la vie quotidienne a Alger a la veille de l'intervention française, librairie hachette, 1963, p 225.

(٣١) أبو العيد دودو: **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ١٨٣٠-١٨٥٥**، د‌ط، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص ٣٦.

(٣٢) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص ٦٣- ٦٤.

(٣٣) جيمس ويلسون ستيفن: **المصدر السابق**، ص ٢٤٥.

(34) Eugéne Daumas: op, cit, p 81.

(٣٥) ويلد وليسور: **رحلة طريفة في إيالة الجزائر**، ترجمة: محمد جيجيلي، ط٢، دار الأمة، الجزائر، ٢٠٠٢ص ص ٨٨.

(٣٦) هاينريش فون مالتسان: **المصدر السابق**، ص ٥٤.

(٣٧) هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص ٤٨.

(38) Pierre Boyer: op, cit, p 226.

(٣٩) ويليام شالر: **مذكرات ويليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر ١٨١٦- ١٨٢٤**، ترجمة: العربي إسماعيل، د‌ط، الشركة الوطنية للكتاب، ١٩٨٢ ص ٦٥.

(٤٠) فندلين شلوصر: **المصدر السابق**، ص ٨٦.

(٤١) هابنسترايت: **المصدر السابق**، ص ٤٨.

(٤٢) نفسه، ص ٤٨.

(٤٣) فندلين شلوصر: **المصدر السابق**، ص ٨٦.

(٤٤) ويلد وليسور: **المصدر السابق**، ص ٨٨.

دراسات

الموروث الحضاري في تعامل الإنسان العُماني مع الآخر في التاريخ الحديث والمعاصر



د. يحيى محمد أحمد غالب

أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد

قسم العلوم الإنسانية - كلية الآداب والعلوم

جامعة قطر - دولة قطر

مُلَخّص

وسط الصراعات والتحالفات والتجاذبات والعدوات وتشابك المصالح على المستوى المحلي والإقليمي وحتى الدولي، تتخذ عُمان موقف المحايد مفضلة عدم التدخل والوقوف على مسافة واحدة من جميع الأطراف. هذا الثبات والاستقرار في السياسة الخارجية العُمانية، يجعلنا نقلب صفحات الماضي العُماني لمعرفة التطور التاريخي لهذا الأسلوب والموروث الحضاري العُماني في التعامل مع الآخر؛ والمقصود بالآخر كل ما هو دون عُمان الأرض والإنسان سواء كانوا جيرانها في منطقة الخليج أو القريبين منها في البلاد العربية والعالم الإسلامي أو البعيدين عنها في المجتمع الدولي. تسعى هذه الدراسة إلى تتبع تعامل الإنسان العُماني مع الشعوب والمجتمعات الأخرى عبر العصور التاريخية، سواء كان ذلك بصورة فردية تتناول سلوك الإنسان العُماني وتعامله مع الآخرين أو بصورة رسمية بواسطة السلطة الحاكمة العُمانية وعلاقتها الخارجية مع الدول الأخرى، وهذا كله ما هو إلا نتيجة للموقع الجغرافي للأرض العُمانية وتفاعل الإنسان العُماني مع أهمية هذا الموقع ودوره الحضاري في قيام علاقة متنوعه مع الحضارات الأخرى في مختلف مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية والثقافية، وكيف كان هذا الموقع محل أطماع من الآخرين وكان يمكن أن يصبح مكانًا للصراع بين الطامعين فيه، ومكان انطلاق للراغبين في إلحاق الأذى بمن حوله، ولكن حكمة الإنسان العُماني أدركت أهمية وخطورة الموقع الجغرافي لبلدهم فاتخذوا أسلوب حضاري في التعامل مع الآخر بما يجنب بلدهم كل هذه المخاطر مستندين في تحقيق ذلك على الإرث الحضاري الإنساني الذي صبغ الشخصية العُمانية بصفات إنسانية توارثتها الأجيال عبر الزمن وكانت محل تقدير كل من تعامل مع الإنسان العُماني سواء كان ذلك في داخل عُمان أو في المناطق التي وصل إليها النفوذ العُماني في قارتي أسيا وأفريقيا. وتنتهي الدراسة بمعرفة الموروثات الحضارية التي ارتبطت بالموقع الجغرافي لعُمان والموروث الحضاري الإنساني للشخصية العُمانية بالإضافة إلى الموروثات الحضارية الاقتصادية والدينية والسياسية، وصولًا إلى النتائج التي تم التوصل إليها والمراجع التي تم الاستناد عليها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٨ أكتوبر ٢٠١٩

تاريخ قبـول النشـر: ٢٥ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

عُمان؛ الإنسان العُماني؛ الإرث الحضاري؛ الخليج العربي؛ الموروثات الحضارية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057049

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

يحيى محمد أحمد غالب. "الموروث الحضاري في تعامل الإنسان العُماني مع الآخر في التاريخ الحديث والمعاصر".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١١٩ – ١٣٠.

مُقَدِّمَة

لم يعدّ الماضي كله يثير الفضول لمعرفته والاطلاع عليـه، وفي الوقـت نفسـه لا نسـتطع الاسـتغناء عنـه وخاصةً الـذي لاتـزال آثـار ملامحـه في الحـاضر الـذي نعيشه، وينطبق هذا على الدور الحضاري في التـاريخ البشري، الذي يتم توارثه عبر الأجيال المتعاقبة. وغالبًا ما يرتبط الموروث الحضـاري لشعب مـن الشـعوب في تعاملـه مـع الآخـرين بثلاثـة مـؤشرات زمنيـة ومـؤشرين عمليـين، أمـا الزمنيـة فهـي تـرتبط بمـاضي مفقـود

يتضمن الإرث التاريخي لهذا الشعب في مختلف مجالات الحياة، وحاضر موجود هو نتيجة لما كان في الماضي من انتكاسات أو منجزات ومدى قدرة الشعوب على المحافظة عليها أو هدمها، ومستقبل موعود يكون نتيجة للحاضر ويتوقع فيه أن تسعى الشعوب الإنسانية إلى تجاوز سلبيات الحاضر وتطوير الإيجابيات.

وأما المؤشرين العمليين فقد يكون سلبي بعدم المشاركة في كل ما يؤدي إلى الحاق الأذى بالآخرين والحفاظ على علاقة متميزة معهم، وقد يكون إيجابي بالمساهمة وبذل الجهد في حل الخلافات وتقريب وجهات النظر بين الشعوب الأخرى. وبذلك يكون اتخاذ الحاضر نقطة انطلاق للبحث وتقليب صفحات الماضي لمعرفة كيف تشكل حاضرنا؟ ما يحقق الهدف الأساسي للتاريخ، وهو فهم الحاضر لكي يساعدنا في رسم ملامح المستقبل، خصوصا وأن مهمة الباحث لم تعد تقتصر على إيراد المعلومات والأحداث من المراجع والمصادر، وإنما تكون مهمته الأساسية هي معرفة مدلول الحدث باعتباره نتيجة لما قبله ومؤثرًا في الأحداث التي بعده، ولا تتوقف أهميته على قوة تأثيره في وقت حدوثه، وإنما على بقاء هذا الأثر ودوره في تشكيل المستقبل في حينه، والذي أصبح اليوم هو الحاضر الذي نعيشه.

والمتأمل للحاضر اليوم في تعامل الإنسان العُماني مع الآخرين والسياسة الخارجية التي تتبعها دولة عُمان في علاقتها مع الدول القريبة منها والبعيدة عنها وتميزها بالثبات والاستقرار واتخاذها موقف الحياد وعدم التدخل في شؤون الآخرين وتطويرها لهذا الموقف بالتوسط في حل الخلافات واحتضانها للحوار بين عدد من الأطراف المختلفة والمتصارعة، يجعلنا نشعر بأهمية هذا الموضوع وحاجته للدراسة التاريخية من أجل الإجابة على عدد من التساؤلات منها، هل هذه الطريقة والسياسة المتبعة وليدة الحاضر؟ أم إنها تستند على ارث تاريخي يعود للماضي البعيد؟ وماهي المقومات التي ساعدت على البقاء والاستمرار؟ وهذه التساؤلات تمثل مكونات مشكلة الدراسة وتجعلنا نضع الفروض المحتملة للإجابة عن هذه التساؤلات وهي أن الأسلوب العُماني في التعامل مع الأخر والطريقة التي تدير بها سياستها الخارجية وعلاقتها مع الدول الأخرى ليست جديدة وإنها تستند على أرث حضاري استمر عبر العصور التاريخية المتعاقبة وقد ساعد على هذا البقاء والاستمرار والتطور مجموعة من العوامل والموروثات الحضارية العُمانية.

وقد تمت معالجة هذا موضوع هذه الدراسة وفق المنهج التاريخي وذلك بعرض الأحداث المرتبطة بالدور الحضاري العُماني مع الآخرين عبر الزمن، والاستعانة بالمنهج التحليلي الاستنتاجي لاستخلاص مدلول الأحداث التاريخية التي مرت بها عُمان وتدل على أثر الموروث الحضاري في تعامل الإنسان العُماني مع الآخر في العصر الحديث وعلاقته مع غيره، رغم تغير الظروف وتباعد الأعوام والسنوات.

ومما يجدر الإشارة إليه أن هذا البحث لا يهدف إلى السرد التاريخي الذي يهتم بإيراد المعلومات من المراجع التي تحدثت عن أهمية موقع عُمان وعن دور الإنسان العُماني في مختلف مجالات الحياة وعبر العصور التاريخية المتعاقبة لأن ذلك قد تم تناوله من قبل في عشرات الأبحاث والمؤلفات والمخطوطات والدراسات الأكاديمية، ولكنه يسعى إلى استنتاج المدلول التاريخي لهذه الأحداث، وكيف كان يتعامل الإنسان العُماني مع هذه الأحداث في الماضي ومقارنة ذلك بالتعامل معها في الوقت الحاضر لمعرفة مدى ثبات هذا الأسلوب واستمراره عبر التاريخ.

ولتحقيق ذلك تم تناول الأحداث التاريخية التي مرت بها دولة عُمان وتفسير ردود فعل الإنسان العُماني وطريقة تعامله مع الآخرين، استنادًا على الإرث الحضاري للموقع الجغرافي لدولة عُمان، ودور هذا الموقع عبر تعاقب سنوات التاريخ في التواصل بين الشعوب الإنسانية في حالة الحروب والسلام. كما تم تناول الإرث الحضاري الإنساني، والمتمثل بالإنسان العُماني الذي أدرك أهمية موقع بلده وتفاعله الحكيم مع الآخرين بما يحافظ على سلامة بلده وبما يمكنها من القيام بدور حضاري متميز في التاريخ الإنساني، وتوارث الأجيال العُمانية للصفات الإنسانية التي جعلتهم محل تقدير واحترام لدى الشعوب الأخرى.

بالإضافة إلى الإرث الحضاري الاقتصادي الذي استند على أهمية الموقع الاستراتيجي لعُمان على طريق التجارة العالمية، والجهود التي بذلها الإنسان العُماني في تقوية العلاقة الاقتصادية بين بلده والبلدان الأخرى متجاوزا الخلافات والصراعات التي تدور حوله وتحويل بلده إلى ملتقي لتبادل المنافع الاقتصادية بين الحضارات الإنسانية. وفي الوقت الذي

كان للديانات والمذاهب الدينية دور في اشتعال الخلافات والصراعات بين اتباع الديانات أو بين المنتميين للمذاهب المختلفة في الديانة الواحدة نجد الإنسان العُماني يستند على أرث حضاري ديني ساعده في النأي بنفسه وبلده عن هذه الصراعات باتباعه لمذهب ديني لم يدخل في صراع مع المذاهب الأخرى ولم يحاول فرض نفسه على غير المقتنعين به، كما أنه انفتح على جميع المذاهب ومنح الآخرين حرية ممارسة شعائرهم.

ونختتم الموروثات الحضارية للإنسان العُماني بتناول الإرث السياسي، الذي كان له نصيب كبير في هذه الدراسة نظرا لأهميته ودوره في تحديد نوعية العلاقة بين الدول والمجتمعات البشرية، وكيف نجح الإنسان العُماني في اتباع سياسة متوازنة عبر التاريخ رغم تعاقب الأجيال وتغير الظروف والأحداث التي مرت بها المنطقة المحيطة بعُمان أو البعيدة عنها. وبواسطة تناول هذه الموروثات الحضارية التي تبين كيف كان يتعامل الإنسان العُماني مع الآخرين في الماضي البعيد وفي الحاضر القريب، وكيف أظهرت عُمان قدرة فائقة في التعامل مع الآخرين في هذا المجال؟ فلم تدخل في صراع سياسي أو ديني مع المحيط العربي أو مع الجوار الإسلامي واحتفظت بعلاقة متميزة مع جميع الفرقاء القريبين منها والبعيدين عنها، وكيف يمكن استغلال هذا الرصيد الحضاري وتحويله إلى دور إيجابي يساهم في حل الخلافات وتقريب وجهات النظر بين الفرقاء على مستوى منطقة الخليج والعالم العربي والإسلامي.

أولاً: الإرث الحضاري للموقع الجغرافي

ترتبط أهمية المكان أو الموقع الجغرافي للدول بمدى أهميته للبشر الذين يستوطنوه وبمدى اهتمام الشعوب الأخرى به، وصعوبة تجاوز هذه الأهمية أو التغافل عنها عبر سنوات التاريخ المتعاقبة، صحيح أن هذه الأهمية نسبية وغير ثابتة، فهي تظهر وتختفي من وقت إلى آخر حسب الظروف التي يعيشها أو الظروف المحيطة به أو بمدى الاهتمام أو التجاهل الذي تبديه الشعوب الأخرى نحوه. فهناك مواقع دول كان لها شأن كبير في التاريخ القديم، وفجأة اختفى ذلك الدور وتلك الأهمية في العصور الوسطى وقد يعود مرة أخرى ليحتل نفس الأهمية وربما أكثر في العصر الحديث، ومواقع أصبح لها مكانة وأهمية في الحاضر ولم يكن لها شأن يذكر لافي القديم ولا في الوسيط. ويعد موقع عُمان من المواقع التي كان لها أهمية كبيرة في الماضي ومازالت تلك الأهمية مستمرة إلى وقتنا الحاضر وهنا نتسأل ما هو الجديد الذي يقدمه موقع عُمان ويجعله يقوم بدور حضاري ثابت في الماضي والحاضر ويجعله مؤهلا للقيام بدور استثنائي في المستقبل؟

إن هذا الثبات للأهمية الاستراتيجية لموقع دولة عُمان عبر العصور التاريخية يمنحها مكانة حضارية في التاريخ الإنساني، فهي تقع في جنوب شرق الجزيرة العربية وتحيط البحار بها من ثلاث جهات، بحر العرب من الجنوب وخليج عُمان من الشرق والخليج العربي من الشمال والربع الخالي من الغرب، وهي جهة عازلة طاردة حتمت على العُمانيين التوجه نحو البحر، ولذلك فقد نشأ العُمانيون في بيئة بحرية مثالية لعدة أمور منها: ما تتمتع به بلادهم من سواحل طويلة ممتدة على تلك البحار، وموانئ طبيعية صالحة لرسو السفن، وموقع جغرافي ممتاز على مدخل الخليج العربي، ذلك الممر الهام على مر العصور الذي اكتسب أهمية جغرافية وتجارية وسياسية عظيمة، وبهذا الموقع أصبحت عُمان مركزًا وسطًا بين منطقة القرن الأفريقي بساحل شرقي أفريقية من ناحية، وبلاد الهند وما خلفها من ناحية ثانية، ومنطقة الخليج وما خلفها من ناحية ثالثة، هذا الوضع حتم على العُمانيين العمل في البحر فمارسوا فيه شتى أنواع الأنشطة الاقتصادية من صيد وغوص وملاحة وتجارة، كما كان لهم دورهم الفاعل في الجوانب السياسية والعسكرية[١]

ومن العجائب الطبيعية التي توفرت لموقع عُمان أيضا أنها إقليم مستقل من الناحية التركيبية لا يتبع الكتلة العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، بل هو متأثر بالحركات الإلتوائية التي كونت جبال زاجروس وطوروس في الزمن الثالث.[٢] ويحسب لعُمان قيامها بتفاعل حضاري مع هذا الجزء من الطرف الآخر للخليج العربي فقد تم لهم استيطان الساحل الشرقي من الخليج العربي وقاموا بدور كبير في هذه المنطقة تشير إليه الكثير من المصادر التاريخية الإسلامية[٣]. وقد ساهم موقع عُمان، والموانئ التي يطل عليها في صقل الوظيفة الاقتصادية للعُماني؛ لأنه يقع على طرق التجارة الدولية المارة في الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر وتلك الطرق تعبرها السفن المحملة بالسلع التجارية المحلية، والسلع القادمة من الهند وإفريقيا والعائدة إليهما. وظل هذا الموقع يوصل أهله بالعالم الخارجي.[٤]

وهكذا نجد أن الموقع الجغرافي لموانئ عُمان قد جعلها مركزًا مهمًا لتجارة العبور استيرادًا وتصديرًا بين أسواق العالم المعروفة وربطها بالطرق التجارية العالمية آنذاك، وهذا ما اكسب عُمان خصوصية في التجارة العالمية، إذ اشتهرت موانئها بكثرة تجارها ووفرة تجارتها وسعة مالها وغناها... كما أن موقعها جعلها بوابة الخليج العربي الأولى إلى شرق إفريقيا، التي امتازت بخيراتها الوافرة... ولذلك قام العُمانيون بنقل معظم تجارة الساحل الإفريقي الشرقي إلى عُمان ليعاد تصديرها إلى المراكز التي تطلبها[٥] ولذلك لا تخلوا المصادر التاريخية والجغرافية القديمة والحديثة من الإشارة إلى موقع عُمان وأهميته بمفهومة التاريخي الكبير الذي يضم مساحة أكبر مما هي عليه اليوم أو إلى إقليم أو منطقة أو مدينة تمثل اليوم جزءا من دولة عُمان في الوقت الحاضر.

هذا الموقع الجغرافي لدولة عُمان جعلها ملتقي للشعوب العربية والإسلامية القادمة من المناطق المجاورة لها في الوطن العربي والدول الإسلامية في أسيا وأفريقيا، فتبادلوا المنافع التجارية فيها ولمن قدر لهم البقاء فيها نجدهم قد عاشوا إلى جوار بعضهم البعض في محبة وسلام، رغم تنوع الأجناس وتعدد المذاهب الدينية. ومازال هذا حالها إلى وقتنا الحاضر فقد احتفظت عُمان بأهمية ومكانة موقعها الجغرافي وموروثها الحضاري الذي يمنح الآخرين فرصة العيش على أرضها مع أبناء الشعب العُماني مهما تعددت الأعراق واختلفت الديانات.

ثانيًا: الإرث الحضاري الإنساني

تتغير طبيعة الإنسان وسلوكه ومقومات شخصيته مع تغير الظروف المحيطة به في المكان الذي يعيش فيه؛ فلا تمر سنوات الشدة والرخاء وسنوات السلام والصراع إلا وتترك أثرها في شخصية الإنسان، ولا تخرج عن هذه القاعدة سوى الشعوب الحضارية التي ترسخت القيم الإنسانية في جيناتها وهذا ما نجده في أبهى صوره في الشخصية العُمانية التي احتفظت بهذه القيم عبر الزمن ويؤكد ذلك شهادة الذين عاصروا الشخصية العُمانية منذ قديم الزمن وحتى اليوم فهذا جون أو فجتن، الذي زار عُمان عام ١٦٩٣م، يقول في وصف الشخصية العُمانية (إن هؤلاء العرب على قدر كبير من دماثة الخلق، يظهرون لطفًا وكرمًا كبيرين للغرباء، فلا يحتقرونها ولا يلحقون بهم أذى جسديًا. وهم على تشبثهم الثابت بمبادئهم والتزامهم الراسخ بدينهم، لا يفرضون تلك المبادئ وذلك الدين على الآخرين. كما انهم لا يغالون بالتمسك بها مغالاة تجردهم من إنسانيتهم أو من حسن معشرهم؛ فالمرء يقطع في بلادهم مئات الأميال دون أن يتعرض للغة نابية أو لأي سلوك فج)[٦]

هكذا كانت الشخصية العُمانية قبل خمسة قرون من الزمن فماذا يمكن أن يقال عنها اليوم؟ الكل يجمع على أنها لاتزال متمسكة بنفس القيم الإنسانية الحضارية رغم تبدل الظروف وتغير الأحوال. فقد ظلت القيم الحضارية والأخلاق العالية التي يتمتع بها الإنسان العُماني في سفره وأثناء معاملاته التجارية وعلاقاته الفردية مع السكان الذين عاملهم، واحتك بهم في معاملاته تستند على أساس الانتماء إلى المبدأ والأصل، مما ساهم في تقوية العامل الحضاري المؤثر، واكسب عُمان سمعة حضارية كبيرة.[٧]

ثالثًا: الإرث الحضاري الاقتصادي

تبرز أهمية عُمان الاقتصادية من ارتباط اسمها بأعرق الحضارات الإنسانية في التاريخ القديم بحكم موقعها الجغرافي في بلاد العرب الذي جعلها من أكثر بقاع بلاد الجزيرة خصوبة ونماء وازدهارًا، ومكنها من التواصل سواء عن طريق البر أو البحر بالمراكز الحضارية الثلاثة المهمة وهي: مصر ـ في الشمال الغربي وبلاد ما بين النهرين في الشمال الشرقي وفارس إلى الشرق.[٨] وقد كان للنشاط التجاري دور كبير في هذا التواصل، فحضارة بلاد الرافدين تشير إلى صلاتها البحرية مع دلمون (البحرين) وماجن Magan (عُمان)، وتؤكد على أن الملك سرجون الأكدى قد جلب من هذين البلدين سفنا محملة بالنحاس وأفرغ حمولتها في عاصمته أكد[٩].

وقد استغل الإنسان العُماني في التاريخ القديم هذا الموقع المتميز لبلده، فلم يكتف بانتظار الشعوب الأخرى لتصل بتجارتها إلى عُمان بل نجده مع الحضارمة والحميريين ينطلق على رأس تجارة بحرية وصلت إلى القرن الأفريقي وساحل أفريقيا الشرقي، وإلى الهند وجزر الملايو وإندونيسيا ليصبح لهم مع الزمن في هذه المناطق جاليات وتربطهم صلة قوية بأهلها.[١٠] ومما ساعد عُمان على القيام بدور كبير في النشاط التجاري في التاريخ القديم، اندلاع الصراعات في المناطق القريبة منها أو البعيدة عنها، فخلال القرنين السابقين لظهور الإسلام تعرض الطريق البحري بين بغداد وكانتون في الصين إلى نكسة بسبب الصراع بين البيزنطيين والفرس، والحروب التي اندلعت بين القبائل

العربيـة، فأصـبحت عـُمان وميناؤهـا مسـقط قاعـدة للنشاط البحري بين الخليج العربي والهند والصين.(١١)

ويبرز الدور الحضاري لعُمان المكان والإنسان في التاريخ القديم من خلال عدم اشتراكها في الصراع، بل كانت ملتقي للطرفين المتحاربين وسببا في خلـق نـوع جديد من العلاقة تقوم على تبادل المنفعة باحتضانها للتجـار الفـرس والرومـان واسـتمرار علاقتهـا التجاريـة معهما.

ونتيجة لهذا الدور والمكانة وأسلوب التعامل الذي اتبعـه الإنسـان العـُماني لا يسـتطع باحـث في التـاريخ القديم أن يتحدث عن أهم الموانئ والمراكز التجاريـة المطلة على البحار والمحيطات والتي كان لها نصيب أو دور كبير في النشاط الاقتصادي دون أن يذكر عـُمان أو منطقة تنتمـي لهـا باعتبارهـا واحـدة منهـا أن لم تكـن أهمها.

ومـثلما سـار عليــه في التــاريخ القــديم، اسـتمر الإنسان العُماني بالقيام بدوره الحضاري في العلاقات التجاريـة بعـد ظهـور الإسـلام، مسـتغلاً الفوائـد التـي تحققت بفضل موقع عـُمان البعيـد عـن منـاطق الصراع التاريخي بين الفـرس والرومـان وبـين العـرب والرومـان والعرب والفـرس؛ وبفضـل الحيـاد الـذي اتبعـه الإنسـان العُماني بعدم الاشتراك في هذه الصراعات؛ توفر نوع من الاستقرار مكنه من تحقيق مكاسـب كبـيرة في ظـل انشـغال المنافسـين لـه في تجـارة المحـيط الهنـدي، فأصبح لعُمان وأهلها مكانة كبيرة في النشاط التجاري خلال الفترة الإسلامية، ويؤكد ذلك مقدار العشور التي كان يأخذها سلطان عُمان من المراكب التجارية، والتـي وصـلت إلى سـتمائة ألـف دينـار، بيـنما وصـل مقـدار العشور التي تنازل عنها أو أعفى الناس من دفعها ما يساوي مائة ألف دينار، وقد وصلت في بعـض الحـالات إلى ألف ألف درهم دفعها احد تجار اليهـود في عـام (٣٠٠هـ/٩١٢م)، لحاكم عُمان أحمد بن هلال.(١٢)

وقد استمرت النجاحات الاقتصادية والحضارية التـي يحققها الإنسان العُماني بفضل موقع بلده، فلم تتـأثر عُمان بالصراعات التي كانت تدور في المنطقة العربيـة والإسلامية، على الحكم أو الصراع الإسلامي المسيحي، فيما عرف بالحروب الصليبية، وحتي بعد سقوط الدولة العباسية على يد المغول سنة ١٢٥٨م، واضطراب حالة الأمن على طريق التجارة العالمية في الخليج العـربي والعـراق، فأصـبحت عـُمان والـيمن تسـيطران عـلـى الطريـق الـرئيس الوحيـد للتجـارة البحريـة العالميـة القادمـة مـن الشرق الأقصى ـ والمحـيط الهنـدي إلى أوربا من خلال البحرين العربي والأحمر.(١٣)

ولم تتوقف مكاسب عُمان من دورها التجاري على الجانـب المـادي فحسـب، بـل نجـد أن هـذه العلاقـة التجارية المتعددة والمتشعبة مع مختلـف بـلاد العـالم واحتضان عُمان للتجار والعـاملين في هـذا النشـاط قـد وفـرت لعـُمان وأهلهـا علاقـة حضـارية مكنتهـا مـن التعامل والتعايش مع شعوب العالم المختلفة، فـدخل العرب والهنود والفرس في إطار شبكة تجارية واحدة انعدمت فيها الفوارق العنصرية والقبليـة والدينيـة.(١٤)

ولم تختلـف السياسـة الاقتصـادية العُمانيـة بـاختلاف المكـان ففـي الوقـت الـذي امتـدت سـيطرتها إلى شرقـي أفريقيـا اتبعـت عـُمان سياسـة الانفتـاح وعـدم فرض القيود على التجارة، فنجدها تحرص عـلى إشـاعة وترويج الفرص التجارية التي تتمتع بها زنجبـار، وعملـت على جذب التجار من مختلف الجنسيات، وقد كانت هـذه السياســة ســببًا في عقــد كثــير مــن الاتفاقيــات والمعاهـدات التجاريـة مـع أمريكـا وبريطانيـا وفرنسـا وبعض الولايات الألمانية وغيرها، كما تم السماح لبعض هذه الدول في افتتـاح قنصـليات أو مراكـز تجاريـة لهـا في زنجبار(١٥)

وبفضــل الــدور الحضــاري لعـُـمان في المجــال الاقتصـادي عـبر التـاريخ ومرورهـا بمراحـل مـن الرخـاء والازدهـار وفـترات مـن التـدهور الاقتصـادي، جعلـت الإنسـان العـُماني لا يفقـد الأمـل بوجـود الخـيرات في الموقع الذي يعيش عليه، وحتى لو تأخر لبعض الوقت فانه قادم لامحالة وهذا مـا عاشـته عـُمان في مطلـع النصف الأول مـن القـرن العشرـين، وهـي الفـترة التـي كانـت حـاملات الـنفط تمـر محملـة بـالخير الـوفير الـذي يعود على جيرانه في الخليج، إذ كان المعدل اليـومي لمـرور نـاقلات البـترول في مضـيق مسـقط خـلال سـنة ١٩٥٨م، سـبع وأربعـــون ناقلـــة في اليـــوم الواحـــد وبمعـدل ناقلـة واحـدة كـل نصـف سـاعة سـواء كانـت محملـة بـالبترول وذاهبـة إلى أوربـا أو إلى الشرـق الأقصى ـ أو فارغـة وعائـدة للخلـيج لتملـئ جوفهـا بالبترول.(١٦)

وفي ظل هذه التطورات الاقتصادية وظهور الثروة في المناطق القريبة من عُمان ظهرت حكمـة الإنسـان العـُماني، فلـم يشكو أو يتـذمر ولم يسارع إلى إثارة المشاكل من أجل الحصول على نصيب في هذه الـثروة استناداً عـلى الحـق التـاريخي الـذي كـان يمـنح عـُمان امتداداً كبيراً يجعل بعض مناطق إنتاج النفط من أملاكه

القديمة، وسارع إلى إصلاح أوضاعه الداخلية، واستخدام كافة الوسائل التي تساعده في استخراج خيرات بلده وتحقيق رفاهية شعبه. ومما يحسب لعُمان أنها لم تستخدم ثرواتها الاقتصادية في استغلال حاجة الشعوب لتتدخل في شؤونها أو فرض إرادتها عليهم أو السعي إلى تحقيق مكاسب سياسية أو دينية أو تحت أية مسمى مقابل ما تقدمه من معونات أو مساعدات. مما يدل دلالة قاطعة على أن الإنسان العُماني في وقتنا الحاضر لم تتغير معاملته مع الآخر بل ظل محافظًا على موروثه الحضاري ومتأثرًا به.

رابعًا: الإرث الحضاري الديني

مؤشرات الحاضر تقول إن عُمان ليس لها دور في الصراع الديني بين المذاهب الإسلامية ولا تعاني من التشدد والتعصب وظهور الحركات المتطرفة التي تعد آفة الحاضر وتثير القلق وعدم الاستقرار في الكثير من دول العالم. فما هو الإرث التاريخي الذي ساعدها للوصول إلى هذه النتيجة؟

اعتنق العُمانيون الدين الإسلامي في بداية ظهوره ملتزمين بتعاليمه ومؤديين لفرائضه، وعندما أصيبت الدولة الإسلامية بالصراعات الثنائية وبدأت ملامح الانقسام الشيعي السني تتكون في العالم الإسلامي اتخذ العُماني لنفسه مذهبًا دينيًا وجد فيه ما يحقق له النجاح في الدنيا والفوز في الأخرة متمثلا بالمذهب الأباضي، ليكون عاملاً مساعدًا في تحقيق أمن واستقرار بلده، ويحميها من الصراع على المستوى الداخلي أو الخارجي[١٧].

ولم يقتصر دورهم الديني على المساهمة في الفتوحات الإسلامية، ولكن دورها يظهر في إيصال الإسلام إلى مناطق لم تستطع الفتوحات الإسلامية الوصول إليها؛ فإلى جانب نشاطهم التجاري لم ينسوا مهمتهم الأخرى وهي نشر الدين الإسلامي، ومما ساعد على انتشاره أن التاجر العربي المسلم، في سعيه للحصول على الربح في البيع والشراء، كان دائما يبذل جهده في نقل عقيدته وإيصالها إلى جميع أولئك الذين يقدر له أن يتعرف عليهم في رحلاته في الأقاليم التي يذهب إليها. كما أن طبيعة النشاط التجاري يتطلب من التاجر الانفتاح على الناس والتقرب إليهم بالصداقة والمعاملة الحسنة[١٨] وهناك شواهد تاريخية تثبت زيارة بعض العرب للصين في النصف الأول من القرن الثامن الميلادي القرن الثاني الهجر، حيث اشتغل أحد شيوخ الإباضية وهو أبو عبيدة عبد الله ابن القاسم العُماني (وهو عالم وتاجر) بتجارة المر، ويبدوا أن ذلك كان قبل نهب كانتون في سنة ٧٥٨م، أما التاجر الأباضي الأخر فهو النضر بن ميمون الذي عاش في البصرة ورحل إلى الصين في تلك الفترة، ويمكن اعتبار هؤلاء التجار الأباضيين بمثابة ممهدي الطريق للرحالة العرب الذين أعقبوهم،[١٩] وخير شاهد على دور عُمان في نشر الإسلام في منطقة جنوب شرق أسيا والشرق الأقصى.

وإذا كانت العصور الإسلامية قد شهدت على الدور الحضاري لعُمان في إيصال الإسلام إلى أسيا، فان العصر الحديث خير شاهد على دور عُمان المكان والإنسان في وصول الحضارة الإسلامية إلى شرق أفريقيا، فبعد نجاح العُمانيين في دحر الاستعمار البرتغالي وملاحقتهم له في السواحل والموانئ الآسيوية والأفريقية حتى تمكنوا من إخراجه من شرق أفريقيا، وقد اكسبهم جهادهم ضد البرتغاليين قوة وسمعة طيبة ليس في مناطق الخليج فحسب، وإنما أيضًا في الهند ومناطق الساحل الشرقي لأفريقيا[٢٠]، وعندما أصبحت هذه المنطقة تابعة لسَلْطَنَة عُمان؛ شهدت ازدهار تجاري وانتشر التعليم حتى أصبحت زنجبار من اكبر المدن الإسلامية وأكثرها استقرار، ونشطت الدعوة الإسلامية وانتشرت بين الشعوب الأفريقية المجاورة لها، واصبح للعرب أثار عظيمة في تلك المنطقة لاتزال معالمها واضحة وأثارها باقية إلى اليوم.[٢١]

وفي شرق إفريقيا تجلت الحكمة العُمانية في سياستها الدينية مع المذاهب الإسلامية الأخرى الموجودة في سلطنة زنجبار بعد الاستيلاء عليها، فلم يسعى الحاكم العُماني إلى فرض مذهبه على الآخرين، بل أرسل حاكمها رسالة إلى الوالي هناك يذكره بالنهج الذي سارت عليه عُمان في تعاملها مع الديانات والمذاهب الأخرى وضرورة الالتزام بذلك خارج عُمان حتى لو كان هذا المكان يخضع لسيطرتهم وحكمهم: (من سعيد بن سلطان إلى جناب كافة ربعنا بحال القضاة، كل من حكم بحكم وأخطاء فيه، يرجع إلى السؤال إلى من هو اعلم منه، كل مذهب يتبع مذهبه. هذا ما جرت العادة من قديم بذلك.[٢٢]

ولم يتوقف التسامح الديني العُماني على المذاهب الإسلامية بل كان يشمل المخالفين لهم في الديانة، فكان اليهود يمارسون النشاط التجاري بكل حرية وكان للمسيحيين حرية الديانة حتى أن مدينة مسقط كان يوجد بها كنيستان وبعض الأقليات الأجنبية

في سنة ١٦٢٥م، وهو ما أشار إليه الرحالة الإيطالي بترو دي لافال.[٢٣]

وهكذا تمتلك عُمان ارث حضاري كبير في المجال الديني بمساهمتها في نشر الإسلام وعدم دخولها في صراع على هذا الأساس مع الديانات الأخرى أو مع المذاهب الدينية الإسلامية، حتى وقتنا الحاضر وهنا يبرز أثر الموروث الحضاري الديني في تعامل النسان العُماني مع الآخر وهذا ما يجب أن يستفيد منه الأنسان العربي في بقية الدول العربية خصوصا في ظل المساعي الإنسانية والدعوات إلى التقارب والتعايش بين الديانات لتحقيق السلام العالمي، يجب على المتشددين والمتعصبين المنتميين للمذاهب الإسلامية بمختلف مسمياتها، الانفتاح على المذهب الأباضي العُماني فقد يجدون في تعامله مع المذاهب وموقفه منها ما يقرب وجهات النظر المتباعدة، ويضع حدا للدماء التي يدفعها أبناء الأمة الإسلامية ثمن للتشدد والتعصب الأعمى الذي يحصد المزيد من الضحايا يوم بعد يوم وفي مختلف بلدان العالم الإسلامي ويجعل من تعامل الأنسان العُماني مع الآخر نموذجًا يحتذى به.

خامسًا: الإرث الحضاري السياسي

عبر العصور التاريخية المتعاقبة؛ تشكلت لعُمان وأهلها شخصية سياسية فريدة في المنطقة العربية والإسلامية تقوم على الاستقلالية وعدم التبعية، والحياد التام في الصراعات الدولية والإقليمية والمحلية، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى والتسامح في علاقاته السياسية الخارجية على المستوى المحلى والإقليمي والدولي.

يشهد بذلك الإرث التاريخي لعُمان؛ فمنذ التاريخ القديم وقبل ظهور الإسلام لم تخضع عُمان للإمبراطورية الفارسية التي تتحدث مصادرها التاريخية عن دولة فارس والأقاليم التابعة لها ولم تذكر عُمان من ضمنها، وكانت العلاقة الحسنة بين الدولتين تفرضها المصلحة المشتركة، ولم تصل هذه العلاقة إلى درجة حكم عُمان أو جعلها إقليم تابعة لها، وقد تحقق الاستقلال لعُمان بفضل موقعها البعيد نسبيا عن الدولة الساسانية، وحكمة أبنائها السياسية التي تقوم على عدم التدخل في شؤون الآخرين، ووجهوا اهتمامهم إلى النشاط التجاري الخارجي، وعدم قيامهم بعرقلة التجارة أو الأضرار بمصالح الساسانيين.[٢٤] وقد ظلت عُمان تتمتع بالاستقلالية وعدم التبعية بعد ظهور الإسلام، بفضل إقرار الرسول (ﷺ) لحكامها بالاستمرار في مناصبهم، فكانوا يديرون أمور بلدهم بكل استقلالية في عهد الخلفاء الراشدين وبداية عهد الدولة الأموية، مستفيدين من موقع بلدهم، وبعدها عن مركز الدولة الإسلامية التي كانت منشغلة بحروب الردة وتوسيع رقعة الدين الإسلامي، ودخولها في صراع على الخلافة الإسلامية[٢٥]

وعلى الرغم من دخول عُمان في تبعية الدولة الإسلامية في عهد بني أمية ومطلع عهد الدولة العباسية، إلا إن ذلك لم يدم طويلا؛ ففي نهاية القرن الثاني الهجري، الثامن الميلادي استعادت استقلالها بتغلب العُمانيين على ولاة الدولة العباسية وبايعوا أماما يحكمهم، ومنذ تلك الفترة أصبحت عُمان ذات سيادة ومستقلة عن الدولة العباسية وقد توفرت عدة عوامل ساعدت العُمانيين على الاستقلال والمحافظة عليها منها: رغبة العُمانيين في اختيار حكامهم حسب نظام الشورى الذي يتناسب مع طبيعة بلدهم والمتمثل في الإمامة المنتخبة، وطبيعة البلاد الجغرافية من حيث الموقع لعُمان، وبعدها النسبي عن قلب الخلافة العباسية، فضلاً عن تضاريسها الصعبة التي وفرت لأهلها ملاذا حصينا يحتمون به من أي غزو خارجي يهدد كيانهم السياسي، بالإضافة إلى وحدة العُمانيين وتماسكهم والتفافهم حول قيادتهم.[٢٦]

واذا كانت مقومات المكان لعُمان قد جعلتها بعيدة عن مراكز الصراع في التاريخ القديم وفي العصر الإسلامي، فان هذه المقومات أو المميزات، قد جعلتها تجد نفسها في قلب الصراع الدولي في مطلع العصر الحديث، الذي شهد مرحلة الكشوفات الجغرافية والسعي للوصول إلى منابع تجارة البهارات في أسيا، وقد أدرك الاستعمار البرتغالي أهمية موقع عُمان ودورها في النشاط التجاري في المحيط الهندي فجمع كل قوته وهاجم السواحل العُمانية واحرق جميع السفن التي وجدها في (قريات، وخورفكان) ومسقط التي استولى عليها في سنة ١٥٠٨م، فكانت عُمان أول منطقة شهدت فظاعة الغزو البرتغالي وقسوته فكانت مدافعهم تقصف المدن وتدمرها ونيرانهم تحرق ما تبق منها ولم يسلم الأسرى من الرجال والنساء والأطفال من وحشيتهم فكان يتم جدع أنوفهم وتقطيع أذانهم قبل اطلاق سراحهم[٢٧]

ومما ساعد البرتغاليون في إحكام سيطرتهم على المنطقة افتقاد القوى المحلية للوحدة فيما بينها بسبب انقساماتها وخلافاتها، فضلا عن أن القوى

الإسلامية الكبرى-الدولة العثمانية والصفوية انشغلتا في صراعاتهما المذهبية بل بلغ الأمر بالدولة الصفوية إلى التحالف مع البرتغاليين للتخلص من منافسة الدولة العثمانية لها في سواحل الخليج[٢٨] ولم يستسلم العُماني أمام سطوة الاستعمار البرتغالي وقوة بطشه، وتخاذل القوى العربية والإسلامية عن نصرته، واستطاع أن يبني أسطولا بحريًا قويًا جعل عُمان تبلغ أزهى مراحل قوتها في القرن السابع عشر الميلادي بتحقيق الانتصار على الاستعمار البرتغالي الذي سبق والحق الهزيمة بدولة المماليك والدولة العثمانية، فكان هذا الانتصار بمثابة رد الاعتبار للأمة العربية والإسلامية وحماية لها من المطامع الأجنبية، فقد أصبحت القوى الأوربية الأخرى الهولندية والبريطانية والفرنسية تعمل للأسطول العُماني ألف حساب قبل تفكيرها بالسيطرة على المناطق العربية والإسلامية[٢٩]

ولم يكن العُمانيون حريصين على حرية واستقلال بلدهم فحسب، بل إنهم كانوا يقدموا المساعدة للبلدان الأخرى التي تربطهم بها علاقة حضارية وتاريخية، حتى إنهم لم يتخلوا عن دولة فارس التي تحالفت مع الاستعمار البرتغالي ضدهم، وأرسلوا أسطولهم لتحريرها، وبعد انتصار العُمانيين واستيلائهم على مناطق نفوذ البرتغاليين في بلاد فارس لم يتخلوا عن قيمهم الحضارية وبسطوا سيطرتهم عليها، بل نجدهم ينسحبون من الجزر الفارسية التي انتزعوها من البرتغال ولوكان ذلك مقابل مبالغ مالية تعويض لهم على ما أنفقوه في سبيل طرد البرتغاليين منها.[٣٠]

كما أرسلوا أسطولهم إلى السواحل والموانئ الهندية في نهاية القرن السابع عشر، والحقوا بالبرتغاليين خسائر كبيرة، ولم يفكر العُمانيون بالسيطرة على هذه المناطق على الرغم من قدرتهم وترحيب سكان هذه البلاد بهم ولم يتعاملوا مع البرتغاليين بنفس الوحشية التي قاموا بها عندما سيطروا على الأراضي العُمانية، فكانت هذه الانتصارات خير شاهد على التعامل الإنساني العُماني مع الشعوب المغلوبة واحترامها للأديان وحرية إقامة الشعائر، وقد وصفها القائد البريطاني هاملتون الذي جاء إلى مسقط عام ١٧٢١م، قائلاً: إن العرب كانوا يشنون غاراتهم ضد المستعمرين البرتغاليين على الساحل الهندي يدمرون المدن والقرى ولكنهم لم يهاجموا الكنائس ولم يقتلوا أعزلا ولا طفلا، وكانوا يعاملون أسراهم معاملة حسنة بخلاف البرتغاليين الذين كانوا يعاملون أسراهم معاملة وحشية ويجبروهم على الأعمال الشاقة حتى ولو باستخدام السياط، ثم ذكر أن العُمانيين العرب كانوا يمنحون أسراهم بدل أرزاق كتلك التي يعطونها لجنودهم.[٣١]

وبعد نجاح العُمانيين في الحاق الهزيمة بالبرتغاليين وطردهم من ميناء مسقط، كان العالم يعتقد أن عُمان سوف تدخل في عداء مع أية دولة أوربية بسبب ما اقترفه الاستعمار البرتغالي في حقها، ولكن العُماني اتبع سياسة متوازنة في تعامله مع الوضع الذي يواجه بلده مدركا مدى أهمية موقعها والمخاطر التي تهددها، ومدركا قوته الحقيقية وأنه غير قادر على حمايتها بقوة أسطوله البحري في الأيام القادمة في ظل فارق (القوة والقدرة) التي تتمتع بها الأساطيل البحرية الأوربية، ولذلك فقد لجأ إلى حكمته وخبراته السابقة في تعامله مع الأطماع الخارجية، فاستغل مقومات المكان، وجعل هذه الأهمية وهذه المطامع وسيلة لحماية استقلال عُمان بالاعتماد على سياسة، (الباب المفتوح) التي تقوم على التعاون مع جميع الدول الأجنبية، ولتحقيق ذلك قام إمام عُمان بدعوة شركة الهند الشرقية الهولندية إلى تأسيس مركز تجاري لها في مسقط، وقد كانت هذه السياسة محل تقدير السلطات الهولندية التي رفضت الضغوط الفارسية التي تطالبها بالتحالف معها ومساعدتها ضد العرب.[٣٢] كما أنها كانت أول دولة أوربية تستخدم إمكانياتها لمنع قيام تحالف برتغالي بريطاني للسيطرة على عُمان سنة ١٦٧٠م.[٣٣] واستجابت لمطالب إمام عُمان وقامت بتأسيس مركز تجارى لها في مسقط سنة ١٦٧٤م، وبفضل السياسة العُمانية تمتع العرب بحرية الملاحة إلى مالابار والمياه الإندونيسية مقابل تمتع الهولنديين بحرية الملاحة في الخليج العربي[٣٤]

وعلى الرغم من حرص عُمان على التعاون مع الدول الأجنبية فإنها ظلت محافظة على استقلالها، مما يؤكد ترسخ قيم الحرية والاستقلال في شخصية الإنسان العُماني عدم تسامحه مع حكامه الذين يستعينون بالخارج لاحتلال بلدهم مقابل تحقيق مطامع شخصية، وهذا ما حدث في مطلع القرن الثامن عشر عندما تولى الإمامة سيف بن سلطان اليعربي سنة ١٧٢٨م، والذي استعان بالفرس ومكنهم من السيطرة على عُمان لمساعدته بالاحتفاظ بحكم عُمان، فاجتمع العلماء والمشايخ واهل الحل والعقد وقاموا بخلعه

من الإمامة ومبايعة إمام قادهم إلى التخلص من الحكم الفارسي[٣٥] ونتيجة للمطامع الفارسية عززت عُمان علاقتها بالدول الأوربية للحصول على دعمها، فعقدت معاهدة صداقة مع بريطانيا في سنة ١٧٩٧م، حتى تستفيد من قوتها ومكانتها الدولية، فبلغت عُمان في عهد السلطان سعيد بن سلطان الذي دام حكمه من ١٨٠٤م- ١٨٦٥م، ذروة عزها وأوج مجدها فقد كانت المراكب العُمانية ذات الأعلام الحمراء ترابط باستمرار بين الموانئ العربية والممتلكات الأفريقية، فتحقق لعُمان من وراء تحالفها مع بريطانيا مكاسب اقتصادية من تجارتها الخارجية ووفر لها الحماية من المطامع الإقليمية سواء كانت فارسية أو وهابية من داخل شبة الجزيرة العربية.[٣٦]

وحتى لا يمنح العُمانيون بريطانيا حق الانفراد بالسيطرة على قرارهم السياسي قاموا بعقد اتفاقية صداقة مع الولايات المتحدة الأمريكية في سنة ١٨٣٣م، فكانت عُمان بهذه الاتفاقية ثاني دولة عربية تقيم علاقة مع الأمريكيين بعد دولة المغرب، والدولة الأولى في منطقة الخليج، وقد سعت عُمان من خلال هذه الاتفاقية إلى تحقيق نوع من التوازن مع القوى الأجنبية الأخرى- مثل فرنسا وبريطانيا- الطامعة في مد نفوذها على منطقة الخليج والمحيط الهندي.[٣٧]

وتمثل هذه المعاهدة اعتراف بأهمية الإنسان العُماني وأهمية بلاده، مما دفع الدول الأوربية إلى عقد معاهدات مع سلطان عُمان فتم عقد معاهدة مع فرنسا في سنة ١٨٤٤م، لتشتعل المنافسة الاستعمارية بين فرنسا وبريطانيا ويتم الاتفاق بينهم في سنة ١٨٦٢م، على التعهد باحترام استقلال مسقط وزنجبار.[٣٨] وعندما حاولت بريطانيا في سنة ١٨٩١م، أن تحول سَلْطَنَة عُمان إلى محمية بريطانية تسلحت فرنسا ببيان سنة ١٨٦٢م، لإيقاف المطامع البريطانية وتم عقد معاهدة بين الدولتين في سنة ١٨٦١م، عرفت باسم معاهدة الصداقة والإبحار والتجارة.[٣٩]

وقد حفظت هذه السياسة لعُمان استقلالها على الرغم من ظهورها الشكلي تحت المظلة البريطانية وقد أدرك ذلك الباحث الفرنسي جان جاك بيري وعبر عنه بقوله: (ليس هناك في العالم بلدان كثيرة كسَلْطَنَة عُمان محرمة على الأجنبي وحتى الحرب العالمية الثانية التي رأت القواعد العسكرية الجوية الحليفة تقام في(صلالة) وجزيرة(مرزاح) لم تحاول أن تقطع على الجبال المرتفعة المتراصة عزلتها).[٤٠] وعند تتبع التعامل السياسي للإنسان العُماني مع الآخر في وقتنا الحاضر نجد أنه مازال متأثرًا بموروثه الحضاري متبعًا التعامل نفسه.

يشهد القرن العشرين على وصول الحكمة العُمانية إلى أعلى درجاتها في تعاملها مع الأوضاع الدولية في النصف الثاني منه، باعتمادها على سياسة الحياد تجاه الصراعات المحلية والإقليمية والدولية وعدم السماح للقوى المتصارعة باستخدام أراضيها للاعتداء على الأخرين، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى القريبة منها والبعيدة عنها، وقد ترجمت عُمان ذلك على ارض الواقع بالتنازل عن منطقة بلوشستان وميناء الجوادر لجمهورية باكستان في سنة ١٩٧١م.[٤١] ونجاحها في حل مشاكل الحدود مع جيرانها بالطرق السلمية، وخصوصا مع الدولة السعودية أكثر دول المنطقة لديها مطامع ومشاكل حدودية مع جيرانها، إذا قامت عُمان بحل خلافتها الحدودية مع السعودية حول واحة البريمي، عندما قام السلطان قابوس بزيارة الملك فيصل سنة ١٩٧١م، وفي أعقاب هذه الزيارة صدر بيان مشترك يتضمن اعتراف السعودية بالحقوق العُمانية في واحة البريمي.[٤٢] وبفضل العلاقة المتوازنة التي اتبعتها عُمان مع جميع الدول حصلت على مساعدة مشتركة من السعودية وإيران والولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا ضد ثورة ظفار وتم القضاء عليها وبعد ذلك انسحبت القوات الإيرانية التي ساندت القوات العُمانية في سنة ١٩٧٧م.[٤٣]

وقد تجلت الحكمة العُمانية في التعامل مع الآخر سواء القريب منها أو البعيد عنها في الربع الأخير من القرن العشرين والذي شهد تفجر الأوضاع والمشاكل في منطقة الخليج، ومنها اشتعال الحرب العراقية الإيرانية (١٩٨٠-١٩٨٨م) والتي نجحت عُمان في الحفاظ على علاقتها مع جميع الأطراف؛ ففضلا عن إبقاء خط الاتصال مفتوحا مع طهران، لعبت عُمان دور الوسيط في مرات عديدة بينها وبين الدول العربية، وبينها وبين القوى الغربية كبريطانيا والولايات المتحدة الأميركية؛ ففي الحرب العراقية-الإيرانية، احتضنت مسقط محادثات سرية بين الطرفين المتنازعين لوقف إطلاق النار، ورفضت الدعوة لمقاطعة إيران وعزلها دبلوماسيًا واقتصاديًا في العام ١٩٨٧، وكذلك رفضت السماح للعراق باستخدام أراضيها في الهجوم على جزر أبي موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، وبعد

انتهاء تلك الحرب توسطت عُمان لإعادة العلاقات بين إيران والسعودية وإيران والمملكة المتحدة.[٤٤]

واستمرت عُمان في اتباع سياسة الحياد والحفاظ على علاقة متوازنة مع جميع أطراف الصراعات في حرب الخليج الثانية (١٩٩٠-١٩٩١م)، وفي الحرب اليمنية سنة ١٩٩٤م، والحرب في اليمن وتدخل التحالف السعودي الإماراتي فيها منذ سنة ١٩١٥م، وصولاً إلى الوقت الحاضر وموقفها العقلاني والمنطقي برفضها للحصار الذي فرضته بعض الدول الخليجية على الشعب القطري في ٥ يونيو ١٩١٧م.

خَاتِمَةٌ

لكي يقوم المكان والإنسان بدور هام في الحياة البشرية يرتقي إلى مستوى يستحق أن يطلق عليه صفة الدور الحضاري، لابد من وجود تربة خصبة تتمثل بالمقومات التي يمتلكها المكان ولا يكتمل دورها وتتحقق الفائدة منها إلا بتعامل حكيم من الإنسان الذي يعيش على هذا المكان أو يتعايش مع هذه المقومات، فليس كل مكان أو دولة مستعدة للقيام بدور حضاري في تاريخها وليس كل شعب قادر على ذلك، وحتى في حالة وجود المكان، فقد تحول تصرفات الأنسان بين تحقيقه، وربما تكون سبباً في جعل مقومات المكان الحضارية تتحول إلى معاول هدم حضارية تلحق الأذى به وبالأخرين، قريبين منه أو بعيدين عنه.

وبعد إطلالة مختصرة وعميقة لإرث الحضاري العُماني في أهم مجالات الحياة، يتضح لنا أن موقع عُمان والمقومات التي يمتلكها، وحكمة الإنسان العُماني قد ساهما بطريقة مباشرة أو غير مباشرة في ثبات واستمرار الأسلوب الحضاري في التعامل مع جميع الأمم، سواء كانت هذه الأمة تستند على مفهوم العرق واللغة ونعنى بذلك الأمة العربية أو على مفهوم الدين ليتضمن الأمة الإسلامية، أو على مفهوم الإنسانية ليشمل جميع البشر الذين يعيشون في هذا العالم بمختلف مسمياتهم ولغاتهم ومعتقداتهم.

نتائج الدراسة

وبعد أن فرضت الحقائق التاريخية نفسها معبرة عن الموروث الحضاري العُماني في التعامل مع الآخرين، تنتهي هذه الدراسة بالنتائج التي تجعل هذا الموروث أقرب للوعي وللفهم، وتقدم الدلائل على امتلاك عُمان للإمكانيات التي تساعدها في ثبات واستقرار ونجاح سياستها وعلاقتها مع جميع الدول.

١- يستند الإنسان العُماني في تعامله مع الآخر على أرث حضاري أستمده من الموقع الجغرافي الاستراتيجي لبلده الذي منحه فرصة إقامة علاقة حضارية مع العالم الخارجي، معتمدًا على التجارة وعلى الثروات الطبيعية التي تمتلكها بلده في ظل بيئة قابلة للتعاون والتعايش، كما ساعد هذا الموقع في امتلاك الإنسان العُماني لصفات حضارية تقوم على الانفتاح والتعاون والاحترام المتبادل مع الشعوب التي تعامل معها في رحلته إليها أو في حالة استقباله لأبنائها.

٢- استغل الإنسان العُماني مقومات موقع بلده الذي لم يكن يتأثر بتدهور النشاط التجاري في البحار التقليدية للتجارة عبر التاريخ، فقد منحها موقعها أهمية دائمة للتجارة مهما تعددت أو تبدلت المسالك والدروب.

٣-تمتلك عُمان أرثًا حضاريًا دينيًا بمساهمتها في نشر الإسلام في قارتي أسيا وأفريقيا وتطبيقها لمبدأ التسامح الديني وعدم خوضها للصراعات المذهبية التاريخية، وقد ترتب على الإرث الحضاري الديني العُماني ما يلي:

- وفر للإنسان العُماني في الوقت الحاضر القدرة على عدم الخوض في الصراع الذي تعاني منه المنطقة العربية والإسلامية بسبب التشدد والتعصب الديني.
- جعل أعُمان وأهلها الأكثر قبولا عند جميع الأطراف المتصارعة دينيا وهذا يؤهلها للقيام بدور حضاري في تقريب وجهات النظر المتناقضة بين الشعوب الإسلامية.

٤- ساهم الإرث الحضاري السياسي العُماني الذي يقوم على مبدأ الحياد وعدم التدخل شؤون الآخرين في اتباع سياسة حكيمة من خلال:

- عدم المشاركة في الصراعات المتعددة والمتنوعة في منطقة الخليج.
- ثبات الموقف السياسي في ظل الصراعات والتغيرات التي تشهدها المنطقة العربية

والإسلامية في عهد الثورات العربية الجديدة والثورات المضادة، وفي ظل الانقسام بين المواقف السياسية وتلونها بين بلد وأخر تجد عُمان منشغلة بحالها، ولم تؤيد طرفا على أخر، مما يجعلها تحتفظ بعلاقة جيدة مع جميع الدول.

- الاستقلالية وعدم التبعية التي شكلت شخصية الإنسان العُماني ويتضح ذلك في موقفه من الدعوات التي أطلقتها بعض دول مجلس التعاون الخليجي، في قمة الكويت نهاية العام ٢٠١٣م، للتحول من التعاون إلى الاندماج الكامل، ومطالبة عُمان للآخرين بالتروي وتحكيم العقل وعدم الانجرار وراء العواطف أو الأهداف الضيقة وغير الواقعية، وقد أكد صواب الموقف العُماني قيام ثلاث دول من أعضاء دول مجلس التعاون الخليجي في ٥ يونيو ٢٠١٧م، بفرض حصار بري وبحري وجوي على دولة قطر وهي عضو مؤسس لمجلس التعاون الخليجي.

الهَوامِشُ:

(١) عبد الله بن ناصر الحارثي: "**الأسطول الحربي العُماني ودورة في الدفاع عن عُمان منذ القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري**"، الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، (كلية الآداب الرياض ٢٠٠٣م). ص١٧٨.

(٢) عبد الله يوسف الغنيم: **أقاليم الجزيرة العربية بين الكتابات العربية القديمة والدراسات المعاصرة**، الجمعية الجغرافية، (جامعة الكويت ١٩٨١م)، ص٤١.

(٣) عبد الرحمن عبد الكريم العاني: **تاريخ عُمان في العصور الإسلامية الأولى**، الطبعة الأولى، (لندن، دار الحكمة،١٩٩٩م). ص١٢٩.

(٤) عبد الفتاح أبو علية: **أضواء على جوانب من التأثير الحضاري العُماني في شرق أفريقيا**، مجلة الدرعية، المجلد الثاني، العددان (٦،٧) نوفمبر ١٩٩٩م، الرياض. ص٢٣٥.

(٥) صحيفة الوسط البحرينية: **الصلات التجارية بين عُمان وشرق إفريقيا في العصر الوسيط**، العدد (١٣٧٦)، الثلاثاء ١٣ يونيو ٢٠٠٦م، ص١٣
http://www.alwasatnews.com/1376/news/read/578702/1.html

(٦) هلال الحجري: **عُمان في عيون الرحالة البريطانيين قراءة جديدة للاستشراق**، ترجمة خالد البلوشي (لبنان: مؤسسة الانتشار العربي ٢٠١٣م). ص١٠.

(٧) أبو علية، ص ٢٣٣.

(٨) أنور عبد العليم: **الملاحة وعلوم البحار عند العرب**، سلسلة عالم المعرفة ١٣، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب يناير١٩٧٩م). ص١٥.

(٩) عادل محي الدين الآلوسى: **تجارة العراق البحرية مع إندونيسيا**، (دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤م). ص٧٩.

(١٠) أنور عبد العليم، ص١٨.

(١١) عبيد على بن بطي وآخرون: **كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي**، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث (الامارات العربية المتحدة، دبي، ١٩٩٦م)، ص٦١.

(١٢) الآلوسى، ص٤٥.

(١٣) يحيى محمد أحمد غالب، **الهجرات اليمنية إلى جنوب شرق آسيا (إندونيسيا، ماليزيا، سنغافورة)، في النصف الأول من القرن العشرين**، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ جامعة المنوفية، ٢٠١١م. ص ٥٠.

(١٤) جون ويلكسون: **صحار تاريخ وحضارة**، الطبعة الثانية (سلطنة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٩٨م. ص١٣.

(١٥) عبد الرحمن بن علي السديس: **العلاقة بين زنجبار وعُمان (١٨٦١-١٨٩١م)** (الرياض، الدارة، العدد (٢)، السنة (٢٥)، ١٤٢٠هـ). ص١٨٤.

(١٦) جان جاك بيري، **الخليج**، ترجمة نجدة هاجر، سعيد الغز، الطبعة الأولى، (بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، ١٩٠٩م)، ص١٩٠.

(١٧) تساهم تعاليم المذهب الأباضي في تحقيق ذلك بشكل كبير فنجد أن: الأئمة في المذهب الأباضي نوعان رئيسيان: الأمام الشاري وهو إمام فترة التوسع والجهاد، والإمام الدفاعي أو المدفعي ويكون واجبه الدفاع عن المسلمين ضد الأعداء أكثر من الهجوم والتوسع وغالبية الأئمة الأباضية في عُمان كانوا على الدفاع. ولا يجوز عند الإباضية أن يكون هناك أكثر من إمام واحد، وبعد أن انتهت فترة الدعوة السرية والنضال وبعد أن نجح الإباضية في تأسيس كيان سياسي لهم في عُمان، قاموا بتغيير وتعديل نظريتهم، ففترة النضال السري تختلف عن فترة السلطة والحكم، وهنا لابد من القول بأن المذهب الأباضي أظهر مرونة واعتدالاً ونظرة توفيقية بحيث يتلاءم مع الظروف السياسية والاجتماعية في عُمان، وهنا يكمن سر نجاح الإباضية واستمرارها لأكثر من اثني عشر قرناً من الزمان.- فاروق عمر، **التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين**، ط (٢)، (بغداد، مكتبة النهضة،١٩٨٥م)، ص(٢٢-٢٤-٣٢).

(١٨) يحيى محمد أحمد غالب، **الهجرات اليمنية الحضرمية الحديثة إلى إندونيسيا في الفترة من (١٨٣٩م - ١٩١٤م)**، الطبعة الأولي، (اليمن حضرموت، تريم للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م)، ص١٨.

(١٩) فيصل السامرائي، **الأصول التاريخية للحضارة العربية والإسلامية في الشرق الأقصى**، ط. (٢)، (بغداد، دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٦م)، ص٣١.

(٢٠) أبو علية، ص٢٣٧.

(٢١) عمر سالم بابكور، **الإسلام والتحدي التنصيري في شرق أفريقية (١٨٤٤-١٩٥٠م)**، رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، ١٩٩٠م، ص٤٥.

(٢٢) ناجية محمد صالح الخريجي، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي والثقافي لسلطنة زنجبار الإسلامية في شرق أفريقيا (١٨٠٦-١٩٤٧م)**، رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى المملكة العربية السعودية، ١٩٩٣م.ص.٣٢٠.

(٢٣) ويندل فليبس، **رحلة إلى عُمان**، ترجمة، محمد أمين عبد الله، (سلطنة عُمان، وزارة التراث القومي والثقافة، ١٩٨٦م) ص١١.

(٢٤) عبد الرحمن عبد الكريم العاني، **تاريخ عُمان في العصور الإسلامية الأولى**، الطبعة الأولى، (لندن، دار الحكمة، ١٩٩٩م)، ص١١٣.

(٢٥) العاني، ص١١٧.

(٢٦) عبد الله بن ناصر الحارثي، **الأسطول الحربي العُماني ودورة ودورة في الدفاع عن عُمان منذ القرن الثاني الهجري وحتى منتصف القرن الثالث الهجري**، الندوة العالمية الخامسة، الجزيرة العربية من قيام الدولة العباسية حتى نهاية القرن الرابع الهجري، كلية الآداب الرياض ٢٠٠٣م، ص١٨٠.

(٢٧) بطي، ص١٤٠.

(٢٨) جمال زكريا قاسم، **الصراع العُماني البرتغالي في القرنين السادس عشر والسابع عشر**، (مصر) مجلة البحوث والدراسات العربية، العدد ١٠، ١٩٨٠م)، ص٣٣٩.

(٢٩) محمد حسن العيدروس، **تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر**، الطبعة الثانية، (القاهرة، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، ١٩٩٨م)، ص٨٩.

(٣٠) بطي، ص١٩٨.

(٣١) العيدروس، ص٩٥،٩٦.

(٣٢) بطي، ص٢٠٧.

(٣٣) نيقولاوس فان دام وآخرون، **هولندا والعالم العربي منذ القرون الوسطى حتى القرن العشرين**، ترجمة اسعد جابر، (هولندا، منشورا وزارة الخارجية الهولندية، ١٩٨٧م)، ص٤٣.

(٣٤) فان دام، ص٣٨.

(٣٥) الخريجي، ص٢٧.

(٣٦) بيري، ص١٩٧.

(٣٧) عيسى بن محمد بن عيسى الفارسي: **العلاقة العُمانية الأمريكية (١٨٣٣-١٩١٦)**، (القاهرة، حوليات آداب عين شمس، المجلد (٤٤)، أبريل - يونيو ٢٠١٦)، ص٥١٩.

(٣٨) بيري، ص١٩٨.

(٣٩) بيري، ص١٩٢.

(٤٠) بيري، ص١٩٤.

(٤١) العيدروس، ١٩٩٨م.

(٤٢) محمد رشيد الفيل، **مشكلات الحدود بين إمارات الخليج العربي**، (الكويت، دراسات الخليج والجزيرة العربية المجلد الثاني، العدد الثامن، ١٩٧٦م)، ص٤٧.

(٤٣) عبد الحكيم عامر الطحاوي، **العلاقات السعودية الإيرانية وأثرها في دول الخليج (١٩٥١-١٩٨١)**، (الرياض، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٤م)، ص١٣٩.

(44) https://www.noonpost.com/content/1722

مقالات

أدوار المرأة وإسهاماتها في مواجهة الاحتلال الأجنبي
منطقة الأطلس المتوسط المغربي نموذجًا



د. محمد سليماني
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
ميسور - المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يكتسي موضوع المقاومة في الأطلس المتوسط المغربي أهمية قصوى نظرًا للدور المهم والكبير الذي اضطلعت به هذه المقاومة في مواجهة التحدي الفرنسي والدفاع عن حوزة الوطن، فمنذ توقيع معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢، تزايدت الأطماع الفرنسية نحو مختلف المناطق المغربية في المدن والقرى، والتي قابلها الشعب المغربي بمقاومة باسلة شاركت فيها المرأة إلى جانب أخيها الرجل ضد المستعمر باعتباره عنصرًا دخيلًا عليهم، أتى لغصب أراضيهم ومصادرتها، وكانت بداية أيضًا لإذكاء الحماس والصمود في مواجهته، وبالتالي تشكل وبلورة الإرهاصات الأولى للمقاومة، ورغم الأهمية والأدوار التي كانت تؤديها وتلعبها المرأة المغربية، فإن الباحث عندما يتفحص مصادر تاريخ المغرب، قلما يعثر على نصوص تتناول بتفصيل دور النساء في صنع الحضارة المغربية باستثناء حالات معدودات ساهمن في تسيير دواليب الحكم أو كن من المتصوفات اللواتي ورد ذكرهن في بعض كتب التراجم، وهو ما يبين التهميش والإهمال التي عانت منه المرأة رغم جسامة المهام التي اضطلعت بها في بناء صرح الحضارة المغربية، ومن هنا تبرز أهمية هذا البحث الذي يروم التعريف وإبراز نضالات المرأة المقاومة المغربية التي كانت دائمًا حاضرة في الصفوف الأمامية للدفاع عن حوزة الوطن، والإشادة بمختلف المهام والأدوار الطلائعية التي لعبتها في هذه الفترة العصيبة التي كان تمر منها الدولة المغربية. من خلال هذا البحث الذي اعتمد منهجا تاريخيًا اجتماعيًا فرضته طبيعة الموضوع وصعوبة الإحاطة بكل جوانبه الخفية، كما أنه نظرًا لقلة الدراسات إن لم نقل انعدامها، إضافة إلى غياب الوثائق التي تبرهن على أهمية عملها، فرض علينا الاعتماد على الرواية الشفوية وتوثيق ما بقي من شهادات حول دورها هذا، فحديثنا عن دور المرأة في مقاومة الاحتلال لا نعني به البحث عن دور موازي لدور الرجل أو بديل عنه، بل يدخل في إطار كونها كانت أيضًا تتأثر بالتغيرات التي عرفتها البلاد في تلك الحقبة وتؤثر فيها.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ سبتمبر ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المرأة الأمازيغية؛ المقاومة؛ الاحتلال؛ الأطلس المتوسط

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057050

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد سليماني. "أدوار المرأة وإسهاماتها في مواجهة الاحتلال الأجنبي: منطقة الأطلس المتوسط المغربي نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٣١ – ١٣٦.

مُقَدِّمَة

لعبت المرأة المغربية في منطقة الأطلس المتوسط دورًا مهمًا في صنع حضارة المغرب الأقصى عبر عصوره المتعاقبة، فلقد عملت في الخفاء وربيت الأجيال، كما ساهمت بشكل مباشر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية لوطنها، فإذا كانت العديد من المصنفات التاريخية قد أشارت فقط إلى بعض النساء المغربيات اللواتي صنعن التاريخ كالكاهنة "الأوراسية" مثلاً، فإن عامة المغربيات خاصة في منطقة الأطلس المتوسط ساهمن في المقاومة العسكرية

للمستعمر خلال فترة الاحتلال، وذلك بالدعوة إلى الجهاد وتحفيز الرجال على المقاومة، والمشاركة في بعض المعارك القتالية دفاعا عن قبيلتها وأرضها التي كان يسعى المستعمر لاحتلالهما.

يكتسي موضوع المقاومة في الأطلس المتوسط أهمية قصوى نظرًا للدور المهم والكبير الذي اضطلعت به هذه المقاومة في مواجهة التحدي الفرنسي والدفاع عن حوزة الوطن، فمنذ توقيع معاهدة الحماية في ٣٠ مارس ١٩١٢، تزايدت الأطماع الفرنسية نحو مختلف المناطق المغربية في المدن والقرى، والتي قابلها الشعب المغربي بمقاومة باسلة شاركت فيها المرأة إلى جانب أخيها الرجل ضد المستعمر باعتباره عنصرًا دخيلاً عليهم، أتى لغصب أراضيهم ومصادرتها، وكانت بداية أيضًا لإذكاء الحماس والصمود في مواجهته، وبالتالي تشكل وبلورة الإرهاصات الأولى للمقاومة.

يبدو أن تناول موضوع "المرأة المغربية والمقاومة" يعتريه النقص والقصور في الكثير من الكتابات الأجنبية، لكن الروايات الشفوية تحفل بالكثير من الإشارات التي تبين دورها الأساسي والمهم في مقاومة المستعمر، وحضورها البارز في حركة المقاومة وعمليات جيش التحرير ضد الاستعمار في مختلف أرجاء المملكة شمالها وجنوبها، شرقها وغربها جنب إلى جنب مع أخيها الرجل[١]، ومن المؤكد أن المرأة لعبت دورًا مهمًا في صنع حضارة المغرب الأقصى عبر عصوره المتعاقبة، إذ ربت الأجيال كما ساهمت بشكل مباشر في الحياة الاقتصادية، وإذا كانت العديد من المصنفات التاريخية قد أشارت إلى بعض النساء المغربيات اللواتي صنعن التاريخ كالكاهنة الأوراسية، وكنزة الأوربية، وزينب النفزاوية، وخناثة بنت بكار، ومسعودة الوزكيتية[٢]، فإن بعض المهن والحرف كانت حكرًا عليهن، ولعل خير نموذج نسوقه في هذا الصدد هو العريفة بنت نجوا التي حولت حياة السعديين من البداوة إلى الحضارة، وأثثت ملكهم وأضفت عليه صفة المدنية سواء في المأكل أو المشرب أو الملبس، وهي التي قال عنها المؤرخ المجهول: "زينت لهم الدار وقامت بهمتهم فيها"[٣].

ورغم الأهمية والأدوار التي كانت تؤديها وتلعبها المرأة المغربية، فإن الباحث عندما يتفحص مصادر تاريخ المغرب، قلما يعثر على نصوص تتناول بتفصيل دور النساء في صنع الحضارة المغربية باستثناء حالات معدودات ساهمن في تسيير دواليب الحكم أو كن من المتصوفات اللواتي ورد ذكرهن في بعض كتب التراجم[٤]، وهو ما يبين التهميش والإهمال التي عانت منه المرأة رغم جسامة المهام التي اضطلعت بها في بناء صرح الحضارة المغربية[٥].

لقد كانت المرأة القروية الأمازيغية بالمغرب سباقة للمساهمة في تدعيم اقتصاد الأسر، وقد عملت منذ القديم إلى جانب الرجل في الحقل إضافة إلى تحملها لجميع الأعمال والأعباء المنزلية، وكانت المرأة البدوية أكثر صبرًا وجلدًا من نساء الحواضر، وقد كتب الحسن الوزان في وصف نساء جبل دادس الأمازيغيات بأنهن " كريهات المنظر كالشياطين، لباسهن أسوأ من لباس الرجال، وحالتهن أقبح من حالات الحمير... تحملن على ظهورهن الماء الذي يستقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبنه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة من نهار"[٦]، يمكن أن نفهم من كلام الوزان الحط من قدر هؤلاء النسوة، إلا أن هذا الوصف في باطنه الثناء على صبر المرأة الأمازيغية وتجلدها ومساهمتها الفعالة في النهوض بالأسرة ومشاطرة الرجل في تحمل الأعباء، فهذه الأوصاف لم تأت نتيجة تراخ أو عجز عن الاهتمام بالذات، بل إن عدم تخصيص هؤلاء النسوة وقتا للاهتمام بأنفسهن هو ما أدى بهن إلى إهمال ذواتهن، وهو ما يبرز بجلاء أن المرأة الأمازيغية مثال للتضحية لدرجة إنكار الذات.

لقد شكلت المرأة شريحة اجتماعية أساسية ومكونًا رئيسًا من مكونات المجتمع المغربي، لذلك كان حضورها ضرورة ملحة في مقاومة الواقع اليومي، سواء أكانت ربة بيت تعتني بالأسرة وتوفر لها لوازمها وتدير شؤونها المنزلية، أو عاملة في الحقل أو المعمل أو المنجم، من ثم فإن دورها الاقتصادي والاجتماعي كان حاضرًا بقوة، لذلك لا يمكن فصل المرأة وأنشطتها عن الأسرة والأهل، ولا يمكن عزلها عن الشريحة الاجتماعية التي تنتمي إليها ولا عن الواقع الجديد الذي أفرزته الحماية.

رغم أن الكتابات العسكرية الفرنسية اهتمت فقط بعادات المرأة ودورها في المجتمع غافلة بشكل كلي لدورها في المقاومة[٧]، فالمرأة المغربية لها وجود كبير عبر نضالات الشعب المغربي، حيث كانت دائماً حاضرة في الصفوف الأمامية للدفاع عن حوزة الوطن، وإذا كان المثل يقول "وراء كل رجل عظيم امرأة"، فإنه يجوز القول بأن وراء كل مقاوم مقاومة، فلم يقتصر

دورها على تكوين رجال أشداء قهروا المستعمر وانتزعوا حرية بلدهم، بل شاركت في بعض المعارك وأبلت البلاء الحسن متى سنحت لها الفرصة، ولا غرابة في سعي المستعمر الدؤوب إلى حرمانها من الثقافة والعلم وتكريس وضعية أميتها، ظنًا منه أن ذلك سيبعدها عن معرفة حقيقة ما يجري وما هو مخطط له في الواقع.

فبعد نفي السلطان محمد بن يوسف برز دور المرأة بشكل كبير في الساحة، إذ كانت تحرض الرجال على القيام بأعمال شجاعة لم تكن من قبل، وقد حملت الأعلام الوطنية وكانت أول من رمى البوليس الفرنسي بالحجارة، وموقف المرأة هذا كان انطلاقة ثورية بالنسبة إلى تقاليد التاريخ المغربي والأمثلة كانت متوفرة في البوادي والمدن بين العرب وبين البربر[٨]. ولعل أصدق شهادة في حق المرأة المغربية ودورها في المقاومة ما جاء على لسان جلالة الملك الراحل "الحسن الثاني" في خطابه بمناسبة الذكرى الخامسة عشر لثورة الملك والشعب، حيث قال "إن النصر لم يحالف أمتنا إلا لأن نصفها الثاني لم يبق بمعزل عن الكفاح، فقد خاضت أمهاتنا وبناتنا غماره بإيمان صادق، وعزم ثابت، لم تنل منه السيطرة والسطوة، ولم يثنه العنف والقسوة، فأسهمن في العراك بالنصيب الموفور، وأبدين من الشجاعة والشهامة والإقدام ما هو معروف ومأثور"[٩].

وعمومًا فإن المرأة في منطقة الأطلس المتوسط لعبت دورًا كبيرًا في مواجهة الاستعمار إلى جانب الرجل، لكن هذا الدور لم يبرز بشكل جلي نظرا لقلة الدراسات إن لم نقل انعدامها، إضافة إلى غياب الوثائق التي تبرهن على أهمية عملها، مما فرض علينا الاعتماد على الرواية الشفوية وتوثيق ما بقي من شهادات حول دورها هذا، فحديثنا عن دور المرأة في مقاومة الاحتلال لا نعني به البحث عن دور موازي لدور الرجل أو بديل عنه، بل يدخل في إطار كونها كانت أيضا تتأثر بالتغيرات التي عرفتها البلاد في تلك الحقبة وتؤثر فيها.

أولاً: الدور الاجتماعي للمرأة في منطقة الأطلس المتوسط

لم يكن للمقاومات في قبائل الأطلس المتوسط أي تنظيم ولا تأطير، وأهم الأعمال التي كن يقمن بها هي أعمال اجتماعية نظرا لضعف تكوينهن النظري وكون معظمهن أمهات، لكن الدفاع عن الأرض كما هو معروف هو غريزة لدى كل إنسان.

لقد تكلفت النساء خلال هذه الفترة الصعبة بتوفير التغذية اليومية للمقاومين ورعاية الأسرة والقيام بأعمال الرجل كالحرث والسقي ورعي الماشية، وذلك لأن أغلب الرجال التحقوا بمقاومة المستعمر، وكان يتم تهيئ الغداء للمقاومين من طرف العائلات بالتناوب، كما كانت النساء يقمن بحمل الماء والمؤن على ظهورهن خلف الرجال، وإيصاله لهم وسط جبال الأطلس المتوسط الصعبة المسالك وداخل الكهوف والمغارات، وكن أيضًا يوصلن للمقاومين أخبار ما يقع في القبيلة، ومعالجتهن بطرق تقليدية عن طريق استعمال الأعشاب نظرًا لغياب الأدوية[١٠]، ومن إسهامات المرأة المقاومة بقبيلة أيضًا أنها كانت تسهر على الاعتناء بالمجاهدين المرابطين في قمم الجبال والكهوف والمغارات وبعائلاتهم بالإطعام الإيواء والكسوة وغير ذلك مما تتطلبه الحاجة، بالإضافة إلى أن بعض النساء كانت تستضيف بمنازلها لقاءات واجتماعات المقاومين وتكرمهم وتغسل ثيابهم وتسهر على راحتهم.

لقد عرف المغاربة عمومًا بالتضامن والتكافل الاجتماعي، وكرم الضيافة في السراء والضراء، واشتهرت المرأة الأمازيغية خاصة في هذه القبائل بإعداد الصوف وغزله، وكن يبعن في الأسواق المحلية ما تنتجنه أيديهن من غزل[١١]، وقد ظل إعداد الصوف بهذه القبائل يتم وفق طرق تقليدية متوارثة، إذ كانت النساء تقوم بعمليات غسل الصوف وتبييضه ومشطه وصباغته، وظلت كل هذه الطرق المستعملة في إعداد الصوف تقليدية لم تتطور منذ قرون[١٢]، ووفرت الغازلات وتجار الصوف المادة الأولية الضرورية لقيام العديد من الأنشطة كصناعة الملابس والزرابي وغيرها، وشكل العمل بهذه الحرفة مصدر دخل مهم بالنسبة للنساء، بحيث أشار الحسن الوزان إلى أن النساء القرويات المغربيات في بعض المناطق الأطلسية ماهرات جدًا في خدمة الصوف، يصنعن منه البرانس والأكسية الفاخرة، فيكسبن هكذا من المال أكثر مما يكسبه الرجال[١٣].

إن نساء هذه القبائل كغيرها من قبائل الأطلس المتوسط أبدعن في حرفة صناعة الزرابي، وبسبب صعوبة تسويقها في الأسواق والقيود التي كانت تفرضها سلطات الحماية على القبائل لم تكن معروفة

لدى الأوروبيين، وقد أشار جون لوي مييج إلى أن صناعة الزرابي ونسج الحرير كان عملاً نسائيًا مخصصًا للحاجيات المنزلية وليس للتسويق، وتكلفت النساء بصنع معظم الملابس الداخلية لأفراد أسرتها، وكل الأغطية الصوفية التي تدفئ عائلتها من البرد القارس الذي تعرفه هذه المناطق الأطلسية خاصة في فصل الشتاء[١٤].

ثانيًا: الدور العسكري للمرأة في منطقة الأطلس المتوسط

فبالنسبة لهذه المنطقة المدروسة، نهدف إلى تسليط الضوء على مساهمة المرأة في حرب التحرير وخوض المعارك والعمليات الكفاحية بتعاون طبعًا وتنسيق مع أخيها الرجل لإخراج المستعمر، إضافة إلى بعض الحرف والأنشطة الاقتصادية التي مارستها وساهمت بها في توازن اقتصاد أسرتها، فالمرأة في قبائل الأطلس المتوسط ضربت بسهم وافر في الجهاد، ومن الأدوار التي كن يقمن بها أثناء المعارك:

- حمل الماء على ظهورهن خلف وقرب صفوف الرجال لسقي المجاهدين حينما يشتد العطش بهم في المعارك وإعداد الطعام لهم.
- إسعاف الجرحى بتضميد جروحهم بطريقة بدائية، وحمل بعضهم إلى المخابئ والكهوف ليلا حتى لا يعثر عليهم العدو[١٥]، إذ لم يكن بإمكان المقاومين الجرحى عرض أنفسهم على الأطباء بالمستشفيات مخافة اعتقالهم، لذلك هي من كانت تلازم ومعالجة المرضى إلى أن يشفوا[١٦].
- توزيع المناشير ورسائل التهديد على المقاومين لتفادي عيون المراقبة.
- حمل ونقل السلاح من مكان لآخر وحراسته بالنهار وخاصةً في ظروف المراقبة والتفتيش، وذلك اعتبارًا لسهولة مرورهن من حواجز المراقبة التي كانت تقيمها سلطات الحماية لاعتقال وضبط تحركات المقاومين[١٧].
- المشاركة في بعض الأعمال الفدائية ضد المستعمر إلى جانب الرجل، إذ كن يسخرن من المقاومين الذين كانت تراودهم فكرة الاستسلام، كما قامت أيضا بقطع الطريق أمام الجنود الفرنسيين وطمس آثار أقدام المقاومين.

وفي هذا الإطار نجد مراسل جريدة أجنبية (إسبانية) يبرز دور المرأة المغربية المقاومة في قوله: "اليوم شاهدت شيئًا جعلني أغير رأيي في المرأة المغربية، وذلك على إثر ما رأيناه، حيث كانت النساء المغربيات هن اللواتي يقمن بجميع الخدمات بالنسبة المجاهدين، تساعد الجرحى وتقوم بنقلهم بعيدًا عن أرض المعركة وتزويد المقاتلين بالماء إلى غير ذلك"[١٨].

وإلى جانب الأدوار التي كانت تقوم بها المرأة، كانت أيضا تشجع الرجال في المعارك[١٩]، كما أن بعض النساء كانت تحمل السلاح وتقف مع الرجال جنبًا إلى جنب فتصوب البندقية وتضغط على الزناد لا فرق بينها وبين الرجال[٢٠]. لقد أكد بعض الفرنسيين أن زغاريد النساء في المعارك كانت سلاحًا معنويًا فتاكًا لا يقل خطورة عن الأسلحة التي استخدمها المقاومين، وقد كان للمرأة حضور فعال في جل المعارك، فقد ساهمت إلى جانب الرجال في المقاومة، وأكثر من هذا كن يدحرجن الحجارة على الجنود الفرنسيين كلما تقدموا نحو مواقع المقاومين[٢١].

وكما هو معروف في المجتمع المغربي، فالرجل المغربي طالما اتصف بالكبرياء والصلابة أمام المرأة، فكيف إذن الانسحاب أو الاستسلام مادامت زغاريد النساء تلهمه الحماس من كل صوب وحدب وترفع معنوياته، بل أكثر من ذلك، فقد لعبت المرأة في منطقة الأطلس المتوسط دورا هاما يتجلى في حملها السلاح بشكل مباشرة، وما استشهاد المقاومات "محجوبة" من فرقة أيت بلقاسم احمو بقبيلة المرس، و"خديجة عبو" من قبيلة كيكو، و"إيطو أولهبوب" من قبيلة إيموزار مرموشة سوى نماذج عن المقاومة المسلحة للمرأة الأمازيغية التي وجدنا ذكراها في صفحات كتاب "الكفاح المغربي المسلح في حلقات ١٩٠٠ - ١٩٣٥" الذي ألفه كل من محمد المعزوزي وهاشم بن الحسن العابدي العلوي، إلا واحدة من تلك الصفحات التي صرحت واعترفت بالعمل والجهد المهم الذي قدمته هذه المرأة المقاومة بصفة عامة، إذ جاء في هذا الكتاب أن "بعض النساء المغربيات تحملن السلاح وتقفن مع الرجل جنبا إلى جنب فتصوبن البندقية وتضغطن على الزناد، لا فرق بينهن وبين الرجل"[٢٢].

كما أن الشاعرة "للاتيفة بنت القائد مولاي سعيد" التي تنتمي لقبيلة تاغزوت المتواجدة طبعا في تخوم الأطلس المتوسط المغربي، تؤكد الرواية الشفوية

أنها إلى جانب كونها شاعرة، كانت تقاوم على صهوة جوادها في صفوف المجاهدين، حيث كانت ترتدي خمارًا حتى لا تعرف، وتحمل إناء من الحنة ترش به الفارين من المعركة[٢٣]، كما تسجل الذاكرة الشعبية أنها قد كانت لها إسهامات في نظم أشعار تذكي حماس المجاهدين للتصدي للمستعمر، نذكر منها على سبيل المثال (... هناك الحاكم الفرنسي، ثم السينغاليون، وعرب الوسط، وحتى اليهود يحاربون المقاومين... يارب اهزم الكفار وانصر أيت سغروشن وإمرموشن[٢٤]، حتى تكون لهم العدة والعتاد لمواجهة الرومي"النصراني"...)[٢٥].

إذا كان أهل المغرب قد أبانوا عن استماتتهم في الذود عن الوطن، فإن ذلك لم يكن حكرًا على رجاله فحسب، بل شاركت النساء إخوانهن الرجال في هذا الصنيع، فلم تكن المرأة المغربية يومًا غائبة عن هذه المجالات ولو لحظة من اللحظات، والمغاربة قاطبة نساء ورجالاً عبروا عن رفضهم التام لمختلف أشكال الاحتلال والاستعباد، ووقفوا أمام كل من يستهدف إذلالهم وإخضاعهم، مما يفيد تشبعهم بمبادئ الحرية والكرامة، باستثناء شرذمة قليلة تمكن المحتل من توظيفها للعمالة والخيانة نتيجة ما متعها به من امتيازات وإغراءات.

ثالثًا: الدور السياسي للمرأة في منطقة الأطلس المتوسط

قامت العديد من نساء المنطقة بتوعية السكان بالقضية الوطنية، وتحسيسهم بالخطر الذي يتهددهم ويتهدد البلاد جراء ما يقوم به هذا الاحتلال من التعذيب والتقتيل والتنكيل واستغلال الثروات ونهب الممتلكات، ولإذكاء حماس المواطنين والمواطنات وتقوية لعزائمهم لمناهضة العدو كانت المرأة تعلق صور جلالة السلطان محمد بن يوسف على جدران المدارس والإدارات، كما تصدرت النساء العديد من المظاهرات القروية، ورفعت عدة شعارات قومية. وانضافت إلى أعمالها هاته أعمال يمكن اعتبارها سياسية أيضًا، كجلب المناشير والأخبار المتعلقة بجيش التحرير سواء من مدينة بولمان أو مدينة ميسور المجاورة، وتوزيعها على المقاومين المتحصنين في الجبال، كما قام البعض منهم بعقد تجمعات في منازلهن بغرض جمع المساعدات للمقاومين، دون أن ننسى زيارة الوطنيين المنفيين في السجون ونقل الأخبار إليهم، وفي هذا الصدد تم نفي عشرة من الوطنيين المرموشيين إلى سجن ميسور ومن ضمنهم علي أوجاري وبنقسو المنتمين لقبيلة أيت مساعد[٢٦]، وكانت المرأة هي من تعمل على طهي الطعام وإيصاله إلى المسجونين.

رابعًا: الدور الإعلامي للمرأة في منطقة الأطلس المتوسط

يتجلى الدور الإعلامي للمرأة في منطقة الأطلس المتوسط من خلال ما كانت تقوم به من تقصي الأخبار والاجتهاد في الحصول عليها لفضح مخططات المحتل ومناهضة برامجه، ونقلها إلى المجاهدين والمقاومين للاستعداد للمجابهة وأخذ الحيطة والحذر، وقد تأتى لها ذلك بفضل النساء اللواتي يعملن في بيوت المحتلين، أو من خلال العلاقات والتواصل مع من كان يشتغل فيها، وقد كانت النساء أشد حرصًا على الحصول على الأخبار، وتبليغها بسرية تامة وأمانة كاملة للمجاهدين والوطنيين الغيورين.

خَاتِمَةٌ

بعد معاهدة مارس ١٩١٢ بدأت الأطماع الفرنسية تتزايد للسيطرة على عدة مناطق من المغرب، وبمقابل ذلك انطلقت المقاومة المسلحة بكافة التراب الوطني في السهول، وفي الهضاب، وفي الجبال، وفي القرى والمدن، وقد شملت هذه المقاومة جل مناطق المغرب على اختلاف شرائحهم الاجتماعية، وأمام هذا الأمر الواقع، لم تتخلف المرأة عن الرجل، إذ كانت بجانبه في الساعات الحرجة معنويا ومعيشيًا وعسكريًا، تمونه بالزاد وتتسرب إلى حفر المياه تحت وابل الرشاشات، وتساعد وتداوي الجرحي، وتشارك في مختلف المظاهرات والانتفاضات، وتوزع الذخيرة، وفي بعض الأحيان تأخذ مكان القتلى في المواجهة[٢٧]، وبالتالي لم تبق المرأة في منطقة الأطلس المتوسط منعزلة عن مجريات الأحداث، ولم تقف موقف المتفرج في ظروف المحن والشدائد التي عانى من ويلاتها وآلامها من اختاروا مواجهة التحدي الاستعماري.

لقد ساهمت المرأة المغربية في ميادين كثيرة تفوق من حيث تنوعها وتعددها ما كان يقوم به الرجل، فقد شاركت المرأة في الحياة السياسية، إذ انخرطت في الأحزاب والمنظمات وعملت على تأطير النساء وتوعيتهم بالقضية الوطنية، وهذا إن دل على

شيء فإنما يدل على التشبث المرأة بالأرض وقوة شخصيتها واستعدادها للتضحية من أجل بلدها، كما قامت أيضًا النساء بنسخ المناشير وتوزيعها على الناس لإذكاء حماسهم وتوزيع رسائل التهديد على المعمرين، بالإضافة إلى نقلها الإخبار من مكان لآخر ومن منطقة لأخرى، والمساهمة في مختلف الحرف وخاصةً ما يتعلق بغزل الصوف والنسيج، فمثلاً كن يقمن بنسج ملابس خاصة في حالة الحرب كقبعات من الصوف الأسمر لكن بلون الصوف الطبيعي، وكذلك الجلابيب والسلاهيم الصوفية لوقاية المجاهدين من البرد، وتجعل الكشف عنهم في ساحة الميدان من الصعوبة بمكان(٢٨).

الهَوامِش:

(١) **المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة: تراجم عن حياة المرأة المقاومة**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ج. ١، ٢٠٠٩، ص ١٠.

(٢) السايح محمد، **الحضارة المغربية: البداية والاستمرار**، منشورات عكاظ، ج. ٢، الرباط، ٢٠٠٠، ص٦٢.

(٣) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تحقيق بنحادة عبد الرحيم، دار تينمل للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٤، ص٢٩.

(٤) لم تكن المرأة المغربية دائمًا مستقبلة للتعليم، بل بدأ بعضهن في إنتاج الفكر وتلقينه للرجال وخاصة في مجال التصوف، يقول ابن زيدان في هذا الصدد عن العارفة بالله السيدة مريم بنت عبود الأندلسية: "إنها المرأة التي أخذ عنها التصوف، السيدة الجليلة ذات الأحوال الباهرة والخوارق الظاهرة مريم بنت عبود الأندلسية دفينة رأس التاج خارج باب عيسى أحد أبواب حاضرة مكناسة الزيتون، ولها روضة هنالك مشهورة مقصدة للزائرين"، انظر: ابن زيدان (عبد الرحمان)، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، الطبعة الثانية، مطابع إديال، الجزء الثالث، ١٩٩٠، ص٣٣.

(٥) مازي حسنة، "**متغيرات الأنشطة الاقتصادية للمرأة المغربية في مرحلة الحماية الفرنسية**"، مجلة آفاق الثقافة والتراث، ع. ٧١، نشر مركز الماجد للثقافة والتراث، دبي، شتنبر ٢٠١٠، ص٤٩.

(٦) الوزان الحسن، "**وصف إفريقيا**"، ترجمة/ محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٣، ج. ١، ص١٨٩.

(٧) ركوك علال، **مقاومة المرأة وإشكالية المصادر**، ندوة علمية نظمت بالرباط حول موضوع: دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، يومي ٦-٧ مارس ٢٠٠٠، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، سنة ٢٠٠٠، ص ٨٨.

(٨) لاندو روم، **تاريخ المغرب في القرن العشرين**، ترجمة/ نقولا زيادة، مراجعة فريحة أنيس، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، ط. ٢، ١٩٨٠، ص١٦٥.

(٩) مقتطف من مداخلة وزير التعليم العالي نجيب الوزاني في الندوة العلمية حول موضوع: "**دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة**"، مرجع سابق، ص ٣٠.

(١٠) البكراوي محمد، **دور المرأة القروية المغربية في حركة المقاومة المسلحة وإشكالية المصادر (١٩١٢ – ١٩٣٤)**، ندوة علمية نظمت بالرباط حول موضوع: دور المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، يومي ٦-٧ مارس ٢٠٠٠، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، سنة ٢٠٠٠، ص ٧٢.

(11) Mssignon (Louis),Enquête sur les corportions musulmnes d'rtisns et de commerçnts u Mroc, Revue du Monde Musulmn, Tome. 58, Edition Ernest Leroux, Pris, p. 19.

(12) Demegistri (F), le trvil de l line et ses rites u Mroc, l Tribune de Feuvre 20/06/1941, K 3, Bibliothèque Ntionle de Rbt.

(١٣) الوزان الحسن، **وصف إفريقيا**، مصدر سابق، ص ١٨٣.

(14) Miege (J. L), Note sur l'rtisnt du Mroc, Bulletin Economique et Socile du Mroc, N° 59, décembre 1953, 3éme trimestre 1953. p. 92.

(١٥) المعزوزي محمد، العابدي العلوي هاشم بن الحسن، **الكفاح المغربي المسلح في حلقات "١٩٠٠-١٩٣٥**، مطبعة الأنباء الجديدة، الرباط، ١٩٨٧، ص ٢١٧.

(١٦) دادي مارية، **مساهمة المرأة في الأطلس المتوسط في مقاومة الاستعمار الفرنسي**، ندوة علمية حول المقاومة المسلحة والحركة الوطنية بالأطلس المتوسط ١٩٠٧-١٩٠٦، نشر المندوبية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ١٩٩٩، ص١٩١.

(١٧) نفسه، ص ١٨٨.

(١٨) بن عزوز محمد، مولاطو محمد، "**المرأة المغربية والمقاومة المسلحة في شمال المغرب**"، مجلة التعاون، العدد ٢٣، ١٩٦٣، ص ٢٩ – ٣٠.

(١٩) المعزوزي محمد، العابدي العلوي هاشم بن الحسن، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٢٠) نفسه، ص٢١٧.

(٢١) دادي مارية، مرجع سابق، ص. ١٩٢.

(٢٢) المعزوزي محمد، العابدي العلوي هاشم بن الحسن، مرجع سابق، ص٢١٧.

(٢٣) البكراوي محمد، مرجع سابق، ص٧٠.

(٢٤) قبيلتي أيت سغروشن ومرموشة أحد القبائل الكبرى لمنطقة الأطلس المتوسط.

(٢٥) البكراوي محمد، مرجع سابق، ص٧١.

(٢٦) لخواجة محمد، **مذكرات ميمون أوعقى لياس، عضو مؤسس لجيش التحرير١٩٥١ -١٩٥٦**، دار السلام للنشر والتوزيع، الرباط، ٢٠٠٤، ص٨١-٨٢.

(٢٧) عياش ألبير، **المغرب والاستعمار: حصيلة السيطرة الاستعمارية**، ترجمة عبد القادر الشاوي ونور الدين **سعودي**، منشورات دار الخطابي، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥، ص٣٨١ – ٣٨٢.

(٢٨) البكراوي محمد، مرجع سابق، ص٦٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

روح بن زنباع الجذامي
ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام



أ.م.د. عثمان إسماعيل الطل
أستاذ مشارك
كلية الآداب – دائرة التاريخ
جامعة القدس (أبو ديس) – فلسطين

مُلَخّصْ

تتناول هذه الدراسة أحد رجالات فلسطين البارزين في العصر الأموي وهو روح بن زنباع الجذامي بهدف دراسة دوره في الحياة العامة في جزء من الدولة الأموية، إذ عاصر روح فترة الاضطرابات الأولى التي شهدتها الدولة الأموية عقب وفاة معاوية ولعب دورا هاما ومؤثرًا في مجرى الأحداث، وكانت حياته الاجتماعية حافلة سواء من خلال مكانته القبلية أو صفاته الشخصية ومميزاته وحياته الأسرية. وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تحاول تسليط الضوء على شخصية فلسطينية مؤثرة، لم تنل حقها من البحث والتحري إلا في دراستين تناولتا الجانب السياسي من حياة روح بن زنباع، أما هذه الدراسة، فبالإضافة إلى أنها تتناول الجانب السياسي من حياة روح بن زنباع، إلا أنها كذلك تسلط الضوء على الجوانب الأخرى الهامة من حياته، فتتناول نسبه ومكانته في قبيلته جذام، والجانب الاجتماعي والأسري، ومميزاته وقدراته الخاصة في الخطابة كونه أحد أهم الخطباء المفوهين في العصر الأموي، وبراعته في كمفاوضًا نيابة عن الدولة، وكذلك المناصب الرسمية التي شغلها في الدولة، وعمله كمستشار لعدد من خلفاء بني أمية وخاصة عبد الملك بن مروان، والمكانة العالية والرفيعة التي تمتع بها الأسرة الأموية، أو بكلمات أخرى، فإن الدراسة تتناول جميع جوانب شخصية روح بن زنباع ودوره في الحياة العامة الفترة التي عاش فيها. وقد أظهرت الدراسة أن روح بن زنباع الجذامي الفلسطيني كان شخصية عامة لعبت دورًا مهمًا في مختلف نواحي الحياة. وقد كان روح سيدًا لقبيلته جذام، وله تأثير كبير فيهم كما كان روح بن زنباع معتدًا بكرامته لا يقبل الضيم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٩ سبتمبر ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٥ أكتوبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

روح بن زنباع الجذامي؛ الحياة العامة في صدر الإسلام؛ عبد الملك بن مروان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057051

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عثمان إسماعيل الطل. "روح بن زنباع الجذامي ودوره في الحياة العامة في صدر الإسلام".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٣٧ – ١٤٩.

مُقَدِّمَةُ

يتناول هذا البحث أحد رجالات فلسطين البارزين في العصر الأموي وهو روح بن زنباع الجذامي بهدف دراسة دوره في الحياة العامة في الدولة الأموية، إذ عاصر روح فترة الاضطرابات الأولى التي شهدتها الدولة عقب وفاة معاوية، ولعب دورًا هامًا ومؤثرًا في مجرى الأحداث، وظل كذلك حتى وفاته في خلافة عبد الملك بن مروان، كما أنها تسلط الضوء على جوانب من حياته الأسرية والاجتماعية.

وتكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تحاول تسليط الضوء على شخصية فلسطينية مؤثرة، لم تنل حقها من البحث والتحري إلا في دراستين، الأولى للباحثة أزهار هادي فيصل تناولت فيها الجوانب السياسية من حياة روح بن زنباع، هذا بالإضافة إلى أن الباحثة أغرقت دراستها بمواضيع جانبية تكاد تطغى على الموضوع

نفسه كالحديث مطولاً عن قبيلة روح "جذام" على سبيل المثال لا الحصر. أما الدراسة الثانية فهي للباحث محمد طارق العزام عن دور روح في دعم الخلافة الأموية، اقتصر فيها الباحث على الجوانب السياسية والدور السياسي الذي لعبه روح في العصر الأموي.

أما هذه الدراسة فبالإضافة إلى أنها تتناول الجانب السياسي من سيرة روح بن زنباع، إلا أنها كذلك تسلط الضوء على الجوانب الأخرى من حياته، سواء على الجانب الاجتماعي، أو مميزاته وقدراته الخاصة في الخطابة، والمفاوضة، وتولي المناصب، وعمله كمستشار، أو بكلمات أخرى دوره في الحياة العامة في الفترة التي عاش فيها. وقد اتبع الباحث في هذه الدراسة منهج البحث التاريخي مستندًا على جمع الروايات المتعلقة بروح بن زنباع، ونقدها وتحليلها واستبعاد ما هو غير مقبول منها بهدف إعطاء صورة متكاملة عن هذه الشخصية. وتكمن الصعوبة في دراسة مثل هذه الشخصيات في أن المصادر لا تقدم الكثير عن حياته قبل الفترة الأموية، وبالأخص قبل وفاة يزيد بن معاوية، إضافة إلى انعدام الدراسات الحديثة التي تتناول حياته العامة باستثناء الجانب السياسي منها.

أولاً: نسبه

هو روح بن سلامة بن حداد بن حديدة بن أمية بن أمرؤ القيس بن جمانة بن وائل بن مالك بن زيد مناة بن أفضى بن سعد بن إياس بن أفضى بن حرام الجذامي[١]، يكنى أبي زرعة وهو أشهر ألقابه[٢]، وهو تابعي[٣]، كان سيدًا لفلسطين[٤]، كل ما يذكر عنه أنه روى وحدث عن بعض الصحابة الذين نزلوا الشام كعبادة بن الصامت وكعب الأحبار وتميم الداري وغيرهم[٥].

لم تذكر المصادر تاريخًا لولادته ولا عن نشأته سوى انه ولد في فلسطين، وأنه أدرك النبي(ﷺ)، ولكنه ليس صحابي[٦]، وأما والده زنباع فقد كان سيد قبيلته جذام، وكان له صحبة[٧]، واشتهر بالفطنة وسداد الرأي[٨]، والتعبد والزهد والورع[٩]، وكان ذو علم ودين وخلق[١٠].

أما وفاته فيظهر أنها كانت في خلافة عبد الملك بن مروان، كما ذكر ابن عساكر، الذي قال: "في سنة أربع وثمانين مات فيها روح بن زنباع بالأردن، وبلغني أن أمية بن خالد بن عبد الله بن أسيد، وخالد بن يزيد بن معاوية، وروح بن زنباع، ماتوا في عام واحد بالصفين من الأردن"[١١].

ثانيًا: قبيلته

ينتمي روح إلى قبيلة جذام التي أختلف في نسبها، حيث نسبها البعض إلى العدنانية، بينما نسبها آخرون إلى اليمانية[١٢]. والأرجح أنها يمانية، فقد ذكر ابن حزم أن روح بن زنباع حاول بالاتفاق مع الخليفة يزيد بن معاوية نقل نسب جذام من اليمن إلى معد، فجاء ناتل بن قيس الجذامي[١٣] إلى المسجد وخطب في الناس وأكد في بأن جذام يمانية، وندد بما فعله روح ففشلت المحاولة[١٤].

وتُعَدّ قبيلة جذام من القبائل العربية الكبرى في بلاد الشام حيث انتشروا في مناطق متعددة وبخاصة في فلسطين[١٥]، ووقفوا بداية في وجه الإسلام وبخاصة في غزوة تبوك[١٦] التي أرسلها النبي (ﷺ) عندما علم أن الروم ومعهم قبائل لخم وجذام وغسان يعدون لقتال المسلمين وأنهم تقدموا إلى منطقة البلقاء[١٧]، وذات السلاسل[١٨]. كما قاتلت جذام مع الروم في مؤتة [١٩]، ثم بدأ الإسلام ينتشر بينهم قبل بدء الفتوح الإسلامية، فقد ذكر ابن سعد أن رفاعة بن زيد الجذامي وفد على النبي (ﷺ) قبل فتح خيبر وأسلم، وأن النبي (ﷺ) كتب له كتابًا جاء فيه "هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد إلى قومه ومن دخل معهم يدعوهم إلى الله فمن قبل ففي حزب الله ومن أبى فله أمان شهرين"، فأجابه قومه وأسلموا[٢٠]. كما أسلم فروة بن عمرو بن النافلة وهو أحد زعماء قبيلة جذام، وكان عاملا للروم على بعض العرب ويسكن قرب معان، فقام الروم بحبسه ثم أعدموه وصلبوه[٢١]. ويظهر أن زنباع والد روح أسلم في عهد النبي (ﷺ)، حيث ذكر أنه كانت له صحبة [٢٢]. وبعد بدء المسلمين بفتح بلاد الشام أسلمت غالبية بطون جذام إما قتالاً أو صلحًا[٢٣]. وكانت قبيلة جذام من أشهر القبائل الشامية اليمانية ومن أشهر القبائل التي لعبت دورًا بارزًا وهامًا في العصر الأموي[٢٤].

أما عن والد روح، زنباع فيظهر أنه كان قبل الإسلام يعمل عشارًا عند الغساسنة، حيث كان يعشر الناس للحارث الغساني، فقد ذكر كل من ابن عبد البر والزبير بن بكار أن عمر بن الخطاب خرج تاجرا مع جماعة من قريش إلى الشام، فلما وصلوا فلسطين أخفوا ما كان معهم من ذهب في بطن ناقة، فلما مروا أمام زنباع أمر بتفتيشهم، فلم يجدوا معهم إلا شيئًا يسيرًا، فقام باستعراض الإبل وعرف الناقة المقصودة وأمر بنحرها، فلما احتجوا عليه أخبرهم أن ببطنها ذهب،

فلما شقوا بطنها سال الذهب فضاعف عليهم العشر، ونال من عمر بن الخطاب فقال عمر في ذلك:

متى ألقى زنباع بن روح ببلدة
لي النصف منه يقرع السن من ندم
ويعلم أن الحي حي ابن غالب
مطاعين في الهيجا مضاريب في الهيم[٢٥]

ثالثًا: الجانب الاجتماعي

أما فيما يتعلق بحياة روح الاجتماعية فهي أيضًا يكتنفها بعض الغموض، فقد أشارت المصادر إلى أنه كان متزوجا من هند (أو حميدة)، بنت النعمان بن بشير الأنصاري، وأنه لم يكن معها على وفاق، حيث كانت تعيره دائما بأنه من جذام، وأنه جبان وغيور، بينما كان هو يعيرها بأنها حمقاء. ذكر ابن عبدربه أن هند بنت النعمان بن بشير قالت لزوجها روح بن زنباع: " كيف سودك قومك وأنت جبان غيور؟ قال: أما الجبن فان لي نفسا واحدة فأنا أحوطها، وأما الغيرة فما أحق بها من كانت له امرأة حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فترمي به في حجره "[٢٦].

كما أورد ابن سعد أن هند قالت شعرًا تمدح فيه نفسها وتهجو روح، فذكر أن روح كان شديد الغيرة، وأن هندا أشرفت يوما تنظر إلى وفد من جذام كانوا عنده، فزجرها، فقال: والله إني لأبغض الحلال من جذام؛ فكيف تخافي علي الحرام فيهم. وأنها قالت له يومًا: "عجبا منك! كيف يسودك قومك، وفيك ثلاث خلال: أنت من جذام. وأنت جبان. وأنت غيور؟ فقال لها: أما إني من جذام فإني في أرومتها، وحسب الرجل أن يكون في أرومة قومه، وأما الجبن فاني مل لي إلا نفس واحدة، فأنا أحوطها، فلو كانت لي نفس أخرى جدت بها، وأما الغيرة فأمر لا أريد أن أشارك فيه، وحقيق بالغيرة من كانت عنده حمقاء مثلك، مخافة أن تأتيه بولد من غيره فتقذفه في حجره! فقالت:

وهل هند إلا مهرة عربية
سليلة أفراس تجللها بغل
فإن انجبت مهرا عربيا فبالحرى
وإن يك إقراف فما انجب الفحل"[٢٧]

كما قالت هند أيضا تهجو روح:

بكى الخز من روح وانكر جلده
وعجت عجيج من جذام المطارق[٢٨]

يظهر أن التباغض بين هند وروح مرده إلى وقوف والدها النعمان بن بشير الأنصاري إلى جانب عبد الله بن الزبير في الأحداث التي وقعت عقب وفاة يزيد بن معاوية[٢٩]، وأنه كان يأخذ له البيعة من الناس في حمص، ثم قتل فيها في بداية خلافة مروان بن الحكم[٣٠]، هذا بينما وقف زوجها روح وقبيلته جذام بقوة إلى جانب بني أمية، ولعب روح دورا مؤثرا في ترشيح مروان بن الحكم والبيعة له بعد ذلك في مؤتمر الجابية. وهذا ما يفسر بدرجة كبيرة العلاقة المتوترة بين روح وزوجته هند، والتي ربما هي التي أدت إلى الطلاق الذي ذكرته بعض المصادر[٣١]، فقد ذكر ابن حزم أن هند تزوجت من شخص أسمه الفيض بن أبي عقيل الثقفي، قالت فيه هو الأخر شعرًا:

سميت فيضا وما شيئا تفيض به
إلا سلاحك بين الباب والدار[٣٢]

هذا ولا تشير المصادر إذا ما كان لروح بن زنباع أبناء من زوجته هند بنت النعمان أم لا، ولكنها تذكر أسماء عدد من أبنائه منهم سلامة بن روح الذي روي عنه بعضًا من أخبار أهل فلسطين في الأحداث التي أعقبت مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦هـ، ومن أبنائه أيضًا سعيد وضبعان ابنا روح اللذين كانا سيدا فلسطين وشاركا في الثورة على يزيد بن الوليد في بداية توليه الخلافة، ثم تراجع ضبعان عن ذلك وانسحب بأهل فلسطين بعد أن وعده يزيد بأن يوليه على فلسطين ما دام يزيد خليفة[٣٣].

ولم تخل المصادر من ذكر بعض المواقف التي لا تخلو مكن الدعابة في حياة روح بن زنباع، فقد أراد عبد الملك يوما أن يعرضه لولديه الوليد وسليمان فجاء عند ابن عبد ربه في ذلك: "كان روح بن زنباع أثيرا عند عبد الملك، فقال له يومًا: أرأيت امرأتي العبشمية؟ قال: نعم. قال: بم شبهتها؟ قال: بمشجب بال قد أسيء صنعه. قال: صدقت، وما صنعت بيدي عليها قط إلا كأني وضعتها على الشكاي، وأنا أحب أن تقول ذلك إلى ابنيها الوليد وسليمان! فقام إليه فزعا فقبل يده ورجله، وقال: أنشدك الله يا أمير المؤمنين، ألا تعرضني لهما! قال: ما من ذلك بد! وبعث من يدعوهما؛ فاعتزل روح وجلس ناحية من البيت فقال لهما (عبد الملك): أتدريان لم بعثت إليكما؟ إنما بعثت إليكما لتعرفا لهذا الشيخ حقه وحرمته! ثم سكت""[٣٤].

وفي مناسبة أخرى، تدخل الوليد بن عبد الملك بطريقة غير مباشرة لمعالجة جفاء والده عبد الملك عن روح وحدث المدائني وابن دأب أن روح بن زنباع رأى من عبد الملك إعراضًا وجفوة، فقال للوليد: أما ترى ما

أنا فيه من أمير المؤمنين بإعراضه عني بوجهه حتى لقد فَغَرَتِ السباع بأفواهها نحوي وأهوت بمخالبها إلى وجهي. فقال له الوليد: احْتَلْ له في حديث تضحكهَ به كما احتال مرزبان نديم سابور بن سابور ملك فارس، قال روح: وما كان من خبره جمع الملك. قال الوليد: كان مرزبان هذا من سمّار سابور فظهرت له من سابور جَفْوة، فلما علم ذلك تعلّم نُبَاح الكلاب، وعُوَاء الذئاب، ونهيق الحمير، وزقَاء الديوك، وشَحِيجَ البغال، وصَهيل الخيل، ومثل هذا، ثم احتال حتى توصّلَ إلى موضعٍ يقرب من مجلس خلوة الملك وفراشه، وأخفى أثره، فلما خلا الملك نبَحَ نُبَاحَ الكلاب فلم يشك الملك أنه كلب، فقال الملك: (انظروا) ما هذا؟ فعوى عُواء الذئاب، فنزل الملك عن سريره، فنهق نهيق الحمير، فمضى الملك هاربًا، ومضى الغلمان يتبعون الأثر والصوت، فكلما دَنَوْا منه ترك ذلك الصوت وأحدث صوتًا آخر من أصوات البهائم، فأحْجَمُوا عنه، ثم اجتمعوا فاقتحموا عليه فأخرجوه، فلما نظروا إليه قالوا للملك: هذا مرزبان المضحك، فضحك الملك ضحكًا شديدًا، وقال له: ويلك!! ما حَملكَ على هذا. قال: إن اللّه مسخني كلبًا وذئبًا وحمارًا وكل خلق لما غضبت علي، فأمر الملك بالخلع عليه، وردّه إلى مرتبته التي كان فيها، وتجدد للملك به سرور، فقال روح للوليد: إذا اطمأن المجلس بأمير المؤمنين فاسألني عن عبد الله بن عمر هل كان يمزح أو يسمع مُزَاحًا؟ قال الوليد أفعل، وكان عمر صاحب سلامة لا يمزح ولا يعرف شيئًا عن المُزَاح فتقدم الوليد وسبقه بالدخول، فتبعه روح، فلما اطمأنَّ بهما مجلس عبد الملك قال الوليد لروح، يا أبا زرعة، هل كان ابن عمر يمزح أو يسمع المُزَاح؟ قال روح: حدثني ابن أبي عتيق أن امرأته عاتكة بنت عبد الرحمن المخزومية هَجَته فقالت:

ذهب الإله بما تعيش به
وقمرت عيشك أيها القمر
أنفقت مالك غير محتشم
في كل زانية وفي الخمر

وكان ابن أبي عتيق صاحب غزل وفكاهة، فأخذ هذين البيتين في رقعة وخرج بهذا الشعر فإذا هو بابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، انظر في هذه الرقعة وأشِرْ علي برأيك فيها، فلما قرأها عبد اللّه استرجع، فقال له: ما ترى فيمن هجاني بهذا الشعر، قال: أرى أن تعفو وتصفح، قال: والله يا أبا عبد الرحمن لئن لقيته بناحية...، فأخذت ابن عمر أفكل ورعدة واربدّ لونه، وقال: ما لك غضب الله عليك، قال: ما هو إلا ما قلت لك، وافترقا، فلما كان بعد أيام لقيه فأعرض عنه ابن عمر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، إني لقيت صاحب البيتين...، فصُعِقَ عبد اللّه بن عمر فلما رأى ما حَلَّ به دَنَا منه وقال له في أذنه: إنها امرأتي فقام ابن عمر فقبل ما بين عينيه وضحك.. وقال: أحسنت فَرَدْها، فضحك عبد الملك حتى فحص برجله، وقال له: قاتلك اللّه يا روح، ما أطْيَبَ حديثك! وَمَدَّ يده إليه، فقام إليه روح فأكَبّ عليه وقَبَلَ أطرافه، وقال: يا أمير المؤمنين، ألذنب فأعتذر، أم لملة فأصطبر وأرجوا عاقبتها. قال: لا والله ما ذلك لشيء تكرهه، ثم عاد إلى أحسن حلاته"[٣٥].

كما يظهر أن روح بن زنباع كان كريما فقد قال عنه المبرد: "وكان روح يقري الأضياف، وكان مسامرًا لعبد الملك بن مروان أثيرا عنده"[٣٦]. فقد نزل عنده عمران بن حطان، الذي كان ملاحقًا من الحجاج دون أن يعرف روح شخصيته، "فكان روح لا يسمع شعرا نادرًا ولا حديثًا غريبًا عند عبد الملك، فيسأل عنه عمران بن حطان إلا عرفه وزاد فيه، فذكر ذلك لعبد الملك فقال: إن لي جارًا من الأزد ما أسمع من أمير المؤمنين خبرًا ولا شعرًا إلا عرفه وزاد فيه، فقال: خبرني ببعض أخباره فخبره وانشده، فقال: إن اللغة عدنانية، وإني لأحسبه عمران بن حطان، حتى تذاكروا ليلة قول عمران بن حطان:

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إلا لبلغ من ذي العرش رضوانا
إني لأذكره حينا فأحسبه
أوفى البرية عند الله ميزانا

فلم يدر عبد الملك لمن هو، فرجع روح فسال عمران بن حطان عنه، فقال عمران: هذا يقوله عمران بن حطان يمدح به عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي بن أبي طالب، فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره، فقال عبد الملك: ضيفك عمران بن حطان، اذهب فجئني به، فرجع إليه، فقال: إن أمير المؤمنين قد أحب أن يراك، فقال عمران: قد أردت أن أسالك ذلك فاستحييت منك، فامضي فإني بالأثر! فرجع روح إلى عبد الملك فأخبره، فقال له عبد الملك: أما إنك سترجع فلا تجده! فرجع وعمران قد ارتحل وخلف رقعة فيها:

يا روح كم أخي مثوى نزلت به
قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خفته فارقت منزله
من بعد ما قيل: عمران بن حطان
قد كنت جارك حولا ما تروعني

فيه روائع من غنس ولا جان
حتى أردت بي العظمى فأدركني
ما أدرك الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ابن زنباع فان له
في النائبات خطوبا ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت ذي يمن
وان لقيت معديا فعدنان
لو كنت مستغفرا يوما لطاغية
كنت في المقدم في سري وإعلاني
لكن أبت لي أيات مطهرة
عند الولاية في طه وعمران

ثم ارتحل حتى نزل بزفر بن الحارث الكلابي، أحد بني عمرو بن كلاب، فانتسب له أوزاعيا، وكان عمران يطيل الصلاة، وكان غلمان من بني عامر يضحكون منه، فاتاه رجلاً يومًا ممَنْ رآه عند روح بن زنباع فسلم عليه، فدعاه زفر فقال: من هذا! فقال: رجل من الأزد رأيته ضيفا لروح بن زنباع، فقال له زفر: يا هذا! أأزديًا مرة وأوزاعيًا أخرى؟! إن كنت خائفا أمناك، وإن كنت فقيرا جبرناك، فلما أمسى هرب وخلف في منزله رقعة فيها:

إن التي أصبحت يعيا بها زفر
أعيت عياء على روح بن زنباع [٣٧]

كما يذكر ابن عساكر أنه نزل مرة بين مكة والمدينة المنورة في يوم شديد الحرارة، ووضع طعاما ليتغدى فمر به راعي فدعاه روح إلى الطعام، فرد الراعي عليه بأنه صائم، فقال له روح: أتصوم في هذا الحر الشديد، فرد الراعي عليه بأنه لا يريد أن تذهب أيامه باطلاً، فأنشد روح قائلاً:

لقد ضننت بأيامك يا راعي
إذ جاد بها روح بن زنباع

وفي رواية أخرى أنه قال له: "لئن كنت يا أعرابي ظننت بأيامك تذهب باطلا لقد جاد بها روح"[٣٨].

يتضح من هذه الروايات أن اتهام روح بالبخل لا يعد أمرًا مقبولاً، وأن مثل هذه التهم التي جاءت على لسان زوجته هند بن النعمان لا تخرج أكثر عن توتر العلاقة بينهما كان نتيجة لموقف والدها المخالف لموقف روح بعد وفاة يزيد بن معاوية.

ويشار هنا إلى أن روح بن زنباع كان معتدا بنفسه، يرفض الضيم حتى لو كان ذلك من أبناء عبد الملك بن مروان، ولعل قصة مزرعته التي كانت بجانب مزرعة الوليد تعطي انطباعًا كبيرًا عن ذلك، فقد أورد كل من ابن عبد البر والمبرد هذه الواقعة التي جاء فيها: "وروينا إن روح بن زنباع كانت له زراعة إلى جانب زراعة وليد بن عبد الملك، فشكا وكلاء روح عليه وكلاء الوليد، فشكا ذلك روح على الوليد، فلم يشكه، فدخل على عبد الملك وأخبره والوليد جالس، فقال عبد الملك: ما يقول روح يا وليد؟ قال: كذب يا أمير المؤمنين. قال (روح): غيري والله أكذب. قال الوليد: لأسرعت خيلك يا روح. قال: نعم. كان أولها في صفين وأخرها بمرج راهط. ثم قام مغضبًا، فخرج فقال عبد الملك للوليد: بحقي عليك لما أتيته فترضيته، ووهبت له زراعتك، فخرج الوليد يريد روحًا، فقيل لروح: هذا ولي العهد يريدك، فخرج يستقبله، فوهب له الزراعة، وكان عبد الملك يقول: جمع روح بن زنباع طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز"[٣٩].

أما ابن عساكر فقال: "دخل روح بن زنباع الجذامي على عبد الملك وعنده الوليد ابنه، وكان روح ذا مكانة عالية عند عبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين أعدني على الوليد، فقال: ما لك وله؟ قال: شكوت إليه عبيده في ضيعتي الفلانية التي تجاور ضيعته الفلانية فلم يشكني، فقال الوليد: أسرعت خيلك يا أبا زرعة؟ قال: نعم مرتين يا ابن أخي، مرة بصفين (ومرة ب) مرج راهط وقام مغضبا؛ فقال عبد الملك للوليد: اركب إليه وهب له الضيعة بما فيها من عبيدها وأكرتها فلم يشعر روح حتى قيل له: الوليد بالباب، فخرج إليه واعتذر ووهب له الضيعة وما فيها، ورجع إلى عبد الملك فأخبره بذلك"[٤٠].

وتذكر أزهار هادي فيصل إلى انه رغم إيجابيات روح بن زنباع، إلا أن شخصيته حملت بعض السلبيات والتي منها انه كان حقودا، وتحديدا على عمر بن الخطاب، إذ لم ينسى له موقفه من أبيه قبل الإسلام، ولا موقفه عندما أراد حرمان جذام من العطاء في الجابية، وعدوله عن ذلك فيما بعد. هذا وقد تجسد حقده هذا في موقفه السلبي من ترشيح عبد الله بن عمر لمنصب الخلافة في مؤتمر الجابية[٤١].

رابعًا: براعته في الخطابة

كان روح بن زنباع خطيبا مفوها من أشهر خطباء عصره، شهد له بذلك خالد بن سلمة المخزومي بذلك عند عبد الملك بن مروان عندما سأل عبد الملك خالد عن أخطب الناس فقال: "من أخطب الناس؟ قال: أنا! قال: ثم من؟ قال: شيخ جذام. يعني روح بن زنباع. قال: ثم من؟ قال: أخفش ثقيف. يعني الحجاج، قال ثم مَنْ؟

قال: أمير المؤمنين! "[٤٣]، وكذلك عده الجاحظ[٤٣]، وربما تعلم الحجاج الخطابة من روح بن زنباع لأنه نزل عليه وكان في عداد شرطته[٤٤].

هذا وقد أوردت المصادر التاريخية مقتطفات من خطب روح بن زنباع، منها خطبة إستعطف فيها معاوية بن أبي سفيان، قال فيها: "أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تبدي خسيسة أنت رفعتها، أو تهدم مني ركنا أنت بنيته، أو تنقض مني مريرة أنت أبرمتها، وأرتشمت بي عدوا أنت وقمته وكتبه حلمك على جهلي، وعفوك على ذنبي، وإحسانك على إساءتي، فرق له معاوية وقال: خلوه "[٤٥]، وبذا استطاع أن يتملص من عقابه. أما ابن عساكر فذكر أن معاوية بن أبي سفيان لما هم بقتل روح بن زنباع قال روح: "لا تشمت في عدوا أنت (وقمته) ولا تسؤ إلى صديقا أنت سررته، ولا تهدم مني ركنا أنت بنيته، فصفح عنه وأطلقه"[٤٦]. تشير هذه الروايات إلا علاقة روح بن زنباع قد ساءت، وأن معاوية ربما بعد هذه الحادثة قد أبعده عنه ولم يعد من مقربه بعد أن كان قد ولاه بعلبك[٤٧].

كما كانت له خطبة مشهورة في أهل المدينة المنورة، اختلفت المصادر في تحديد تاريخها[٤٨]، حيث فقال فيها: "يا أهل المدينة، ما هذا الايعاد الذي توعدوننا؟ إنا والله ما دعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم، ولا إلى رجل من بلقين، ولا إلى رجل من لخم أو جذام، ولا غيرهم من العرب (والموالي)، ولكن دعوناكم إلى هذا الحي من قريش، يعني بني أمية، ثم إلى طاعة يزيد بن معاوية، وعلى طاعته قتلناكم، فإيانا توعدون؟ أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعون، وفضلات الموت والمنون، فما شئتم، ومضى القوم إلى الشام"[٤٩]. فتوقف أهل المدينة عن الشغب والإرجاف بهم.

كما أوردت المصادر خطبته المشهور في مؤتمر الجابية، التي رجحت كفة البيعة لمروان بن الحكم بالخلافة، وذلك عندما اختلف الناس حول اختيار مرشح محدد سواء من بني أمية أو غيرهم، فقام روح بن زنباع الجذامي فقال: "أيها الناس، إنكم تذكرون عبد الله بن عمر وصحبته من رسول الله (ﷺ)، وقدمه في الإسلام، وهو كما تذكرون ولكن ابن عمر رجل ضعيف، وليس بصاحب أمة محمد الضعيف، وأما ما يذكر الناس من عبد الله بن الزبير ويدعون إليه من أمره فهو والله كما تذكرون بأنه لابن ابن حواري رسول الله (ﷺ) وابن أسماء ابنة أبي بكر الصديق ذات النطاقين، وهو بعد كما تذكرون في قدمه وفضله، ولكن ابن الزبير منافق، قد خلع خليفتين: يزيد وابنه معاوية بن يزيد، وسفك الدماء، وشق عصا المسلمين، وليس صاحب أمر أمة محمد (ﷺ) المنافق؛ وأما مروان بن الحكم، فوالله ما كان في الإسلام صدعٌ إلا كان مروان ممن يشعب ذلك الصدع، وهو الذي قاتل عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم الدار، والذي قاتل علي بن أبي طالب يوم الجمل، وإنا نرى للناس أن يبايعوا الكبير ويستشبوا الصغير"، يعني بالكبير مروان بن الحكم، وبالصغير خالد بن يزيد بن معاوية"[٥٠].

هذا ولا يمكن فصل براعة روح في الخطابة عن موقفه السياسي من الدولة الأموية، ففي خطبته في المدينة المنورة المفاهيم السياسية التي طرحها معاوية من قبل؛ لتبرير خلافته وتولية ابنه يزيد ولاية العهد، وذلك من خلال إشارة روح لمفهوم الاستخلاف الإلهي في مواجهة الطعن على طريقة وصول يزيد للخلافة مؤكدا أن الخلافة إنما هي بأمر الله، وليس للبشر فيها خيار، فعليهم –أهل المدينة- مبايعة يزيد؛ لأن الله اختصه بالأمر وجعله خليفة [٥١] وهذا يؤكد إيمان روح الراسخ بهذه المفاهيم والطروحات.

أما في خطبته في مؤتمر الجابية فقد على أفضلية مروان بن الحكم لتولي الخلافة، فعبد الله بن عمر رغم فضله ما له من صحبة وفضل في الإسلام إلا أنه برأيه لا يصلح للخلافة، وذلك لضعفه[٥٢]، وما كان قصد روح إلا أن ابن عمر لا يملك القدرة السياسية لتولي الخلافة وقيادة الأمة الإسلامية، فليس السبق في الإسلام والصحبة للرسول (ﷺ) هما المعيارين المهمين لتولي الخلافة، بل إن الكفاءة السياسية بشكل خاص والخبرة، هما المؤهلان الأهمان لتولي الخلافة والحكم، ثم ذكر ابن الزير –الخليفة المبايع له في معظم أنحاء الدولة الإسلامية- وبين بداية ما له من مكانة كبيرة في الإسلام ومدى قربه من رسول الله (ﷺ) وما لأبويه من مكانة فأبوه حواري رسول الله (ﷺ) وأمه أسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين، إضافة إلى ما له من مكانة وفضل وغناء في الإسلام، إلا أنه برأي روح ورغم كل هذه المميزات والصفات التي يتمتع بها، لا يستحق الخلافة ولا يجوز أن يتولها لأنه منافق قد خلع خليفيتين وسفك دماء المسلمين وذلك بسبب خروجه عن الطاعة وشقه للجماعة مرجعا بذلك المسلمين إلى مرحلة الفتنة والحروب والقتل[٥٣]. ويشير البلاذري إلى ذلك بروايته عن عوانة بن الحكم

بقوله: "فتم رأيهم على البعة لمروان وأجمعوا عليها.... فبويع مروان[٥٤].

ويذهب طارق العزام إلى القول بأن روحا لم يكن يتكلم بكلام مبهم أو غريب عن أهل الشام، بل لقد تكلم بطروحات أموية محددة عرفها أهل الشام طوال خلافة معاوية وابنه يزيد، فقد ركز بخطبته هذه على مصطلحي الطاعة والجماعة ووجوب لزمهما وعدم شق عصا المسلمين المجتمعين على خليفة واحد كما فعل ابن الزبير، كما ذكر بطرح أم الجماعة (٤١هـ/ ٦٦١م)، الذي شدد عليه معاوية، كأفضلية لخلافته، لأنها أعادت للمسلمين الألفة والجماعة والوحدة مرة أخرى، وأوقفت سفك الدماء بينهم[٥٥].

ذكرنا أن أزهار فيصل قد أشارت أن موقف روح السلبي من ترشيح عبد الله بن عمر لتولي منصب الخلافة إنما يرع إلى أنه كان حاقدًا على عمر بن الخطاب، وهنا تجدر الإشارة إلى أن عبد الله بن عمر لم يكن مطروحًا في هذه الفترة لتولي منصب الخلافة، وربما لم يكن أكثر من مجرد كأسماء أخرى تداولها بعض الناس في بلاد الشام بعد وفاة معاوية الثاني بن يزيد بن معاوية، وأن موقف روح من تلك الأسماء لم يكن موقفًا خاصًا بعبد الله بن عمر، بل موقفا عام ينطبق على كل الأسماء المطروحة كعبد الله بن الزبير، وحتى خالد بن يزيد بن معاوية، وهو موقف يرجع بالمقام الأول إلى تأييده لترشيح مروان بن الحكم، إذ كان أحد الذين نصحوا مروان بأن يرشح نفسه لتولي الخلافة مقابل عبد الله بن الزبير، وأيد ترشيحه هذا في دمشق قبل التوجه الجابية.

خامسًا: المناصب التي تولاها

لم تفصل المصادر كثيرًا في المناصب التي تولاها روح بن زنباع في العصر الأموي، ويظهر أن أول ولاية له كانت في عصر معاوية بن أبي سفيان، فقد ذكر البلاذري أن معاوية بن أبي سفيان ولى روح بن زنباع بعلبك[٥٦]، فرجم امرأة ورجلاً، فقال الشاعر:

إن الجذامي روحا في إقامته
حد الإله لمعذور وإن عجلا
لو كان رفه عن حسناء ناعمة
وعن أخي غزل لم يحسن الغزلا

فبلغ الشعر معاوية فكتب إلى روح: "لا تعجلن في إقامة حد حتى تثبت في أمره، فتكون إقامتك إياه بإقرار ظاهر، أو بأربعة شهداء مستورين"[٥٧].

كذلك تولى المدينة المنورة عقب موقعة الحرة، فقد ذكر الطبري عن ولايته هذه قائلاً: "ولما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة وإنهاب جنه أموالهم ثلاثًا، شخص بمن معه من الجند متوجها إلى مكة، كالذي ذكر هشام بن محمد عن أبي مخنف، قال: حدثني عبد الملك بن نوفل، أن مسلما خرج بالناس إلى مكة يريد ابن الزبير، وخلف على المدينة روح بن زنباع الجذامي"[٥٨].

ويظهر أن ولاية روح على المدينة لم تستمر إلا لفترة قصيرة جدًا، إذ انه وعلى ما يبدو قد عاد مسرعا إلى الشام عقب وفاة يزيد مباشرة، وكان متواجدا في فلسطين حيث أنابه حسان بن مالك بن بحدل الكلبي عنه هناك عندما توجه إلى دمشق ليكون قريبا من الأحداث هناك، ولكنه لم يستمر طويلاً حيث ثار عليه ناتل بن قيس الجذامي وأخرجه منها، واستولى عليها وبايع فيها لابن الزبير[٥٩]. وعندما خرج إلى الشام، نصح مروان بن الحكم بان يطرح نفسه مرشحا لتولي الخلافة مقابل عبد الله بن الزبير، كما لعب دورًا كبيرًا في المداولات التي تمت في الشام والتي سبقت البيعة لمروان في الجابية.

كما ذكر ابن أيبك الصفدي، أن روح بن زنباع قد تولى جند فلسطين ليزيد بن معاوية[٦٠]. وأما ما ذكره البعض من أن روح بن زنباع كان وزيرًا وكاتبًا لعبد الملك بن مروان، فيظهر أنها لم تكن بالمناصب الرسمية، بل لها بما كان يقدمه من نصح ومشورة وهي في الوقت ذاته تدل على المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها روح عند عبد الملك، وهذا ما أشار إليه ابن العماد الحنبلي فقال عنه: "وكان معظمًا عند عبد الملك، لا يكاد يفارقه، وهو عنده بمنزلة وزير"[٦١]، أما الذهبي فقال عن ذلك: "وكان شبه وزير للخليفة عبد الملك"[٦٢]، كما انه من المعروف أن منصب الوزارة لم يعرف إلا في العصر العباسي. ولعل ما يرجح ما ذهبنا إليه قول اليعقوبي: "كان الغالب على عبد الملك روح بن زنباع الجذامي"[٦٣].

سادسًا: ناصحًا ومستشارًا

كان روح بن زنباع يقدم النصائح والاستشارات لخلفاء بني مروان الأوائل، وهنا لا بد لنا من الإشارة انه كان أهم أهل الشام الذين نصحوا مروان بن الحكم بأن يطرح نفسه للخلافة مقابل عبد الله بن الزبير، حيث كان مروان يفكر جديا في مروان بن الحكم نفسه كان يريد بيعة عبد الله بن الزبير[٦٤] بالخلافة[٦٥]، وقد أورد الدينوري رواية مفصلة بهذا الخصوص فقال: قال:

"وذكروا أن ابن الزبير لما استخلف الضحاك على أهل الشام، قام أناس من أهل الشام وفيهم روح بن زنباع الجذامي، فقال بعضهم، إن الملك كان فينا أهل الشام، أفينتقل ذلك إلى أهل الحجاز؟ لا نرضى بذلك، هل لكم أن تأخذوا رجلاً منا فينظر في هذا الأمر قالوا نعم؟ فجاؤوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية وهو غلام حدث السن، فقيل له ارفع رأسك لهذا الأمر، فقال: أستخير الله وأنظر، فرأى القوم أنه ذو ورع عن القيام في ذلك، فخرجوا فأتوا عمرو بن سعيد، فقالوا له: يا أبا أمية ارفع رأسك لهذا الأمر. فجعل يشير ويقول: والله لأفعلن لأفعلن: فلما خرجوا من عنده قالوا هذا حديث علج. فأتوا مروان بن الحكم فإذا عنده مصباح، وإذا هم يسمعون صوته بالقرآن، فاستأذنوا ودخلوا عليه، فقالوا له: يا أبا عبد الملك ارفع رأسك لهذا الأمر؛ فقال استخيروا الله أن يختار لأمة محمد خيرها وأعدلها ما شاء الله"[٦٦].

أما عندما استطلع مروان من روح رأيه في أمر طلبه للخلافة، رد عليه بالموافقة والتشجيع، فقال له: "أشير عليك أن تطلب هذا الأمر لنفسك، فإنك اليوم شيخ كبير بني أمية، ابن عم أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وأنت أحق بهذا الأمر من الضحاك بن قيس"[٦٧].

ولم يقف الأمر عند ذلك، بل نصحه بان يطلب من ابنه عبد العزيز أن يخطب في الناس في مسجد دمشق ويدعوهم لبيعته (بيعة مروان)، بينما يقوم هو بجعل أربعمائة رجل من أتباعه يصدقون كلامه وهو ما يعزز فرص ترشيح مروان، فقال الدينوري عن ذلك: "وذكروا أن روح بن زنباع الجذامي قال لمروان بن الحكم إن معي أربع مائة رجل من جذام، وسأمرهم أن يبتدرا في المسجد غدا، فمر ابنك عبد العزيز أن يخطب، ويدعوهم إليك، وأنا أمرهم أن يقلوا صدقت: فيظن الناس أن أمرهم واحد، قال: فلما أصبح عبد العزيز خرج على الناس وهم مجتمعون، فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: ما أحد أولى بهذا الأمر من مروان بن الحكم، إنه لكبير قريش وشيخها، وأفرطها عقلاً وكمالاً، ودينا وفضلاً، والذي نفسي بيده، لقد شاب شعر ذراعيه من الكبر، فقال الجذاميون: صدقت. فقال خالد بن يزيد: أمر قضي بليل. فبايعوا مروان بن الحكم..." [٦٨]. ولا شك من أن هذه النصائح قد أحدثت تأثيراً كبيرًا على مجرى الخلافة الأموية لفترات طويلة لاحقة.

وكان عبد الملك كثيرًا ما يسأل روح عن بعض الأشخاص، أو عن بعض المسائل الفقهية، فقد سأله عن مالك بن مسمع، فقال: "لو غضب مالك لغضب معه مائة ألف سيف لا يسأله واحد منهم لما غضبت؟ فقال عبد الملك هذا والله السوود"[٦٩]. وأورد ابن عساكر أن عبد الملك بن مروان كتب إلى روح بن زنباع: كيف نقول إذا تخوفنا الصواعق؟ قال: تقولون اللهم إنا نستعينك ونستغفرك، ونؤمن بك ونتوب إليك. ثلاثًا"[٧٠]، ويضيف أنه أرسل إليه يسأله: "كيف نقول إذا قحطت السماء، قال: تقولون: اللهم، الذنب الذي حبست به عنا المطر، فإنا نستغفرك منه، فاغفر لنا، واسقنا الغيث. ثلاث مرات، إلا أنه قال عبيد الله بن أبي يحيى"[٧١].

ونصح روح وقبيصة الخزاعي عبد الملك بالطلب من محمد بن الحنفية أن يبايع له بعد خروج ابن الحنفية إلى أيلة هربا من مضايقات ابن الزبير له بالحجاز[٧٢]. كما نصح عبد الملك بن مروان باستعمال عامر الشعبي على قضاء البصرة، فقد ذكر ابن عبد ربه أن عبد الملك بن مروان قال لجلسائه: "دلوني على رجل أستعمله. فقال له روح بن زنباع: أدلك يا أمير المؤمنين على رجل أن دعوتموه أجابكم، وإن تركتموه لم يأتكم، ليس بالملحف طلبا، ولا بالممعن هربًا: عامر الشعبي، فولاه قضاء البصرة"[٧٣].

وأشار روح على عبد الملك باستخدام الحجاج في ساقة جيشه فكلف عبد الملك الحجاج بتلك المهمة، فيروى أن عبد الملك اشتكى "من انحلال عسكره وأن الناس لا يرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله، فقال له روح بن زنباع: يا أمير المؤمنين، إن في شرطتي رجل لو قلد أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله، وأنزلهم بنزوله، يقال له الحجاج بن يوسف، قال: فانا قلدناه ذلك"[٧٤].

ونظرًا لمكانة روح هذه من عبد الملك، فقد كان كثيرًا ما يرافقه حيث كان أحد الذين خرجوا معه إلى العراق لقتال مصعب بن الزبير، حيث كان عبد الملك غالبًا ما يصطحب معه جماعة من أهل الرأي والمشورة، وعن ذلك يقول المسعودي: "وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة، فخرج إليه أهل الكوفة فبايعوه، ووفى للناس بما كان وعدهم به في مكاتبته إياهم سرًا، وخلع، وأجاز، وأَقْطَعَ، ورتب الناس على قدر مراتبهم، وعمهم ترغيبه، وترهيبه، وولىّ على البصرة خالد بن عبد اللّه بن خالد بن أسد وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زِنْبَاع الجُذَامي، وبعث بالحجاج بن

يوسف لحرب ابن الزبير بمكة، وسار في بقية أهل الشام إلى دار ملكه"[٧٥].

ويشار هنا أن عبد الملك، ونظرًا لثقته الكبير في روح بن زنباع، فقد تركه مرافقا لأخيه بشر بن مروان الذي عينه عبد الملك على الكوفة، وطلب من بشر أن لا يقطع أمرًا دون أن يستشير فيه روح، ويظهر بشرًا لم يكن راغبًا في وجوده معه فاحتال عليه وجعله يغادر الشام، وقد قال المسعودي عن ذلك: "وكان بشر بن مروان أديبًا ظريفًا، يحب الشعر والسَّمَرَ والسماع والمعاقرة، وقد كان أخوه عبد الملك قال له: إن روحا عمك الذي لا ينبغي أن تقطع أمرًا دونه، لصدقه وغفافه ومناصحته ومحبته لنا أهل البيت، فاحتشم بشر منه، وقال لندمائه: أخاف إن انبسطنا أن يكتب روح إلى أمير المؤمنين بذلك، وإني لأحِبُّ من الأنس والاجتماع ما يحبه مثلي، فقال له بعض ندمائه من أهل العراق بحسن مساعدته ولطيف حيلته: أنا أكفيك أمره حتى ينصرف عنك إلى أمير المؤمنين غير شاكٍ ولا لائم، فسرَّ بشر، ووعده الجائزة وحسن المكافأة إن هو تأتىّ له ما وعد به، وكان روح شديد الغيرة، وكانت له جارية إذا خرج من منزله إلى المسجد أو غيره ختم بابه حتى يعود بعد أن يقفله، فأخذ الفتى دواةً وأتى منزل روح عشيًا مختفيًا وخرج روح للصلاة، فتوصل الفتى إلى دخول الدهليز في حال خروج روح، وكَمَنَ تحت الدرجة، ولم يزل يحتال ليلته حتى توصل إلى بيت روح، فكتب على حائط في أقرب المواضع من مرقد روح:

يا روح مَنْ لبنيات وأرملة
إذا نعاك لأهل المغرب الناعي
إن ابن مَرْوَانَ قد حانت مَنِيَّته
فاحتل لنفسك ياروح بْنَ زنباع
ولا يغرنك أبكار منعمة
واسمع هديت مقال الناصح الداعي

ورجع إلى مكانه بالدهليز، فبات فيه، فلما أصبح روح خرج إلى الصلاة فتبعه غلمانه، والفتى متنكر في جملتهم مختلط بهم، فلما عاد روح وافتتح باب حجرته تبين الكتابة وقرأها، فراعه ذلك وأنكره، وقال: ما هذا. فواللّه ما يدخل حجرتي إنسي سواي- ولاحظ لي في. المقام بالعراق ثم نهض إلى بشر، فقال له: يا ابن أخي، أوْصِني بما أحببت من حاجة أو سبب عند أمير المؤمنين، قال: أو تريد الشخوص يا عم؟ قال: نعم، قال: ولم؟ هل آنكرت شيئًا أو رآيت قبيحًا لا يسعك المقام عليه. قال: لا واللّه، بل جزاك اللّه عن نفسك وعن سلطانك خيرًا، ولكنْ أمر حَدَثَ، ولا بدَّ لي من الانصراف إلى أمير المؤمنين فأقسم عليه أن يخبره، فقال له: إن أمير المؤمنين قد مات أو هو ميت إلى أيام، قال: ومن أين علمت بذلك. فأخبره بخبر الكتابة، وقال: ليس يدخل حجرتك غيري وغير جاريتي فلانة، وما كتب ذلك إلا الجن أو الملائكة، فقال له بشر: أقم فإني أرجو أن لا يكون لهذا حقيقة، فلم يَثْنِه شيء، وسار إلى الشام، فأقبل بشر على الشراب والطرب، فلما لقي روح عبد الملك أنكر أمره، وقال: ما إقدامك إلا لحادثة حدثت على بشر، أو لأمر كرهته، فأثنى على بشر، وحمد سيرته، وقال: لا بل لأمر لا يمكنني ذكره حتى تخلو، فقال: عبد الملك لجلسائه: انصرفوا، وخلا بروح، فأخبره بقصته وأنشده الأبيات، فضحك عبد الملك حتى استغرق، وقال: ثقلت على بشر وأصحابه حتى احتالوا لك بما رأيت، فلا تُرَعْ"[٧٦].

كما استشاره عبد الملك في خلع أخيه عبد العزيز بن مروان من ولاية والبيعة لأبنيه الوليد وسليمان، فقد ذكر الطبري " أن عبد الملك بن مروان هم بذلك فنهاه قبيصة بن ذؤيب، قال: فإنك باعث على نفسك صوت نعار، ولعل الموت يأتيه فتستريح منه! فكف عبد الملك عن ذلك ونفسه تنازعه أن يخلعه. ودخل عليه روح بن زنباع الجذامي – وكان من اجل الناس عند عبد الملك – فقال: يا أمير المؤمنين، لو خلعته ما انتطح فيه عنزان، فقال: ترى ذلك يا أبا زرعة؟ قال: إي والله، وأنا أول من يجيبك إلى ذلك، فقال: نصيح إن شاء الله. فبينا هو على ذلك وقد نام عبد الملك وروح بن زنباع إذ دخل عليهما قبيصة بن ذؤيب طروقا.... وقال: أجرك الله يا أمير المؤمنين في أخيك عبد العزيز! قال: وهل توفي؟ قال: نعم، فاسترجع عبد الملك، ثم أقبل على روح فقال: كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا نريد وما أجمعنا عليه، وكان ذلك مخالفا لك يا أبا إسحق، فقال قبيصة: ما هو؟ فأخبره بما كان، فقال قبيصة: يا أمير المؤمنين، إن الرأي كله في الأناة، والعجلة فيها ما فيها، فقال عبد الملك: ربما كان في العجلة خير كثير، رأيت أمر عمرو بن سعيد، ألم تكن العجلة فيه خير من التأني! "[٧٧].

سابعًا: مفاوضًا

عمل معاوية بعد توليه الخلافة على تقريب روح بن زنباع إليه وخاصة أن وقبيلته جذام قاتلوا إلى جانبه في معركة صفين وكان روح يتولى قيادة قومه فيها[٧٨]، ويذهب محمد خريسات إلى القول أن تقريب معاوية لروح منه يعود لسببين هما: أولاً. الاستفادة

مـن قـدرات وذكـاء روح الـذي اشـتهر بالـذكاء. ثانيًـا. محاولة لإيجاد زعامة منافسة تحل مكان زعامة ناتل بـن قـيس لجـذام الـذي كـان كثـيرا مـا يعـارض سياسـة معاوية.(٧٩)

أرسـل معاويــة بــن أبي ســفيان روح بــن زنبــاع لمفاوضة أحد الملـوك في صلح جرى بينهما، فلـما قـدم روح عـلى الملـك تشـدد في الشرـط، فقـال لـه الملك: "ما هذا التشدد، وقد بلغنـي أنـك مـن صعاليك العرب، وأنك تريد الركوب إلى صاحبك فتستعير الدواب، وأنـك لسـت تبصرـ أمـرك ولا تقصـد لمـا فيـه الحـظ لـك، فأصب من هذا المال، وأعمل لنفسك، فأعطاه عشرـين الف دينار، ولين الشرط، فلـما قـدم عـلى معاويـة نظـر في الشرط فقـال: ويحـك مـا عملـت إلا لـه عـلي، ولقـد خنتني وغششتني، والله لأعاقبنك عقوبة أجعلك فيها نكالاً لمَنْ بعدك، خذاه، فقال روح، أنشـدك اللـه يـا أمـير المؤمنين أن تبدي خسيسة أنت رفعتها، أو تهدم مني ركنـا أنـت بنيتـه، أو تـنقض منـي مريـرة أنـت أبرمتهـا، وأرتشـمت بي عـدوا أنـت وقمتـه وكتبـه حلمـك عـلى جهلي، وعفوك على ذنبي، وإحسـانك عـلى إسـاءتي، فرق له معاوية وقـال: خلـوه: إذا اللـه سـنى حـل عقـد تيسرًا"(٨٠).

ويظهر أن معاوية قد عفـا عـن روح بعـد أن اتهمـه بالخيانـة وأمـر بقتلـه راجـع إلى مكانـة روح عنـد أهـل الشام، وخوفه من النتائج التي قد تترتب عـلى ذلـك(٨١)، أو لأنه كان متأكـدًا مـن ولائـه لـه وعـدم خطورتـه عـلى خلافته خاصـة أنـه زعـيم قبيلـة يمانيـة يحـرص معاويـة على ولائها له، كما أنها وغيرهـا مـن القبائـل اليمانيـة ركائز مهمة تعتمد عليها الدولة الأموية(٨٢).

كان روح بن زنباع ضمن الوفد الذين أرسلهم يزيد بن معاوية لمفاوضة عبد الله بن الزبير وإقناعـه بالعـدول عن رأيه الـذي سـيؤدي إلى الفتنـة، وكـان هـذا الوفـد يضم عشرة مـن رجـالات الشـام، ولكـن مساعـي الوفـد باءت بالفشل(٨٣).

خَاتِمَةٌ

أظهـــرت الدراســـة أن روح بـــن زنبـــاع الجـــذامي الفلسطيني كان شخصية عامـة لعبـت دورًا مهـمًا في مختلـف نـواحي الحيـاة، فمـن الناحيـة السياسـية، كـان قريبًا من معاويـة بـن أبي سـفيان، فتـولى لـه بعلبـك، كما أرسـله مفاوضًـا، وعـلى الـرغم مـن قيـام معاويـة بإبعاده عنه، إلا أنه كان له دورًا هامًا في تثبيت خلافـة ابنه يزيد بن معاوية، ومفاوضًا عنه لعبد الله بن الـزبير، ومشاركًا في جيشه الـذي أرسـله لقتـال أهـل المدينـة المنورة في موقعة الحرة، ومفاضًا عنه لعبـد اللـه بـن الزبير، وتولى المدينة لفترة قصيرة عمل خلالهـا عـلى حث الناس على التمسك بطاعـة يزيـد، كـما تـولى جنـد فلسطين بعد ذلك. أما بعـد وفـاة يزيـد، فقـد كـان أحـد الشخصيات التي كان لها اليد الطولى في إقناع مروان بن الحكم بترشـيح نفسـه للخلافـة، ودعـم هـذا الترشـح في دمشق أولاً، ثم في مؤتمر الجابية ثانيًا.

كـما ظـل روح بـن زنبـاع كـذلك مقربًـا ومرافقًـا لعبـد الملك بن مروان حتى لقبه البعض بأنه كان وزيره، حيـث شاركه في حربه في استرداد العراق، وكـان يقـدم لـه الاستشـارات والنصـائح في مختلـف المجـالات. كـما كـان روح بن زنباع خطيبًا مفوهًا، حتى عـد مـن خطبـاء العـرب المعـدودين، حيـث شـهد لـه بـذلك خطبـاء عصره، كـما تشهد على ذلك بعـض خطبـه التـي أوردتهـا المصـادر، وبخاصة خطبته في مؤتمر الجابية.

أمـا مـن الناحيـة الاجتماعيـة، فقـد كـان روح سـيدًا لقبيلته جذام، وله تأثير كبير فيهم كما اتضح من سياق الكثير مـن الأحـداث، كـما كـان كريمًـا بعكـس مـا أوردتـه بعض الروايـات عـن اتهامـه بالبخـل، والتـي يظهـر أنهـا جـاءت انعكـاس لعلاقتـه بزوجتـه هنـد بنـت الـنعمان بـن بشير الأنصاري. كما كان روح بـن زنبـاع معتـدًا بكرامتـه لا يقبل الضيم وهو ما اتضح من خلال موقفه ورده عـلى الوليد بن عبـد الملـك إثـر خـلاف بـين مزارعـي الطـرفين في مزرعتين متجاورتين لهما.

الهَوامِشُ:

(١) ابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي، **الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٦ – ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦م، الجزء الأول، ص ٣٠٠؛ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي. **تاريخ مدينة دمشق وذكر فضائلها وتسمية من حلها من الأماثل واجتاز بنواحيها من وارديها وأهلها**، دراسة وتحقيق محب الدين أبي سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥ هـ / ١٩٩٥م، ج ١٨، ص ٢٤٠؛ ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢م، ص ٤٠١.

(٢) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٠١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤١؛ الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان. **سير أعلام النبلاء**، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، حقق هذا الجزء مأمون الصاغرجي، بيروت، الطبعة الحادية عشرة، ١٤١٧ هـ/ ١٩٩٦م، الجزء الرابع، ص ٢٥١.

(٣) الرازي، أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر، **كتاب الجرح والتعديل**، عن النسخة المحفوظة في كوبريلي (تحت رقم ٢٧٨)، وعن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٨٩١)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن – الهند ١٣٧٢ هـ/ ١٩٥٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الثالث، ص ٤٩٤؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٥؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ص ٤٠١. الرازي، أبي محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر. **كتاب الجرح والتعديل**، عن النسخة المحفوظة في كوبريلي (تحت رقم ٢٧٨)، وعن النسخة المحفوظة بدار الكتب المصرية (تحت رقم ٨٩١)، الطبعة الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد الدكن – الهند ١٣٧٢ هـ = ١٩٥٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء الثالث، ص ٤٩٤؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٥؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ص ٤٠١.

(٤) ابن العماد، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، أشرف على تحقيقه وخرج أحاديثه عبد القادر الأرناؤوط، حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م، الجزء الأول، ص ٣٤٧؛ الذهبي، سير، ج ٤، ص ٢٥١.

(٥) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ١، ص ٣٠٠ – ٣٠١؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٩، ص ٢٤١؛ ابن الأثير، **أسد**، ص ٤٠١، الذهبي، **سير**، ج ٤، ص ٢٥١؛ الرازي، **الجرح والتعديل**، ج ٣، ص ٤٩٤؛ الصفدي، صلاح الدين بن أيبك، **الوفي بالوفيات**، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م، الجزء الرابع عشر، ص ١٠١.

(٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٧.

(٧) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٩، ص ٨١؛ الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج ١٤، ص ١٥٠؛ ابن حجر العسقلاني، **الإصابة**، ج ٢، ص ٦٨؛ أحمد بن حنبل، **المسند**، ج ٦، ص ٢٥١-٢٨٥؛ الأصبهاني، **معرفة الصحابة**، ج ٢، ص ٣٩٠؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، م ٢، ص ٢٦٠.

(٨) الذهبي، **العبر**، ج ١، ص ٩٨.

(٩) ابن حبان، **مشاهير**، ج ١، ص ١٤٤؛ ابن حبان، **الثقات**، ج ٤، ص ٢٣٧؛ ابن حمدون، **التذكرة**، ج ٨، ص ٢٤٩.

(١٠) الذهبي، **العبر**، ج ١، ص ٩٨.

(١١) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٥١. وانظر: الذهبي، **سير**، ج ٤، ص ٢٥٢؛ ابن العماد، **شذرات**، ج ١، ص ٣٤٧؛ ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل، **البداية والنهاية**، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه محمد حسان عبيد، مراجعة عبد القادر الأرناؤوط وبشار عواد معروف، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٣١ هـ-٢٠١٠م، الجزء التاسع، ص ٢٠٦.

(١٢) انظر: ابن عبد البر، **الإستيعاب**، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ٣٠٠.

(١٣) ناتل بن قيس الجذامي: من سادات جذام وزعمائها في بلاد الشام. انظر: ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج ٦١، ص ٣٧٥.

(١٤) ابن حزم، أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، **جمهرة انساب العرب**، تحقيق وتعليق محمد عبد السلام هارون، دار المعارف، مصر، الطبعة الخامسة، (ب، ت)، ص ٤٢١.

(١٥) عن منازل قبيلة جذام في بلاد الشام، انظر: فيصل، أزهار هادي، **روح بن زنباع وأثره في السياسة الأموية**، مجلة التربية والعلم، المجلد (١٥)، العدد (٢)، لسنة ٢٠٠٨، ص ٤٨.

(١٦) عن غزوة تبوك انظر: ابن سعد، محمد، **الطبقات الكبرى**، تحقيق سهيل كيالي، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ -١٩٩٤م، ج ١، ص ٤١٥.

(١٧) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١، ص ٤١٥.

(١٨) انظر: الواقدي، محمد بن عمر، **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونس، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٤٠٤ هـ -١٩٨٤م، الجزء الثاني، ص ٧٦٩.

(١٩) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١، ص ٤٣٦؛ الواقدي، **كتاب المغازي**، ج ٢، ٧٦٠؛ ابن هشام، **السيرة النبوية**، محمد حمد حسين بن الخطيب، علق عليها، خرج أحاديثها، وضع فهارسها عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٠ هـ -١٩٩٠م، الجزء الرابع، ص ١٣.

(٢٠) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١، ص ٢٣٩ – ٢٤٠؛ ابن هشام، **السيرة**، ج ٤، ٢٣٩.

(٢١) ابن سعد، **الطبقات**، ج ١، ص ٢٤٠؛ ابن هشام، **السيرة**، ج ٤، ٢٣٤ – ٢٣٥.

(٢٢) الصفدي، ابن أيبك، **الوافي بالوفيات**، ج ١٤، ص ١٠١.

(٢٣) عن ذلك انظر: الأزدي، محمد بن عبد الله، **فتوح الشام**، صححه وليم ناسليس الأمير لاندي، طبع في كلكتة سنة ١٨٥٤ المسيحية، ص ٣١ – ٣٥.

(٢٤) انظر: خريسات، محمد عبد القادر، **دور جذام في الحياة العامة في بلاد الشام منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط الدولة الأموية**، دراسات الجامعة الأردنية، مجلد ١٦، عدد ٣، ١٩٨٩م، ص ٨-١٩.

(٢٥) ابن بكار، الزبير، **الأخبار الموفقيات**، تحقيق سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٦ هـ -١٩٩٦م، ص ٤٩٨.

(٢٦) ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، تحقيق مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م، ج ١، ص ١٣٤. وانظر: الأصفهاني، أبو الفرج، **كتاب الأغاني**، تحقيق إحسان عباس، وإبراهيم السعافين، وبكر عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩ هـ -٢٠٠٨م، الجزء التاسع، ص ١٣٧.

(٢٧) ابن عبد ربه، **العقد**، ج ٧، ص ١٢٤ (المدائني)؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج ٩، ص ١٧٠؛ الصفدي، ابن أيبك، **الوافي بالوفيات**، ج ١٤، ص ١٠١.

(٢٨) ابن حزم، جمهرة، ص ٣٦٤؛ الأصفهاني، **الأغاني**، ج ٩، ١٧٠.

(٢٩) انظر: البلاذري، أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف**، الجزء السادس، نسب بنو أمية بن عبد شمس، حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧ هـ / ١٩٩٦م، ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

(٣٠) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٤، ص ٣١٩.

(٣١) الأصفهاني، **الأغاني**، ج ٩، ص ١٧٢؛ ابن حزم، **جمهرة**، ص ٣٦٤.

(٣٢) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص ٣٦٤؛ الصفدي، ابن أيبك، **الوافي بالوفيات**، ج ١٤، ص ١٠١.

(٣٣) انظر: الطبري، تاريخ، ج ٧، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

(٣٤) ابن عبد ربه، **العقد**، ج ٧، ص ١٢٣ – ١٢٤؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ص ٤٠١؛ المبرد، أبي العباس محمد بن يزيد، **الكامل في اللغة والأدب**، تحقيق عبد الحميد هنداوي، إصدار وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية (ب، ت)، المجلد الثالث، ص ١٣.

(٣٥) المسعودي، أبي الحسن علي بن الحسين، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٥م، الجزء الثالث، ص ١٠٢ – ١٠٤.

(٣٦) المبرد، **الكامل**، ج ٣، ص ١٣.

(٣٧) المبرد، **الكامل**، ج ٣، ص ١٣-١٤.

(٣٨) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٥٠ – ٢٥١

(٣٩) ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ص ٣٠١؛ المبرد، **الكامل**، ج٣، ص١٣؛ الجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة (ب، ت)، الجزء الثاني، ص٨١.

(٤٠) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨ – ٢٤٩. وانظر: ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ج ١، ٣٠١؛ ابن الأثير، **أسد الغابة**، ص ٤٠١ – ٤٠٢؛ ابن عبد البر، **الاستيعاب**، ص ٥٠٣.

(٤١) فيصل، أزهار هادي. **روح بن زنباع**، ص ٨٧ – ٨٨. عن موقف عمر من حرمان لخم وجذام من العطاء انظر: ابن عساكر، **تاريخ**، ج ٢، ص ١٦٩ – ١٧٠، حيث يذكر أن عمر قد خطب الناس هناك فقال: "أما بعد فإن هذا المال نقسمه على من أفاء الله عليه بالعدل، إلا من أفاء الله عليه بالعدل إلا هذين الحيين من لخم وجذام فلا حق لهم لله "، ثم تراجع عن ذلك بعد مجادلة له مع أبو حديدة الجذامي.

(٤٢) ابن عبد ربه، **العقد**، ج ٤، ص ١٤٥ – ١٤٦ (النص منه)؛ الذهبي، **سير**، ج ٤، ص ٢٥١؛ الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٣٤٦.

(٤٣) الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٣٥٨.

(٤٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٥، ص ٢٧٥؛ ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر. **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، الجزء الثاني، ص ٣٠.

(٤٥) البلاذري، أحمد بن يحيى، **أنساب الأشراف**، الجزء الخامس نسب بني عبد شمس بن عبد مناف، حققه وقدم له الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص ٧٤ – ٧٥ (المدائني). وانظر: الجاحظ، **البيان والتبيان**، ج ١، ص ٣٥٨.

(٤٦) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٧. وانظر: الجاحظ، **البيان والتبيان**، ج١، ص ٣٥٨.

(٤٧) البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٥، ص ٩٤.

(٤٨) تختلف المصادر في تحديد توقيت هذه الخطبة وحول إذا ما كانت بعد وفاة معاوية والبيعة لابنه يزيد، أم بعد وفاة يزيد بن معاوية. انظر: الجاحظ، **البيان والتبين**، ج ١، ص ٣٩٢؛ المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص ٧٣.

(٤٩) المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص ٧٣ – ٧٤.

(٥٠) الطبري، محمد بن جرير. **تاريخ الطبري، تاريخ الأمم والملوك**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م، ج ٣، ص ٣٨٢.

(٥١) للمزيد عن الخطاب السياسي الأموي انظر: طارق، **الخطاب**، ص ٢٣-٢٤.

(٥٢) انظر رأي عاق، نبيه، **تاريخ خلافة بني أمية**، ص ١٣٣-١٣٤.

(٥٣) انظر: العزام، طارق محمد، **روح بن زنباع الجذامي ودوره في دعم الخلافة الأموية**، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، المجلد ٨، العدد ٢ ج، ١٤٣٢ هـ/ ٢٠١١م، ص ٨٨٧.

(٥٤) البلاذي، **أنساب الأشراف**، ج ٦، ص ٢٦٧.

(٥٥) العزام، طارق، **روح بن زنباع**، ص ٨٨٧-٨٨٨؛ وانظر: الجهشياري، **الوزراء والكتاب**، ص ٣٥؛ القضاعي، محمد **تاريخ القضاعي**، ص ١٠٦؛ ابن الجوزي، **المنتظم**، ج ٦، ص ٢٥١؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج ٩، ص ٨٣؛ صالح العلي، **دراسات في الإدارة**، ص ٢٥٨؛ بطاينه، **تاريخ الأمويين**، ص ١٩٤.

(٥٦) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٩٤.

(٥٧) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٩٤.

(٥٨) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج٣، ص٣٦٠؛ البلاذري، **انساب الأشراف**، ج ٥، ص ٣٤٩ – ٣٥٠.

(٥٩) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج ٣، ص٣٧٩؛ ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨؛ البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٦، ص ٢٦٤.

(٦٠) الصفدي، ابن أيبك، **الوافي بالوفيات**، ج ١٤، ص ١٠١.

(٦١) ابن العماد، **شذرات الذهب**، ج ١، ص ٣٤٧.

(٦٢) الذهبي، **سير**، ج ٤، ٢٥١.

(٦٣) اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن وهب بن واضح. **تاريخ اليعقوبي**، تحقيق عبد الله مير مهنا، شركة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م، المجلد الثاني، ص ٢٠٢.

(٦٤) عبد الله بن الزبير: والده الزبير بن العوام، خرج على يزيد بن معاوية، وبويع بالخلافة بعد استشهاد الحسين بن علي في كربلاء، وانتهت ثورته في خلافة عبد الملك بن مروان سنة ٧٣ هـ. انظر: الطبري، **تاريخ الطبري**، ج ٣، ص ٣٤١ – ٣٤٨، ٣٦٠ – ٣٦٤، ٥٣٨ – ٥٤١؛ الدينوري، **الإمامة والسياسة**، ق ٢، ص ٢٣ – ٢٥؛ العصفري، خليفة بن خياط. **تاريخ خليفة بن خياط**، رواية بقي بن خالد، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٣ هـ/ ١٤١٤م، ص ٢٠٦.

(٦٥) الطبري، **تاريخ الطبري**، ج ٣، ص ٣٧٨، ٣٨٤؛ المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص ٧٥.

(٦٦) الدينوري، أبي محمد عبد الله بن مسلم. **الامامة والسياسة**، تحقيق طه الزيني، مؤسسة البابي الحلبي (ب، ت)، المجلد الثاني، ص ١٢ – ١٣. انظر: ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨.

(٦٧) ابن أعثم، الفتوح، م ٣، ص ١٩٢؛ خريسات، دو جذام، ص ٢٢.

(٦٨) الدينوري، **الامامة والسياسة**، ق ٢، ص ١٢ – ١٣. وانظر: ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨.

(٦٩) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٢، ص ١٤٥.

(٧٠) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨.

(٧١) ابن عساكر، **تاريخ**، ج ١٨، ص ٢٤٨.

(٧٢) ابن سعد، **الطبقات**، ج ٥، ص ٨٠.

(٧٣) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج١، ص ٢٠.

(٧٤) ابن عبد ربه، **العقد الفريد**، ج ٥، ص٢٧٥.

(٧٥) المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص٩٤.

(٧٦) المسعودي، **مروج الذهب**، ج ٣، ص٩٤ - ٩٥.

(٧٧) الطبري، ج ٣، ص ٦٦٤ (الواقدي).

(٧٨) ابن العديم، **بغية الطلب**، ج ٨، ص ٣٧١.

(٧٩) انظر: خريسات، **دور جذام**، ص ١٩.

(٨٠) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص ٧٤ - ٧٥. وانظر: الجاحظ، **البيان والتبيين**، ج ١، ص ٣٥٨.

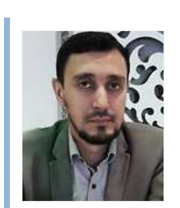
(٨١) انظر: خريسات، **دور جذام**، ص ٢٠.

(٨٢) انظر: العزام، طارق محمد، **روح بن زنباع**، ص ٨٨٣.

(٨٣) البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج ٥، ص٣٢٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

من عناية نساء الغرب الإسلامي بالقرآن الكريم
ترجمات مختصرة



عبد الحكيم خلفي
أستاذ مادة التربية الإسلامية
باحث في الدراسات الإسلامية
إقليم الناظور – المغرب

مُلَخّص

لقد كانت المرأة في الغرب الإسلامي -وما زالت- صاحبة ارتباط روحي وثيق بكلام الله عز وجل، وهو ارتباط يكشف لنا عن بعض ملامح المرأة المسلمة في هذا القطر الإسلامي، كما يعكس لنا مدى اهتمامها وانشغالها بدينها وكلام ربها منذ القديم، وقد اتسم هذا الارتباط الروحي بطابع عملي فاعل في المحيط الذي تعيش فيه، فلم ينحصر دورها في الأخذ والتلقي فقط، بل جاوزته إلى الأخذ بزمام المبادرة، وهذا من خلال ما قدمته من إسهامات متنوعة، وما بذلته من جهود حثيثة، انصبت كلها نحو خدمة القرآن الكريم؛ إما تحفيظًا، أو تدريسًا، أو نسخًا، أو تحبيسًا، بل ونجد أن هذه الجهود قد شملت أيضًا ما يرتبط بالقرآن الكريم من علوم. ومن أجل تسليط الضوء على الدور الذي قامت به المرأة لخدمة كتاب الله عز وجل، يأتي هذا البحث ليجمع لنا ثلة من نساء الغرب الإسلامي ممَنْ اشتهرن بعنايتهن بكلام الله تعالى، رغم قلة المؤلفات التي عنت بترجمة أعلام النساء عمومًا، وشح المعلومات المتعلقة بعناية المرأة بالقرآن في الغرب الإسلامي على وجه الخصوص، فلم يكن ذلك ليمنعنا من البحث والتنقيب، معتمدين على ما حفظته لنا كتب التراجم والمعاجم والسير وغيرها، ليجتمع لدينا ترجمة أكثر من أربعين امرأة، سجلن أسماءهن في سجل التاريخ، وسنورد ترجمات مختصرة نبرز من خلالها ما أشرنا إليه من خدمتهن للقرآن الكريم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٤ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ يونيو ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

خدمة القرآن؛ حافظات للقرآن؛ نسخ المصحف؛ القراءة بالسبع؛ تحبيس المصاحف

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057052

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

عبد الحكيم خلفي. "من عناية نساء الغرب الإسلامي بالقرآن الكريم: ترجمات مختصرة".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة-العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ١٥٠ – ١٥٨.

مُقدِّمَة

عـرف الغـرب الإسـلامي منـذ دخـول الإسـلام إلى ربوعه عناية أهله واهتمامهم البالغ بالقرآن الكريم، وكانت المرأة – قديمًا وحديثًا- في طليعة من أسدى خدمات جليلة لكتاب الله عز وجل، من خلال مساهمتها في حفظه وتحفيظه، سواء برواية ورش أو بالسبع، وقد اشتهر عدد من النساء بكتابة المصاحف، مع إتقان في النسخ والضبط والتزويق، فيذكر لنا صاحب "المعجب" أنه كان بالرَّبض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة، كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي؛ هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها؟!.[1] أما تحبيس المصاحف فكان سنة متبعة عندهن، سواء تحبيس ما كتبن بأيديهن، أو تحبيس ما أمرن الناسخين بكتابته ونسخه، أو التحبيس على حملة القرآن كأئمة المساجد أو الطلبة والحزابين من أجل

قراءة حزب القرآن في الصباح والمساء، أو من أجل ختمه كل يوم.[2]

وقد وُجد من النساء من بلغ بها الجد والاجتهاد والحرص على حفظ القرآن بالقراءات، إلى أن تشد الرحال للأخذ عن مشاهير المقرئين، وأن تجود القرآن بالسبع وتقرئ وتجيز بخطها، وأن تدرس القرآن بديار الملوك، إضافة إلى خوض بعضهن غمار علوم القرآن، والتفسير، وأسباب النزول، وقصص القرآن وأخباره. ولابد من الإشارة هنا إلى أن هذا الاهتمام اللافت من نساء الغرب الإسلامي بالقرآن الكريم راجع إلى الأهمية التي أعطيت لتعليم البنات منذ الصغر، سواء في البيوت، أو في مدارس خاصة بالبنات؛ فنجد -على سبيل المثال- في كل حي من أحياء فاس ما يعرف باسم دار الفقيهة، التي تشرف على إدارتها نساء أخذن من أعلام القرويين،[3] وكان يخصص للبنات أيضًا معلم يأتي من أجل تعليمهن وتحفيظهن القرآن الكريم، كما فعل والد ابن قنفذ القسنطيني مع بناته، ولم تفارقه إحداهن حتى ختمت وكررت ثلاث مرات.[4]

ولم تخل القصور السلطانية من مكان خاص للبنات يتعلمن فيه القرآن الكريم، فكان يُعينَّ فيها من يقرئ بنات القصر،[5] والعجيب أنه لم يكن هذا التعليم حكرًا على الأميرات، بل شمل أيضًا كل من يوجد بالقصر من الرقيق، فيذكر ابن زيدان أنه من النادر أن تجد مَنْ لا تتقن الكتابة والقراءة قبل سن السابعة، ووُجد من كانت تقرأ برواية البصري، أما من يحفظ رواية ورش فكثير.[6] ومن أجل التعرف أكثر على صور عناية نساء الغرب الإسلامي بالقرآن الكريم، نورد هذه الترجمات المختصرة، مرتبة تاريخيًا حسب سنة الوفاة.

١-فضل الكاتبة: (ت. بعد ٢٩٥ ه):[7]

هي الحافظة الكاتبة فضل، مولاة أبي أيوب أحمد بن محمد، كانت متقنة للكتابة والنسخ والتزويق، كتبت مصحفًا جليلاً بخطها الجميل سنة ٢٩٥ ه، وهو المحفوظ بمكتبة جامع عقبة ابن نافع بالقيروان، وقد أتقنت رسمه وتزويقه وتهذيبه، وضم ورقته الأخيرة نص توقيفها بخطها، فجاء فيها: (بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما حبست فضل مولاة أبي أيوب أحمد بن محمد رحمه الله طلبا لثواب الله والدار الآخرة. رحم الله من قرأ فيها (أي الختمة) ودعا لصاحبتها. وكتبت فضل بخطها في المحرم سنة خمس وتسعين ومائتين). توفيت رحمها الله بعد ٢٩٥ ه.

٢-البهاء بنت الأمير عبد الرحمن بن الحكم (ت. ٣٠٥ ه):[8]

هي الزاهدة العابدة المتبتلة الخيرة، البهاء بنتُ الأمير عبد الرّحمن بن الحَكَم بن هشام،[9] وهي التي عرف عنها اهتمامها بكتابة المصاحف وتحبيسها، ويُنسب إليها المسجد الذي بربَض الرُّصَافة. توفيت رحمها الله في رجب سنة ٣٠٥ ه.

٣-أم ملال الصنهاجية (ت. ٤١٤ ه):[10]

هي الأميرة أم ملال بنت منصور بن يوسف الصنهاجي[11] صاحب إفريقية، شاركت أخاها نصير الدولة باديس[12] في تدبير أمور الدولة بعد وفاة والدهما، إلى أن مات وخلفه ابنه المعز[13] وهو لم يبلغ التاسعة من عمره، لتقام وصية عليه إلى أن يبلغ سن الرشد، فكانت بذلك أول امرأة مسلمة تحكم إفريقية إلى أن توفيت. ومن مآثر هذه السيدة تحبيسها لعدة كتب على جامع القيروان كان ضمنها مصحف وُصف أنه كان في نهاية الجمال من حيث تنسيق الخط وتزويق رقوقه البديعة، وجاء في ورقة تحبيسها: (حبست السيدة الجليلة أم ملال وفقها الله هذا المصحف الجامع لكتاب الله العظيم على جامع مدينة القيروان إفريقية لوجه الله الكريم وتعرضا لجزيل ثوابه، وكان هذا الحبس على يدي القاضي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن هاشم). توفيت رحمها الله ليلة الخميس منسلخ رجب سنة ٤١٤ ه.

٤-فاطمة الحاضنة (ت. ٤٢٠ ه):[14]

هي فاطمة، حاضنة باديس بن المنصور الصنهاجي، أصلها من بلاد النصارى، اقتناها الأمير المنصور الصنهاجي وخصها بحضانة ابنه لما وجد فيها من رجاحة وحسن تدبير، وقد عرفت بعد إسلامها بصدق السريرة والأمانة والعفة والورع وفعل البر الخير، من ذلك وقفها لكتب ومؤلفات نفيسة ونادرة على جامع عقبة بالقيروان، منها عدة مصاحف كتبت بالذهب المذاب بخط كوفي عجيب، منها مصحف شريف متناهي الحجم مرسوم بآخره نص التحبيس وصورته: (بسم الله الرحمن الرحيم قالت فاطمة الحاضنة، حاضنة أبي مناد باديس، حبست هذا المصحف بجامع مدينة القيروان، رجاء ثواب الله وابتغاء مرضاته على يد القاضي عبد الرحمن بن القاضي محمد بن عبد الله بن هاشم نضر الله وجهه، آمين وذلك في شهر رمضان من سنة عشر وأربعمائة، فرحم الله من قرأ ودعا لهم ولجماعة المسلمين بالرحمة والمغفرة. وصلى الله على النبي محمد وعلى آله وسلم تسليما).

وبالوجه الثاني من الورقة ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم. كتب هذا المصحف وشكله ورسمه وذهبه وجلده علي بن أحمد الوراق للحاضنة الجليلة حفظها الله على يدي درة الكاتبة سلمها الله. فرحم الله من قرأ فيه ودعا لهما بالرحمة والمغفرة والنجاة من عذاب النار. آمين رب العالمين). وقد وضع المصحف في صندوق من الخشب الثمين مستطيل الشكل كتب عليه: (حبس على جامع مدينة القيروان مما أمرت به فاطمة حاضنة باديس، في سنة عشرة وأربعمائة ابتغاء وجه الله الكريم وطلب مرضاته) توفيت رحمها الله في حدود سنة ٤٢٠ هـ.

٥-ابنة فائز القرطبية (ت. ٤٤٦ هـ):[١٥]

هي العالمة الفاضلة، الحاجة الحافظة للسبع ابنة فائز القرطبية، أخذت عن أبيها[١٦] علم التفسير واللغة والعربية والشعر، وعن زوجها أبي عبد الله بن عتاب[١٧] الفقه والرقائق، وأخذت عن المقرئ أبي عمرو الداني[١٨] بعدما رحلت إليه فألفته مريضا، وحضرت جنازته، وسألت عن أصحابه فذكر لها أبو داوود ابن نجاح،[١٩] فرحلت إلى بلنسية في طلبه، وتلت عليه القرآن بالسبع، توفيت رحمها الله بمصر وهي عائدة من حجها سنة ٤٤٦ هـ.

٦-فاطمة بنت عبد الرحمن الوشقي (ت. بعد ٤٩٠ هـ):[٢٠]

هي فاطمة بنت عبد الرحمن بن محمد بن حيوة الوشقي[٢١] مقرئ سرقسطة، طلبت العلم وسمعت من أبي داود المقرئ بداية في سنة ٤٩٠ هـ.

٧-أم العلو الصنهاجية (ت. ق ٥ هـ):[٢٢]

هي الأميرة أم العلو الصنهاجية، بنت نصير الدولة باديس وأخت المعز، تربت في كفالة عمتها أم ملال، من آثارها أمرها القاضي عبد الرحمن بن محمد بن هاشم قاضي المعز بن باديس بكتابة مصحف وتوقيفه على مسجد من مساجد القيروان، وكتب نص التحبيس في ورقة رق توجد بمكتبة جامع عقبة العتيقة بالقيروان، ونص ما كُتب: (مما أمرت بتحبيسه السيدة أم العلو حرسها الله على مسجد أبي عبد المطلب بباب سلم ابتغاء ثواب الله العظيم وكفى بالله شهيدا).

٨-أم شريح الإشبيلية (ت. ق ٥ هـ):[٢٣]

هي المقرئة الإشبيلية، أم شيخ المقرئين شريح بن محمد بن شريح،[٢٤] أخذت عن زوجها أبي عبد الله بن شريح،[٢٥] وكانت تقرئ خلف ستر بحرف نافع، وقرأ عليها عياض بن بقي في صغره،[٢٦] فكان يفخر بذلك ويذاكر به ابنها شريحا ويقول: قرأت على أبيك وأمك فلي مزية على أصحابك، وماتةٌ لا يمتّ بمثلها أحد إليك فيقر له الشيخ ويصدقه.

٩-حواء بنت إبراهيم (ت. ق ٦ هـ):[٢٧]

هي حواء بنت إبراهيم بن تيفلويت، كانت فاضلة كريمة معروفة بالخير والصلاح كما أختها زينب زوج تميم بن يوسف بن تاشفين،[٢٨] وقد عرفت واشتهرت بقراءة القرآن ومحاضرة الأدباء.

١٠-ورقاء بنت ينتان الحاجة (ت. بعد ٥٤٠ هـ):[٢٩]

هي الحاجة ورقاء بنت ينتان الطليطلية أصلا، الفاسية سكنا، كانت أديبة شاعرة صالحة حافظة للقرآن الكريم، بارعة الخط، وتوفيت بعد سنة ٥٤٠ هـ.

١١-فاطمة بنت حسين الصدفي (ت. بعد ٥٩٠ هـ):[٣٠]

هي فاطمة بنت أبي علي حسين بن محمد الصدفي المرسي،[٣١] عرفت بالصلاح والزهد، ومطالعة الكتب وحفظ الأحاديث وحسن الخط، كانت تحفظ القرآن وتقوم عليه، توفيت رحمها الله بعد ٥٩٠ هـ، وقد نيفت على الثمانين.

١٢-أسماء بنت سليمان البلنسية (ت. ق ٦ هـ):[٣٢]

هي أسماء بنت سليمان بن أبي القاسم نجاح البلنسي، عالم القراءات ورواياتها وطرقها، وقد أخذت عن أبيها وشاركته في بعض شيوخه، وهي التي زوجها من أحمد بن محرز[٣٣] الذي كان يقرأ عليه، عندما أعجبه حسن سمته.

١٣-فاطمة بنت عبد الرحمن الشراط القرطبية (ت. ٦١٣ هـ):[٣٤]

هي أم الفتح فاطمة بنت أبي القاسم عبد الرحمن الشراط[٣٥] القرطبية. تلت على أبيها القرآن بحرف نافع وعلى أبي عبد الله الأندرشي،[٣٦] وغيرهما، وتلا عليها ابنها أبو القاسم ابن الطيلسان[٣٧] القرآن بقراءة ورش وما عرضت على أبيها من كتب وأجازت له بخطها، توفيت رحمها الله سنة ٦١٣ هـ.

١٤-أم العز بنت محمد الدانية (ت. ٦١٦ ه):[٣٨]

هي بنت محمد بن علي بن أبي غالب العبدري، تكنى أم العز من دانية، روت عن أبيها وقرأت عليه صحيح البخاري مرتين، كما روت عن زوجها أبي الحسن بن الزبير وغيرهما، كانت حافظة لكتاب الله، محسنة ومجودة له بالسبع، توفيت رحمها الله سنة ٦١٦ هـ.

١٥-أم معفر (ت. ق ٧ هـ):[٣٩]

هي أم معفر إحدى حرم الأمير محمد بن سعد،[٤٠] أخذت عنها قراءة ورش أم العز بنت أحمد البلنسية.

١٦-أم العز بنت أحمد البلنسية (ت. ٦٣٦ هـ):[٤١]

هي بنت أحمد بن علي بن محمد بن علي بن هذيل،[٤٢] تكنى أم العز من بلنسية، أخذت قراءة ورش

عـن أم معفـر، وعرفـت ببراعتهـا في حفـظ الأشـعار والتمثل بها، توفيت رحمها الله بشاطبة سنة ٦٣٦ هـ.

١٧-أم العلا سيدة بنت عبد الغني العبدرية (ت.٦٤٧ ه):[٤٣]

هي العالمة الحافظة، سيدة بنت عبد الغني بن علي العبدري الغرناطي، تكنى أم العلا، توفي أبوها وهي صغيرة، فنشأت بمرسية وتعلمت القرآن وبرعت في ذلك، وعلمته في ديار الملوك، وانتقلت بين غرناطة وفاس وتونس، وعلمت بقصرها، وعُرفت بجودة الخط، ونسخت إحياء علوم الدين للغزالي من أصله وغيره من الكتب، كما عرفت بأعمال الخير والبر، فكانت تتبرع بكل تتقاضاه من أجر تعليمها لفقراء أسارى المسلمين، وكانت مداومة على تلاوة القرآن والأدعية والأذكار، إلى أن اقعدت بسبب زمانة أصابتها ثلاث سنين، وخلفتها على التعليم بنتان لها كبرى وصغرى، توفيت رحمها الله في محرم سنة ٦٤٧ هـ، ودفنت بمقبرة المصلى خارج تونس.

١٨-فاطمة بنت عتيق (ت. نحو ٦٥٠ هـ):[٤٤]

هي فاطمة بنت عتيق بن علي بن خلف الأموي ابن قنترال المقرئ،[٤٥] المالقية أصلا المراكشية سكنا ووفاة، عرفت بحفظها لكتاب الله، وكثرة تلاوتها له، كما عرفت بالمواظبة على فعل الخير والبر، توفيت رحمها الله نحو ٦٥٠ هـ.

١٩-الغسانية (ت. بعد ٦٧٠ هـ):[٤٦]

هي الغسانية زوجة المقرئ عتيق بن محمد بن علي الغساني،[٤٧] نزيل مراكش وأغمات، أخذت عن زوجها القرآن بالسبع وأتقنتها، حتى صارت أستاذة بالقراءات السبع، توفيت رحمها الله بعد ٦٧٠ هـ.

٢٠-خديجة بنت هارون الدكالية (ت. ٦٩٥ هـ):[٤٨]

هي القارئة خديجة بنت هارون بن عبد الله الدكالية، كانت ولادتها سنة ٦٤٠ هـ، حفظت القرآن وقرأته بالروايات السبع، وحفظت الشاطبية، حجت بيت الله ثلاث عشرة حجة ماشية، وحجتان راكبة، توفيت رحمها الله ليلة الاثنين خامس محرم سنة ٦٩٥ هـ.

٢١-رحمة بنت الجنان (ق ٩ هـ):[٤٩]

هـي رحمـة بنـت الجنـان، زوجـة المحـدث المجـود للقرآن أبي عبد الله محمد بن عبد العزيز المعروف بالحاج عزوز الصنهاجي المكناسي،[٥٠] ووالدة ابن غازي المكناسي صاحب الروض الهتون، الذي قال عنها: كانت رحمها الله تعالى ملازمة لدرس القرآن العزيز في المصحف، وكان علمها كثيرا من تفسير قصصه وأخباره فنفعتنا بذلك في الصغر غاية. وقد أخذت ذلك عن زوجها ابن عزوز قبل وفاته، وقبل أن تتزوج بوالد الإمام محمد بن غازي.

٢٢-مسعودة بنت أحمد الوزكيتية (ت. ١٠٠٠ هـ):[٥١]

هـي الأميرة مسعودة بنت أحمد بن عبد الله الوزكيتية، أم السلطان أحمد المنصور السعدي الذهبي (ت ١٠١٢ هـ)، عرفت بالسعي في أبواب الخير والبر، فاعتنت بإصلاح الجسور والطرق وتشييد القناطر وبناء المساجد، كالمسجد الجامع باب دكالة بمراكش الذي بنته سنة ٩٩٥ هـ، وقد أوقفت عليه أوقافا عظيمة، ومن بين الفئات التي استفادت من خراج هذه الأوقاف: قراء الجامع وحزابيه، إضافة إلى أئمته وفقهائه ومؤذنيه والقائمين بسائر وظائفه. توفيت رحمها الله يوم الثلاثاء ٢٧ من محرم سنة ١٠٠٠ هـ.

٢٣-خناثة بنت بكار المغافري (١١٥٩ هـ):[٥٢]

هـي الفقيهة العالمة الدينة خناثة بنت بكار بن علي بن عبد الله المغافري، زوج السلطان إسماعيل،[٥٣] سلطان المغرب. كانت تحفظ القرآن وتكتب لوحها بيدها وتبعثه للفقيه المقرئ محمد المكي الدكالي قصد تصحيحه، حجت عام ١١٤٣ هـ، في إمارة ولدها السلطان مولاي عبد الله،[٥٤] ولم تنزل بلدا في طريق حجها إلا واستقبلوها بالحفاوة والتكريم، وكانت سخية في بذل العطايا، وأوقفت بمكة أوقافا كثيرة، من بينها دار اشترتها بما يقرب من ألف مثقال ذهب مطبوعة، وقامت بتحبيسها على طلبة يختمون كل يوم ختمة من القرآن، وعلى من يدرس صحيح أبي عبد الله البخاري وعينت ناظرا على الدار المذكورة، توفيت رحمها الله بفاس الجديد في جمادى الأولى عام ١١٥٩ هـ، ودفنت بروضة الأشراف.

٢٤-لالة غيلانة التطوانية (ت.١١٨٩ هـ):[٥٥]

هـي آمنة بنت الفقيه الصالح محمد غيلان التطواني، عالمة ومفتية نساء تطوان، نسخت كتاب الاكتفا للكلاعي، وقد علمها والدها القرآن الكريم والحديث والعربية والفقه، توفيت رحمها الله سنة ١١٨٩ هـ.

٢٥-فاطمة بنت الحاج الطاهر الدهري (ق ١٢ هـ):[٥٦]

هي فاطمة بنت الحاج الطاهر الدهري الفاسي، حبست جلسة حانوت[٥٧] على إمام محراب ضريح أحمد الشاوي الذي يقرأ القرآن العظيم بكرسي مسجد الفلاحين فيما بين المغرب والعشاء، ومنه إلى الأئمة وقتئذ الفقيه محمد بن الحاج محمد الدبيب الأندلسي، والإمام به أيضا الفقيه الشاوي بن السيد العربي ابن حيون، بتاريخ ١٦ صفر من عام ١١٤٢ هـ.

٢٦-ريمة بنت مزيان الحسناوي (ت. ق ١٣ هـ):[٥٨]

هي ريمة بنت مزيان الحسناوي الفاسي، حبست جلسة حانوت بالديوان على من يقرأ حزب القرآن العظيم بالزاوية صباحا ومساء.

٢٧-فاطمة بنت غانم الحجوي (ت. بعد ١٢١١ هـ):[٥٩]

هي فاطمة بنت غانم الحجوي المختاري الفاسي، حبست جميع النصف من الدار الكائنة بدرب زندب، من حومة الأقواس، عدوة فاس الأندلس، على الطلبة الحزابين الذين يقرؤون الحزب من القرآن العظيم بالمسجد الجديد المسمى بمسجد الرصيف، بتاريخ ١٢١١هـ.

٢٨-عائشة بنت المختار (ت. ١٢٢٤ هـ):[٦٠]

عائشة بنت المختار ابن الأمين الأزرق، الصالحة العالمة، ولدت آخر عام ١١٦٠ هـ، في السنة المعروفة بالبطحاء، قرأت القرآن الكريم على أبي عبد الله محمد المكي الدكالي[٦١] وحفظته عن ظهر قلب، وتزوجت من الشيخ المختار بن أبي بكر الكنتي، عام ١١٧٠ هـ، وختمت مختصر خليل في اليوم الذي ختمه زوجها، وكانت تدرسه للنساء، وزوجها يدرسه للرجال، وقد ألف ولدهما أبو عبد الله محمد في ترجمتهما كتابه: الطريفة والتالدة في مناقب الشيخ الوالد والشيخة الوالدة، وماتت يوم ثامن ذي الحجة ١٢٢٤هـ.

٢٩-منانة بنت الأمير علي باي (ت. ١٢٣٨ ه):[٦٢]

هي منانة بنت الأمير علي باي بن حسين بن علي الحسني،[٦٣] وزوجة الأمير محمود بن محمد بن الرشيد باي،[٦٤] كانت من فواضل النساء، نشأت مع أخيها في قصر باردو وتعلمت فيه على يد العالم حمودة باكير،[٦٥] وحفظت القرآن الكريم، وأخذت عنه الفقه واللغة والحساب، وكانت مهتمة بمستقبل عائلتها المالكة، وقد نصحتهم نصائح عالية تتعلق بسياسة مملكتهم، توفيت رحمها الله ليلة الثلاثاء في ٣ ربيع الثاني سنة ١٢٣٨ هـ.

٣٠-طاهرة بنت محمد بن جلال (ق ١٣ هـ):[٦٦]

هي طاهرة بنت محمد بن جلال الفاسي، من النساء اللاتي خدمن القرآن بتحبيس الأصول على حملة القرآن من أئمة المساجد، وقد أوصت بثلثها من أصل وغيره، وجاء في رسم الوصية: "يكون نصفه حبسا على إمام مسجد تخربيشت. الكائن بحومة العيون، ونصفه الآخر يشترى به أصل تستغله حفيدتها فضيلة بنت قاسم المشاط مدة حياتها، وبعد وفاتها يرجع حبسا لإمام المسجد المذكور، يكون حبسا مؤبدا ووقفا مخلدا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هو خير الوارثين، ومن بدل أو غير فالله حسيبه" وتم تأريخه يوم ٨ رجب عام ١٢٢٢ هـ.

٣١-عائشة ابنة محمد البوزيدي (ق ١٣ هـ):[٦٧]

هي عائشة بنت محمد البوزيدي الشهير بابن المجذوب، وابنة طاهرة بنت محمد بن جلال المذكورة آنفا، قامت بتحبيس واجبها المنجز بالإرث من أمها شائعا في كافة الحانوت الكائنة بالقبابين، على الطلبة الذين يقرؤون الحزب صباحا ومساء بمسجد تخربيشت، بتاريخ ١٠ ربيع الثاني ١٢٢٤ هـ.

٣٢-حفصة بنت السلطان عبد الرحمن بن هشام (ق ١٣ هـ):[٦٨]

هي حفصة بنت السلطان أبي زيد عبد الرحمن بن هشام،[٦٩] من النساء الحافظات للقرآن الكريم برواية ورش، كما أنها كانت تقرأ برواية البصري.

٣٣-رقية اليعقوبية الشنقيطية (ت. بداية ق ١٤ هـ): [٧٠]

هي رقية بنت الحاج ابن العايش اليعقوبية الشنقيطية، اشتهرت بمعرفتها بتفسير القرآن الكريم، وأسباب النزول، وعلوم القرآن، توفيت رحمها الله بداية القرن الرابع عشر.

٣٤-الغالية بنت إبراهيم السباعية (ت. ١٣٠٥ هـ): [٧١]

هي الغالية بنت إبراهيم السباعية، أم عبد الله الجراري،[٧٢] عرفت بالعلم والحفظ والصلاح، تعلمت القرآن وحفظته وأتقنت حفظه وعلمته، وحفظت المختصر الخليلي، وألفية ابن مالك وغيرهما من المتون، كما كان لها باع في العربية والفقه والفرائض وغيرها من العلوم، أخذت عن والدها في الحوض بالصحراء، وأخذ عنها ابنها عبد الله القرآن أولا، قبل أن ينتقل إلى هشتوكة ليأخذ حرف قالون والمكي والبصري، توفيت رحمها الله سنة ١٣٠٥ هـ.

٣٥-صفية بنت المختار (ت. ١٣٢٣ هـ):[٧٣]

هي الأستاذة صفية بنت المختار، كانت عارفة بتجويد القرآن وتفسيره، وقد انتصبت للتدريس، توفيت رحمها الله سنة ١٣٢٣ هـ.

٣٦-خديجة الحميدية الفاسية (ت. نحو ١٣٢٣ هـ):[٧٤]

هي خديجة بنت أحمد بن عزوز الحميدي الفاسي، الشيخة الصالحة الحافظة المجودة المقرئة للقرآن الكريم، قرأت بعدة قراءات كقراءة ورش وقالون ومكي، وكانت ذات اطلاع ومعرفة بوجوه قراءة هذه الروايات وأحكامها، وملازمة لتعليم كتاب الله، قرأت القرآن الكريم برواياته على الإمام أبي علي الحسن جنبور،[٧٥] وتلقى عنها عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الكتاني[٧٦] القرآن برواياته الثلاثة وأجازته بذلك سنة

١٣٢٣ هـ، وكانت وفاتها رحمها الله بعد ذلك بيسير بمدينة فاس.

٣٧-رحمة بنت عبد الله التكناتيني (ت. نحو ١٣٣٥ هـ):[٧٧]

هي رحمة بنت عبد الله بن محمد التكناتيني، وصفها المختار السوسي بالفقيهة المرشدة الحافظة العابدة، وهي زوج إبراهيم بن محمد الجيشتيمي،[٧٨] من القراء البصريين المشاهير بالتخريج في القرآن الكريم والعلم، توفيت نحو ١٣٣٥ هـ.

٣٨-رقية بنت محمد الأدوزية (ت. ١٣٤٢ هـ):[٧٩]

هي رقية بنت محمد بن العربي بن إبراهيم، أم محمد المختار السوسي صاحب "المعسول"، ولدت نحو ١٣٠١ هـ، وقد كان لها الأثر البالغ في مسار ابنها كما يحكي بنفسه عنها في كتابه المذكور، أتقنت حفظ القرآن الكريم، وختمت سبع مرات وجودت غاية التجويد، وكان والدها قد هَمّ أن يدفعها إلى ميدان العلوم، لكن زواجها حال دون ذلك، ويوم زُفت من دارها إلى دار زوجها، ركبت البغلة ولوحتها بين يديها، غير أن زواجها لم يمنعها وهي في بيت زوجها أن تكون أول معلمة ومهذبة للبنات من النساء في "إلغ"، فبها انتشر ما انتشر من ذلك فيهن، توفيت رحمها الله سنة ١٣٤٢ هـ.

٣٩-عائشة بنت الطيب (ت. بعد ١٣٤٤ هـ):[٨٠]

هي الفقيهة عائشة بنت الطيب، أتقنت مترجم المختصر للهوزالي، وكانت تملي على زوجها ما يتوقف فيه، وحفظت بعض القرآن وتصدرت مجالس النساء، تملي عليهن وتعلمهن وتعظهن، ولم يكن لها نظير في سوس في عصرها، توفيت رحمها الله بعد ١٣٤٤ هـ.

٤٠-السيدة ماحا الصحراوية (ت. نحو ١٣٥٦ ه):[٨١]

هي العالمة المحصلة المشاركة السيدة ماحا، معلمة مريم بنت محمد سالم –الآتية الترجمة- ومربيتها، والتي أخذت عنها التلاوة والتهجد والسمت الحسن، قبل أن تزوجها لزوجها، انتقلت السيدة ماحا مع زوجها من "الغ" إلى تادلة أواسط سنة ١٣٥٥ هـ، وكانت تعلم هناك بنات إبراهيم بن البصير.

٤١-مريم بنت محمد سالم الصحراوية (ت. نحو ١٣٥٧ ه):[٨٢]

هي مريم بنت محمد سالم بن عبد الله بن احمادو، من قبيلة سالم المشهورين بالعلم، ولدت نحو ١٣١٦ هـ، وسكنت مع زوجها في "الغ" بعد ١٣٥٠ هـ، فكانت تعلم بنات آل الحاج صالح في دار الأستاذ سيدي المدني بن علي، وكانت متقنة لحفظ القرآن، ولها يد حسنة في العلوم، وقد شهدت نساء دار الأستاذ أنها كانت تتلو كتاب الله طول الليل، فيتركنها كذلك قبل نومهن وإن تأخرن، ويجدنها كذلك عند السحر، ولا يدرين متى تنام. وقد اعتنت مريم بتعليم أولادها وبناتها، وتوفيت رحمها الله نحو ١٣٥١ هـ.

٤٢-أم قاسم الحسناوية (ت. ق ١٤ هـ):[٨٣]

هي أم قاسم[٨٤] الحسناوية المكناسية، من النساء الحافظات للقرآن الكريم برواية نافع والمكي والبصري.

خاتِمَةٌ

من خلال ما أوردناه من نماذج نسائية فريدة اتجهت عنايتهن لخدمة القرآن الكريم، يتبين لنا أن حب هؤلاء النسوة لكلام الله عز وجل جعل خدمتهن له يتخذ صورًا متعددة؛ إن بحفظه، أو تحفيظه، أو نسخه، أو تحبيسه، أو إنفاق المال في سبيل نشره. كما يتبين أيضًا علو همة بعضهن، حتى رحلن في طلب حفظه بالسبع، وتدريس بعضهن بديار الملوك، وخوضهن غمار التفسير وعلوم القرآن والمباحث المتعلقة به. وإذ نصل إلى الختام فإننا موقنون بكون النساء اللاتي خدمن القرآن الكريم أكثر مما ذُكر في المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها، وأن مَن لم نقف على ترجمتهن أكثر مما أثبتناه، ويمكن اعتبار هذا البحث رسالة إلى كل باحث مهتم بتاريخ الغرب الإسلامي من أجل البحث والتنقيب لإبراز دور المرأة وإسهامها في خدمة الإسلام عمومًا، وخدمة القرآن الكريم على وجه الخصوص.

الهَوامِشُ:

(١) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب من لدن فتح الأندلس إلى آخر عصر الموحدين**، لعبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، تحقيق: صلاح الدين الهواري، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٦/٢٠٠٦، ص: ٢٦٦-٢٦٧.

(٢) انظر: **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، لابن زيدان عبد الرحمن بن محمد السجلماسي، تحقيق: الدكتور علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة–مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٩/٢٠٠٨. ٣٢/٣.

(٣) انظر: **جامع القرويين**، لعبد الهادي التازي، دار نشر المعرفة، الرباط-المغرب، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م. مج ٤٤٣/٢.

(٤) انظر: **شرف الطالب في أسنى المطالب**، لابن قنفذ القسنطيني، تحقيق عبد العزيز صغيردخان، مكتبة الرشد ناشرون-الرياض، الطبعة الأولى ١٤٢٤ هـ. ص: ٢١.

(٥) انظر: **إتحاف أعلام الناس**، ٢٥٦/١.

(٦) **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، لعبد الرحمن بن زيدان، المطبعة الملكية-الرباط، ١٣٨١/١٩٦١. ٧٨/١.

(٧) انظر: **آداب المتعلمين**، لمحمد بن سحنون، تحقيقات: حسن حسني عبد الوهاب، مراجعة وتعليق: محمد العروسي المطوي، الشركة التونسية لفنون الرسم ١٩٧٢م. ص: ٣٩. **وشهيرات التونسيات**، لحسن حسني عبد الوهاب، المطبعة التونسية ١٣٥٣ هـ. ص: ٣٠. **والبرنس في باريس**، لمحمد مقداد ورتتاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر-دار السويدي، الناشر الرقمي: مركز القائمية بأصفهان للتحريات الكمبيوترية. ص: ١١٧.

(٨) انظر: **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، لمحمد الأنصاري المراكشي، تحقيق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٨٤م. ٤٨٤/٨. **والتكملة لكتاب الصلة لابن الأبار البلنسي**، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥/١٩٩٥. ٢٤٣/٤.

(٩) هو أبو المطرف، رابع ملوك الأندلس، ولد عام ١٧٦ هـ، وبويع سنة ٢٠٦ هـ، وتوفي سنة ٢٣٨ هـ. انظر **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، أشرف على التحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة ٣، ١٤٠٥/١٩٨٥. ٢٦٠/٨. **والأعلام لخير الدين الزركلي**، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر مايو ٢٠٠٢م. ٣٠٥/٣.

(١٠) انظر: **الأعلام للزركلي**، ١٤٨/٣-١٤٩. **وشهيرات التونسيات**، هامش الصفحة: ٤٤. **والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، لابن عذارى المراكشي، تحقيق ومراجعة: ج. س. كولان، و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، ط ٣، ١٩٨٣م. ٢٧٢/١.

(١١) هو منصور بن يوسف بن بلكين الصنهاجي، توفي سنة ٣٨٦ هـ. انظر **تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م. ٦٠١/٨.

(١٢) هو باديس بن منصور بن يوسف بُلكّين الصنهاجي، ولي بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٦ هـ، وتوفي سنة ٤٠٦ هـ. انظر **سير أعلام النبلاء** للذهبي، ٢١٦/١٧، **والأعلام للزركلي** ٤١/٢. **ومعجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر**، لعادل نويهض، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، بيروت-لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٠/١٩٨٠. ص: ٢٩.

(١٣) هو المُعِزّ بن باديس بن منصور الصنهاجي، ولد سنة ٣٩٨ هـ، وتوفي سنة ٤٥٤ هـ، انظر: **تاريخ الإسلام للذهبي** ٥٤/١٠.

(١٤) انظر **شهيرات التونسيات**، ص: ٤٧-٤٨-٤٩. **والبرنس في باريس**، ص: ١١٦.

(١٥) انظر **الذيل والتكملة** ٤٩٤/٨. **والتكملة لكتاب الصلة** ٢٥١/٤. **تاريخ الإسلام للذهبي** ٦٨٧/٩.

(١٦) كان أبوها فائز القرطبي عالماً بالتفسير والعربية واللغة، أديبًا شاعرًا. **الذيل والتكملة** ٥٢٧/٥.

(١٧) هو شيخ المفتين بقرطبة، محمد أبو عبد الله بن عتاب، من جلة الفقهاء والعلماء، ت ٤٦٢ هـ. **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، لابن فرحون، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطبع والنشر، القاهرة. ٢٤١/٢.

(١٨) هو الإمام الحافظ المجود المقرئ، أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني، ت ٤٤٤ هـ. **سير أعلام النبلاء** ٧٧/١٨. **والأعلام للزركلي** ٢٠٦/٤.

(١٩) هو أبو داود سليمان بن نجاح القرطبي، عالم بالتفسير والقراءات والرسم، ت ٤٩٦ هـ. **سير أعلام النبلاء**، ١٧٠/١٩. والصلة لابن بشكوال ٣٢١/١. وهداية القاري إلى تجويد كلام الباري، لعبد الفتاح بن السيد عجمي، مكتبة طيبة، المدينة المنورة، الطبعة الثانية. ٦٥٠/٢و٨٠١.

(٢٠) **الذيل والتكملة** ٤٩٠/٨. **والتكملة لكتاب الصلة** ٢٥٦/٤.

(٢١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن حيوة الأنصاري المقرئ النحوي، ت ٥٠٣ هـ. **التكملة لكتاب الصلة** ١٦/٣.

(٢٢) انظر **البيان المغرب** لابن عذارى ٢٧٢/١، **وشهيرات التونسيات**، ص: ٤٥، وهامش الصفحة ٤٧.

(٢٣) **الذيل والتكملة** ٤٩٤/٨. **التكملة لكتاب الصلة** ٢٥٤/٤-٢٥٥.

(٢٤) خطيب إشبيلية وقاضيها ومقرئها ومحدثها، ت ٥٣٩ هـ. **سير أعلام النبلاء** ١٤٢/٢٠. **الأعلام للزركلي** ١٦١/٣.

(٢٥) هو شيخ القراء أبي عبد الله محمد بن شريح الإشبيلي، مصنف كتاب الكافي، ت ٤٧٦ هـ. **سير أعلام النبلاء** ٥٥٤/١٨.

(٢٦) هو أبو بكر عياض بن بقي الإشبيلي، تلا بالسبع على أبي عبد الله بن شريح وزوجه أم شريح. **الذيل والتكملة** ٤٨٩/٥.

(٢٧) انظر: **الذيل والتكملة** ٤٩١/٨. **والتكملة لكتاب الصلة** ٢٥٦/٤. ونخب مختارة من شهيرات لهن إسهامات في التاريخ الإسلامي في المشرق العربي والمغرب الأندلس، لمحمد بشير العامري، عبد الرحمن إبراهيم حمد الغنطوسي، دار أمجد للنشر والتوزيع، عمان-الأردن، ٢٠١٤م. ص: ١٦٧.

(٢٨) كانت وفاة تميم بن يوسف بن تاشفين سنة ٥٢٠ هـ. انظر: **أخباره في نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**،

لابن القطان المراكشي، دراسة وتقديم وتحقيق: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي. ص: 65 وما بعدها.

(29) انظر: **التكملة لكتاب الصلة** 256/4. **والذيل والتكملة**، 493/8. وجذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، لأحمد ابن القاضي المكناسي، دار المنصور للطباعة والوراقة-الرباط، 1973م. ص: 533. وتاريخ الوراقة المغربية لمحمد المنوني، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة، 1412 هـ. ص: 38. **والأعلام للزركلي** 114/8.

(30) **التكملة لكتاب الصلة** 263/4. **والذيل والتكملة** 489/8. وتطوان عاصمة الشمال ومنبع إشعاعها، لعبد العزيز بنعبد الله،1426 هـ. ص: 186.

(31) هو الإمام الحافظ أبو علي حسين بن محمد بن فيرة بن حيون الأندلسي، استشهد سنة 524 هـ. سلم الوصول إلى طبقات الفحول، لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني، تحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسيكا، إستانبول، تركيا، عام النشر 2010م. 51/2.

(32) انظر **التكملة لكتاب الصلة** 254/4. **والذيل والتكملة** 478/8.

(33) لعله أحمد بن محمد بن خلف بن محرز الأندلسي، صاحب كتاب المقنع في القراءات السبع، والمفيد في الثمان. ت بعد 516 هـ. التكملة لكتاب الصلة 33/1. **وتاريخ دمشق لابن عساكر**، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، 1415/1995. 343/5. **والأعلام للزركلي** 214/1.

(34) انظر **الذيل والتكملة** 490/8-491. **والتكملة لكتاب الصلة** 263/4. **وموسوعة شهيرات النساء للبدوي**، دار أسامة للنشر، الأردن-عمان، الطبعة الأولى 1419 هـ. ص: 197.

(35) كان عارفًا بالقراءات، رأسًا في تجويدها، ت 586 هـ. تاريخ الإسلام 817/12.

(36) هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الأندرشي، من المجودين والمقرئين للقرآن، ت 621 هـ. **الذيل والتكملة** 44/6-48.

(37) هو القاسم بن محمد أبو القاسم ابن الطيلسان القرطبي، ت 642 هـ. **تاريخ الإسلام للذهبي** 421/14. **والذيل والتكملة** 557/5.

(38) انظر **الذيل والتكملة** 482/8-483. والتكملة لكتاب الصلة 263/4. **وتاريخ الإسلام للذهبي** 491/13. ومعجم المحدثين والمفسرين والقراء بالمغرب الأقصى، المحمدية، مطبعة فضالة، 1972م. ص: 18.

(39) **الذيل والتكملة** 483/8.

(40) هو الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش أمير شرق الأندلس، ت 567 هـ. **تاريخ الإسلام للذهبي** 379/12.

(41) انظر التكملة لكتاب الصلة 264/4. **والذيل والتكملة** 482/8.

(42) كان من أهل الخير والصلاح مجودًا للقرآن ذاكرا لأصول القراءات، كان حيًا سنة 591 هـ. **الذيل والتكملة** 321/1.

(43) انظر **التكملة لكتاب الصلة** 265/4. **والذيل والتكملة** 487/8-488. **وجذوة الاقتباس**، ص: 522. **وتاريخ الإسلام للذهبي** 579/14. **وأعلام النساء في عالمي العرب والإسلام**، لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة-بيروت. 275/2. وشهيرات التونسيات، ص: 73.

(44) انظر **الذيل والتكملة** 491/8.

(45) من المقرئين الذين تصدروا الإقراء والتحديث، ت 612 هـ. **الذيل والتكملة** 121/5.

(46) انظر **الذيل والتكملة** 130/5، ومعجم المحدثين، ص: 28.

(47) كان مقرئا عارفا بالقراءات حسن القيام عليها متقنا في الأداء، توفي في حدود 670 هـ. **الذيل والتكملة** 130/5.

(48) انظر: **تحفة الأحباب وبغية الطلاب في الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات**، لعلي بن أحمد السخاوي، تصحيح ومراجعة: محمد ربيع وحسن قاسم، مكتبة النشر والتأليف الأزهرية، الطبعة، 1356 هـ. ص: 334-335. **ومعجم المحدثين**، ص: 19. وأعلام النساء 345/1. **وقراءة الإمام نافع عند المغاربة من رواية أبي سعيد ورش**، لعبد الهادي حميتو، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية،1424 هـ. 172/2.

(49) انظر: **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن غازي العثماني المكناسي، مطبعة الأمنية الرباط، 1371/1952. ص: 24. **وإتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، لابن زيدان 83/3. **والقراء والقراءات بالمغرب**، لسعيد أعراب، دار الغرب الإسلامي بيروت-لبنان، الطبعة الأولى 1410/1990. ص: 69. ومعجم المحدثين، ص: 19.

(50) انظر: ترجمته في **إتحاف أعلام الناس** 689/3.

(51) انظر: **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، لأحمد بن القاضي، دراسة وتحقيق: محمد رزوق، مكتبة المعارف، الرباط-المغرب، 1986 هـ. 259/1. **والإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، لابن ابراهيم السملالي، تحقيق: عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية- الرباط، الطبعة الثانية 1413 هـ. 270/7-271. **وروضة الآس العاطرة الأنفاس**، لأحمد المقري، المطبعة الملكية-الرباط، الطبعة الثانية 1403 هـ. ص: 63-67. **ودرة الحجال في أسماء الرجال لأحمد ابن القاضي**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث-القاهرة، والمكتبة العتيقة-تونس. 182/3. **والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، لأحمد بن خالد الناصري، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، 1418 هـ. 118/5و126.

(52) انظر: **نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني لمحمد بن الطيب القادري**، تحقيق: محمد حجي، وأحمد التوفيق، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر وتوزيع: مكتبة الطالب، الرباط، الطبعة، 1407 هـ. 38/4 و 219. **واتحاف أعلام** الناس 25/3-34. **وتاريخ الدولة السعيدة**، لمحمد الضعيف الرباطي، تحقيق: أحمد العماري، دار المأثورات-الرباط، الطبعة، 1986م. ص: 115.

(53) هو السلطان مولاي إسماعيل بن الشريف بن على الحَسَنى، ت 1139 هـ. **اتحاف أعلام الناس** 63/2.

(٥٤) هو السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل بن الشريف الحسني، ت ١١٧١ هـ. انظر **اتحاف أعلام الناس** ٤٤٩/٤.

(٥٥) انظر: **اتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع**، لعبد السلام ابن سودة، تحقيق: محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ ٤٠/١. **ومختصر تاريخ تطوان** لمحمد داود، طبعة المهدية تطوان-المغرب، الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ص: ٢٩١. **وتاريخ الوراقة المغربية** للمنوني، ص: ١٢٤. ومعجم المحدثين، ص: ٢٨.

(٥٦) انظر: **زهر الآس في بيوتات أهل فاس**، لعبد الكبير بن هاشم الكتاني، تحقيق: علي بن المنتصر الكتاني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٢٢ هـ ٤١١/١.

(٥٧) **الجلسة**: كراء على التبقية والتأبيد. وعرفها عبد القادر الفاسي بأنها: عقد كراء على شرط متعارف. انظر: **دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية** للسعيد بوركبة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المملكة المغربية، ١٤١٧ هـ. الجزء ١ هامش الصفحة ٢٤٢. ومعلمة الفقه المالكي، لعبد العزيز بن عبد الله، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ ص: ١٩١.

(٥٨) انظر **دور الوقف في الحياة الثقافية بالمغرب في عهد الدولة العلوية**، ٤٢٧/١.

(٥٩) انظر زهر الآس ٣١٦/٢.

(٦٠) **الحياة الأدبية في المغرب على عهد الدولة العلوية**، لمحمد الاخضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٧٧م. ص: ٣٤٤. **والنبوغ المغربي في الأدب العربي**، لعبد الله كنون، دون طبع. ٢٨١/١-٢٨٢.

(٦١) لعله المكي الدكالي المقرئ المتوفى سنة ١١٩٠ هـ. انظر إتحاف المطالع ٤١/١.

(٦٢) انظر **موسوعة شهيرات النساء**، ص: ٢٣٤-٢٣٥.

(٦٣) هو علي بن حسين بن علي تركي، أمير تونس، بويع سنة ١١٧١ هـ، ت ١١٩٦ هـ. **الأعلام للزركلي** ٢٨١/٤.

(٦٤) هو محمود بن محمد الرشيد، أمير تونس، تولى الإمارة سنة ١٢٣٠ هـ، ت ١٢٣٩ هـ. **الأعلام للزركلي** ١٨٤/٧.

(٦٥) لعله حمودة بن محمد بن عبد العزيز الذي ولاه الأمير علي باي قلم الإنشاء في ديوانه، ت ١٢٠٢ هـ. انظر **الأعلام للزركلي**، ٢٨٢/٢-٢٨٣.

(٦٦) انظر زهر الآس ٢٨٦/١.

(٦٧) انظر زهر الآس ٢٨٦/١.

(٦٨) انظر **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، لعبد الرحمن بن زيدان ٧٨/١. وأورد عبد العزيز بن عبد الله اسم صفية بدل حفصة في كتابه معجم المحدثين، انظر ص: ٢٠.

(٦٩) هو أبو زيد عبد الرحمن بن هشام، بويع عام ١٢٣٤ هـ، وتوفي عام ١٢٧٦ هـ. **الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة**، لعبد الرحمن ابن زيدان، المطبعة الاقتصادية الرباط ١٣٥٦هـ. ص: ٧٨.

(٧٠) انظر معجم المحدثين، ص: ٢٠.

(٧١) انظر **المعسول لمحمد المختار السوسي**، مطبعة الجامعة، الدار البيضاء-المغرب، ١٣٨١ هـ ١١٠/١٨.

(٧٢) هو الحاج عبد الله بن الحسين بن محمد الجراري، ولد سنة ١٢٩٥ هـ. المعسول ١٠٩/١٨.

(٧٣) انظر معجم المحدثين، ص: ٢٠.

(٧٤) انظر **معجم الشيوخ**، لعبد الحفيظ بن محمد الطاهر الكتاني، ص: ١٦٠. **ومعجم المحدثين**، ص: ١٩.

(٧٥) هو العلامة المقرئ المحفظ للسبع، الحسن بن محمد الورياجلي المعروف بكنبور، ت ١٢٨٣ هـ. **اتحاف المطالع** ٢٣٤/١.

(٧٦) هو الشيخ العلامة المشارك عبد الحفيظ بن الطاهر بن عبد الكبير الفاسي الفهري، ت ١٣٨٣ هـ. **اتحاف المطالع** ٥٨١/٢.

(٧٧) انظر **المعسول** ١٦٥/٦.

(٧٨) توفي سنة ١٣٣١ هـ. انظر ترجمته في **المعسول** ١٦٥/٦.

(٧٩) انظر **المعسول** ٣٩/٣-٥٦.

(٨٠) انظر **المعسول** ٨٧/١١، **ورجالات العلم العربي في سوس**، لمحمد المختار السوسي، من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر، مؤسسة التغليف والطباعة والنشر والتوزيع للشمال، طنجة-المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ ص: ١٣٠.

(٨١) انظر **المعسول** ٥٧/٣.

(٨٢) انظر **المعسول** ٥٧/٣.

(٨٣) انظر **معجم المحدثين**، ص: ١٨.

(٨٤) لعله قاسم بن عبد القادر الحسناوي المكناسي، العالم العلامة المشارك المدرس، من أشياخ محمد بن الحسن العرائشي، المتوفى سنة ١٣٤٢ هـ. انظر **اتحاف المطالع**، ٤٣٦/٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

دراسات

فؤاد سزكين
مؤرخًا لتاريخ العلوم والحضارة الإسلامية

أ.د. شوكت عارف محمد
أستاذ التاريخ الإسلامي
فاكولتي العلوم الإنسانية – جامعة زاخو
كردستان – جمهورية العراق



مُلَخّص

يُعَدّ فؤاد سزكين أحد أبرز المؤرخين المسلمين مَمَنْ اضطلعوا بدور كبير في دراسة تاريخ العلوم والتراث الإسلامي، ورغم أن سزكين قد تخرج في الغرب على أيدي المستشرقين أمثال المستشرق الألماني (هلموت ريتر) إلا أنه تمّيز عن الكثير منهم بإلمامه بين الثقافتين الشرقية والغربية، فضلًا عن إجادته لأكثر من لغة من بينها السريانية، والعبرية، واللاتينية، والعربية، والألمانية مما أتاحت له الاطلاع على مصادر متنوعة، وكانت تحدوه الرغبة الجامحة في خدمة وإحياء تاريخ الحضارة الإسلامية بحيادية علمية بعيدًا عن العاطفة المجردة، وكذلك عقد المستشرقين العنصرية والدينية، وبيان مكانتها في تاريخ الإنسانية، ولذلك فقد كرّس حياته لهذا العمل، ولم يكتف بتصنيف الكتب في تاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، بل قام أيضًا بتأسيس معهد ومتحف تاريخ العلوم الإسلامية بجامعة فرانكفورت الألمانية، ومتحف أخر مماثل في إسطنبول، وعاش مؤرخنا حياة علمية طويلة حافلة حتى وافاه الأجل سنة ٢٠١٨ ، وقد أنجز خلال مسيرة حياته الكثير من المُصنفات، كما حصل على الكثير من الأوسمة والجوائز التي دلت على علو مكانته بين العلماء، والبحث الذي بين أيدينا محاولة لدراسة هذه الشخصية العلمية الفريدة من خلال التركيز على جهوده كمؤرخ لتاريخ العلوم والتراث الإسلامي، وتقييمه للحضارة الإسلامية، ومدى تأثيرها على الغرب الأوربي من وجهة نظره.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٥ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٦ أكتوبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

فؤاد سزكين؛ التاريخ الإسلامي؛ الحضارة الإسلامية؛ المستشرقين، العلوم الإسلامية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057053

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

شوكت عارف محمد. "فؤاد سزكين مؤرخا لتاريخ العلوم والحضارة الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٥٩ – ١٦٨.

مُقَدِّمَةُ (محطات من سيرته، ونشأته العلمية)

يُعَدّ العلامة الدكتور فؤاد سزكين من مشاهير المؤرخين المسلمين ليس في تركيا وحسب بل في العالم الإسلامي ممن تخرجوا على يد المستشرقين الألمان، وتخصّص في دراسة التراث والحضارة الإسلامية، وكرّس حياته وجهوده لإحياء التراث العلمي الإسلامي من خلال دراسات، وبحوث علمية مُعمّقة لكي يعيد للمسلمين ثقتهم بأصالة حضارتهم الإسلامية، وليرفع ما لحق بتراثهم العريق من إهمال، وغبن، وسوء فهم من قبل المسلمين أنفسهم، وليدافع عن الحضارة الإسلامية من منطلق انتمائه لها أمام حملات التشويه على يد بعض المستشرقين، وقد عاش مؤرخنا حياة طويلة حافلة بالنشاطات والبحوث العلمية، ويُعَدُّ بحق واحدًا مِن أهمِّ الذين خدموا تاريخ الحضارة والعلوم الإسلامية في القرن العشرين.

تجمع المصادر التي أرخت لحياة وسيرة سزكين أنه ولد في مدينة بتليس Bitlis جنوب شرق تركيا في ٢٤ تشرين الأول من عام ١٩٢٤م، ونشأ في ظل أسرة محافظة عرفت بتدينها، وتلقى سزكين بداية تعليمه على يد والده ، ثم غادر بتليس إلى مدينة دوغو بايزيد لإكمال تعليمه الابتدائي، ثمّ توّجه بعدها إلى مدينة ارضروم لإتمام دراسته الثانوية، ثمّ قصد سنة ١٩٤٣م مدينة إسطنبول لإكمال دراسته الجامعية، وكان ينوي دراسة الهندسة، والتقنيات، ولكنه عدل عن هذا بعد أن تعرف إلى المستشرق الألماني (Hellmut Ritter) «هيلموت ريتر» (ت:١٩٧١م) أستاذ فقه اللغات الشرقية في جامعة إسطنبول أنداك، والذي وجّهه إلى تعلم اللغات، ودراسة تاريخ العلوم عند المسلمين، واقترح عليه أن يعيد تنظيم الكتاب الشهير بعنوان «تاريخ الأدب العربي» الذي ألفه المستشرق الألماني «كارل بروكلمان» (ت:١٨٦٨م)[١].

وقد استجاب سزكين لهذه الدعوة وانخرط من حينها في دراسة التراث، وتاريخ العلوم عند المسلمين، وكانت لديه رغبة، وحماس شديد لإظهار الحقائق العلمية المغيبة والمشوهة من تاريخ المسلمين، وكانت تجمعه علاقة صداقة وود مع أستاذه هلموت ريتر، الذي كان يصطحبه إلى مكتبات إسطنبول، ويطلعه على مخطوطاتها وينقل إليه خبراته ومعارفه، وكان لتوجيهات أستاذه أثر فعّال في مجرى حياته العلمية، وبعد تخرجه من جامعة إسطنبول سنة ١٩٤٧م تم تعينه كباحث علمي فيها، كما شغل مهمات إدارية، منها إدارة مكتبة الجامعة في عام ١٩٤٩م، ولم تكن الوظائف الإدارية لتشغله عن رغبته في مواصلة البحث العلمي، فقد التحق بجامعة فرانكفورت الألمانية بعد أن قضى قرابة عشرين سنة في إسطنبول أستاذًا في جامعتها وباحثًا عن المخطوطات ومحققًا للتراث العلمي الإسلامي، وتوّج مسيرته العلمية هناك بالحصول على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٥٤م، عن أطروحته الموسومة "مصادر صحيح الإمام البخاري" بإشراف أستاذه هلموت ريتر[٢]، ثمّ عمل في التدريس بجامعة إسطنبول، وكان يتمتع بمؤهلات علمية كبيرة أشاد بها كل من عرفه وتعامل معه، منها إجادته وإتقانه لعدد كبير من اللغات الحية فإلى جانب اللغة التركية كان يجيد اللغة العربية، والألمانية، والإنكليزية، والسريانية، والعبرية، واللاتينية، والبرتغالية وغيرها[٣].

ومن المحطات البارزة في حياته مغادرته تركيا إلى ألمانيا بعد الانقلاب العسكري الذي حصل في ٧مايو سنة ١٩٦٠م بعد أن تم فصله من جامعة إسطنبول بسبب وشاية كاذبة ومغرضة أدت بالعشرات من الأساتذة إلى الطرد من جامعاتهم، مما اضطر الكثير منهم إلى مغادرة تركيا بعد انغلاق الأفق السياسي، والتضييق على الحريات الفردية والجماعية فقرر سزكسن التوجه إلى ألمانيا ليواصل نشاطه التدريسي والبحثي في عدد من الجامعات الألمانية منها جامعة يوهان فولفانغ فون كوته في مدينة فرانكفورت التي بقي فيها نحو ستة اشهر، ثم انتقل إلى جامعة ماربورك ومكث بها سنتين(١٩٦٢-١٩٦٣) قبل أن يعود ثانية إلى جامعة كوته عام ١٩٦٤م ليتوّلى تدريس تاريخ العلوم الطبيعية، وفي عام ١٩٦٥م حصل على درجة الأستاذية بعد نشره دراسة علمية عن العالم جابر بن حيان(ت١٩٩هـ/ ٨١٥م)، وفي السنة التالية ١٩٦٦م تزوج بامرأة ألمانية مسلمة تدعى السيدة اوروسلا سزكين عام ١٩٦٦م لتساعده في شؤونه ومشاريعه البحثية، فقد كانت تراجع ما يكتبه، وتعده للطباعة[٤].

وقد عرف عن سزكين مواظبته على الكتابة والبحث حتى في أيامه الأخيرة حيث كان منهمكًا في كتابة المجلد الـ١٨ من سلسلة موسوعته الشهيرة "تاريخ التراث العربي" الذي صدرت أولى مجلداته في ١٩٦٧م، ويعد من أشه مؤلفاته ، وأهمها[٥]، فضلاً عن مصّنفات أخرى مثل: العلم والتكنولوجيا في الإسلام، واكتشاف المسلمينَ للقارة الأمريكية قبلَ كريستوفر كولومبوس، وغيرها، وعاش حياة حافلة بالنشاط العلمي والبحثي، وحصل على جوائز وأوسمة دولية من مؤسسات مختلفة مثل جائزة الملك فيصل العالمية في الدراسات الإسلامية، وجائزة رئاسة الجمهورية الكبرى للثقافة والفنون ودرع غوته التكريمي ونيشان استحقاق جمهورية ألمانيا الاتحادية، كما حصل على جوائز أخرى من مؤسسات مختلفة مثل مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ومجمع اللغة العربية بدمشق، ومجمع اللغة العربية في بغداد، وأكاديمية العلوم في تركيا، بالإضافة إلى شهادات دكتوراه فخريَّة من عدَّة جامعات تركيَّة مثل جامعة أتاتورك في ولاية أرضروم، وجامعة سليمان ديميرال في ولاية إسبرطة، وجامعة إسطنبول، وكانت وفاته بإحدى مستشفيات إسطنبول يوم السبت ٣٠ حزيران من عام ٢٠١٨م عن عمر يناهز ٩٤ عامًا، وقد

حضر تشيع جنازته حشد غفير من الخاصة والعامة، كان يتقدمهم الرئيس التركي رجب طيب أردغان.. رحم الله الفقيد، وأسكنه فسيح جناته.

أولاً: فؤاد سزكين مؤرخًا لتراث الإسلام الحضاري

يُعد فؤاد سزكين من كبار مؤرخي القرن العشرين، وقد نال شهرة واسعة، بفضل جهوده البحثية الرصينة، وكتاباته الموسوعية عن تاريخ العلوم في الحضارة الإسلامية، فقد كان يرى أنّ مهمته أن يبّين إسهامات المسلمين العلمية في تاريخ العلوم، وقد خلّف لنا ثروة علمية هائلة، ومشروعًا أكاديميًا فتح للأجيال القادمة من بعده آفاقًا رحبة نحو المستقبل، وكان سزكين مُدركًا أن تعامله مع التراث الإسلامي يجب أن ينطلق من مبادئ، ومرتكزات فكرية رصينة محايدة ومتحررة من العواطف، وكان يدعوا رحمه الله - إلى التعامل مع التراث الإسلامي ككل لا يتجزأ في سياقه التاريخي والحضاري الشامل من أجل الوقوف على حقيقة دور المسلمين المعرفي والتنويري في مسيرة الحضارة الإنسانية، وكان يرى أن تحقيق ذلك كله يحتاج إلى إمكانيات لعّل في مقدمتها التمكن من لغات مختلفة من أجل نشر هذا التراث، وكذلك التصدي لبعض المنكرين والجاحدين لفضل الحضارة الإسلامية وعالميتها، وفي خضم قراءته الشمولية لتاريخ التراث الإسلامي لم يغب عنه حقيقة موقف الدين الإسلامي ذاته من العلم، فقد كان بمثابة الدافع وراء طلب المسلمين للعلم والمعرفة، وهو ما دفع المسلمين للاهتمام بترجمة علوم الأوائل[٦]، ونقل ما لدى غيرهم من الأمم منذ وقت مبكر من تاريخهم، وقد أفضت مرحلة الأخذ من الثقافات الأخرى، ثمّ مرحلة الاستيعاب والتمثل، إلى مرحلة الإبداع الدال على قدرة علماء الحضارة الإسلامية على أن يصلوا إلى أكثر مما وصل إليه السابقون[٧].

ورغم أن سزكين لا ينكر جهود المستشرقين في التعريف بالتراث الثقافي للعالم الإسلامي، ونشرهم مئات الكتب والمجلدات باللغات العربية والفارسية والتركية، وترجمتهم جزءًا كبيرًا منها إلى اللغات الأوروبية، إلا أنه يعترف أنّ بعض تلك الدراسات لم تكن منصفة في نظرتها إلى الحضارة الإسلامية، على عكس موقف المسلمين المتميّز عندما أخذوا من علوم الحضارات القديمة، وكان من ثمرات ذلك الموقف إبداعهم في ميادين هذه العلوم وتطبيقاتها، ويقول فؤاد سزكين، محللاً المفهوم المضلّل لما يسمى "عصر النهضة الأوروبية": " كان آلاف العلماء المتخصصين في مختلف فروع العلم يمتلكون معلومات سطحية للغاية فيما يتعلق بتاريخ الفرع العلمي الذي يعملون به، ونجد في تركيا- على وجه الخصوص- أجيالاً كاملة وقد تبنّت مفهومًا مُعرضًا عن ماضينا وقيمنا الأصيلة، بل ويُرجعون أصل العلم إلى الإغريق، ويرون أن الغرب عاد مجدّدًا إلى قيادة عالم المعرفة عن طريق صحوة كبيرة عرفت "بالنهضة" بعد سُباتٍ دام قرونًا، وهم بذلك يتغاضون عن ذكْر الحضارة الإسلامية العظيمة، حتى إن بعضهم يعدها وكأن لم تكن من الأساس؛ بمعنى أنهم يسعون لطمس الشمس وإنكارها"، ويضعون نظرية متحيزة لتفسير تاريخ العلم والحضارة، ثم يقول: ظهر مصطلح "النهضة" فجأة أول مرة في أوربا في القرن الثامن عشر، وهناك عالم فرنسي يُدعى "إتيان جيلسون" Etienne Gilson (١٨٨٤-١٩٧٨) يقول في كتاب ألفه عام ١٩٢٤م بعنوان "الفلسفة في العصر الوسيط – أضواء كاشفة على عصر الظلمات": إن مصطلح النهضة كلمة اختلقها أساتذة الجامعات الأوربية بعد تفكير عميق خلف الكواليس، وهو مصطلح ليس له أدنى علاقة بالواقع، غير أنه تعبير مصطنع أُوجِد بالقوة من أجل قمع الحقيقة؛ فالنهضة كلمة مختلفة تمامًا، ولا يوجد شيء يحمل اسمها في الحقيقة، وهم يستخدمون كلمة "النهضة" وفق هذا المعنى القائل: " إن اليونانيين لديهم مخزون علمي هائل"،- وهذا ما نؤمن به نحن أيضًا- ثمّ تستمر فترة القرون الثمانية أو التسعة التي تلت هذه الحقبة، ومن ثمّ لا يقبلون المساهمات العلمية التي قدمتها الحضارة الإسلامية خلال الفترة التي تلت تلك الحقبة، وبعد ذلك يعرّفون ما أخذوه في القرن العاشر على أنه علم اليونانيين، ويطلقون على هذه الحركة اسم (النهضة)، بيد أن هذه ليست هي الحقيقة، وما حدث في الواقع هو أنهم نقلوا وقرأوا المؤلفات التي ألّفها المسلمون باللغة العربية، وأطلّعوا على كتب الفلسفة التي كتبها المسلمون، ثمّ اطلعّوا تدريجيًا على ترجمات (ابن سينا) والعلوم اليونانية، وكتب الفلسفة التي ألفّها (أرسطو). وهم بذلك ينكرون حق أساتذتهم الأصليين، وكان المسلمون يتفوقون على أوربا بشكل كبير، ويمثلون الحضارة الأرقى في العالم حتى القرن السادس عشر الميلادي، وكانت مدن إسطنبول وبغداد، ودمشق، والقاهرة، وسمرقند، وبخاري، وغيرها، من المراكز الحضارية الإسلامية تتمتع بالشهرة ذاتها التي تتمتع بها اليوم مدن لندن،

وباريس، وفيينا، فلماذا تخلف المسلمون بعد ذلك وتطورت أوربا؟!. ويدحض سزكين بكل قوة زعم الكثيرين بأن الدين هو الذي تسبّب في تخلفنا[٨].

وكان سزكين يرى أنّ استعادة المسلمين لمكانتهم الحضارية، ودورهم المتميّز يتطلب منهم استعادة الثقة بتراثهم من خلال القراءة، والبحث المتواصل لإنجازات المسلمين العلمية، والتفكير بشكل جاد في كيفية تغيير الظروف التي تمكنهم من النهضة المنشودة – وحاول -رحمه الله- أن يجسّد دعوته ليكون مثالاً وقدوة للمسلمين ،فقد كان طيلة حياته مُواظبًا على نشاطه العلمي، والبحثي بأشكاله المختلفة، من التأليف، والتحقيق، ويحتاج حصر مُصنفاته وبحوثه جميعها إلى عمل مستقل، ولعّل من أبرز مُؤلفاته الموسوعية التي تركها لنا في هذا المجال هو: (تاريخ التراث العربي) (Geschichte des Arabischen Schrifttums) الذي يُعد من أبرز مُصنّفاته الموسوعية، وكان قد شرع فيه منذ وقت مبكر من حياته، وصدرت أولى مجلداته سنة ١٩٦٧م، وواصل الكتابة فيها حتى أيامه الأخيرة، حيث كان مُنهمكًا في كتابة المجلد الـ١٨ من هذه السلسلة التاريخية، وقسمّها حسب التخصّصات العلمية كالاتي:

المجلد الأول:	(العلوم القرآنية، علم الحديث، التاريخ، الفقه)، طبع سنة ١٩٦٧م، ونشرت ترجمته العربية في أربعة أجزاء.
المجلد الثاني:	(الشعر العربي من الجاهلية إلى سنة ٤٣٠هـ)، طبع سنة ١٩٧٥ ونشرت ترجمته العربية في خمسة أجزاء.
المجلد الثالث:	(الطب، الصيدلة، البيطرة، علم الحيوان)، طبع سنة ١٩٧٠م ونشرت ترجمته العربية في جزء واحد.
المجلد الرابع:	(الكيمياء، الزراعة، علم النبات)، طبع سنة ١٩٧١م، ونشرت ترجمته العربية في جزء واحد.
المجلد الخامس:	(علم الرياضيات)، طبع سنة ١٩٧٣م، ونشرت ترجمته العربية في جزء واحد.
المجلد السادس:	(علم الفلك والآثار العلوية)، طبع سنة ١٩٧٨م، ونشرت ترجمته العربية في جزء واحد
المجلد السابع:	(أحكام النجوم والأرصاد الجوية وما يقاربها)، طبع سنة ١٩٧٩م.
المجلد الثامن:	(علم اللغة والمعاجم)، طبع سنة ١٩٨٢م، ونشرت ترجمته العربية في جزء واحد.
المجلد التاسع:	(علم النحو)، طبع سنة ١٩٨٤م.
المجلدات ١٠–١٣:	(الجغرافيا والخرائط)، طبعت سنة ٢٠٠٠م، صدرت في أربعة مجلدات حتى عام ٢٠٠٧م.
المجلدان ١٤ و15:	(الجغرافيا الأنثروبولوجيا)، طبعا سنة ٢٠١٠م، وصدرا في جزأين.
المجلد السادس عشر:	(البلاغة والنقد)، طبع سنة ٢٠١٥م.
المجلد السابع عشر:	(الأدب التربوي والأدب الترفيهي)، طبع سنة ٢٠١٥م.

وكان دافع سزكين لهذا العمل الكبير والشاق في البداية هو تكملة ما كان قد بدأه المستشرق الألماني كارل بروكلمان (ت:١٩٥٦م) في كتابه (تاريخ الأدب العربي)، وتصحيح ما فيه من هفوات ونقص بعد أن لاحظ أن بروكلمان لم يستفد من مخطوطات كثيرة، فقرر بادئ الأمر أن يعد مُلحقًا لذلك الكتاب ليكمل النقص الذي فيه، ومع مرور الوقت وتعمق سزكين في عمله وحصوله على مخطوطات جديدة بدا له أن هذا الملحق يمكن أن يكون موسوعة مُستقلة بذاتها فكثف جهوده حتى استطاع بعد خمسة عشر عامًا من العمل (١٩٥١-١٩٦٧م) أن ينشر المجلد الأول من كتابه باللغة الألمانية[٩].

ولم يكن أحد يتوقع أن يتمكن سزكين وحده في القيام بهذا العمل الكبير وأن يضيف شيئًا جديدًا على كتاب بروكلمان حتى أستاذه هلموت ريتر، ولكن عزمه وإصراره وتفانيه دفعه إلى أن يزور مكتبات أكثر من ستين دولة في العالم، وأن ينقب ويجمع معلومات ما يزيد على أربعمئة ألف مخطوطة[١٠]، وتمكن سزكين من مواصلة عمله بجد وإصرار، فكان يصدر المجلد تلو الآخر، وبعد نشر المجلد السادس كان الفائز الأول عام ١٩٧٩م بجائزة الملك فيصل العالمية لقاء الدراسات التي قدّمها في مجال: أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية[١١].

وإذا أردنا معرفة الفرق بين ما ألفّه بروكلمان وما قدّمه سزكين فان سزكين يجيبنا قائلاً:" أنني أول من كتب عن تاريخ الكيمياء في الإسلام إذ لم يسبقني أحد في ذلك، وكتبت عن تاريخ علم النبات ولم يكتب عنه فيما مضى أيضًا، وقد كتب في تاريخ الطب لكنني أول من كتب عن تاريخ علم الحيوان ...وكان هناك آخرون يكتبون عن تاريخ الرياضيات أما أنا فقد تناولت هذا الموضوع بطريقة مختلفة"، وأضاف أيضًا " أنني كتبت عن تاريخ علم الأرصاد الجوية لدى المسلمين للمرة الأولى في المجلد السابع من كتابي ولم يتناول أحد هذا الموضوع من ذي قبل"[١٢].

ومن مُصنفاته المهمة أيضًا: (ببليوجرافيا الدراسات العربية والإسلامية بالألمانية)، (Bibliographie der Deutschsprachigen Arabistik und Islamkunde)، وقد صدرت على مرحلتين: المرحلة الأولى: صدرت في ٢٢ مجلدًا تشمل تلك الأعمال من بداياتها وحتى عام ١٩٨٦م، والمرحلة الثانية: صدرت للأعمال ما بين سنتي ١٩٨٦م و١٩٩٤م في ثمانية مجلدات، وهذه الببليوجرافيا بقسميها تفهرس الأعمال موضوعيًا على نسق موسوعة تاريخ التراث العربي، أي أنها تبدأ بالدراسات حول الإسلاميات، ثمّ حول الإنتاج الأدبي، ثمّ حول التراث العلمي والثقافي بمختلف تنوعاته[١٣].

ومن مؤلفاته كذلك أيضًا: موسوعة (العلم والتكنولوجيا في الإسلام)، وتقع في خمسة مجلدات صدرت بالألمانية (٢٠٠٣)، وتمّ ترجمتها إلى عدد من اللغات كالفرنسية، والتركية، والعربية، وتتميّز هذه الموسوعة بروعة الإخراج، فهي تزدان بأعداد وفيرة من الصور الملونة التي تنقل القارئ إلى معايشة تطورات العلوم من خلال ما يشاهده من صور، وما يقرأه من معلومات وشروح مفيدة[١٤].

ولم تقتصر سزكين على التأليف وحسب، بل لقد قام بعدد من الأعمال الأخرى المهمة مثل تأسيسه معهدًا لتاريخ العلوم الإسلامية التابع لجامعة فرانكفورت الذي تمّ افتتاحه في ١٨ مايو سنة ١٩٨٢، ثمّ ما لبث أن ألحق به متحفه الشهير لمخترعات الحضارة الإسلامية، وكان ذلك خطوة نوعية لم يسبقه إليها أحد من قبل حاول من خلالها عرض الكثير من اختراعات المسلمين بعد أن تمكن من إعادة صنعها كما وردت في المصادر[١٥].

كما بدأ سزكين، من خلال هذا معهده المذكور في إصدار دورية سنوية بعنوان (مجلة تاريخ العلوم العربية – الإسلامية) (Zeitschrift für Geschichte der arabisch-islamischenWissenschaften) وذلك لنشر الدراسات المتعلقة بتاريخ العلوم والحضارة الإسلامية، وقد ضمّ المعهد مكتبة كبيرة حوت كتبًا ومخطوطات نادرة، إضافة إلى قيام المعهد بنشر أكثر من الف وأربعمائة مجلد من الكتب التاريخية القيمة، وفي مقدمتها سلسلة تاريخ الجغرافيا الإسلامية الذي بلغ عدد أجزاءه أكثر من ثلاثمئة مجلد، وسلسلة كتاب مؤلفات الرحالة الأوربيين عن العالم الإسلامي، كما قام سزكين بإنشاء متحف آخر في مدينة إسطنبول سنة ٢٠٠٣م[١٦].

ثانيًا: الحضارة الإسلامية وتأثيرها على الغرب من وجهة نظر سزكين

أكد فؤاد سزكين على ضرورة اهتمام المسلمين بقراءة قراءة تاريخهم للاطلاع على المنجزات العلمية في شتى المجالات، وهذا ما دفعه للعمل البحثي المتواصل طيلة حياته لإثبات مكانة الحضارة الإسلامية، ودورها، ومشاركتها في الحضارة الإنسانية، كما أدرك سزكين أن المسلمين غالبًا ما يتناسون النجاحات التي قدمتها حضارتهم للإنسانية، نتيجة انقطاعهم عن تراثهم الحضاري، ورؤيتهم السلبية لماضيهم، وشعورهم باليأس، وفقدانهم الثقة بالنفس، متجاهلين أن نهضة الغرب الأوربي التي انبهروا بها ما كان لها لتتحقق لولا تراث المسلمين، وإنجازاتهم العلمية التي أصبحت أساسًا لذلك التقدم، والذي هو نتيجة واقعية للتطور المتواصل والمتوارث من الحضارة اليونانية رغم إنكار الغرب لهذا الحقيقة[١٧].

ويرى فؤاد سزكين أنّ شعور المسلمين باليأس، والدونية أمام النهضة الأوربية قد تعمّق منذ أيام الدولة العثمانية بدليل أنّ السلطان العثماني مراد الرابع (١٦١٢-١٦٤٠م) قد استعان بأحد المستشرقين الهولنديين - يعقوب جوليوس (١٥٩١-١٦٦٧م)- لرسم خريطة لشبه جزيرة الأناضول، فيجيبه الرجل بعدم قدرته على ذلك، والمدهش في الأمر أن مؤلفات الجغرافي العثماني الشهير كاتب جلبي (١٦٠٨-١٦٥٧م) تضم خريطة دقيقة للأناضول وعند مقارنتها بالخرائط الحديثة لا ترى فرقًا يذكر بينها وهذا يدل على أننا خسرنا الحرب النفسية في تلك اللحظة وبدانا نتقبل تفوق الغرب علينا[١٨].

والأمر الأشد غرابة أن هذا الانهزام النفسي كان موجودًا لدى كاتب جلبي نفسه فعندما أطلّع على كتاب لعالم جغرافي هولندي يدعى جراردوس

ميركاتور(١٥١٢-١٥٤٩م) بادر بترجمته لشدة إعجابه بكتابه الذي يضم خرائط كثيرة، وكان كاتب جلبي يحمل في صدره مشاعر إعجاب شديدة تجاه ميركاتور ومشاعر دونية غريبة تجاه امته وذلك لعدم علمه وإحاطته بما اكسبه المسلمون لدنيا العلوم[١٩].

وقد استنكر سزكين على الغرب نظرتهم هذه تجاه حضارتهم والحضارة الإسلامية مشيرًا إلى أن الفيلسوف الفرنسي اتيان جيلسون (١٨٨٤-١٩٧٨م) يسخر من هذه النظرية واصفًا إياها بأنها نهضة الأساتذة (يقصد بها أن عددًا من الأساتذة نشروا هذه النظرية بعد اجتماع عقدوه في الكواليس)، ويرى هذا المفهوم المزيف غير الواقعي أن التطور الذي شهدته أوربا في مجال العلوم بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر مرتبط – على حد زعمهم – بالتعرف على المؤلفات الإغريقية[٢٠].

ويدعم سزكين رؤيته بأقوال وآراء عدد من كبار المستشرقين الذين أسهموا في إعادة الرؤية الحقيقية والواقعية لتاريخ الحضارة الإسلامية والنظرة السليمة للنهضة الأوربية فقد أسهمت مجموعة من المستشرقين بدراستها لإثبات أنّ الإسهامات الإبداعية التي قدمّتها البيئة الثقافية الإسلامية على مدى ما يقرب من ثمانمائة عام تناقض الأوهام والمزاعم فأكدت للغربيين أولاً أن الحضارة اليونانية ليست أساس الحضارة الأوربية الحديثة وأن هذه الحضارة ما هي إلا امتداد للحضارة الإسلامية وأنها تعتبر وليدة لها[٢١].

ولقد كرّس سزكين كل حياته لأجل تصحيح المفاهيم الخاطئة وإزالة الشعور السلبي عند المسلمين والأوربيين ليحل محله الثقة والفخر بماضي هذه الحضارة والاعتراف بتأثيرها على الحضارة الغربية لينظر الغرب إلى الحضارة الإسلامية بكل تبجيل واحترام، وفي سبيل ذلك الّف كتبًا، وبحوثًا عديدة، وأسس معهدًا، ومتحفًا، من أجل تعريف العالم بإسهامات الحضارة الإسلامية، وإنجازاتها العلمية، كما عّبر عن ذلك بنفسه قائلاً: "وإنني لأبذل جزءًا من مجهودي خدمة لدنيا العلم ولمعرفة بينما الجزء الأكبر من أجل التذكير بالاحترام والثقة والمكانة التي كانت تتمتع بها الحضارة الإسلامية العظيمة في تاريخ الإنسانية"[٢٢].

وقد سعى سزكين من خلال مؤلفاته التطرق إلى الكثير من العلوم التي برع فيها المسلمون، وخدموا من خلالها الإنسانية جمعاء، وأصبحت إنجازاتهم في العلوم الرياضية، والهندسة، والطب، والصيدلة، والكيمياء، والفلك، والجغرافيا وغيرها من العلوم التطبيقية أساسًا للتقدم العلمي الذي شهده الغرب فيما بعد، ففي مجال علوم الرياضيات، والهندسة خصّص سزكين مجلدًا مُستقلاً من سلسلته الشهيرة تاريخ التراث العربي لتدوين الإنجازات التي حققها المسلمون في مجال الرياضيات، والهندسة، وأن المسلمين لم يقفوا عند حدود الترجمة والنقل عن الأمم السابقة لهم، بل أضافوا إضافات جديدة إلى هذا العلم بعد تعمقهم في المسائل الرياضية، واستشهد بأقوال علماء الغرب الذين اعترفوا بفضل المسلمين[٢٣].

لقد سعى فؤاد سزكين في مُصنّفاته، وبحوثه أن يبّين الإنجازات التي حقّقها المسلمون منذ وقت مبكر من تاريخهم، لا سيما بعد قيامهم بترجمة المؤلفات الهندية في عهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، وتطرق إلى مشاهير العلماء المسلمين كالخوارزمي الذي ألّف كتاب الجبر والمقابلة، والذي يُعد من المصّنفات المهمة التي استعان به علماء الغرب، وقاموا بترجمته إلى اللغة اللاتينية منذ وقت مبكر يعود إلى القرن (السادس الهجري/ القرن الثاني عشر الميلادي)، كما أشاد سزكين في كتابه العلم والتكنولوجيا في الإسلام بالإنجازات التي حققها علماء المسلمين في هذا الميدان، وقام بتجسيد الكثير من الآلات الهندسية التي اخترعها المسلمون وذلك بإعادة صنعها لغرض عرضها في المتحف، كما القى سزكين الضوء على إسهامات المسلمين في العلوم الطبية، والصيدلة، والنبات، وخصّص جزءًا من سلسلة تاريخ التراث العربي، وقام بعرض أعمال وجهود عدد كبير من مشاهير الأطباء المسلمين[٢٤]، وقام بتجسيد الآلات الطبية لغرض عرضها على الزوار في متحفه في فرانكفورت[٢٥].

كما بيّن سزكين إنجازات المسلمين في علوم أخرى كعلم النبات، وخصّص بابًا مستقلاً من سلسلة كتابه لعلم النبات[٢٦]، وعرض شهادات عدد من علماء الغرب الذين أشادوا بالتقدم الذي أحرزه المسلمون، وأثنوا على علمائهم في هذا المجال، وفي مقدمتهم العالم الموسوعي أبو حنيفة الدينوري (ت:٢٨٢هـ/٨٩٥م) ذاع صته في الغرب، وكان محل اهتمام عدد من علمائهم كالعالم الألماني زلبربرغ الذي قام سنة ١٩٠٨م بدراسة قيمة لهذا العالم، وكتابه تاريخ النبات[٢٧].

ومن العلوم الأخرى التي شغلت جانبًا مهمًا من تراث المسلمين الحضاري، علم الكيمياء، وكان يسمى في بداية أمره بعلم الصنعة، وعلم التدبير، وعلم الميزان، وعلم جابر[٢٨]، وتطرق سزكين إلى إنجازات المسلمين في هذا المضمار، كما أسهب في الدفاع عن جابر بن حيان (ت:١٩٩هـ/٨١٥م) والذي عده بعض المستشرقين شخصية وهمية ليس لها وجود مما حدى بسزكين للبحث المعمق لتقديم صورة واضحة لا لبس فيها عن هذه الشخصية، واستطاع الوصول إلى مخطوطات، ووثائق ومصادر ذات أهمية بالغة أثبت من خلالها حقيقة هذه الشخصية العلمية التي عاشت في القرن الثاني للهجرة/ الثامن الميلادي، وأنه يعد بحق المؤسس الأول لعلم الكيمياء القائمة على الملاحظة والتجربة[٢٩]، واستشهد سزكين بشهادات بعض الغربيين كعالم الكيمياء الإنكليزي المعروف ارك جون هولميارد (١٨٩١-١٩٥٩م) الذي يُعد أول من اعترف بجهود جابر في تاريخ الكيمياء،[٣٠]، كما تناول فؤاد سزكين إلى إنجازات عدد من علماء المسلمين في الكيمياء، وخصّص كالعادة قسمًا من المتحف لعرض الآلات والأواني التي نجح في إعادة صنعها والتي كان علماء المسلمين يستخدمونها في اختباراتهم وتجاربهم الكيماوية[٣١].

كما خصّص فؤاد سزكين جانبًا من نشاطه البحثي لتاريخ الفلك[٣٢] الذي اهتم به المسلمين به منذ وقت مبكر لأهميته في حياتهم العملية، فضلاً عن ارتباط بعض أحكام الدين بالظواهر الفلكية كتحديد أوقات الصلاة، ومعرفة سمت القبلة، وتحديت مواقيت الحج، والأعياد، وغير ذلك مما دفعهم للاهتمام بالفلك كعلم لا يمكن الاستغناء عنه، فقد كان لهذا العلم معنى ديني عميق في حياة المسلمين، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة نحث المسلمين على التفكر في خلق السموات والأرض قال تعالى: {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ}[٣٣] إلى غير ذلك من الآيات[٣٤]، وقد أثبت سزكين بدلائل تاريخية أن الأمم الشرقية حتى قبل الإسلام كانت مُهتمة منذ القدم بالنجوم فالعرب قبل الإسلام كان لهم اهتمامًا بالنجوم إذ نجد في التراث العربي ثلاثمئة نجم باسمها العربي وأثبت أن الكواكب السبعة كان معروفة لديهم ، وأن علماء اليوم على قناعة بأن الفلك بدأ بصورة علمية في أوساط العلماء المسلمين عندما دعا الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور سنة (١٥٤هـ/ ٧٧٠م) بعض الفلكيين الهنود إلى بغداد كما ترجم إبان حكمه كتبًا من اليونانية والهندية إلى العربية لكن مرحلة التحري والإبداع بدأت زمن الخليفة المأمون (ت: ٢١٨هـ/٨٣٣م) حين دعا إلى إقامة مرصدين في بغداد ودمشق[٣٥].

وقام سزكين بإلقاء الضوء على المراصد التي أنشئت في أقاليم ومدن إسلامية أخرى عبر العصور الإسلامية مثل مرصد مدينة الري الذي أسّسه الأمير فخر الدولة بين عامي ٣٦٦-٣٨٧هـ بناءً على طلب الفلكي الكبير حامد بن الخضر الخجندي (ت:٣٩٠هـ/١٠٠٠م)، وفي مدينة مراغة كان هناك مرصد كبير أشرف على إنشائه العالم نصير الدين الطوسي (ت:٦٧٢هـ/١٢٧٤م)، وفي مدينة سمرقند بني مرصد بإدارة الغ بك (ت:٨٥٣هـ/١٤٤٩م)، وكان يعمل فيهما فلكيون مختصون ابتكروا واستخدموا آلات فلكية مختلفة ، وفي إسطنبول أسّس مرصد كبير تحت إشراف العالم تقي الدين المصري بين عامي (١٥٧٥-١٥٨٠م)، وذكر سزكين المراصد التي تمّ بناؤها من طرف سلاطين المغول في الهند في كل من دلهي، وجايبور، وبينارس وغيرها من المدن بين القرنين السادس عشر والثامن عشر الميلاديين، هذا في الوقت الذي تأخر تأسيس المراصد في أوربا قرونًا حيث وضع حجر الأساس لأول مرصد عام ١٥٧٦م تحت إشراف الفلكي تيخو براهة (١٥٤٦-١٦٠٢م) في جزيرة هوين في وسط أوربا، ومن الجدير بالذكر أن مؤلفات الفلكيين المسلمين أمثال سعيد السجزي (ت:٤١٥هـ/١٠٢٤م)، وعبدالرحمن الصوفي (ت:٣٧٦هـ/ ٩٨٣م) وغيرهما من الفلكيين المسلمين كانت قد انتقلت إلى أوروبا، كما قام سزكين في إعادة صنع تسعين آلة من تلك الآلات الفلكية، وعرضها في المتحف، وخصّص لشرحها المجلد الثاني من كتاب العلم والتكنولوجيا في الإسلام بأكمله[٣٦].

وأشاد سزكين بإسهامات المسلمين في الجغرافيا، ورسم الخرائط، ويستشهد ببعض إسهاماتهم، والتعديلات التي ادخلها المسلمون على الخرائط اليونانية منذ وقت مبكر، ومنها على سبيل المثال خريطة العالم التي شارك في رسمها نحو سبعون جغرافيًا في عهد الخليفة العباسي المأمون (ت:٢١٨هـ/ ٨٣٣م)، وهي الخريطة التي وجدها المسلمون في الأراضي البيزنطية وتعود إلى بطليموس (ت:١٦٨م)، حيث أجروا عليها تعديلات وتصحيحات كثيرة، كما استشهد سزكين بخريطة الشريف الإدريسي (ت:٥٦٠هـ/ ١١٦٦م) التي استغرق

العمل بها نحو خمسة عشر عامًا حتى تمّ إكمالها عام ١١٥٤م حيث اعتمد فيها على الخريطة التي رسمها في عهد المأمون وتخبرنا هذه الخرائط أن العلماء المسلمين هم أول من حددوًا خطوط الطول ودوائر العرض بشكل صحيح[٣٧].

وقد شهد المستشرقون بفضل الجهود المبذولة من قبل الجغرافيين المسلمين أمثال أبي الريحان البيروني (ت:٤٥٣هـ/١٠٦١م) الذي وصفه المؤرخ البلجيكي جورج سارتون (١٨٨٤-١٩٥٦م) بأنه من أعظم العقول التي عرفتها الإنسانية لأن البيروني طبّق نظرية المثلثات في زمانه رغم أن تاريخ الجغرافيا الحديثة يرجع أول تطبيق لنظرية المثلثات إلى العالم الهولندي ويلبرورد سنيليوس (١٥٨٠-١٦٢٦م) وقال في حقه المؤرخ الأمريكي بنيامين بوير(ت:١٩٧٦م) أنه قد وضع نظرية الجاذبية الأرضية قبل العالم الإنكليزي إسحاق نيوتن (ت:١٧٢٧م)[٣٨]، وأن التطور الذي حصل في مجال الجغرافيا البشرية منذ القرن (٤هـ/١٠م) لم يكن به مثيل في الغرب قبل القرن التاسع عشر الميلادي وقد ظهر بين المسلمين عدد من العلماء المهتمين بهذا القسم من الجغرافيا، وكان آخرهم الجغرافي الشهير شمس الدين المقدسي (ت:٣٨٠هـ/٩٩٠م) فقد اعترف المستشرق النمساوي الويس اشبرنجر(ت:١٨٩٣م) بفضله، ومكانته قائلا "أن المقدسي هو أعظم جغرافي عرفته البشرية.. نعرفه للمرة الأولى في أوروبا[٣٩]، وقد عرض سزكين رسومات في متحفه لبعض من الابتكارات والطرق إلى استخدمها الجغرافيون المسلمون، ومن أهمها كيفية قياسهم لخط الاستواء، وكيفية استخراج مقدار محيط الأرض، واستخراج درجات الطول[٤٠].

وفيما يخص المكتشف الأول لقارة أمريكا فالمشهور عند عامة الناس أن الرحالة الإيطالي كريستوفر كولومبوس (ت:١٥٠٦م) هو مكتشفها إلا أنّ سزكين كغيره من علماء الشرق والغرب أكد بدلائل عديدة وبصورة تفصيلية على أنّ المسلمين كانوا روادًا في اكتشاف القارة الأمريكية، ولأهمية هذا الموضوع نشر بحثًا مُستقلاً قدّم من خلاله كل الأدلة التي تثبت وصول المسلمين إلى أمريكا قبل كولومبوس، والأهم من ذلك هو الأسبقية إلى رسم خريطة أمريكا إذ كان المسلمون هم أول من رسموا خريطة شبه الجزيرة الأمريكية وعلماء المسلمين – اعتبارًا من القرن التاسع الميلادي – قد رسموا خرائط لقسم كبير من غربي المحيط الأطلسي وسواحله، وقد خرج كولومبوس في رحلته إلى القارة الأمريكية معتمدًا على الخرائط التي حصل عليها الأوربيون من المسلمين، وكان البرتغاليون والإسبان القدامى يعرفون هذه الحقيقة، وقد قام سزكين بعرض تلك الخرائط في متحفه ومنها خريطة ساحل البرازيل كما رسم الطريق الذي سلكته سنة ١٤٢٠م سفينة من العالم الإسلامي إلى أمريكا[٤١].

خَاتِمَةٌ

وفي ختام البحث لا بد من الإشارة إلى بعض الاستنتاجات لعّل من أهمها:

- يُعد العلامة فؤاد سزكين من مشاهير مؤرخي المسلمين في القرن العشرين، وتخصّص في دراسة التراث والحضارة الإسلامية، مُكرسًا حياته وجهوده لإحياء ذلك التراث من خلال دراساته الرصينة المعمّقة التي ناقش من خلالها إسهامات المسلمين الحضارية، وكذلك أسباب ركود الثقافة الإسلامية في عصره، واقترح العوامل المساعدة على النهوض، وكان هدفه تصحيح المفاهيم الخاطئة، وأن يُعيد للمسلمين ثقتهم بحضارتهم الإسلامية، وليدافع عنها من منطلق انتمائه لها أمام حملات التشويه والتحريف على يد بعض المستشرقين، ويمكن القول أنه يُعد مهندس النهضة التاريخية للمسلمين في العصر الحديث.
- تميّز -رحمه الله-بأصالته، وعمق انتمائه لامته الإسلامية، فرغم أنه هاجر إلى ألمانيا حيث عمل، وكتب، وتزوج وأنجب، إلا أنه ظلّ حتى نهاية حياته مهمومًا بقضايا امته الإسلامية، لذلك سوف يبقى نموذجًا للأجيال المسلمة في إخلاصه، وعلو همته.
- يمكن القول أن فؤاد سزكين كان باحثًا أكاديميًا بكل معنى الكلمة، فقد تمتّع بقوة شخصيته، وإيمانه، وتحمله للمشاق من أجل الوصول إلى مُبتغاه، واتسمت أعماله بالشمولية، والمنهج العلمي الرصين المحايد، والمتحرر من العواطف، والميول المسبقة، كان يقضي مُعظم وقته في البحث والكتابة، والتحقيق، وخلّف لنا ثروة علمية هائلة، لعّل من أهمها كتابه الموسوعي: (تاريخ التراث العربي)، فضلاً عن قيامه ببعض الأعمال المؤسساتية الفريدة مثل تأسيسه لمعهد تاريخ العلوم الإسلامية في مدينة فرانكفورت، وكذلك متحفين لعرض مخترعات المسلمين العلمية أحدهما في فرانكفورت، والآخر في مدينة إسطنبول.

- تميّز سزكين عن غيره من الباحثين والمستشرقين بنظرته الإنسانية، ومنهجه الشمولي، فهو لا ينظر إلى التاريخ مجزءًا بل ينظر له ككل، لذلك دافع بشدة عن مبدأ وحدة العلوم، واعتبر تراث البشرية العلمي إرثًا متواصلاً، وليس ملكًا أو حكرًا على الغرب وحده، ومن هذا المنطلق أراد أن يبّين إسهامات المسلمين في تاريخ العلوم فيعطيهم ثقة بالنفس، ويبيّنه أيضًا للأوربيين فيدركون أن ازدهار العلم الحديث يُعزى في جانب منه إلى الإنجازات الإسلامية.
- بيّن فؤاد سزكين أنّ الحضارة الإسلامية تقوم على مُرتكزات أساسية قوامها: الدين الإسلامي، واللغة العربية والهدف الإنساني، والامتداد الحضاري. وأن المسلمين إذا أرادوا أن يكون لهم مكانة بين الأمم فلا بد أن يؤمنوا يقينًا أنّ لهم قيمة، ولهم دور مهم في الحضارة الإنسانية، وأنّ يثقوا بقدراتهم، وأن لا يقفوا مكتوفي الأيدي، بل عليهم العمل الدؤوب، والمطالعة، والبحث الجاد المتواصل، وتوفير الإمكانيات اللازمة، وفي مقدمة ذلك التمكن من لغات مختلفة للإحاطة بمصادر التراث المتنوعة.

الهَوامِش:

(1) Turan. Sefer, Fuat Sezgin Bilim Tarihi Sohbetleri . Bask 1, Istanbul. 2015,37.

(٢) قام سزكين بنشر أطروحته ككتاب سنة ١٩٥٦م تحت عنوان "دراسات حول مصادر البخاري"، وأثار بعض ما جاء فيها جدلاً بين الباحثين بسبب قوله: إن البخاري في كتابه الجامع قد برهن على أنه ليس عالم الحديث الذي طور الإسناد، بل هو أول من بدأ معه انهيار الإسناد، وأن الأسانيد ناقصة في حوالي ربع المادة.

(٣) أحمد فؤاد باشا، **فؤاد سزكين مؤرخًا لعلوم الحضارة العربية الإسلامية**،
https://www.alfaisal-scientific.com/?p=3061

(4) Turan,OP.CIT.,P.,37,64-68.

(٥) فؤاد سزكين، تاريخ التراث العربي، ترجمة: محمود فهمي حجازي (قم: ١٤١٢هـ)، مج١، ج١، ص٧.

(٦) **علوم الأوائل**: مصطلح أطلقه المسلمون على العلوم التي نقلوها من الثقافات السابقة وبخاصة اليونانية كالعلوم الرياضية والمنطق، والفلسفة، والطب، والفلك وسميت كذلك بالعلوم (المحدثة) لتمييزها عن العلوم الدينية. يُنظر: أبو عبد الله محمد بن يوسف الخوارزمي (ت:٣٨٧هـ/٩٩٧م)، **مفاتيح العلوم**، مطبعة الشرق (القاهرة:١٣٤٢هـ)، ص ٤؛ دي بور، د. ج، **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة. محمد عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة:١٩٣٨)، ص٣٦.

(٧) فؤاد سزكين، **محاضرات في تاريخ العلوم العربية والإسلامية** (فرانفورت:١٩٨٤)، ص٢٤.

(٨) أحمد فؤاد باشا، **فؤاد سزكين مؤرخًا لعلوم الحضارة العربية الإسلامية**،
https://www.alfaisal-scientific.com/?p=3061

(٩) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج١، ج١، ص ٧-٨.

(10) Turan, OP.CIT.,P.,71.

(11) Bayhan, Nevzat Bilimler Tarihinde Zirve isimFuat Sezgin. Istanbul ; 2015,P.,70.

(12) Turan, OP.CIT.,P.,76.

(١٣) عبد السلام حيدر، **فؤاد سزكين وتاريخ العلوم العربية والإسلامية**،
https://www.ida2at.com/fuat-sezgin-history-arab-islamic-sciences

(١٤) عرفان يلماز، **مكتشف الكنز المفقود فؤاد سزكين وجولة وثائقية في اختراعات المسلمين**، ترجمة. أحمد كمال دار النيل (مصر: ٢٠١٥)، ص٥٨.

(15) Turan,OP.CIT.,P.,40.

(١٦) يلماز، **مكتشف الكنز المفقود**، ص٦٧، ٦٨.

(١٧) فؤاد سزكين، **عرض موجز لمتحف إستانبول لتاريخ العلوم والتكنلوجيا في الإسلام**، إشراف. نوزاد بيهان (إستانبول:٢٠١٠)، ص ١٠.

(١٨) يلماز، **مكتشف الكنز المفقود**، ص١٠٠.

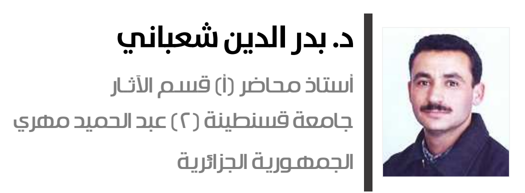
(١٩) يلماز، المرجع نفسه، ص١٠٣.

(٢٠) سزكين، عرض موجز، ص ١٣.
(٢١) سزكين، المرجع نفسه، ص٢٤.
(٢٢) يلماز، المرجع السابق، ص٦٧.
(٢٣) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج٥، ص٢٦٣-٥١١.
(٢٤) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج٣، ج١، ص٢٠٣-٣٤٢.
(٢٥) سزكين، **عرض موجز**، ص١٦١-١٧٠.
(٢٦) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج٤، ص٤٥٥-٥١٦.
(٢٧) سزكين، المرجع نفسه، مج٤، ص ٥٠٣ .
(٢٨) الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص١٤٦؛ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت:٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **المقدمة**، دار الفكر (بيروت:١٩٨٨)، ص٦٩١.
(٢٩) سزكين، المرجع نفسه، مج٤، ص١٩٧-٣٩٥.
(٣٠) سزكين، المرجع نفسه، مج٤، ص ٢٠٢ -٢١٥.
(٣١) سزكين، عرض موجز، ص١٧٥-١٨٣.
(٣٢) وكان يُعرف أيضًا بعلم الهيئة أو الاسطرنوميا، وهو مصطلح يوناني مكون من مقطعين. اصطر: النجم، ونوميا: هو العلم. يُنظر: الخوارزمي، **مفاتيح العلوم**، ص١٢٢.
(٣٣) سورة آل عمران، الآية (١٩٠).
(٣٤) يُنظر على سبيل المثال لا الحصر: سورة الأنبياء، الآية (٣٠)؛ البقرة، الآية (٢٩، ١١٧، ١٨٩)، الأنعام، الآية (١٤،٩٦،١)؛ فصلت، الآية (٩)، هود، الآية (٧)، يونس، الآية (٣)، يس، الآية (٣٨)، الأعراف، الآية (٥٤)، النمل، الآية(٨٨).
(٣٥) سزكين، **تاريخ التراث العربي**، مج٦، ص١٢.
(٣٦) سزكين، عرض موجز، ص ٣٦-٤٨.
(٣٧) سزكين، المرجع نفسه، ص٣٠-٣١.
(٣٨) يلماز، المرجع السابق، ص٢٢١.
(٣٩) Turan,OP.CIT.,P.,51.
(٤٠) سزكين، عرض موجز، ص٧٦-٧٧.
(٤١) يلماز، المرجع السابق، ص، ٢٣٧-٢٥٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

أدوات الخط وآلات الكتابة

دراسة فـي سيميولـوجيـة آلات فنـون الخـط العربي والزخرفة الإسلامية



د. بدر الدين شعباني
أستاذ محاضر (أ) قسم الآثار
جامعة قسنطينة (٢) عبد الحميد مهري
الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

كانت صناعة الوِرَاقَة من أهم الحرف المتعارفِ عليها في الحضارة الإسلامية، وقد خلص تشومسكي إلى أن الكتابة تبقى الأداة الأكثر فعالية في الخطاب التواصلي والإبلاغي كونها تضمن الاستمرارية، ومنفذا إلى المتلقي مهما تباعد المكان والزمان لما كانت تنضوي عليه من رموز ودلالات، وهو ما قال به إبراهيم بن محمد الشيباني منذ القرن الثالث الهجري: "الخط لسان اليد وبهجة الضمير، وسفير العقول ووصي الفكر، وسلاح المعرفة، وأنس الإخوان عند الفرقة ومحادثتهم على بعد المسافة، ومستودع السر وديوان الأمور" . ولما كان الخط هندسة روحانية آلتّه جسمانية فقد سعى محسنوه بكل الوسائل المتاحة لغرض تجويده، وإخراجه بالصورة اللائقة على أكمل وجه؛ لذا فقد تعددت الوسائل المساعدة في عمليات الكتابة وتخريج المخطوطات في صورتها الراقية. وبعد تخصص الدلالة في التركيب اللغوي، توسعت لتشمل ما هو لغوي وغير لغوي من الرموز، والإشارات، والسمات، وهو ما أنبنى عليه ميلاد السيميولوجية كمنهج جديد في دراسة الدلالة بحيث لم تعد اللغة المحتكر الوحيد في البحث، إنما برزت أنظمة إبلاغية أخرى أهمها النظام الإشاري البصري، وبما أن الأدوات المستعملة في تأدية الصنائع كانت تحمل معان ورموز ذات دلالات خاصة، فقد أهلها ذلك لتصبح مجالا خصبا للدراسة والبحث في أشكالها ومضامينها تيمنا بمختلف الفنون التطبيقية. إن ممارسة الفنون الإسلامية يُعَدّ لقاءًا كاملًا بين إبداع الموهبة ونتاج العبقرية وبين دقة الصنعة ومهارة التنفيذ وحسن الإخراج، فهو اجتماع بين الذكاء المتقد وبين الخبرة والإتقان، وبهذا يصل الفن إلى ذروة الجمال. إن أحد العنصرين: الموهبة والخبرة قد يصل بنا إلى إنتاج فني، ولكنهما معا يصلان بنا إلى جمال فني، وهو لغة وتواصل، وقمة بلاغة التعبير الفني، والغاية التي يهدف الفن الإسلامي إلى تحقيقها، وإيصالها إلى حس المشاهد (أي المتلقي)، وهي ارتقاء به نحو الأسمى والأعلى والأحسن أي نحو الأجمل، واتجاه نحو السمو في المشاعر والتطبيق من حيث الشكل والمضمون والنَّتاج، ورفضًا للهبوط.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ أغسطس ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٢ نوفمبر ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الشكل؛ المضمون؛ الوراقة؛ الآلة؛ الكاغد؛ الدواة؛ الميمات؛ المزبر

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057054

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

بدر الدين شعباني. "أدوات الخط وآلات الكتابة: دراسة في سيميولـوجيـة آلات فنـون الخـط العربي والزخرفة الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٦٩ – ١٨٥.

مُقَدِّمَةُ

عُني بدراسة الخط العربي وآثاره الأديب والمؤرخ، والأثري والمزوق على السواء، وأُلفت المؤلفات في ذلك بصورة ملفتة للنظر، وأخرج الخطاطون وأصحاب الفنون التشكيلية لوحات فنية في الخط غاية في الجمال، حتى رسخ هذا الفن في أذهان العام والخاص، وانسلخ عنه فن الكتابة والإنشاء بمفهومه الواسع الذي كان يشمل الكاتب والناسخ والخطاط مقرونا بأدوات الكتابة في مؤلفات الكتاب المسلمين المهتمين بهذا النوع من الفن.

وحديثا أدَّتْ الدراسة المعمقة لصناعة المخطوط إلى إنشاء فرع جديد في هذا الفن يعرف بعلم آثار

الكتاب المخطوط أو الكوديكولوجيا (Codicologie)، وهو علم يدرس الكتاب المخطوط بوصفه موضوعًا ماديًا، وبعبارة أفضل بوصفه وعاءً للنصوص، فإضافة إلى الخط كانت صناعة الورق وطي الصحائف، وتشكيل الملازم، وتركيب الصفحات، والثقب، والزخرفة والنمنمة، والتذهيب والتسفير والنساخة بمفهومها الواسع وكل ما تعلق بالوراقة أفعال صناعية مرتبطة بالمخطوط، ومُشكِّلةً في مجملها صناعة هذا الأخير، وقد سخرت لأجل تحقيق ذلك أدوات وآلات مختلفة، وعلى رأسها أدوات الخط والكتابة.

قال أحمد بن محمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد: البلاغة تكون على أربعة أوجه: تكون باللفظ والخط والإشارة والدلالة، وكلٌّ منها له حظ من البلاغة والبيان وموضع لا يجوز فيه غيره ... ورب إشارة أبلغ من لفظ. فأمّا الخطّ والإشارة فمفْهومان عند الخاصة أو أكثر العامة. وأمّا الدِّلالة: فكل شيء دلَّك على شيء فقد أخبرك به، كما قال الحكيم: أشهد أنّ السمواتِ والأرضَ آيات دالاّت، وشَواهد قائمات، كلٌّ يُؤدّي عنك الحُجَّة، ويَشهد لك بالرُّبوبية[1].

ولما كان القرآن الكريم الذخيرة الموحية للحياة! فقد كان الذخيرة الموحية لهذا الفن، لذا فقد كان هذا الفن في حاجة شديدة ودائمة لمراجعته، فبتأثيره الساحر في نفوس العرب كان واحدًا من أسباب انصراف المسلمين الأوائل عن التعبير الفني فترة من الوقت لأنه أغناهم – مؤقتًا – عن جمال الأداء بجمال التلقي والانفعال! لقد كانت بلاغة القرآن البيانية ومضمونه الشامل الأساس النظري والفني لإبداع الخط العربي، والزخرفة وهي الصيغة التصويرية كانت تحولاً رمزيًا من الكلمة إلى الصورة تم ذلك بتأثير المضمون القرآني، فالزخرفة مضمون وصورة، هي مضمون روحي وصورة هيروغليفية.

وحتى الجمالية الإسلامية استعارت بلاغتها من القرآن الكريم، فكما أن مضمون الكتاب وصياغته يتفاعلان لكي يشكلا معا جمال البلاغة القرآنية، كذلك فإن معاني الصيغ النباتية أو الهندسة في الرقش وفنون الزخرفة، ومعاني الكتابة القرآنية في الخط البديع، تتفاعل لكي تؤلف مع الشكل المبدع المشهد البصري ذي المعاني السامية في الفن الإسلامي. إن نظرة فاحصة ندقق فيها في تحولات الخط وأشكاله، تبين لنا كيف انفصلت الزخارف المرافقة له، سواء في الخط اللين أو اللين الكوفي -خط المصاحف- وكونت الزخرفة، التي اختص بها الفنان المسلم وانتشرت متطورة متنوعة، محمولة على جميع الأشياء من عمارة ومتاع وثياب. لقد فهم المسلمون أن أواصر تجمع بين جميع أشكال الفنون، والشعر والعمارة والزخرفة والخط، ففي العمارة قصيدة ونحت وموسيقا، وفي الزخرفة رقص وأنغام، وفي الخط عمارة وغناء وتصوير، وفي الشعر جميع الفنون.

مكر مفر مقبل مدبر معًا
كجلمود صخر حطه السيل من علٍ

والخط العربي هو فن الرسم والعمارة وهو فن المعاني التي تصاغ ألحانا، فإذا أُخذ مثالاً عن الإبداع فلا يقصدُ بذَاتِه فقط، بل عني به جميع أشكال الفنون الأخرى. وهكذا ثمة أواصر واضحة بين الفكر الإسلامي والخط والزخرفة، هذه الأواصر التي تدفعنا دائما إلى البحث عن النظرية الجمالية في مبادئ العقيدة والفلسفة الإسلامية [2]. وقد برز مجموعة من الكتاب والخطاطين على مختلف المستويات مارسوا حرفة كتابة المصاحف وفنون توريق الكتب والمخطوطات وفق المبادئ الإسلامية، ومع ذلك فإن هذا الفن لم يكن فنا دينيا، أي أنه لا يقوم بوظيفة دينية محددة، وليس هو فرض من فروض الدين، وليس من حق أحد أن ينظر إليه على أنه فن الدين الإسلامي، ولكنه يبقى فن الحضارة الإسلامية.

إن هذا المستوى الراقي المقدم في فن الوراقة يجعلنا نتساءل عن المكانة الاجتماعية التي تمتع بها هؤلاء الكتاب وأهل هذه الحرفة عبر الأزمنة المختلفة؛ وعن ظروف البيئة المحيطة بتخريج مختلف أشكال الكتاب المخطوط، وما الوسائل والأدوات المسخرة في تحقيق ذلك؟ وما القيمة التي كان يوليها أهل هذه الحرفة لوسائل الكتابة، وفن الوراقة؟ وما أساليب العناية بها؟ وما المضامين والدلالات التي تنضوي تحت هذه الآلات والأدوات؟

من أولى الكتابات في هذا المجال الرسالة العذراء لإبراهيم بن محمد الشيباني القيرواني والمنسوبة خطأً لابن المدبر البغدادي[3]، وقد تطرقت هذه الرسالة في مضمونها إلى صنعة الكتابة، وصفات الكاتب، وبدائع الصدور في الرسائل، وما يمدح به الملوك، وخواتيم الرسائل، وحسن الخط، وغيرها من المواضيع. وخلال القرن (١١هـ/ ١٧م) برز من الكتاب المغاربة في هذا الفن بكر بن إبراهيم الإشبيلي، وكتابه: "التيسير في صناعة التسفير"، والكتاب مرتب ترتيبا جيدًا في وصفه ومادته، فهو يبتدئ بمقدمة تتضمن بيان الباعث على تأليفه، وأفضلية هذه الصناعة، وتسميته،

وتقسيمه إلى أبواب وفصول، بحسب الأغراض والمعاني التي تناولها.

وكان أول ما يبدأ به الكاتب إصلاح الدواة ثم الأقلام والقراطيس، والسكين وما إلى ذلك من أدوات الكتابة حيث جاء في الرسالة العذراء: "واعلم أن أول ما ينبغي لك أن تصلحه آلتك التي لا بد منها، وأدواتك التي لا تتم صناعتك إلا بها[٤]". كما كان الكاتب يتميز بصفات ذات دلالات شكلية وضمنية متعارف عليها بين أهل الحرفة كـ: أن يكون صحيح القريحة، حلو الشمائل، عذب الألفاظ، دقيق الفهم، حسن القامة، بعيدًا من الفَدَامة، خفيف الروح، حاذق الحس، محنكا بالتجربة، عالما بحلال الكتاب والسنة وحرامهما، وبالملوك وسيرها وأيامها، وبالدهور في تقلبها وتداولها، مع براعة الأدب، وتأليف الأوصاف، ومشاكلة الاستعارة، وحسن الإشارة، وشرح المعنى بمثله من القول، حتى ينصب صورًا منطقية تعرب عن أنفسها، وتدل على أعيانها، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتَّاب طول القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم، وكثافة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وملاحة الزيّ، حتى قال بعض المهالبة لولده: تزيَّوْا بزيِّ الكتَّاب، فإن فيهم أدب الملوك وتواضع السُّوقة.

ومن الإشارات الدالة على كمال آلته: أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، صادق الحس، حسن البناء، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستفره المركب، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة، فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة. وخَاطِبْ كُلًا على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه[٥].

ومن الكتب التي خاضت في هذا المجال كذلك كتاب: "منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة" لصاحبه محمد بن أحمد الزفتاوي (٧٥١ – ٨٠٦هـ) شيخ القلقشندي صاحب كتاب: " صبح الأعشى". حيث ذكر المصنف في مقدمة كتابه: "وبوبته أبوابًا، بدأت فيها بذكر من وضع الخط وأصَّله، ومن فصله ووصله، وذكر من وضع الخط العربي وأقامه، وصنع حروفه وأقسامه، وفَضْلُ الخط والقلم، وما لهم في ذلك من الحكم، ثم نذكر الدواة وصفاتها وآلاتها، والسكين وحالاتها، والمداد وأصنافه، والحبر وأوصافه، والبريَ وأحكامه، والقَطَّ وأقسامه، والتسوية والمط، والشَّكل والنَّقط.

وذكرت حروف المعجم المفردة وأشكالها وهيئاتها وصفاتها، وأتبعت ذلك ببقية ما يحتاج إليه من التاريخ، والتراب، والسَّحاة، والعنوان، والطين، والختم، جمعت ذلك من كلام العلماء باللغة والكتابة، المشهورين بالحذق والإصابة"[٦]. هذا وقد وظف القلقشندي جزءًا لا بأس به من رسالة أستاذه هذه في موضوعه آلات الكتابة، والذي قسمه إلى ثلاثة أطراف أو أقسام أساسية وعملية، والتي نراها مناسبة لنعتمدها في تقسيم هذا المقال مع التصرف في مفرداتها من حيث الشكل والمضمون بما ينفع الموضوع ويفي بالغرض من كتابته.

أولًا: في الدواة وآلاتها

اشتق اسم الدواة من الدواء لأنه بإصلاحها يتم إصلاح أمر الكاتب، كما يصلح الجسم بالدواء[٧]، ويقتصر مدلول الدواة في المفهوم الشعبي الحديث على المحبرة فقط والحقيقة أن المحبرة لا تشكل سوى جزءٍ من الدواة، ومرد ذلك أن الكتاب اختلفوا في اتخاذ المحبرة مفردة عن الدواة فمنهم من رجحها ومال إلى اتخاذها مفردة لخفة حملها ورمزية الخير فيها، فقالوا بها يكتب القرآن والحديث والعلم، وكرهها بعضهم واستقبحها وبخاصة بعض أهل الحرفة باعتبارها رمزًا للبؤس والشقاء والشؤم، ولكونها آلة النسخ الذي هو من أشد الحرف وأتعبها وأقلها مكسبا، وفي هذا الصدد يروى أن شعبة رأى في يد رجل محبرة فقال: إرم بها فإنها مشؤومة لا يبقى معها أهل ولا ولد ولا أم ولا أب[٨].

وبالجملة فإن الدواة هي أم آلات الكتابة وسمطها الجامع لها، فقد شبهها أهل الحرفة بسلاح المحارب الذي لا غنى له عنه في حروبه دلالة على أهميتها لمحترف الكتابة، ولا يخفى ما يجب من الاهتمام بأمرها والاحتفال بشأنها فقد قال عبد الله بن المبارك: من خرج من بيته بغير محبرة وأداة فقد عزم على الصدقة، قال المدائني يعني بالأداة مثل السكين والمقلمة وأشباههما، وقال محمد بن شعيب ابن سابور: مَثَلُ الكاتب بغير دواة كَمثِلِ من يسير إلى الهيجاء بغير سلاح[٩]. وقد انعكس ما يحمله مضمونها من معان ودلالات على صورتها البصرية من حيث شكلها ومادة صنعها فكان على الكاتب أن يتخذها من أجود العيدان وأرفعها ثمنا كالآبنوس، والساسم، والصندل، وهذا اعتمادٌ منه على ما كان يعتاده أهل زمانه ويتعاناه أهل عصره، ويذكر القلقشندي أنه في زمانه قد غلب على الكُتَّاب من أهل الإنشاء وكتاب الأموال اتخاذ الدَّوي من النحاس الأصفر والفولاذ وتغالوا في

أثمانها وبالغوا في تحسينها، فكان النحاس أكثر المواد استعمالا والفولاذ أقل لعزته ونفاسته، واختصاصه بأعلى درجات الرياسة كالوزارة وما ضاهاها.

أما دَويُّ الخشب فقد رُفضت، وتركت إلا الآبنوس، والصندل الأحمر فإنه يتعاناه في زماننا قضاة الحكم، وموقعوهم، وبعض شهود الدواوين. وأجمل ما قيل في ذلك شعر بعض الكتاب بعد أن أهدى دواة محلاة بذهب وهي من الآبنوس:

قد بعثنا إليك أم المنايا
والعطايا نجية الأحساب
تتزيًّا بصفرة وكذا الزنج
تزيا عجبا بصفر الثياب
ريقها ريق نحلة مع صـاب
حين يجري لعابها في الكتاب
في حشـاها لغير حرب حراب
هن أمضى من مرهفات الحراب[١٠]

ومع ذلك فقد كان الكتاب يحثون على أن تكون الدواة قليلة التحلية ذلك أن حسن الدواة وجمالها يأتي من مضمونها لا من شكلها فحرصوا على الاعتناء بالمضمون أكثر من الشكل، ويصف لنا الحسن بن وهب شكلها فيقول: سبيل الدواة أن تكون متوسطة في قدرها لا باللطيفة فتقصر أقلامها وتقبح، ولا بالكثيفة فيثقل محملها وتعجف، فلا بد لصاحبها أن يحملها ويضعها بين يدي ملكه أو أميره في أوقات مخصوصة، لا يحسن أن يتولى ذلك غيره، وأن يكون عليها من الحلية أخف ما يكون ويمكن أن تحلى به الدوي، وفي وثاقةٍ ولطفٍ، ليأمن من أن تنكسر أو تنقصم في مجلسه.

وحق الحلية أن تكون ساذجة لا حفر ولا ثَنياتٍ فتحمل القذى والدَّنس، ولا نقش عليها ولا صورة لأن ذلك من زيِّ أهل التوضع، لا سيما في آلة يستعان بها على مثل هذه الصناعة الجليلة المستولية على تدبير المملكة، وإن أحرقت الفضة حتى يكون سوادها أكثر من بياضها فإن ذلك أحسن وأبلغ في السرو وأشبه بقدر من لا يتكثر بالذهب والفضة [١١]. قال الفضل: ويكون طولها بمقدار عظم الذراع أو فويق ذلك قليلا، لتكون مناسبة لمقدار القلم. قلت وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة الدواة من التدوير والتربيع، فأما كتاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدورة الرأسين لطيفة القد طلبًا للخفة.

وأما كتاب الأموال فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ليجعلوا في باطن غطائها ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحساب الديواني المناسب لهذه الدواة في القطع وعلى هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم إلا أنها في الغالب تكون من الخشب كما تقدم، واعلم أنه ينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها لما تختزنه من المعاني. ولله در المدائني حيث يقول:

جــود دواتك واجتهد في صونها
إن الدَّوِيَّ خــزائن الآداب[١٢]

ثـانيًا: الميمات

صنف القلقشندي سبعة عشرة بين آلة وأداة كلاً تبدأ بحرف الميم، والحقيقة أن الآلة هي نفسها الأداة فهما وجهان لعملة واحدة، ومع ذلك فلكل وجهٍ خصوصيته التي تميزه عن الوجه الآخر، فالآلة ما اعْتَمَلْتَ به من الأداة، وأما الأداة فمن العدة والوسيلة التي نستخدمها لتنفيذ شيء ما أو لتحقيق مرادنا من العمل الذي نقوم به، فلكل حرفة أداة وهي آلته التي تُقيم حرفته. وقد رمز محترفو الوراقة لمفردات هذه الحرفة بالميمات إشارة ودلالة على أن كل آلة من هذه الآلات تبدأ بحرف الميم، ورغم ذلك فإن كلا منها يتميز شكلاً ومضمونًا عن غيرها من الآلات والأدوات الأخرى، وسنستعرض هنا هذه المفردات مرتبة بحسب أهميتها بالنسبة لأهل هذه الحرفة.

٢/١-مزبر (القلم)

استخدم القلم المدبب منذ الألف الثالثة ق.م، وكان يعرف تحت اسم كلاموس (Calamus)، وكان هذا النوع من الأقلام يسمح بالحصول على كتابة أكثر دقة[١٣]، وقد استعمل هذا النوع من الأقلام في الخط المغربي لتلاؤمه والتنوع الإيقاعي لهذا النوع من الخط، فوفقا لمكونات الخط الجمالية تتشكل مسمياته، ذلك أن مكونات الإيقاع الظاهرة التي تكون الحرف وتُجمِّله تنسحب على الشكل العام للكلمة، فيطلق على شكل الخط الكوفي هذا المسمى بدلالة الزمن الإيقاعي في رسم الحرف وشكله الذي يميزه عن الحرف في الخط المغربي وغيره من أنواع الخط العربي، ولهذا كان لكل خط قلمه الخاص من حيث شكله ومقاساته وتحريف قطته بما يحقق الشكل المطلوب لكل خَطٍ بعينه، ويُخرِجُ حسناته.

و ينفرد المعز لدين الله باختراع قلم الحبر السائل كما ذكر صاحب المجالس والمسايرات حيث قال: "ذكر الإمام المعز لدين الله القلم فوصف فضله، ورمز فيه بباطن العلم"، ثم قال: نريد أن نعمل قلما يُكْتَبُ به بلا استمداد من دواة، يكون مداده من داخله، فمتى شاء

الإنسان كتب به فَأَمَدَّهُ وكتب بذلك ما شاء، ومتى شاء تركه، فارتفع المداد، وكان القلم ناشفًا منه، يجعله الكاتب في كمه أو حيث شاء فلا يؤثر فيه، ولا يرشح شيء من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عندما يُبْتَغَى منه ويراد الكتابة به، فيكون آلة عجيبة لم نعلم أنا سبقنا إليها ودليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى فيها[١٤]". وما كانت إلا أيام حتى جيء بالقلم معمولا من الذهب، وتمّمَ إصلاح تسرباته حتى أصبح مكتملًا.

وعن صفة بري الأقلام فقد حدثنا أحمد بن إسماعيل بن الخصيب قال: من كلام مسلم بن الوليد الأنصاري، في صفة بري القلم قوله: "حرِّف قطة قلمك قليلًا ليتعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليرد ما استودعته إلى مقصده، وشق في رأسه شقًا غير عاد ليحتبس الاستمداد عليه، ورَفِّع من شعبتيه ليجمعا حواشي تصويره. فإذا فعلت ذلك استمد القلم برشفه بمقدار ما احتملت ظبته فحينئذ يظهر به ما سداه العقل، وألحمه اللسان، وبلته اللهوات، ولفظته الشفاه، ووعتـه الأسماع، وقبلته القلوب".[١٥]

ولله در أبو الفتح البستي حيث يقول:

إذا أقسم الأبطال يوما بسيفهم

وعدوه مما يكسب المجد والكرم

كفى قلـم الكتـاب عــزا ورفعـــة

مدى الدهــر أن الله أقســم بالقلـم

قال تعالى: { اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ}. [العلق: ٣ و٤] فوصف نفسه تعالى بأنه علَّم بالقلم كما وصف نفسه بالكرم.[١٦]

الشكل والمضمون

جُسدت في القلم كل القيم والمعاني والرموز التعبيرية والإشارات، ووصفه إبراهيم بن محمد الشيباني فقال ما يلي: "ينبغي للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عقدا وأكثفه لحما وأصلبه قشرا وأعدله استواءً". فمن أنانيب قنا ناسبت رماح الخط في أجناسها وشاكلت الذهب في ألوانها وضاهت الحرير في لمعانها مضابطة الحفاء نمرة القوى لا يسيطها القط ولا يشعب بها الخط. ولعل خير الأقلام ما جاء في وصف الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله حيث قال: خير الأقلام ما استحكم نضجه في جرمه ونشف ماؤه في قشره وقطع بعد إلقاء بزره وبعد أن اصفر لحاؤه ورق شجره وصلب شحمه وثقل حجمه[١٧]. وانعكس هذا الانتقاء على شكله البصري ومضمونه فعُدَّ الآلة الأولى في مجموع الميمات – أدوات الكتابة – وقد عُرِفَ تحت مسمى المِزبر بكسر الميم، أخذًا له من قولهم زبرت الكتاب إذا أتقنت كتابته، ومنه سميت الكتب زبرًا كما في قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ} [الشعراء : ١٩٦]، وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومزبر أي قلم.[١٨]

ولما كان القلم حاملاً في مضامينه لأسمى المعاني والدلالات الرمزية، فقد أصبح أشرف آلات الكتابة، وأعلاها رتبة إذ هو المباشر للكتابة دون غيره، وغيره من آلات الكتابة كالأعوان، دلالة على مكانته ورمزيته، وقد قال الله تعالى: {ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم : ١] فأقسم به و في ذلك غاية الشرف، وجاء في رواية محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد إن أول ما خلق الله اليراع[١٩]، ثم خلق من اليراع القلم فقال له أكتب. قال: ما أكتب قال: ما هو كائن قال: فزبر القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة، وهو إشارة ودلالة على أن القلم لا يُسمَّى قلمًا إلا بعد أن يُقَلَّمَ وإلا فهو قصبة ويراع.

والقلم للكاتب كالسيف للشجاع فبنور الخط تبصر الحكمة؛ وبرفق القلم والسيف تصور السياسة، ومن كلام أبي حفص بن برد الأندلسي: ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة ويلفظ نورا قد يكون قلم الكاتب أمضى من شباة المحارب، القلم سهم ينفذ المقاتل وشفرة تطيح بها المفاصل، وفي هذا الصدد يقول الخليفة المأمون: "الخط روضة العلم، وقلب الفهم؛ وفن الحكمة؛ وديباجة البيان"، وقال أيضا وهو ينظر إلى مؤامرة بخط حسن: "لله دَرُّ القلم كيف يحوك وشي المملكة؛ ويطرِّزُ الدولة، ويقيم أعلام الخلافة"، لذا فقد كان للخط العربي في عملية الكتابة دور الصياغة المرئية للغة العرب المنطوقة، والقلم هو الصائغ، ويعبر بشر بن المعتمر عن هذا الدور فيقول: "القلب معدن؛ والعقل جوهر، واللسان مستنبط، والقلم صائغ؛ والخط صيغة".[٢٠]

وقد أوجز ابن الحرون ما للأقلام من مدركات لأشكالها البصرية، وما تنضوي عليه من إشارات لمضامينها المعنوية، ودلالاتها الرمزية عندما أهدى إلى رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما وكتب إليه: "إنه لما كانت الكتابة أبقاك الله أعظم الأمور، وقوام الخلافة، وعمود المملكة أتحفتك من آلتها بما يخف محمله، وتثقل قيمته، ويعظم نفعه، ويجل خطره، وهي أقلام من القصب النابت في الصخر الذي نشف بحر الهجير في قشره ماؤه وستره من تلويحه غشاؤه، وهي كاللآلئ المكنونة في الصدف، والأنوار المحجوبة في السدف تبرية القشور درية الظهور فضية الكسور قد

كستها الطبيعة جوهرا كالوشي المحبر، ورونقًا كالديباج المنير[٢١]".

وقال عبد الحميد بن يحي كاتب مروان: القلم شجرٌ ثمرته اللفظ والفكر؛ بحر لؤلؤه الحكمة والبلاغة؛ منهل فيه ريٌّ العقول الظامئة؛ والخط حديقة زهرتها الفوائد البالغة [٢٢]، ومن كتاب لأبي الخطاب الصابئ يصف فيه أقلاما أهداها في جملة أصناف: وأضفت إليها أقلامًا سليمة من المعايب مبرأة من المثالب جمة المحاسن بعيدة عن المطاعن لم ير بها طول ولا قصر، ولا ينقصها ضعف خور ولا يشينها لين ولا رخاوة، ولم يعبها كزازة ولا قساوة، وهي آخذة بالفضائل من جميع جهاتها مستوفية للممادح بسائر صفاتها صلبة المعاجم لدنة المقاطع موفية القدود والألوان محمودة المخبر والعيان.

وقد استوى في الملاسة خارجها وداخلها وتناسب في السلاسة عاليها وسافلها نبتت بين الشمس والظل، واختلف عليها الحر والقر فلفحها وقدان الهواجر ولفعها سمائم شهر ناجر، ووقذها الشفان بصرده وقذفها الغمام ببرده وصابتها الأنواء بصيبها واستهلت عليها السحائب بشآبيبها فاستمرت مرائرها على إحكام واستحصد سجلها بالإبرام جاءت شتى الشيات متغايرة الهيئات متباينة المحال والبلدان تختلف بتباعد ديارها وتأتلف بكرم نجارها[٢٣].

ونختم بوصف إبراهيم بن العباس للقلم وفق إيقاعات دلائلية تبرز من خلالها المعاني المادية والمعنوية، وجل الرموز والإشارات والسمات التي يمكن أن تنضوي تحت القلم فقال: " القلم ينطق عن الساكت، ويخبر عن الباهت، ويترجم عن القلوب، ويَطلَّعُ على الغيوب، ويشافه على بعد الدار، وتناءى المزار، لا تنقطع أخباره؛ ولا تدرس آثاره، ناطق، ساكت، مقيم، مسافر، شاهد، غائب، ناء، حاضر، إن استنهض بادر، وإن وعى أحضر، كتوم السر، مأمون الشر"[٢٤].

٢/٢-مقلـمـة

من خاصية المكان بحسب غاستون باشلار أنه يوفر الحماية والأمن الذين يوفرهما لنا البيت[٢٥]، وبحسب شولز (schulz) فإن العلاقة بين الإنسان والمكان تقوم على التفاعل القائم بينهما حيث يقول: "عندما يتموضع الإنسان في مكان ما فإنه يقوم بالتفاعل مع المكان من خلال وظيفتين أساسيتين هما: التوجيه وتعريف هوية ذاك المكان، وهنا نبدأ بمعرفة العلاقة بين ماهيته وماهية ذلك المكان". وهو ما يمكننا اعتباره تعريفا شاملا للهوية والتوجيه والماهية، وإذا ما قمنا باستعارة القلم ليقوم بدور الإنسان والمقلمة لتقوم مقام البيت فإنه يمكننا أن ندرك ما مدى التشابه بين القلم والإنسان، والأنساق الجمالية التي يمكننا استنباطها من خلال ذلك.

لقد عدت المقلمة المفردة الثانية في مجموع الميمات، وكانت تقوم بدور بيت الأقلام أي الوعاء أو المكان الذي توضع فيه الأقلام سواء أكان في نفس الدواة أو أجنبيًا عنها مفردًا، وكانت الوظيفة المنوطة بها توفير الحماية والأمن لسلامة الأقلام، ومن هنا يمكننا أن نفهم لغتها، ونوع العلاقة السيميولوجية الناشئة بينها وبين الأقلام المحفوظة في كنفها، ورغم ذلك فإن بعضهم لا يعدها من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبًا.

وقد كانت تعرف لدى كتاب المغرب الإسلامي تحت اسم الجوامع، وكان يتم إعدادها من الجلد، ومن الناس من يعملها بقلمين ومنهم من يعملها بأربعة أقلام وأكثر ما جري عليه الناس عملها بثلاثة أقلام[٢٦].

٣/٢-مـديـة (السكين)

المفردة الثالثة: السكينة وتجمع على سكاكين وقد استعير اسمها من مضمونها والغرض منها فسميت مدية أخذا من مدى الأجل وهو آخره لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره، وسميت سكينا لأنها تُسْكِنُ حركة الحيوان بالموت. قال الجاحظ: يقال للسكين مُدْيةٌ ومَدية ومِدية من مد الأجل، ونصابها أصلها، يقال: أَنْصبتَ السكين جعلتَ لها نصابا، وأَقْبَضْتهَا: جعلتَ لها مقبضا، وأقْرَبْتُهَا: جعلتَ لها قِرابًا، وأَغْلَفتُهَا: جعلتَ لها غلافا، وحكى أبو زيد: والحديدة الذاهبة في النِّصَابِ سيلان - (النصيل) -[٢٧]، وقال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله واستحدِّ السكين حدًا، ولتكن ماضية جدًا فإنها إذا كانت كالَّة جاء الخط رديئًا مضطربًا[٢٨].

أما من حيث الشكل فقد قال بعض الكتاب: هي مسن الأقلام تستحد بها إذا كلت، وتطلق بها إذا وقفت، وتلمها إذا تشعثت فتجب المبالغة في سقيها، وإحدادها ليتمكن من البري فيصفو جوهر القلم ولا تَتَشظَّى قطته، وينبغي ألا يستعملها في غير البراية لئلا تكل وتفسد، وأحسنها ما عرض صدره، وأرهف خصره، ولم يفضل عن القبضة نصابه. والسكين تذكر وربما تؤنث[٢٩].

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف ورأيت والدي وجماعة من الكتاب يستحسنون العقابية وهي التي صدرها أعرض من أسفلها ووصف بعضهم سكينا فقال: وسكين عتيقة الحديد، وثيقة الشعيرة، محكمة النصاب، جامعة الأسباب، أَحدَّ من البَيْن، وأحسن من اجتماع مُحِبَّيْن، وأمضىَ من الحُسامِ في بَرْي الأقلام،

وأحسنها ما عرض صدره، وأرهف حده، ولم يَفْضُل عن القَبْضَةِ نِصَابُه، واستوى من غير اعوجاج[٣٠].

٤/٢-مـقـط

المفردة الرابعة: قال الصولي: المِقط بكسر الميم فأما المَقَط فالموضع الذي يُقَطُّ من رأس القلم. وأحسن المقاط، وأمكنها المربع كهيئة فص النرد زائدًا عليه في الطول والعرض ساذج الطرفين، فإذا كان على هذا الشكل رحب مطاه، ووطَّءَ قراه، وكان أملأ لليد، وأمكن للقط[٣١]. والقط أنواع: محرفٌ؛ ومستوٍ، وقائمٌ، ومصوبٌ، وأجودها: المحرف المعتدل. قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله:" إذا قطعت فلا تقط إلا على مقط أملس صلب غير مُثَلَّم، ولا خشن لئلا يتشظى القلم"، وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف واصفًا شكله: "ويتعين أن يكون من عود صلب كالآبنوس والعاج ويكون مسطح الوجه الذي يقط عليه ولا يكون مستديرا لأنه إذا كان مستديرًا تشظى القلم وربما تهللت القطة فتأتي الإدارات والتشعيرات غير جيدة". قلت وينبغي ألا يكون مع ذلك مانعًا كالحديد، والنحاس، ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القطة صالحة[٣٢].

٥/٢-محـبرة

المحبرة من الدواة هي الجزء المقصودة في هذا الموضع، فقد أطلق الجزء على الكُل، واختلفت المحابر شكلاً ومضمونًا بحسب الحاجة، فمن حيث المضمون تحوي المحبرة في جوفها ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: الجونة، وهي الظرف الذي فيه الليقة والحبر، وقد أخرج ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي (ﷺ) قال: "خلق الله النون وهي الدواة"، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "لما خلق الله النون وهي الدواة، وخلق القلم فقال أكتب فقال: وما أكتب. قال: أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة"، وهذا الخبر والأثر دالان على أن المراد بالنون في

الآية هو الدواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك إذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى: { ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم – ١].

أما شكلها البصري فقد قال بعض فضلاء الكُتَّابُ: وينبغي أن تكون – أي المحبرة – شكلاً مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين يوقذهما خط، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد في زواياه فيفسد ويصير له ريح منتنة، ويتغير لونه فيتغير بذلك ما قرَّ منه، وما يليه من المداد المستمد في لونه ورائحته، فإذا كان مستديرا كان أبقى للمداد، وأسعد في الاستمداد، ويكون مقدارها طول الذراع وأقل قليلا، وتكون واسعة البطن مما تَسعُ خمسة أقلامٍ للكتابة.

وللملوك سبعة أقلام تفاؤلًا لهم بملك السبعة أقاليم على عادة جودة البرَي، وتقط على نحو ما وصفنا، ويكون تام الطول لتقبِض عليه متمكنا منه، وتفصيل أعلاه على اليد ليمتد فيه بجانب الأقلام أيضا، محراكٌ للدواة. ونؤكد على أنه يجب أن يكون رأس الدواة – موضع الليقة – مدورًا غير مربعٍ، وعلة ذلك كما ذكرنا: أن المربع يجتمع المداد في زوايا القائم عند ملتقى أضلاع تربيعه، فلا يقع عليه تحريك فيركد هناك، ويطول مكثه فيفسد ويصير له رائحة عفنة، ويتغير لونه، فيتغيرَّ بذلك ما قرَّ منه وما يليه من المداد المستمدِّ في لونه ورائحته[٣٣].

الصنف الثاني: الليقة وتسميها العرب الكرسف تسمية لها باسم القطن الذي تُتَّخذُ منه بعض الأحوال، وألاق الدواة في اللغة إنما هو أدار المداد فيها حتى لصق وعلق، ومن حيث المضمون فقد ذكر الجاحظ أنها لا تستحق اسم الليقة حتى تلاق في الدواة بالنَّقس وهو المداد، ومن حيث الشكل فإنها تتخذ من البرس، والطوط، والعطب، والحرير، والصوف، والقطن، ويقال فيه الكرسف[٣٤]. والأولى أن تكون من الحرير الخشن لأن انتفاشها في المحبرة، وذكر بعض الكتاب ليكن الكرسف في نهاية ما يكون من السواد ولتكن الليقة التي فيها الكرسف في نهاية اللين والنعمة، والأجود أن تكون مستديرة، وعدم تَلَبُّدِها أَعْوَنُ على الكتابة، فإن كان كذلك أجزأ الكاتب أن يسميها روق القلم. قال بن البصيص: ينبغي أن تكون الليقة من حرير مغسولة بالصابون منشفة تنشيفا جيدا، ثم تأخذ الحبر العال المطوس وتلقيه على الليقة وتحركها[٣٥].

وقال بعض الكتاب ويتعين على الكاتب أن يتفقد الليقة، ويتعدها بالصيانة، ويطيبها بأجود ما يكون فإنها تروج على طول الزمن، قال الشيخ علاء الدين السرمري: ويتعين على الكاتب تجديد الليقة في كل شهر، وأنه حين فراغه من الكتابة يطبق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب، ونحوه فيفسد الخط، ونظم في ذلك أرجوزةً فقال:

وجدد الليقة كل شهر
فشيخنا كان بهذا يغري
لأجل ما يقع فيها من قذى
فينتشي من ذاك في الخط أذى

الصنف الثالث: المداد والحبر وما ضاهاهما

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه وكل شيء مددت به شيئا فهو مداد، وأما الحبر فأصله اللون يقال فلان ناصع الحبر يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء[٣٦]، ومن المضامين السامية التي ينضوي عليها المداد ما جاء في الخبر يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهيد يوم القيامة فيوضع أحدهما في كفة الميزان والآخر في الكفة الأخرى فلا يرجح أحدهما على الآخر، وهو إشارة واضحة للأهمية والقيمة التي لدى المداد في عملية الكتابة، حتى قال فيه بعض الحكماء: صورة المداد في الأبصار سوداء وفي البصائر بيضاء، فكان بذلك ركنا من أركان الكتابة وعليه مدار الربع منها، وأنشد الخطاط الوزير ابن مقلة في ذلك:

ربع الكتابة في سواد مدادها
والربع حسن صناعة الكتاب
والربـع في قلـم تسـوي بـريـه
وعلى الكـواغـد رابع الأسباب

وعن اللغة التعبيرية التي يضفيها الحبر على الكتابة قال بعض العلماء رحمهم الله وإنما اختير فيه السواد دون غيره لمضادته لون الصحيفة، مما يولد تعبيرا بصريا عن الحسن والجمال قائما على التضاد في الألوان، قال بعض الأدباء عطروا دفاتر الآداب بسواد الحبر، وقال المبرد وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكِتَابَ يُحبَّرُ بِهِ أي يحسن أخذا من قولهم حبرت الشيء تحبيرا إذا حسنته، وقد ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك إلى الكافور لتطيب رائحته، والصبر ليمنع من وقوع الذباب عليه، والعسل ليُحفظ على طول الزمن، وقيل إن الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب[٣٧].

٢/٦-ملـواق (المحراك)

المفردة السادسة: الملواق بكسر الميم أداة كمرود المكحلة، وهو ما تُلَاقُ به الدواة أي تحرك به الليقة فهو مِحْرَاكُهَا، ومن حيث المضمون يقال ألقت الدواة أليقها إلاقة، إذا أدرت كرسفها حتى تَسْوَدْ[٣٨]، أما من حيث الشكل فيكون المِلواق أو المِحراك مستديرا مخروطا عريض الرأس ثخينه، وأحسن ما يتخذ منه الآبنوس لئلا يغيره لون المداد.

٢/٧-مـرمـلـة (المـتـربـة)

المفردة السابعة: المرملة واسمها القديم المتربة جعلا لها آلة للتراب إذ كان هو الذي يترب به الكتب أي تنشف به الكتابة، وتشتمل على شيئين أساسيين:

الشكل: الظرف أو وعاء الرمل الذي يجعل فيه الرمل وهو المسمى بذلك، ويكون من جنس الدواة إن كانت الدواة نحاسا أو من النحاس، ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره رب الدواة، ومحلها من الدواة ما يلي الكاتب مما بين المحبرة وباطن الدواة مما يقابل المنشاة الآتي ذكرها، ويكون في فمها شباك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها، وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مرملة كبيرة تقارب حبة النارنج لها عنق في أعلاها، وتكون في الغالب من جنس الدواة من نحاس ونحوه، وربما اتخذت من خشب لقضاة الحكم ونحوهم[٣٩].

المضمون: وتتضمن الرمل الذي منحها اسمها، وهو أنواع وألوان أضفى على الخطوط الجميلة مظهرا لائقا ترتاح له النفس وعين المشاهد، كالأصفر الزعفراني الذي له بهجة على الخط رغم أنه عزيز الوجود، والرمل الذي يجمع بين الحمرة والصفرة، وبه شذور بصاصة يخالها الناظر شذور الذهب، وهو أندر من الأول، وقد اختار الكتاب الرمل الأحمر دون غيره لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل وخَيرُهُ ما كان دقيقا، قال فيها القاضي شهاب الدين ابن بنت الأعز:

ظريفة الشكل والتمثال قد صنعت
تحكي العروس ولكن ليس تغتلم
كأنها من ذوي الألبـاب خـاشعـة
تبكي الدمـاء على ما سطـر القلـم[٤٠]

٢/٨-منشـاة

المفردة الثامنة: سميت المنشاة بهذا الاسم لاعتماد الكتاب على النشا أول الأمر في عمليات اللصق، وهي تشتمل على شيئين أساسيين كذلك:

الشكل: والمقصود به الظرف وحاله كحال المرملة في الهيئة والمحل من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لا شباك في فمه ليتوصل إلى اللصاق، وربما اتخذ بعض ظرفاء الكتاب منشاة أخرى غير التي في صدر الدواة من رصاص على هيئة حلق لطيف ويجعلها في باطن الدواة كالمرملة المتوسطة فإن اللصاق قد يتغير بمكثه في النحاس بخلاف الرصاص.

المضمون: اللصاق وهو على نوعين: أحدهما النشا المتخذ من البرّ، وطريقه أن يطبخ على النار كما يطبخ للقماش إلا أنه يكون أشد منه ثم يجعل في المنشاة وهو الذي يستعمله كتاب الإنشاء ولا يعولون على غيره لسرعة اللصاق به وموافقة لونه للورق في نصاعة البياض، والثاني المتخذ من الكُثيراء، وهو أن تبل

الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ثم تجعل في المنشاة، وكثيرا ما يستعمله كتاب الديونة، وهو سريع التغير إلى الخضرة ولا يسرع اللصاق به، وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجملة الماورد والكافور لتطيب رائحته(٤١).

٩/٢-منفذ

المفردة التاسعة: المنفذ أو الإشفي عند أهل المغرب الإسلامي، وهي من حيث الشكل آلة تشبه المخرز تتخذ لخرم الورق، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ أعلاه وأسفله سواء لئلا تختلف أثقاب الورق في الضيق والسعة، خلا أن يكون ذبابه دقيقا جدًا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود، وحكمه في النصاب في الطول والغلظ حكم المدية، وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكتاب كتاب الدواوين وربما احتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله(٤٢).

١٠/٢-ملزمة

المفردة العاشرة: الملزمة قال الجوهري الملزم بالكسر خشبتان تشد أوساطهما بحديدة تكون مع الصياقلة والأبارين، ولم يزد على ذلك، وكانت هذه الآلة تتخذ كذلك من النحاس ونحوه، ومن حيث الشكل هو محمل من لوحين تسد أوساطهما فيفتح ويطوى، ثم يوضع عليه الكِتّابُ للانتساخ أو القراءة، ويسند جانباه إلى لوحي الملزم، وحالَ الكتابة تلتقي دفتاه على رأس الدرج ليمنع الدرج من الرجوع على الكاتب، ويحبس بمحبس على الدفتين، وقد نجم عن خصوصية الشكل والمضمون عند أهل الحرفة وحدة وتنوع، وحدة من حيث الشكل، وتنوع من حيث المسميات والألوان، فكانت تسميه العامة بفاس محمل الكتب، وكرسي القراءة، وعود النساخة، وحَمَّارُ الكتب(٤٣). ويصف لسان الدين ابن الخطيب الملزم فيقول(٤٤):

يـا حُسْنَـهُ من مَلْـزِم آثـارُهُ
لذوي الوِراقة أَحْسَنُ الآثارِ
وكأنما الكرَّاسُ طَرْفٌ أشْهَبٌ
شَدُّوا على شَفَتَيه عُودَ زِيارِ
وكأنما قَلَمُ الكتابِ بِصَفْحه
مَكْوَى وذاك النَّفْط نفط النار

١١/٢-مفرشة

المفردة الحادية عشرة: المفرشة وهي آلة تتخذ من خرق كتان بطانة وظهارة أو من صوف ونحوه تفرش تحت الأقلام، وما في معناها مما يكون في بطن الدواة، أي أنها توضع كفرش ووقاية تحت ما سيوضع فيها من آلات الكتابة(٤٥).

١٢/٢-ممسحة

المفردة الثانية عشرة: الممسحة وتسمى الدفتر أيضا وهي آلة تتخذ من خرق متراكبة ذات وجهين ملونين من صوفٍ أو حريرٍ أو غير ذلك من نفيس القماش يمسح القلم بباطنها عند الفراغ من الكتابة لئلا يجف عليه الحبر فيفسد، أما شكلها فالغالب في هذه الآلة أن تكون مدورة مخرومة من وسطها، وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سعة الدواة(٤٦).

قال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر

وممسحة تناهى الحسن فيها
فأضحت في المَلاَحة لا تبارى
ولا نكـر على القلم المــوافي
إذا في وصلـــها خلع العــذارا

١٣/٢-مسقاة

المفردة الثالثة عشرة: المسقاة وهي آلة لطيفة تتخذ لصب الماء في المحبرة عندما يجف الحبر، وتسمى الماوردية أيضًا لأن الغالب أن يجعل في المحبرة عوض الماء ماورد (كذا) لتطيب رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الورد، والخلاف، والريحان، ونحو ذلك لا تحل الحبر ولا تفسده بخلاف الماء، وتكون هذه الآلة في الغالب من الحلزون الذي يخرج من البحر المالح، وربما كانت من نحاس ونحوه، والمعنى فيها ألا تخرج المحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه فربما زاد الصب على قدر الحاجة(٤٧).

١٤/٢-مُسطِّرَة

المفردة الرابعة عشرة: المُسَطِّرة أو قبطالا عند أهل المغرب(٤٨)، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها كما تستخدم لإصلاح سطور الكتاب من الاعوجاج، وأكثر من يحتاج إليها المُذَهِّب. وتختلف المساطر شكلا ومضمونا ونوعا بحسب الغرض المراد من عملها فمسطرة الرسم يجب أن تكون طويلة، جيدة الجسم، لا ثخينة ولا رقيقة، ومسطرة التحبير تكون رقيقة جدًا، لأنها تمشي تحت الإصبعين، وأما مسطرة التكحيل فينبغي أن تكون مثل ذلك في الرقة والخفة؛ وأما مسطرةُ الريح، وهي التي يُصَنَّعُ بها الجلد – التصنيع إخراج الرِّيحِ من الجلد والتشنج والعوج، وإقامته على الاستواء – فيجب أن تكون ثخينة جدًا ويكون طولها شبرًا، وتكون من الخشب السنديان الجيد،

وتكون مربعة رقيقة الحروف – أي أطراف المسطرة – حتى إذا مرت على الجلد أعدَلَتْهُ [٤٩].

أما من حيث المضمون فالمسطرة أجود ما تكون من الأبنوس، ومن البقس، ولا بأس أن تكون مسطرة الرسم والتحبير والتكحيل من هذين الجنسين، وأما مَسْطَرَةُ الشُّغْلِ، فينبغي أن تكون من خشب الصَّفْصَافِ، وذلك أن الصفصافُ بعضه في بعضٍ حافَّتَيْهِ – أعني جنبي المسطرة – إذا أَخَذَهُ النارُ، وأن الأبنوس عرقُهُ لين تُحْرِقُهُ النارُ، وتؤثر فيه، وحَدُّ المَسطَرَةِ الأبنوسِ إذا مُرَّ عَليها بِخَطٍ مثلما يحك بعضه ببعض أثر في مسطرة الأبنوس[٥٠]. وأما مِسْطَرَةُ الكِتَّابِ فهي عدد سطور الصفحة الواحدة منه، وطول السطر، والمسافة من أول سطر في الصفحة إلى آخره[٥١]. وقد جاء في حلية الكتاب: "وفن جملة آلات الكتابة المسطرة للكاغيد، فتكون من لوح صاف، وينبغي أن تكون على زوايا قائمة ذات امتدادين طولا وعرضا، وجعل سعة الطرة اليمنى من جزء، والفوقانية من جزءين، واليسرى من ثلاثة أجزاء، والسفلى من أربعة[٥٢]".

١٥/٢-مصقـلة

المفردة الخامسة عشرة: المصقلة وهي نوعان: ما يصقل به، وما يصقل عليه، أما الأولى: فهي من توابع التذهيب حيث تستخدم الآلة المناسبة لصقل الكتابة المنفذة بماء الذهب بعد عملية الكتابة على الكاغد، وهي من آلات الدواة لا محالة[٥٣]. ونجدها على عدة أنواع لاختلافها من حيث الشكل ووحدتها من حيث المضمون، فكانت تتخذ لهذه الصناعة ثلاثة مَصَاقِلَ من حَجَرِ الحَمَاحِمِ الأزرَقِ المطوَّس المرَيَّشِ، يكون أحدهم مُستطيل الشكل معتدل الوجه، وتكون الثانية وجهها في رأس التَّرَيُّشِ لأن أجنابها لا يُعمل بها، ويكون الثالث صغيراً صنوبري الشكل معتدل الوجه، تستعملُ لِصِقَالِ الخُطوطِ الرِّقاقِ، ومُشَاكِلِهَا من العمل الرَّقِيق، ويكون الطرف الرقيق منها غير مُحدَّدٍ فيه يَسيرٌ من العرض، ليتم به المراد، وتخرط لها نصاباً بمقدار القبضة، فما كان للذَّهبِ الكثير جُعِل الحجر في وسط النصاب، وأُنزِلَ في اللُّكِّ – صبغ أحمر –، واعملْ لَهُ جُلْبَةً إما فضة أو نحاس، وتَثِقُهُ لِئلاَّ يضطرب مع قوة العمل، ويكون للذهب القليل نُصبَ قائمةٍ والحجر في الرأس منها، ويُعمَلُ مثل الأول، فإن عُدِمَ الحَمَاحِمُ فالجَزْعُ مَقَامَهُ.

أما الثانية: فهي لَوحُ صَقْلِ الذَّهب ويكون مربعًا في ثخانة الإصبع، ويُعمَلُ من الصفصاف أو الجوز لنعومتهما تحت العمل، فإن عُدِما فلوح من الخشب من أي شيء كان ويكون بينه وبين ما يُصقل عليه واسطة من سلوخ جلود الشميطون – أي جلود شهباء أو بيضاء خالطها السواد – [٥٤].

١٦/٢-مُهـرَق (القرطاس)

المفردة السادسة عشرة: المُهرَق بضم الميم وفتح الراء، وهو القرطاس الذي يكتب فيه، ويجمع على مهارق قلت وعدَّ صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري منها المداد، وهو ظاهر والمخيط، وفي عده بعد، وسنفصل في وصفه لاحقًا.

١٧/٢-المسـن

المفردة السابعة عشرة: المسن أو المضاية كما تسمى عند المغاربة، وهو آلة تتخذ لإحداد السكين، أي سنه وشحذه، وهو نوعان: أكهب اللون ويسمى الرومي وهو أجودها، وأخضر، وهو على نوعين: حجازي وقوصي، والحجازي أجوده الأخضر. أما من حيث الشكل فينبغي أن يكون المسن معتدل الوَجهِ، صحيحٌ، ولا ينبغي أن يكون لينًا، فتحفره الحديدةُ، ولا صلبًا فَيضُرَّ بالحديد لِيُبوسَتِهِ، ومن الصناع من يأخذ المِسَنَّ، فَيعيدُ تَعديلَهُ، ويصلحه ويسويه على ما يُريدهُ، ثم يَدْفَعَهُ إلى الروّاسِ فَيُبَيِّتُهُ في التنورِ – القِدْرِ – ليلة ليشرب الدهن، وهو أَجْوَدُ له وأحسن [٥٥].

ثالثًا: فيما يكتب عليه

تعرف في المصطلح الأثري بسندات الكتابة، ودعامات أو حوامل الكتابة كذلك، وهي تختلف شكلا ومضمونا: فمن حيث الشكل كان كل نوع من حوامل الكتابة وبخاصة الورق يتغير اسمه بحسب مقاساته وموطن صدوره، وأما من حيث النوع فقد قسمت بحسب نطق القرآن الكريم إلى ثلاثة أجناس:

١/٣-اللــــوح

ويقصد به أم الكتاب، وتفسيره بعلم الله تعالى مما رواه عبدالرزاق وابن جرير عن كعب رضي الله تعالى عنه، والمشهور أنه اللوح المحفوظ قالوا: وهو أصل الكتب إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوب فيه كما هو. قال تعالى: {بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} [البروج ٢١-٢٢]، فهو أم القرآن منه نسخ القرآن الكريم والكتب المنزلة ومنه تنسخ الملائكة أعمال الخلق، ومن حيث المضمون يقول ابن عباس والعهدة على الراوي وهو: "لوح من درة بيضاء طوله ما بين السماء والأرض، وعرضه ما بين المشرق والمغرب، وحافتاه الدر والياقوت، ودفتاه ياقوتة حمراء، وقلمه نور وهو معقود بالعرش، وأصله في حجر مَلَكٍ يقال له ساطريون ... [٥٦]".

وفي عداده تدخل ألواح الكتابة الخشبية التي ابتكرت واستعملت في تعليم وتحفيظ القرآن الكريم بالزوايا، والألواح الحجرية والجصية، والمناضد والأعمدة الرخامية، وصفائح الطين المحمي، وقطع الخزف اللماع، والصفائح المعدنية، وجل حوامل الكتابة الموظفة في الكتابات التأسيسية، والتذكارية، والوقفية، وكلها دلالةً ورمزًا وإشارةً على أن هذه الكتابات أودعت في لوح محفوظ علق في واجهات المنشآت المدشنة أو بغرض الذكرى، لذا فقد وظفت فيها الحمدلة، والبسملة، والتعويذات، والاستهلالات، وما شابهها من الصيغ الدينية.

٣/٢-الـــرَّق

الرق بفتح الراء قال تعالى: {وَالطُّورِ* وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ* فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ} [الطور ١- ٢- ٣] قال المبرد: هو ما يرقق من الجلود ليكتب فيه، وبشكل رئيسي تتوقف جودة الرق كساند للكتابة على خبرة، ومهارة الشخص الصانع، ومدى تمرسه في هذه الصناعة، والأمور الدالة على السر الذي في جوهرها أولا، ومن ثم على نوع، وعمر الحيوان الذي استخدم جلده في التحضير، وهناك نماذج عديدة من الرق القديم الذي تضاهي جودته الرق الذي يصنع في الوقت الحاضر، وعموما فإن أهم ما يجب أن يتميز به الرق الجيد: أن يكون رقيقًا طريًا قابلا للَّف، والطي أو الثني بسهولة، وخاليا من العيوب كالشقوق والثقوب، صقيل السطح يساعد على الكتابة أو الزخرفة الدقيقة(٥٧).

٣/٣-القـرطاس والصحيفــة

الثالث: القِرطَاسُ والقُرطَاس كله الصحيفة الثابتة التي يكتب فيها، وهما بمعنى واحد وهو الكاغد أو الورق. قال الجوهري: ويقال للصحيفة أيضًا طرس ويجمع على طروس ومُهْرَق، ويجمع على مهارق وهو فارسي معرب، وأما القرطاس فقد ذكره الله تعالى في قوله: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام ٧]. قال ابن أبي السيار القرطاس: كاغد يتخذ من بردي مصر، وكل كاغد قرطاس، وأما الصحيفة فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع في قوله تعالى: {أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الذي وفى} [النجم ٣٦ – ٣٧]، وقال كذلك عز وجل في محكم كتابه: {إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى} [الأعلى ١٨ – ١٩]، وتجمع أيضًا على صحائف وسمي المصحف مصحفا لجمعه الصحف، قال الجوهري وسمي التصحيف تصحيفا للخطأ في الصحيفة (٥٨).

ومنذ أن ولي هارون الرشيد الخلافة انتظمت أنواع الكاغد المكتوب فيه حيث أمر ألاَّ يَكْتُبَ الناس إلا في الكاغد بعد أن كثر الورق وفشا عمله بين الناس، لأن الكتابة على الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير وتفسد مضامينها بخلاف الورق فإنه متى مُحِيَّ منه فَسُدَ وإن كُشِطَ ظَهَرَ كَشْطُه. ولأن الأشكال البصرية تمتلك لغتها الفنية الخاصة التي تتحد مع المضمون لتأدية الوظائف الدلالية والحسية في عملية الإدراك الجمالي، فقد كان يختار لحرفة الوراقة أحسن الورق، وهو ما كان ناصع البياض غرقًا صقيلاً متناسب الأطراف صبورا على مرور الزمان، وله في العادة وجهين خشن وصقيل، ويسمى الوجه الصقيل منه في عرف الوراقين المصلوح.

وكان أعلى أجناس الورق البغدادي، وهو ورق ثخين مع ليونة، وَرِقَّةِ حاشية، وتناسبِ أجزاءٍ، قَطْعُهُ وافر جدًا، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة دلالة على رفعته وجودته، وربما استعمله كتاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها، ودُونَهُ في الرتبة الشامي وهو على نوعين: نوع يعرف بالحموي وهو دون القَطْعِ البغدادي ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي، وقطعه دون القطع الحموي ودونهما في الرتبة الورق المصري وهو أيضًا على قطعين: القطع المنصوري، وقَطْعُ العادة، والمنصوري أكبر قطعا وقلما يصقل وجهاه جميعا، وغيره عندهم على رتبتين عالٍ ووَسطْ، وفيه صنف يعرف بالفوي صغير القطع خشن غليظ خفيف الغرف لا ينتفع به في الكتابة يتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك.

ومن حيث التعبير البصري دائما ذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب القلم والدواة أن الخلفاء لم تزل تستعمل القراطيس امتيازا لها على غيرها من عهد معاوية بن أبي سفيان، وذاك أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار، وإلى الأمراء من نصف طومار، وإلى العمال والكتاب من ثلث، وإلى التجار وأشباههم من ربع، وإلى الحساب والمساح من سدس، فهذه مقادير لِقِطَعِ الورق في القديم وهي الثلثان والنصف والثلث والربع والسدس ومنها استخرجت المقادير المذكورة، ثم أن المراد بالطومار الورقة الكاملة وهي المعبر عنها في زماننا بالفرخة(٥٩).

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في كتابه: التعريف، العلاقة بين نوع الآلة من أقلام الخط المنسوب المستعملة في الكتابة، وما يناسبها من قِطَعِ رقاع الكاغد، ومقادير الورق المستعملة بديوان

الإنشاء بالديار المصرية لإبراز مضمون الخطاب ودلالاته والوصول به حد البلاغة في اللغة، والتناغم في المظهر، حتى إذا وقع في بصر المتلقي ارتاحت عينه، وبرزت له مكمول صفاته، وتجلت في بصيرته مكنونات حسناته لتناغم الخط وجمالية الإيقاع والتراكيب، وحسن استغلال الفراغات، وتوزيعها في أنساق مضبوطة الشكل والجوهر فقال: إن لِقطع البغدادي قلم مختصر الطومار، ولِقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل، ولِقطع النصف قلم الثلث الخفيف، ولِقطع الثلث قلم التوقيعات، ولِقطع العادة قلم الرقاع.

ومن ذلك يعلم التناسب بين أداة الكتابة، وكل قَطْعٍ من مقادير القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية، فكان يناسب الشامي الكامل قلم التوقيعات لأنه في مقدار قطع الثلث البلدي أو قريب منه، ويناسب نصف الحموي، والعادة من الشامي قلم الرقاع لأنهما في معنى القطع المنصوري والعادة بالديار المصرية، أما قلم الجناح فلكتابة بطائق الحمام، وأما الآلة التي كان يكتب بها الخلفاء أسماءهم في الزمن القديم وأسماء الملوك الآن فقلم الطومار، وهو القلم الجليل الذي لا قلم فوقه.[٦٠]

وأخيرًا نقول إن أدوات الكتابة المذكورة عند القلقشندي والمقدرة بسبعة عشر آلة تعد الأدوات الأساسية في صناعة الكتابة، وهو أمر مختلف فيه بين أرباب هذه الصناعة، فقد أورد الأشبيلي أدوات أخرى لم تذكر عند صاحب صبح الأعشى، كما رفع أستاذه الزفتاوي تعدادها إلى ما يزيد عن أربعين أداة كلها مرتبة على حرف الميم، ونظم العلامة الشيخ نورالدين علي العسلي أرجوزة في جَمْعِ الميمات التي تكون في الدواة فجعلها أربعين أداة، فقال:

وإن من أشرف أوضاع البشر
رسم الكتاب فهو وضع يعتبر
فمــن هنــا تفنــن الكتــاب
فيمـــا (في الكتــب قد سُطِـــرْ)[٦١]
فأودعــــوا دَوِيُّهـــمْ قديمًا
لمـا ذكــرنا أربعيـن ميما[٦٢]

ولا يقتصر الاختلاف في استعمال هذه الأدوات على أهل الحرفة فقط، ولكن تعداه ليشمل مُسمياتها باختلاف دلالات هذه المسميات في اللغة المنطوقة والمسموعة لأهل الحرفة، وجوهر معانيها ومضامينها في مفاهيم أصحابها، وما يكون قد ارتسم من صورٍ لأشكال هذه الأدوات والآلات في مخيلاتهم، وفي مخيلات شعوب ومجتمعات العالم الإسلامي، وهو دلالة سيميولوجية واضحة توحي بتعداد مشارب أرباب الحرفة لمجاورة الدول المختلفة الممتهنة لها مشرقًا ومغربًا، واحتكاك أصحاب الحرفة فيما بينهم واقتسام مجالات خبراتهم فيها أثناء تنقلاتهم بين أقطار العالم الإسلامي المختلفة.

خَاتِمَةٌ

لقد كانت هذه الأدوات والآلات أشياء بصرية قائمة بذاتها ثابتة منتهية زمانيًا ومكانيًا، وظفت في فنون الخط والزخرفة الإسلامية، وسعى الحرفي من خلالها إلى تحويل مادة بسيطة متواضعة إلى عمل فني حقيقي، مبرزًا بذلك مظاهر الجمال في حرفته ومن ثم إيصاله إلى حس المشاهد من خلال الاستغلال الأمثل للمادة المتاحة، وخصائصها الإدراكية الحسية، واليوم تَبدَّلَ شَكلُ بَعضِهَا، ودَرسَ البعض الآخر لخضوعها لسنن الاستمرارية والفناء، ولكن الكامن وراءها أو الخارج عنها بأي اتجاه، هي قيم متحركة متبدلة متوالدة باستمرار تعبر عن جوهر ثابت.

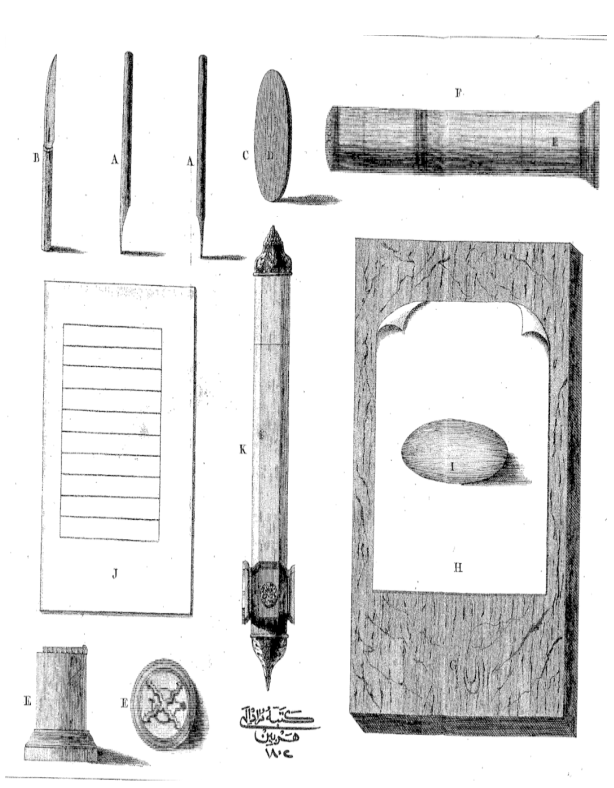
وقد سعينا من خلال هذا الموضوع إلى إبراز هذه القيم والمعاني السيميولوجية عبر البحث في أشكالها وأنماطها ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، ومحاولة سبر أغوار معانيها، حتى نتعلم شيئًا عن الأدوات والآلات التي كان يكتب بها في الماضي البعيد، ونعلم كيف تغيرت طرقهم في الاستفادة من هذه الأشياء، مطورين بذلك تركيبا لما يصح من أسلوب وتنظيم للعمل بكفاءة وقت الحاجة، إذ ما من امرئ يعرف عن مهنته أو حرفته الخاصة بشكل جيد ما لم يعرف كيف تعود الناس أن يفعلوا هذه الأشياء في ظل العهود الماضية المختلفة جدًا، والتي لا تختلف كثيرًا في جوهرها عما يحاول فعله اليوم، آملين أننا قد وفقنا في ممارسة الكشف عن بعضٍ من أعماق الحياة الحرفية لهذه الفئة، وأننا وفينا هذا الفن بعضًا من حقه.

ملف العدد

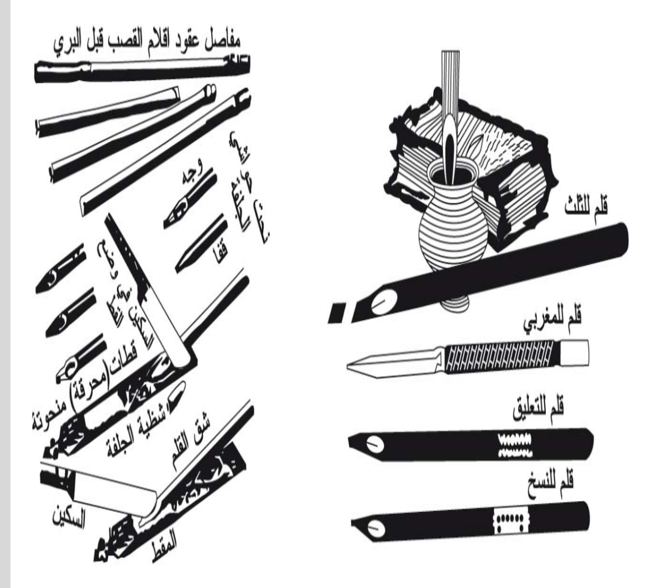
الملاحق



صورة رقم (١)
يمات الدواة أو الأدوات التي يحتاجها الكاتب والخطاط
والنساخ لمزاولة عمله

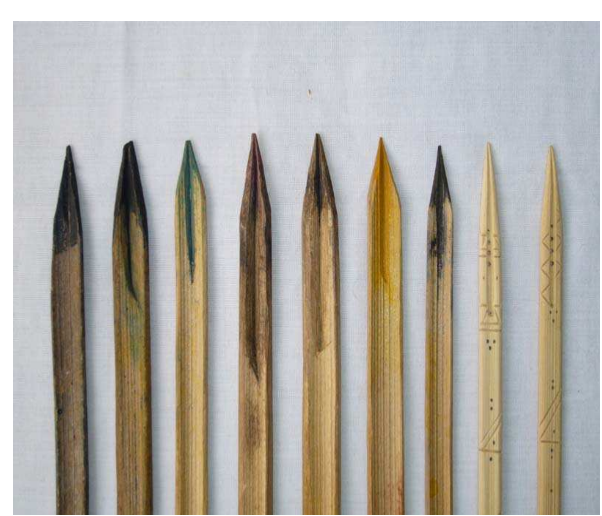


صورة رقم (٢)
أهم آلات وأدوات الكتـــابة



صورة رقم (٣)
مزابر أو أقلام الخطوط العربية المنسوبة والمراحل
العملية لتقليمها وبريها





صورة رقم (٤)
القلم المدبب كلاموس (Calamus)
المستعمل في كتابة الخطوط المغربية

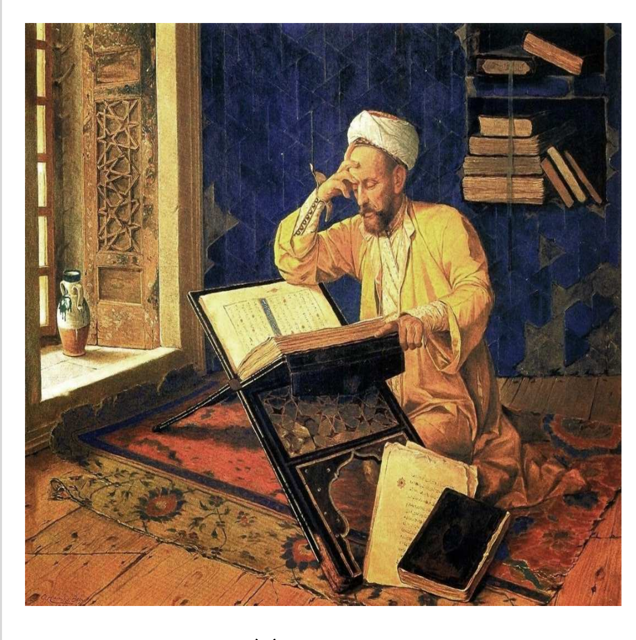

صورة رقم (٥)
دواة فضية للسلطان عبد الحميد الثاني

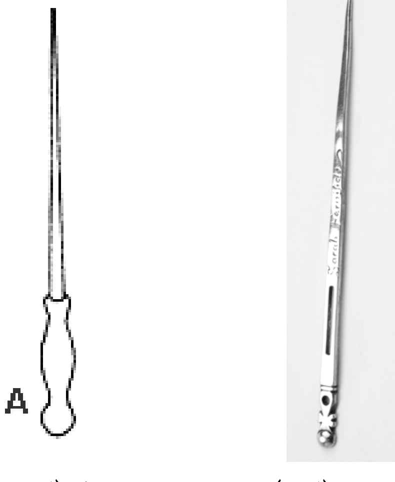

صورة رقم (٦)
دواة نحاسية



صورة رقم (٧)
محابر نفذت من النحاس
وجهزت كل محبرة ببيت لحفظ الأقلام


صورة رقم (٨)
بعض الأشكال البصرية لمحابر مغربية
أعدت لحمل الأحبار والأصباغ


صورة رقم (٩)
مفردة الملزمة تعددت أسماؤها ودلالاتها بحسب المكان
وبحسب وظائفها في عملية الوراقة (محمل الكتاب –
كرسي القراءة – عود النساخة – حمار الكتب)



مخرز (إبرة) منفذ (إشفي)



صورة رقم (١٠)
مفردة المُسَطِّرَة تنفذ من الخشب أو الورق المقوى
وتُخَاطُ وَسطَها مِسْطَرَةُ الكتاب



صورة رقم (١١)
صحيفة بخط الخطاط ياقوت المستعصمي من مصحف
كتب سنة (٦٨٨ هـ/ ١٢٨٩م)
محفوظ بالمكتبة الوطنية الفرنسية



صورة رقم (١٢)
رق من مصحف محفوظ بالمكتبة الوطنية الفرنسية



صورة رقم (١٣)
رَق من المصحف الأزرق محفوظة في متحف الفنون
الإسلامية برقادة – تونس



صورة رقم (١٤)
قراطيس من ورق البردي

الهَوامِش:

(١) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، ج١، ص ١٧٥. وكذلك: النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية وجماعة، ط١، ج٧، دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان ٢٠٠٤ م، ص ١٠.

(٢) عفيف البهنسي، **الجمالية الإسلامية في الفن الحديث**، ط١، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٩٩٨، ص ٢١ – ٢٣.

(٣) إبراهيم المدبر، **الرسالة العذراء**، تحقيق: زكي مبارك، ط١، مطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٣١. ظهرت الرسالة أول ما ظهرت عام ١٣٢٧م بمجلة القبس على يد الأستاذ كرد علي، وقد نسبها خطأً إلي الإبراهيم بن محمد بن عبد الله مدبر الضبي وكنيته أبو إسحاق توفي ببغداد سنة ٢٧٩ هـ، وأعاد نشرها في كتابه "رسائل البلغاء" منسوبة إلى ابن المدبر – أيضًا – وكذلك صنع د/ زكي مبارك ١٩٣١م، والحقيقة أن الرسالة لأبي اليسر يزيد بن إبراهيم بن محمد الشيباني القيرواني نشأ بالقيروان، وخدم المعز لدين الله الفاطمي، وتوفي بالقيروان (٢٢٣ – ٢٩٨هـ/٨٣٨ – ٩١١م)، وقد كتب برسالته هذه وأرسلها إلى إبراهيم بن محمد بن المدبر، وذكر القلقشندي جزءًا من الرسالة منسوبًا إلى صاحبه الأصلي في مصنفه "صبح الأعشى"، وأعاد تحقيقها د/ محمد المختار العبيدي، وراجعها وقدم لها قسم الدراسات والنشر والعلاقات الثقافية لمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث سنة ٢٠٠٩م.

(٤) إبراهيم المدبر، **الرسالة العذراء**، ص ٢٢ – ٢٣.

(٥) إبراهيم المدبر، **الرسالة العذراء**، ص ٨ – ١٠. قال إبراهيم بن محمد الشيباني: من صفة الكاتب اعتدال القامة وصغر الهامة وخفة اللهازم وكثافة اللحية، وصدق الحس ولطف المذهب وحلاوة الشمائل وخطف الإشارة، وملاحة الزي، وقال: من كمال آلة الكاتب أن يكون بهي الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، صادق الحس حسن البيان، رقيق حواشي اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك مستقره بالمركب، ولا يكون مع ذلك فضفاض الجثة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصورة لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة. انظر: النويري، **نهاية الأرب**، ص ١٣.

(٦) محمد بن أحمد الزفتاوي، "**منهاج الإصابة في معرفة الخطوط وآلات الكتابة**"، تحقيق: هلال ناجي، في مجلة المورد، مجلد ١٥، عدد ٤، بغداد ١٩٨٦، ص ١٩٣.

(٧) نضال عبد العالي أمين، **أدوات الكتابة وموادها في العصور الإسلامية**، في مجلة المورد، مجلد ١٥، عدد ٤، بغداد ١٩٨٦، ص ١٣٢.

(٨) أحمد بن علي القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق: يوسف علي الطويل، ج٢، ط١، دار الفكر، دمشق ١٩٨٧، ص ٤٧٢ – ٤٧٣.

(٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، ص ٤٦٩ – ٤٧٠. - السمط: هو الخيط المنظوم باللؤلؤ والزبرجد.

(١٠) أبي بكر محمد بن يحي الصولي، **أدب الكتاب**، تصحيح وتعليق: محمد بهجة الأثرى، المكتبة العربية، بغداد ١٣٤١، ص ٩٢.

(١١) الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ٢٠٠ - ٢٠١. وانظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، ص ٤٧٠ – ٤٧١. وكذلك: الصولي، **أدب الكتاب**، ص ٩٦.

(١٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

(١٣) نضال عبد العالي أمين، المرجع السابق، ص ١٣٣.

(١٤) القاضي النعمان بن محمد، **كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق: الحبيب الفقي، وإبراهيم شبوح، ومحمد اليعلاوي، ط١، ج٥، دار المنتظر، بيروت ١٩٩٦، ص ٣١٩ – ٣٢٠. - كان ابتكار المعز لدين الله لهذا العمل سابقا بحوالي ٨ قرون لأول قلم خزان حبر عرفته أوروبا، وهو قلم فولش (F.B. FOELSH) سنة ١٨٠٩، ثم قلم شيفر (J. SCHEFFER) سنة ١٨١٩م. ثم طور قلم الحبر السائل على يد لويس إديسون ووترمان (L.E. WATERMAN) سنة ١٨٨٤م، وانتظر قلم الحبر الجاف حتى سنة ١٨٣٩م ليطور على يد لاديسلاو جوزيف بيرو.

(١٥) الصولي، **أدب الكتاب**، ص ٢٠.

(١٦) محمد بن أحمد الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ١٩٥. وانظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤٧٤ - ٤٧٥.

(١٧) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٨٤.

(١٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٧٣.

(١٩) اليـراع: وهو القصب المثقب.

(٢٠) أبو حيان التوحيدي، **رسالة في علم الكتابة**، تحقيق ونشر الكيلاني، إبراهيم، دمشق، المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق ١٩٥١، ص ٣٩ - ٤١.

(٢١) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٨١.

(٢٢) أبو حيان التوحيدي، **رسالة في علم الكتابة**، ص ٣٩.

(٢٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٨١ - ٤٨٢.

(٢٤) أبو حيان التوحيدي، **رسالة في علم الكتابة**، ص ٤١.

(٢٥) غاستون باشلار، **جمالية المكان**، ترجمة: غالب هلسا، ط ٢، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان ١٩٨٤، ص ٣٦ – ٣٨.

(٢٦) بكر بن إبراهيم الأشبيلي، "**كتاب التيسير في صناعة التسفير**"، تقديم: عبد الله كنون، في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلدان السابع والثامن، مدريد ١٩٠٩ – ١٩١٠، ص ٣٧. والقلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٩٥.

(٢٧) محمد بن أحمد الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ٢٠٦ – ٢٠٧. أبو زيد: سعيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ).- سيلان النصل: يده التي تستمر في قائم المقبض وتعرف بالنصيل كذلك، وتسمى بالفرنسية (La Soie)، وبالإنجليزية (The Tang).

(٢٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٩٧. - كالة وكليلة بمعنى غير حادة، يقال سيف كليل أي غير حاد، وكل السيف هو ظهر نصله غير الحاد.

(٢٩) الصولي، **أدب الكتاب**، ص ٢٨. والقلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٤٩١.

(٣٠) حمد بن أحمد الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣١) الصولي، **أدب الكتاب**، ص ٢٦.

(٣٢) أبو حيان التوحيدي، **رسالة في علم الكتابة**، ص ٣١.
(٣٣) المعز بن بادِيس بن المنصور التَّميمي الصنهاجي، **عُمْدَةُ الكُتَّاب وعُدَّةُ ذوي الألباب**، تحقيق وتقديم: نجيب مايل الهروي، عصام مكّية، ط، مجمع البحوث الإسلامية، إيران ١٤٠٩هـ، ص ٣١ – ٣٢. وانظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج ٢، ص ٤٩٨.
(٣٤) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٢، ص ٤٩٨. قال أبو بكر: الكرسف القطن خاصة دون غيره، ثم صاروا يسمون كل شيء وقع موقعه في الدواة من صوف وخرقة كرسفاً. انظر: الصولي، المصدر السابق، ص ٢٣.
(٣٥) ابن بصيص وابن الوحيد، **شرح المنظومة المستطابة في علم الكتابة**، تحقيق: هلال ناجي، في مجلة المورد، المجلد ١٥، عدد ٤، بغداد ١٩٨١، ص ٢٦١. وكذلك: الصولي، **أدب الكتاب**، ص ١٠٠.
(٣٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥٠٠ – ٥٠١.
(٣٧) القلقشندي، **صبح الأعشى** ص ٥٠٢ - ٥٠٥.
(٣٨) الصولي، **أدب الكتاب**، ص ٢٣.
(٣٩) محمد المنوني، **قبس من عطاء المخطوط المغربي**، ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٩، ص ٦٥٨. وانظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥٠٨.
(٤٠) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥٠٩.
(٤١) القلقشندي، **صبح الأعشى** ص ٥٠٩ – ٥١٠.
(٤٢) الإشبيلي، **كتاب التيسير**، ص ١١. وكذلك: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١٠.
(٤٣) محمد المنوني، المرجع السابق، ص ٦٧٢.
(٤٤) لسان الدين ابن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تقديم: يوسف علي الطويل، ط، ج٤، دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠٠٢، ص ٤٤٤.
(٤٥) الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ١٨٧.
(٤٦) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١٠ – ٥١١. وكذلك: المنوني، المرجع السابق، ص ٦٦١.
(٤٧) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١١. وانظر: خير الله سعيد، **موسوعة الوراقة والوراقين في الحضارة العربية الإسلامية**، المجلدا، ط، بيروت – لبنان ٢٠١١، ص ١٧٠.
(٤٨) الأشبيلي، كتاب التيسير، ص ١٢. - وكتب في طرة الأصل: القبطال يجب أن يكون من العود الرزين الصليب فهو أحلى للعمل.
(٤٩) المعز بن بادِيس، **عمدة الكتاب**، ص ٩٧.
(٥٠) المعز بن بادِيس، **عمدة الكتاب**، ص ٩٧.
(٥١) محمد خلف سلامة، **لسان المحدثين** (مُعجم يُعنى بشرح مصطلحات المحدثين القديمة والحديثة ورموزهم وإشاراتهم وشرحِ جملة من مشكل عباراتهم وغريب تراكيبهم ونادر أساليبهم)، ج٥، الموصل ٢٠٠٧، ص١٠٣.
(٥٢) نقلاً عن: المنوني، المرجع السابق، ص ٦٧١.
(٥٣) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١١ – ٥١٢. وانظر: خير الله سعيد، الرجع السابق، ص ١٧١.
(٥٤) المعز بن بادِيس، **عمدة الكتاب**، ص ٨٥ -٨٦.
(٥٥) المعز بن بادِيس، **عمدة الكتاب**، ص ٩٥.
(٥٦) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، دار إحياء التراث العربي، ج ٣٠، بيروت، ص ٩٤. وانظر: القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١٢ – ٥١٣.
(٥٧) ناصر عبد الواحد، "**أهم المواد التي استخدمت في التدوين والتدقيق وطرق صناعتها**"، في مجلة التراث والحضارة، العدد ٥، المركز الإقليمي لصيانة الممتلكات الثقافية في الدول العربية، بغداد ١٩٨٣، ص ٧٣.
(٥٨) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ٥١٤ – ٥١٦ (بتصرف). ولمزيد من المعلومات حول سندات الكتابة يرجى العودة لمقال: بدرالدين شعباني، تطور سندات الكتابة ودورها في ترقية الوراقة، في مجلة الحضارة الإسلامية، عدد ١٨ لسنة ٢٠١٣، مجلة علمية محكمة تصدرها كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران – السانية.
(٥٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ١٨٠.
(٦٠) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ص ١٨٥ - ١٨٦.
(٦١) ما بين القوسين من اجتهاد صاحب المقال لأن هذا الجزء من الشطر الثاني مبتور عند محقق النص الأصلي.
(٦٢) الزفتاوي، **منهاج الإصابة**، ص ١٨٩.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

جوانب من التراث المعماري للقصبة المرينية في مدينة دبدو



د. سمير بن الطالب
دكتوراه في التاريخ والتراث
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن طفيل – المملكة المغربية

مُلَخّص

يشكل التراث المعماري الذي تحتضنه مدينة دبدو أبرز معالم الحضارة المرينية في المنطقة، ولا سيما القصبة التي تعتبر إرثًا تاريخيًا ومعماريًا يجسد لنا ما وصل إليه فن المعمار من تطور على عهد الدولة المرينية خلال فترات متقدمة من تاريخ المغرب الوسيط، ونهدف من خلال هذه الدراسة تنوير ومد الباحثين في حقل التاريخ بمعطيات تاريخية حول فن العمارة المرتبط بهذه القصبة التي كتب لها الاستمرار في الوجود، ودراسة مختلف مكوناتها وخاصة الأسوار وأبراج المراقبة والأبواب، إضافة إلى بعض المرافق الداخلية ذات الطابع الديني مثل المسجد المريني وأخرى ذات طابع مخزني من قبيل لقصر القبتان المرينيتان، هذه المكونات جعلت منها قصبة استثنائية بمنطقة شرق المغرب مقارنة مع قصبات أخرى تعود لنفس الفترة مثل قصبة تاوريرت أو بعدها من قبيل قصبة العيون سيدي ملوك، كما أن هذا العمل نريد من خلاله توثيق بعض الجوانب المعمارية لأجزاء مهمة من القصبة بناء على المعلومات المستقاة من الميدان مباشرة، إلى جانب ما تجود به المصادر والمراجع التاريخية التي رغم شحها فهي تبقى مفيدة في إطارها التاريخي. وسنحاول من جهة أخرى من خلال هذه الدراسة لفت أنظار مختلف المتدخلين المهتمين بالمحافظة على التراث التاريخي والمعماري للتدخل العاجل لإنقاذ هذه المعلمة التاريخية التي تندثر مختلف أجزائها في صمت وذلك من خلال، توضيح أهميتها التاريخية إبان الصراع بين المرينيين والزيانيين خلال العصر الوسيط، وكذا من خلال تشخيص وضعيتها الراهنة، مع وضع توصيات في الموضوع رهن إشارة الجهات المختصة، كما سنعزز هذه الدراسة بصور فوتوغرافية آنية إلى جانب الرسوم الخرائطية المتعلقة بهذه القصبة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٥ يناير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٢٧ أبريل ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:
قصبة دبدو؛ المسجد المريني؛ المسجد العتيق؛ المعمار المغربي؛ التراث المعماري

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057055

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
سمير بن الطالب. "جوانب من التراث المعماري للقصبة المرينية في مدينة دبدو".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ١٨٦ – ١٩٦.

مُقَدِّمَة

تعتبر الفترة المرينية من الفترات المتميزة من تاريخ المغرب الأقصى الحضاري، فقد أولى السلاطين المرينيون عناية خاصة وفائقة لميدان البناء والتشييد الحضاري للمراكز التي قاموا بتشييدها، هذه العناية بفن البناء المعماري لفتت انتباه المؤرخين الذي تناولوا في بعض كتاباتهم، مظاهر هذا الازدهار المعماري الذي تجسد خاصة في – القصبات التاريخية - باعتبارها نموذجا للبنايات العسكرية والتجارية والدينية...، ويمكن القول إن الموقع الاستراتيجي لقصبة دبدو، جعلها تنال حظها من هذه العناية والثورة المعمارية لما حظيت به من أولوية من طرف بني مرين لتأمين الحدود الشرقية للعاصمة فاس، حيث

أن دبدو خلال هذه الحقبة التاريخية ظهرت كأهم مدن المغرب الأقصى خاصة خلال مرحلة الصراع المريني العبد الوادي الذي أتى على جوانب كبيرة من معمارها.

لقد شهدت القصبة تطورًا عمرانيًا ملحوظًا خلال الفترة المرينية، ولا شك أن انهيار مختلف الأسوار وبعض المرافق الداخلية المكونة للقصبة، يجعل من الصعب تتبع التطور التاريخي والمعماري لهذه الأخيرة، كما أن مختلف الكتابات التي تناولت الحديث عن المنطقة لا تزودنا بمعلومات كافية، ومن تم فهي في مجملها لا تشفي غليل الباحثين، وفي ظل هذه الوضعية سنعتمد إلى حد كبير في هذه الدراسة على ما استقيناه من الميدان إضافة إلى ما تجود به بعض المصادر التاريخية من إشارات. هكذا شارك المرينيون في ازدهار فن المعمار المغربي من خلال نموذج القصبات (ومنها قصبة دبدو) التي تم تشييدها في مختلف مناطق المغرب، والتي احتوت على مختلف المرافق الداخلية التابعة لها والضرورية للحياة اليومية للساكنة من مسجد، ديوان، قصر، سجن، حمام... إلى غير ذلك، وتوضح الصورة أسفله حدود قصبة بني مرين بدبدو والمرافق التابعة لها، والتي سنتناول بعضها بنوع من التفصيل.

أولاً: البنية المورفولوجية للقصبة

سنحاول في هذا الإطار تناول الجانب المعماري "لقصبة"[١] دبدو وبعض مرافقها، فالقصبات التي شكلت مقرات للسلطة المخزنية وخاصة الوسيطية منها تتميز باستحكاماتها الطبيعية من حيث التحصين الطبيعي المتميز جدا، نظرا لمختلف القلاقل التي ميزت هذه الحقبة من تاريخ المغرب الأقصى، حيث كانت تحتوي هذه المنشأة المعمارية على مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية لساكنتها، ولازالت قصبة دبدو في منطقة شرق المغرب تنفرد بهذه الميزة، لكن وللأسف أن المعلومات التي تخصها تبقى جد محدودة، ولعل السبب الرئيسي في هذا الأمر يرجع إلى ضعف المادة العلمية التي تخص معمارها وتطورها التاريخي، وأمام هذا الوضع سنقوم في البداية بتسجيل الملاحظات التالية:

- ينحصر جهد الدارسين لهذه المعلمة الأثرية في الجانب التاريخي الصرف ولا يتعداه إلى الدراسة المعمارية والاجتماعية.

- غياب التطور الكرونولوجي المتعلق بمعمار القصبة بمختلف المصادر التاريخية.

- غياب الدراسات الأثرية لهذه المعلمة والتي يمكن من خلالها رصد التطور المعماري الذي عرفته قصبة دبدو، ورسم المواقع الجغرافية لمختلف المؤسسات داخل نطاق القصبة.

هذه الأمور كلها تصعب من مأمورية تتبع التطور المعماري للقصبة المرينية، وتحتم إجراء أبحاث أثرية في الموضوع رغم ما يكتنفها هي الأخرى من صعوبات، صحيح أن دراسة القصبة من الناحية الأركيولوجية أمر ليس في متناول الجميع خصوصا عندما نعلم أن الكشف عن معطيات جديدة لها علاقة بالموضوع تصطدم بوجود بقايا من هذه المعلمة يصعب التعامل معها.

كما نرجح فرضية تعرض هذه القصبة للتدمير في العديد من المحطات التاريخية، كما حدث مع قصبة وجدة المرينية، خاصة إذا ما استحضرنا حدة الحروب الطاحنة بين المرينيين والزيانيين بتخوم شرق المغرب، فإذا أخذنا بعين الاعتبار الحديث عن عمران وجدة فإنها خلال تاريخها الطويل عرفت أحداثا سياسية هامة أدت في مرات عديدة إلى تحطيمها نهائيا ثم إعادة بنائها، فمسار وجدة التاريخي كان له تأثير مباشر على عمرانها الشيء الذي جعل هذا العمران يتجدد كل مرة خاصة منه البنايات السكنية، لكن هذا لا يمنع من وجود مآثر عمرانية هامة، وخاصة "المنشآت الدينية والعسكرية، التي تعود إلى قرون عديدة والتي بقيت صامدة رغم الأحداث الجسام التي تعرضت لها المدينة"[٢].

لكن رغم ذلك نؤكد أن القصبة المرينية بدبدو تشكل استثناء مقارنة مع مختلف قصبات جهة شرق المغرب، حيث ما تزال تحتفظ بالعديد من المرافق التاريخية التابعة لها، والتي سنحاول جاهدين إبراز أهم معالمها المعمارية من خلال هذه الدراسة.

١/١-أسوار قصبة دبدو

يعتبر الاجتماع الإنساني ضرورة يفرضها تطور المجتمع، وترجمة لرغبة أفراده في الانتقال من حالة البداوة وما يطبعها من غياب الاستقرار والأمن إلى حالة الحضارة، وهذا الاجتماع هو المدينة، أو ما اصطلح عليه ابن خلدون" بالعمران"[٣]. وأثناء تشييدهم لقصبتهم بدبدو اعتمد المرينيون في تجسيد رغبتهم في تحقيق الأمن والاستقرار على تسييج قصبتهم بأسوار متينة لازالت بعضها ماثلة لحد الساعة على اعتبار السور أحد أهم مكونات القصبة وفي هذا الصدد يشير بعضهم أن "السور الحصين لضمان أمن وحماية

سكان المدينة... جدار سميك تحاط به القصبة ويتوفر على أبواب"[٤]. ولهذا الغرض الأمني تم تدعيم هذه القصبة بهذه الأسوار السميكة، وقد تكون أيضا الأدوار الدفاعية والعسكرية التي كانت تلعبها هذه القصبة وراء هذا الاهتمام بهذا النوع من البناء خلال فترات الصراع التي طبعت تاريخ المنطقة إبان العصر الوسيط بين المرينيين والزيانيين.

في حقيقة الأمر أن التلاشي والزوال الذي عرفته مختلف أطراف أسوار قصبة دبدو، يشكل حجرة عثرة في عملية البحث خاصة وأن بعض الأجزاء من هذه الأسوار اندثرت ولم يعد لها أثر، وبالضبط الواجهتان الشمالية والغربية[٥]. وفي حديثه عن أسوار قصبة دبدو يؤكد أحد الباحثين "أن قصبة دبدو كانت على شكل مضلع رباعي يحيط بها سور يبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار وهو مبني بالكلس الممزوج بالطين الأحمر وهذه الطريقة في البناء تسمى محليا "باللوح" أو "الطابية[٦]"، كما تتخلل السور ثقب ذات أحجام متساوية تنتهي في الأعلى بحافة مسننة مما يضفي على السور جمالية نادرة.

ورغم مرور عدة قرون على تشييد هذه المنشأة إلا أنها لازالت تحتفظ بمختلف أسوارها، والمدعمة بأبراج المراقبة، شاهدة بالتالي على تاريخ حضاري عريق للمنطقة هذا ويتميز سور القصبة بالمتانة الشديدة فهو مشيد بتربة الكلس الممزوجة بالطين الأحمر، أما أساساته فهي مبنية بالحجارة، ويحيط بالسور خندق عميق، يسميه سكان المنطقة "بتاحفير[٧]"، وتجدر الإشارة إلى أن تقنية البناء اللوح المحلية ما زالت ساكنة المنطقة تستعملها في ميدان المعمار جيلا بعد جيل[٨]. ويصل علو سور القصبة ٨ أمتار، وتمتد أسوار قصبة دبدو المرينية على طول ١،٥ كلم.

عموما يبقى سور القصبة المرينية بمنطقة دبدو أهم معالم المدينة التاريخية والحضارية، ويوضح ما توصل إليه الإنسان المغربي في فترات متقدمة من التاريخ من تفنن في التشييد والبناء، لكن وللأسف أن وضعية الأسوار تدعو للقلق بسبب غياب عمليات الصيانة والترميم، والتي تستفيد منها أسوار أبراج وأبواب أخرى (فاس، الرباط، مراكش،....)، ويستثنى البعض الأخر ليبقى السؤال المطروح لماذا هذا الإهمال؟ ومن يتحمل المسؤولية في ضياع هذه الوثائق التاريخية؟ في انتظار تدخل كل من له غيرة من أجل إنقاذ ما يمكن إنقاذه من بقايا هذه المعلمة التاريخية.

هكذا قاومت مختلف أسوار قصبة بني مرين بدبدو دواعي يد الإنسان العدوانية والظروف الطبيعية والمناخية، لتظل مدة قرون ماثلة للعيان وتشكل بذلك أهم المعالم الأثرية والمعمارية بالجهة الشرقية، على الرغم من انهيار واندثار مختلف الأسوار الداخلية والخارجية للقصبة. ومن خلال المعاينة الميدانية لمختلف أسوار القصبة قمنا بتسجيل بعض الملاحظات وهي كالتالي:

الملاحظة الأولى: أن أغلب الأسوار خاصة على الجهة الشمالية اندثرت ولم يبق إلا بعض المخلفات منها، والتي هي الأخرى على وشك الانهيار كما تم توضيح ذلك من خلال الصورة الأخيرة.

الملاحظة الثانية: أن أسوار الجهة الجنوبية المقابلة للقمة الجبلية لعين تافرنت، لازالت تقاوم مرور الزمن رغم علامات الانهيار البادية عليها.

الملاحظة الثالثة: زحف البناء العصري على مختلف الأسوار الداخلية لقصبة بني مرين.

الملاحظة الرابعة: تأثر واضح على الواجهة الداخلية للقصبة عبر مختلف أسوارها، حيث ساهمت الأنشطة الفلاحية داخل القصبة في تغيير ملامحها وإتلاف معالمها.

٢/١-أبراج وأبواب قصبة دبدو

إن الوظيفة الدفاعية والعسكرية للقصبة المرينية بمنطقة دبدو واستراتيجية موقعها الطبيعي الواقع على منطقة جبلية حصينة، عززت بوجود عدد من الأبراج والأبواب المدعمة للقصبة من أجل أداء وظيفة دفاعية محكمة. وقد شكلت هذه الأبراج حسب ما ورد في الرواية الشفوية "أداة مهمة لمراقبة تحركات "العدو" الداخلي والخارجي، خاصة القبائل المناوئة لحكم بني مرين في المنطقة"[٩]، كما أنه لا شك أن تكون هذه الأبراج والأبواب قد ساهمت في رصد تحركات بني عبد الواد أثناء صراعهم على المنطقة مع أبناء عمومتهم المستقرين بدبدو، وكذلك المناوشات التي كانت تحدث بين أهل القصبة والساكنة المجاورة لاستغلال مياه عين تافرنت.

وقد اعتبرت الأبراج إحدى أهم مكونات القصبة، بحيث تأخذ أشكالاً هندسية ذات قاعدة مستطيلة ومن ناحية ثانية أكثر صلابة وتماسكًا مقارنة بباقي أسوار القصبة. وقد بلغ عدد أبراج القصبة ثمانية لكن معظمها تعرض للهدم والتلاشي بسبب الإهمال

والعوامل المناخية، ولم يبق منها إلا بعض الآثار الدالة على ذلك، ويرصدها العلوي الإسماعيلي عبد الحميد في" (برج الجبس، برج المقبرة، أو برج الشافة، برج بركون، برج ارفيقة"[١٠]، هذه الأبراج تهدم بعضها و البعض الأخر لا يزال يقاوم عوامل الإتلاف (الطبيعية والبشرية)، خاصة تلك الواقعة بالجهة الجنوبية من القصبة في اتجاه عين تافرنت والبعض الآخر في الواجهة الشرقية، وتبقى حاليا خمسة أبراج واقفة في وجه العوامل المذكورة رغم دواعي الانهيار البادية عليها.

كما أن القصبة المرينية كانت مدعمة بأبواب تلعب نفس الدور الوقائي في الحماية، والاستراتيجي من ناحية التزود بالمواد خاصة في وقت الحروب، البابان هما " باب تافرنت من الناحية الجنوبية وباب تانزلفت من الناحية الشرقية"[١١]، فالأول ما زال موجوداً ويؤدي إلى اتجاه عين تافرنت ويحتمل أن يكون يكون هناك باب ثانوي ما يعرف" بباب لغدير[١٢]"، كما ورد ذكره عند بعض الباحثين، ومن ثَمَّ قد يكون استمد تسميته أي من عين تافرنت الطبيعية، كما أنه يعتبر ذا موقع مهم انطلاقا من كونه بعيداً عن الأنظار ومن ثَمَّ يمكن القول أنه كان يستغل في وقت الشدة والحصار.

ونضيف إلى أن الوعاء الجغرافي للقصبة لا يسمح إلا بوجود بابين كما هو الشأن في بعض القصبات، (الباب الجنوبي باب تافرنت) والباب الشمالي الذي يطل على دبدو، فباب تافرنت يسمح بالذهاب إلى عين تافرنت وجبال الكعدة خصوصًا وأن سكان القصبة كانوا يعتمدون على مياه هذه العين، أما غرب القصبة وشرقها فالخندق عميق جداً وواسع لا يسمح بتوفير ممرات.

ثانيًا: المسجد المريني في قصبة دبدو

يعتبر المسجد أهم منشأة اهتم بها سلاطين المغرب في تشييداتهم وإنشاءاتهم، وما زالت بعض النماذج شاهدًا حيًا على هذه العناية التي أولاها السلاطين المغاربة لهذه المنشأة الدينية، حيث اعتبر مؤسسة دينية تقام فيه الصلاة وتنظم فيه أمور الدولة الإسلامية الفتية، ويربى فيه الفرد على مبدأ أساسي وهو احترام الآخر، وقد شكل المسجد المرفق الأساسي للدولة الإسلامية، وحوله تمت مختلف المرافق الأخرى الضرورية،" حيث شكل نواة المدينة ومنه تنطلق مختلف الأزقة"[١٣].

واعتبر المسجد تاريخيًا اللبنة التي تتجسد فيها العلاقات اليومية التي تربط بين أفراد المجتمع، من حيث أداء الواجبات الفرضية إلى جانب الرمزية منها، حيث التكافل والتضامن والتسامح، وكسابقيهم تصدر تشييد المساجد اهتمامات المرينيين ذلك أنه يعتبر من أبرز السمات المعمارية المميزة لقصبة دبدو، باعتبارها نواة المدينة الحديثة ورمزًا تاريخيًا لأسرة بني مرين، لذلك كان لابد لهذه الأخيرة من إنشاء مسجد داخلها والذي اعتبر من أولويات الأسر الحاكمة كما ذكرنا. لكن الإشكالية المطروحة بهذه المنشأة التاريخية و الدينية، تتعلق بغياب وانعدام المادة التاريخية التي تقربنا من معرفة تطور معمارها وتاريخها، ونتساءل أيضًا هل فعلا أن المسجد ذو أصول مرينية؟

نعي جيدًا أن هذا العجز المصدري يصعب معه تتبع مراحل تطور المسجد منذ إنشائه إلى يومنا هذا، لأنه كما سبق وأن أشرنا أن الإشارات في مجملها التي تشير إلى تاريخ المنطقة قليلة، وأمام هذا الواقع سنحاول البحث ما أمكن في تاريخ ومعمار هذه المنشأة الدينية، التي ما تزال تحتفظ بها قصبة دبدو والذاكرة التاريخية لساكنة المنطقة والتي تعتبر من أهم المرافق التاريخية التي استمرت في الوجود.

٢/١-المسجد العتيق في قصبة دبدو والتاريخ

يشكل المسجد العتيق أحد المعالم المميزة للقصبة منذ القديم، نظرا للدور الذي لعبه على مر العصور خصوصا جانب الإشعاع الديني بالمنطقة، إذ يعتبر من المساجد الأولى التي أنشئت بمنطقة دبدو والجهة الشرقية.

حسب الرواية الشفوية والمتداول لدى ساكنة المنطقة، "يعود بناء المسجد العتيق بحي القصبة إلى فترة القرون الوسطى مع سلاطين الدولة المرينية"[١٤]، ويشير أحد الباحثين في فن المعمار إلى أن المسجد العتيق بالقصبة، "وبالرجوع إلى أرشيف القرن التاسع عشر والعشرين ثبت لنا أن المسجد العتيق بالقصبة يشبه إلى حد ما المساجد التي بنيت جنوب الصحراء كالنيجر ومالي، فالصومعة وإن كانت قد بنيت في العصر المريني فإنها خضعت في الوقت الراهن لعدة عمليات لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، من ناحية أخرى يلاحظ أن المدخل القديم للصومعة يتكون من قوس، كما نسجل غياب أي نوع من الزخرفة داخل الصومعة وخارجها، كذلك يلاحظ أن المسجد العتيق يتكون من تشكيلات هندسية تتمثل في وجود أنواع مختلفة من الأقواس المتفاوتة من حيث الحجم والشكل"[١٥]، ويتكون من بيت للصلاة وصومعة وبداخله محراب ومنبر، أما أسواره فهي مبنية بالطين.

واعتماداً على نصوص تاريخية أجنبية، والتي نعتبرها من الكتابات التاريخية التي أرخت لجوانب متعددة من تاريخ المنطقة إبان الدخول الاستعماري الفرنسي ومهدت الطريق لتدخل فرنسا في شؤون المغرب، علما وأن هذه الأخيرة اعتمدت على علماء اجتماع مؤرخين وأنتروبولوجيين تجار... لتنفيذ مخططها الاستعماري" تؤكد أن مسجد القصبة عرف باسم مسجد قصبة غمريش"[١٦]. يبدو أن نسبة هذا المسجد إلى القائد غمريش ممثل المخزن المغربي هناك مع مطلع القرن العشرين الميلادي، لا تعني بالضرورة رجوع سنة تشييده إلى هذه الحقبة التاريخية وأن هو من أسسه، بل نرى أن هذا المسجد شيد إلى جانب مختلف مرافق القصبة مع سلاطين بني مرين، وربما تعرض لمجموعة من الإصلاحات والترميمات خلال هذه الحقبة من القرن العشرين الميلادي وهو ما يفسر استمراره في أداء وظيفته إلى يومنا هذا.

كما أن هناك فرضية تشييده على عهد السلطان أبو يوسف يعقوب سنة (٦٥٨هـ - ١٢٦٠م) موازاة مع تشييد مختلف مرافق القصبة وأسوارها، وهذا هو الاحتمال الصائب من وجهة نظرنا على اعتبار أن النصوص التاريخية تتحدث عن أقدمية قصبة دبدو مقارنة مع قصبة تاوريرت. ولا نستبعد أن تكون مختلف القصبات المرينية قد عرفت تشييد هذا المرفق، وفي ذلك يشير بعض الباحثين المعاصرين في إطار حديثه عن القصبة المرينية بمكناس، إلى أن هذه المنشأة اعتبرت من أهم أولويات السلطة المرينية، بحيث "تصدر تشييد المساجد اهتمامات المرينيين، ذلك أن من بين أول ما شرعوا في بنائه بالمدينة، نذكر القصبة وجامعها سنة (٦٧٤هـ/١٢٧٥م) بأمر من الأمير يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٥١-٦٨٥هـ/١٢٥٨-١٢٨٦م)"[١٧].

ونظن أن المعلومات لا تسعفنا في معرفة تاريخ تشييد هذا المسجد، إذ نرجح فرضية رجوعه إلى فترة بني مرين كما أشرنا إلى ذلك، ومثله شيد بمدينة وجدة في نفس الظرفية مع السلطان المريني أبي يعقوب يوسف سنة ١٢٩٦م أثناء بنائه للمسجد الأعظم بوجدة"[١٨]. وتبقى هذه الفرضية الأقرب إلى الصواب بحكم أن أغلب القصبات ومرافقها التاريخية التي تم تشييدها من طرف المرينيين بالمنطقة كانت خلال هذه الفترة: ومنها قصبة تاوريرت ووجدة.

وقد استفادت دبدو من هذه العملية بحيث ما يزال مسجد القصبة ماثلاً لحدود الساعة، كما يفترض أن يكون قد تعرض لمجموعة من الإصلاحات والترميمات خلال نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين، "حيث إنه على عهد بني ورتاجن المرينيين عملوا على إعادة بناء المسجد ومئذنته"[١٩]، خاصة ونحن نعلم أن المنطقة عرفت أوج ازدهارها العمراني والحضاري خلال هذه المرحلة حسب ما ورد في بعض المصادر التاريخية الكلاسيكية، وبالنظر أيضًا إلى بنيته المرفولوجية وعناصر بنائه المتكونة من الطين الممزوج بالجير وهي عناصر قد تؤشر على تشييده إبان فترة حكم سلاطين بني مرين.

٢/٢-معمار مسجد قصبة دبدو

يقع هذا المسجد في الجهة الشمالية من القصبة ويحتل مساحة لا بأس بها، وفي ظل غياب المعطيات التاريخية والمعمارية المتعلقة بالمسجد سنحاول جاهدين الوقوف عند أبرز السمات المعمارية لهذه المنشأة الدينية، على الرغم ما يكتنف رصد تطوره المعماري منذ إنشائه إلى يومنا هذا من صعوبات نتيجة الترميمات التي عرفها المسجد.

من حيث التوسيع لم يخضع لهذه العملية والسبب هو ضيق وتواضع المساحة المخصصة للقصبة ككل، بالإضافة إلى استغلال جزء من "الأرض" لمزاولة مختلف الأنشطة الفلاحية"[٢٠]، كما يحتوي هذا المسجد على صومعة مستطيلة الشكل بها نوافذ مقوسة، تنتهي في الأعلى بأشكال هندسية مسننة غاية في الدقة تحتل الصومعة الجانب الجنوبي من المسجد، تحيط به أشجار الزيتون أما بالنسبة لباب المسجد فقد طرأت عليه عدة تغييرات وتحولات، هذا ويبلغ ارتفاعه (2,20 مترًا) في حين أن عرضه يقدر بـ (1,30 مترًا)، من جهة أخرى يلاحظ وجود أربعة فتحات على الواجهات الأربعة للمسجد، ولعل الغرض من هذه التقنية هو السماح بمرور أشعة الشمس وكذا دخول تيارات الهواء إلى قاعة المسجد، وتجدر الإشارة إلى أن صومعة المسجد يبلغ طولها حوالي 3,25 مترًا، بالإضافة إلى أن هذه الثقب جاءت نتيجة لطريقة البناء المحلية التي يستعمل فيها اللوح أو الخشب في تشييد الأسوار لجعله أكثر صلابة وارتفاعاً.

وتتخلل صومعة مسجد قصبة دبدو مجموعة من الأشكال الهندسية شبه مثلثة، منها (١٢) شكلاً يتموقع عند قمة الصومعة و(٢٤) شكلاً تأخذ شكل حزام عند نهاية شكلها المستطيل، كما تحتوي هذه الصومعة على مجموعة من الثقب قد يكون الغرض منا تهوية الصومعة والمسجد وهي في مجملها متفاوتة الحجم، أضف إلى ذلك وجود مكبرين للصوت فوق

الصومعة لإسماع صوت الأذان للساكنة المحلية والمحيطة أيضا بالقصبة، أما مكونات بناء الصومعة فهي تشمل الحجر المنحوت يأخذ شكل الأجور الأحمر، وتنتهي هذه الصومعة في الأعلى بقبة شبه مقوسة ويحيط بها سور قديم مكوناته كبقية أسوار القصبة استعمال تقنية "الطابية"، كما تحيط بهذا المسجد مجموعة من أشجار الزيتون. أما من حيث أصالته فقد بني بنفس المواد التي بنيت بها مختلف أسوار ومرافق القصبة المرينية، محافظا على تقنية الطابية التقليدية، وكما هو مبين في الصورة أعلاه قد يكون من أول المرافق التي تم تشييدها على مستوى القصبة.

٢/٣-حالة المسجد العتيق في قصبة دبدو

يعتبر المسجد "العتيق" بقصبة دبدو من المعالم التاريخية المحظوظة، التي استمرت في الوجود عدة قرون من عصر بني مرين إلى عصرنا الحالي حسب المعطيات التي تم الحصول عليها وما تم استنتاجه من خلال تحليل بعض المعطيات التاريخية، في مقارنة مع بعض المرافق التي تنتمي إلى القصبة والتي لم يعد لها أثر يذكر، و لا زالت قاعة الصلاة على نفس الحالة التي وجدت عليها منذ الوهلة الأولى، نفس الشيء بالنسبة لصومعة المسجد إذا استثنينا الإصلاحات البسيطة التي أدخلت عليها وعلى المسجد ككل في فترات سابقة ،إلا أن الملاحظ هو التصدع الذي يعرفه هذا المسجد من ناحية الأسوار، الأمر الذي يدعو إلى الإسراع في التدخل العاجل لإنقاذ هذه المنشأة الدينية.

ونسجل في سياق الحديث عن وضعيته الحالية خلوه من الزخرفة ما عدا بعض التقويسات على مستوى الصومعة، ولازال المسجد لحد الساعة يؤدي الوظيفة التي أنشئ من أجلها (أداء الصلوات الخمس ما عدا صلاة يوم الجمعة)، وهو بمثابة القلب النابض لمجتمع القصبة حاليًا. عمومًا يبقى المسجد العتيق بقصبة دبدو من أقدم المساجد بإقليم تاوريرت والجهة الشرقية، (إلى جانب مسجد الشاوي ببني كولال)، ويعد من المعالم التاريخية والأثرية الجديرة بالبحث والإصلاح، كما أن غياب المعطيات المتعلقة به تصعب من مأمورية الباحثين خاصة الجانب التاريخي والمعماري[٠] ولا شك أن طابع القداسة التي يتمتع بها المسجد كانت السبب الرئيس في استمراره من أقدم العصور إلى يومنا هذا.

ثالثًا: القبتان المرينيتان في قصبة دبدو

إذا كانت بعض معالم القصبة المرينية بدبدو قد تعرضت مختلف مرافقها مثل الحمام والديوان للإتلاف، فإن البعض الآخر ما زال ماثلا للعيان، ونفس الشيء الذي تم تسجيله فيما سبق ينطبق على هاتين المعلمتين التاريخيتين حين لا نجد في المادة الأولية ما يزيل اللبس والغموض عن تاريخ ومعمار هذا النموذج المعماري والحضاري. توجد القبتان بوسط القصبة المرينية بدبدو، وتمثلان أحد أهم معالم هذه الأخيرة، وبالرجوع إلى مختلف المصادر التي تحتوي بين طياتها على جوانب من تاريخ هذه الرقعة الجغرافية نلاحظ أن القبتين موضوع الدراسة لم تتم الإشارة إليهما في مختلف هذه الكتابات حسب إطلاعنا، وبالتالي يتعذر علينا معرفة الفترة التاريخية التي شهدت بناء هاتين المعلمتين.

وأمام غياب المعطيات التاريخية المكتوبة التي لها علاقة بتاريخ ومعمار القبتين، تذهب الرواية الشفوية إلى أن تشييدهما يعود للفترة الإدريسية، كما أن هناك إشكالا يتعلق بمجال استعمال القبتين وتشير الرواية نفسها إلى أنهما كانتا تستغلان كمكان لاستراحة الأميرات في عهد الإمارات المتعاقبة على حكم المنطقة خاصة مع سلاطين بني مرين[٢١]، كما أن هناك رواية أخرى تذهب إلى القول إلى استغلال القبتين من طرف السلاطين كمكان للاستراحة واستقبال الوفود[٢٢]. وأمام ضعف صحة المعطيات الشفوية قمنا بزيارة ميدانية لعين المكان في محاولة للإجابة عن الإشكالية التاريخية والمعمارية للقبتين فسجلنا الملاحظات التالية:

- من الناحية المورفولوجية والمعمارية هناك تشابه شبه تام بين المعلمتين التاريخيتين.
- نفس مكونات البناء مقارنة مع باقي مرافق القصبة، من خلال استعمال الحجر والطين الممزوج بالجير " الطابية"، من هذا المنطلق نميل إلى الاعتقاد إلى أن تاريخ إنشائهما يعود إلى الفترة المرينية موازاة مع مختلف المؤسسات الداخلية.
- تنتهي القبتان في الأعلى بما يشبه "القبة" التي تميز الأولياء والأضرحة ومن تم إمكانية القول إنهما كانتا تستضيفان الزوار والوفود ربما للبيعة.
- تصدع في مختلف جدران المعلمتين، مما ينبئ بزوالهما واندثارهما في أي لحظة، ومن تم ضرورة القيام بإصلاحات وترميمات.

ونرى أن إرجاع أصل هاتين المعلمتين إلى الفترة الإدريسية أمر مستبعد جدا، ويكون تأسيسهما على الأقل مع سلاطين الدولة المرينية، ومن خلال المعاينة الميدانية للمعلمتين الأثريتين يتضح لنا أن ارتفاع الواحدة منهما يبلغ 4,5 أمتار، كما أن الخليط الممزوج الذي تم استخدامه في بناء القبتين غني بالجير، علاوة على أن المدخلين الرئيسيين يبلغان على التوالي ٧٠ سنتيمترًا في العرض ومترين (٢ متر) في الارتفاع. أما بالنسبة للفناء الداخلي فإنه يتألف من الجدران الداخلية التي تتميز بتشابهها، غير أن اللافت للنظر هو وجود ذلك الثقب أعلى القبتين والذي يسمح بمرور أشعة الشمس إلى داخل القبتين".

أما فيما يتعلق بالأحجار التي تم استخدامها في بناء القبتين، فيلاحظ أنها لم تخضع قبل عملية البناء لأي تغيير لأنها ما زالت محافظة على شكلها الأصلي، ويمكن القول بأن الأدوات التي استخدمت في بناء القبة الأولى هي نفسها التي استخدمت في بناء القبة الثانية، غير أن هناك تمايزا في الشكل بين القبتين مما يصعب معه الحديث عن قبتين توأمتين ويظهر ذلك جليًا في الشكل الذي تتخذه كل قبة من الأعلى[٢٣]. يبدو أن الدراسة التي قدمها المامون الناصري تذهب إلى القول إن القبتين غير توأمتين، بمعنى أن هناك اختلاف في تاريخ بناء كل واحدة منهما، لكن الزيارة الميدانية جعلتنا ننحو منحى مغايرا ونؤكد أن هناك تشابها وتطابقا شبه تام بين القبتين فنفس الأدوات التي تم استعمالها في بناء الأولى تم استعمالها في الثانية (انظر الصورة).

كما أن الحجر الموجود في جوانب وأعلى القبتين أصلي ولم يطرأ عليه أي تعديل، والبنية المورفولوجية والمعمارية تؤكد ما تم استنتاجه وهو ما توضحه الصور المأخوذة من عين المكان، ومن ثم فهما نموذجان معماريان تم تشييدهما في نفس الفترة التاريخية والتي تعود حسب تقديرنا الخاص" إلى بني مرين، وترميمهما عندما آلت المنطقة لأسرة بني ورتاجين الزنانية أواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر"[٢٤] أي بالموازاة مع تشييد مختلف مرافق قصبة دبدو. وأمام هذا الوضع لنا كل الأمل في أن تنال المنطقة ومن ضمنها القبتان من الأبحاث الأثرية لإماطة اللثام عن تاريخ وعمران المنطقة، ورسم ملامح تاريخ جديد بناء على أدلة مادية صحيحة، حتى نتعرف أكثر على التطور التاريخي والمعماري الذي عرفته منطقة دبدو وخصوصًا القصبة المرينية ومحيطها.

رابعًا: القصر في قصبة دبدو ALKSAR

سبقت الإشارة إلى أن قصبة دبدو تمثل استثناء من بين كل القصبات في شرق المغرب، من خلال احتفاظها بمختلف المرافق والمؤسسات التي تؤمن استمرار الوجود الإنساني وتوفير الأمن والاستقرار للساكنة المحلية، ويشكل لقصر أحد أهم معالم قصبة دبدو التاريخية، ولا شك أن هذه المنشاة "لقصر"[٢٥]، الأثرية تستحق الدراسة إلى جانب مختلف مرافق القصبة فماذا نقصد بلقصر؟ وما هو الشكل المعماري الذي يتخذه؟

يمكن القول "أن القصر هو عبارة عن حصن مربع الشكل، يتميز عادة بتنوع في أبعاده، حيث يتراوح بين ٦٠ مترًا و٧٥ مترًا، ويمكن للقصر أن يضم منزلاً من طابق واحد أو منزلاً من طابقين. وتقترب كلمة قصر نطقا من كلمة Alcazar، وهي تعني البناء الصلب المتماسك الذي يقام فوق هضبة منبسطة ومنطقة جبلية. هذا وتعرف كلمة قصر عند البعض ب Ighrem، وهي كلمة تستخدم في مناطق مغربية مختلفة للدلالة على المكان الذي يأوي العديد من السكان ويحميهم من خطر الهجومات الداخلية والخارجية[٢٦]، إذ نجد في منطقة فكيك شيوع هذه التسمية "القصر".

وقد ورد هذا المرفق بقصبة دبدو عند بعض الأجانب باسم " alkasr" وبعض الآثار"[٢٧]، وفي كتابات تاريخية أخرى أيضا تمت الإشارة إلى "قصور جبل دبدو"[٢٨] دون الخوض في التفاصيل وإعطاء المزيد من المعلومات التاريخية والعمرانية حول هذه المعلمة، كما ورد هذا المفهوم kasr في بعض الكتابات التاريخية الأجنبية في سياق الحديث عن "قصر قصبة طنجة"[٢٩]، إذ سجلنا نفس الملاحظة وهو عدم إعطاء معلومات كافية حول هذه المعلمة التاريخية والاكتفاء بذكر الاسم، خاصةً إذا ما استحضرنا أن منشأة القصر تعتبر إحدى أهم مرافق القصبة ومكان سكنى الأمراء والملوك.

هذا وتراعى في شروط بناء القصر الحماية، لذلك فهو يخضع في البناء لمعيار الصلابة حفاظا على أمن قاطنيه، ويحتمل أن يكون قصر قصبة دبدو بمثابة مكان استقرار حكام دبدو خلال الفترة المرينية، ومقر القائد غمريش عند مطلع القرن ٢٠م، على اعتبار أن مفهوم القصر مرتبط تاريخيًا معماريًا بالسلاطين والملوك والقواد، وبالإضافة إلى قصر القصبة فقد عرفت

منطقة دبدو وجود مجموعة من القصور خاصة كما ورد ذكر ذلك في بعض الكتابات التاريخية الأجنبية ومنها "قصور لمقام جنوب الكعدة gaada"[٣٠].

خامسًا: قصبة دبدو والوضعية الراهنة

إن الباحث في ميدان التاريخ وهو يتناول هذا النوع من المواضيع ذات الصبغة التاريخية والعمرانية، يجد نفسه ملزمًا بإبراز الوضعية الحالية لمختلف جوانب هذه المعالم التاريخية، عسى أن تنال مثل هذه المواقع الأثرية نصيبها من الاهتمام من طرف ذوي القرار. إن الزائر للموقع الأثري "قصبة بني مرين بدبدو"، يجد نفسه يتحسر على ضياع أجزاء مهمة من هذه المعلمة التاريخية، وبالتالي التفريط في تراث إنساني جدير بالمحافظة، وحسب الملاحظات الميدانية تبين لنا فقدان أجزاء جد مهمة من هذه القصبة في مختلف الواجهات، بل الأكثر من ذلك أن بعض المرافق لم يعد لها أثر، وترددها فقط الرواية الشفوية (الحمام والديوان) والسبب في ذلك يعود إلى تظافر وتأثير مختلف العوامل الطبيعية والبشرية على معمار هذه القصبة بشكل سلبي[٣١].

ومع مرور الزمن فقدت قصبة بني مرين خصوصياتها ووظائفها الأساسية التي شيدت من أجلها، وأصبحت حاليًا عبارة عن تجمع سكني بسيط وتزاول داخلها مختلف الأنشطة الفلاحية من طرف ساكنتها (انظر الخريطة المتعلقة بتقسيم القصبة بين الأنشطة الفلاحية والمساكن). وما يزيد من تفاقم وضعيتها وانهيار مختلف أسوارها، غياب أي التفاتة من أي جهة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه، إذ نلاحظ أن الجهة الشرقية والشمالية فقدت أغلب أسوارها إضافة إلى الجهة الغربية المؤدية إلى الغابة المجاورة، ولم يبق سوى أسوار الجهة الجنوبية وبعض الأجزاء من الجنوبية الشرقية تقاوم في صمت عوامل الإتلاف المناخية واليد البشرية في اتجاه عين تافرنت.

خاتِمَةٌ

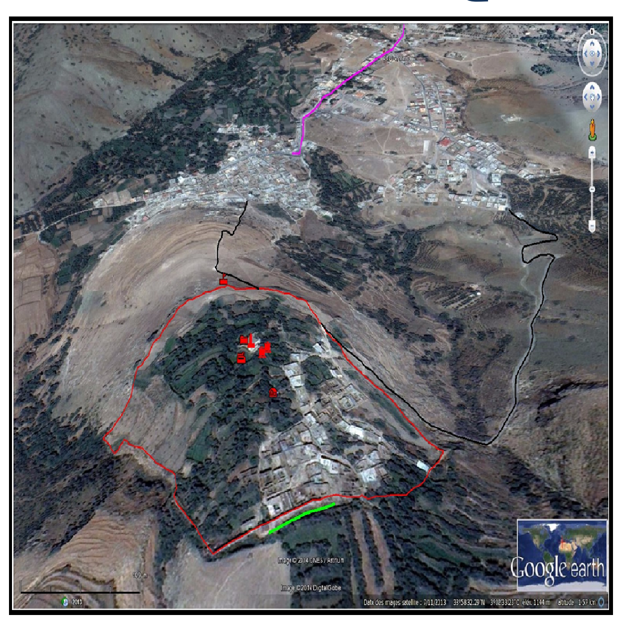
ونخلص إلى أن هذه المنشأة التاريخية تبقى من أبرز سمات التراث المعماري المريني بمنطقة دبدو خاصة وجهة الشرق عامة، وكانت شاهدة على صراع دموي خلال فترات متقدمة من التاريخ الوسيط بين أبناء العمومة والأخوة الأعداء الزيانيين بتلمسان والمرينيين بفاس، كما تشكل هذه القصبة استثناء مقارنة بباقي القصبات المنتشرة على طول جهة الشرق من المغرب، نظرًا لاحتفاظها بمجموعة من المرافق الداخلية التي سلف ذكرها.

وإنه لمن المؤسف ألا نجد في المادة المتوفرة ما يسمح برسم أكثر من هذه الصورة حول معمار قصبة دبدو ومرافقها، وأمام هذا التقصير يبقى الأمل فيما يمكن أن تقدمه البحوث الأثرية من نتائج تعمق معرفتنا بهذه المنشأة ومعالمها التاريخية، وتبقى هذه الدراسة عبارة عن عملية توثيقية لهذا الصرح التاريخي، ونختم هذه الدراسة بالتوصيات التالية:

- وضع نصوص قانونية لحماية المواقع الأثرية ضمن قوانين التعمير والبناء.
- إحداث صندوق خاص بصيانة المواقع التاريخية، وذلك بشكل دوري حتى لا تكون عرضة للاندثار.
- المحافظة على التراث المعماري مسؤولية جماعية تهم مؤسسات الدولة وكذا المجتمع المدني.
- تكوين جمعيات المجتمع المدني للتحسيس بأهمية الآثار.
- وضع حماية التراث المعماري في صلب كل مخطط تنموي.
- العمل على نشر الوعي أن هذه الآثار ثروة قومية يجب على كل شخص بل يتحتم على كل واحد حمايتها.
- سن عقوبات زجرية في حق كل من يعمل على إتلاف التراث المعماري.
- إجراء أبحاث آثرية بالقصبة ومحيطها لصياغة تاريخية مثلى.
- تكثيف البحوث الأكاديمية حول التراث المعماري.
- التعريف بقصبة دبدو وتبيان مؤهلاتها الحضارية حتى تكون وجهة سياحية.
- انخراط المجتمع المدني إلى جانب الأكاديميين والتقنيين عند صياغة مشاريع الصيانة المرتبطة بالقصبات.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعلمة التاريخية تعرف خلال هذه المرحلة مجموعة من الإصلاحات وخاصةً على مستوى الأسوار المحيطة بها.

الملاحق



صورة رقم (١)

حدود قصبة دبدو وبعض المرافق التابعة لها[٣٢]

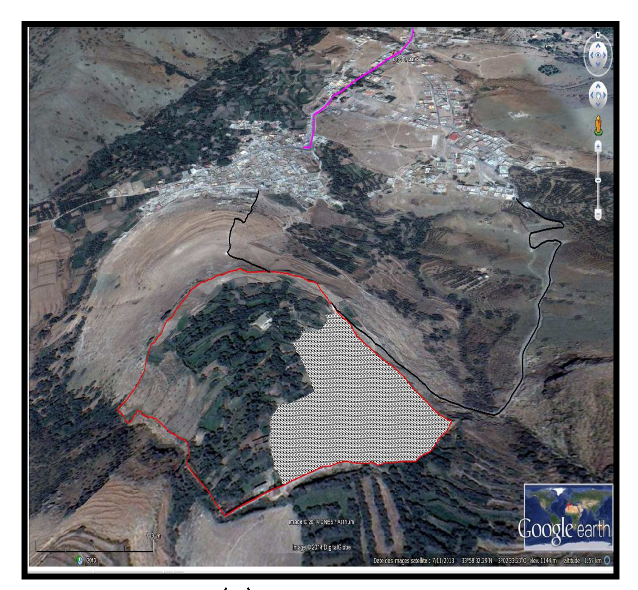




صورة رقم (٢)

وضعية أسوار قصبة دبدو

من الواجهتين الشمالية والغربية.[٣٣]



صورة رقم (٣)

توضح تأثير الأنشطة الفلاحية على معمار القصبة[٣٤]





صورة رقم (٤)

أحد أبراج قصبة بني مرين بدبدو[٣٥]



صورة رقم (٥)
باب القصبة المؤدي إلى عين تافرنت.[٣٦]



صورة رقم (٧)
القبتان المرينيتان بقصبة دبدو[٣٨]



صورة رقم (٦)
الإصلاحات التي أدخلت عليه[٣٧]

الهَوامِشُ:

(١) **القصبة**: هي عبارة عن مدينة صغيرة تضم مختلف المرافق الضرورية للحياة اليومية مثل (المسجد، الحمام، منازل، السجن، الديوان...)، ويختار لتشييدها مواقع استراتيجية محصنة تحصينا طبيعيا من أجل المقاومة مدعمة بأبراج للمراقبة والأبواب. وحسب بعض التعريفات التي أعطيت من قبل باحثين معاصرين فإن القصبة " عبارة عن بناء محصن تحيط به الأسوار من جميع الجهات، وتتخلله أبواب محصنة بوسائل دفاعية وفي أركانه أو على طول أسواره أبراج للمراقبة كما أن الفهارس الفرنسية تدرج كلمة القصبة في تعريفاتها (casbah) وتعني بها مدينة محصنة بكل وسائل الدفاع والمقاومة، إذ عادة ما يختار لها موقع استراتيجي لتسهيل عملية التزود بالتموين خلال الحصار، وغالبا ما تكون فوق ربوة وبالقرب من موارد المياه، وبذلك تخضع لمفهوم الموقع من جهة خاصة.

* حميد الفرخ، **"تطور المجال الدفاعي المعماري بالمغرب"**، أعمال ندوة وطنية بتاوريرت، ٢٠٠٧، ص.٤٣.

(2) Dadi . Maria," **Tourisme et développement durable** ", colloque International, organisé à Figuig 09 et 10 Mai, 2007, p. 60.

(٣) عبد الرحمان ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، الجزء الأول، دار الكتاب العلمية بيروت، ١٩٩٢، ص. ٤٤.

(٤) ابن خلدون، م س، ص. ٣٧٠.

(٥) ملاحظة ميدانية. أسوار قصبة دبدو أكثر سمكًا وصلابة مقارنة بقصبات أخرى من شرق المغرب ومنها قصبة السعيدية، حيث لا يزيد طول كل ضلع من أضلاعها عن مائة متر"،(٥) ويتراوح سمكها ما بين ٧٠ و ٨٠ سنتمتر، ويصفها بعض الدارسين الأجانب كونها عبارة عن أسوار مربعة طول ضلعها حوالي ١٠٠ متر وارتفاعها حوالي ٦ مترات.

(٦) الإسماعيلي مولاي عبد الحميد، **"تاريخ وجدة انجاد في دوحة الأمجاد"**، الجزء ١، مطبعة النجاح الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ٧٦.

(٧) ملاحظة ميدانية. نؤكد على أن قصبة دبدو أكثر حصانة من مجموعة من القصبات على صعيد شرق المغرب مقارنة بمجموعة من القصبات في شرق المغرب ومنها قصبة السعيدية، هذا وعند الغوص في هندسة القصبة أي قصبة السعيدية نجد أن أسوارها قد أوغلت في سطح الأرض بمقدار يزيد عن 1.5 m وسمكها يزيد عن 1.30 m انطلاقًا من القاعدة، وعلوها يزيد عن ٦ إلى ٧ أمتار، كما شيدت القصبة على مساحة بلغت ١٦٩٠٠ m2 على شكل مربع طول كل ضلع فيه 130متر مربع.

(٨) المحمدي محمدين، **رواية شفوية**، ٧٨ سنة، من ساكنة القصبة المرينية بدبدو.

(٩) المحمدي محمدين، **رواية شفوية**، ٧٣ سنة، من ساكنة القصبة.

(١٠) الإسماعيلي مولاي عبد الحميد، **"تاريخ وجدة انجاد"**، الجزء الأول، مرجع سابق، ص. ٧٦.

(١١) نفسه.

(١٢) المغاري مينة، مادة، "**القصبة**"، معلمة المغرب، مطابع سلا، ١٤٢٥، ٢٠٠٤، مجلد ١٩، ص. ٦٦٣٣.

(١٣) الشيخ اسعادة، **"فجر العمران الإسلامي ببلاد المغرب"**، مجلة كلية الآداب وجدة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩١، عدد ٢، ص. ٤٠، "إذ غدا المسجد الجامع ودار الإمارة ثم الأسواق المركزية، نواة المدينة وقلبها النابض ومنه تنطلق السكك والطرقات.

(١٤) التومي احميميد، ساكن بحي القصبة، **رواية شفوية**، ٥٥ سنة. إضافة إلى هذا المسجد لا تزال قصبة عيون سيدي ملوك هي الأخرى تحتوي على هذه المؤسسة الدينية، وتعرف باسم مسجد بوعمامة.

(15) Naciri. Mamoun, «**Etude architecturale et plan de sauve garde de la kasbah de Debdou** »,rapport d'analyse et de diagnostic , décembre 2005, p.43.

(16) Charton Edouard, **" Le Tour du monde"** , journal des voyages et des voyageurs ,librairie Hachette , paris , 1860, 2éme semestre, p .14.

(١٧) حيمر جمال، **"مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث دراسة في التاريخ السياسي والعمراني"**، جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية دراسات وأبحاث رقم ١٧ مكناس، ٢٠٠٦، ص ٢٦٠.

(١٨) دادي مارية، **"تاريخ مدينة وجدة من التأسيس إلى سنة ١٨٣٠م"**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة، رقم ٩٠ سلسلة بحوث ودراسات ٢٩، الجزء الثاني، ٢٠٠٤، ص.٤٦١، ص٤١٩.

(19) Cour .Auguste, "**La dynastie Marocaine des Beni Wattas (1420-1554)"**, Recueil des notices et mémoires de la société archéologique, volume 9, p. 80.

(٢٠) ملاحظة ميدانية.

(٢١) دادي محمد، عميد القصبة، **رواية شفوية** ١٠٧ سنة.

(٢٢) التومي احميميد، **رواية شفوية سبق ذكرها**.

(23) Naciri .Mamoun," **Etude architecturale et plan de sauvegarde de la kasbah de Debdou**", Op.Cit, P .46.

(٢٤) ملاحظة ميدانية بعد زيارة لعين المكان والاطلاع على وضعية القصبة ومختلف مرافقها.

(٢٥) **لقصر**: عبارة عن تجمع سكني محاط بسور يحمي الساكنة وهو شبيه بالقصبة، وتعتبر فكيك بالجهة الشرقية مدينة القصور

(26) Naciri. Mamoun," **Etude architecturale et plan de sauve garde de la kasbah de Debdou**", Op.Cit, 2005, p .47.

(27) Charton. Edouard, **"Le Tour du monde"** , O.p.Cit, p .15.

(28) De la Martiner et N.Lacroix," **Documents pour servir à l'étude du Nord Ouest Africain"** , T 1, p .121-123.

(29) H . D'arlach,**"Maroc en 1856",** Ed .Hachette, Paris, 1856, p .39.

(30) Canal . J, **"La conquête du Sud – Oranais"**, Journal l'Africain, hebdomadaire illustré, année 14, n°.158, 1933,p . 2.

(٣١) ملاحظة ميدانية مصحوبة بصور فوتوغرافية تؤكد ما تم التعليق عليه.

(٣٢) برنامج MAPINFO7.0 صور مأخوذة من GOOGLE EARTH.

(33) صورة تم أخذها من قبل الباحث من عين المكان.

(٣٤) برنامج MAPINFO7.0 صور مأخوذة من GOOGLE EARTH.

(٣٥) صورة تم أخذها من طرف الباحث من عين المكان، ونضيف أن أبراج قصبة دبدو المرينية تختلف عن مجموعة من القصبات التاريخية بشرق المغرب، حيث تأخذ أشكالا ذات قاعدة مستطيلة وأكثر متانة عكس القصبات الأخرى مثل العيون والسعيدية التي تأخذ أشكالاً مربعة وأقل سمكًا.

(٣٦) صورة تم أخذها من قبل الباحث من عين المكان.

(٣٧) صورة تم أخذها من قبل الباحث من عين المكان.

(٣٨) صورة تم أخذها من قبل الباحث من عين المكان.

مقالات

جوانب من التراث الأثري بواحات الجنوب الشرقي للمغرب
واحات غريس وفركلة نموذجًا

د. محمد المرتضي
أستاذ باحث في التاريخ الوسيط
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين
جهة فاس – مكناس – المملكة المغربية



مُلَخّص

يهدف المقال إلى الإسهام في دراسة جزء من التراث الواحي "المهمش" ، بحكم بعده عن مدن تاريخية شهدت حضارة عمرانية في فترة زمنية معينة، وذلك قصد صيانته وإنقاذه. والأمر يتعلق هنا بجوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة" التي تقع بالجنوب الشرقي للمغرب، بين درعة وسجلماسة، وتكمن أهمية التراث المذكور فيما يتيح للباحثين من فرص لتعويض النقص الحاصل على مستوى الوثائق المحلية وتجاوز ما يشوب المصادر من هيمنة الطابع الانتقائي عليها، حيث اهتم أغلبها بمناطق معينة مثل سجلماسة، بينما أغفلت حوض غريس، واكتفت بالإشارة إلى أسماء بعض الأماكن من قبيل "تاذنقوست" و"امرغاد" دون تقديم معلومات دقيقة عنها. وفي هذه الورقة البحثية سنركز على أربعة معالم تراثية أثري؛ أولها: النقوش الصخرية التي خلفتها الشعوب القديمة لتنقل جانبا من نمط حياتها وعاداتها ومعتقداتها وعالم الحيوان الذي كان يحيط بها، وثانيها: مغارة "تدارت ن رومي" الواقعة في الحافة الجنوبية لجبل غريس، ومن المحتمل أنها تؤرخ لمرحلة من مراحل الاستيطان البشري بالمنطقة، وثالثها: المدافن الجنائزية المعروفة بالكراكير، وهي تؤكد استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي، منذ الفترة الممهدة للتاريخ، وآخرها: بقايا "قلعة برطقيز" الواقعة شمال غرب جبل غريس على الضفة اليسرى للوادي، والراجح أنها سميت كذلك لأنها بناية قديمة وغير مؤرخة بدقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ فبراير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التراث الأثري؛ واحات غريس وفركلة؛ سجلماسة؛ المغرب؛ النقوش الصخرية؛ قلعة برطقيز

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057056

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد المرتضي. **"جوانب من التراث الأثري بواحات الجنوب الشرقي للمغرب: واحات غريس وفركلة نموذجا".**- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص١٩٧ – ٢٠٤.

مُقدِّمَة

يرى ابن خلدون في موضوع التاريخ وحقيقته أنه «خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال»[١]، والعمران في نظره هو التساكن والتعاون على المعاش، ومنه «ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحِلل المُنتجعة في القفار وأطراف الرمال، ومنه ما يكون حضريا وهو الذي بالأمصار والقرى والمدن»[٢]. وتُعتبر سجلماسة من المدن المندرسة التي ورد ذكرها في المصادر الإخبارية والجغرافية، ولأهميتها التاريخية والحضارية، حظيت باهتمام عدد من الباحثين أمثال حسن حافظي علوي، صاحب "سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي"، ولحسن تاوشيخت

في أطروحته حول "عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية"، وفي المقابل لم تلق مناطق "العمران البدوي" الاهتمام نفسه من لدن الباحثين، ويرجع ذلك، فيما نرى، إلى قلة الإشارات المصدرية المتعلقة بها.

والحقيقة أن واحات "غريس وفركلة" يصعب فصل تاريخها عن سجلماسة وإقليمها. ويبدو أنها كانت مأهولة بالسكان منذ الفترة الممهدة للتاريخ على الأقل، حيث يوجد عدد من المواقع الأثرية، تتخذ شكل تحصينات، ونقوش صخرية، ومقابر جنائزية.

وإذا كانت بعض الأبحاث قد حاولت دراسة مجتمعها القبلي بعد اندراس سجلماسة أوخر القرن (٨هـ/ ١٤م)، مثل؛ أطروحة اخروش مولاي الحسن التي غطت من القرن (٨هـ/ ١٤م) إلى القرن (١٣هـ/ ١٩م)، و دراسة قسطاني بن محمد الموسومة بـ "الواحات المغربية قبل الاستعمار: غريس نموذجا"، فإننا لم نعثر – فيما اطلعنا عليه - على دراسة مستقلة عن تاريخها وتراثها. وذلك، بالرغم من أنها تعتبر صلة وصل بين الشمال الإفريقي وإفريقيا جنوب الصحراء، وشكلت ممرا للقوافل التجارية نحو سجلماسة.

وتأتي أهمية هذه الدراسة من خلال الإشكالية التي تنطلق منها؛ ذلك بأن واحات "غريس وفركلة" تقع بين منطقتين تاريخيتين - درعة وتافيلالت - وموقعها الجغرافي يقتضي الاهتمام بتراثها دراسة وصيانة وإنقاذا، إلا أن الواقع غير ذلك. فهل واحات غريس وفركلة تفتقر إلى "التراث" الذي يستحق الدراسة، بحكم بعدها عن سجلماسة ومهد الدولة السعدية؟ أم إن المنطقة تزخر بمعالم تراثية عمرانية وأثرية تنتظر نفض الغبار عنها، والتعريف بها؟

وبناءً على ما سبق، فهذا المقال يهدف إلى الإسهام في التعريف بجوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة" الذي لم يلق حظه من اهتمام الباحثين والمهتمين دراسة وصيانة وإنقاذا؛ ذلك بأن المجال موضوعه لم يشمله المسح الأثري الذي قام به الباحثان "كاموس" (CAMUS) و"ماركات" (MARGAT) سنة ١٩٥٧م في موقع البوية[٣] بين أرفود والجرف، ولم تشمله أيضًا التحريات الأثرية التي أنجزها الباحث يوسف بوكبوط خلال ثمانينيات القرن العشرين في منطقة تافيلالت[٤].

وسعيًا وراء محاولة الإسهام في دراسة التراث الأثري المعرض للنهب والسرقة بهذا المجال الواحي، قصد صيانته وإنقاذه، حرصنا على تحديد موقعه، وبعض دلالات تسمية المنطقة التي ينتمي إليها، ثم انتقلنا إلى الحديث عن جوانب من التراث الأثري بواحات "غريس وفركلة"، والمتمثلة في النقوش الصخرية بتوغاش (جنوب شرق فركلة)، وكراكير غريس وفركلة، ومغارة جبل غريس (تدارت ن رومي)، وبقايا قلعة غريس (قلعة برطقيز) اعتمادا على الإشارات الواردة في المصادر المتاحة، والزيارات الميدانية التي قمنا بها.

أولاً: واحات غريس وفركلة: الموقع ودلالات التسمية

١/١- الموقع الجغرافي:

تقع واحات غريس وفركلة في الجنوب الشرقي للمغرب، ضمن مجال حوض غريس الأوسط الذي تحدُّه جبال الأطلس الكبير شمالا، وجبال "صاغرو" و"أوكنات" جنوبًا. ومن الناحية الشرقية حوض زيز الأوسط، وينتهي عند واحة تودغى غربا. ومن حيث الإحداثيات الجغرافية، تقع واحات غريس وفركلة بين خطي عرض ٣١ درجة و٣٢ درجة شمالا، وبين خطي طول ٤ درجات و٣٠دقيقة و٥ درجات و٣٠ دقيقة غربًا[٥]. وانطلاقاً من هذا التحديد؛ يمكن القول إن المنطقة تشكل الحلقة الوسطى في سلسلة الواحات الصحراوية التي تمتد في الجنوب الشرقي المغربي على شكل شريط كبير من واحات فكيك شرقًا إلى واحات درعة غربًا. وبذلك فهي تضم اليوم، إضافة إلى كلميمة وتنجداد، التجمعات السكانية تلوين، وتيزكاغين، وتوروگ وأم ڤلعب...

٢/١- دلالات التسمية:

ذكر صاحب "لسان العرب" أنه «يُقال للنخلة أول ما تنبُت: غريسة.. والجمع غرائس وغراس، والأخيرة نادرة. والغراسة فسيل النخل»[٦]، وورد هذا المعنى أيضًا في "القاموس المحيط"، لكنه أضاف ما نصه: «والغريس: النَّعجَة، وتُدعى للحلب غريس غريس...»[٧]، ولم يخرج معجم "الرائد" عن المعاني السابقة[٨].

وبالرجوع إلى المصادر الوسيطية، وخاصة الموحدية منها، نجد أن البيذق - أبو بكر بن علي الصنهاجي، وهو من أهل القرن (٦هـ/ ١٢م) - أورد اسم "غريس" في سياق حديثه عن خروج المهدي بن تومرت من تنمل نحو سجلماسة[٩]، وذكر محقق الكتاب – عبد الوهاب بن منصور- أن «غريس اسم أرض وجبل ونهر شهير بإقليم قصر السوق، قاعدته كلميمة

الواقعة على الطريق الذي يربط مدينة قصر السوق بمدينة ورزازات، ويسكن هذه الأرض عدد من القبائل، أكبرها مرغاد، وغريس، والعرب»[١٠]. ومن ثم، فلفظ "غريس" الذي يُطلق على الوادي، والحوض المائي (في مقابل حوض زيز)، والجبل الذي يُطلُّ على أهم واحة بالمنطقة من جهة الشرق، يحمل معاني ودلالات تنسجم مع خصوصيات المجال.

واستناداً إلى ما ورد في "معلمة المغرب"، ففركلة من الأودية الصحراوية بالجنوب الشرقي للمغرب، وهو أحد روافد نهر غريس، ينبع من الكتلة الجبلية الواقعة بين تاديغوست شرقا وأغبالو ن كردوس[١١] غربا، ويلتقي مع وادي تودغى عند الأطراف الغربية لواحة أسرير التي تُشكل بداية الواحات المنسوبة للوادي الذي يسقيها. «ولعل ما اشتهر من فركلة بالذات هي واحاته التي لعبت أدوارا مهمة في تاريخ الجنوب الشرقي المغربي، باعتبار موقعها الاستراتيجي على محور تافيلالت مراكش ودرعة»[١٢].

وعليه، فالمعاني السابقة تُحيل على المجال الصحراوي والشبه صحراوي والجبلي في آن واحد، حيث ممارسة الزراعة وغراسة النخيل ورعي الأغنام إلى جانب التجارة الصحراوية التي ساعدت على استقرار السكان بالمنطقة منذ فترات ازدهار سجلماسة. ولعل ما يؤكد هذا هو بقايا التراث الأثري التي توجد بهذه الواحات.

ثانيًا: جوانب من التراث الأثري بواحات غريس وفركلة

١/٢- النقوش الصخرية بتوغاش جنوب شرق فركلة:

تعتبر النقوش الصخرية وسيلة للتعبير، تعتمد على مساحة صخرية لتسجيل رسالة أو صورة أو رمز[١٣]، وهي وثائق تاريخية ذات قيمة لا تقدر بثمن، خلفتها الشعوب القديمة لتنقل جانبا من نمط حياتها وعاداتها ومعتقداتها وعالم الحيوان الذي كان يحيط بها. ومن أجل انجاز أعمالهم المنقوشة، فضل الفنانون القدامى صخورا سهلة الاستعمال مثل الحجر الرملي الذي يعود للزمن الجيولوجي الأول، وفي حالات نادرة استعملوا بعض الصخور الجيرية، «وحسب الضربات التي قد تكون أكثر أو أقل تنسيقًا، أو الحفر الذي قد يكون أكثر أو أقل عمقا، فإن النقش قد يظهر أكثر دقة وجودة»[١٤].

وإذا كانت النقوش الصخرية الموجودة بمنطقة الطاوز بإقليم الرشيدية تعود إلى ما بين ٢٠٠٠ و ١٢٠٠ قبل الميلاد أي ٤٠٠٠ سنة من الآن[١٥]، فمنطقة توغاش جنوب شرق تنجداد (فركلة العُليا) تزخر هي الأخرى بمجموعة من النقوش الصخرية التي تعود للعهود ما قبل التاريخية.



نماذج لنقوش صخرية بتوغاش
جنوب شرق تنجداد (فركلة)

يتضح من خلال هذه الصور أن مسار النقش نقره واسع وغير عميق، ورأس الحيوان الممثل على اليمين ممتد نحو الأمام، والقرون الكبيرة ملتوية، والجسم مندفع إلى الأمام قليلا، وهي تفاصيل توحي بصورة ظبي. أما الصورة التي توجد في الوسط، فهي تشبه حيوان من فصيلة البقريات ذات القرون المتجهة إلى الأمام وكذلك الصورة الموجودة يسارًا.

والجدير بالذكر أن العديد من النقوش الصخرية بتوغاش - تنجداد لم تحظ بنصيبها من الاهتمام والبحث المعمق، وهي تتعرض لعوامل التلف المختلفة؛ سواء بفعل العوامل المناخية كالرياح المحملة بالرمال والفروق الحرارية الكبيرة، أو بسبب عوامل بشرية تتمثل إما في الجهل بالرسالة التي تحملها تلك النقوش الصخرية أو جشع التجار وجامعي التحف. لذلك وجب توفير شروط الحماية لها قبل فوات الأوان.

٢/٢- مغارة جبل غريس (تدارت ن رومي):

تقع هذه المغارة في الحافة الجنوبية لجبل غريس، ويمكن الوصول إليها عبر جرف ضيق لمسافة سبعة أمتار صعودا، يبلغ طولها ١٦,٦ مترًا وعرضها ٤,٢٠ مترًا وعلوها ما بين مترين ومترين ونصف، ويبدو أن محتوياتها تعرضت للنهب.




مغارة "تدارت ن رومي" بجبل غريس
شمال شرق مدينة كلميمة

يرى بعض الباحثين أن الرومان تمكنوا من الوصول إلى ما وراء جبال الأطلس بقيادة الجنرال "باولونيوس سويتونيوس" (Paulinus Suetonius) سنة ٤٢ ميلادية، لإيقاف ثورات السكان الرحل بالجنوب الشرقي المغربي[١٦]، ويرى آخرون أن الإشارات الجغرافية المرتبطة بالعمليات الرومانية، والخاصة بالجنوب الشرقي المغربي ظلت غامضة «ومن الراجح أن هذه المنطقة لم تخضع للسلطة الرومانية المباشرة وظلت بعيدة إلى حد ما عن أي تأثير حضاري. كما أن المصادر المكتوبة والأبحاث الأثرية لم تقدم لحد الآن أية دلائل واضحة يمكن الاعتماد عليها للبرهنة على وجود أي نوع من العلاقة بين سجلماسة والحضارة الرومانية»[١٧]، لذلك من الصعوبة تقبّل فكرة وصول الرومان إلى غريس أو فركلة، لمجرد وجود أسماء وإشارات جغرافية، من قبيل "تدرات ن ورومي".

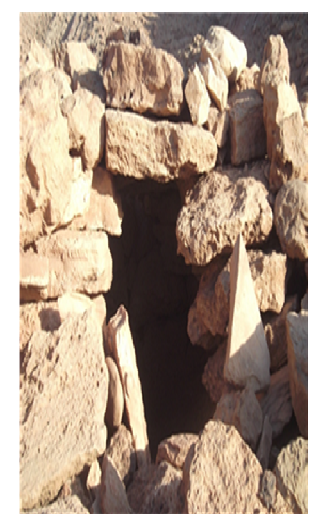
وفي المقابل لا يُستبعد أن يكون الاحتلال الروماني لموريتانيا الطنجية قد أدى إلى هجرة القبائل الأمازيغية للاستقرار بمناطق جبال الأطلس، والواحات الشبه صحراوية، ومنها طبعا واحات غريس وفركلة، خصوصا وأن الحملة العسكرية التي قادها "باولونيوس سويتونيوس" «لم تشمل الجهات الممتدة في أقصى جنوب وادي كير، بل اقتصرت على الأطلس الكبير الشرقي والنواحي المجاورة له»[١٨].

ومهما يكن الأمر؛ فربّما كانت المنطقة قبل تأسيس سجلماسة «قد مضت عليها قرون وهي تتجر مع القرطاجيين، ثم مع تجار إفريقيا الشمالية الرومانية»[١٩] على حدّ تعبير دانييل ماك كوك، وربمّا عرفت واحات غريس وفركلة خلال فترات ما قبل الفتح الإسلامي تطورات حضارية معينة مثل باقي واحات الجنوب الشرقي المغربي، إلا أن هذه التطورات لا تُعرف بدقة. لأن المصادر القديمة، وخاصة الإغريقية-الرومانية تُعتبر مصادر أجنبية ومعظم مؤلفيها لم تكن لهم معرفة مباشرة بها، «ولا نتوفر على مصادر محلية تُثبت من خلالها أو ندحض المظاهر والظواهر الموصوفة [وهي أيضًا] تنقل إلينا شذرات أو فقرات من مؤلفات أو تقارير رحلات ضاعت والتقارير ليست بالضرورة إغريقية أو رومانية»[٢٠].

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما ذكره "شارل أندري جوليان" حول سكنى الكهوف التي لم تضمحل مع اضمحلال عصور ما قبل التاريخ، بل بقيت في بعض المناطق إلى أيامنا هذه، وأن الأفارقة تركوا الكهوف الطبيعية المستعملة في عصور ما قبل التاريخ «وحفروا في الصخور قبورا مربعة مدخلها عمودي شبيهة بالمساكن، وتُسمى الحوانيت، محدودة المساحة عادة، وفيها يضعون موتاهم»[٢١]، فوجود آثار تدل على تدخل الإنسان في مغارة "تدارت ن رومي"، معناه أن الأمر لا يتعلق بمغارة طبيعية، بل بمرحلة من مراحل الاستيطان البشري التي بمنطقة غريس، وبالتالي يمكن أن نتساءل عن طبيعة العلاقة بين المغارة المنحوتة في جرف الجبل، جنوب "قلعة برطقيز" – سنتحدث عنها لاحقا- والقبور القديمة التي تقع شمالها؛ هل هي مرحلة تسبقها، أم لاحقة لها؟

٣/٢- كراكير غريس وفركلة:

من المؤشرات التي تؤكد استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي، منذ الفترة الممهدة للتاريخ، وجود بنايات قديمة ومدافن جنائزية تُسمى "الكراكير" (tumulus)، وهي مفرد "أكركور"، ومعناه ركمة من تراب أو بناء حجري بشكل مخروطي فوق قبر[٢٢]، وبما أنها تشبه الركام من الحجارة فالسكان المحليون يطلقون عليها محليا "إكرار"، جمع "أكرور". ومن خلال الزيارات الميدانية، يتبين أن الكراكير بغريس وفركلة توجد على بُعد عشر كلمترات من مدينة كلميمة شمالاً وشرقاً (تجاه مدينة الرشيدية)، وجنوب شرق مدينة تنجداد، ويتميز بعضها بباب صغير، غالبًا ما يكون موجها نحو الشرق.



أكركور بغريس- قرب كلميمة (اليمين) وأكركور بتوغاش جنوب شرق تنجداد (اليسار)

والجدير بالذكر أن عملية دفن الإنسان خلال عصر ما قبل التاريخ- حسب الباحث مصطفى أعشي- كانت تتم في حفر صغيرة، ولمّا لاحظ الإنسان أن الوحوش كثيرًا ما تنبش تلك الحفر، وتفترس جثة الميت، عمق حفرة الدفن في الأرض، وعمد إلى تغطية أعلى القبر بكتل حجرية كبيرة للحيلولة دون تعرضها للنبش. ومع توالي الزمن وتطور الطقوس الجنائزية، أخذ الإنسان يُقيم المقابر المتنوعة الأشكال والأحجام[٢٣].

ويبدو أنّ القبائل الأمازيغية هجرت الدفن داخل الكهوف، منذ بداية العصر الحجري الحديث، واستقرّت حول العيون والآبار في الواحات وعلى ضفاف الأنهار[٢٤]، ومارست الزراعة[٢٥]، وفضلت إقامة القبور في الهواء الطلق. والحقيقة أننا لا نستطيع مسايرة أحد الباحثين فيما ذهب إليه، حيث يرى أن مغارة غريس التي لها شبيهاتها في أماكن أخرى، مثل مغارة وارزازات الشهيرة، تُشكل مرحلة لاحقة لمرحلة "اكركور" (tumulus)[٢٦]. لأن هذا الرأي يُخالف الكرونولوجيا التاريخية لتطور القبور في المغرب القديم؛ ذلك بأن مرحلة الدفن داخل الكهوف أسبق من القبور التي أقيمت في الهواء الطلق؛ سواء أكانت عبارة عن حفر صغيرة يُسجى فيها الميت على هيئة الجنين في الرحم (القبور الدائرية الشكل) أو من نوع القبور التي يُسجى على طوله أو على جنبه، وتوضع معه أواني من الفخار والحلي أو القبور التلية التي تُسمى بالأمازيغية أكركور[٢٧].

ولا شك أن أهمية هذه الكراكير تكمن في بقائها واستمرارها إلى اليوم، شاهدة على استيطان الإنسان بهذا المجال الواحي منذ الفترة الممهدة للتاريخ، ويمكن للزوار استكشافها، وللباحثين والمهتمين التنقيب فيها، ثم حماية النماذج المتميزة منها قبل أن تتعرض للنهب والسرقة، كما حصل لأهم وأكبر المقابر القديمة بموقع البوية بتافيلالت.

وأمام غياب الأبحاث والتنقيبات الأثرية بالمنطقة، تبقى محاولة التأريخ لكراكير ومدافن غريس دون جدوى، وإن كان شكل معظمها متشابه، بينما تختلف من حيث الحجم. ويظل التساؤل مشروعًا حول طبيعة العلاقة بين مغارة جبل غريس والكراكير، وبقايا قلعة برطقيز.

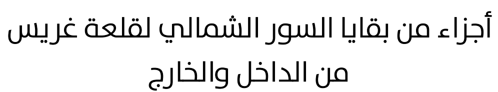
٤/٢- بقايا قلعة غريس (قلعة برطقيز)[٢٨]:

تقع بقايا قلعة غريس شمال غرب جبل غريس على الضفة اليسرى للوادي، وتبدو من حافة "اسدرم" على الطريق الوطني رقم ١٠ كحصن طبيعي، تحميه حواف من الجنوب والغرب، بينما حُصنت الجهة الشمالية والشرقية بسور، أغلب آثاره المتبقية تظهر على شكل جدران نصف مهدمة تتخللها بعض أبراج المراقبة. ويدل وجود آثار لخندق وأسوار في الجهة الشرقية والجنوبية الشرقية على أهمية موقع هذه القلعة الذي يمكن من خلاله التحكم في المجال المحيط بها، بالنظر لموقعها الاستراتيجي فلا يُستبعد أن يتم استغلالها في فترة تاريخية معينة كمركز مراقبة أو محطة للقوافل التجارية.


قلعة غريس من موقع أسدرم تبدو كحصن طبيعي يتخلل سورها برجان للمراقبة

وبناءً على زيارة ميدانية للقلعة، يبدو أن السور الشمالي للقلعة أقيم على أنقاض سور بني بقطع حجرية ذات مقاييس موحدة، أساسه من الحجارة، وبني بالطابية (عرضها: حوالي ٢,٢٠ م، وسمكها حوالي ١,١٠ م، وعلوها حوالي ٠,٨٠ مترًا).





أجزاء من بقايا السور الشمالي لقلعة غريس من الداخل والخارج

وعليه، فمتوسط العلو الحالي لسور القلعة يبلغ حوالي خمسة أمتار، وهو بذلك يشبه بقايا بعض أسوار مدينة سجلماسة المندرسة من حيث القياس، ومواد البناء التي تتكون منها الطابية (تربة صلصالية متماسكة ذات لون أحمر- بني ومختلطة بالحصى والقطع الخزفية وأجزاء خشبية، وبقايا عظام حيوانية..).

ومن هنا يمكن أن نتساءل عن المرحلة التاريخية التي تنتمي إليها قلعة غريس، والوظيفة التي كانت تؤديها في منطقة سكتت عنها المصادر التي تحدثت عن سجلماسة ودرعة، ولم ترد بشأنها سوى إشارات قليلة غير مباشرة، عند تحليلها يمكن الوصول إلى فرضيات أكثر علمية، في أفق القيام بدراسات أعمق تجيب عن التساؤلات المطروحة.

وأول إشارة مصدرية تشير إلى منطقة غريس وردت عند المقدسي (ت. ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) في سياق حديثه عن سجلماسة، وهذا نص كلامه: «وأما سجلماسة فهي اسم القصبة أيضًا ولها من المدن درعة، تادنقوست، إترائيلا، ويلميس، حصن ابن صالح، التّحاسين، حصن السودان، هلال، إِمْصَلى، دار الأمير، حصن برارة، الخيامات، تازروت»[٢٩].

إن موقع أغلب هذه الأماكن «يظل مجهولاً وغامضًا في ضوء معلوماتنا الحالية، ولا نتوفر على ما يُقابل أسماءها بالمناطق المختلفة لإقليم سجلماسة اليوم. وهذا ما يؤكد التغيرات الكبيرة التي لحقت أسماء الأماكن نتيجة التحولات الاجتماعية المهمة التي عرفتها هذه المناطق من القرن العاشر الميلادي إلى الفترة المعاصرة»[٣٠]. والغالب على الظن أنها كانت تابعة لأمراء الخوارج الصفرية، وكلمة "تادنقوست" لا يوجد ما يُشبهها لفظا بإقليم سجلماسة، وبمنطقة غريس على وجه التحديد، سوى كلمة "تاديغوست" التي تقع في القسم الأعلى من حوض غريس، ولا نستطيع مسايرة أحد الباحثين[٣١] الذي ذهب إلى أن المقصود بـــها هي تازة لأنه لم يدعم رأيه بأي دليل.

أما الإشارة المصدرية الثانية التي تذكرنا بمنطقة غريس، فقد أوردها أبو عبيد الله البكري (ت. ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)، في كتابه "المسالك والممالك"، حيث يقول في آخر كلامه عن الطريق من مدينة درعة إلى سجلماسة: «وأمرغاد آخر بساتين سجلماسة»[٣٢]. والحقيقة أننا لا نعرف بالتحديد المقصود بكلمة "امرغاد" في نص البكري الذي لم يزر المنطقة وإنما جمع أخباره عنها عن طريق الرواية الشفوية[٣٣]. ومن المحتمل أنها سبقت لفظ "غريس"[٣٤] وكذلك اسم القبيلة "ايت مرغاد" التي لم تتحدث عنها الوثائق المحلية إلا في القرن السابع عشر الميلادي[٣٥]، وعلى حدّ تعبير أحد الباحثين فـ «أمرغاد أو ايت مرغاد قبيلة صغيرة رحل رعاة يعتبرون ضمن تجمع ملوانة... ووطنهم على نهر غريس»[٣٦].

وإذا افترضنا وجود صلة ما بين "امرغاد" و"ايت مرغاد" التي استوطنت أعالي حوض غريس منذ القرن (١١هـ/ ١٧م) على الأقل[٣٧]، نكون أمام دليل آخر يؤكد أن غريس كانت خاضعة للنفوذ السياسي والديني والاقتصادي للحكم المدراري، وبالتالي يُحتمل أن يكون الهدف من بناء قلعة غريس هو مراقبة الطرق التجارية التي تربط سجلماسة بالأطلس، وتمرُّ عبر وادي غريس ومضايق تاحمدونت.

ولعل ما يؤكد ذلك، أن سجلماسة «كانت المكان الذي تتجمع فيه البضائع من كل قطر، والمكان الذي تتم فيه عمليات البيع والشراء على أوسع نطاق»[٣٨] والمجال الذي كان على سجلماسة أن تراقبه باستمرار «كان يتشكل من مرتفعات الأطلس الكبير الشرقي في الشمال حيث تتوفر المنتوجات الحيوانية من لحوم

وجلود وأصواف فضلاً عن المعادن.. وعلى الرغم من أن الحمادات تتسم بانبساط تضاريسها، فإن القوافل التجارية لم تسلكها إلا نادرًا.. [وكانت] تتبع مجاري الأنهار، نتيجة سهولة الرحلة عبرها، لأنها عبارة عن أشرطة متسلسلة من الواحات التي توفر ما تحتاج إليه القوافل من لوازم السفر خاصةً الماء»[٣٩].

كما أن الرواية الشفوية تتحدث - وبسيولة- «عن طريق القوافل الذي يمرُّ تمامًا أسفل القلعة، حيث منها يمُكن أن نلاحظ جميع الجهات، خصوصًا الشمال نحو الجبل والجنوب نحو سجلماسة، وقد استمر هذا الطريق مطروقًا حتى فترة الاستعمار»[٤٠]. ولعل ما يؤكد العمق التاريخي لهذه القلعة وأهمية موقعها وجود مغارة منحوتة بسفح الجبل الذي تقع فيه، تُعرف عند الساكنة المحلية بـ"تادّارت ن ورومي". وكما هو الشأن بالنسبة لقلعة "برطقيز"، فسكان المنطقة غالبًا ما يرجعون أصول المعالم القديمة، وغير المؤرخة بدقة، إلى الرومان أو "برتقيز أي البرتغال".

خَاتِمَةٌ

وخلاصة القول؛ إن التراث الأثري يحيل بمكوناته على العهود ما قبل التاريخية والتاريخية لواحات غريس وفركلة، حيث النقوش الصخرية والقبور القديمة التي ترجع لفترة ما قُبيل التاريخ ومغارة "تادارت ن ورومي" جنوب قلعة غريس – أو قلعة برطقيز- التي تؤكد الارتباط السياسي والاقتصادي، بين واحات غريس وباقي واحات تافيلالت، وكذا بعض الآثار المعمارية التي تذكر بالفترة الذهبية لسجلماسة، هذه العاصمة التي يمكن للزائر أن يعثر على أثر لها عبر مجال إقليمها، فوق الجبال والمرتفعات، وعلى ضفاف الأودية وفي المنخفضات سواء في واحات تافيلالت (تافيلالت الصغرى) أو بواحات غريس وفركلة التي تشكل امتداد لها، ويصعب فهم الكثير من القضايا التاريخية المتعلقة بالمنطقة دون محاولة الجمع بين الإشارات التاريخية الواردة في المصادر الإخبارية وما تُسفر عنه نتائج البحث الأثري الذي نرجو أن تكون هذه الإشارات معينة على انطلاقه في هذه الواحات التي لم تنل نصيبها من الاهتمام لدى الباحثين والمهتمين.

الهَوامِشُ:

(١) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون وهي الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١م، ص ٤٦.

(٢) ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة، م س، ص ٥٣.

(3) MARGAT (Jean) et CAMUS (Albert), «La nécropole de Bouïa au Tafilalt», **Bulletin d'Archéologie Marocaine**, Tome. 3, 1958-1959, p: 63-74.

(٤) يوسف بوكبوط، «تحريات أثرية في منطقة تافيلالت»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، ص ٣٩٣ – ٤٠١.

(٥) **الخريطة الطبوغرافية لكلميمة**، مقياس: 1/250.000.

(٦) ابن منظور، **لسان العرب**، طبعة جديدة محققة ومشكولة، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج ٥، ص ٣٢٤٠.

(٧) الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، ط ٨، ٢٠٠٥م، ص ٥٦١.

(٨) مسعود جبران، **الرائد معجم لغوي عصري**، مادة "الغريس"، دار العلم للملايين، ط ٧، ١٩٩٢م، ص ٥٧٨.

(٩) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور، الرباط، ١٩٧١م، ص ٥١.

(١٠) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م س، ص ٥١ (الهامش رقم: ٩٦).

(١١) يرى أحد الباحث أن «النون المستقلة تعني النسبة إلى الاسم الذي يليها في الأمازيغية، وبالتالي يُستحسن عدم دمجها ليسهل تمييز الاسم كما في مثال: تيزي ن تافيلالت». محمد بوكبوط، **ايت عطا الصحراء وتهدئة آفْلاً – نْ – دْرَا**، **تأليف القبطان جورج سبيلمان**، (ترجمة وتعليق)، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الترجمة رقم: ١٠، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٧، الهامش ٣، ص ١٤.

(١٢) محمد بوكبوط، فركلة، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ج ١٩، ص ٦٤٥٣ - ٦٤٥٤.

(١٣) مصطفى أعشي، وعفراء الخطيب، وألان رودريك، **نقوش صخرية من إقليم السمارة**، منشورات مركز الدراسات الإفريقية، الرباط، ٢٠٠٨، ص ١٦.

(١٤) أعشي وآخرون، **نقوش صخرية**، م س، ص ١٦.

(١٥) عبد الحميد العوني، **تافيلالت – سجلماسة قبل ٤٠٠٠ سنة: أقدم مملكة في شمال غرب إفريقيا (١٣٧٨ق.م)**، منشورات عربية رقم ٢٩، فاس، ٢٠٠٩، ص ٢.

(١٦) انظر على سبيل المثال لا الحصر:

- De la Chapelle (François), "L'expédition de Suetonius Paulinus dans le Sud-Est du Maroc", **Hespéris**, Tome: XIX, Fascicules I-II, 1934, pp: 107-124, p: 108.

(١٧) لحسن تاوشيخت، **عمران سجلماسة: دراسة تاريخية وأثرية**، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠٨، ج ١، ص. ٧٨.

(١٨) محمد مقدون وعلي واحدي، «سويتونيوس باولينوس والحرب الموريطانية الثانية بمنطقة تافيلالت»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، ص. ٣٦٩ – ٣٧٨، ص. ٣٧٨.

(١٩) ماك كوك، **الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة**، تعريب وتعليق محمد الحمداوي، دار الثقافة، مطبعة النجاح الجديدة، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ص. ٦٢- ٦٣.

(٢٠) عبد العزيز بلفايدة والبيضاوية بلكامل، «الجنوب المغربي في عصوره القديمة من خلال المصادر الاغريقية الرومانية»، ضمن أعمال **جامعة مولاي علي الشريف الخريفية**، الدورة الأولى ١٩٨٩، مطابع ميثاق المغرب، الرباط، ١٩٩٠، صص. ٣٤٣ – ٣٦٨، ص. ٣٤٤.

(٢١) جوليان شارل أندري، **تاريخ إفريقيا الشمالية: تونس، الجزائر، المغرب الأقصى. من البدء إلى الفتح الإسلامي ٦٤٧م**، تعريب محمد مزالي والبشير سلامة، مؤسسة تاوالت الثقافية، ٢٠١١، ص. ٥١ - ٥٧.

(٢٢) تاوشيخت، **عمران سجلماسة**، م س، ج ١، ص. ١٨٢ (الهامش رقم: ٧).

(٢٣) مصطفى أعشي، القبور في المغرب القديم، **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ٢٠٠٤، ج ١٩، ص. ٦٦٠٢.

(٢٤) محمد بيومي مهران، **المغرب القديم**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص. ٣٦.

(٢٥) يرى الباحث يوسف بوكبوط أن وجود الكراكير قرب الوادي والمناطق المسقية دليل على ممارسة الزراعة منذ ما قبل التاريخ. انظر:

- BOKBOT (Youssef), "Nouvelles recherches en archéologie protohistorique du Maroc", document de synthèse de l'activité scientifique pour la thèse d'habilitation à diriger des recherches, Université PAUL VALÉRY, Avril 2012 , p: 209.

(٢٦) بن محمد قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار: غريس نموذجًا**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة الدراسات والأطروحات رقم ٣، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٥م، ص. ٥١.

(٢٧) أعشي، **القبور في المغرب القديم**، م س، ج ١٩، ص. ٦٦٠٢.

(٢٨) تُعرف بهذا الاسم لأن البناية قديمة وغير مؤرخة بدقة. وكما هو الشأن في بعض حواضر المغرب القديمة، فسكان المنطقة غالبًا ما يرجعون أصول المعالم القديمة، وخاصةً غير المؤرخة بدقة، إلى الرومان أو "برتقيز أي البرتغال". راجع: تاوشيخت، **عمران سجلماسة**، م س، ج ١، ص. ٨٠ (الهامش رقم: ١٢٥).

(٢٩) المقدسي، **رحلة المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، حررها وقدم لها شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي- المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣، ص٧٩.

(٣٠) حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي**، مطبعة فضالة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المحمدية، ١٩٩٧، ص٣٣.

(٣١) شاكر لعيبي في "رحلة المقدسي". راجع: **أحسن التقاسيم**، ص. ٢٠٩ (الهامش رقم: ٦٠٢).

(٣٢) البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب وهو جزء من كتاب المسالك والممالك**، طبعة دار الكتاب الإسلامي، الجزائر، ١٨٥٧، ص. ١٥٦.

(٣٣) حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص. ٢٩.

(٣٤) ورد ذكر اسم "غريس" عند البيذق في سياق حديثه عن خروج المهدي بن تومرت من تنمل نحو سجلماسة. راجع: البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت**، م س، ص. ٥١.

(٣٥) الوثيقة التي أشارت إلى قبيلة أيت مرغاد مؤرخة بسنة ١٠٥٥هـ/ ١٦٤٥م، انظر:

-MEZZINE (Larbi), **Le Tafilalt: Contribution à l'histoire du Maroc aux XVIIe et XVIIIe siècles**, Publications de la FLSH (Faculté des lettres et des Sciences Humaines), Rabat, 1987, p: 94.

(٣٦) هاشم العلوي القاسمي، **مجتمع المغرب الأقصى حتى منتصف القرن الرابع الهجري/ منتصف القرن العاشر الميلادي**، ج ٢، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٥، ص. ٢٠٩ (الهامش رقم: ٢١٢م).

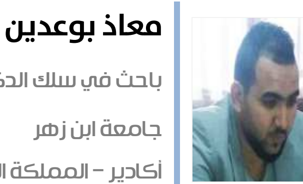
(٣٧) مولاي الحسن اخروش، **المجتمع القبلي ودور الزوايا بالحوض الأعلى والأوسط لوادي غريس: من القرن ٨هـ/١٤م إلى القرن ١٣هـ/١٩م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز- فاس، ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م (مرقونة)، ص. ٤٤.

(٣٨) ماجدة كريمي، **آثار التجارة الصحراوية على المغرب سياسيًا واقتصاديًا واجتماعيًا: من القرن ٥هـ/١١م إلى القرن ١١هـ/١٤م**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، ١٤١٥- ١٤١٦هـ/ ١٩٩٤-١٩٩٥م (مرقونة)، ص. ٧٤.

(٣٩) حافظي، **سجلماسة وإقليمها**، م س، ص. ٣١ - ٣٧.

(٤٠) قسطاني، **الواحات المغربية قبل الاستعمار**، م س، ص. ٥٦.

النظام المائي التقليدي في واحة فزواطة (درعة) التقنيات والتنظيم



معاذ بوعدين

باحث في سلك الدكتوراه

جامعة ابن زهر

أكادير – المملكة المغربية

مُلَخّص

لا يختلف مجال فزواطة من حيث بنيته الطبيعية، وتنوعه البشري عن باقي واحات درعة، وبالتالي فإن الملاحظة الأساسية التي ينبغي التنصيص عليها أن التقنيات المستعملة في السقي والتنظيمات الاجتماعية المتفاعلة في مجال فزواطة، فهي تلخص بشكل عام منطق التدبير التقليدي للموارد المائية الخاص بواحة درعة، مع الإشارة إلى أن الاختلاف في التركيبة الإثنية بين فزواطة وباقي الواحات يضفي بعض الخصوصيات التي سنعرض لها في دينها. وعلى هذا النحو، سنحاول من خلال تحليل آليات اشتغال هذه التقنيات التقليدية، أن نستعرض في البداية معطيات حول التقنيات والأساليب التقليدية المستعملة في إطار تعبئة واستعمال الموارد المائية من جهة، وأسس تدبيرها العرفي من جهة ثانية، مع النبش في المعطيات المشتركة للواحات في درعة بهدف المقارنة واستنباط خصوصيات الواحة موضوع الدراسة. وسنستعين في هذا الإطار بمجموعة من الدراسات والأبحاث ذات الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية والسوسيو - ثقافية بهدف الإحاطة بالموضوع من أبعاده المختلفة، اعتبارًا على أن دراسة التنظيمات الاجتماعية تستدعي مثل هذه التحليلات لاستجلاء أثرها على الاقتصاد وثقافة المجتمع الواحي بصفة عامة. وستشمل بنية الموضوع العناصر التالية: (تحليل المكونات البشرية وعلاقتها بالأرض والماء، تحليل الموارد المائية وكيفية تدبيرها، أشكال التنظيم والقوانين العرفية، تدبير الندرة والنزاعات، العلاقات الاقتصادية، والجانب السوسيوثقافي).

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٤	أكتوبر	٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر:	٢٩	نوفمبر	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المنشآت المائية؛ توزيع الماء؛ قبائل الواحة؛ السواقي؛ الموارد المائية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0057057

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

معاذ بوعدين. "النظام المائي التقليدي في واحة فزواطة (درعة): التقنيات والتنظيم".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد السادس والأربعون؛ ديسمبر ٢٠١٩. ص ٢٠٥ – ٢٢٢.

مُقَدِّمَة

يبدو أن المجتمع الفزواطي أوجد لنفسه تنظيمًا قبليًا ينعكس بصفة ميكانيكية على الوضع القانوني لهذا المجتمع، فمثل هذا التنظيم الاجتماعي يحتاج إلى مجموعة من القواعد القانونية التي تسير العلاقة بين الأفراد والجماعة. هذه القواعد تتجلى في القوانين العرفية المحلية التي أوجدها المجتمع الواحي الفزواطي مثله في ذلك مثل باق المجتمعات الواحية، لتسيير مؤسساته ذات الطبيعة الاجتماعية أو الاقتصادية كنوبات المياه مما ينعكس على التنظيم السياسي لهذا المجتمع حيث يسهر على تنظيم وتطبيق القوانين العرفية رجال يتم تعيينهم لهذا الغرض بإشراك باقي أطراف التنظيم. وتبقى هذه القوانين العرفية عنصرًا أساسيًا لا غنى عنه في المجتمع الواحي المبني على اقتصاد الندرة. وإذا

كانت هذه الأعراف قد تأثرت بالتجاذبات الجدلية بين مجالين متعارضين: مجال نفوذ المخزن ومجال الولاء (البيعة)، وخضعت لعملية التثاقف مع مختلف الثقافات التي عرفها المجال المغربي عبر فتراته التاريخي، فإنها حافظت على أصالتها ومحليتها، بل ساهمت في إغناء الشريعة الإسلامية وفي صياغة التشريع المغربي العصري كمرتكز أساسي.

ويعتبر تدبير الموارد المائية التجلي الأساسي لمظاهر التضامن والتكافل الاجتماعي في مجال يعاني من الهشاشة، وبالتالي نتساءل عن المظاهر الأخرى لهذا التضامن في أبعاده الاقتصادية والاجتماعية. يتضح مما سبق أن مجال واحة فزواطة ينتمي طبيعيًا إلى المجالات القاحلة المرتبطة بالصحراء والذي شهد تطور حضارة واحية مزدهرة، شكلت مكونًا أساسيًا لثقافة وتاريخ المغرب، وتلتقي مع باقي الواحات المغربية عند القاسم المشترك المتمثل في ندرة المياه وتدهور الوسط الطبيعي وهشاشته جراء عدة عوامل. لهذا بات من الإلزامي أن تكون المنطقة محط مشاريع تنموية وإعطائها الأولوية القصوى لإعادة تأهيل الموارد الطبيعية خاصة عندما يتعلق الأمر بالتدبير الموارد المائية. كما يمكننا التأكيد على أن واحة فزواطة إلى جانب الواحات الأخرى من المناطق النادرة في المغرب التي استطاعت تطوير نموذج تقليدي فعال وناجح لاستغلال الموارد الطبيعية المحدودة. هذا النموذج اتضح من خلال البحث في إبداع تقنيات تقليدية لضبط وتوزيع وتنظيم المياه، وإبداع مؤسسات عرفية تسهر على تدبير الشأن العام الواحي والماء أحد أبرز الهواجس اليومية له. هذا النموذج التقليدي لم يكن عفويًا أو اعتباطيًا بل تأسس على أعراف محلية سامية عند قبائل الواحة.

وإذا كان مجال واحة فزواطة يتميز بتفرده وجاذبية مشهده الطبيعي فإننا نثير الانتباه إلى أنه يخفي وراءه هشاشة قصوى، إذ يكفي أدنى خلل على مستوى الموارد المائية سواء السطحية منها أو الباطنية أن يحكم علية بالموت النهائي. وبالرغم من قساوة المناخ كميزة هيكلية للمجال فقد استطاع لعدة قرون مقاومتها باستجابات تنظيمية (محلية/عرفية) ذكية، لكن ناقوس الخطر بدأ يدق نتيجة التحولات المناخية الأخيرة. ومن أهم الخلاصات في اعتقادنا هي تفكك المجتمعات التقليدية، فمن المعروف أن واحة فزواطة ارتبطت بشكل وثيق يصعب فهمه أحيانًا بالبنيات الاجتماعية التي أفرزتها ودبرتها نتيجة تراكم قرون من التجربة، بصرامة واهتمام كبيرين ووعي اجتماعي رفيع بقيمة الماء كأساس استقرارها وديمومتها. لذا فإن من بعض أسباب الأزمة الواحية ترجع إلى تفكك هذه البنيات التقليدية التي كانت فيما سبق تحمل على التعاون والتضامن والعمل التشاركي وهو ما أدى بالضرورة إلى انهيار صيانة الواحة، وما الانتقال من مؤسسة القصر (السكن الجماعي) إلى ظهور السكن الفردي والانتقال إلى الضخ إلا دليل يعبر عن تصدع المجتمع التقليدي الواحي.

من أهم الخلاصات التي وقفنا عنها هي مشكل تقسيم الأراضي وتعقد الوضع العقاري، حيث يتمثل العنصر الأساسي لضعف واحة فزواطة من خلال الضغط على العقار الذي ازداد بارتفاع عدد السكان وهو ما نتج عن تقسيم هام للأراضي، حيث أن مساحة القطعة الأرضية المستغلة داخل الواحة تقل عن ٠،١٥ هكتار، في حين توجد القطع ذات المساحة الكبيرة في منطقة "الفايجة". يمثل التقسيم المتزايد للأراضي عائقًا لاستغلال الفلاحي في واحة فزواطة، حيث أن المساحات المستغلة تعتبر ذات مردودية ضعيفة ولا تسمح بالاستثمار، بالتالي تضل عملية التحديث الهدر وفلاحية التي قامت بها الدولة بعد الاستقلال لا تعطي النتائج المرجوة منها.

أولاً: منشآت وتقنيات النظام المائي التقليدي في واحة فزواطة

يبدو أن المجال الواحي مجال جغرافي يطرح فيه مشكل الماء بحدة كباقي الواحات بدرعة، وشكل فيه الماء قضية يومية، لذلك كان السقي يحتاج إلى تجنيد طاقات بشرية كبيرة من أجل إنجاز أشغال مائية كبرى عن طريق ابتكار تقنيات للتحكم في المياه، إضافة إلى بلورة تنظيم اجتماعي محكم للسهر على تسييرها وتنظيمها والعناية بها حرصا على ديمومتها. وإذا كان واد درعة هو الشريان المائي الذي يبعث الحياة في واحة فزواطة لكونه المورد المائي الرئيس، فإن عمل الإنسان الفزواطي سيركز عمله التقني على التحكم في مياه واد درعة، عن طريق مجموعة من التقنيات والأساليب المائية للاستفادة من مياهه لقيام النشاط الزراعي به.

وللوصول إلى هذا الهدف تطلب استثمار أعمال وجهود ضخمة بشريًا وماديًا وتقنيًا وحتى هندسيًا،

ضف إلى ذلك خبرات تنم عن فهم طبوغرافية المجال وتهم تقنيات حول طبيعة السطح، وتتناسب مع خصوصيات المجال، بما أنه مجال هش من ناحية الموارد الطبيعية خاصة الماء. لذلك سنحاول في هذا المحور الوقوف أولاً عند خصوصية واحة فزواطة من حيت بنيتها العقارية للأرض، لفهم الشروط التي أفرزت التقنيات المائية التقليدية. ثم الوقوف عند أهم هذه التقنيات من خلال تصنيفيها حسب أدوارها. ونشير من البداية أن واحة فزواطة لا تخرج في خصوصياتها من حيث أساليبها المائية عن باقي واحات الجنوب الشرقي بصفة عامة، وواحات درعة بصفة خاصة. لذلك سنجد أن الفلسفة التقنية في قضية الماء تتناسب وخصوصية بنية الأرض الصغيرة، والتي تعتمد فيها تقنيات تقسيم الماء إلى ثلاث مستويات:

تقنية التجميع المائي: التي تهم بالأساس التعامل مع عملية تعبئة الماء مباشرة من المصدر، وهنا نتحدث عن واد درعة باعتباره المزود الرئيس.

تقنية الجلب المائي: وهي تقنية تهم المرحلة الثانية، فبعد تعبئة الماء يتطلب إيصاله إلى القطاع المسقي من بساتين وحقول.

تقنية التوزيع: وهي مرحلة أخيرة في هذا النظام المائي، فبعد إيصال الماء إلى القطاع المسقي، يتعين توزيعه بين المستفيدين وفق ضوابط قانونية عرفية مضبوطة.

١/١-البنية العقارية للأرض بواحة فزواطة

يشكل نمط الإنتاج الزراعي أساس الاقتصاد الواحي وتعتبر الأرض أحد مقوماته الضرورية، التي يتوقف عليها الإنتاج في إطار الاستغلاليات، ونظرا لقدم الاستقرار بهذه المنطقة نجد أن البنية العقارية للأرض تتميز بالتنوع وتعقد ملكيتها، ويسودها طابع التفكك والتجزئة جراء مسلسل التوارث. وفيما يلي جدول يوضح أنواع ملكية الأراضي بواحة فزواطة:

نوع الملكية	النسبة بـ %	طبيعتها
ملك خاص	٨٦ %	مستغلة
ملك جماعي	١٠ %	مخصصة للرعي
الأحباس	٥ %	مستغلة
أملاك مخزنية	٤ %	مستغلة

(مركز الاستثمار الفلاحي زاكورة)

من خلال معطيات الجدول يبدو أن الملكية الخاصة هي السائدة في البنية العقارية من مجموع الأراضي داخل واحة فزواطة والسبب يعود إلى قدم الاستقرار والتطور التي لحق استغلال المجال عبر التاريخ الطويل. وتتميز الملكية الخاصة للأرض بصغر مساحتها نتيجة التقسيم المتكرر للأرض بفعل عامل الإرث، وهو ما يزيد من تعقيد البنية العقارية[١]. تأتي بعدها الملكية الجماعية للأرض التي تكون في حوزة القبيلة، لكن اغلب هذه الأراضي غير صالحة للزراعة ومخصصة للنشاط الرعوي باعتباره النشاط المكمل للنشاط الزراعي داخل الواحة، هذه الأراضي تشهد مجموعة من المشاكل المرتبطة بالنزاعات بين المستفيدين منها[٢]. أما أراضي المخزن فهي تتشكل أساسًا من الأحراش المجاورة للوادي منحت في أوقات معينة متأخرة (نهاية القرن التاسع عشر الميلادي) لممثلي المخزن، في حين أن أراضي الأحباس تبقى عبارة عن وقف للمساجد وبعض الأولياء والصلحاء والزوايا، وهي خاضعة لنظام الكراء بمقابل مادي أو عيني يستخلص لصالح المسجد أو الزاوية... إلخ.

يتضح من خلال هذا البسط السريع أن البنية العقارية للأرض متنوعة ومعقدة، تتسم بصغر حجمها وتفتتها العقاري بفعل عدة عوامل تاريخية، وبفعل عامل تقسيم الإرث. هذه الوضعية ساهمت في سيادة الأراضي المجهرية، لهذا نجد شكل حجم الأراضي يفرض سيادة نمط إنتاج زراعي تقليدي وعتيق[٣]. وأمام ضيق المساحات الزراعية الناتج عن وضعية البنية العقارية، علاوة على انحصارها في شريط ضيق قائم على ضفتي واد درعة نظرًا لطبوغرافية وجيولوجية المنطقة غير مساعدة على امتداد الأراضي الزراعية، ضف إلى ذلك مسألة التقسيم المتوالي للحيازات وتفتتها بفعل الإرث سيكون بالضرورة النشاط الزراعي لا يعدو أن يخرج من طابعه المعاشي. وهذه الحالة ستفرض على الإنسان الفزواطي التعامل مع الأرض بتقنيات وأساليب تقليدية بسيطة تتلاءم والبنية العقارية للأرض. فنمط الإنتاج التقليدي سينعكس جليا في المنشآت المائية التقليدية، وستكون انعكاسا مباشرا له. وهو ما سنتوقف عليه فيما يلي.

٢/١-ملكية الماء والتقنيات التقليدية للتحكم في الماء

يعتبر العامل الطبيعي موجهًا رئيسًا في بتشييد المنشآت المائية، بحيث يعين على الإنسان الواحي التعامل مع المشاكل الطبوغرافية التي يفرضها المجال من عوائق طبيعية خاصة التضاريس من حيث انبساطها أو وعورتها، كما أن المناخ له دور في تحديد

طبيعة التقنيات بما له من تأثير في نظام الجريان المائي. وإذا كان المجال الواحي ذو خصائص طبيعية صعبة شيئًا ما، فإن ذلك سيؤثر على نوعية التقنيات المائية المشيدة به. ورغم أهمية المعطى الطبيعي في تحديد معالم التقنيات المائية، فإننا لا نخفي أهمية العنصر البشري ودوره في التعامل مع المجال من خلال توظيف رصيده من الخبرات المتراكمة على مر العصور لبلورة هندسة مائية تقليدية تستجيب وحاجياته اليومية.

(٢/١) ١-ملكية الأرض:

ينحصر محيط الزراعة "بدرعة" في المجال الرسوبي للوادي، الذي تحده الجبال من جهتي الشرق والغرب وعليه فإن المساحات الزراعية تنحصر داخل هذا المجال الضيق، وهذا ما جعل من الملكية الفلاحية بهذا المجال تعرف نوعًا من الاحتكار وصغر الاستغلاليات الزراعية. وعلى الرغم من أن أغلب الباحثين في تاريخ المنطقة يؤكدون كما هو الحال داخل الواحات على أهمية الماء الموازية في قيمتها لقيمة الأرض، إن لم نقل تتجاوزها في بعض الأحيان، فإن تدخل عنصر الأرض كأحد العوامل المساهمة في صياغة خريطة توزيع الماء تبقى بارزة وذات أهمية، وهنا نجد كمثال على ذلك نوع ملكية الماء المقرون بملكية الأرض[٤]، دون أن ننسى توزيع أعمال الصيانة التي توفرها القبيلة للساقية وأكوك وما يمثله "عامل الأرض" من مقياس لتحديد الحصص.

(٢/١) ٢-ملكية الماء:

بما أن الماء هو أصل الحياة في الواحة، فإن ملكيته تصبح الأقوى داخل هذا المجال، و"بدرا" يمكن التميز بين خمسة أنواع من الملكية (الملكية الفردية، الملكية الجماعية، ماء المخزن، ماء الزوايا، حق المرور)، وتعتبر ملكية الماء في واحات وادي "درا "ملكية لحصص زمنية معلومة قد تطول أو تقصر تبعًا للصبيب والتموضع في السافلة أو العالية[٥]. تعتبر الساقية "بدرا" نموذجًا حيًا "للتكافل الجماعي الذي كان سائدًا بين قبائل القصور بالمنطقة"[٦]. بحيث أن أشغال حفر وصيانة الساقية وأجزائها تتجاوز طاقة القبيلة الواحدة، زد على ذلك طول مسافة خط الساقية الذي يتجاوز في أحيان كثير ٦ كيلومتر، مما يستوجب معه تعاون أكثر من قبيلة واحدة في أعمال الحفر والصيانة، وعليه تكون الاستفادة من الساقية مشتركة بين هذه القبائل. تتنوع تقنيات السقي "بدرا" من منطقة إلى أخرى، وذلك تبعا لمجموعة من العوامل المرتبطة أساسًا بملكية الأرض والماء وشكل المشاركة في الساقية، كأهم منشأة للسقي، فما هي أهم التقنيات المتحكمة في تعبئة وجلب الماء وتوزيعه بواحة فزواطة؟ وما هي أبرز النظم السائدة فيه؟

(٣/١)-تقنية عملية تعبئة المياه التقليدية

إن اهم تقنية سائدة بالمجال الواحي في عملية تعبئة المياه هي السدود التحويلية والتي يطلق عليها محليًا اسم "أكوك"، وتطرح هذه المنشأة رغم بساطتها العديد من التعقيدات التقنية والاجتماعية والتنظيمية نظرًا لكونها الحلقة المفصلية في النظام السقوي التقليدي. وبحكم التجربة الطويلة الأمد والخبرة الأصيلة للإنسان الواحي في مجال السقي، فقد اهتدى إلى تقنية اكوك لاستغلال مياه وادي درعة، وذلك باستعمال سد تقليدي بسيط "اكوك"، وهو تقنية لتحريف المياه وتحويلها نحو السواقي، عبارة عن مرتفع بسيط مبني بمواد هشة تتكون من أغصان الأشجار المتوفرة على ضفتي النهر كالنتل والقصب وجريد النخل... يتم تثبيتها بالأحجار الكبيرة وتضاف إليها الحشائش والحصى. لسد الفجوات، آخذا شكل الزاوية ٤٥ درجة، ويتم وضع هذه العناصر في سرير الوادي لرفع منسوب المياه ومستوى الصبيب من أجل تحويل جزء من جريان الوادي نحو المزارع بانحراف الماء نحو الساقية[٧].



صورة للسد التحويلي التقليدي أكوك بواحة فزواطة: ساقية تامزرويت

ومن الوهلة الأولى يبدو أن التقنية بسيطة لا تتطلب الكثير من الدهاء لتشييدها، لكن واقع الأمر ليس كذلك، فنجاح دور هذه التقنية رهين بمجموعة من الشروط، ويطرح جملة صعوبات نوجزها فيما يلي:

تقنيًا: يتطلب إقامة أكوك البحث عن مكان مناسب في سرير الواد دو خصائص تقنية محددة، أهمها وضعه في مكان يضيق فيه سرير الواد ويكون الانحدار غير شديد لتسهيل تحكم أمثل في صبيب الواد لكي لا يجرف اكوك، خاصة وأنه مبني بمواد هشة قابلة للجرف بسهولة. وتوفر هذه الأمكنة صعب خاصة إذا كنا نعلم أن واد "درا " من الأودية المتسعة عرضيًا. وبعد التوصل لحل صعوبة المكان ننتقل إلى مشكلة أخرى لا تقل تعقيدًا، تتجلى في البحث عن مكان في عالية القطاع المسقي لضمان انسياب منسوب المياه التي تم رفعها "باكوك". ففي حالة كان موضع "أكوك" مناسبًا ولا يضمن مستوى ارتفاعه الطبوغرافي انسياب الماء بالساقية يصبح لا فائدة منه. إذن فالمشكل التقني مرتبط بدقة اختيار سرير مناسب للتشييد ويراعي ضمان انسياب الماء.

اجتماعيًا: تطرح هذه التقنية مشكلة اجتماعية تفرضها الوضعية التقنية، ونقصد أن "أكوك" يتم بنائه في عالية أراضي القبيلة التي تريد استغلاله، ومنه فإن إقامته يكون في أراضي أخرى لقبائل العالية، سواء تلك الموجودة في الضفة اليمنى أو اليسرى. هذه المشكلة الاجتماعية تطرح مصادقة أهل العالية عن الموضع، لذلك كان البعد الاجتماعي يختزل في هذه التقنية، إذ غالبا ما يتم اللجوء إلى طقس "العار"، وهو عادة اجتماعية تقوم من خلاله قبائل السافلة بذبح أضحية في زاوية أو ضريح والي صالح لقبائل العالية للسماح لها بإقامة أكوك في مجالها. فتجد هذه الأخيرة نفسها مرغمة لقبول أمر الواقع.

ومن المشكلات الناشئة عن هذه التقنية خصوصًا عندما تكون مياه النهر قليلة أو عندما يعمق مجراه بطريقة مفرطة، ويزداد المشكل عندما توجد المساحات المسقية لجماعة القصور في نفس الارتفاع على ضفتي الوادي، حيث تحاول كل جماعة بناء سدها في العالية بالنسبة لسد القصر الثاني، بالتالي الفوز بنصيب مائي أكبر من صبيب الأخرين، أو بكل الصبيب إذا كان الوادي في حالة ندرة للمياه. إن هذه الحالة تنتهي عادة بنشوب مشاجرات وصراعات تتجدد كل سنة عندما تحطم الفيضانات تلك السدود، وذلك فإن مواضع السدود لها علاقة بقوة نسبة انحدار الساقية وبأهمية صبيبها، بالتالي بأهمية أراضيها التي يمكن أن يغطيها السقي. لذا غالبًا ما يلجأ السكان إلى وضع سدود متتالية على النهر بنوع من التناوب ويفصل بينهما مسافة تصل إلى بضع عشرات الأمتار. وحسب Paul Pascon فهذه المسافة تزداد اتساعا من العالية نحو السافلة[٨].

٤/١-تقنية جلب المياه التقليدية

ترتبط أنظمة السقي التقليدية "بدرا" الوسطى بشكل كبير بمنشأة الساقية والتي تشكل دعامة النظام المائي. وفي تعريفيها الاصطلاحي فهي جدول الماء وقناته، ثم استعير اللفظ وأطلق على المنشأة المعروفة لأنها تسقي، وبهذا الاسم عرفت في البلاد العربية التي استعملتها، أما في البلدان التي لم تعرف السقي فلا زال لفظ الساقية يقصد به جدول الماء. أما في بلاد النوبة (إثيوبيا حاليًا) فالساقية تدل عندهم على مهمتها وهي دفع الماء من الأسفل إلى الأعلى، واللفظ عندهم لا يوحي بالسقي كما هو الحال في اللفظ العربي، وإنما ينصرف إلى القوة التي تحرك الالة سواء كانت ماء أو هواء، وعلى ذلك يفضل العلماء الغربيون لفظ الساقية العربي على الألفاظ المقابلة لها في باقي اللغات[٩].

وتعتبر الساقية كتقنية من التقنيات المائية التقليدية التي استخدمها الإنسان في محاولة التحكم وتعبئة المياه من أجل استغلالها في السقي من قدم العصور التاريخية، ومن أكثر المنشآت المائية التقليدية البسيطة الشكل والمهمة في الري[١٠]. السواقي عبارة عن قناة يتراوح عمقها بين مترين ونصف وخمسة أمتار وعرضها ما بين متر ومتر ونصف، وهذا دليل على خضوعها لقوانين الطبوغرافية، وقانون الراحة بمعنى أن الماء يتبع الانحدار،[١١] وهي (الساقية) من عناصر النظام المائي المدرجة ضمن الملك العمومي لقبيلة أو مجموعة قبائل، ولهذا تأخذ اسم القبيلة المالكة لها أو اسم المكان الذي تمر به[١٢].



- ساقية ترابية تقليدية بواحة فزواطة



ساقية ترابية تقليدية بواحة فزواطة

وتقنية الساقية مكون رئيس في النظام المائي التقليدي بواحة فزواطة، وتسمى بالامازيغية بـ "تاركا"، ودورها الأساسي جلب المياه المعبأة عن طريق أكوك، وظيفتها كقناة تكمن في حمل المياه من أكوك نحو البساتين الزراعية التي تتواجد في ضفة الواد المرتفعة عن مجراه. وهو ما يفسر أيضًا شقها على مسافات طويلة في عالية القطاع المسقي، على خط شبه موازي لمجرى الوادي، كما تتميز بانحدارها البسيط وذلك لتمكين الماء من المسيل بشكل بطيء دون إحداث خسائر في حافتي السواقي[١٣]. كما تحمل كل ساقية غالبًا اسم القبيلة أو القصر أو القطاع المسقي بها. أما حجم هذه السواقي فهو يختلف بين العالية والسافلة، إذ نجد سواقي السافلة تتميز بحجمها الكبير، ذلك لأن أصحابها يهدفون إلى الحصول على أكبر قدر ممكن من الماء في ظرف وجيز، بهدف سقي المساحات المزروعة الشاسعة، عكس حجم السواقي بالعالية الذي تبدو صغيرا لأنه يكفي للحصول على جريان ضعيف ودائم يمكن من سقي الأراضي الزراعية القليلة.[١٤]

١/٥-تقنيات التوزيع

(١/٥) ١-السواقي الفرعية والمصاريف:

تعتبر السواقي الفرعية والمصارف/ أغلان من الدرجة الثالثة في منشآت السقي التي يتم حفرها جماعيًا، تتفاوت طاقتها الاستيعابية حسب المساحة التي تسقيها والمالكين المستفيدين من مياهها.[١٥] وترتبط بشبكة كبيرة من المصارف الثانوية. وتخضع هذه الشبكة المخصصة لجلب وتوزيع الماء، لوحدات قياسية يتحكم فيهما عاملين يفرضهما الجانب القانوني (الحصص المائية) والتقني (أهمية الصبيب والطبوغرافية) ونظرًا لتفاوت الحصص المائية لأسباب مختلفة، تم تحديدها بوحدات حجمية[١٦] كالنوبة[١٧]، وزمنية ك"تانست/تاطست"،[١٨] هذه الوسائل القياسية للحصص المائية تختلف من واحة لأخرى وكذا في فتراتها الزمنية وأشكالها. ونتيجة للظروف المناخية للمنطقة فإن السواقي "بدرا"، تعرف حالة جريان غير منتظم، تؤثر بدورها في نظام توزيع الماء، وهنا نميز بين مياه "الفيض والغدير "كأهم مظاهر المياه العامة غير الخاضعة للتقسيم العادي المتوارث.

(١/٥) ٢-تقنية أغرور:

تنتشر تقنية "أغرور" التي في العديد من المناطق الواحية، كتودغى وتافيلالت ناهيك عن واحات مزاب[١٩]. حول هذا النظام يقول ابن خلدون: "وفي هذه البلاد (البلاد الصحراوية) طريقة غريبة لاستنباط المياه، لا توجد في تلول المغرب ذلك أن البئر تحفر عميقة، تطوى جوانبها يستمر في الحفر حتى الوصول إلى صلدة، تضرب بالفؤوس والمعاول حتى يرق جرمها، ثم يرمي عليها الفعلة زبرة من حديد تكسر فينسكب الماء على سطح الأرض"[٢٠].

يتكون هذا النظام من عناصر عدة، في مقدمتها البئر الذي لا يتعدى عمقه العشرة أمتار[٢١]، ثم الحفرة مستطيلة الشكل، يتجاوز طولها عمق البئر بقليل وعرضها يبلغ حوالي المترين لها انحدار بسيط ومتدرج في اتجاه نهايته، تخصص هذه الحفرة لحركة الدابة عند قيامها بجر الدلو صعودًا وهبوطًا. الدلو (أكا) Agga، غالبا ما يصنع من جلد الإبل أو الماعز، وأحيانًا من جلد البقر، يتوفر هذا العنصر على مخرجين أو فوهتين مختلفتين من حيث الحجم، الأمر الذي يساعد على امتلائه بسهولة[٢٢]، ويتكون الدلو من "تاكرا" وهي الجزء العلوي الذي يملأ بالماء، ومن الجزء السفلي "البوط"[٢٣] دوره أساسي في جلب الماء من جوف البئر، وإفراغه في صهريج يكون ملاصقا له، وتتم هذه العملية بفعل حركة الجر التي تقوم بها الدابة بمساعدة حبلين (إكوتا) Iggota[٢٤]، أو أسغون Asghoune وهو الشريط المصنوع من الدوم، والمسمى أمازيغيا إزيكر Iziker [٢٥].

الجرارة: توضع الجرارة في أعلى البئر حيث تتوسط عمودين من الخشب (تيفكاكين Tifkakaine)[٢٦]، يتكئ كل منهما على قطعة خشبية أخرى توضع بشكل عمودي على ساريتين من الطين أو الحجر، تنتصبان على جانبي البئر، وفي أعلى العمودين الأولين يوضع عمود خشبي آخر يسمى الساري Assary الذي يضمن تباتهما [٢٧]

صحيح أن السمة الغالبة لهذه التقنية هي البساطة، لكن هذا لا ينفي مساهمتها في سقي مجموعة من الحدائق الصغيرة المحيطة بقصور ومساكن فزواطة، الأمر الذي زاد من الإنتاجية سواء تعلق الأمر بالتمور أو الخضر وحتى الحبوب، لا يجب أن نغفل أيضا دورها التكميلي لنظام السقي بمياه الخطارات، حقيقة أكدها سكان بعض القرى بسافلة تودغى كقرية بوتغاط مثلاً، حيث لجؤوا إلى استعمال هذا النظام لما جفت خطاراتهم وذلك بغية السقي وأيضًا الشرب.

(٥/١) ٣-الآبار:

يختلف عمقها حسب بعد أو قرب الفرشة المائية الباطنية، لها شكل أسطواني. لرفع الماء من باطن الأرض لا بد من توفر قائمين مبنيين بالطين أو الإسمنت، وعمود من الخشب طوله مترين أو ثلاثة أمتار، زيادة على حبل يتم ربط طرفيه أحيانًا بدلوين متوسطي الحجم[٢٨]، استعملت هذه الآبار بين الاستعمالات المنزلية، السقي الشرب أو توريد الماشية رغم ما توفره من موارد مائية تسد جزءًا كبيرًا من العجز المائي في هذه المناطق إلا أن هذا لا ينفي اشتمالاها على مساوئ وسلبيات في مقدمتها ضرورة توفر مجهود عضلي كبير مقابل حمولة مائية ضعيفة، لهذه الأسباب سيفكر العديد من سكان هذه المناطق في تحديث نظام استغلال آبارهم عن طريق المضخات والمحركات العصرية التي عرفت انتشارًا كبيرًا، ومن جملة الأسباب التي ساعدت على توسيع هذا النظام نجد ارتفاع المردودية والإنتاجية زيادة على المساعدات المقدمة للفلاحين بهدف تشجيعهم على تبني هذه التقنية.

١/٦-صيانة المنشآت المائية التقليدية من خلال ساقية تامزراويت

من القضايا الأساسية التي تثيرها التقنيات المائية هي عملية الصيانة، لما لها من أهمية بالغة في استمرار وديمومة عمل هذه الشبكة بما هي أساس استمرار الإنتاج الزراعي، فإذا كانت هذه التقنيات وسيلة الإنتاج الأولى عند الإنسان الفزواطي فإن الهاجس الأكبر الذي يشغل مخيلته هو الحفاظ عليها واستصلاحها كلما دعت الضرورة. ومن المعلوم كما سبقت الإشارة أن طبيعة البناء في جل هذه التقنيات تقليدية بسيطة تعتمد مواد أولية هشة محلية يوفرها المجال، لذلك فهي معرضة مع كل فترة فيضان إلى الإتلاف مما يجعل هذه المهمة أساس استمرار وظيفتها. لهذه الغاية سنحاول الوقوف على ملامح هذه العملية من خلال نموذج ساقية "تامزراويت" لنتعرف بدقة على مجرياتها. ونشير في البداية أننا اعتمدنا على البحث الميداني والرواية الشفهية للكشف عن مجريات هذه العملية باعتباره الوسيلة الوحيدة الذي يمكن من خلالها التعرف عليها.

وبالنسبة لساقية "تامزراويت" فهي تقع في عالية واحة فزواطة على الضفة اليسرى لمجرى وادي درعة، وتنطلق بمقربة زاوية الفتح، تمتد على مسافة ٥ كلمترات، حيث ترسم على شكل موازي للواد ومحاذية له، وشيئا فشيئا تتوغل داخل ثلاث أرباع محاط "أمزرو". وداخل محاط أمزرو تتفرع الساقية إلى ثلاثة فروع أساسية، وهي من العالية إلى السافلة: "فرع الفوقانية" و "فرع الوسطانية" و "فرع لقنان بوخلال" وتتفرع بدورها إلى مجموعة من المصاريف التي تنقسم بدورها إلى العديد من "الرباطي" التي تربط المصرف مباشرة بالبستان.

(٦/١) ا-عملية صيانة ساقية "تامزراويت":

إن اختلاف أنظمة السقي وتوزيع المياه في ساقية "تامزراويت" حتم على المستفيدين منها وضع قوانين عرفية ملائمة على مستوى عملية الصيانة، وهكذا نميز بين عملية الصيانة بين الساقية الرئيسة وبين المصاريف والفروع، حسب الحصة المائية أو مساحة الأرض.

(١/٦/١) أ-الصيانة على مستوى الساقية الرئيسة:

على مستوى الساقية الرئيسة "لتامزراويت" يتم الاعتماد على معيار ملكية الماء في المساهمة في عملية الصيانة، تحديدا فإن كل من يملك أقل من ٦٠ درهم[٢٩] من مجموع الحصص نبوات الماء، فهو مجبر على أن يساهم بعامل واحد في حفر وتنقية الساقية. أما من يتوفر على أكثر من هذا العدد في حصصه المائية ملزم بالمساهمة بعاملين. وهكذا فإن كان عدد العمال الموزعين على النوبات الغير "محررة" يبلغ ٥٦ عاملاً، فنجد أكثر من هذا العدد في عملية الاستصلاح للساقية حيث يصل ٧٤ عاملاً فأكثر، لارتباط

ذلك بكثرة عدد المالكين لحصص مائية تقل عن ٦٠ درهم.

أما بخصوص طريقة توزيع اقتسام العمل داخل الساقية فيتم بطريقة متفاوتة بين المستفيدين كل حسب حصصه المائية، أي أن العمل يكافئ حجم الحصة من الحق المائي. ويتم اقتسام حصص العمل داخل الساقية بواسطة "عصا" تشكل وحدة قياس في تحديد المسافة المراد حفرها أو إصلاحها وتنقيتها، ويتراوح طول هذه العصا بين ٣-٥ أمتار، وتكون هذه العصا مصنوعة من جريد نخل ذكر ناضج. ونجد في كل وحدة قياس هذه "خدامين أي عاملين " على الأقل بغض النظر عن حجم مليكتهما المائية[٣٠].

وتجدر الإشارة إلى أن أصحاب "النوبات المحررة"[٣١] لا يساهمون في عملية الصيانة مما يزيد من مشكل الساقية في تعميق الهوة بينهم وبين المساهمين في صيانتها. ويعتبر عرف "حد الصايم" هو النفير والتعبئة العامة لجميع أفراد القبيلة البالغين للاجتماع من أجل التداول في أمور صيانة الساقية. وحري بالذكر أن عملية الإعلان هذه تتكرر غالبًا في فترات فيضان وادي درعة الذي غالبًا ما يحدث خسائر كبير في "الأكوكات "والسواقي عند مدخلها، إد يقوم بتخريب الأول وجرف الثانية. لذلك كان لزامًا اعتماد هذا الشكل التضامني المتمثل في "حد الصايم" أو "التويزه " كشل من العمل الجماعي والتشاركي ضمانًا للمصلحة العليا والعامة للقبيلة في تدبير أمور الماء.

(٢/٦/١) ب-صيانة المصاريف والسواقي الفرعية:

بعد الانتهاء من إصلاح الساقية الرئيسة التي عادة ما تتشارك فيها مجموعة من القصور والتي يتم تقسيم مسافة الإصلاح بينهم حسب النوبات المائية، فإن الصيانة تأخذ شكلاً آخر بعد الدخول في السواقي الفرعية والمصاريف التي تأخذ الماء مباشرة إلى المنشآت الزراعية للمالكين. وفي هذا المستوى من الصيانة يكون توزيع العمل متساويًا بين ذوي الحقوق المائية، إذ يتعين العمل بشكل متساوي في الساقية الفرعية باعتماد وحدة قياس العصى دون الأخذ بعين الاعتبار أهمية الحصة المائية أو مساحة الأرض المسقية. في حين أن الاشتغال على إصلاح المصاريف الصغيرة يتحدد حسب ملكية الأرض. لكن عملية الصيانة في المصاريف تبقى شأنًا داخليًا للمستفيدين منه في سقي حقولهم. أما تنظيم وتقسم العمل داخل السواقي الرئيسية والفرعية فيكون تحت إشراف شخص يسمى "عامل" الساقية.

ويبدو مما سبق أن هناك عدم تساوي في توزيع حصص الصيانة والحصص المائية وملكية الأرض، إذ يستشف البعد التعاضدي والعمل التضامني على مستوى السواقي الثانوية والفرعية ومصاريف ساقية "تامزراويت"، في حين هناك تقسيم مضبوط بين الملاك على مستوى الساقية "تامزراويت" الرئيسة. ويفسر ذلك بأن التضامن يتجدر أكثر كلما تضايقت القرابة الدموية والمصلحة المشتركة بين دوي الحقوق المائية. كما تواجه عملية الصيانة تحديات مرتبطة بعملية كراء أو رهن الحصص المائية وملكية الأرض أو العمل بنظام "الخماس"، لذلك فعملية الصيانة تنتقل بموجب هذه المعاملات إلى المستفيدين منها. كما يجب أن نؤكد على أن هناك التزام صارم في السهر على تطبيق هذه العملية، وفي حال تخلف أحدهم عنها فإنه يؤدي ثمن كراء خدام مكانه أو يتم اللجوء إلى إصدار "النصاف[٣٢]" في حقه كأن يلتزم بإقامة وليمة غداء لـ ١٢ خدامًا.

وعمومًا يتضح أن التقنيات المستعملة للتحكم في المياه تتطلب عملاً جماعيًا وهمًا مشركًا بين الإنسان الفزواطي، والضرورة الاجتماعية تفرض هذا السلوك الجماعي خاصة في مسألة الصيانة. ولتحقيق هذه الغاية كان لزامًا الانتظام في تنظيمات اجتماعية تسهر على تحديد الحقوق وضمان تطبيق الواجبات، والسهر على ردع المخالفين. فما هي أهم ملامح هذه التنظيمات، وماهي وظائفها وأدوارها؟ وكيف تعمل على تطبيق القوانين العرفية لتنظيم سير هذه المنشآت التقليدية المائية.

ثانيًا: التنظيمات الاجتماعية المائية بواحة فزواطة

إن فهم التنظيمات الاجتماعية للموارد المائية بواحة فزواطة يقتضي بداية تحليل التركيبة السكانية التي لا تختلف عن نظيرتها بباقي واحات درعة، باستثناء بعض الملاحظات التي لها انعكاسات مباشرة على نوعية الملكية السائدة بالمنطقة ونصيب الفرد من المياه الموزعة بين أفراد دواوير الواحة والمجموعات المكونة لها. فالدارس للبنية الاجتماعية لواحة فزواطة يقف على تراتبية اجتماعية واضحة المعالم على رأسها العرب والأمازيغ الرّحل، ثم أولئك المستقرّون، ثم الشرفاء والمرابطون، ثم ضراوة. هذا التنوع الاجتماعي بالإضافة إلى الكثافة السكانية بالمنطقة كان لهما الأثر البالغ على منظومة استغلال الموارد الطبيعية عامة، والمائية على وجه الخصوص.

٢-١/٢التنظيم الاجتماعي

ويُقصد به المبادئ العامة المتحكمة في تنظيم المجتمع في الفترة ما قبل التدخل الكولونيالي، والآليات التي مكنت التجمعات السكينة (القصور) من تدبير شؤونها الداخلية والخارجية بعيدا عن هيمنة السلطة المركزية. وفي هذا السياق، ينبغي التأكيد على أنه من الضروري إزالة اللبس حول وصف هذا التنظيم الاجتماعي بالتقليدي من طرف العديد من المؤرخين والباحثين الذين يعتبرونه سلبيا، وهو أمر غير صحيح، إذ على العكس من ذلك، هو تنظيم ناجع وفعال منبثق عن واقع معاش تضبطه قوانين أو "إزرفان" لاحتواء ومعالجة مشاكل السكان درءا للمخاطر والأزمات التي قد تنتج عنها، مما يستدعي التكيف مع كل ما هو مستجد في مجتمعات الواحات المتسمة بالحيوية باعتبارها مجتمعات ليست جامدة، إذ كانت تتأثر بالمحيط وتتفاعل معه فيؤثر عليها وتؤثر فيه.[٣٣] وتشمل المكونات الأساسية للتنظيم الاجتماعي الفزواطي، عناصر بنيوية متعددة، كالأسرة والعظم (اغص)، والمجال الترابي الذي يمثله القصر في أبعاده الهندسية والتاريخية والتدبيرية، وكذا علائقه الخارجية في شتى المجالات مع القصور الأخرى.[٣٤]

(١/٢) ١-الأسرة:

وشكلت الأسرة واسطة العقد في التنظيم الاجتماعي الفزواطي، وتنعت محليا باسم "تكات" أو "ألمسي"، ورغم أنها أصغر خلية اجتماعية، فهي المعبرة عن هذا التنظيم الاجتماعي بشكل واسع لأن تركيبتها البشرية (أب وأم وأطفال وأقارب الخ...) هي عماد الهيكل الاجتماعي الذي تنبني عليه كل العلاقات الداخلية والخارجية. والأسرة الفزواطية أبوية، مثلها في ذلك مثل باقي أسر واحات درعة، يختلف حجمها من قصر إلى آخر، فقد تكبر أو تصغر، أو يتم إدماجها في أسرة أخرى لعدة أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، حسب الظروف التاريخية ويشكل "إغص" أو "العظم" المكون من عدة عائلات تدعي أنها تنحدر من جد حقيقي أو مزعوم، الدعامة القوية للأسرة الفزواطية في التنظيم الاجتماعي السائد. وعموما فالفرد في المجتمع الواحي لا تكون له الأهمية إلا في الإطار الجماعي الذي تجسده أولاً أسرته وعظمه وقصره وقبيلته. لذلك كان عليه الانصياع لكل ما يصدر عن هذه المؤسسات الاجتماعية والسياسة والثقافية المحددة لهويته التي كان يمثلها إغرم (القصر) الذي كان ينتمي إليه.[٣٥]

(١/٢) ٢-القصر: إغرم:

وهو مجال استقرار مجموعة من العظام، وكان خاضعا لهندسة معينة حسب الموقع، وحسب أهمية عظامه. وعادة ما كان يحاط بسور يتخلله باب أو بابان أو ثلاثة، وعليه ابراج الحراسة. وإذا كان بناء القصور يتم بالتراب المدكوك والمواد المحلية فإن مواقعها وبنيتها الداخلية تختلف من قصر إلى آخر. وظل إغرم هو الركن الأساسي في التنظيم الاجتماعي ليس في منطقة فزواطة وحدها فقط، بل في مناطق الواحات كلها، لما له من أبعاد متعددة ففيه كان يتجسد الإطار الجغرافي والاستقرار والانتماء والتجانس بين الفرد وجماعته. وهو القلب النابض للتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي البعيد الغور.

والقصر ككيان اجتماعي وسياسي كانت تقوم بتسيير شؤونه مجموعة من الأشخاص كان يطلق عليهم اسم "لجماعت " المؤلفة من ممثلي العائلات والعظام القاطنة بالقصر. وكان تعيينهم يتم في غيابهم، حسب كفاءتهم وقدرتهم على تحمل المسؤولية، وكذا معرفتهم بعرف القبيلة الذي هو إلى حد ما القانون الأسمى (الدستور) الذي يحتكم اليه عند الحاجة. وهؤلاء النواب -إن صح التعبير-كانوا يسهرون على كل المؤسسات الاجتماعية للقصر، وكانوا يتخذون كل القرارات اللازمة في شانها وحريصين على تنفيذها. وشكلت مؤسسة أمغار إحدى أهم هذه المؤسسات لما كان لأمغار من دور أساسي في قيادة القبيلة والقصر الذي كان ينتمي إليه. أما تعيينه، فكان أول الأمر لفترة محددة (عام واحد) تجنبًا للتحكم والطغيان. وبمرور الوقت، أصبح متوارثا في بعض الأسر. وقد كان المخزن يزكي الشيخ الذي كانت القبائل ملتفة حوله. وكان شيخ القبيلة يصدر الأحكام وينفذها، كما كان ينفذ كل ما يصدر عن الجماعة.[٣٦]

وفيما يلي جدول بأهم قصور واحة فزواطة وتركيبتها الاجتماعية.

جدول بأهم قصور واحة فزواطة[٣٧]

اسم القصر	الفئة الاجتماعية/الإثنية	عدد المنازل المكونة له
زاوية سيدي عبد العالي	المرابطين	٣٠
الزاوية الدخلانية	المرابطين	١٥
زاوية سيدي موسى	المرابطين	٢٠
قصيبة باسو أوهادي	أمازيغ	٢٠
قصيبة بلهبوط	أمازيغ	٢٠
قصيبة أولاد أوسوقين	أمازيغ	١٥
قصيبة آيت عيسى أوبراهيم	أمازيغ	١٥
قصر آيت حمو	المرابطين	١٥
لقصابي: قصر الكدية+ قصر غنايم تاكشورت	عرب الروحة والغنانمة	أكثر من ٢٠
آيت عثمان تيكيت	المرابطين	١٥
الزاوية البرّانية	المرابطين	١٥
تينفو: ٤ قصور: القصر الكبير+ الحرّار+آيت رحّو+ بونو	ضراوة	أكثر من ٣٠
كابو	آباء عرب الروحة والغنامة	٦
تاكرسيفت	المرابطين	٣٠
بريجة	أمازيغ آيت سفول	٣٥
قصيبة آيت سفول	أمازيغ آيت سفول	٥٠
أولاد إبراهيم	ضراوة	٨٠
زاوية تافكّروت	مرابطين	١٠
آيت بو يوسف	ضراوة	٥٠
آيت كجّو	أمازيغ	٢٠
مكّارية	ضراوة	٢٥
زاوية تامكّروت	مزيج من الإثنيات والمرابطين	٣٠٠
تازروت	ضراوة	٦٠
زاوية أكّوني	ضراوة+ مرابطين	٤٠+١٥
أغلى أودرار	ضراوة	٣٠
آيت يحي أوموسى	مرابطين وأمازيغ رحّل	١٥+ محلات للرّحل
أمزرو	أمازيغ	١٥
زاوية سيدي أوالنّاس	مرابطين	١٧
آيت حكّو	أمازيغ	١٥

(٢/١) ٣-الجماعة: (لجماعت):

وكانت الجماعة تتدخل في تدبير كل مجالات الحياة بالقصر الزراعية منها والرعوية وغيرها. فالجماعة هي التي تعين مثلا المشرف على تعهد الساقية (أعلام ، تركا أو أمغار، تركا) أو الراعي (أمكسا). كما كانت تشرف على أمور المسجد، وذلك بالعناية بمرافقه «وتوظيف» فقيه القبيلة وفق ما يحفظ كرامته وتسمع به موارد القبيلة. وكانت أجرته محددة سنويا في قدر معين من المحصول الزراعي، ومبلغ آخر من المال كان يساهم في تأديته قاطنو القصر، كل حسب وضعيته كما كان الفقيه (الطالب) يحظى بالضيافة اليومية تناوبا بينهم.[٣٨] والجماعة هي التي كانت تقوم أيضا بتنظيم ضيافة الزوار الطارئين مثل الشرفاء وإمديازين (الشعراء) الذين كانوا يتجولون في المنطقة في أوقات معينة. وخلاصة القول، فإن تعمير مجال معين، كان يتطلب بالضرورة تنظيمه وضبطه وفق قوانين وأعراف كانت تقوم بإصدارها لجماعت بشكل ناجع وفعال ضمانا للتوازن والاستقرار المتواصل لساكنة ذلك المجال (القصر أو القبيلة).

(٢/١) ٤-الشرفاء والمرابطون:[٣٩]

من المعلوم أن الزوايا في درعة حظيت بالاحترام والتوقير، فكانت القبائل تقدم لها «الزيارات» في مناسبات محددة على شكل تبرعات وهبات عينية تساعدها على الضيافة وإطعام الطعام للزائرين وعابري السبيل. وكان الناس يسدون لها العديد من الخدمات وخاصة منها تلك التي لها ارتباط بالفلاحة. ويتواجد بواحة فزواطة وحدات اثنية تُدعى "المرابطين " و" الشرفاء" العلويين والأدارسة، ويلعب هؤلاء دور الصلحاء ويلتزمون البقاء خارج صراع الأحلاف لأنهم يسعون لنشر الصلح بين المتنازعين.

وبدوره يشير أحمد البوزيدي إلى أن التفاوت الحاصل في توزيع مياه وادي درعة بين ساكنة العالية وسافلة الوادي كانت تطرح عدة مشاكل ترجمت إلى صراعات ونزاعات اختلفت حدتها من وقت إلى آخر، وبالتالي طلب وساطة الصلحاء ورجال الفقه للفصل فيها، كما تم الاهتداء إلى وضع قواعد عرفية لتنظيم توزيع مياه النهر بين الطرفين.[٤٠] ويؤثر هذا التنوع الإثني والقبلي على توزيع المياه بواحة فزواطة بحيث أن الاستفادة من مياه السقي تختلف حسب الملكية والوزن الاجتماعي لكل فئة. والجدول التالي يبين هذه التباينات:

التراتبية الاجتماعية في الولوج إلى الماء بواحات درعة:[٤١]

الفئة الاجتماعية	الملاك		الماء		عدد الخروبات لكل مالك
	العدد	%	العدد	%	
الشرفاء	4.1	46	4.5	١٠	4.6
المرابطين	21.4	240	24.0	٥٣	4.5
الاحرار (الأمازيغ)	27.1	303.5	19.4	43	7.1
حراطين	20.7	231.5	17.6	39	5.9
حبوس	2.1	23	0.5	1	23.0
الزوايا	5.7	64	0.5	1	64.0
خارج المجال	5.7	9	1.4	3	3.0
المجموع	100	1120	100	221	5.0

٢-التنظيم العرفي لواحة فزواطة

٢/١-العرف (أزرف أو تيعقيدين):

أطّر العرف أو "أزرف" المجتمع الفزواطي فأزرف (جمع إزرفان) معناه القانون أو مجموع القواعد التي كانت تضبط العلاقات بين الناس الذين يعيشون في مكان معين، وكانت تلك القواعد والقوانين من إفراز نفس المجتمع وتفرضها إكراهات اجتماعية على الفرد والجماعة على حد سواء. وأعراف منطقة فزواطة كغيرها من أعراف المجالات الواحية، شملت جميع مناحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. وكان مشرّعوها يتوخون من ورائها الحفاظ على التوازن داخل القبائل، والتركيز على قيم التضامن، مما يعطي للجماعة المناعة والقوة ويجنبها التفرقة التي قد تؤدي إلى الانحلال والزوال. إن تيعقيدين – ن – فزواطة تعبر عن الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاشها الفزوطيون خاصة خلال القرون الثلاثة الأخيرة. وهي خزان لمعلومات تاريخية مهمة لا توجد في غيرها من المصادر الأخرى.[٤٢] ويمكن ملاحظة ذلك من خلال مستويات متعددة يمكن إجمالها فيما يلي:

(٢/١) ١-على مستوى القانون الجزائي:

يعتبر المشرع (الفزواطي/الواحي) من أشد المشرّعين ارتباطاً بمجتمعهم حيث انطلاقا من تراكم التجارب يتم إحداث وصياغة بنود القوانين العرفية. فانطلاقا من تحليل مضامين القانون الجزائي نجد أن المشرع الواحي لا يلجأ إلى العقاب الجسماني، بل يعتمد كليا على مبدأ الغرامات الذي يشكل المصدر الأساسي لمداخيل القبيلة ولا يتم فرض الضرائب إلا نادرا في الحالات الخاصة.

(٢/١) ٢-على مستوى تدبير الموارد الطبيعية:

حرص المجتمع الفزواطي على تطوير القوانين في هذا المجال حيث الهم الأساسي هو الحفاظ على الموارد الطبيعية خصوصا في مجتمع يعتمد في تنظيمه على تدبير القلة وتسيير الندرة. لذلك، وفيما يخص المياه واستغلالها، حرص المشرّع على استعمال الماء بحس جماعي ومسؤول يمكن كافة سكان القصور والدواوير من الاستفادة من حصص لسقي الأراضي الزراعية وفق قوانين تنظيمية صارمة تصل إلى حد فرض غرامات على منتهكي هاته القوانين.

٢/٢-قوانين تدبير الماء

لقد ظل مشكل تدبير المياه الهاجس الأكبر لدى المجتمع الواحي عامة، فتواجد منشآت مائية قديمة لا تزال مثبتة على سفوح الجبال وفي الأودية، وقنوات السقي المصانة بعناية يؤكد أن تدبير الماء بالمنطقة يعود إلى ماض سحيق. كما يبدو أن ذلك ثمرة جماعة بشرية أصيلة مستقرة بالمنطقة، فجلب المياه يستدعي اتفاقا كاملا وتنظيما قويا ومهارة مهنية لجماعة القصور، وهذا ما يفسّر وجود تنظيم عرفي محكم يؤمن استمرارية النظم الهيدروليكية في وسط بيومناخي جد هش.

(٢/٢) ١-التدبير العرفي للموارد المائية بواحة فزواطة:

لقوانين تدبير الماء بواحة فزواطة أهمية كبرى، فباعتبار الماء مادة حيوية فإن أغلب الصراعات تنشأ بين القبائل بسبب الرغبة في الاستحواذ على منابعه. لكن الإشكال الرئيسي بالنسبة للنظام المائي الواحي يتمثل في مظاهره المعقدة التي تختلف حسب القصور والوضعية الاجتماعية ونوعية الملكية ووضعية تلك الموارد المائية بين زمن الفيض وزمن الندرة، وبالتالي فإننا أمام نظام متغيّر حسب الظروف. وعمومًا يمكن تلخيص خطوط هذا النظام من خلال العناصر التالية:[٤٣]

- أن الماء غير مرتبط بالأرض، كما هو الحال في باقي واحات الشمال الإفريقي، بمعنى أن الماء "عازب" أي أن الفلاح يمكن أن يملك الأرض دون أن يملك الماء، أو العكس.

- لا تُطرح إشكالية تقسيم الماء إبّان مرحلة الفيض، فكل فلاح له الحق في توجيه المياه نحو حقوله حسب إمكانياته وقدرة سواقيه، ولكن عندما يصبح الماء نادرا يتم اللجوء إلى قوانين تدبير المياه لتلافي النزاعات.

- في غالب الحالات نجد قصر أو قصرين يملكان ساقية يتم توزيع حقوق مياهها حسب نسبة الأشغال التي يقوم بها الفلاحين لاستصلاح السواقي والسدود الترابية "أكوك"، حيث يبعث الملاك "خمسهم" للقيام بالأشغال المطلوبة حتى يتسنى لهم الحصول على أكبر عدد من نوبات السقي، الشيء الذي يخلق تنافسية بين سكان القصور.

- تتعدد أنماط التوزيع ومن غير السهل تسميتها كلها، فلكل نمط نظامه الخاص، حيث يتم تقسيم اليوم إلى نوبات والنوبة إلى خروبة، فردية، ماديرة، أو تسيلة. هذه الوحدات تختزل الوقت الذي يمكن من خلاله للفلاح أن يحوّل حق الماء الممنوح له إلى حقله. ومثال ذلك: إذا كانت النوبة تنقسم إلى ١٦ خروبة وأن الفلاح يملك منها ٨، فإن هذا الأخير يأخذ الماء لمدة تقارب ٩٠ دقيقة.

ولمعرفة طرائق تنظيم المياه وتوزيعها بواحة فزواطة لابد من معرفة بعض أنواع الملكيات السائدة بالواحات:

أهم أنواع ملكية الماء بواحة فزواطة[٤٤]

الملكية الفردية
و هي الأكثر شيوعا و انتشارا بواحات درعة و هي خاضعة لكافة الإجراءات الشرعية و القانونية من حيث التوريث و البيع و الشراء و الرهن و الكراء و كل طرق المعاملات بين المتساكنين في قصور الوادي، و من هذا المنطلق فإن مالك الماء يتصرف في حصته تصرفا مطلق لا يعترض عليه فيه أحد، مع الاشارة إلى كون قيمة الماء قد تتجاوز في أحيان كثيرة قيمة الممتلكات الأخرى من نخيل و أرض و دور ...كما ان قيمة الماء تتضاعف في حالة إذا ما كان هذا الماء محررا .

الملكية الجماعية
و هي نادرة بواحات درعة و لا تتواجد إلا في تلك المناطق التي اغتصبت فيها السواقي أيام الفتن و القلاقل و الغليان الاجتماعي، و تخضع فيه ملكية الماء للجماعة، و يتم توزيع الماء من عالية الساقية " الربطة فالربطة" في اتجاه السافلة، و إلى أن يتم سقي كل الأراضي التي يمكنها الاستفادة من مياه الساقية، و تتم في هذا الاطار عملية ترميم أكوگ و كنس السواقي بشكل جماعي بصرف النظر عن ما يملكه الشخص من أراضي مادامت هذه الأراضي تستفيد من الساقية.

ماء المخزن
و هو ما يتم تخصيصه لري الأراضي المخزنية بواحتي تنزولين و ترناتة ، و كان المخزن يستولي على قدر هام من الماء قسرا من سواقي بعض القبائل و يجلبه عبر مصاريف كبرى و تعرف بمصرف المخزن أو ساقية المخزن، و هو ماء يتصرف فيه العامل المخزني بالمنطقة ، و هو ماء محرر لا يؤدى عنه أي عمل .

يتبين إذن من خلال الجدول أن ملكية الماء بفزواطة، كما هو الحال بالنسبة لباقي واحات درعة تختلف من ساقية إلى أخرى، وهي تتوزع عموما على ثلاث أصناف رئيسية، على أن هذه الملكيات يصعب حصرها كلها.

٣-تنظيم السقي وتوزيع الماء:

من الصعوبة بمكان تحديد جميع طرق وأنظمة السقي المعروفة بواحات درعة عمومًا، وواحة فزواطة على الخصوص اعتبارا لخصوصيتها الإثنية، وسيطرة عنصر دراوة الذي ارتبط اسمه بالعديد من السواقي بمجالات مختلفة في المغرب، نظرا لحنكتهم

في تدبير المياه وبناء السواقي وتهيئة المجال المائي. ولذلك نعتقد أن خصوصية النظام المائي الواحي تستمد جذورها من أفكار ضراوة في مجال أنظمة التوزيع. ومن خلال استطلاعنا لمجموعة من الأنظمة السائدة بالمنطقة تبيّن أن ماء الساقية كان يتم توزيعه في الماضي متداولا بين الليل والنهار مدة الأسبوع، وأن النوبات تحمل أسماء ليالي الأسبوع فيقال مثلاً نوبة يوم السبت، ونوبة ليلة الأحد وهكذا دواليك. إلا أن هذا النظام تم التخلي عنه واعتُمد نظام آخر، فبعد أن كان الماء يوزع خلال سبعة أيام بلياليها أي حوالي أربعة عشرة نوبة، أضحى يوزع على ثلاثة وعشرين نوبة (١١ ليلة و١٢ يومًا أو العكس). [٤٥]

أسماء نوبات الماء
بساقية سيدي بلال بدرعة الوسطى[٤٦]

نوبة:
١-أولاد العشاب، العشابين. ٢-الدعانيين. ٣١-الدعانيين ١١
٤-بني عيسى. ٥-الحريزية. ٦-الأبن خليلية. ٧-المرابطون ١.
٨-المرابطون. ٩١-أولاد الهاشمي. ١٠-أولاد بوخليفة. ١١-أولاد علي.
١٢-البرشات. ١٣١-البرشات. ١٤١-أولاد بن موسى. ١٥-أولاد الغنامي.
١٦-أولاد بابا علي. ١٧-أولاد السيد محماد. ١٨-أولاد السي ابراهيم.
١٩-الجماط. ٢٠-أكرنوزكاغ. ٢١-أولاد حدو صالح – أولاد حمو علي بني. ٢٣-ولاد عبو

وتبعًا لهذا النظام بات إلزاميًا على كل نوبة من نوبات الساقية النهارية أن تأتي مرة في الليل ومرة في النهار، عكس نظام الأسبوع الذي يجعل النوبات النهارية أبدية والليلية كذلك. والحال أن سواقي واحات درعة الوسطى تجف في فصل الصيف حيث يقل منسوب المياه بوادي درعة لذلك تكون القبائل ملزمة بأن تتذكر متى توقف الماء هل في الليل أم في النهار؟ وما هي النوبة التي توقفت فيها الدورة؟

وقد كانت هذه المسألة تتسبب في الكثير من الصراعات بين القبائل، إذ ترغب كل قبيلة أن تستفيد هي الأولى متى حل الفيض. وتبدأ السنة الفلاحية بسواقي فزواطة عادة يوم ١٧ أكتوبر الفلاحي، لتنطلق دورة النوبات في آخر نوبة جفت فيها الساقية، أما إذا لم يتذكر أحد في أية نوبة توقفت الساقية فهناك طريقتان لمعالجة المشكل:

- ❖ اللجوء إلى القرعة.
- ❖ أن تبدأ الدورة من نوبة مالكي عالية الساقية.

وقد بدأ أهل السواقي يتغلبون على هذه المشكلة بتسجيل اسم آخر نوبة توقفت عندها الساقية، وتحديد نوعها ليلية أو نهارية. وعندما يقترب زمن الفيض يقوم "عامل الساقية" بانتداب قبائل القصور إلى ترميم أكوك وكنس المجرى الرئيسي للساقية. وغالبا ما يذكر القبائل أثناء العمل باسم النوبة التي ستبدأ بها الدورة المائية بناء على ما ثبت عنده كتابة أو باتفاق الجميع.

٣/١-أسس توزيع المياه بين قبائل الواحة:

تتم عملية التوزيع بين دواوير وقصور الواحة وفق أسس دقيقة، يمكن رصدها على ثلاث مستويات: [٤٧]

(٣/١) ١-المستوى الأول:

يتطلب توزيع الماء في هذا المستوى خبرة عالية ومعرفة دقيقة بأسرار توزيع الماء، وهكذا يُستدعى أهل الخبرة من مختلف القبائل المشاركة في ملكية الساقية، والذين يملكون حق الماء في مصرف من المصاريف، ويتم اللقاء عند نهاية المجرى الرئيس للساقية، ويُستدعى البناؤون فيبنون بالجير المكان الذي سيوزع فيه الماء على المصاريف الأربعة وبطريقة تسمح بانسياب الماء في المصاريف في وقت واحد. فإذا لوحظ تأخر انسياب الماء في أحد المصاريف عولج إلى أن يتم تدفق الماء في لحظة واحدة في كل المصاريف.

بعد ذلك ينتقل البناؤون إلى مرحلة التقسيم فيحدد الخبراء وأعيان القبائل عدد النوبات في كل مصرف ثم يتفق الجميع على وحدة قياسية يحددونها حسبما اتفق لهم ثم يعينوا في مدخل كل مصرف عدداً محدوداً من الوحدات القياسية، فيقوم البناؤون بوضع الحجر والجير طبقا لاتفاق الجميع ولما أفرزته الحسابات الدقيقة لماء الساقية. ويسمى هذا التقسيم أزاكلو أو زوكلا. وبعد ذلك يقوم البناؤون

بوضع اللمسات الأخيرة على التقسيم وببنائه بالحجر والجير تجنبا لتكسيره وتخريبه، وقد أصبح الإسمنت والحديد يعوض الجير والحجر في إنجاز مثل هذا التقسيم.

(٣/١) ٢-المستوى الثاني:

كل مصرف من المصارف الكبرى ينقسم إلى عدة مصاريف أخرى متشعبة، كما تتشارك عدة قبائل في المصرف الواحد، وكل قبيلة تملك عددا من نوبات الماء، ترغب في جلب مائها إلى حيث أراضيها لذلك تكرر نفس العملية لضبط حصة كل قبيلة فيقوم البناؤون بإنجاز زوكَلا بشكل يضمن لكل قبيلة حقها من الماء.

(٣/١) ٣-المستوى الثالث:

وهو أكثر تعقيدًا من سابقيه لأن عملية توزيع الماء في هذا المستوى تنتقل من المرحلة النظرية المبنية على حسابات دقيقة إلى المرحلة العملية الفعلية لتوزيع الماء على أفراد القبيلة. وتشكل النوبة القياس المتعارف عليه للتقسيم وفق وفرة أو ندرة المياه. وتتشكل النوبة من ١٦ خروبة أي حوالي ٨٠ درهما، ويعين ملاكو النوبة شخصا له اطلاع واسع بأسرار النوبة يعرف بـ "الصّعّاد" وهو ملزم بالصعود مع المصاريف التي سيقسم فيها ماء النوبة قبل شروق الشمس إذا كانت النوبة نهارية، وقبل غروبها إذا كانت النوبة ليلية، حيث يلتحق به أصحاب النوبة ويحدد كل واحد القدر الذي يريده في هذا المصرف أو ذاك.[٤٨]

توزيع الماء بين الملاك بواحة فزواطة[٤٩]

نوع الحصة	الملاك	عدد حصص الماء	عدد الخروبات حسب الملكية
بدون ماء	٣٧	-	-
١،٣ إلى ١ خروبة	٣٢	٢٩،٨	٠،٩
١،٣ إلى ٣،٢ خروبة	٥٦	١٠٩،٢	١،٩
٢،٥ إلى ٤،٠ خروبة	٥٢	١٧٨،٣	٥،٤
٤،٥ إلى ٦،٠ خروبة	٢٨	١٥٥،٧	٥،٥
٦،٣ إلى ٩،٠ خروبة	٢٤	١٩٠،٠	٧،٩
١٠،٠ إلى ١٦،٠ خروبة	٢٣	٢٨٠،٠	١٢،٢
أكثر من ١٦،٠ خروبة	٦	١٧٧،٠	٢٩،٥
	٢٥٨	١١٢٠	٤،٤

وبعد ذلك يقوم الصعاد بتحديد الوقت النظري لكل فرد، ويختلف هذا الوقت بين الليل والنهار.

إذا كان الوقت ليلاً:

فإن يقسم الصعاد الليل إلى العشاء الأولى والعشاء الثانية وثلث الليل ونصف الليل وربع الليل والفجر...وقد كان الصعاد يستعين على تحديد هذه الأوقات بحركة النجوم خاصة الثريا والمشبوح والوتد.. وقد اكتسب عرفاء الماء خبرة دقيقة في ضبط هذه الأوقات.

إذا كان الوقت نهارًا:

فإن تقسيم أوقات الماء يعتمد على الظل باستخدام أقدام الرّجل انطلاقا من معرفة وقت الظهر وقد حدده فلكيو درعة حسب هذه القاعدة كما يلي:[٥٠]

يناير	فبراير	مارس	أبريل	ماي	يونيو	يوليوز	غشت	شتنبر	أكتوبر	نونبر	دجنبر
ط	ز	ه	ج	ب	أ	ب	ج	د	و	ح	ط
٩	٧	٥	٣	٢	١	٢	٣	٤	٦	٨	٩

فهذه الحروف الإثني عشر ترمز لشهور السنة وهكذا فحرف الطاء يمثل يناير وعدد أقدام الزوال تسعة أقدام، وحرف الزاي يمثل فبراير وعدد أقدام الزوال سبعة، وهكذا إلى آخر شهور السنة. ولضبط أوقات الظهر كان الصعاد يحدد نصف اليوم وربع اليوم وثلث اليوم.

٢/٣-نظام تدبير المياه:

وعمومًا فإن أنظمة السقي والتوزيع بواحة فزواطة تكشف عن خاصية أساسية مفادها أن هذا النظام يخضع لشروط دقيقة، تفرض على الجميع احترامها اعتبارا لخصوصية المجال المتسم بالجفاف والندرة، وقد كشفت الأبحاث عن نظامين متميزين لتدبير المياه بواحات درعة عموما، ونجد مثيلا لهما بواحة فزواطة باعتبارها جزءا من هذا المجال:

(٣/٢) ١-الوضعية الخاصة بسواقي الملك Melk:[٥١]

هذا النوع من النظام يخص السواقي التي يمتلك فيها سكان القصور الماء في استقلال تام عن الأرض، بحيث أن كمية الماء التي يمتلكها كل فرد تتحدد بحسب الأشغال التي يقوم بها في بناء أو صيانة

السواقي، لكن ومع انتشار مظاهر البيع والشراء والكراء لملكية الماء أصبحت الحقوق تنتقل من فرد إلى آخر أو بمعنى آخر لمالكي الأراضي، الذين يوزعون الماء حسب صبيب السواقي وعدد المستفيدين بالنوبة التي تنقسم هي الأخرى إلى "فردية بيضاء" أي أنها نهارية، أو "فردية سوداء" أي فردية ليلية. هذه الأخير التي تنقسم بدورها إلى عدة خروبات، كل واحدة منها تدوم تقريبا ٤٥ دقيقة من صبيب الساقية.

(٢/٣) ٢-الوضعية الخاصة بسواقي ألاّم Allam:[٥٢]

ويتعلق الأمر بالسواقي الجماعية، حيث لا يتم تقسيم المياه حسب الحصص وإنما يرتبط الماء بالأرض التي يسقيها، وكل تغيير يحصل في مساحة الأرض يؤثر مباشرة على حصة الماء الممنوحة للسقي. وهو ما يُعبّر عنه بلغة أهل فزواطة والواحات المجاورة بـ "الأرض مزوجة بالما". وبالتالي فكل من يملك ساقية يأخذ حصته من الماء حسب ترتيب طبوغرافي دقيق يدعى " مصرف بمصرف" أي أن المياه تسقي الأراضي الجماعية بالمرور من مصرف إلى آخر بالتسلسل عكس نظام الملك الذي لا يخضع لهذه القاعدة، حيث يتبع نظام الحصص بالنوبة.

(٢/٣) ٣-التحكم في نمط التوزيع:[٥٣]

لضمان السير العادي للنظامين السابقين (اللذان ينضاف إليهما نظام ثالث هو خليط بين الملك وألاّم) يلجأ ضراوة إلى تعيين مراقب يسمى "**أمازال**" يعهد له مهمة مراقبة وتدبير الخلافات خاصة في سواقي الملك، عن طريقة مراقبة تدفق المياه، وزجر المخالفين ومتابعة أشغال الصيانة والبناء.

وتتوفر أغلب قصور فزواطة على سواقيها الخاصة، وبالمقابل نجد قصور متعددة تشترك في ثلاث سواقي رئيسة وهي:[٥٤]

ساقية تاكَرسيفت: وعرضها ثلاث أمتار، تسقي قصور تاكَرسيفت وكابو.

ساقية آيت كجور: وعرضها مترين، تسقي قصور آيت كجور، وآيت بو يوسف وزاوية تافكَروت أولاد إبراهيم وقصيبة آيت إيفول والبريجة.

ساقية تامكَدانت: وهي بعرض مترين، وتسقي القصور الواقعة بين أغلى أودرار، وآيت يحيى أومحمد، وعمق هذه الساقية يتجاوز المتر والنصف.

٤-الصراعات حول الماء

لكن وعلى الرغم من ذلك تنتج مجموعة من الصراعات حول الماء، ويعود ذلك لأسباب متعددة تتدرج حسب مستويات نجملها فيما يلي:

١/٤-الصراع على مستوى الواحات:[٥٥]

تستفيد واحات العالية من أكبر كم من مياه نهر درعة وتتمتعان بما يعرف محليًا بـ "الماء الحي" عكس واحات السافلة كفزواطة والتي تعاني من قلة الماء. ويتفاقم هذا المشكل كلما اتجهنا نحو الجنوب إلى أن يصبح جفافا حقيقيا. فلا تكاد واحات العالية تصلح ما تهدم من أكَوكَاتها بفعل الفيضانات للدفع من منسوب المياه لجلبه عبر السواقي حتى تجف مياه النهر في الواحات الجنوبية، الأمر الذي يدفع بقبائل هذه الواحات إلى تنظيم هجومات خاطفة لهدمها. وكثيرًا ما كانت هذه الهجمات تؤدي إلى حروب دامية بين القبائل، مما يؤدي إلى تدخل أهل الصلاح من الأشراف والمرابطين لتهدئة الأوضاع والعمل على إيجاد حل توافقي، وفي هذا الإطار كانت قبائل الواحات الشمالية توافق على تحديد مدة زمنية تسمح بإرسال الماء إلى الواحات الجنوبية، إذ تقوم بإغلاق مداخل سواقيها وإحداث فتوحات في أكَوكَاتها لينتج عن ذلك فيض اصطناعي يسمح بوصول المياه إلى واحات السافلة.

٢/٤-الصراع على مستوى السواقي:

ويرجع أصل هذا الصراع إلى رغبة بعض القبائل أو بعض المجموعات البشرية في الاستفادة من أكبر كم ممكن من مياه الساقية ولو كان ذلك على حساب غيرهم من القبائل، ومن أبرز مظاهر الصراع على الماء في هذا المستوى نذكر:

على مستوى حوض التصريف: الصراع بين أهل عالية السد وسافلته حول الاستفادة من الماء النابع من أسفله، فقبائل الساقية الأعلى تتحكم في سدها، مما أدى إلى مواجهة مسلحة غير متوقفة بين القبائل إلا في حال تدخل أهل الصلاح لإيجاد حل توفيقي بين المتنازعين.

على مستوى حق المرور: على إثر حدوث الفيضانات تنجرف سواقي مجموعة من القبائل وهذا ما يضطرها إلى شراء بقع أرضية من قبائل أخرى لتمر منها الساقية الجديدة والتي يؤدون في مقابلها ثمنا باهضا ومع ذلك فإن القبائل البائعة تفرض عليهم ما يسمى بـ "حق المرور" أو "حق القادوس" ومعناه الاستفادة من ماء الساقية التي تمر عبر أراضيها طبق القوانين والضوابط التي يتم الاتفاق حولها بين المتعاقدين، إلا أن إجحاف القبائل المستفيدة من حق القادوس يفضي بطريقة تدريجية إلى نشوب صراعات مريرة قد لا تنتهي إلا بتدخل أطراف خارجية لإعادة

الأمـور إلى سـابق عهـدها وإلـزام الطـرفين بـاحترام المواثيق.

٣/٤-الصراع بين عالية وسافلة الساقية:[٥١]

والصـراع هنـا بـين مـالكي نفـس السـاقية، وهـي ظاهرة حاضرة في التاريخ المحلي بواحات درعة، وهي ناتجـة عـن رغبـة بعـض القبائـل أو الأسر المتحكمـة في عاليـة السـاقية في الاسـتفادة مـن ميـاه السـاقية بكيفيـة تـدوس معهـا حقـوق أهـل السـافلة، وهـي مسألة طُرحت على فقهاء درعة وغالبًا ما يكون الحكم فيها لصالح القبائل المتضررة إلا أن هناك قبائل وأسر نافذة لا تعبأ بهـذه الأحكام ومقتضياتها مـما يضطـر القبائل الأخرى إلى استعمال القوة.

خَاتِمَةٌ

وخلاصة القـول يبـدو أن المجتمـع الفزواطـي أوجـد لنفسـه تنظـيماً قبليًـا يـنعكس بصـفة ميكانيكيـة عـلى الوضع القانوني لهـذا المجتمـع، فمثـل هـذا التنظـيم الاجتماعي يحتاج إلى مجموعة من القواعـد القانونيـة التي تسير العلاقة بين الأفراد والجماعة. هذه القواعد تـتجلى في القـوانين العرفيـة المحليـة التـي أوجـدها المجتمع الواحي الفزواطـي مثلـه في ذلـك مثل بـاق المجتمعات الواحيـة، لتسـيير مؤسسـاته ذات الطبيعـة الاجتماعية أو الاقتصادية كنوبات الميـاه مـما يـنعكس عـلى التنظـيم السـياسي لهـذا المجتمـع حيث يسـهر عـلى تنظـيم وتطبيـق القـوانين العرفيـة رجـال يـتم تعيينهم لهذا الغرض بإشراك باقي أطراف التنظيم.

وتبقـى هـذه القـوانين العرفيـة عنصرًـا أساسـيًا لا غنى عنه في المجتمع الواحي المبنـي عـلى اقتصاد النـدرة. وإذا كانـت هـذه الأعـراف قـد تـأثرت بالتجاذبـات الجدليـة بـين مجـالين متعارضـين: مجـال نفـوذ المخـزن ومجال الـولاء (البيعـة)، وخضعـت لعمليـة التثاقف مع مختلـف الثقافـات التـي عرفهـا المجـال المغـربي عبر فتراتـــه التـــاريخي، فإنهـــا حافظـــت عـــلى أصـــالتها ومحليتها، بل ساهمت في إغناء الشر-يعة الإسلامية وفي صـــياغة التشر-ـيع المغـــربي العصر-ـي كمرتكـــز أســـاسي. ويعتـــبر تـــدبير المـــوارد المائيـــة الـــتجلي الأساسي لمظاهر التضامن والتكافل الاجتماعـي في مجـال يعـاني مـن الهشاشـة، وبالتـالي نتسـاءل عـن المظاهر الأخرى لهذا التضامن في أبعاده الاقتصادية والاجتماعية.

اشترى بحول الله وقوته محمد بن الصالح من البائعة له مباركة بنت الخاضر نصف درهم من الماء الجاري بقدرة في ساقية السيد ابلال في نوبة الجماطْ مداولا بين الليل والنهار على عداد أهل الساقية بجميع المنافع والمرافق وكافة الحقوق كلها بيعا صحيحا قاطعا جائزا منبرماً خاليا من كل شرط يفسده ولا ثنيا ولا خيار ولا إقالة فيه أبدا بثمن ذلك خمسة وعشرين أوقية قبضت ذلك اعترافا وعلى السنة في ذلك والمرجع بالدرك عرفا قدره شهد عليهما بما فيه بتاريخ أواسط ربيع الثاني عام 1290 عبد ربه تعلى محمد بن العربي الحروشي ستره الله ءامين.

الهَوامِش:

(١) السملالي عبد اللطيف، **تدخلات الدولة ودور المجتمع المدني في التنمية القروية بزاكورة**، أطروحة السلك الثالث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة ابن طفيل، موسم ٢٠٠٦-٢٠٠٧، ص ٨٩.

(٢) السملالي عبد اللطيف، **تدخلات الدولة ودور المجتمع المدني في التنمية القروية بزاكورة**، نفس الرجع، ص ٩١.

(٣) انظر الجدول أعلاه.

(٤) سعيد مزوز، **تدبير الموارد المائية في الأوساط الجافة. نموذج واحات درعة الوسطى: حالة واحة تنزولين**، بحث لنيل شهادة الماستر، تخصص الجغرافيا– جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مراكش – السنة الجامعية ٢٠٠٨/٢٠٠٩، ص.٦٧-٧٢.

(٥) أحمد البوزيدي، **قضايا توزيع الماء بواحة درعة (من خلال الوثائق المحلية)**، سلسلة ندوات ومناظرات –رقم١١-الماء في تاريخ المغرب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق –جامعة الحسن الثاني-. مطبعة المعارف الجديدة-الرباط.١٩٩٩. ص.٧٩-٩٩.

(٦) أحمد البوزيدي، **التاريخ الاجتماعي لدرعة مطلع القرن السابع عشر - مطلع القرن العشرين: دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية**.- دار آفاق، المغرب، ١٩٩٤. ص ٢٩٠.

(7) Ouhajou Lekbir, Espace Hydraulique et Societe Au Maroc, Cas des systèmes D'irrigation dans la vallée du Dra, publication de la faculté des lettres et des sciences Humaines, Agadir, 1996, p 101.

(8) Pascon Paul, théorie générale de la distribution des eaux el l'occupation des terres dans le Haouz de Marrakech, R G M n(0) 18, P 3-19.

(٩) غوري حلمي إبراهيم، **الأنهار والعيون والينابيع**، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان، ١٩١٧، ص ١٠.

(10) Pascon Paul, le Haouz de Marrakech, Tome I, France, 1977, P84.

(١١) كربوط محمد، معلمة المغرب (الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر)، ص: ٤٥٧٦.

(١٢) الشرقاوي أحمد، **أنظمة السقي في التراث المغربي: حلة المصطلحات والمفاهيم الخاصة بأنظمة السقي بسهل تافيلالت**، دفاتر جغرافية-ص٧٥العدد الثالث – الرابع/ ٢٠٠٧:.٧٥.

(13) Bencherifa A, le monde rurale marocaine: diversité spéciale et culturelle, in : sous la direction d' Agoumy T et bencherifa, la grande Encyclopédie du Maroc, géographie humaine, 1987, P296.

(١٤) مهدان محمد، **الماء والتنظيم الاجتماعي، دراسة سوسيولوجية لأشكال التدبير الاجتماعي**، منشورات جامعة ابن زهر أكادير، ٢٠١٢، ٦٢.

(١٥) رواية شفهية ضمن جلسة خاصة مساء يوم الأحد ٢٠١٢/٠٦/٠٣.

(١٦) كربوط محمد، مرجع سابق، ص:٤٥٧٦.

(١٧) عمالك أحمد، **جوانب من تاريخ الزاوية الناصرية: من النشأة إلى وفاة الشيخ محمد الحنفي، ١٠٥٢-١٣٢٥هـ ١٦٤٢-١٩٠٧م**.-نشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – الرباط، ٢٠٠٦. ج٢، ص:٣٦٦، هامش رقم ٦٧٠.

(١٨) آنية من خزف أو نحاس يحدث بها ثقب في أسفلها؛ يصل قطرها إلى ١٨سم وعمق ٧سم، وتوضع في وضع عائم داخل إناء به ماء عمقه ٣٠سم، لتملأ – تاناست – شيئًا فشيئًا وتتراوح مدة امتلائها ما بين ١٠ و١٢ دقيقة، كربوط محمد، مرجع سابق، ص:٤٥٧٧.

(19) Laoust (E): Most et choses Bérberes. Note de linguistique et d'étnographie. Societé Marcaine d'édition, 1920, p 436.

(٢٠) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر وديوان المبتدأ والخبر أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من دوي السلطان الأكبر**، بيروت، دار. الفكر١٩٨١، ج٧، ص٧٧ ٧٨.

(٢١) مهدان امحمد، الماء والتنظيم الإجتماعي...، م.س، ص ٧٠.

(٢٢) بن الطالب علي، **المصطلحات الجغرافية المائية بمنطقة زمور والأطلس المتوسط**، ضمن كتاب المصطلحات الجغرافية الأمازيغية، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، ٢٠١١، ص 90.

(٢٣) البوزيدي أحمد، **التاريخ الاجتماعي لدرعة (مطلع القرن ١٧ مطلع القرن ٢٠)، دراسة في الحياة السياسية والاجتماعية والإقتصادية من خلال الوثائق المحلية**، منشورات آفاق متوسطية، ١٩٩٤، ص ٢٩١.

(٢٤) مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي...، م.س، ص ٧٠.

(٢٥) بن الطالب علي، **المصطلحات الجغرافية المائية بمنطقة زمور والأطلس المتوسط**، م،س، ص 90.

(٢٦) مهدان امحمد، الماء والتنظيم الاجتماعي...،م.س، ص ٧٠.

(٢٧) محاضرا ت الأستاذ رشيد السلامي، م،س.

(٢٨) مهدان امحمد، **الماء والتنظيم الاجتماعي...**،م.س/ ص ٧٢

(٢٩) وحدة قياس مائية

(٣٠) مقابلة شفوية مع عامل ساقية "تامزراويت"، السيد لحسين عميها (85 سنة)، بتاريخ ١٥-٠٨-٢٠١٧

(٣١) سميت بالنوبة المحررة لأنها معفية ومحررة من أعمال الصيانة عكس باقي النوبات التي يقترن سريانها على القيام بأشغال الصيانة في الساقية.

(٣٢) دعيرة عقابية تصدر في حق كل من خالف النظام العرفي في الأعمال المرتبطة بالنظام المائي، أو القيام بسلوك يخرج عن اتفاق اجماعة القبيلة كسرقة المحصول على سبيل المثال لا الحصر...

(33) Robert montagne: les beberes et le makhzen dans le sud du maroc; ed afrique orient; casablanca; 1989; P: 169.

(٣٤) حقي، محمد: **التخزين في الواحات، نموذج واحة فزواطة بدرعة الوسطى**، المخازن الجماعية في الأطلس الكبير المركزي تراث مادي ورأسمال رمزي، سلسلة ندوات

ومناظرات رقم ١١، أعمال الندوة الدولية، تنسيق سعاد بلحسين، محمد العاملي، تقديم سعاد بلحسين، بني ملال ٢٠١٦-٢٠١٧. ص: ١٣٧-١٣٨.
(٣٥) عبد الله حمودي، **الأنثروبولوجيا والتاريخ**، حالة المغرب العربي، سلسلة دار توبقال للنشر ط ١-١٩٨٨.ص ص: ٤٧-٤٩.
(٣٦) حقي محمد، مرجع سابق، ص: ١٣٩.
(37) Comité de Maroc: Le cour moyen de l'oued Draa, Bulletin du Comité de l'Afrique française, Comité du Maroc (Paris). 1905, pp: 30-31
(٣٨) عمر افا، أعمال الدورة الأولى لجمعية الجامعة الصيفية بأكادير ١٩٨٠، ص: ١٢٨.
(39) Pletsch Alfred. Eléments traditionnels et évolution récente dans l'oasis du Dra (Maroc). In: Méditerranée, deuxième série, N(o) 29, 2-1977. p. 35.
(٤٠) البوزيدي، أحمد: **قضايا توزيع الماء بواحات درعة، من خلال الوثائق المحلية**، ضمن كتاب الماء في تاريخ المغرب، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١١، مطبعة المعارف الجديدة، عين الشق الدار البيضاء ١٩٩٩، ص: ٨٣-٨٥.
(41) J. J. Pérennès, L'eau et les hommes au Maghreb. Contribution à une politique de l'eau en Méditerranée, Paris, Karthala, 1993,p : 111.
(42) Mohamed Handaine, *Anti-Atlas*: *histoire et société de l'Adrar* n Ikst "illalen" Monographie du Sous, Bourereg, 2009, P :60
(43) Pletsch Alfred. Eléments traditionnels et évolution récente dans l'oasis du Dra (Maroc); op.cit. p : 38.
(٤٤) البوزيدي، أحمد: قضايا توزيع الماء بواحات درعة، من خلال الوثائق المحلية، مرجع سابق، ص: ٨٥-٨٧
(45) J. J. Pérennès, L'eau et les hommes au Maghreb. Contribution à une politique de l'eau en Méditerranée, Paris, Karthala, 1993,p : 111.
(٤٦) البوزيدي، أحمد: **قضايا توزيع الماء بواحات درعة**، من خلال الوثائق المحلية، مرجع سابق، ص: ٩٨.
(٤٧) البوزيدي، أحمد: **قضايا توزيع الماء بواحات درعة**، من خلال الوثائق المحلية، مرجع سابق، ص: ٨٨-٩٠.
(48) J. J. Pérennès, op.cit. pp : 112-114.
(49) J. J. Pérennès, op.cit.p : 112.
(٥٠) البوزيدي، أحمد: **قضايا توزيع الماء بواحات درعة**، من خلال الوثائق المحلية، مرجع سابق، ص: ٩٠.
(51) J. J. Pérennès, op.cit,pp :109-110
(52) Ibid.p :110
(53) Ibid.pp :110-111
(54) Comité de Maroc : Le cour moyen de l'oued Draa, Op.cit, pp: 30-31.
(55) Mohamed Aït Hamza et B. El Faskaoui: Les Oasis du Drâa au Maroc Rupture des équilibres environnementaux et stratégies migratoires, Revue Homme et migration n° 1284/ ed 2010.pp. 56-69.
(56) Madani, Tariq. La question du partage de l'eau entre amont et aval dans le monde rural marocain médiéval (2005) - In: Ruralia 5p. 68-72

ISSN: 2090 – 0449 Online
ISI International Scientific Indexing, [8140].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

Hungary and the Arab-Israeli War of 1967



Prof. Dr. László J. Nagy
Modern and Contemporary History
Szeged University
Szeged, Hungary



Dr. Abdallah Abdel-Ati Al-Naggar
Modern and Contemporary History
Eötvös Loránd University (ELTE)
Budapest, Hungary

ABSTRACT

During the outbreak of the six-day „blitzkrieg" on 5 June 1967, the Arab world was severely defeated. The defeat also signified the failure of the allies of Egypt and Syria: the Soviet Union and the socialist countries as well. Hungarian political leaders continued to offer their support to the Arab nations affected by the Israeli aggression, however, they also criticised certain Arab politicians (Syrians and the leader of the Palestine Liberation Organization – PLO) for their extremist, reckless and often demagogic statements. International public opinion was mixed. Some elements were sceptical about support for the Arabs as they were badly defeated in a short time in contrast to the heroic fight for Vietnamese independence in the early 1950s. The authors of the present article searched Hungarian archive records (reports of the embassies in Damascus, Moscow and Cairo), the documents of the Hungarian Socialist Workers' Party and the Hungarian-Egyptian daily press including Népszabadság,[1] Népszava,[2] al-Ahram,[3] Rose al-Yusuf,[4] al-Messa,[5] and The Egyptian Gazette.[6]

Keywords:

Blitzkrieg; Egypt; Arab people; Gamal Abdel Nasser; Hungary; Israeli

Research info:

Received: 31 May 2019
Accepted: 10 September 2019
DOI: 10.12816/0057058

Citation:

László J. Nagy, Abdallah Abdel-Ati Al-Naggar, "Hungary and the Arab-Israeli War of 1967".- Historical kan Periodical. - Vol. (12) Issue (46); December 2019. Pp. 223 – 233.

Hungary and the Causes of the Blitzkrieg

The history of events of the "Six-Day War" ("The Third Arab-Israeli War") is widely known. However, opinions about the causes of the outbreak differ. A common position among historians is that the war broke out "accidentally" as a result of the interplay of several misinterpretations of actions. The growing tension of the "Arab Cold War", the hesitation of the great powers, the extremist views of the leader of the Palestine Liberation Organization (PLO), the lack of realistic and balanced analysis of the situation, and trends of expansive politics in Israeli government circles were also contributing factors. It is also believed that Soviet political leadership encouraged Egypt to trigger the war. According to Primakov,[7] the Middle East correspondent of the Soviet party newspaper *Pravda,* who was also well-connected to Gamal Abdel Nasser,[8] it could not have been more than the Egyptian leaders' misinterpretation of the unfortunate statements of Marshal Grechko, Commander-in-Chief of the Warsaw Pact Forces, who was visiting Cairo. Having inspected the Egyptian army, Grechko stated, "it can successfully solve various problems at the battleground."[9]

In the second half of the 1960s, the main source of international tension was the war of the USA in Vietnam that radicalised the anti-USA forces in the world and those, as well, who believed in the quick solution of social issues even at the cost of using violence. This perspective was even propagated by Maoist China, mainly in the Third World, during the revolutionary fever of the Great Proletarian Cultural Revolution, through the attack of the Soviet "revisionism". The example of Vietnam successfully standing against the super modern military technology of the USA made the impression that a

“people’s war” mobilising the whole population – as Che Guevara stated – would result in (or rather provoke) more success like Vietnam, and could defeat the leading power of the capitalist world.

The Arab world had his own Vietnam: North Yemen, where 50,000 Egyptian soldiers reinforced the republicans in their fight against the royalists backed by Saudi support, as it were, without a decisive outcome. The tension in the Eastern Mediterranean region was further increased by the Greek-Turkish conflict in Cyprus, which led to the “Regime of the Colonels” with some help from the CIA, in April 1967, in Greece.

The Arab world presented a complex, unsettling picture and was characterised by unprecedented divisions. Following the international cold war trend, they split into “progressives” and “reactionaries”. The former aimed to rally around Nasser and Egypt while the others followed the leadership of Saudi-Arabia. This division was favourable for those who hoped to find a solution to the serious problem of Palestine and, in their line of politics, wanted to lean on the socialist countries who were significantly committed in the region in every aspect.

The Hungarian government viewed the tension in the region with alarm over the extremist and provocative conduct of the Syrian government. However, it didn’t pay particular attention to the Palestinian problem, yet, but was aware of its significance at least from the time of a document issued in 1966 by the Foreign Ministry classifying it as “a key question in the Arab-Israeli relation”.[10]

The Damascus leadership coming into power in February 1966 gave reason for serious concerns in the already tense region. This neo-Ba’athist military group was very impatient both in internal and foreign affairs. Referring to the example of the Algerian War of Independence (1954-1962) and the fighting in Vietnam, they proclaimed a “people’s war” not only against Israel, but also against Jordan and Saudi Arabia, which they labelled as reactionist. They considered overturning their social structure as a first step towards liberating Palestine. In November 1966, Prime Minister Yusuf Zuayyin[11] suggested to Nasser at a conference with the Egyptian leaders that they had to make the armistice with Israel unstable in every aspect. In other words, they needed to provoke Tel-Aviv. In case a war broke out and the Israeli army reached Damascus or Cairo, they would do so against well-armed people. Nasser was shocked to hear the Syrian leader: "What you suggest is the best way to our defeat. You must understand that we wouldn’t only face Jordan or Saudi Arabia in this case, but the USA as well, who is only interested in two things in the Arab world: primarily in Israel, then oil.”[12] Nasser proposed a defence pact that they signed later. However, the Syrian leaders were looking for an excuse for a conflict with Israel in spite of Nasser’s warning and exhortation to restraint.

The situation intensified in May when the tension was so high that the international community started to worry. On 13 May, Moscow sent a report to Cairo including information on the Israeli’s intention to rally several divisions near the Syrian border. The fact that Israel held a military parade in Jerusalem on the national holiday, 15 May, also seemed to confirm the signs of activity of preparing for war. Meanwhile, Tel Aviv was concerned with Egypt’s request to draw back the UN forces from the armistice demarcation line, so, in the event a possible attack against Syria occurred, they would be in close combat position against the Israeli army. Two Egyptian aircraft flying above Dimona's nuclear reactor on 17 May, and the Israeli’s inability to intercept them, however, caused rising alarm in governmental circles. But Nasser didn’t intend to start a war, he was only ready to take defensive steps and exert pressure. He categorically rejected the plan of Marshall Abdel Hakim Amer,[13] his vice-president, for an offensive war.

Nasser’s steps were interpreted in Israel as a preparation for unleashing a war, and were highly exaggerated and overstressed in their propaganda even though they were aware that the leader of Egypt didn’t want to get into war. This was later admitted by Israeli politicians. In an interview with Eric Rouleau, the French *Le Monde* correspondent, which attracted wide attention both at home and abroad, Yitzhak Rabin, the actual Chief of the General Staff, said, “I do not think Nasser wanted war. The two divisions which he sent to the Sinai, on May 14, would not have been sufficient to start an offensive against Israel. He knew it and we knew it.” Moreover, the far-right Menachem Begin, a true believer of preventive war, admitted without further ado in 1982: "The Egyptian army concentrations in the Sinai did not prove that Nasser was really about to attack us. We must be honest with ourselves. We decided to attack him."[14]

At the same time, the Israelis, as well, nearly provoked the neighbouring countries, particularly Syria, using the tried and tested tactic of “fait accompli”. The main point of this tactic is that the basis is always given by the current situation, and the reason behind the situation is never important. Commander Moshe Dayan[15] confidentially shared in 1976: "I know how at least 80 percent of the clashes there started. It went this way: We would send a tractor to plow earth in some plot you couldn’t do anything with, in a demilitarized zone, knowing in advance the Syrians would start shooting. If they

didn't shoot, we would tell the tractor to go farther, until finally the Syrians lose their temper and shoot. And then we'd fire back, and later send in the Air Force."[16]

The reckless, potentially misinterpreting and distorting statements and utterances of the Arab media (mainly the Sawt al-Arab '*Voice of the Arabs*' radio station)[17] and certain Syrian and Palestine politicians (particularly Ahmed Asaad al-Shukeiri,[18] leader of the PLO) to crush Israel evoked the nightmare of a new Holocaust for the Israelis. Tel Aviv ably took advantage of it, and could get much of the public opinion of the world (mostly of Western Europe) accept that the existence of the Jewish state was at stake. This was never Nasser's purpose. He considered the situation before 1956 as a basis, however, his propaganda unintentionally referred to the situation before 1948. This extremely negative propaganda seriously strengthened the supporters of war in Israel. On the other hand, politicians (David Ben-Gurion,[19] too) were only willing to risk an armed conflict with the support of the USA which they didn't unequivocally get from Washington. President Johnson recognised the blockade of the Gulf of Aqaba as a potential casus belli[20] – violation of the right to free shipping – and at the same time tried to dissuade Israel from starting a war. The Israelis – who understood their military advantage just like the USA or de Gaulle did – concentrated on only the first part of this ambiguous point of view.

Nasser, however, concentrated on the second part of President Johnson's opinion which was stressed by the official statements of Washington as well. Not even the British could clearly stand with a sable-ratting Israel. De Gaulle, too, specifically warned them not to go into war. The French president ordered the cessation of transportation of weapons to the region and pronounced that the first attacker would be marked as the aggressor. Moscow evidently supported Egypt and Syria. All these were more than enough for the leader of Egypt. However, as Nasser believed that the situation in 1956 was happening again, he was mistaken about thinking "Israel is a puppet state of the USA".[21] It should be noted that Moscow shared his opinion as it was expressed in the statement of the Soviet government on 24 May "There are imperialist circles standing behind Israel."[22] But the Israel of 1967 and that of 11 years prior were not the same anymore. According to Tom Segev, a well-known Israeli writer and historian, the Six Day War was the triumph of the Sabras (those who were born in Israel) over the "old" Jews, the survivors of the Holocaust, and it signified the end of social democratic Zionism as well as the coming of a new national religious era.[23]

The Israeli airstrike in the morning of 5 June, 1967 – between 7 and 8 a.m. – was disastrous, 304 out of 419 aircraft were destroyed. Up to 12 noon it totalled 450 of which 304 were not even in the air. General Weizman,[24] IDF's Deputy Chief of Staff, called his wife at 10 a.m. and said "We won."[25] The catastrophic defeat in such a short time surprised everyone including the participants. Soon after the war ended, Aziz Mohamed,[26] the first general secretary of the Iraqi Communist Party noted at a conference with Árpád Pullai, the secretary of the Central Committee of the Hungarian Socialist Workers' Party, "The situation in the Middle East surprised them. They knew that the Arab countries had some serious weaknesses, but didn't expect a defeat of such magnitude and in such short period of time."[27]

The War of 1967 in the Hungarian Press

The role of the printed media has progressively emerged in the past century since most of the people get information on the affairs at local and broader level from the press. Some of the newspapers deal with military, economic, political and public life issues, or cultural and other specific questions.[28] Here we focus on the picture of the War of 1967 in the Hungarian press: how Hungarian journalists and editors saw and reflected on the defeat.

From May, newspapers in Hungary devoted much attention to the Middle East, the Syrian-Egyptian defence arrangements, the retreat of the UN forces, the decision of 18 May, 1967 on closing the Gulf of Aqaba to Israeli ships on the Red Sea, which came to effect on 23 May, etc. They quoted the pugnacious statements of the Syrian president, Atassi, e.g., "At Israel's first offensive approach, we will unleash our revolutionary war."[29]

The Hungarian closely followed the news about the War of 1967 closely adding military and political analyses. The readers had the first news of the war in the 6 June, 1967 issue of *Népszava,* that had reports on the outbreak of the armed conflict in the Middle East, on the UNSC holding an emergency special session and on people demanding the termination of aggression all over the world.[30] The next day, the same paper along with many other Hungarian newspapers published the Hungarian statement about the sites of combat in the Middle East. This issue also gave news on the UNSC's meeting, including the call for an immediate cease-fire and the request of the Soviet Union and India to withdraw forces, as well as the diplomatic recess of UAR, Algeria and Syria with Washington, and also the closing of the Suez Canal for ships. The paper also

reported that Kosygin, the First deputy Premier of the Soviet Union, received Mohammed Ghaleb, the ambassador of UAR to Moscow in the Kremlin on that Tuesday.[31]

On 8 June, 1967, the *Népszava* reported that, concerning the Middle East conflict, the UNSC called for an immediate cease-fire, the fights continued on the Arab-Israeli fronts on Wednesday, the Soviet Union sent a message to the Israeli government and the Soviets delivered a proposal for a resolution to the UNSC.[32] On 10 June, 1967, the paper reported on the Israeli attacks for which Syria requested an emergency special session of the UNSC, also reported on Nasser's resignation announcement.[33] On 11 June, the correspondent of *Népszava* noted that Nasser revoked his resignation and there were demonstrations in Moscow and Romania against the offensive imperialists. The headquarter of the World Federation of Democratic Youth in Budapest and the Hungarian Solidarity Committee also communicated their perspective on the armed conflict in which they demanded that the Israelis observe the rules of the cease-fire agreement and draw back their forces to the cease-fire demarcation line behind the demilitarised zone.[34] On 13 June, the Soviet Union demanded the end of Israeli aggression and the evacuation of the occupied territories. The same day, Hungary, Bulgaria and Poland cut off diplomatic relations with Israel.[35] On 20 June, *Népszava* reported on Kosygin's speech delivered at the emergency special session of UNSC about the Middle East conflict and establishing a long-term peace, together with Nasser's position as prime minister.[36] On 21 June, 1967, 14 heads of state and 38 ministers of foreign affairs held a discussion at the emergency UN General Assembly in support of the talks about the Arab-Israeli war. Nikolai Podgorny also visited Cairo for the meeting of the delegations of the socialist countries as a representative of the Soviet UN.[37] István Rudnyánszky, the correspondent of the MTI[38] in Cairo reported that Podgorny, head of the Soviet state, arrived in Cairo where he discussed the establishment of closer relations between the Soviet Union and Egypt, the equipment of the UAR army, the supplement of materiel lost during the Israeli attack and the termination of the aggression.[39] In the issue of 23 June, *Népszava* reported in detail on the Arab refugee question as a result of the conflict, on Tito's speech and offered reflections on de Gaulle's statement about the crisis.[40]

On 14 July, 1967 *Népszabadság* reported news about the arrival of the Syrian president Atassi to Cairo on Thursday morning in the company of Prime Minister Zuayyin and their starting of negotiations with Nasser and Aref and Bumedien, the presidents of Iraq and Algeria, who were already in Cairo. Mahgoub,[41] the Prime Minister of Sudan, also joined them at the summit. The paper also analysed the settling of the Arab refugee question.[42]

In the period between 21 and 31 October, 1967, *Népszabadság* regularly wrote about the Arab-Israeli conflict and the Israeli attacks and insults. Based on the news, the Israeli authorities' measures in the occupied territories implied a long-term presence. The imperialists and their Israeli agents hoped that after the military defeat, in a difficult internal situation, the reactionaries within Egypt and Syria would become active, and they would blame the progressives and turn the public's opinion against them. It also reported on the Arab League summit in Khartoum and the previous preparation conference of the ministers of foreign affairs. The Arab ministers of foreign affairs, after a long discussion, still couldn't agree on the oil boycott of the countries supporting Israel, and on the withdrawal of Arab funds from English, American and West German banks.[43]

It is quite interesting for me that some politicians among the Israelis supported the Arab cause against their own country. *Népszabadság* interviewed two leaders of the Israeli Communist Party: Comrade Dr. Ethel Klinger, who was a member of the central committee and was part of the communist movement for 34 years, and Comrade Ali Ashur, the editor of the party's Arabic newspaper, *Al-Itihad*, and the member of the party committee in Haifa. They took questions relating to the crisis in the Middle East. They related, "Our Party believes that Israel should follow a policy that makes it possible to peacefully settle their relations with the Arab states. This is the only solution that may lead to the recognition of Israel by the Arab states. Our slogan is: 'We are not with the imperialists against the Arabs, but with the Arab people against the imperialists!'"[44]

On 12 November, 1967, *Népszabadság* mentioned that Brezhnev would visit Cairo in the beginning of 1968 for discussing bilateral relations and the conflict. The Soviet assignee showed interest in supporting the UAR, "We will give you all the support needed to fight this war, now and in the future." The newspaper was also informed that the Soviets gave a proposal to the UNSC to raise the number of UN observers in the zone of the Suez Canal.[45] During his visit to Moscow, Ali Sabri, the Vice-President of Egypt, officially invited Brezhnev, on behalf of Nasser, who accepted the invitation. Considering the special interest of the Egyptian popular opinion about the importance of the Soviet solidarity, the Vice-President of Egypt, after his return, reported in the cabinet council about the meetings in Moscow.[46]

Summarizing the side of the press, the Hungarian daily and weekly newspapers reported on the Arab-Israeli War, the combat and engagements, the negotiations, the sessions of the UN, the emergency special sessions of the UNSC, as well as on the meetings, conferences and statements of the Arab leaders on a day-to-day basis. Each newspaper published many news, primarily on the front page, which reflected interest and support for the Arab people. Hungarians, in most cases, regarded the Israeli attack as aggression, and called the international supporters of Israel imperialists.

Hungary, the supporter of the Arab people

Near the end of May, President Pál Losonczi[47] assured Nasser, in a message, of his full support for Egypt. On the second day of the outbreak of the war, the government gave an official statement in which they condemned the extremist circles controlling Israeli politics,[48] and of course, the imperialist powers behind them, primarily the United States of America, who "seized every opportunity for stabilizing their international independence and stabbing the Arab states in the back, who were fighting for social progress". He called upon the UN to take measures for stopping those military actions and ordering the troops to retreat to their position prior to the war.[49]

In their statement, the Soviet government labelled the "senseless and political adventurer Israeli government"[50] as an aggressor. However, they quite positively evaluated Nasser's speech on 9 June and the withdrawal of his resignation. They considered him as a wise real-politician.

On 9 June in Moscow, the leaders of the socialist countries – with the exception of Romania and the presence of Yugoslavia – held a conference. They expressed their solidarity with the Arab states and decided upon their level of support. "We gave something like 8 million rubles emergency aid in food and medication. We offered 4 million rubles in military aid to Syria, in addition, the transportation of ca. 15-million-pounds industrial and agricultural equipment to Egypt on trust. We could contribute by so doing in the current situation." – as written in the record of the meeting of Leonid Brezhnev and János Kádár[51] on 8 September, 1967.[52] On 22 June, Hungary cut off the diplomatic relations with Israel. Other socialist countries did the same, except Romania, whose leader, Ceausescu made the Arab states responsible for the outbreak of the war and didn't condemn Israel. The fact that the Central Committee of the Hungarian Socialist Workers' Party convened a meeting to discuss the Middle East question reflects its importance. In the Central Committee, they always discussed or listened to reports on the current international situation. However, putting a specific question on the agenda only happened in the case of the Vietnam War. In the decision adopted in the meeting on 23 June, they stated "The Central Committee condemns Israel's aggression, the plans to annex the territories of the neighbouring Arab states, the abuse of the Israeli military authorities and the expulsion of the unprotected Arab population from the occupied territories ...By expressing our nation's friendly feeling and will, the Central Committee assures the Arab people, who suffer the aggression, of our total solidarity."[53] The Hungarian party and government classified the war as a coordinated imperialist attack with the purpose to "disrupt the national liberation movements, rob the national freedom of the progressive autonomous people, prevent them from making decisions over their fate, and attempt to maintain or restore their colonial dependence in a new form." – as it read in the decision. The expression of solidarity signified the protection of the achievements and success in Egypt's national independence and social progress.

They intended to fight for the purpose within the UN's frame, at a political level and not with weapons. However, they knew that there was no good chance for a just settlement of the issue owning to the opposition of the USA. The UNSC's Nr. 242 decision of 22 November reflects their opinion: it called upon the Israeli armed forces to retreat from the occupied territories, recognised the right of all states of the region, including Israel, for sovereignty and integrity. However, the problem of Palestine, which became widely known around the world at that time, was *not handled as a national, but only a refugee question*, and a need for a just settlement was emphasised.

On the front page of its 25 June, 1967 issue, the *al-Ahrám* reported that the Hungarian People's Republic condemned the conspiracy, namely the Israeli aggression against the UAR, and demanded the withdrawal of the invading military forces, and also expressed full support to the UAR.[54]

The *al-Messa* daily newspaper published on 17 July, 1967, that the Hungarian People's Republic provided 5 tons of medical aids for the UAR, and expressed solidarity and support concerning their currently difficult situation.[55]

On 21 July, 1967, Elek Tóth, Hungarian ambassador and Head of IX Regional Department, invited the ambassador of Egypt to Budapest, Fouad, who accepted the invitation and came. The Hungarian diplomat in charge informed the ambassador of the UAR about the situation in the Hungarian government with respect to the future aid

to be provided to the UAR. In connection with the military part of the offered aid, the ambassador of the UAR highlighted that the Arabs were primarily more in the need of military experience, in particular, how to use the weapons, than of military equipment.[56]

On 15, 16 and 17 August, 1967 *The Egyptian Gazette* published a report that a high-level Hungarian delegation would visit Egypt to discuss and develop the Egyptian-Hungarian relations, as well as to assess the needs of Egypt after the events of war.[57]

Gyula Kállai, the former Speaker of the Hungarian Parliament, told the Egyptian magazine, *Rose al-Yusuf*, in an interview that he believed “the Middle East crisis is part of the fights against colonisation. We and all the other socialist countries are one part of the fight. Those countries and people who are fighting against colonisation should bend every effort. Our past history is all about a history of struggle. [...] We can only confront our enemy with a true fight. [...] The Arabs and their fight enjoy the full support of our government and people. [...] We stand with you on all fronts against the aggression. This makes us and you a common front. It is quite clear from every aspect – official or popular. [...] It is also obvious what Israel committed with the aggression. After all, they threatened the whole world with a war."[58]

Internal politics in Egypt after the War of 1967 from the point of view of Hungary

The ambassador of Hungary to Cairo[59] understood the new internal and international situation for the UAR after the Israeli aggression. As for the internal situation, the social-internal affairs were partly clarified, on the other hand, the inconsistencies prior to the War of 1967 were incredibly increased and the process of an inside social transition accelerated. Nasser made more and more strict arrangements to eliminate any deterrent forces. Nasser aimed at a radical reorganisation of the military leadership. An important act of this process was the arrest of Amer’s group. As for the formation of the UAR-Hungarian relations, the aggression on the UAR caused temporary problems. High-level visits were suspended with Nasser, Sedky Suleiman,[60] Anwar el-Sadat,[61] Mahmoud Riad[62] competent ministers, and Zayed, the Governor of Cairo.[63] However, the Hungarian invitations were renewed on paper.[64]

Nasser didn’t have a firm, well worked-out political conception for *what to do next*. He hadn’t given a statement since his resignation speech on 9 June, for which he was widely criticised, especially by the leftists. The reason behind his silence was that he didn’t have anything to say. The government set up on 19 June was qualified as a government of national unity and the press also applied this label. "As I see it, this cannot be truly said since many political wings are not represented in this government. It is better to say that the government in Egypt is a Nasserist government of unity in which different wings of Nasser’s supporters are represented. However, the leftists, the Muslim Brotherhood, and the Wafdists, the party of the old bourgeoisie, still had existing powers and it wouldn’t be wise to completely undermine their influence, together with the West-supporter wing of free officers lead by Bogdadi[65] and Hussein,[66] the former president."[67]

Ambassador Pál Rácz emphasised in his report of 28 July, 1967 that Egypt wouldn’t initiate the renewal of armed conflicts in the near future, and that it wasn’t impossible in diplomatic circles that Israel would take such action and try to prevent the Soviet re-arming of the Egyptian military.[68]

The exposure of the Amer-officers’ (chief officers as well) conspiracy proved how powerful forces stood against the Nasser-leadership and the prevailing system. Referring to the incidents, "Nasser’s statement that the situation is improving inside the military and the number of discontents is decreasing is interesting [...] Based on my opinion and information from different sources, this conclusion can only be partially accepted since the incidents revealed that the situation within the military is not nearly as clear as the President declared. [...] As the time passed proved, Nasser has the best relation to Major General Fawzy among the leaders of the military; he gives him larger power and relies on his work. Nasser trusted him with breaking down the officers’ party, which he successfully accomplished, then with questioning Marshal Amer, etc. [...] Zakaria Mohieddin,[69] Hussein el-Shafei, Anwar el-Sadat assured Nasser of their support, and asked him to be consistent in dealing with the officers’ party. President Nasser and el-Sadat, as two of the members from the old officers’ party, personally talked to Amer about his wrongdoing."[70] The Hungarian ambassador to Moscow further explored the question and wrote in his highly confidential report of 23 October, 1967 that "Personally, Amer’s suicide clearly had an unpleasant impression on Nasser. Nevertheless, it seems that the former vice-president’s action stabilised Nasser and his system, in this regard; with his death, the opposition that still exists in the military lost a leader who could have lead them in military personnel." As the ambassador of Hungary

to Moscow saw, "Nasser still doesn't feel his position is absolutely stable, in some sense, he doesn't have the total freedom to act."[71]

However, six months after the aggression, the opinion of the ambassador of Hungary to Cairo changed almost completely "...the system successfully survived the political and economic crisis, and currently none of the internal oppositional social players are in a position to directly threaten its existence. Fundamentally, the efforts and actions made for stabilization proved to be effective... "For achieving stability, they needed to 1) reorganize and renew the military including the guarantee of efficiency, eliminate the military bourgeoisie (Amer's and Salah Nasr's[72] officer parties), consciously reduce the number of Soviet advisors and hinder their tasks 2) mobilise people including organising and leading people's resistance, civil protection trainings, securing the agitation on production, and organising general political lecture series.[73]

The causes of defeat from the Hungarian perspective

Looking at the causes of defeat while forming their opinion, the Hungarian leaders relied on the analyses of the Ministry of Foreign Affairs and the reports of the ambassadors of the region, especially the very thorough and informative ones from Damascus. There were many reasons for the Arab states' defeat. Primarily, there were socio-political reasons as well as subsequent organisational and morale problems, and not the difference in the number of personnel or in the quality standards of weapons among the opponent armies.

Above all, there was no unity among the Arab states as to whether they really wanted the war. At the same time certain politicians', especially the ones from Syrians Ba'ath Party, already promoted unrealistic slogans stirring up sentiments of the masses, triggering the disapproval of the international public opinion, which multiplied the strength of Israel. The Syrian communists, who had representatives in the state government at a ministerial level, warned the government, in vain, about the negative line of their politics compromising the existence of Israel as a state "the Ba'athists – as Khaled Bagdash,[74] the general secretary of the communist party, told in his evaluation speech at the Hungarian embassy on 3 July – delivered the watchword to destroy Israel, and yet, they couldn't even protect themselves."[75]

An analysis from the embassy of Damascus, dated 21 June, also warns about the harmful and subversive role of the Ba'ath Party's leaders "unreal, very often demagogic, exaggerated, leftist leading representatives conducting a policy that resulted in a more tense situation and war in the Middle East."[76] He refers to the statement of the Minister of Defence (later President), Hafez al-Assad, on 20 May as an example in which he urged the "fateful battle".

The Arab states were not prepared for the war. Although they voiced their unity, they pulled apart (e.g. extremely stark opposition between Syria and Jordan). They were far behind Israel from military aspects. According to the Soviet military attaché, though, the military power of the Arab states was potentially larger than Israel's, "they lack organisation, professional leadership and adequate training."[77]

Within the intransigent and leftist leadership – even affected by the Chinese ultra-revolutionary slogans –, the feeling of despair brought up taking terrifyingly careless steps. We can read the following in the already quoted analysis from 21 June, "The Arab states would have expected from the Soviet Union and other socialist countries to actively intervene in the war and assist in unleashing a third world war."[78] Moscow, of course, refused the request for military intervention, however, alerted certain units of the Warsaw Pact. On 12 June, the Algerian president, Bumedien travelled to Moscow after meeting with Nasser, and "he practically demanded a direct Soviet military intervention, though, he didn't consider that it could unleash a world war."[79]

Hungarian public opinion had reason to think that, beside the solidarity towards the fighting in Vietnam, the newly emerging need to support the Arab states would impose more expenses on the people. Moreover, it would be unnecessary, because the Arabs kept losing while the Vietnamese bravely fought. For this reason – as a diplomat taking the floor at the ambassadors' meeting in August 1967 declared –, the view that "supporting the Arabs is a waste of money" became widely known.[80] The Egyptians themselves were also ashamed of the catastrophic defeat, which is proven by the fact that the ambassador of Egypt to Budapest apologised at the first meeting of consultation of foreign affairs for not able to show up at the Ministry of Foreign Affairs: "he is very ashamed for the military defeat and the situation, anyway [...] he is leaving for Lake Balaton with his family for 10-11 days ".[81]

And indeed, the Hungarian public opinion, including the members of the Hungarian Socialist Workers' Party, was divided; they couldn't unambiguously – or at all – identify themselves with the politics of the government. János Kádár already discussed this topic at the meeting of the Central Committee, and imposed sanctions against those who oppose the party's official opinion. He also explained that "the Arab statements against Israel

were not completely correct, and we need to clearly express in our propaganda: the socialist countries never supported the Arab propaganda campaign that Israel has to be ruined." At the same time, he also declared without equivocation that "the present situation means failure and defeat for the Arabs, the anti-imperialist and the progressive Arab systems – and directly for us, too."[82] In his confidential report, in which he presented the public sentiment concerning the Arab-Israeli conflict, he wrote the following "the Hungarian Jewish communists consider that justice is on Israel's side against the Arabs. …the Arabs are anti-Semitic and anti-communists. Nasser is like Hitler. The Soviet Union lost great respect."[83]

In acknowledging the situation, János Kádár decided that the members of the party should be informed about the real situation. The occasions for presenting such information were provided by the so-called "free party events", when the party organisation of each institution, factory, settlement, etc. held an extended general meeting (i.e. non-party members were also welcomed), where the news that were not to be published openly in the press could circulate (also many from the examples above).[84]

However, the publication of some opposing popular opinions contrasting with the official line of politics in the press couldn't be avoided. These opinions found their way to be really expressed, certainly, in a specific form proper to the character of the system: one had to "read between the lines".

The official media of the Hungarian Socialist Workers' Party, *Népszabadság*, published an article on 26 June with a title "*Az ENSZ-közgyűlés, a Közel-Kelet és mi*" ("*The UN General Assembly, the Near East and Us*"). The author of the article was anonymous; it was a so-called "inside editorial", that is to say, reflected the official point of view. It is worth including a few longer quotes. First, the article states that "different layers of the public opinion reacted in several ways to the complicated series of events, here, as well." They are not specifically pointed out, only presented in general. "Some thought: hard times will come again to a certain group of Jews who survived fascism, and they considered it historically unjust and emotionally painful." It is quite clear from the phrasing that this layer primarily refers to the Jews and their sympathisers. And what did Israel do and how did Israel act? They violated the border, unleashed a war and committed aggression. Then, "their leaders brashly stated after the successful aggression that they wouldn't return the stolen lands – well, do you think we should have supported this Israel? We couldn't even do so for our still active solidarity to all the people of different nations, races and colour persecuted by fascism." As it is revealed, the article – not openly but implicitly – turns the fascist accusations against the Arabs against the aggressive Israel when it judgementally refers to the anti-fascist solidarity. However, to prevent harsh associations, it immediately declares that Israel has been recognised, and the people and the government of Israel do not equate.

Without quoting any sides, the article condemns all extreme statements from both parties as being the manifestation of "nationalism easily devolving into chauvinism".

Finally, how should the conflict be resolved? After convicting both extreme sides – those for war and those for peace at all costs – the answer is: the elimination of the consequences of aggression is ultimately guaranteed by the enforcement of the policy of peaceful coexistence.

A few days after the publication of the article, on 29 July, János Kádár visited the Ganz-MÁVAG factory and, as usual, gave a speech in which he revisited the problem and tried to explain that "no help is in vain, we are obliged to help".[85]

Hungary, as all other socialist countries, strived to achieve a peaceful solution for the conflict and, in this, was the partner of President Nasser. The Hungarian opinion and point of view concerning the War of 1967 reflected the view of the socialist countries (except Romania).

conclusion

As a conclusion, the „blitzkrieg" on 5 June 1967, the Arab world was severely defeated, which also signified the failure of its allies: the Soviet Union and the socialist countries as well. The catastrophic defeat in such a short time surprised everyone including the participants themselves. Hungarian political leaders continued to offer their support to the Arab nations affected by the Israeli aggression, however, they also criticised certain Arab politicians for their extremist, and reckless statements. Nasser didn't intend to start a war, he was only ready to take defensive steps and exert pressure. There was no unity among the Arab states as to whether they really wanted the war, and they were not prepared for the war. From May 1967, newspapers in Hungary devoted much attention to the Middle East, and the Hungarian followed the news about the War of 1967 closely adding military and political analyses.

Notes:

This paper was supported by Tempus Public Foundation.

1 Hungary's most significant national political and public daily newspaper until October, 2016. The first issue in its first year was published on 2 November, 1956, as the successor of *Szabad Nép.*

2 Hungarian leftist political daily newspaper. Originally the medium of MSZDP, later of the labour unions from 1948 to 1989. It was privatised during the democratic transformation.

3 Al-Ahram, founded on 5 August 1875, is the most widely circulating Arabic daily newspaper. In addition to the main edition published in Egypt, the paper publishes two other Arabic-language editions, one geared to the Arab world and the other aimed at an international audience, as well as editions in English and French.

4 Rose al-Yusuf or Rose al-Yousef, is an Arabic weekly political magazine published in Egypt, and it was first published on 26 October 1925.

5 Al-Messa is an Arabic daily newspaper published in Egypt. It was founded in October 1956. It is issued from al-Tahrir Publishing House along with al-Gomhuria newspaper and some other publications.

6 An English-language Egyptian daily, part of al-Tahrir Publishing House. First published on 26 January 1880, it is the oldest English-language newspaper in the Middle East.

7 Yevgeny (Evgueni) Primakov born in 1929. He was the Middle East correspondent of the Soviet communist party newspaper, *Pravda,* for years. Scientist and academic, the leader of Russian surveillance, then the head of the foreign affairs department between 1996 and 1998, Prime Minister of Russia between 1998 and 1999. Died at the age of eighty-five in 2015 after suffering a long illness.

8 (1918–1970). One of the most well-known and most charismatic Arab politicians, 2nd president of Egypt. A prominent representative of the Arab nationalism in the 1950s and 1960s, and a chief organiser of the Non-Aligned Movement.

9 *Evgueni Primakov*: Au coeur du pouvoir. Mémoires politiques. Éditions du Syrtes, Paris. 2001. 231.

10 MNL OL XIX-J-1-j, Arab országok 1966. 116. d. 202–14. tétel. A Magyar Népköztársaság és az arab országok kapcsolatainak alakulása.

11 (1931–2016), Syrian politician and active member of the ruling Ba'ath Party, prime minister between 1966 and 1968.

12 Book of Hejkal: 1967 al-Infijâr (Cairo, 1990. pp 364–366.) Quotes: *Laurens, Henry*: Paix et guerre au Moyen-Orient. L'Orient et le monde de 1945 à nos jours. Aramand Colin, Paris. 1999. 2300–236.

13 Abdel Hakim Amer (1919–1967) was Minister of Defense from 1956 to 1967. He also served as Vice-President from 1958 to 1965. In 1967 he was deposed for allegedly plotting against Nasser, and he chose the option of killing himself with poison.

14 Quotes: *Eric Rouleau*: Dans les coulisses du Proche-Orient. Mémoires d'un journaliste diplomat (1952–2012). Fayard, Paris. 2012. 158–159.

15 (1915–1981) Israeli military leader and politician, the Commander-in-Chief of the Israel Defence Forces between 1953 and 1958, later Minister of Defence between 1967 and 1974, Minister of Foreign Affairs between 1977 and 1979

16 Quotes: Laurens*, Henry*: La question de Palestine. 3. k. 1947–1967. L'accomplissement des prophéties. Fayard, Paris 2007. 679.

17 One of the first and most prominent Egyptian transnational Arabic-language radio services. It is the main medium through which president Nasser spread his messages on Arab unity and revolutions. It had unmatched popularity in most of the 1950s and 1960s, but now commands no large audience.

18 (1908–1980) the first Chairman of the Palestine Liberation Organization, serving 1964–67. Al-Shukeiri was a member of the Syrian delegation to the United Nations from 1949 to 1951. He then became Assistant Secretary General for the Arab League from 1950 to 1956.

19 (1886–1973.) Israeli politician, prime minister, labour union activist.

20 A Latin expression meaning "an act or event that provokes or is used to justify war".

21 Feljegyzés Násszer és Pozsidajev szovjet nagykövet megbeszéléséről, 1967. május 22. In: A közel-keleti konfliktus dokumentumai 1957–1967. Az Orosz Föderáció Külpolitikai Archívumának dokumentumaiból. (Editor-in-chief.: *V.V. Namjkin*) Moscow, 2003. 562. (in Russian)

22 A szovjet kormány nyilatkozata, 1967. május 24. *Népszabadság*, 1967. május 25.

23 *Tom Segev*: Nous sommes toujours en 1967. *Courrier international*, June 2007 (Issue Nr. 865.)

24 Ezer Weizman (1924–2005) President of Israel 1993–2000. Before the presidency Weizman was commander of the Israeli Air Force and Minister of Defense.

25 Quotes: *Benny Morris*: Victimes. Histoire révisitée du conflit arabo-sioniste. Ed. Complexe, IHTP Paris. 2003. 319.

26 (1924–2017) the First General Secretary of the Iraqi communist party between 1964 and 1993. Sentenced to jail for 15 years, released after 10 years in prison due to the revolution in 1958.

27 MNL OL M–KS 288.f. 32/1975. Feljegyzés Pullai Árpád és Aziz Mohamed megbeszéléséről. 44. őrzési egység (ő.e.)

28 *Abdallah Abdel-Ati Abdel-Salam Mohamed*: Az Egyiptomi-magyar kapcsolatok a két világháború közötti időszakban. JatePress, Szeged. 2015. 107.

29 Quotes President Atassi: *Népszabadság*, 1967. May 23.

30 *Népszava*, Legújabb jelentések a közel-keleti fegyveres konfliktusról. 1967. June 6/131, front page.

31 *Népszava*, a Magyar Népköztársaság nyilatkozatát a közel-keleti konfliktusról. 1967. June 7/132, front page.
32 *Népszava*, Szovjet kezdeményezésre, azonnali tűzsszünetre hívott fel a BT. 1967. June 8/133, front page.
33 *Népszava*, A BT felhívása. 1967. June 10/135, front page.
34 *Népszava*, A közeli-keleti konfliktus hírei. 1967. June 11/136, 5.
35 *Népszava*, A BT sorozatos üléseken tárgyal a közel-keleti konfliktusról. 1967. June 13/137, front page.
36 *Népszava*, A Szovjet Unió megtesz azért, hogy hozzájáruljon a Közel-Kelet tartós békéjének biztosításához. 1967. June 20/143, front page.
37 *Népszava*, A rendkívüli ENSZ-közgyűlés keddi vitája. 1967. June 21/144, front page.
38 Magyar Távirati Iroda or Hungarian Telegraphic Office is the Hungarian news agency. One of the oldest news agencies in the world. It was founded in 1880.
39 *Népszava*, Podgornij megkezdte Kairói tárgyalásait. 1967. June 22/145, front page.
40 *Népszava*, A közel-keleti válság az ENSZ előtt. 1967. June 23/146, 5.
41 Mohamed Ahmed Mahgoub (1908–1976) famous Sudanese poet, writer, engineer, judge, lawyer, politician, minister of foreign affairs and head of government.
42 *Népszabadság*, Öt arab ország elnöke Kairóban. 1967. July 14/164, 5.
43 *Népszabadság*, 1967. October 21–31.
44 *Népszabadság*, Nem az imperialistákkal az arab népek ellen, hanem az arab népekkel az imperialisták ellen - Beszélgetés az Izraeli Kommunista Párt hazánkban járt képviselőivel. 1967. October 1/232, 2–3.
45 *Népszabadság*, Brezsnyev elvtárs jövő év elején az EAK-ba látogat. 1967. November 12/268, front page.
46 *Népszabadság*, Ali Szabri beszámolt moszkvai tanácskozásairól. 1967. Nov., 14/269, front page.
47 (1919–2005) was a Hungarian Communist political figure, and head of state from 1967 to 1987.
48 *Népszabadság*, 1967. May 23.
49 *Népszava*, a Magyar Népköztársaság nyilatkozata a közel-keleti konfliktusról. 1967. June 7/132, front page.
50 Ibid.
51 (1912–1989) was a Hungarian communist leader and the General Secretary of the Hungarian Socialist Workers' Party, presiding over the country from 1956 until his retirement in 1988.
52 Jegyzőkönyv Leonyid Brezsnyev és Kádár János tárgyalásáról, Budapest, 1967. szeptember 8. In: Kádár János külpolitikája és nemzetközi tárgyalásai. 1956–1988. 2. k. Válogatott dokumentumok (Ed.: *Földes György*) Napvilág Kiadó, Budapest. 2015. 264. János Kádár also noted, concerning the requests, that the Arabs didn't know exactly what to ask for. The supplement of weapons was provided by the Soviet Union and Czechoslovakia.
53 Az MSZMP Központi Bizottságának határozata a közel-keleti válság kérdésében. In Az MSZMP határozatai és dokumentumai 1967–1970. Kossuth Könyvkiadó, Budapest. 89–90.
54 *Al-Ahram*, The Hungarian People's Republic condemns the plot, 1967. June 25/-, front page.
55 *Al-Messa*, Five tons of medical aid by Hungary, 1967. July 17/-, front page.
56 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00644/14. Tóth Elek osztályvezető: Fouad, EAK nagykövet látogatása, Bp., 1967. July 22.
57 *The Egyptian Gazette*, Hungarian economic delegation to Cairo, 1967. August 15–17/-, 3.
58 *Rose al*-Yusuf, Az 1967-es vereség képe egy baráti ország szemszögéből. 1968. February 19/2071, 8–9.
59 Pál Rácz (Bors, January 4, 1928 – Budapest, March 22, 1986) Diplomat, foreign office personnel, deputy minister, ambassador of the Hungarian People's Republic to Cairo between 1963–68, head of the UN delegation to New York between 1980 and 1986.
60 Sedky Suleiman (1919–1996) military engineer, minister supervising the Aswan High Dam and Prime Minister of Egypt in 1966.
61 (1918–1981), Egyptian army officer and politician who was president of Egypt from 1970 until his assassination in 1981. He shared the 1978 Nobel Prize for Peace with Israeli Prime Minister Menachem Begin.
62 (1917–1992), Egyptian diplomat and free officer. Ambassador to Syria (1955–58), special adviser to President Nasser (1958–62), and permanent ambassador to the United Nations (1962–64). As Egyptian Foreign Minister (1964–72) and deputy premier (1971–72), and as secretary-general of the Arab League (1972–79).
63 Saad Zayed, Egyptian politician, military officer, Governor of Cairo and minister of public work in Egypt.
64 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 003794. IX. Területi Osztály (Dr. Simonyi Ernő – Pereszlényi Zoltán): Feljegyzés: Tárgy: Rácz Pál kairói nagykövet beszámolója, Bp., 1967. szeptember 15.
65 Abdel-Latif Mahmoud al-Bogdadi, free officer, Minister for Rural Affairs and Planning, Nasser's close friend. Representative of the Egyptian party in the Egyptian-British discussion in July 1954.
66 Hussein Mahmoud Hassan el-Shafei, (1918–2005), was a free officer and a member of Egypt's 1952 revolutionary leadership council and served as Vice-president under two Egyptian presidents, Nasser and el-Sadat.
67 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00904/7. Rácz Pál: A belső helyzet alakulása, Kairó, 1967. július 19.

68 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00904/8. Rácz Pál: Az elmúlt hét bel-, és külpolitikai fejleményei, Kairó, 1967. július 28.

69 Zakaria Abdel-Megid Mohieddin (1918–2012) Egyptian politician, minister of interior, free officer, head surveillance, vice-president, president for two day (presidential resignation after the military defeat in 1967).

70 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00904/9. Bencekovics Lajos, ideiglenes ügyvívő, Tárgy: A tiszti csoport leleplezése, Kairó, 1967. szeptember 21.

71 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00904/11. Dr. Köver, moszkvai magyar nagykövet, Tárgy: Szovjet vélemény az EAK belső és nemzetközi helyzetéről, Moszkva, 1967. október 23.

72 (1920–1982) Egyptian military officer, and the head of the General Intelligence Service between 1957 and 1967.

73 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00904/14. Rácz Pál: Összefoglaló az EAK belpolitikai helyzetének alakulásáról, Kairó, 1967. december 20.

74 Khaled Bakdash or Bagdash or Bekdache (1912–1995). The First General Secretary of the Syrian-Lebanese communist party from 1936 until his death. Elected member of the Arab parliament in 1954. Also known as the „dean of the Arab communism". Founder of the *Sout Al-Shaab* "Voice of the People" daily paper in 1937.

75 MNL OL M-KS MSZMP Külügyi Osztály iratai, 288.f. 32/1967. Jelentés a szíriai és a libanoni kommunista párt vezetőivel folytatott beszélgetésről, Budapest, 1967. július 10. 4. őrzési egység (ő. e.)

76 Ibid. 9. ő. e.

77 Ibid. Katonai információk, 1967, szeptember 5.

78 MNL OL M-KS MSZMP Külügyi Osztály iratai 288. f. 32/1967. Az arab-izraeli háborúról, 9. ő.e.

79 MNL OL XIX-J-1-j, Arab országok 1968. 90. d. Megbeszélés a szovjet külügyminisztériumi delegációval a Maghreb relációról, Budapest, 1967. december 27. Nyilvántartási szám: 001253/1.

80 MNL OL M-KS MSZMP Külügyi Osztály iratai, 288. f. 32/1967. Követi konferencia, Budapest, 1967. augusztus 14–29. 22. ő.e.

81 MNL OL KÜM-TÜK-XIX-J-1-j 35.d. 1967 Egyiptom, nyilvántartási szám: 00644/14. Tóth Elek osztályvezető: Fouad, EAK nagykövet látogatása, Bp., 1967. július 22.

82 Quotes: *Kocsis András*: Magyar zsidó politika a háború végétől a kommunista rendszer bukásáig. *Múlt és Jövő*, 2003. 3. sz. 36.

83 Ibid 37.

84 The author also took part in a „free party event".

85 *Népszabadság*, 1967. július 30.

ملخص الدراسة:

عانى العرب من هزيمة ثقيلة في حرب الستة أيام التي اندلعت في ٥ يونيو ١٩٦٧. هذه الهزيمة تعني هزيمة حلفاء مصر وسوريا والاتحاد السوفيتي والدول الاشتراكية أيضًا. وعلى الرغم من أن القيادة المجرية قد عبرت عن استمرار دعمها للشعوب العربية التي نال منها العدوان الإسرائيلي، إلا أنها انتقدت التصريحات العنترية وغير المسئولة التي كان يطلقها بعض الساسة العرب (خاصة السوريون وقادة منظمة التحرير الفلسطينية). كان الرأي العام المجري حائرا حول مسألة هل يستحق العرب الدعم، على الرغم من الهزيمة الشديدة التي لحقت بهم بهذه السرعة. لقد حارب الفيتناميون بشكل بطولي مقارنة بالعرب. كاتبي هذا المقال اعتمدا على الوثائق الخاصة بوزارة الخارجية المجرية (التي من بينها تقارير سفاراتها بدمشق وموسكو والقاهرة) ومستندات حزب العمال الاشتراكي المجري "MSZMP"، بالإضافة إلى الصحافة المجرية اليومية في تلك الفترة وتحديدًا جريدة نيبصابدشاج "Népszabadság"، نيبصافا "Népszava"، والصحافة المصرية اليومية في تلك الفترة، وتحديدًا جريدة الأهرام، روز اليوسف، المساء، والإيجيبشيان جازيت.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org